سلسلة

التربية بالوَحيَيْن للمراحل العُمرية

الجزء الأول

مدخل عام للتربية بالوحيين

مع تفصيل لتربية الطفولة الأولى

من عمر النطفة إلى ثلاث سنوات

(جنين - وليد - رضيع - فطيم)



راجعه و قدَّم له:

د.شوقي عبد الصادق

أ.تسنيم راجح

إعداد:

أسماء محمد لبيب

بذرة Publishing House

سلسلة

التربية بالوَحيَيْن للمراحل العُمْرية

الجزء الأول

مدخل عام للتربية بالوحيين.

مع تفصيل لتربية الطفولة الأولى:

(من عمر النطفة إلى ثلاث سنوات)

(جنين - وليد - رضيع - فطيم)

أسماء محمد لبيب

أمة الله – عفا الله عنها

تواصل معنا

 سِدْرَة

 +201018129316

 sedra_publishing

 www.sedrapublishing.com



بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع : 19479 الترقيم الدولي: 978-977-6850-06-4

شُكْرٌ وَاجِبٌ

❁ **الحمد لله والشكر لله** أولًا وأخيرًا ولا أحصي ثناءً ولا حمدًا عليه، على فيضِه الكريم وعونه وجبره وإقالته لعثراتي وتسديده لقلمي بما أنا لستُ أهلَه إنما هو من فضلِه وتوفيقِه، وحمدًا له لا ينقضي على شريعةِ الإسلام التي أنعم بها علينا وتفجرت منها كل تلك الكنوز في صفحات كتابي، فلولاها ما كان لقلمي قيمة ولا لبياني معنى ولا هدف، ثم الشكر لكل هؤلاء ممن أنعم الله بهم علينا، (فمن لم يشكرِ النَّاسَ لم يشكرِ اللهَ)[1].

❁ **والشكر** موصول لكل من بذل من وقته وصحته لقراءة هذا الملف كاملًا أو جزءًا منه، من أهل الاختصاص كافة - الدنيوي والشرعي - رافضين أي مقابل مادي عليه، ومقبلين على مراجعته بتفانٍ وإخلاص وأمانة في النصح أغبط نفسي عليهم، فجزاهم الله خيرًا عن كل حرف وكتب أجرهم معي مضاعفًا مباركًا فيه، وإن كان طلب العائد المادي لا يعيب أحدًا فهذا عملٌ ومهنة تستحق الأجر المالي مثل أي عمل، إنما لزم التنويه عن ذلك لأن هذا أيضًا حقهم.

❁ **والشكر** أيضًا لكل من قرأ هذا الملف أو جزءًا منه، من أهل مشورتي وثقتي، لا حرمتُ دعمهم ولا حُرِموا الأجر الجزيل عليه.

❁ **والشكر** لكل من حالت ظروفهم دون ذلك، فيكفيني دعاؤهم المستمر والذي جعله الله سببًا في خروج هذا الكتاب للنور كما أحب وأرجو، فجزاهم الله عني خيرًا تقر به أعينهم.

❁ **والشكر** لحبيباتي المتطوعات بفريق التربية بالوحيين إشرافًا وتصميمًا،

---

(١) صححه الألباني – صحيح الترمذي (١٩٥٤).

فلولاهم بعد فضل الله، لما بدأت هذه السلسلة بخطوات ثابتة ولما تفرغت بعدها لإخراجها في هذا التوقيت، وبعض ملفات الكتاب بالفعل هي نتاج معاونتهم لي في تفريغ بعض دروسي الصوتية وتفحيصها وتدقيقها، فجزاهن الله عني خير ما جزى به أخًا عن أخيه وكتب أسماءهن في سجلات المحسنين والأخفياء الأنقياء الأتقياء.

❁ **والشكر** لزوجي الكريم الذي قرأ هذا الملف كاملًا أكثر من مرة على مدار العام وأشرف عليه كإشرافه على الأبحاث والرسائل العلمية، حتى آخر حرف فيه، وتابع المراسلات بين الأطباء وأهل العلم والفتوى، فلا أجد ما يكافيء جهده إلا أن أفوض أمر شكره إلى الشكور الكريم سبحانه.

❁ **والشكر** لأبنائي فلذات كبدي، الذين تحملوا تقصيري في فترات الكتاب النهائية وتعاونوا معًا على تيسير كل ما أمكن من وقتي وصفاء ذهني لإتمامه، وكذلك زوجي مرة أخرى لتحمله كل ذلك إيمانًا واحتسابًا، جزاهم الله عني خير الجزاء وأعظمه سخاءً وكرمًا.

❁ **والشكر** لكل أم ساهمت معي في استبيانات الرأي الخاصة بتجاربهن في بعض مشكلات الأمومة.

❁ **والشكر** لأصحاب دار النشر الكرام «سِدرة»، متمثلة في المهندس الفاضل محمد هشام وزوجه الكريمة حفصة جمال، الذَين لم يتعاملا مع الكتاب على أنه مجرد عمل تجاري محض، إنما تحمسوا للكتاب حماسًا ضاعَفَ من عزيمتي وشعوري بالمسئولية ولمسنا فيهم - والله حسيبهم - حرصًا صادقًا على إخراجه للنور وبأفضل طريقة تناسب القراء، بجانب الدعم المستمر والقراءة للمسودات الأولى والمراجعة للنسخة النهائية والصبر لمدة عام كامل حتى خروجه بين أيديكم، بالإضافة إلى اقتراحهم عليّ منذ البداية أن أبدأ بتلك المرحلة العمرية بالذات لكثرة طلب الأمهات لها، وكنتُ قد بدأت فيها بالفعل قبل تواصلهم معي ببضعة أيام -

سبحان الله – لكثرة إلحاح الأمهات عليها بالفعل منذ سنوات.

وتأخرتُ كثيرًا بسبب كثرة الانشغالات، فلولا اقتراحهم هذا ورغبتهم – بعد فضل الله – ما سارَعتُ الخُطَى لإنهاء غرس البذرة الأولى لتلك السلسلة، فأسأل الله أن يقر أعينهم بالثمرة في الدارين كما كانوا سببًا رئيسًا في تيسير غرسها، وأن يبلغ عنهم في الآفاق ويبارك في أثرهم في العالمين.

❁ **والشكر** لجمهور المتابعين لصفحتي المتواضعة في مواقع التواصل، منذ ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤م، فبعد فضل الله، لولا تشجيعهم لي على هذا المسار وإفصاحهم عن استفادتهم منه وانتظارهم للمزيد وإلحاحهم عليّ في جمع المقالات في كتب، لما تخيلت يومًا أن يصدر لي كتاب منقوش فيه اسمي وأثري.

❁ **والشكر** لأمي.. الغائبة الحاضرة – رحمها الله – فكل ما أنا فيه من علم وفكر يبدو للناظرين أنه حسنٌ، إنما هو – بعد فضل الله – نتاج لتربيتها لي على حب الله ورسوله والاعتزاز والاعتصام بشريعة الإسلام لا سواها.

❁ **والشكر** لأبي – رحمه الله – الذي أنفق على تعليمي وتأديبي وحمايتي واحتياجاتي، فساهم في ثمرة تكويني بفضل الله.

فأسأل الله أن يرفع درجاتهما وأن يجعل كل حرف قد تعلمته وكتبته في ميزانهما وأن يبلغهما الأجر ويبشرهما بالثمرة إلى أن ألقاهما.

وكما بدأت بحمد الله أختم به فالفضل منه ابتداءً وانتهاءً.. بيده الخير كله.



إهداء

❁ لكل من عاش بهذه الآية ولها، من لَدُن أبينا آدم وأمِّنا حواء، إلى قيام الساعة: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين ﴾ [الأنعام:١٦٢]

❁ ولزوجي وأبنائي ووالِديّ وسائر أهلي وأحبتي.

❁ وكل من انتظر خروج هذا الكتاب على خير ودعا له ودعمه.

❁ وكل من يوقن أن النجاةَ والفلاحَ فقط في «**التربية بالوحيين**».

بالنسبة للأمور الطبية والعلمية

كنت قد جمعت كل المعلومات من مصادر غربية متنوعة على شبكة الإنترنت مترجمة للعربية، كذلك الوصايا الخاصة بعلم نفس النمو للطفولة والاضطرابات السلوكية، كانت هي أيضًا من مواقع طبية ناقلة عن المواقع الغربية والمتخصصة في الأمومة والطفولة، (ولم أنقلها للاعتماد عليها إنما للتدليل على وجود وصاياهم من قبل في ديننا). ولأن الغرب لا يؤتَمَنون على العلوم بشكل مطلق، وأيضا لأني لست من أهل الطب ولا أي من مشتقات العلوم الحيوية، ومعلومٌ أن مَن تكلم في غير فَنِّه أتى بالأعاجيب؛ لذا فقد تم عرض كل المعلومات التي جمعتها في الكتاب، على أهل الاختصاصات الطبية والعلمية المختلفة، لأتأكد أن ما بين أيديكم بإذن الله هو مما ثبتت صحته بالفعل لا من العلوم الزائفة، فقد تجدون كتبًا أو روابط علمية تتكلّم عن عقل الطّفل مثلًا، أو جيناته، أو أنماطه أو أثر اللوم والتوبيخ على خلاياه العصبية أو المواضع العلمية لتقبيل الأطفال...إلخ، وتظنون أن الكلام فيها حقائق علمية لا تقبل النقد أو ربما النقض من أساسها! في حين أن كثيرًا مما اعتمده الغرب في مثل تلك العلوم وتناقلتها أيدي الناس إما قد تراجعوا عنه أو تم كشف تحيُّزه أو زَيفَه أو ليس له أي أصل علمي من الأساس؛ فليس كل ما يُطلَق عليه اسم (بحث تجريبي، أو كتاب علمي، أو دراسة علمية.. إلخ) هو مما ينبغي التسليم به وله دون فحص دقيق على يد مختصين مسلمين واعين بالمجال البحثي، لا يكونون ممن يغترف من العلوم الغربية الطبيعية دون غربلة أو مرجعية توثيق، بل يكونون ممن يَجمَعون بين المرجعيّة الشرعية والعلمية بما يُمَكِّنهم من انتقاء المناسب الصحيح، وللأسف كثير

مـن المسـلمين يصدقـون أيـة تصريحـات علميـة وافـدة مـن الغـرب ويبنـون عليهـا خططًـا تربويـة لا تقبـل النقـاش، حتـى إن كانـت أحيانًـا مخالفـة لتوصيـات تربيتنـا الإسـلامية، كمـا سـنرى في الكتـاب بـإذن الله.

وننـوه أن الأبحـاث العلميـة التـي اسـتند إليهـا هـذا الكتـاب هـي التـي نشـرت حتـى شـهر جمـادى الأول ١٤٤٤هـ - ديسـمبر ٢٠٢٢م، ونظـرًا لطبيعـة البحـث العلمـي التجريبـي فمـن الـوارد جـدًا أن تطـرأ مـع الوقـت أو تنـوع التجـارب بعـضُ التغيـرات أو تفاصيـل الجزئيـات بشـكل يختلـف عمـا في الكتـاب.

وبالنسبة للأمور الشرعية

فغالبيـة الأفـكار التربويـة المطروحـة في الكتـاب هـي مـن فيـض الكريـم سـبحانه علـى أمتـه الفقيـرة إلـى عفـوه، بالاسـتعانة بمصـادر السـنة الصحيحـة وشـروح العلمـاء المعتبريـن والتفاسـير وكافـة العلـوم الشـرعية المتصلـة بالملـف، ثـم قمـت بعرضهـا علـى أهـل الذكـر، وتـم إقرارهـا بفضـل الله كذلـك.

وإليكـم بيـان تخصصـات المجموعـة العلميـة وشـهادات أفرادِهـا في الكتـاب، والذيـن تولـوا مشـكورين مراجعـة محتوياتـه - الطبيـة والشـرعية - أو أجـزاءً منهـا، (أسـماؤهم مرتبـة بحسـب توقيـت عـرض الكتـاب عليهـم):

أولًا: من لهم مشاركة كاملة في مراجعة الكتاب

۞ **زوجـي الفاضـل دكتـور خالـد السـيد نـور الحـداد،** الأسـتاذ المسـاعد في كليـة طـب الأسـنان بجامعـة عيـن شـمس وجامعـة القصيـم، والحاصـل علـى الدكتـوراه في علـوم أحيـاء الفـم، وصاحـب أبحـاث منشـورة في دوريـات محليـة وإقليميـة ودوليـة بفضـل الله، ومشـرف علـى رسـائل ماجسـتير ودكتـوراه، حفظـه الله وسـدده في كل خيـر وتقبـل منـه، قـام بمراجعـة كاملـة للكتـاب أكثـر مـن مـرة،

والتنبيه على كل ما يحتاج لمراجعة علمية من مختصين، بجانب تدقيقه للفقرات المختصة بتطور الأسنان وعلم الأجنة، ومساعدتي بشكل كبير في تحسين ترتيب عناوين الكتاب وتنظيم فقراته وتهذيبها، لتفادي التكرار والإطالة على القاريء الكريم قدر الإمكان.

۞ **دكتور شوقي عبد الصادق،** دكتوراه في تفسير القرآن وعلومه - جامعة الأزهر - وله مئات من الخطب والمحاضرات في مختلف المساجد في جمهورية مصر العربية، منشورة على موقع الطريق إلى الله، بجانب عمله في مجال الإصلاح الأسري والتربوي في محافظته، قام بالمراجعة الشرعية للكتاب بالكامل وأقر ما توصلتُ إليه من استدلالات شرعية وتربوية بفضل الله.

نَص تزكية الدكتور شوقي للكتاب بفضل الله: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، خلق الإنسان علمه البيان، والصلاة والسلام على أعظم مربٍّ وأفضل إنسان تعاهد الأبناء قبل وجودهم، فأمرنا باختيار الوعاء؛ عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم»[1]، وقد طالعتُ هذا البحث القيم [التربية بالوحيين للمراحل العمرية] فوجدته قيما في ذاته استوفى أمورًا هامة ومفيدة جدا للمربين والمربيات عائدة بالخير على الذرية في العاجلة والآجلة، حاولت الباحثة التدليل بالوحيين على ما تهدف إليه من تعليم وتربية، وأحسنت في ذلك زادها الله فهما للوحيين وحسن استدلال بهما، ونفع الله كل من قرأ هذا البحث وكان في ميزان حسناتها، اللهم آمين، وصلَى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم». وفي الصفحات التالية تجدون تزكيته الخطية للكتاب.



۞ **دكتور أمجد مصطفى،** طبيب باطني، وملتحق بماجستير الطب الباطني

---

(١) رواه ابن ماجه ١/ ٦٣٣، ١٩٨٦، وهو حسن.

جامعة عين شمس، أول من قام بقراءة الكتاب كاملا من أهل الطب، وقام بإسداء نصائح علمية ثمينة وتصويب بعض النقاط الطبية فيه والإحالة إلى أهل التخصص عند الحاجة.

شهادة د. أمجد عن الكتاب بفضل الله: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وأن وفق الأستاذة مؤلفة الكتاب لإتمامه.. بدون أدنى مبالغة هذا كتاب عبقري بمعني الكلمة، من أول اختيار العنوان ثم الولوج في التفاصيل، كتاب علمي قيم يتميز بالبساطة الشديدة؛ بمعني أنه يستطيع أي إنسان استيعابه و فهم معانيه والوصول للمغزى المطلوب، وذلك بالرغم من أنه مليء بالحقائق العلمية الدقيقة وبفضل الله كلها صحيحة – فيما وصل إلينا من العلم – وهذا أحد أسرار عبقريته، ولو كان الأمر بيدي: لا أُتَمم أي زيجةٍ إلا إذا استوعب العروسان وهضموا هذا الكتاب أو هذه النوعية من الكتب المثمرة، فجُل مشاكلنا هي في ابتعادنا الشديد عن الوحيين، الذَين أرادت الأستاذة الكاتبة أن تعيدنا إليهما برفق شديد، جزاها الله خيرًا ووفقها لإتمام هذه السلسلة المباركة وجعلها الله في ميزان حسناتها».



۞ **أستاذة تسنيم راجح**، بكالوريوس تغذية وحميات من جامعة (لاسال) في بنسلفانيا، وماجستير في التغذية الطبية العلاجية من جامعة (سانت لويس) في بنسلفانيا، خبرة في البحث العلمي في مجال تغذية النساء والأطفال – تدرس حاليًا في دبلوم المربي الواعي في الجامعة الأردنية – وخريجة برنامج صناعة المُحاور وعددٍ من الدورات الشرعية والفكرية والتربوية المتنوعة، باحثة وكاتبة في نقد الحداثة والتغريب وتعزيز اليقين وقضايا المرأة المسلمة وشبهاتها، ومقدمة دورات متنوعة للنساء واليافعات في مجال التفكير الناقد المنطلق من الوحي، وقضايا التربية والأمومة والأنوثة والحجاب ونقد الانحرافات المعاصرة المرتبطة بها، قام بتزكية كتاباتها والتوصية بقراءتها الدكتور

إيـاد قنيبـي، قامـت بمراجعـة كاملـة للكتـاب بشـكل عـام، وبشـكل خـاص النواحـي التـي تخصصـت فيهـا والتـي كان يهمنـي رأيهـا فيهـا جـدًّا، ولهـا إضافـات ثمينـة أثـرَتْ كتابـي، تجـدون تنويهـا عنهـا في مواضعهـا.

شـهادة أسـتاذة تسـنيم عـن الكتـاب بفضـل الله: «الكتـاب اللهـم بـارك مرتـب بطريقـة متسلسـلة وقـوي مـن الناحيـة الشـرعية والتربويـة والنفسـية، فيـه نفائـس في الأبـواب الشـرعية وفي تفصيلهـا وربطهـا بعمـر الطفـل مـذ هـو جنيـن، رائـع اللهـم بـارك، وقـد اسـتفدت جـداً مـن قراءتـه.. البنـاء الدينـي للرضيـع وأفـكار غـرس الإيمـان فيـه، كـم هـي مهمـة ولا يـكاد يذكرهـا أحـد، التربيـة الجنسـية الشـرعية للرضيـع موضـوع مهـم جـدًا! العمـل عظيـم فعـلًا، وقـد اسـتفدت جـدًا مـن قراءتـه، فجـزاك الله خيـرًا علـى مشـاركتي بـه».



۞ **دكتـورة إيمـان عبـد الرحمـن محمـود المهـدى**، بكالوريـوس الطـب والجراحـة جامعـة الإسـكندرية، وماجسـتير طـب الأطفـال وحديثـي الـولادة جامعـة الأزهـر، وأخصائـي طـب الأطفـال وحديثـي الـولادة، قامـت بمراجعـة كاملـة للمحتـوى العلمـي المختـص بطـب الأطفـال وغيرهـا مـن الطـب العـام، وأضافـت معلومـات دقيقـة ومهمـة للملـف، وأعانتنـي كثيـرًا في دحـض الكثيـر مـن الأباطيـل العلميـة المنتشـرة المتصلـة بالطفـل.

شـهادة د. إيمـان عـن الكتـاب بفضـل الله: «لله الحمـد علـى مـا أنعـم ولـه الشـكر علـى مـا أسـدى والصـلاة والسـلام علـى نبيـه العربـي الكريـم وعلـى جميـع رسـله الطاهريـن.. أمـا بعـد، فمـن مراجعتـي العلميـة المتواضعـة لهـذا الكتـاب رأيـت كـم اهتمـت الكاتبـة - حفظهـا الله - بالتدقيـق الشـرعي والعلمـي لـكل سـطر مـن سـطوره، وبفضـل الله وجُـوَدِه لا توجـد - بـإذن الله وحولـه وقوتـه - أيـة معلومـة طبيـة وعلميـة في الكتـاب إلا وتـم تدقيقهـا ويوجـد عليهـا مـن البراهيـن والأدلـة العلميـة الموثوقـة مـا يدعمهـا، وتـم اسـتبعاد

ما سوى ذلك - وكان قليلًا جدًّا - وقد أشرفت على ذلك بنفسي وأشهد على ذلك، ونحن نعيش في مجتمع عربي بنهج غربي لن ينجو إلا من أنجاه الله، فلله در أبنائنا حقًا يحتاجون إلى منهاج قويم لتنشئتهم نشأة سوية على كتاب الله وسنة نبينا العدنان ﷺ ليستطيعوا مجابهة الأخطار المعنوية والفكرية التي - والله - أراها أشد فتكًا من المرض العضال، لذا أوصي كل أم مسلمة تود أن تضع أنامل صغارها على الطريق الصحيح أن تقرأ بل تتدارس هذا الكتاب القيم نفع الله به وبارك في كاتبته وجزاها الله عنا خيرًا».



۞ **دكتورة داليا عزت،** بكالوريوس الطب والجراحة جامعة عين شمس، ملتحقة بماجستير «تخاطب» جامعة عين شمس، ومتدربة في وحدة التخاطب بمستشفيات الدمرداش الجامعي، قامت بمراجعة كاملة للمحتوى الطبي والعلمي بشكل عام، وبشكل خاص الأمور المعنية بالنطق والسمع والتخاطب والتواصل اللغوي والاضطرابات العصبية، وأثْرَتْ كتابي بإضافات علمية رائعة.

شهادة د. داليا عن الكتاب بفضل الله: «أسعدتني المشاركة في مراجعة هذا الكتاب لما لمست فيه من حرص المؤلفة على الدقة العلمية استنادًا إلى أحدث المراجع الطبية لتدقيق المحتوى الطبي، ومقاربتها لمسألة التربية بمنهج إسلامي يبدأ مع الجنين حتى يبلغ ثلاثة أعوام، وربطها بنمو الطفل وتطوره بنصوص من الوحيين، وقد قمت بمراجعة تلك الجوانب العلمية فيه بشكل عام، وبشكل خاص: ما يتصل بالنطق وتطور اللغة والتخاطب واضطرابات السلوك وما إلى ذلك، وتم تدقيق كل المحتوى علميًّا بفضل الله، فأسأل الله لها التوفيق والسداد وأن يجعل عملها خالصًا لوجهه الكريم وأن يجعله في ميزان حسناتنا أجمعين».



(عن طريق إرسال فقرات بعينها لمراجعتها، وتم التنويه عن تلك المواضع في الكتاب):

دكتور محمد مجدي، طبيب ممارس في طب الأطفال الإكلينيكي، وخبرة مهنية في عدة مستشفيات في مصر وخارجها، من أول الذين لجأتُ إليهم للتأكد من معلومات طبية أثناء تجهيز مسودات الكتاب الأولية، فلم يكن يصوبها فحسب، إنما كان يضيف للكتاب معلومات مدهشة أخرى (كما ستقرأون في مواضعها) فأسأل الله أن يفتح له أبواب الخير.



الشيخ الدكتور منصور الصقعوب، دكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى من الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، كلية الحديث الشريف، قسم فقه السنة، وإمام وخطيب مسجد الحبلين ببريدة في القصيم بالسعودية. (تم سؤاله عن فقرات شرعية وتم استبعادها من الكتاب، بالإضافة إلى مواضع أخرى تجدون تنويهًا عنها في الكتاب).

الشيخ عبد الرءوف القاضي، أستاذ الحديث وعلومه بجامعة (مينيسوتا)، (تم سؤاله عن فقرات شرعية وتم استبعادها من الكتاب، بالإضافة إلى مواضع أخرى تجدون تنويها عنها في الكتاب).

هذا بالنسبة للعلوم الشرعية والعلوم الحيوية، أما بالنسبة للعلوم الإنسانية المبنية على نظريات وفرضيات شخصية غير تجريبية، فلم آتِ بها في الكتاب إلا على سبيل إقناع القاريء كيف أن ما توصلوا إليه هو في ديننا بالفعل، أو مما يُثبت صدق ديننا، أو من قبيل إثبات وبيان خطئها بميزان الشرع، وأما ما ثبتَ منها بالعلم التجريبي المعتبَر، فهذا لا يُشاقُّه عاقل ويعتبر حينها من العلوم الحقيقية التي يأمرنا ديننا بقنصها

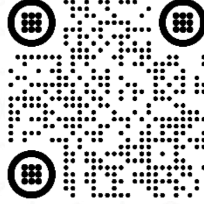
والتعامل معها؛ لأن العلم الصحيح والوحي الصحيح مصدرهما واحد: الله سبحانه وتعالى.

ويقيني أن العلم التجريبي لن يأتي بعلوم إنسانية جديدة خارج مشكاة الوحيين، فمنذ أكثر من ١٤٠٠ عام قد اكتمل الدين الذي شرعه الله لصلاح وفلاح تلك النفس الإنسانية، ينقصنا فقط الهمة الكافية والإخلاص الجاد لاستخراج تلك الجواهر منه.



وأخيرًا، فيما يخص التعريف بمؤلفة الكتاب

أمـة الله – أسـماء محمـد لبيـب: تجـدون نبـذة متواضعـة عنهـا، مـن خـلال qr code التالـي:





نَـص التزكيـة الخطيـة مـن الشـيخ الدكتـور/ شـوقي عبـد الصـادق – دكتـوراة في تفسـير القـرآن وعلومـه – جامعـة الأزهـر.

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، خلق الإنسان وعلمه البيان
والصلاة والسلام على أعظم مربٍ وأفضل إنسان تعاهد
الأبناء قبل وجودهم فأمرنا باختيار الوعاء عن عائشة
قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء
وأنكحوا إليهم) ابن ماجه ١/٦٢٢ ح١٩٦٨ وهو حسن
وقد طالعت هذا البحث القيم [التربية بالوحيين للمراحل
العمرية) فوجدته قيما في ذاته استوعب أمورا هامة
ومفيدة جدا للمربين والمربيات عائدة بالخير على الذرية
في العاجلة والآجلة حاولت الباحثة التدليل بالوحيين
على ما تشير إليه من تعليم وتربية وما أحسنت
في ذلك زادها الله فهما للوحيين وحسن
الاستدلال بهما ونفع الله كل من قرأ هذا البحث
وجعله في ميزان حسناتها
اللهم آمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله

د/ شوقي عبد الصادق

خُلاصة سنوات.. في سطرين!

والله لو عشنا أعمارًا ومن بعدها سبعة أعمار، بين دفتي القرآن الكريم وكُتُبِ الأحاديثِ والسُّنن - وإن كان الصحيحان وحدهما يكفيان ويُغنِيانِ والله - ما قضينا نهمتنا من كنوزهم ولا فوائدهم، والسبب في ذلك: أنهم وحيٌ من رب العالمين، فيقيننا في قيمة الفوائد المستخلصة من الوحيين مبنيٌ على حقيقة أنه كلام صدق وحق في الأساس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، فاليقين[1] هو جزم القلب مع الاستناد إلى الدليل القطعي، وقد قامت كل الأدلة القطعية والظنية على أنه لا فلاح للنفس سوى بتربيتها بالوحيين، فالموقنون بتلك الحقيقة بصدق هم من اطمأنت قلوبهم بها دون أدنى ارتياب أو تذبذب.

واليقين كذلك هو طمأنينة القلب على حقيقة الشيء، مِن «يقَنَ الماءُ في الحوض»، أي استقرَّ .

فطوبى لمن يَقَنَ ماءُ الوحيين في قلبه وشرايينه، بصدق لا شعارات، والحمد لله على نعمة الإسلام وتربية رب العالمين لنبيه وخَلقِه، بشرعه الحكيم المتين.



(١) تعريفات اليقين مستفادة من مقرر قواعد الفقه الكلية بالجامعة الإسلامية بأمريكا الشمالية (مشكاة) ورئيسها د. صلاح الصاوي.

رجاءً.. لا تفهم عنوان السلسلة خطأ!

ربما يظن قارىء العنوان أني أؤيد فكرة أن هناك أنواع للتربية المعتبرة عند المسلمين وأن من بينها «التربية بالوحيين» مثلًا! مطلقًا...! فالسلسة أبعدُ ما تكون عن هذا المقصد، بل هي من معاولِ هِدمِه بعونِ الله، إنما العنوان ما هو إلا إحياء لسنة ربانية ونبوية كادت أن تصير «سنة مهجورة» - وفي بعض الأهواء «سنة قديمة غير صالحةٍ لزماننا!» - ألا وهي التربية لأطفال المسلمين على النهج الإسلامي الخالص من كل بدعةٍ تربوية غربية أو عرفية أو إنسانية يروج لها بعض المسلمين تحت أي زعم أو مبررٍ وهميٍّ مُصطَنَع.. ولولا أنه في العقود الأخيرة قد شاعت بين المسلمين فلسفات التربية الغربية والشرقية (الأمريكية واليابانية وغيرها من مُخَلَّفاتِ جُحرِ الضب)، وعلا صوتها بكل أسف فوق مآذن التربية الإسلامية الخالصة، حتى صار كثير من إخوتنا المسلمين يتعجبون من شعارنا المرفوع «التربية بالوحيين» ويوقفوننا في منشوراتِنا ليسألوا: ماذا تعني التربية بالوحيين؟!»، لولا ذلك لما اضطررتُ لعنونة سلسلتي بهذا الاسم.. فعنوان السلسلة إذًا إنما هو:

* للتأكيد على أنه لا يسع المسلمين سوى طريق وشعارٌ واحد للتربية: التربية بالوحيين القرآن والسنة.

* ولإحياء هذا الشعار في بيوت المسلمين من جديد وإنزاله من رفوف السنن المهجورة إلى رفوف مُحكمَاتِ سنن الأمة الإسلامية اليومية بحول الله وقوته.

فالعنوان جملةٌ خبرية تامة المَبنَى والمَعنى، مُبتدأُها «التربية»، وخبرُها «بالوحيين».. وبداخل تلك السلسلة الأصلية سيكون سلاسل فرعيةٌ شتى بإذن الله، كسلسلة «التربية بالوحيين للمراحل العمرية»، وسلسلة «قواعد وأدوات التربية من الوحيين»، وسلسلة «التدبر التربوي للوحيين»، وغيرها إن شاء الله وأعان ووفق.

وتستبينُ طرائقُها بإذن الله عُودًا عُودًا مع كل إصدار.

أما الآن، فنبدأ في أول إصدار، والبداية مع كشف الستار عن إرهاصاته.



السؤالُ الذي أنجَبَ كتابًا

الحمد لله والصلاةُ والسلام على النبي ﷺ ... وبعد،

في مرةٍ سألت صديقتي العزيزة التي لها صلة بأروقة التربية الغربية المقدمة في ثوب عربي إسلامي، وصلة بالأمهات اللاتي يتابعن تلك الفلسفات ويطبقن ما تلقي بشغف: «لماذا تذهب الأمهات لدورات تعلم أدوات التهذيب الوافدة إلينا من الغرب الفاشل في التربية، مع أن التربية الإسلامية لم تقصرِّ في شيء على مر العصور، بل هي أسهل وأعذب وأأمن وأقرب للفطرة وأوضح في الثمار المباركة؟».

وكان جواب صديقتي: «لأن تلك الأمهات يجدن في كتب التربية الغربية، الكلام مكتوبًا على هيئة أُطُر محددة وتطبيقات واضحة و«قوالب» سهلة الفهم، مجموعة في أدوات وقواعد تهذيب، مع أمثلة تطبيقية وقصص من واقع الحياة.. فالناس للأسف تجد في ذلك بديلًا أسهل من الغوص في كتب التربية الإسلامية وشروحاتها، وأسهل لهم من الاضطرار للالتحاق بدورات تعلم العلم الشرعي أولًا للتمكن من ترتيب المعلومات التربوية في شكل عملي تطبيقي وقواعد ووسائل تشبه في سهولتها وتأطيرها الأدبيات التربوية الغربية في كتبهم، فهذا بالتأكيد بالنسبة لهم هو الطريق الأصعب!».

وبغض النظر عن عدم اقتناعي بجواب صديقتي حينها كمبرر «مقبول» لاستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير - فهذا من المبررات الوهمية المُصطَنعة كما أشرتُ سابقًا - إلا إنه استفز بداخلي حميَّة أن أثبت بالدليل والتطبيق أنه وَهمٌ وظَنٌ وخطأ - وهو خطأ بالفعل - لا مجرد أن أكتفي بالقول بحماسة واعتزاز بديني: «لا والله هذا خطأ! فالتربيةُ الإسلامية واضحة وعذبة ومرنة وعملية بشكل مذهل! ولكن الناس اعتادوا على التقامِ كل ذي بريق دون تفريق بين بريق الحق وبريق السراب، وينبهرون بترويجات الغرب الإعلامية لبضاعتهم المزجاة بعبارات رنانة على غرار

«الأكثر مبيعا» ومثيلاتها». لم يكن يصلح أن أكتفي بقول ذلك بحماسةٍ وحسب، فالحماسةُ وحدها لا تكفي.

وبالتالي، لتحويل الحماسة إلى ثمرة طيبة في فم المسلمين، استخرتُ الله ﷻ وقررت البدء في تنظيم كل مقالاتي الخاصة بالتربية بالوحيين، في قالبٍ جديدٍ منهجيٍّ ومرتب على هيئة الأطر والقوانين المحددة والعملية التي يتذرع البعض بافتقادها في أدبيات التربية الإسلامية لتبرير لهاثهم وراء أدبيات التربية الغربية، كي نرد هذه الشبهة وتلك الفرية المُختَلَقة على تربية الوحيين.

فكانت ثمرة ذلك سلسلة «التربية بالوحيين»، وأول باكورة ثمار لها في كتاب، هي تلك التي بين أيديكم، وفي الطريق بأمر الله أخواتُها تباعًا، وعلى رأسهن كتاب «قواعد وأدوات التربية من الوحيين» بإذن الله، آملة من الله أن تصير فيما بعد موسوعة للمسلمين للتربية بالوحيين، وأن يقبل سبحانه غراس هذه الكتب ويربيها بيمينه كزرعٍ أخرج شطأه فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ يُعجِبُ الزراعَ ليَغِيظَ بهم الكفار وينفع بهم المؤمنين إلى يوم القيامة، آمين.

مع التأكيد أني لست في عداء مع أحد من المسلمين بالطبع، ولا أحب ذلك ولا أسعَى إليه، المسلم أخو المسلم، إنما أنا في شقاقٍ فقط مع من أوصانا ديننا أن نُخرجِهم من الظلمات إلى النور من الأمم الأخرى وأن نعلمهم فن الحياة الإنسانية على هُدًى وبصيرة، فإذا بهم يستعلون على المسلمين ويتطاولون في بنيان التربية - زعمًا - ليقنعونا أنهم هم من سيُعلمون المسلمين فن البناء والغرس والتهذيب والانضباط وإدارة المشاعر وتعديل السلوك! فمن تَبِعَ هؤلاء في ذلك من المسلمين معتقدًا صدقهم فيه، فهو الذي يضع نفسه في شقاق مع سائر المسلمين وليس معي فحسب، ومن فارقَهم فقد عافى نفسه من المَذمَّة والملامة والندامة بإذن الله، وأوقن أن كثيرًا ممن تبعهم كان جاهلًا بخبثهم وغير معتقدٍ في قصور شريعتنا عن أيٍ من جوانب فلاح النفس الإنسانية، فالأصل حسن الظن بالمسلم وأنا أحسن الظن بهم.

لذلك أقول ما جاء في حِكمةٍ رائقةٍ: «عندما تركب القطار الخطأ، حاول أن تنزل في أول محطة لأنه كلما زادت المسافة، زادت تكلفة العودة»، وها هي دعوة صريحة بين أيديكم لترك قطارهم على الأرض، والتحليق معنا في عالم الطائرات بين السحاب، لنتفحص معًا الكتاب الذي أنجبه هذا السؤال، فهذا هو مكاننا معًا كمسلمين، لنصطف أمام من أوقد الحرب من غير المسلمين على فطرةِ أولادنا وقيمِهم وإنسانيتهم وتربية رب العالمين الزكية للنفس البشرية السوية.



نصيحةٌ إن أردت الإفادة من هذا الكتاب

لن تجد مقدمة لهذا الكتاب كسائر الكتب، أعني تلك المقدمة التي يتخطاها غالبية القراء ويتجاوزونها إلى الباب الأول، معتبرينها ورقات إثرائية يمكن الاستغناء عنها.

لكن في هذا الكتاب، أنت منذ أول صفحة في صلب الموضوع دون مقدمات.. مقدمته هي الباب الأول، تأسيسية لا إثرائية.. وكشأن كل الأمور التأسيسية، قد يجد فيها القارىء شيئًا من اللغة الأكاديمية أو الاصطلاحية وما شابه، مما قد يشعره لوهلة أن هذا الباب عقبة، فنصيحتي لهذا القارىء الكريم إن راوده هذا الشعور، قولَ الله ﷻ لنا جميعًا: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١]، فكل عقبة نجتازها نجني بعدها ثمار الصبر، وإنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم.

ما أريد قوله هو أن بعض الأمهات اعتدن على كثرة الاستشارات في كل صغيرة وكبيرة، بينما الأفضل لهن أن يتعلمن كيفية حل المشكلات واستخراج الإجابات بأنفسهن.

وتقول الحكمة: «علمني كيف أصطاد خير من أن تعطيني سمكة كل يوم»، فهذا الباب بشكل خاص هو بمثابة تعلم مبادىء مهارة الصيد بإذن الله، فهلّا اقتحمنا العقبة وقرأنا البابَ الأولَ بتمعن قبل العبور؟



الباب الأول

جواز مرور إلى بقية الكتاب

ممنوع العبور

لا تقرأ الكتاب.. إن لم تقرأ هذا الباب

الفصل الأول

ما التربية بالوحيين؟

بالتأكيد قرأتم عنوان الكتاب: «**التربية بالوحيين للمراحل العمرية**» ومعلومٌ أن الوحيين هما القرآن والسنة النبوية، فالله حاكمٌ بالقرآن - وهذا هو الوحي الأول - والنبي ﷺ مُبَلِّغٌ عن الله هذه الأحكام وشارحُها ومُطَبِّقُها بالسُّنَّة - وهذا هو الوحي الثاني - قال ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] وقال أيضا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥]، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:٣]، وقال رسوله ﷺ: «أوتيتُ القرآنُ ومثلُه معه»[١]، وقالت عائشة: «إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كانَ القُرْآنَ».

فالقرآن كتابُ تربيةٍ ربانية، شامِلٌ لكل نواحي ومراحل التنشئة والتزكية للإنسان، بل هو أعظم كتاب تربوي في الوجود، ونزلَ ليُهَيمِن على سائر الكتب بالحق: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨].

والسنة النبوية هي الطريقة العملية لتطبيق هذا القرآن، قال الحافظ بن حجر - عند شرح حديث «فمن رَغِبَ عن سنتي فليس مني»[٢] -: «المراد «بالسُّنة» هنا: ((الطريقة))، لا التي تقابل «الفرض» (أي: ليس المراد هو السنن النوافل). و»الرغبة عن الشيء» هي الإعراض عنه إلى غيره. والمراد: مَن تَرَكَ طريقتي وأخذ بطريقة غيري، فليس مني.»[٣].

(١) صححه الألباني - تحذير الساجد (٧٧)، صفة الصلاة (١٧١).
(٢) البخاري ٥٠٦٣.
(٣) الحافظ ابن حجر- فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٩/ ١٠٦، بتصرف يسير في بسط العبارة.

بقي أن نؤكد أن فَهمَ الوحيين لا يخرج عن (فَهم) الذين نزل عليهم وطبقوه عمليا والرسول ﷺ بينهم وزكاهم وأوصانا قبل مماته باتباعهم والتمسك بسنتهم هم والذين مِن بعدهم، أي: أمة هائلة راشدة مزكاة على امتداد ثلاثة قرون، من صحابة ثم تابعين ثم تابعيهم، وعلى رأس أولئك جميعا: الخلفاء الراشدون، ما نُطلق عليه (فَهم السلف الصالح)، ومن بين سلف الأمة هؤلاء وخاتمةِ قرون المسك هذه: الأئمة الأربعة (فحينما تقول قرآن وسنة بفهم سلف الأمة، فاعلم أنه يتوجب عليك فهم القرآن والسنة بفهم الأئمة الأربعة على الخصوص، لأن الأمة قد تلقت مذاهبَهم بالقبول. واعلم أن المقصود بالسلف هم صحابة النبي ﷺ وأئمة الهدى من القرون الثلاثة الأولى، الذين شهد لهم النبي ﷺ بأنهم خير هذه الأمة قائلا: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، وآخر من مات من الأئمة الأربعة هو الإمام أحمد، مات عام ٢٤١ هـ أي أن كلهم من القرون الثلاثة الأولى)[١].

ومن الوحيين: امتثال قول الله ﷻ: ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، فنضم لملف التربية ما صح من العلم التجريبي وثبت أنه حقائق لا مجرد نظريات أو فرضيات، ولا يتعارض مع ديننا، وبالطبع إذا ثبت أنه حقائق فلن يكون هناك تعارض لأن مصدر العلم الحقيقي كله من عند الله، سواء علوم الدنيا أم الدين، فلسنا أعداء العلم الغربي كله، بل إن معاداة العلم الصحيح وتجاهله هو خلاف الوحيين ومعصية لله ورسوله ﷺ وإضرار بالمسلمين بكتمان علم عنهم.

هذا باختصار شديد جدًّا معنى «بالوحيين»، ولولا ضيق المقام لاستفضنا أكثر، فما معنى «التربية»؟

---

(١) كلمة مقتبسة من د. مصطفى القليوبي، أستاذ الفقه وأصوله .والشافعي متوفى قبل الإمام أحمد بأربعين عاما.

أولا: معنى التربية

«التربية» أصلها في اللغة: ربَّ و(الراء والباء) يدل على أصول، من بينها: إصلاح الشيء والقيام عليه فالربُّ هو المصلح للشيء، والله ﷻ هو «الربُّ» لأنه مُصلِحُ لأحوال خلقه، و**«التربية» في كلام السلف عامةً هي:**

١. إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حدِّ التمام.

٢. أو: حين نراقب ونتعاهد الشيء إذ هو يبدأ صغيرًا، ونرتقي به من حال إلى حال إلى أن يبلغ التمام.

٣. أو: هي الإصلاح والقيام على شئون المتربي مع التدرج والملازمة بهدف البلوغ به إلى الكمال.

بمعنى آخر: هي التنمية والترقية إلى الكمال بتدرج(١).

وهناك تعريفان آخران للتربية، دسَستُهما في طياتِ الكتاب كنزًا ثمينًا في موضِعِه، لن يصل إليه ويندهش من جمالِه كما اندهَشْتُ إلا من أكمل القراءةَ إن شاء الله.

ويدل على تعريفات التربية السابقة بوضوح نصوص عدة من الوحيين، منها:

قوله ﷻ: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤]، أي: كما نمّياني، من التنمية التي هي تبليغ الشيء إلى كماله على تدرج(٢).

وآية أخرى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]، أي: أما ربيناك ورقّيناك ونمّيناك حتى صرتَ كبيرًا كما أنت الآن؟!

---

(١) التعريفات من «مدخل الأدلة المقاصدية التربوية حسب المراحل العمرية»، وهو كتاب ضمن سلسلة كبيرة من تأليف كوكبة من العلماء والمختصين.

(٢) «ربياني صغيرًا» هو بالمناسبة اسم قناتي على التليجرام.

وقد قالها فرعون لموسى، حين كان يَمُنُّ عليه بذلك لكي يُثنيه عن دعوتِه للتوحيد.

فمن هذه المعاني يتضح أن التربية تستلزم مصاحبة وتدرج - أي ملازمة - وترقَى بتدرج في سنين متتالية، مثل الزرعة والنبتة بالضبط.

وحديث نبوي: «من تصدق بعدلِ تمرةٍ من كَسْبٍ طيبٍ ولا يقبلُ اللهُ إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه ثم يَربِّيها لصاحبه كما يُرَبِّى أحدُكم (فَلُوَّهُ) حتى تكونَ مثل الجبل»[1].

والفَلُوّ: هو المُهر والحصان الصغير الذي يحتاجُ إلى الرعاية والتربية، فإن الله يُرَبِّي ويُنَمِّي ويَرعَى هذه الصدقة لهذا الرجل، حتى تكبر وتصير عظيمة مباركة مثل الجبل.

وفي الحديث فوائد مدهشة[2]، حيث ارتبطت فيه كلمة التربية بالمعاني التي نحاول أن نؤسسها:

المعنى الأول: تولِّي الله ﷻ للتربية

فمن ضمن أسماء الله ﷻ: (الرب)، وهو رب العالمين، ومن معاني الرب: تربية الله ﷻ لخلقه بشكل عام، ولأوليائه المؤمنين بشكل خاص.

المعنى الثاني: عنصر الاستمرارية في التربية والتنمية

وكذلك في تربية أولادنا لا يوجد توقف.

---

(١) البخاري ١٤١٠.

(٢) المعاني الأربعة مستفادة من كتاب مدخل الأدلة المقاصدية التربوية حسب المراحل العمرية - سلسلة كبيرة تأليف كوكبة من العلماء والمختصين/ بتصرف واختصار

المعنى الثالث: النماء

أي أنها تكبر من طور إلى طور على كل مستوى وكذلك أولادنا يكبرون على كل مستويات ومراحل النمو: النفسي، والاجتماعي، والديني، والشرعي، والعقلي إلخ؛ فيه نماء لكل شيء، ليس فقط البدني.

المعنى الرابع: يكون هناك ثمرة في النهاية

تلك الثمرة تحوز القبول لجمالها، وتملأ العين، وكذلك التربية مثل تلك الصدقة تماما، ينميها الله ﷻ ويبارك فيها ويمد في تزكيتها إلى أن تصير ثمرتها كالجبل العظيم المبارك ملء البصر.

بالتالي نُجمل فنقول: التربية هي قيامُ المُرَبِّي على المُتَرَبِّي وتنميته إلى أن يبلغ التمام، في الجانب البدني (تغذية، وصحة إلخ)، والجانب المعنوي (القيم، والأخلاق، والإيمان إلخ).

وفي تعريف ابن سينا للتربية: «إنها وسيلة إعداد الناشئ للدين والدنيا في آن واحد وتكوينه عقلياً وخلقياً وجعله قادرا على اكتساب صناعة تناسب ميوله وطبيعته وتُمَكِّنه من كسب عيشه»[1].

لذلك هناك فرق شاسع بين الترويض والتربية، فالتربيةُ ليس مرادِفُها أن تَجعَلَ أبناءَك مُنضَبِطِي السلوكِ فقط مادُمتَ حاضِرًا بسَمعِك وبَصَرِك مَعَهُم، إنما التربيةُ هي أن يَفعَلواَ الصوابَ حتى وأنت لست في الجوار.

۞ **المصطلح الأولُ اسمهُ «ترويضٌ» أو «تعايشٌ سِلمِيٌ»،** وهذا هو ما تقدمه لكم نظرياتُ التربيةِ الغربيةِ الحديثةِ للأسف، خاصّةً لو طبقناها بدونِ مِسطَرَةِ التربيةِ الإسلامية -إما لعدم تمكننا من العلم الكافي لذلك أو لتجاهلنا له. يتعلم فيه الوالدان

(١) من كتاب أسس «التربية الإسلامية في السنة النبوية» - عبد الحميد الصيد الزنتاني، الدار العربية ليبيا ١٩٩٣م - ط٢- ص. ٢٤، نقلا عن مقالة على شبكة الألوكة بعنوان «تعريف التربية».

فقط فنون التعايش السلمي وتخطي الصراعات داخل الأسرة – وهو هدفٌ جيد بلا شك – لكننا هكذا لا نُربي كما تعلمنا في تعريف التربية، بالإضافة إلى أن تخطي الصراعات هنا مؤقت، وأحيانا يكون وهميًا وصوريًا فقط، فنحن حين ننحِّي الوالدين من حَلَبة السيطرة التربوية الراشدة المطلوبة على الذرية، فنحن بذلك لم نتخطَّ الصراع بنجاح، نحن هكذا قد ألغيناه من الأساس بتَنَحِّينا نحن كوالدين جانبًا!

المصطلح الثاني اسمُه «تربيةٌ» «تزكيةٌ» و«سياسة» و«فنُّ صناعَةِ الرِّجال»، ذُكرانًا وإناثًا، وتستلزمُ نوعًا من التدافُع مع المُتَربِّي لتطويعِه للخير الذي لا يعلم عنه شيئًا بعد، لا إلى تَجَنُّبِ الصراع من الأساس، قال جل جلاله: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]

الترويضُ هو استئناسٌ للنفسِ لتُصبح أليفةً ساكنة، حتى إذا فُتِحَ القفصُ أو غابَت رقابةُ الحارِس وإملاءاته، عادتْ لتوَحُّشِها؛ **لكنِ التربيَةُ** هي إعادةُ توجِيهٍ وتشكيلٍ للنفسِ بالتقوَى الذاتية، ليَستَوِي عندَها وجودُ رقيبٍ من عَدَمِه، لعلمها أن الله هو الشهيدُ الرقيب.

إذًن: الترويضُ تطويعٌ مُؤَقَّت، بينما التربيةُ تَطوِيعٌ دائم.

لكني لا أُنكِرُ أنَّ التربيةَ تحتاجُ معَها للترويضِ أحيانًا بالفعل، بل إنَّ بعضَ نظرياتِ الترويضِ المنتشرةِ موجودةٌ في دينِنا بالفعل قبلَ كلِّ تلكَ الكُتُب، لَكِنِ الفَرقُ بينهما: أن الترويضَ في التربيةِ الإسلاميةِ لا يكونُ وحدَهُ بأيةِ حالٍ، وإن وُجِدَ فلا يكونُ هو الأصلُ، أي إننا يُمكِنُنا الاستغناءُ عنِ الترويضِ ونحن نُرَبِّي، لكن لا يمكننا الاستغناءُ عن التربيةِ ونحن نُروِّض.

ولذلكَ، فإنَّ خليطَ التربيةِ الإسلاميةِ وَحدَهُ يُحَقِّقُ المعادلةَ التربويةَ المُدهِشة المذكورة في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وهذا ما يميز تربيتَنا الإسلامية عن أي فلسفات تربوية أخرى، بالإضافة بالطبع إلى أنها مُستَمَدة من مقاصِد ومنطلقاتِ الوحي المُحكَمة التي تُخرِجُ الفردَ (الأُمّة)، كما سنبين في المقاصد في الفصل التالي بعنوان «لماذا التربية بالوحيين؟».

ثانيا: معنى التربية بالوحيين

التربية والتنمية للمتربي على:

- التوحيد وبالتوحيد.
- القرآن وبالقرآن.
- السنة وبالسنة.
- أخلاق وتوجيهات الإسلام وبأدواته وقواعده وأصول وفروع الشريعة.

باختصار... حتى يبلغ المتربي التمامَ ما أمكَن، فتصير الشريعة بكاملها قواعدَ وأدواتٍ للتربية في نفس الوقت، لا يحيد عنها المُربي ولا يُؤمِن ببعضٍ ويكفر ببعضٍ ولا يُلبِسَها ثوبَ غيرِها، فتلك المنظومة المتراصَّة بإحكام ستُنبِتُ في قلوب المُتَربين: التقوى والخوفَ من عاقبة غضبِ اللهِ، والرجاء والطمع في عاقبة رضائه، وتضمَن بإذن الله نموهم بشخصية سوية متوازنة، قوية في غير قسوة أو صَلَف أو «نَمْرَدة»، ليِّنة في غير ضعفٍ أو هشاشة أو تحسس أو انبطاح، عزيزة في غير كِبرٍ أو تعالٍ أو جُحود، وبالتالي تُوَجِّه سلوكهم نحو الخير والشر والخطأ والصواب كما يُراد للشخصية المسلمة، وهذا هو المطلوب، وتلك المنظومة أمرٌ ضخم يطول شرحه وتفصيله، نكتفي بالنذر اليسير منه في الكتاب الذي بين أيديكم كمجرد تهيئة، على أن يكون التفصيل في كتاب التأسيس التربوي لـ «قواعد وأدوات التربية من الوحيين» بإذن الله.

ثالثا: وبناءً على تعريف التربية عمومًا

هل السلوكيات يمكن اكتسابُها وتعديلُها؟

وقد يطول الكلام بنا هنا قليلا نظرا لمركزية قضية السلوك في التربية الربانية، وأهمية فهم المسائل المتعلقة به أثناء رحلتنا لأجل تعلم كيفية كسب السلوك وتعديله في أبنائنا.

للدّكتور أحمد عبد المنعم مُحاضرة جميلة جدًّا، عنوانها (أجوف)، تدور حول الحديث النبوي التالي: «لمّا صوّر الله آدمَ في الجنّة تركهُ ما شاء الله أن يترُكَه فجعل إبليسُ يُطيفُ بِهِ - يعني يطوف حولَه - ينظُرُ ما بِهِ فلمّا رآهُ أجوف عَرَفَ أنّهُ خُلِقَ خَلقًا لا يتمالَك»[1].

أي أنه لمّا نظر إبليس إلى خلق آدم وجده خاليًا وفارِغًا من الدّاخِل فعلم حينها أنه لا يتمالك، بمعنى أن فيهِ ضَعفًا، فالأجوف الفارغ ضعيف لا يَثبُت ثبوتَ الممتلىء الذي ليس بِأجوف، لذلك يحتاج الإنسان لشيءٍ يملأ فراغَه الداخلي، فهو إن لم يمتلىء سيصبح خاويًا هشًّا قابلًا للكسر بسهولة، ولن يؤديَ الدّور الذي خُلِق لأجله.

وبشكل قاطع، قد هيأ الله هذا الوعاء داخليا بشكل يؤهله لاكتساب أمور خارجية يملأ بها فراغَه، ووهبَه وسائل لتحصيل ذلك وكلُ إنسان يملأ وعاءه بما شاء، وكلُ إناءٍ في النهاية ينضحُ بما فيه، التهيئة الداخلية تلك: هي الفطرة، ولنا معها صفحات في الكتاب، أما الأمور الخارجية المُكتَسبة: فهي موضوع فصلنا الآن، لتَعَلُّقِ السلوكِ المكتَسَب بها، والذي هو أهم هدف لهذا الكتاب.

وهنا السؤال الأبرز: هل كل السلوكيات مكتسبة فقط؟

السلوكيات مبنية على أخلاق وطبائع واستعدادات، منها ما يُولَد به الإنسان

(١) صحيح مسلم ٢٦١١.

ومنها ما يكتسبه، والأخلاق بشكل خاص ليست كلها مكتسبة فقط.

تعالوا نستعرض أقوال النبي ﷺ في هذا الشأن.

١. «إنّ الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم»[١].

٢. «ألا إنَّ بَني آدمَ خُلِقوا على طَبقاتٍ شتَّى»، ثم قال: «ألا وإنَّ منهمُ البطيءَ الغضَبِ سريعَ الفَيءِ (الفيء: الرجوع عن الغضب)، وَمِنْهُم سريعُ الغَضَبِ سريعُ الفيءِ، فتِلكَ بتلكَ، ألا وإنَّ منهُم سريعَ الغَضَبِ بطيءَ الفيءِ، ألا وخيرُهُم بطيءُ الغضَبِ سريعُ الفيءِ، وشرُّهم سريعُ الغضَبِ بطيءُ الفيءِ، ألا وإنَّ منهُم حَسنَ القضاءِ حَسنَ الطَّلبِ، وَمِنْهُم سيِّئُ القضاءِ حسنُ الطَّلبِ، وَمِنْهُم حسنُ القضاءِ سيِّئُ الطَّلبِ، فتلكَ بتِلكَ، ألا وإنَّ منهمُ السَّيِّئَ القَضاءِ السَّيِّئَ الطَّلبِ، ألا وخيرُهُمُ الحسَنُ القضاءِ الحسَنُ الطَّلبِ، ألا وشرُّهم سيِّئُ القضاءِ سيِّئُ الطَّلبِ»[٢].

٣. «إن الله خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب»[٣].

٤. «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[٤].

---

(١) مختلف في صحته، وصححه الألباني - صحيح الترغيب (١٥٧١) - صححه الألباني - صحيح الأدب المفرد (٢٠٩) - صححه الحاكم - المستدرك على الصحيحين (٩٥).

(٢) مختلف في صحته، وحسنه ابن حجر - هداية الرواة (٤/ ٤٨٧)، الترمذي - سنن الترمذي - حسن صحيح (٢١٩١)، وصححه السيوطي - الجامع الصغير (١٦٠٤).

(٣) صححه الألباني - صحيح الجامع (١٧٥٩)، صححه السيوطي - الجامع الصغير (١٧٢٨)، صححه الألباني - صحيح الترمذي (٢٩٥٥) - بدون "بين ذلك".

(٤) صحيح مسلم ٢٦٣٨.

٥. «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ»[١].

٦. وأخيرا، قوله ﷺ لأحد الصحابة - وهو المُنذِرُ بنُ عائذٍ العَصَرِيِّ رَضيَ اللهُ عنه -: «إنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُما اللهُ: الحِلْمُ والأناةُ»، فقال: «يا رسول الله، أنا أتخلّقُ بِهِما؟ أم الله جبلني عليهما؟» قال: «بل الله جبلك عليهما»، فقال المنذرُ: «الحمد لله الذي جبلني على خِلّتين يُحبُّهُما اللهُ ورسولُه»[٢].

والحِلْمُ: العَقْلُ، والأناةُ: التَّرفُّقُ وعَدَمُ التَّعجُّلِ، وسنبين بعد قليل أن الصفات الجِبِلِّيَّة الحسنة ليس عليها أجر بذاتها، فللأمر تفصيل.

ماذا يُنتِجُ لنا الجمعُ بين كل هذه الأحاديث؟

أولا: أن الخِصال نوعان

- خصال جبلّيّةٌ (فطرية): أوجدها الله في الإنسان.
- وخصال كَسبية (مُكتَسَبة): اكتسبها المرء بالتزكية والتفقه.

فقد قال المنذر: «أنا أتخلق بهما؟ أم الله جبلني عليهما؟»، أي: أنا اكتسبتهما في حياتي يا رسول الله؟ أم قد جعلهما الله فيَّ دون اكتساب؟

ثانيا: أننا متفاوتون فيما بيننا

في رزق الأخلاق الجِبِلِّيَّة الحسنة الموهوبة من الله، وفي مقدار الأخلاق الإضافية المُكتَسَبَة بالتزكية، كما نحن متفاوتون في مقدار الموهوب من الاستعداد المهاري والطبائع الجِبِلِّيَّة أو الجينية، وكذلك متفاوتون في مقدار المهارات والطبائع المكتسبة بالبيئة والممارسة؛ كل ذلك بقدر تفاوت أنواع تربة الأرض التي خُلِقنا منها وتَنَوُّعِ معادنها، فهذه سنة الله في خلقه أن نكون مختلفي الألوان ليُكمِلَ بعضُنا بعضًا: ﴿وَهُوَ

(١) البخاري (١٣٥٩)، مسلم (٢٦٥٨).
(٢) صححه الألباني - صحيح أبي داود (٥٢٢٥).

الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:١٦٥]، لكنه ﷻ لم يخلق أحدًا فينا شريرًا (وسيأتي بيانه).

قال ابن القيم رحمه الله: «لما اقتضى كمال الرب جل جلاله وقدرته التامة وعلمه المحيط ومشيئته النافذة وحكمته البالغة تنويع خلقه من المواد المتباينة وإنشاؤهم من الصور المختلفة والتباين العظيم بينهم في المواد والصور والصفات والهيئات والأشكال والطبائع والقوى، اقتضت حكمته أن أخذ من الأرض قبضة من التراب»[1].

فكما أن الله فضَّل أحدًا بمهارة ما، فقد فضل غيرَه بمهارة أخرى عليه، فلم يؤتَ أحدٌ كلَ الفضل كافة، وكذلك الأخلاق والطباع فلا ينبغي أن يعترض العبد المسلم على أي فضل من ذلك أو نَقص﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤]، حتى الرسل متفاوتون في الفضل بينهم لأسباب حكيمة لا نشك فيها مطلقا: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣].

وكلُ ما لدينا من فضل أو من نَقص، هو محل اختبار للعمل الذي سنحاسَبُ عليه في الآخرة، فلكلٍ منا اختبارُه الخاصُ والمختلِفُ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف:١٩]، ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١].

۞ **مثال للطباع الجِبِلِّيَّة:** المرونة والصلابة، والنشاط والفتور، والجُرأة والخجل، والتعجل والأناة، والحدة والليونة، وغيرها من الثنائيات المتباينة، بدرجات مختلفة كذلك.

---

(١) ابن القيم: «التبيان في أقسام القرآن» ص٢٠٤.

۞**مثال للمهارات الجِبِلِّيَّة:** سرعة البديهة، واللباقة، والدقة الحسابية، ومهارة الترتيب أو التدقيق أو التخطيط، وغيرها من الأمور المرتبطة بعوامل بدنية أو عقلية أو حسية أو إدراكية.

۞ **ومثال للأخلاق الجِبِلِّيَّة:** الحياء والحِلم والكرم والشجاعة والجُبن والإقدام، وغيرها من التفاعلات المرتبطة بعوامل شخصية، ومتصلة بشكل مباشر بتعامل الإنسان مع ربه ومع نفسه ومع غيره ومع بقية مخلوقات الله من أحياء وجمادات.

والطباع والمهارات، تظهر بوضوح منذ الطفولة، فيولَدُ الإنسانُ بنزعاتٍ سلوكية محددة يمكن أن تظل ثابتة نسبياً معه مدي الحياة، مثل: البطء، واللباقة، وسرعة البديهة، ورهافة الحس إلخ، إلا أنها أمور قابلة للتزكية والتخلية والتحلية والتطوير والتبديل بحسب العوامل الخارجية والتربية وتوفيق الله، بينما الأخلاق العامّة يتأخَّر ظهورها قليلا بخاصة أن غالبيتها يكون مُكتَسَبًا فيما بعد من البيئة الخارجية والتربية وتوفيق الله كذلك، فكلهم نستطيع الاكتساب منهم ولو بدرجات ولكن الأخلاق هي أهم ما ينبغي العناية باكتسابه فيهم جميعا بالتزكية المستمرة منذ الطفولة؛ ثم يليها في الأهمية الطباع، ثم المهارات؛ وقد أفلح من تزكى.

بخلاف ما تجدونه ضمن أدبيات التربية الغربية للأسف، والتي توصِي بأن نترك طباع الطفل وأخلاقه كما هي، فهي ليست بالضرورة سيئة وإنما ربما نحن فقط مَن نراها سيئة، وأن علينا أن نتأقلم معها ونرى جوانبها المضيئة فحسب، بما يتماشى بالطبع مع مبدأ غربي آخر لديهم: مبدأ نسبية الحقيقة والقيم للأسف، فليس هناك إذًا خطأ مطلق ولا صواب مطلق، والحقيقة والقيم نسبية بحسب النفوس والأهواء بزعمهم.

فيهتمون بالطباع الأصلية للطفل ويتركونها على سجيتها دون تدخل أو توجيه، ويترجمون الطباع السيئة منها ترجمات حميدة؛ كقول بعضهم أن الطفل العنيد ليس

طفلًا سيئًا إنما هو طفلٌ قويٌّ! وأن الطفل الحساس هو ليس هشًّا قابلًا للكسر إنما هو قوي أيضًا لعدم تقبله الانصياع لمعاملات اجتماعية معينة يرفضها ويراها «لا تليق» بشخصه وأهوائه وطبائعه.

وقد قرأت بنفسي يومًا ما يتفق مع ذلك بالفعل، في كتابات إحدى المربيات وهي تمتدح الطفل الحساس وكيف أنه (متمَكِّن) بقوة من تعريف نفسه للآخرين كولد (حساس) لا يَقبَلُ النصيحةَ إلا لو كانت بلطف وثناء على جوانبه الشخصية الإيجابية أولا، وأنّ على الآخرين أن يتأقلموا مع هذا إن أرادوا استجابة مِنه.

والحقُ أن من يقول ذلك لم يفلح في تعديل سلوك الأطفال، فزعم بسبب ذلك أنه غير قابل للتعديل وأن على الأهل التأقلم معها وحسب، في حين أنها عمليًا قابلة للتعديل والمجاهدة والترقي والتهذيب بالفعل لمن أراد واستعان بربه، بل وأسهل مراحل ذلك هي الطفولة التي يريدون منا أن نتأقلم معها كما هي!

مصداقًا لكلام الإمام أبي حامد عن الطفل الصغير: «الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرةٌ ساذَجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نُقش، ومائلٌ إلى كل ما يُمال به إليه، فإن عُوِّدَ الخيرَ وعُلِّمَه نشأ عليه وسعِد في الدنيا والآخرة أبواه وكلُ مُعَلِّمٍ له ومؤدِّبٌ له، أي أن كل هؤلاء سيسعدون هم أيضًا معه، وإن عُوِّدَ الشرَّ وأُهمِلَ إهمالَ البهائم شَقِيَ وكان الوِزرُ في رقبةِ القَيِّمِ عليه والوالِي له»[1].

وبالتبعية لكل ذلك، يرفض أنصارُ تلك النظريات من المسلمين - تماشيًا وتماهيًا معها - محاولات معينة لتعديل سلوك الطفل - أو الأبناء بشكل عام - إلى الأفضل، فيؤخرون تقويم جملة من الأخلاق الإيمانية أو وربطها بالدين في مواقف التأديب اليومية، بزعم أن الطفل قبل سبع سنوات لا يُدرِكُ ذلك أو ليس مُخاطَبًا به بعد أو سينفر من الدين ويكره تحكّمه في حياته إلخ.

(١) محمد بن محمد الغزالي أبو حامد - إحياء علوم الدين - مع الأخذ في الاعتبار مآخذ علماء العقيدة على بعض ما ورد في الكتاب، عفا الله عن الشيخ الكريم.

وهـذا متوقـع بالطبـع، فتلـك البدايـات تـؤدي لتلـك النتائـج: اختلفـت المنهجيـة فاختلفـت الأولويـات والوسـائل، فاختلفـت بالتالـي النتائـج، فـلا يصـح أن نسـتهدف تحقيـق ثمـرات «المسـلم الربـاني»، ثـم نسـتعمل منهجيـة ووسـائل غيـر المسـلمين، وننتظـر النتيجـة المرجـوة.

ثالثا: أن تفاعل الإنسان مع كل تلك المعطيات الربانية المتنوعة، بإرادته الحرة هو الذي ينتج شخصًا خبيثًا أو طيبًا بحسب تأثره بالبيئة التربوية من حوله من عدمه، وعوامل أخرى متشابكة.

فليـس معنـى الحديـث، أن الله يخلـق إنسـانًا شـريرًا أو خبيثًـا بالفطـرة كمـا قـد يتوهـم البعـض مـن سـياق الحديـث المذكـور آنفًـا، وإلا فكيـف يعذبـه علـى صفـات خبيثـة فطـره وجبلـه ﷻ عليهـا - حاشـاه سـبحانه! - إنمـا المـراد أن: عامـل اختـلاف (معـادن التربـة) يـؤدي لاختـلاف (آثـار النـاس) عمومًـا، ثـم يَظهَـرُ أثـرُ كلِ إنسـان (طيبًـا) أم (خبيثًـا) بحسـبِ عملـه وإرادتـه الحـرة، فيصبـح الإنسـان إذن إمـا خبيثًـا وإمـا طيبًـا، بحسـب تزكيتـه لنفسـه بالأعمـال فيمـا بعـد مِـن عدمهـا[1].

وقـد قـال العلمـاء في شـرح «أبـواه» الـواردة في حديـث (كل مولـود يولـد علـى الفطـرة)، أنهـا ليسـت خاصـة بالوالديـن فحسـب، إنمـا المقصـود بهـا البيئـة عمومـا بالفعـل، لكـن جـيء بالأبويـن لأنهمـا الأقـرب في بيئـة الطفـل للتأثيـر عليـه.

فخلاصـة الكلام، أن اجتمـاع الطبـاع والخصـال والمهـارات [الجِبِلِّيَّـة] هـو مـا يُخـرِج لنـا هـذا التنـوعَ الضخـم في الشـخصيات، فنجـد نتيجـة لذلـك: الطفـل المريـح، أو العنيـد، أو العصبـي، أو الهـادئ، أو الحركـي، أو الكسـول، أو الذكـي، أو الأقـل ذكـاء، أو المحـب

(١) هذا المعنى لم أجده في شروح الفقهاء للحديث، فاجتهدتُ في استنباطه بعد طول بحثٍ حول ما يَدفع تلك الشبهة المتوهمة من الحديث فلم أجد، ثم عرضت اجتهادي ذا على الشيخ الدكتور منصور الصقعوب نصًا كما في الفقرة، وأَقَرَّني عليه واستحسنه، فلله الحمد. التعريف بالشيخ الفاضل كاملا موجود على موقع مداد، وموقعه الرسمي.

للنظام، أو المثير للفوضى، أو الفضولي الشغوف بالاستكشاف، أو قليل الاكتراث بما حوله كثير الانسحاب إلى عالمه الخاص الممتع بالنسبة له، أو سريع الضحك والتبسم، أو الرزين الهادئ كالبالغين، أو الاستحواذي إلخ.

أي إننا لن نجد طفلًا سيء الأدب بالفطرة أو يشتم ويضرب بالفطرة، لكن قد نجد طفلًا سيء الأدب بالمحاكاة أو ربما بسبب تطور نموه الإدراكي عمومًا واكتسابه من بيئته ما يجعله كذلك، فربما يضرب ويشتم بسبب قسوة المعارف والأهل معه مثلًا.

كذلك، لا يُولد طفل لئيم وماكر بالفطرة، يُرزَقُ كل الأطفال الذكاء، لكنه بدرجات من طفل لآخر، فمنهم من تؤثر تربيته وميوله في تحويل الذكاء العالي إلى مَكر ولؤم وخداع، ومنهم من ذكاؤه قليل فينَمِّيه ويستعمله في الخير.

مثال آخر: لا يُولد شخص متحرش بالفطرة، بل نولد كلنا بشهوة غريزية فطرية، لكن بدرجات مختلفة كذلك، فمنا من يهذبها بالتربية، ومنا من لا تصلح معه التربية فيختار بإرادته الحرة أن تطغَى شهوتُه على القيم حتى لو صار متحرشًا.

* **لماذا كل هذا التأكيد على تلك النقاط البدهية؟** لأن هناك دراسات غربية - كاذبة - تزعم أن الجينات الوراثية تحمل الأخلاق والسلوكيات السيئة، وهذا كذب قام بفضحه د/ إياد قُنيبي في رده على من يزعمون أن الشذوذ عن الفطرة له جِين وراثي مسئول عنه، فقال بارك الله فيه: «ادّعاء وجود جين معين لصفة سلوكية معينة هو أمرٌ يكذِّبُه علم الجينات الحديث - كما يبين البحثُ العلميُ المنشورُ في مجلة نايتشر العلمية المعروفة عام ٢٠٠٨ - والذي يبين أنه حتى الصفات الجسمية البسيطة قد اتضح بعد فك الشيفرة الوراثية أنها أعقد من أن تُربَط بجين معين أو حتى مجموعة جينات محددة، فكيف بالصفات السلوكية التي هي أعقد بكثير من الجِسمية؟ ولولا مخافة الإطالة عليكم لأتيتُ لكم بقصةِ «الجين المُحارِب»- "Warrior gene"، الذي أصبح بإمكان بعض المجرمين أن يضموه إلى ملف الدفاع عنهم في المحاكم

لتخفيف عقوبتهم - بناء على أبحاث علمية كاذبة بالطبع - كما حدث مع المجرم برادلي وولدروب، ولَحَدَّثْتُكم عن كتاب الدكتورين «ثورنهيل» و«بالمر» اللذَينِ يبرران فيه الاغتصابَ على أنه سلوك جيني طبيعي!»[1].

فعقيدة المسلمين إذن: أن الشخص يولد بطبائع معينة ومختلفة عن غيره، فيحولها بإرادته الحرة إلى سلوكيات تؤدي في نهاية الأمر إلى أن يصبح شخصًا خبيثًا، أو العكس: شخصًا طيبًا.

ونستطيع اختصارًا تسمية الطباع والأخلاق والمهارات بمسمى واحد: (الخِصال)، فنلاحِظ في حديث «المنذر» كيف أن النبي ﷺ سَمى الحلم والحياء - وهما أخلاق - وسمى الأناة - وهي طبع - سماهم جميعًا بالخِصال، والخِصال نوعان أو فرعان، ونتناولهما الآن بشيء من التفصيل.

أولا: النّوع الأوّل الخصال الجِبلِّيَّة

۞ **قد تكون جينية موروثة،** لدى شخص معين أو أسرة أو عائلة معينة كاملة، متوارَثة من خلال السلسلة الجينية العائلية وربما جيلًا بعد جيل، وكثيرًا ما نسمع عن أسرة أو عائلة أفرادها مشهورون بكذا وكذا من الخصال، ولم يرَ بعضهم البعض: كفلان قوي الإصرار مثل أبيه ولم يره، أو فلان سخي اليد كجده ولم يره، أو فلانة لبقة مثل أخوالها ولم تَرَهُم.

۞ **وقد تكون خِصال فطرية فردية خاصة،** وهبها الله مَن شاء مِن عباده وليست بالضرورة في سجلاته الجينية، كما حدث في حديث المنذر المذكور في بداية الفصل.

۞ **وقد تكون خصال فطرية عامة،** فطر الله عليها عامة الناس، فلم يفلت منها أحد.

---

(١) حلقة (١١) بدمج عدة دقائق معا، من سلسلة رحلة اليقين، للدكتور إياد قنيبي.

منها الفطرة الأخلاقية والقيمية [1]

وهي مركوزة فينا جميعا بالتساوي، أي بنفس الدرجة، ومنا من يصونها وينميها أكثر ومنا من يخدشها ويُضعفها بل ويُنكِّسها.

ومنها فِطرة لوازم النقص البشري العام

كالهلع والجزع عند الشدة ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢٠]، والعجلة ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولا﴾ [الإسراء:١١]، وشدة حب الخير والمال والنِعم ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيد﴾ [العاديات:٨]، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠]، ﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ ا[فصلت:٤٩]، والبخل والشح وخشية الإنفاق ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:١٠٠]، ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء:١٢٨]، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:٢١]، والخوف من الموت والحرص على اجتناب أسبابه ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة:٨].

وبعضها من الفطرة الغريزية كما لاحظتم، وكلها متفاوتة الدرجات بين البشر، فقد تجد طفلًا شديد الخوف أكثر من المعتاد، وقد تجد آخرَ سخي اليد بالحلوى واللعب أكثر من المعتاد، ويكونان قد تلقيا نفس التربية وتعرضا لنفس البيئة والمؤثرات الخارجية، وكلها قابلة للتعديل، أو المقاومة، أو الزيادة، بالتزكية والتخلية والتحلية، والذي يعنينا في العملية التربوية بشكل أساسي هو «الخِصال الجِبلِّيَّة» و»لوزام الفطرة المتعلقة بدرجات النقص البشري»؛ لأن هاتين النقطتين هما اللتان تختلفان من طفل لآخر وتميزانه، وتختلف على أساسها خطتنا التربوية له.

---

(١) تفصيلها في بقية أقسام اكتاب.

ثانيا: النوع الثاني من الخِصال: المكتسبة/ الكسبية

تتكون بحسب تزكية الإنسان لنفسه وطاعته لله ﷻ وتأثُّره بالبيئة والمعرِفة والقَبَلية والخبرات الحياتية وما إلى ذلك، وتلك يأخُذ عليها أجرًا.

وقد نجد فئة أو بلدًا أو مجتمعات معينة متصفة بخصال عامة مشتركة متوارَثة فيما بينهم أو نتيجة لعوامل البيئة وظروف المعيشة، مثل ما اشتهرت عليه العرب قديمًا من الكرم والمروءة، وما اشتهرت به الأعراب من جفوة وغلظة وصعوبة طباع، وما يشتهر به المصريون من الألفة وروح الممازحة، أو فرع معين من عائلة ما معروف بسلاطة اللسان، وما إلى ذلك.

وبعد تلك المقارنة بينهما، نجمعُ عِدةَ حقائق:

حقيقة رقم١

الخِصال الجِبِلِّيَّة الحسنة ليس عليها أجر بذاتها لأنها كلها نعمة ورزق موهوب من الله، يُؤجَر صاحبُها حين يستعملها في عبودية الله، ويؤزَرُ ويأثمُ لو أنه بدَّلَها أو لم يَصُنْها أو لم يُؤَدِ شكرَها، أو لو استعملها في معصية الله وما يتنافى مع شكرها، قال ﷻ: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١]، قال السعدي في شرحها: «لأن من أنعم الله عليه نعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقم بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت وتبدلت بالكفر والمعاصي فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله وقام بحقها فإنها تثبت وتستمر ويزيده الله منها»(١).

و(المنذِرُ) ما إن علم أن الله فطره على بعض تلك الخِصال والأخلاق الحميدة شكر الله وحمده، مثلا: خُلُقُ الكرمِ، لو فَطَرَ اللهُ إنسانًا عليه، فاستعمله في معصيته، أو

---

(١) تفسير السعدي للآية.

حَوَّل الكرم إلى إسراف في غير محله فلم يُطَبِق فيه مراد الله، أو خصصه لأشخاص بذاتهم فحسب وعطَّله عن غيرهم من أصحاب الحقوق مثلا: فهنا يأثم.

حقيقة رقم٢

الخصال الجِبلِّيَّة العامة الأخرى - كالجبن والحرص إلخ - ليس عليها وزر بذاتها، لأنها مما جَبَلنا الله عليه وقد أودعها الله فينا لأجل استقامة معيشتنا ولحِكَم أخرى لا تُحصَى، فنُؤزَر ونأثم حين نسيئ استعمالها ونجعلها تتجاوز الحد المسموح لها شرعًا، ولا حرج علينا فيما دون ذلك.

أمثلة:

الخوف من الموت مثلا مركوز فينا لأجل أن نحافظ على حياتنا التي وهبنا الله إياها لعبادته، ولكننا في نفس الوقت مأمورون بمقاومة هذا الخوف عند مواطن معينة من باب العبودية لله كذلك، فمن يبخل بحياته في تلك المواقف، يُؤزَر، ومن خاف الخوف الطبيعي الجبلي لصيانة حياته كما أمره الله فلا حرج عليه.

۞ **مثال لانعكاس ذلك في يومياتنا التربوية:** ليس من التربية أن تدفع أمٌ ولدَها إلى إلغاءِ خوفه على حياتِه تمامًا بزعم أنها تُعلمه الشجاعة؛ فمن شبَّ على ذلك ربما هلَك سريعًا بتهورِه قبل أن يجمع الزاد الكافي للآخرة، وربما أصيب بعاهات بدنية تقعده عن إكمال السعي المأمول في الحياة.

والحرص على المال وعلى عدم هدره كذلك مركوزٌ فينا لأن به قِوام معيشتنا وقضاء حوائج حياتنا التي وهبنا الله إياها لنعبده وأمرنا أن نلبي حوائجها لنتمكن من عبادته، لكننا في نفس الوقت مأمورون بمقاومة شح النفس ذا في مواطن مرضات الله، فمن بخل به في سبيل الله ولم يجعل فيه الحق المعلوم للسائل والمحروم يأثم، ومن عرف فيه حق نفسه وحق الآخرين بما يرضي الله يؤجر، ومن ألغى تمامًا من حياته

الحرص على المال فأهدره يمينًا ويسارًا، هلك ماله سريعًا وصار عالة على الناس لا يجد قوت يومه وربما مات جوعًا، سواء كان قد أنفق كل ماله هذا في صدقات أم في لا شيء.

مثال لانعكاس ذلك في يومياتنا التربوية: ليس من التربية القويمة أن يجبر الأبُ ولدَه على التبرع بكل ألعابه وملابسه مثلا بزعم أنه بذلك يعلمه الكرم ويُنفره من الشُحَّ.

وهكذا، فالخِصال الجِبلِّيَّة إذن هي رِزقٌ لدينا مثل بقية الأرزاق، يزيد وينقص بحسب حكمة الله وقضائه، ويحاسِبُ اللهُ عليها المرءَ بحسب رزقه منها وتعامله معها، فلو كانت خصالًا حسنة يكون من باب ﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤]، ولو كانت غير ذلك فيكون من قبيل الابتلاء الذي يختبرنا الله به في عبودية مُجاهدةِ النفس والتزكي بالتخلية والتحلية الموافقة لمراد الله من النفوس: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[الشمس: ٧-١٠] وقد جاءت تلك الآية بعد أطول قسَمٍ من الله ﷻ في القرآن!![1].

وتأملوا مقدار التأكيد فيها على هذه الخُلاصة التربوية: أن التزكية واقعة ومطلوبة وممكنة وقرينةٌ للفلاح، وتركُها مذمومٌ وقرينٌ للخَيبة والندم، وأن الأخلاق والطباع والمهارات يمكن اكتسابها وتعديلها وتنحية السيء منها وتثبيت الجيد منها، بقدر استعانة العبد بربه ومجاهدته لنفسه إرضاءً له ﷻ، وتوفيق ربه له، وهذا هو مربط الفَرَس، فقد يغلب الطبعُ التطبعَ كما يقول عامةُ الناس، لكن يمكن كذلك للتطبع أن يغلبه بحول الله وقوته.

وأبسط مثال لا يَجهلُه مُسلم ويذكره دومًا علماؤنا على إمكانية تدارُك التزكية في كل مراحل الإنسان: نموذج جيل الصحابة حيث غيرهم الوحيان من أقصى الجاهلية السلوكية

(١) جاء أطول قسم في القرآن الكريم في مقدمة سورة الشمس.

إلى قمم النجومية والبطولة والسمو السلوكي، رغم مهاراتهم العربية وخصال الخير التي اشتهروا بها في الجاهلية، لكنها لم تجعل لهم وزنًا مثلما صاروا بعد التربيةِ بالوحيين.

حقيقة رقم٣

خلق الله الملائكة وجبلهم على خصال الخير فقط لغرض عبودية من نوع معين، وخلق البشر وجبلهم على خليط من الخصال والنقص بدرجات فيما بينهم لغرض عبودية من نوع آخر، أن يتعبدوا لله بعبودية:

١. التعوذ به من خصال السوء فيهم وبطلب العون منه على مقاومتها.

٢. مجاهدة النفس في الشر وفي تحليتها بخصال الخير التي ترضيه.

٣. الإقرار بنقصهم وزللهم وضعفهم وطلبهم للمغفرة والعفو لكل سلوكٍ لا يرضيه.

٤. الرجاء في المزيد من فضله في الإنعام عليهم بالخصال الطيبة وتثبيتهم على حسن استعمالها في مرضاته وما إلى ذلك.

كلها صور من العبودية ليست في عبودية الملائكة لربهم، فلو كنا مجبولين بخصال الخير فقط لصرنا مثلهم، ولصافحونا في الطرقات كما قال النبي ﷺ.

نستحضر تلك الحقيقة حين يخطيء أبناؤنا، فهم ليسوا ملائكة، ولا نحن أيضًا.

حقيقة رقم٤

لابد وأن تكون هناك مِسطرة ثابتة حكيمة موثوقة، لتعريف الخُلُق الحسن والخُلق السيء، فالأهواء والعقول تتنوع بأعداد البشر، فلا يمكن ترك تعريف الأخلاق لتلك الأهواء المتقلبة، وإلا ما عادت هناك قيمة أو غاية للأخلاق ابتداءً، ولصارت نسبية حسب كل إنسان كما يزعمون.

وبذلك نكون قد أجبنا باختصار شديد عن معنى الشق الأول من عنوان الكتاب: تعريف «التربية بالوحيين» وفصَّلنا في شق السلوكِ لاتصاله بصلب التربية.



أما بالنسبة للشق الثاني من العنوان «المراحل العمرية»، فالمقصود منه هو: محطات نمو الإنسان منذ تخلقه في رحم الأم إلى أن يلقَى ربه؛ فتلقِي الإنسان للتربية لا ينتهي أبدا، هذا قَدَرُه، أن يظل يتعرض لها طوال عمره، لكن تختلف صورها وعناصرها حسب المرحلة العمرية.

وتفاصيل هذا الشق الثاني من العنوان تقرءونها في الفصل الخامس من هذا الباب، بعدما نستكمل أولا بقية تعريف التربيةِ بتعريفِ مُتعَلَّقاتِها: «لماذا ومتى وكيف التربية بالوحيين؟»، في الفصول التالية.



الفصل الثاني

لماذا التربية بالوحيين؟

علمتنا الشريعة أن الإنسان يجب أن يعِيَ مقاصِدَه قبل البدء في أي أمر ولابد، ماذا يعني ذلك؟ عندما أقول: أنا مقصدي كذا أو أنا أقصد كذا، فالمراد أن هذه هي الأهداف التي أسعى إلى تحقيقها، وبالمثل: توجد لدينا «مقاصد للشريعة»، وهي الأهداف العامة التي تسعى الشريعة لتحقيقها في حياة الناس، ولدينا لكل مرحلة عمرية من الجنينية إلى الهِرَم، نصوص من القرآن والسنة، تشكل منظومتها التربوية والمقاصدية الخاصة بها. **فماذا تعني مقاصِد الشريعة؟ وما هي مقاصد التربية؟**[1].

غالبية كلامنا عن المقاصد التربوية في هذا الفصل وأمثلته، مستفاد من كتاب «دليل المقاصد التربوية العامة»، وهو كتاب في موسوعة كبيرة لكوكبة من العلماء والمختصين، ومن كتاب «الشاطبي ومقاصد الشريعة» د/ حمّادي العبيدي، وكتابَي «الاعتصام والموافقات - للشاطبي»، بتصرف واختصار ودمج بينها.

المقصد العام للشريعة هو تحقيق **مصالح** الإنسان في الدنيا والآخِرة، والتي تتحقق عن طريق جملة أحكام الشريعة الإسلامية، وتلك الأحكام هي: الواجب والمحرم والمُستحب والمكروه والمُباح، مثال: (واجب أن تصون عقلك، حرام أن تقتل نفسك، مستحب أن تتنظف لئلا ينفر منك الناس، يكره أن تقعد نصفك في الظل ونصفك في الشمس، مباح أكل اللحوم) كلها لأجل مصالح الإنسان، فما من حكم شرعي إلا و هو لجلب مصلحة للعباد أو دفع مفسدة عنهم، قال العز بن عبد السلام: «ما أمر الله

---

(١) غالبية كلامنا عن المقاصد التربوية في هذا الفصل وأمثلته، مستفاد من كتاب «**دليل المقاصد التربوية العامة**»، وهو كتاب في موسوعة كبيرة لكوكبة من العلماء والمختصين، ومن كتاب «**الشاطبي ومقاصد الشريعة**» د. حمّادي العبيدي، وكتابَي «**الاعتصام والموافقات - للشاطبي**»، بتصرف واختصار ودمج بينها.

بشيء إلا وفيه مصلحة عاجلة أو آجلة أو كلاهما – أي: دنيوية أو أخروية – وما نهى عن شيء إلا وفيه مفسدة عاجلة أو آجلة أو كلاهما، وذلك بحكم أن القاعدة المقررة أن الشرائع إنما جيء بها لمصالح العباد»[١].

ولدينا في قواعد الفقه الكلية قاعدة شرعية: «التصرف على الرعية منوط بالمصلحة»، استخلصها الفقهاء من النصِّ النبوي الجليل: «ما مِن عَبْدٍ اسْتَرْعاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْها بنَصِيحَةٍ، إلَّا لَمْ يَجِدْ رائِحَةَ الجَنَّةِ»[٢].

فما تعريف المصحلة بالأساس؟ وما هي المصلحة الدنيوية؟ والمصلحة الأخروية؟

❁ **المصلحة**: كل ما يحقق منفعة خاصة أو عامة للإنسان، على المستوى الروحي أو العقلي أو الجسدي، أو يدفع عنه مثل ذلك من المفاسد، في الدنيا والآخرة أو كليهما.

❁ **المصلحة الدنيوية**: المنافع والخيرات التي سخرها الله للإنسان في الدنيا؛ كالشبع، والارتواء، والعافية، والفرح، والأمن، والغنى، والملذات من الأكل والشرب، والملابس، والمساكن، والمركبات، وما إلى ذلك، والمفاسد هي النقيض من كل ذلك.

❁ **المصلحة الأخروية**: المغفرة والعفو، والحسنات، ودخول الجنة، ورضا الرحمن والنظر إليه، والأنس بجواره وتكليمه، وما يؤدي إليها من أسباب دنيوية: كالإيمان، وطاعة الله، وإخلاص النية، وما إلى ذلك، فالوسائل الدنيوية المؤدية للمصلحة الأخروية هي في حد ذاتها: مصلحة أخروية، والمفاسد الأخروية هي

(١) دليل المقاصد التربوية العامة، نقلا عن كتاب الفوائد في اختصار المقاصد للعز بن عبد السلام.
(٢) صحيح البخاري ٧١٥٠.

العكس من كل ذلك: كالسيئات، وغضب الله، والطرد من رحمته، ودخول النار والعياذ بالله»[1].

فهل المصالح لها مراتب؟

الجواب: نعم بالتأكيد، ولكن كونوا معي إلى النهاية لأن هذا الموضوع تأسيسي جدًّا ويحتاج إلى حسن فهم وصبر، حيث تأتيني استشارات من أمهاتٍ ما إن أقرأها حتى أدرك أن المشكلة وموطن الخلل هو بسبب خلل وخلط لدى المُرَبي والمُتربي في هذه المراتب.

فأعيروني آذانكم وأعينكم إلى نهايته، وأوصيكم بمعاودة قراءته مرة أخرى بعد إنهائكم الكتاب، وقارنوا بأنفسكم كيف أن هذا الفصل لا غِنى عنه للمربين بالوحيين على بصيرة.

فما مراتب المصالح البشرية، الدنيوية والأخروية؟

١. مرتبة المصالح الضرورية - الضرورات ومكملاتها.

٢. مرتبة المصالح الحاجية - الحاجيّات ومكملاتها.

٣. مرتبة المصالح التحسينية - التحسينيات ومكملاتها.

والمعنى ببساطة، درجات المصالح البشرية الدنيوية والأخروية هي:

الضرورات:

١. لا غِنى عنها لاستمرار حياتنا أو استمرارها بلا ضرر بالغ.

---

(١) دليل المقاصد التربوية العامة، نقلا عن كتاب الفوائد في اختصار المقاصد للعز بن عبد السلام، بتصرف يسير واختصار ودمج بين كلامه وكلام الكتاب.

٢. يمكن أن يصيبنا الهلاك أو قريبًا منه من دونها.

٣. مصالح الدين أو الدنيا تتوقف عليها.

٤. إذا فسدت أو اختلت يختل النظام العام وتؤول الحياة إلى زوال.

٥. وإذا حُفِظَتْ تُحفَظ الحياة البشرية ويستمر العمران.

٦. وتُعرف في الشريعة بـ (الكُلّيّات الخمس) وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

٧. وتعتبر من أصول الدين.

الحاجيات:

١. أمور هامةٌ جدا لابد منها لرفع الضيق والحرج والمشقة.

٢. ولكن لن نموت مثلًا أو نصل إلى نهاية محتومة لو تركناها ولن يفسد النظام العام ويختل لو اختلت، وإن كنا سنتعب ونعاني من المشقة.

٣. متعلقة بتيسير مصالح الإنسان.

مثل السيارة في أيامنا والهواتف والإنترنت والصنبور والحفاضات، زجاجات الرضاع ربما إلخ، تَصعُب الحياة بدونهم لأنها صارت من العناصر الحياتية اليومية المرتبطة بالوظيفة والمدرسة والسفر والمعيشة، ولكن هل سنموت بدونها؟ هل خلقنا الله لا نستطيع الحياة بدونها؟ هل الحياة تزول بدونها ونظامها العام يختلّ تمامًا لو لم تكن موجودة؟ كلا، وللأسف هناك أناس يتعاملون معها وكأنها ضرورات ويقدمونها على ضرورات بالفعل، في حين أنها مجرد حاجيات يمكن الاستغناء عنها إذا لم تتسبب في ضرر كبير مثلًا، بالتالي تُصنَّف كحاجيات إلا فيما قد تتصل به من

الضرورات الخمس لسبب ما، مثلًا: تصبح السيارة من الضرورات لو أنها ستستعمل في إنقاذ حياة إنسان، وما إلى ذلك.

التحسينات:

١. أمور تكميلية أو كماليات مما تتجمل به وتتزين مصالح الدنيا والآخرة.

٢. أي أن فيها مصلحة لنا لكن لو فاتتنا فلن تفنى حياتنا ولن تتعسر، وإن كانت قد تتصف بشيء من القُبح باختفاء بعضها، ولكن منها أمور لو اختفت قد لا نشعر بها أصلًا، حسب كُلّ شخص وطباعه وتربيته وقناعاته إلخ.

مثل تنوع خامات وألوان الملابس، وأنواع الأكل المختلفة، والرسوم المتحركة، وكرسي الطفل الهزاز، والسفر للتنزه والسياحة، وآداب الطعام، والمظهر الكريم والتزين، والذوق السليم، والطهارة من النجاسات، وعدم البخل بالمال على المحتاج إلخ.

يقول الشاطبي في الموافقات: «المقصود الأعظم في المطالب الثلاثة: المحافظة على قسم الضروريات، ومن هنا كان مُراعًى في كل ملة – أي: لذلك كانت تتم مراعاته في كل الشرائع – فلم تختلف فيه الملل كما اختلفت في الفروع، فهي أصول الدين وقواعد الشريعة وكليات الملة، وكل ما سوى هذه المصالح الضرورية إنما هي خادمة لها:

١. إما (بالتيسير) كما هي مَهمة المصالح الحاجية.

٢. وإما (بالتجميل) كما هي مَهمة المصالح التحسينية»[1].

ونضرب أمثلة عامة أخرى من الأمور اليومية لتتضح المقارنة بوضوح بين

---

(١) الموافقات – للشاطبي – نقلا عن كتاب «**دليل المقاصد التربوية العامة**»، بتصرف يسير تبسيطًا للعبارة.

المراتب الثلاث فيما يخص المصالح بنوعيها:

فأما المصالح الدنيوية

فالضرورات: كالمأكل والمشرب والمسكن والملبس - على اعتبار أن المرء من دونهم يكون عرضة للمرض والموت - والزواج والمركبات التي نجلب بها أيًا من الضرورات، وما إلى ذلك، بأقل صورة ممكنة لحفظ الضرورات الخمس، فأقلُ قدرٍ مطلوبٍ للإنسان من كل ذلك ضروريٌ.

والتحسينات: هو كل ما كان من كل ذلك لكن بدرجات أعلى، كالأكل اللذيذ والعصائر الشهية، والسكن في القصور، والملابس الفاخرة، والمركبات الفارهة، والزواج من أحسن القبائل والعائلات، وما إلى ذلك.

والحاجيات: هو ما توسط بينهما.

وأما المصالح الأخروية

فالضرورات: كفعل الواجبات واجتناب المحرمات.

والتحسينات: كالمندوبات والأمور المستحبة.

والحاجيات: كفعل السُنن المؤكدة، والرخص والتخفيف ورفع الحرج، وكل ما ييسر أمر الدين.

ومن رحمة الله أن طلب منا الاجتهاد في جلب مصالح الدنيا والآخرة، واجتناب مفاسدهما، ولكنه أمرنا بالتنافس في المصالح الأخروية، ونهانا عن التنافس في المصالح الدنيوية التي تتعلق بأنفسنا، وأرشدنا إلى الاقتصاد والاقتصار على الكفاف منها وذلك لأن مصالح الآخرة خيرٌ وأبقى ومفسادها شرٌ وأبقى، قال ﷻ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧]، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، وذلك لا

لشيء إلا لإسعاد الإنسان (حالًا) في حياته الدنيا، و(مآلًا) في حياته الآخرة[1].

وليست كل الكليات الخمس على نفس الدرجة من الضرورة، فبعضها أهم من الآخر، **مثلا:** حفظ الدين مقدم على حفظ النفس، وحفظ النفس مقدم على حفظ المال.

كذلك توجد فطرة بداخلنا تحركنا بشكل سليم تجاه هذه المراتب بحسب درجتِها، إلا من تلوثت فطرته وأصبحت الضروراتُ لديه تحسينياتٍ والتحسينياتُ أصبحت ضروراتٍ، وهكذا.

مثال: الأب الذي يهتم بدرجات التحصيل الدراسي لابنه ولا يهتم بدرجات الإيمان في قلبه والعبودية في جوارحه، أو الأم التي اعتنت بلون غرفة الطفل وستائرها ونعومة الوسائد، ولم تهتم باختيار الأب الذي سيربي هذا الطفل، كلها مصالح للطفل، لكن شتان بين درجات أهميتها للإنسان، بل إن بعضها يحتاج لإعادة تقييم لمدى أهميته من الأساس!

فما المقاصد التربوية العامة في الشريعة؟

هي مجموع (القيم المصلحية الشرعية) التي ينبغي أن يتعلمها الإنسان ويُرَبَّى عليها، بحسب كل مرحلة عمرية، وتشمل مراتب المصالح الثلاثة: الضرورية والحاجية والتحسينية، وهي ما عبر عنه الشاطبي بـ (صُلب العلم)، وهذا العلم الصُلبي هو ما ينبغي أن تنبني عليه المناهج التربوية في مختلف المؤسسات التعليمية على امتداد كل المراحل العمرية، ومن أهم تلك المقاصد التربوية: مقصد حفظ الدين، ومقصد حفظ النفس، ومقصد حفظ العقل، ومقصد حفظ النسل، ومقصد حفظ المال،

---

(١) تلك الفقرات كلها: مستفادة من دليل المقاصد التربوية العامة، نقلا عن كتاب الفوائد في اختصار المقاصد للعز بن عبد السلام، بتصرف يسير واختصار وتبسيط يسير للعبارات، ودمج جزء من كتاب المقاصد إليها في نفس السياق، من ص ٤٩ – ٥٢.

ومقصد التعليم، ومقصد إخراج المكلف عن داعية هواه، ومقصد حفظ الفطرة، ومقصد إقامة العدل، ومقصد صون الكرامة، ومقصد حفظ الأخلاق، ومقصد الحس الجمالي، ومقصد رفع الحرج، ومقصد التوسط إلخ[1].

ولنا في فصول الكتاب أمثلة تطبيقة يومية على كل ذلك بحسب المرحلة العمرية، من جهة المراتب الثلاثة: الضرورات والحاجيات والتحسينيات، وما يتفرع عنها من مصالح دنيوية أو أخروية، لنتعلم كيفية تطبيق ذلك وتحقيق المقاصد التربوية، لكن نعطي نماذج يسيرة الآن بشكل عام على المقاصد التربوية كالتالي:

حفظ الدين

أولا: لماذا حفظ الدين ضرورة؟ فربما منكم الآن من قد يتساءل: نحن بالتأكيد نعلم أن (النسل، والنفس، والعقل، والمال) بطبيعة الحال قد نموت لو لم نحافظ عليهم، ولكن: الدين**!**؟ والجواب: نعم يمكن أن نموت وتفسد بقية العناصر لو لم نحافظ عليه.

۞ **مثال بسيط**: ديننا مثلا حَرّم الانتحار، وقَتلَ النفس بغير حق، وإفسادَ العقل، وإفسادَ النسل، وإهدارَ المال إلخ؛ فبالتأكيد من دون الدين بقواعده وأصوله وشعائره وقيمه وأحكامه وسُلطانه، سنموت وتَفسَد بقية الضرورات الخمس وحاجياتها وتحسيناتها، بالتالي ستجدون معنا في الحقوق والمقاصد التربوية لكل مرحلة عمرية، عنايةً خاصة بحفظ الدين سواء من خلال مرتبة الضرورات أو الحاجيات أو التحسينات، حتى في المرحلة الجنينية[2].

ثانيا: يتضمن حفظ الدين حفظَ الفطرة بمكوناتها كلها:﴿فِطرة اللهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيها﴾ [الروم: ٣٠]، ويتضمن تجميله في أعين الناس بإظهار محاسن الإسلام

---

(١) دليل المقاصد التربوية العامة، باختصار يسير.

(٢) كل الأمثلة هنا من كتاب **دليل المقاصد التربوية العامة**، باختصار شديد ودمج بين الفقرات، بدء مما بعد ص٧٦ إلى نهاية الباب.

وكماله التشريعي والتربوي والحضاري والعلمي ونحوه، وهذا من التحسينات الدينية، ويتضمن تعميم« التربية على قيم الإسلام »وإدماجها في كل مؤسسات التربية والتعليم وتسخير كل وسائل الإعلام الحديثة في الدعوة إليه والعمل على إقامته في جميع المجالات وعلى كل المستويات، ليصبح الإسلام أمرا ميسورًا قريبًا إلى عموم الناس ومحببًا إليهم، وهذا من الحاجيات الدينية[1].

حفظ النفس

عن طريق وسيلتين:

١. ضمان صيانة وحفظ (أصل النفس) في حد ذاته؛ عن طريق تشريع التناسل.

٢. بجانب ضمان (بقاء النفس) بعد خروجها للوجود؛ عن طريق منع القتل ومسبباته، وتوفير المأكل والمشرب والعلاج، إلى آخر ما يحفظ النفس من الداخل، وعن طريق توفير الملبس والمسكن للوقاية من حر الشمس وقرس البرد والأمراض وستر الجسد ولحفظ كرامة النفس وأمنها، إلى آخر ما يحفظ النفس من الخارج.

ومن ذلك: حفظ (أمن النفس)، وصيانة الأعراض عن القذف والسب واللعن والضرب المُحرم والضرب على الوجه، والامتناع عن تقييد نشاط الفرد بدون مُبرر، بل تحقيق حرية التنقل، ومنع كل ما يؤدي إلى التعدي على حرمة النفس وكرامتها وصلاح حالها، فمن ذلك أيضا: تحريم شرب الخمر ونحوها من مغيباتٍ للعقل، لما فيه من إفساد للعقل ولو مؤقتًا، باعتبار العقل جزءًا من النفس.

أيضًا سبحان الله من حفظ النفس: (تشريع الرُخَص)، فالرخص الشرعية هي تيسير من الشريعة على الإنسان لرفع الضرر والمشقة الذّين يلحقان بالنفس في حال تنفيذ حُكم شرعي مُعين، وكم سمعنا عن أمهات حوامل يشققن على أنفسهن ويخالفن

(١) من دليل المقاصد التربوية العامة ص٩٢-٩٤.

وصية الأطباء لهن بعدم الصيام مثلا لخطورة معينة على حياة الجنين، فيَصُمن خِلسةً متجاهلاتٍ الرخصة التي شرعها الله لحفظ النفس.

كذلك من الرخص: الإفطار في رمضان، والصلاة مضطجعًا، والتيمم إلخ، وتذكرون قصة الرجل الجريح الذي كان على عهد النبي ﷺ ولم يُرخِص له بعض الناس في عدم استعمال الماء فاغتسل فمات فقال النبي ﷺ: «قتلوه قتلهم الله»[1].

فالشخص الذي يمنع هذا التيسير عن إنسان آخر فإنه يعمل ضد مقاصد حفظ النفس وربما أدى لهلاكه، ونسمع كثيرًا عن أُمهات وآباء يفعلون مثل ذلك مع ولدهم بالفعل، ويتعنّتون في أمور يسّرها الشرع على النفس، بما يندرج تحت النص الشرعي: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨][2]، وبالتأكيد أشهر مسألة معروفة في حفظ النفس هي: تحريم الإسلام قتل النفس بغير حق.

حفظ العقل

ما العقل في الإسلام؟

وهنا فقرة تحتاج من القارىء الكريم لصبر وتمعن وتأمل، فلا يظنها فقرة فلسفية معقدة أو دون جدوى، فتحليلنا لعناصر العقل وتعريف كل عنصر منها سيبين لكم السبب وراء إجراءات حفظ العقل التي سنذكرها في الكتاب، بما يؤكد لكم مدى ارتباط الخلل الذي قد يطرأ على أي من تلك العناصر، بوقوع الإنسان في الخطأ والفتن والشبهات والتخبط وما إلى ذلك، وكيف أن صيانة تلك العناصر مجتمعةً هو صيانة للفطرة العقلية في الأساس ومن صميم التربية، فتأملوا معنا.

---

(١) حسنه الألباني - صحيح أبي داود - أخرجه أبو داود (٣٣٦) واللفظ له - والدارقطني (١/ ١٨٩)، والبيهقي (١١١٥).

(٢) دليل المقاصد التربوية العامة.

العقل هو

«العلمُ الأول الذي يَزجُر عن القبائح، وكل ما كان الإنسان زاجِرُه أقوى، كان أعقل»[1].

«آلةُ الفهم، وحاملُ الأمانة، ومحلُ الخطاب والتكليف، وأشرفُ صفات الإنسان»[2].

«يشمل أربعة عناصر: الفكر، والعلم، والعمل، والمنهج»[3].

فالفكر: هو إعمال العقل في أمر معلوم، للوصول إلى أمر مجهول، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥٠].

والعلم: هو الحقائق التي ينبني عليها الفكر، سواء أخبار صادقة أو حقائق علمية ثابتة ونحوها: ﴿كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩]

والعمل: هو الفكر + العلم اللذان يربيان صاحبهما بحيث تظهر آثارهما التربوية عليه، تجاه الخالق وسائر المخلوقات[4]، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُور﴾ [فاطر:٢٨]

والمنهج: هو الطريقة التي يتم بها إعمالُ ((الفِكر)) وضبطه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]

❊ بالتالي من حفظ العقل:

---

(١) كتاب دليل المقاصد التربوية العامة، نقلا عن معجم الفروق اللغوية-أبو هلال العسكري.
(٢) كتاب دليل المقاصد التربوية العامة، نقلا عن «شفاء الغليل» - أبو حامد الغزالي.
(٣) كتاب دليل المقاصد التربوية العامة، باختصار.
(٤) تعريف الفكر وتعريف العمل: من كتاب دليل المقاصد التربوية العامة، بتصرف يسير، ص١٣١، والآيات إضافةٌ مني.

١. حفظ كل ما تُحفَظ به النفس ضمنيا، من توفير هواء وماء وغذاء وعلاج وأمن.

٢. وتوفير التعليم وسبل المعرفة والحث على قراءة وطلب أنفع العلوم.

٣. وحفظ كل ما من شأنه أن يجعل العقل يتربى على الفهم والنظر والتأمل واتباع الدليل والبرهان.

٤. والحث على التفكر في خلق الله وإتقان صنعته الكونية في الأنفس والآفاق.

٥. وتحرير الفكر والعلم والعمل والمنهج، من الخُرافات والشعوذة والتناقض والعلوم الزائفة واتباع الهوى والتقليد الأعمى والأوهام والخيالات التي لا تقوم على حُجج.

٦. وتحريره من الجدال بغير علم ومن كل ما يخدش الفطرة العقلية الربانية النقية.

٧. وضمان حرية الرأي والفكر وتحصيل العلم، فيما لا يخالف الشرع، وعدم تغييب فريضة الشورى لما فيها من إعمال للعقل الجمعي بالتالي تنمية للعقل.

٨. وصيانة العقل من الأضرار الفكرية الوافدة من مختلف المدارس الفلسفية والأيدولوجية، وإكسابه مناعة منها.

٩. وحفظه من كل ما يضره أو يُعطل طاقته أو يُذهبُه ولو جزئيًّا من مفسدات العقل، كالسحر والمُسكِرات وأدوات اللهو والموسيقى والمخدرات، سواء أن نتسبب في أي من ذلك لإنسان بشكل عام أو لأنفسنا بشكل خاص[١].

---

(١)الأمثلة مستفادة من كتاب دليل المقاصد التربوية العامة، ص١٤٤، نقلا عن كتاب «**نحو تفعيل مقاصد الشريعة**»- لجمال الدين عطية، ولا زال هناك منها العشرات، ضاق المقام هنا عن ذكرها.

١٠. وصيانة العقل عن الخوض والغوص فيما لم يُخلق لأجله، والتوقف عند حدود المعرفة والإدراك التي أوقفته عندها الشريعة في مجال الغيب والشهادة.

١١. وبشكل عام: تطبيق كل الحاجيات والتحسينات التي تخدم الأصل الضروري من حفظ العقل(١).



وستتبينون بأنفسكم علاقة كل ذلك بتطبيقات التربية في المراحل العمرية تباعا وكيف أنه بسبب افتقاد فقه المقاصد وعلم الكليات الخمس بالأخص – صُلب العلم كما أسماه الشاطبي! – أصبح في هذا الجيل خللٌ متراكِم، وشروخٌ عميقةٌ في البيوت.

حفظ النسل

۞ **وليس مجرد حفظ النسل عن طريق حفظ حدوثه من الأساس – أي: «التناسل» فقط** – كلا، إنما بتطبيق القوانين التي تحفظ وجوده ونموه واستمراره، وبالطبع تحريم قتل النفس بغير حق (فحفظ النسل مشترك مع حفظ النفس في أمور ومعانٍ).

۞ **فيكون حفظ النسل بالزواج والتناسُل**، وأن يتم ذلك وُفقَ أحكام الشريعة، وصيانة الأسرة والنسل من كل ما يهدد حدوثهما ابتداءً، أو يهدد بقاءهما بعد حدوثهما، كتحديد النسل دون ضوابط مثلًا.

۞ **وهناك الحفظ التربوي للنسل**: وهو تعليم الإنسان العلم اللازم من «التربية والمعرفة الجنسية الشرعية» الخاصة بفقه الفروق بين الجنسين الذكر والأنثى وآداب تعاملهما معًا وفقه العورات وغض البصر والنكاح وحفظ الأعراض ونحوه – المشبَعة

(١) كتاب دليل المقاصد التربوية العامة، ص١٥١، نقلا عن كتاب الموافقات للشاطبي.

بالقيم الإسلامية والنظرة العلمية، وتنشئة النفس عليها بحسب ما يوافق كل مراحل الإنسان[1].

۞ **وهناك الحفظ التشريعي للنسل**: وهو وضع القوانين التي تحدد الحقوق والواجبات والمحظورات التي تحفظ كيان الأسرة من العبث، فمثلًا: ظاهرة نفور الناس من الزواج بسبب فساد الناس يهدد حفظ النسل، وأعظم القوانين التي تصلح هذا الخلل وترمم البيوت هو[2]:

١. قوانين الزواج في الإسلام لأنه أصل تكوّن النسل وتفرّع القرابة بأصولها وفروعها؛ أبوة وأمومة وبنوة ثم أخوة وأصهار ثم شعوب وأمم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤].

٢. قوانين الشريعة التي تُحَرم كل أنواع النكاح التي تضر بالنسل كالزنا وفعل قوم لوط والسحاق ونحو ذلك: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُون * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِين * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُون﴾ [المؤمنون: ٥-٧]، ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلا﴾ [الإسراء: ٣٢].

حفظ المال

وهو ليس مقصودا بذاته وإنما لتحقيق ما خُلِق لأجله من تحصيل وحفظ مصالح الإنسان الدنيوية والأخروية، ولا حصر لصوره ومقاصده المدهشة في الإسلام؛ كصيانته عن الهدر، وتنميته، وترشيد استهلاكه، والتعاون مع الآخرين في صيانته من الفساد والكساد: كتحريم كل أنواع الربا والميسر والاحتكار والغش والتعدي على أموال الغير ومستحقاتهم بغير حق - مثل استيلاء الأب على مال ابنته أو ابنه ونحوه - والنهب والرشوة والإسراف في الطعام والشراب والملبس والمقتنيات واجتناب

(١) المصدر السابق.
(٢) من كتاب دليل المقاصد التربوية العامة، ص١٦٨، و١٩٢ - ٢٠٠، بتصرف واختصار كبيرين.

الشراهة الاستهلاكية، إلى آخر ما يحقق حفظ المال وتبادله بما يحقق المصلحة العامة والخاصة القائمة على أساس شرعي.

وبعد أن اتضحت لنا صورة عامة عن مقاصد الشريعة بشكل مختصر، نستطيع أن نجيب عن سؤال «لماذا التربية بالوحيين؟».

والإجابة ليست مجرد لأن الإسلام له تلك المقاصد الدقيقة المترابطة غير المتناقضة فيما بينها، وإنما الإجابة هي بحجم عظمة ديننا، فكأنك بالضبط تسأل: «لماذا نختار الدين الإسلامي ولا نختار غيره؟ لماذا القرآن مُهَيمِن على سائر الكتب؟ لماذا الشريعة أصلح منهج للإنسان؟ فلا يمكننا مطلقًا أن نُحصي أسباب توصية النبي ﷺ لنا بالعض على التربية بالوحيين بالنواجذ، إنما نكشِفُ من تلك الأسباب فقط جانبًا برَّاقًا صغيرًا، شأنَ كل شيء لا نُحيطُ بدُرَرِه وكنوزِه.

فمن ذلك، الأسباب التالية:

١. لأن التربية الإسلامية لها مقاصد ومنطلقات وأولويات متناهية الحكمة والإحكام بما يتناسب مع مصالح الإنسان كافة كما أوضحنا، لأن مصدرها الوحي الإلهي فلا عجب إذن، وتلك المقاصد هي بمثابة دفة السفينة التربوية، ولكلٍ وِجهةٌ هو مُوَلِّيها! لذلك، لا يَصلُحُ أبدًا خلطُ «التربية بالوحيين» بغيرها من الفلسفات التربوية الغربية أو غيرها، لاختلاف وجهةِ السفينتين ودفتَيهما ومنطلقاتِهما ابتداءً وانتهاءً - وإن التقيا في بعض القنوات البحرية للسُفن بطبيعة الحال!

٢. ولأنها وحيٌ من رب العالمين كما قلنا، فهي لا تخضع للشك أو القلق أو الندم، وحيٌ ومنهج يقيني، قد أخرج أقوامًا من قيعان الجاهلية إلى قِمم الريادة بمشاعل النور المبين وربَّى بها رسلَه وزكَّى بها خيرَهم وخاتمَهم: محمد ﷺ، فأخرج لنا بها شموسًا من حوله لم تشرق مثلُها على الدنيا قط، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

[الإسراء:٩]،﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]، فمن اتخذها منهجًا مثلهم اطمأن أنه على الطريق ولم يدخل في تيه الأمم، فلا يندم ولا يخشى العواقب، مهما كان رزقُ ثمرتِه في نهاية الطريق.

٣. ولأن «التربية بالوحيين» تمتلك التعريفَ والتصنيفَ الصحيح للمراحل العمرية، بما يضمن تحديدًا دقيقًا لمشكلات واحتياجات كل مرحلة وبالتالي العلاج الفعال، فهي منظومة مترابطة متكاملة فيما بينها لتحقيق الفلاح التام للإنسان، لأنها كما قلنا «وحيٌ» لا ينطق عن الهوى، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، وهو ما نشاهده على الساحة التربوية بالفعل!

٤. ولأنها كذلك تمتلك التعريفَ الصحيحَ للأخلاق والسلوك الطيب والسلوك غير الطيب - المسطرة التي كنا نتكلم عنها منذ بضع صفحات - بجانب عنايتها بالفطرة وعدم خدشها، والتي تصون بداخل كل إنسان المؤشر الأخلاقي والقيَمِي الثابت الذي يُميز به الخير من الشر تلقائيًّا.

٥. ولأن التربية عقيدة ودين فهي مهمة الأنبياء؛ فلا تصح إلا بالوحيين، بل كل «العلوم»(١) الإنسانية هي دين ومنهج لأصحابها بالفعل ويجب أن تُحاكَم إلى ديننا لا العكس: علم النفس، أو التنمية البشرية، أو التربية إلخ، لأن النبي ﷺ قد بُعِثَ إلى الناس مُربيًا في الأساس مزَوَّدًا بكل أدوات بناء الأنفس وسياسة البَشَر وصناعة الرجال وإكساب السلوك وتعديله، ذُكرانًا وإناثًا، والأنبياء كلهم كذلك، فالتربية مهمة الأنبياء والمرسلين بمنهج هداية شامل ومُحكَم من عند رب العالمين، «كانَتْ بَنُو إسْرائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأنْبِياءُ، كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ»(٢).

---

(١) كلمة «علوم إنسانية» بين علامتي تنصيص، لأنها ليست علوما بالمعنى العلمي الاصطلاحي التجريبي.
(٢) صحيح البخاري: ٣٤٥٥، تسوسهم: تقوم على أمرِهم بما يُصلِحُهم، وهي من السياسة.

فالتربيـة إذن في ذاتها مـن مظاهـر وآثـار العبوديـة التي لا يصح مـن المسـلم أن يتعبد فيهـا لله علـى غيـر مـراد الله، وحيـن نجعلهـا «تربيـةً بالوحييـن» مـع إخـلاص القصـد والنيـة فيهـا لله رب العالميـن، نغنـم جنـةً مـن جنـان الله المُعَجلـة منـه ﷻ للعامِليـن علـى أرضـه بإخـلاص وطاعـة.

٦. ولأننـا محاسَـبون يـوم القيامـة عـن التربيـة: مـن أيـن اسـتقيناها؟ وكيـف طبقناهـا؟ وكيـف فرطنـا فيهـا؟ فـلا خيـار أمام الأسـرة المسـلمة التي تريـد النجاة سـوى أن تلتـزم تربية رب العالميـن، كـي تعـد لهـذه الأسـئلة جوابًـا، قـال ﷻ: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا قُـوا أَنفُسَـكُمْ وَأَهْلِيكُـمْ نَـارًا وَقُودُهَـا النَّـاسُ وَالْحِجَـارَةُ﴾ [التحريـم:٦]، وقـال رسـوله ﷺ: «كُلُّكُـمْ راعٍ وكُلُّكُـمْ مَسْـئُولٌ، فالإمـامُ راعٍ وهـو مَسْـئُولٌ، والرَّجُـلُ راعٍ علَـى أهْلِـهِ وهـو مَسْـئُولٌ، والمَـرْأَةُ راعِيَـةٌ علَـى بَيْـتِ زَوْجِهـا وهـي مَسْـئُولَةٌ»[(١)]، وقـال أيضـا: «لا يَسْـتَرْعِي اللهُ عَبْـدًا رَعِيَّـةً، يَمُـوتُ حِيـنَ يَمُـوتُ وهـو غـاشٌّ لَهـا، إلَّا حَـرَّمَ اللهُ عليـه الجَنَّـةَ» [(٢)]، وفي روايـة: «مـا مِـن عَبْـدٍ اسْـتَرْعاهُ اللهُ رَعِيَّـةً، فَلَـمْ يَحُطْهـا بنَصِيحَـةٍ، إلَّا لَـمْ يَجِـدْ رائِحَـةَ الجَنَّـةِ»[(٣)]، **غـاشٌّ لهـم**: أي لـم ينصـح لهـم، أو أهمـل وقصّـر، أو كتـم عنهـم أمـورًا يحصُـل بهـا الضـرر، ولـم يُحِطْهـم بنصحـه ورعايتـه، ولـم يقـم عليهـم بمـا يجـب[(٤)].

٧. ولأن التربيـة مادامـت بالوحييـن فهـي «مشـروع» تجـارة مربحـة ومكاسـب علـى كل حـال فـلا تعـرف الخسـارة ولا النـدم، سـواء غنمنـا ثمـرات مشـروعنا المرجـوة في الدنيـا أم لا، فأرباحُـه في صحيفتـك مهمـا كانـت النتائـج علـى الأرض، بفضـل الله ثـم سـعيك الربـاني في التربيـة، فأنـت إذا حُرِمـتَ الولـد الصالـح رغـم سـعيك لتربيتـه بالوحييـن وابتليـتَ في تربيتـه بنقـصِ الثمـرات، فـلا إثـم عليـك (تربويًّـا)، ألا تـرى كيـف أن سـيدنا نـوح ظـل نبيًّـا بـل مـن أُولِـي العـزمِ الخمسـة مـن الرسـل، ومَضـرب المثـل في طـول العمـل في الدعـوة، إلا

(١) صحيح البخاري: ٥١٨٨.
(٢) صحيح البخاري: ١٤٢.
(٣) صحيح البخاري: ٧١٥٠.
(٤) من درس الشيخ خالد السبت لشرح حديث «ما من عبد يسترعيه الله رعية».

أنه لم يغنَم ثمرةَ تربيته المرجوة في الدنيا إلا القليل منها جدًّا، سواء في أهل بيته أو في قومه: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيل﴾ [هود:٤٠]، وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِين﴾ [هود:٤٣]، فماذا خسرَ نوحٌ وقد كسبَ رضا ربِه ومنزلتَه عنده لأدائه - رغم الألم - للمسئولية المطلوبة منه وفق مراد الله؟

أمّا التجارة بغير التربية بالوحيين، ففيها خسائر محتملة، بل قد يخسر التاجر الحسنيين في نهاية الطريق، بل ربما يخرج منها مثقلًا بالديون!

إذ قد لا نغنم العائدَ المُنتَظَر والثمرةَ المرجوة من التربية بصلاح ولدنا في الدنيا. وقد نخسر كذلك الأجر في الآخرة على مهمة (السعي التربوي) لمخالفة سعينا لشروط التجارة المقبولة عند الله لانتهاجنا تربية غير المسلمين لأولادهم، ولإعراضنا عن بعضٍ أو كل تربية رب العالمين ظنا منا أنها لا تكفي وحدها أو أنها ما عادت تصلح لزماننا أو أن ليس فيها نماذج تربوية تطبيقية سهلة وعملية للأبناء بخاصة الصغار! وهذا كله ظُلمٌ للشريعة لَه كُلفَتُه يوم القيامة، وقد خابَ من حمل ظلمًا، ألا إن الخاسرين الذين خسِروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين.

وبالنسبة لـ «الديون الإضافية» فوق كل ذلك الخسران، فهو حين نجد يوم القيامة -والعياذ بالله - أن سعيَنا التربوي بغير الوحيين هو مما أفسدَ ثمرتَنا بالفعل التي استودعها الله أمانةً عندنا فسقيناها الماءَ المالح، وكفى بالله عليما شهيدًا.

فإن أردنا الربح على كل جنب بإذن الله فلنكن عقلاء ونلزم شروط التجارة مع الله، والتي سنبينها بالتفصيل في الفصل الرابع بعنوان: «**كيف نستعد للتربية بالوحيين**»؟، وبقية الكتاب كذلك.

٨. ولأن عائدات التربية بالوحيين تستحق، فإذا رُزِقنا منها بالولد الصالح مثلًا، فقد كسبنا مغانمَ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى إلى يوم القيامة، منها:

قول النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له»(١).

وقول الله ﷻ:﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[الإسراء:٢٤]، فهذا أمر مباشر للمسلم بأن يدعو لوالديه؛ فالولد الصالح طائعٌ لربه لا لهواه، بالتالي سيدعو لوالديه امتثالًا لأمره مهما عانى من أمور، بينما من نشأ على تقديس الذات والمشاعر كما يربي الغرب أولادهم - فقد لا يدعو لوالديه بعد موتهما إذا عانَى من أحدهما شيئًا يسوؤه ولو كان يسيرًا.

وهذا غيض من فيض عائداتها بإذن الله.

٩. ولأن من دون التربية بالوحيين، نحن لا نربي، نحن نُرَوِّض (وقد شرحنا الفرق بينهما سابقًا).

١٠. بالتالي: لأن التربية هي أفضل وسيلة وأضمن منهج لفن الكتابة في الصفحة البيضاء.

وتلك عشرةٌ كاملة.

فماذا نعني بفن الكتابة في الصفحة البيضاء؟

هذا موضوع الفصل التالي إن شاء الله.



---

(١) صحيح مسلم: ١٦٣١.

الفصل الثالث

فن الكتابة في الصفحة البيضاء

المتأمل في «التربية بالوحيين» لمرحلةِ الطفولةِ بالذات يكتشف أن مركزية تربية النبي ﷺ للصغار معتمدة على كون الأطفال مجبولين على حُبِّ من يترفقُ بهم ويدنو لمستواهم ويتواضع لهم ويرحم ضعفهم ويعطيهم حقهم ويجعل لهم قيمةً وإكبارًا ولا يحتقرهم، لهذا كان لطفه مع الصغار وعطفه بهم ﷺ من أقوى أسباب محبتهم له، حتى إنهم كانوا يخرجون من المدينةِ لملاقاتِه وهم أطفال حين يَقدُم عليهم من سفرِه، وترعرع حبه في قلوبهم حتى شبوا وصاروا شبابًا كبارًا بسبب معاملته المختلفة لهم عن أي وقت وأي شخص منذ صغرهم.

ونرى شيئا من هذا القبيل في بعض البيوت حولنا، حين يركض الأولاد تجاه والديهم بمجرد دخول الأب أو الأم إلى البيت، فيتركون كلّ شيء ويتقافزون نحوهم مبتهجين بعودتهم أخيرًا، وهذا ما نحاول غرسه بالتربية في هذه المراحل.

وقد كان النبي الكريم ﷺ يستثمر كنوز هؤلاء أحسن استثمار معتمدًا على سماتهم الذهنية والشعورية التي هي أصفى من الكبار، ففطرتُهم نقية وصفحتهم صافية لم يُكتب فيها شيء بعد، فكان بحق أعظم من يجيد النقش في الصفحات البيضاء ﷺ.

قال عنه أنس: «والله ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»[1]، وطيلة مسيرنا في هذه المراحل نريد وضع هذا الحديث نصب أعيننا كقاعدة عامة مركزية نكررها على أنفسنا باستمرار، إذا كنا نريد إتقان فن الكتابة في الصفحة البيضاء.

---

(١) صحيح مسلم: ٢٣١٦، والمقصود: من البشر بالطبع، فالله ﷻ هو أرحم الراحمين على الإطلاق.

لماذا هذا الحديث بالذات؟ لأن خلاصته

أولًا: أن هَـدي النبـي ﷺ سـيكون المِسـطرة التـي سـنحاول ضبـط خطـوات تنميـة علاقتنـا بأولادنـا عليهـا.

ثانيًـا: وأننـا رغـم ذلـك، لـن نسـتطيع أن نبلـغ مرتبتـه ﷺ ولا أعلـى منهـا، لأنـه أكمـل البشـر في كل شـيء وخاصـةً في التربيـة والتزكيـة والرحمـة بالصغـار، فتظـل أعيننـا دائمًـا على محاولتنا ومجاهدتنا للاقتراب من هـذا الكمال لأن من الواجب علينا الاقتـداء بـه في كل أحوالـه.

ثالثًـا: وأننـا ليـس لدينـا منهـج إلا منهجـه ﷺ نتعلـم منـه كيـف نرحـم أولادنـا، فهـو أرحـم بشـر بالعيـال بالفعـل، فكيـف بعـد ذلـك مثـلا نتوجـه لتعلـم كيفيـة رحمـة أولادنـا مـن الغـرب؟

رابعًـا: وأن نبـي الرحمـة نفسـه ﷺ، حيـن يأتينـا بشـرع فيـه تأديـب وتهذيـب للصغـار ليسـتقيمَ عودُهـم فـلا يبلغـوا الحلـم وهـم كالسـوائم والأنعـام بـلا أدب، نعلـم حينهـا أن نقبـل شـرعَه ولا نلغـي أيًّـا مـن تفاصيلـه ولا نـترك تأديبهـم، ظانيـن أننـا بذلـك (أرحـم بالعيـال)!

فهـذا النـص بحـق، قاعـدة تأسيسـية مركزيـة في التربيـة، ويبـدأ الخلـل حيـن تزيـغ عنهـا الأعيـن والقلـوب.

والسـؤال المنطقـي هنـا هـو: لمـاذا الأطفـال يتعلقـون بمـن يُفـرِغ عليهـم مـن عطفـه واهتمامـه؟

والجـواب: معلـومٌ بشـكل عـام أن الإنسـان بالفطـرة لا يتصـل عاطفيًّـا بأحـد إلا عندمـا يـرى منـه شـيئين: (**مسـرَّات**) و(**منافـع**)، وتلـك أيضًـا قاعـدة بحاجـة لأن تظـل نصـب أعيننـا طيلـة مسـيرة التربيـة، لأنهـا تلخـص أشـياء كثيـرة جـدًّا تُمَكِنُكـم مـن قيـاس درجـة نجـاح

وفلاح علاقتكم بأولادكم حين تحاسِبون أنفسكم لتقييم السعي التربوي والثمرة المرجوة الى أي مدى قد وصلا؛ عن طريق طرح أسئلة مثل: ما المسرّات التي تصل إلى طفلي مني؟ وما هي المنافع؟

- **المسرات**: هي المبهجات النفسية، مثل حبهم، وحسن الخلق معهم، وحسن معاملتهم، واحتضانهم، والكلام الجميل الطيب الحنون، والثقة فيهم، والألعاب والنزهات، والعطف الحسي وغير الحسي إلخ.

- **المنافع**: هي الأشياء التي يستفيدون منها ويحتاجون إليها، مثل الطعام واللعب واللباس إلخ.

ويدخل ضمن تلك المنافع إجمالًا: دفع المفاسد (المكاره) عن الطفل وحمايته من الأخطار ووضع القوانين الأسرية اللازمة لتحقيق ذلك، تدعيمًا لمنفعة «الأمان» الضرورية لحياته، وهي من أسباب محبة الطفل لوالديه وشعوره بالأمان في كنفهم، وإن بدا لهما تمرده عليها لمخالفتها هواه أحيانًا[1].



وهذا حالنا سبحان الله كمخلوق مع الخالق ﷻ، ولله المثل الأعلى، فهذا هو نفس المشهد المُصغّر جِدًّا لصلتنا بالله ﷻ القويّ الصّمد الغنيّ، لذلك يَمُن الله ﷻ علينا بنعمته ومحبته وتودده ومنافعه التي يُعطيها لنا، ويربط ﷻ بر الوالدين ببره ﷻ، لتشابه فكرة عطاء المَسرّات والمنافع من الوالدين وفضلهما على ذريتهما، مع فكرة فضل الله علينا كبشر؛ مع الفارق بالطبع في كل شيء، فالله ليس كمثله ولا مثل أفعاله وآثارها شيء[2].

---

(١) تلك الإضافة عن ضم «دفع المفاسد» للمنافع، من نصائح أختي الحبيبة تسنيم راجح لكتابي.
(٢) فالتشابه هنا كالتشبيه في الحديث: إنكم يوم القيامة ترون ربكم «كما» ترون هذا القمر، فكلا الوالدين لديهما عطاء وفضل ومنة على الولد، وكذلك نتمتع بفضل ومنة وعطاء في صلتنا بالله.

لذلك نحن بحاجه إلى التركيز مع أبنائنا منذ البداية على هدف محدد ووسيلة محددة:

الهدف: تحبيبهم في التلقي عنا ما نريد غرسه في قلوبهم من حب الله ورسوله وطاعتهما.

والوسيلة: تحبيبهم فينا ابتداءً.

غَرسٌ فغرسٌ فغرس بتتابُع، حتى يبلغ التمام بإذن ربه، **وهذا هو ألف باء فن الكتابة في الصفحة البيضاء.**

فمتى نبدأ ونستعد للتربية بالوحيين؟

الجواب في الفصل التالي.



الفَصل الرابع

متى نستعد للتربية بالوحيين؟

غالبيتنا يعلم أن الإجابة الشائعة بين الناس هي أن البداية تكون عند تيقن حدوث الحمل؛ وبالفعل تلك البداية ذُكِرَت في القرآن في موضعين كالتالي:

١. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين﴾ [الأعراف:١٨٩].

٢. و﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران:٣٥]، والتي قالتها أُمُّ مريم.

ولكن هل هنا حقا بداية استعدادنا للتربية؟

تأملوا نموذجي الحمل السابقين؛ فبالرغم من أن الظاهر منهما في الآيتين هو الجاهزية لاستقبال الطفل، إلا أنه قد أفلح نموذج منهما دون الآخر، كيف ذلك؟

فلنتأمل تكملة النموذج الأوّل: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُون﴾ [الأعراف:١٩٠]، وتكملة النّموذج الثاني: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧]

فما الفرق؟ ولماذا؟

١. **النّموذج الأوّل** كان كُلُّ همِّه أن يُولد الولد حيّا، صحيحا، سالِمًا من الآفات

والعيوب، مُعافى تامّ الخِلقة ليس فيه نقص، ولم تكن نية (الصلاح) الذي طلبوه هي (صلاح الدين)، إنما (صلاح الخِلقة) وتمامها، فاهتمامهم هنا بخِلقةِ الذرية وعدم النقصِ فيها[1].

٢. **إنّما أُمُّ مريم** كانت نيّتُها أصلًا بوضوح منذ تلك المرحلةِ هي (صلاحُ الدِّين) وعِزتِه بالذرية: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، (لك) يا الله.

ثم ماذا حدث؟ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[آل عمران:٣٦]، فكأن لسان حالها: (أنا خططتُ أن أنجبَ ولدًا ذكرًا يا الله لخدمة دينك، وتجهزتُ واستعددتُ بخطةٍ للدعوةِ بذريتي، بولدٍ أهبُه للعبادةِ وإعلاءِ كلمتك ودينِك، ثم يا ربي جاءت أنثى لا ذكر، وليس الذكر كالأنثى في كل ذلك، فالذكور هم خَدَمة مساجد الله لا الإناث)؛ فكأنها شعُرَت أن أمنيتَها تبخرت، فقلقت على خطتِها بالكامل. هي أمٌ لَديها هَمٌ لدين الله، وتخطيطٌ لرفعتِه بالذرية، وانشغالٌ نظريٌ وعمَليٌ بالنيةِ من الإنجاب، فآتاها الله ما تمنتْ وزيادة، وهذا هو الاستعدادُ الأولُ بالإنجاب، وحسنُ التخطيط.

فالاستعداد هنا مقصودٌ به:

أولاً: (النّية)، من أوّلِ تخَلُقِه في رحم الأم.

ثانيا: (الخطة)، الأفكار والخطوات المطلوبة والمتاحة لتحقيق هذه النية.

النية هي إجابة السؤال الذي أسأله لنفسي: «لماذا أنجب؟ ولماذا بعدما أنجب

---

(١) وهذا على قول أكثر المُفسّرين في تفسير هذه القصّة - كما قال العثيمين في درس لشرح الآية بعنوان: (١٠٢٤- معنى قوله تعالى فلما أتاهما صالحا جعلا له شركاء، كتاب التوحيد)، بدليل أنه مجرد ما آتاهما ((صالح البدن)) جعلا له شركاء فيما آتاهما، ودليل المفسرين في ذلك أيضا أن أمارات الصلاح الديني والخلقي لا تظهر منذ أول يوم ولادة ولا حتى السنوات الأولى.

أصون ذريتي وأرعاها بالتربية؟»، وجانبٌ من الجواب نجده إجمالًا فيما قاله ﷺ يومًا: (أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يَعْبُدَ اللهَ وحده ولا يشرك به شيئًا)[1]، أما تفصيل الجواب، ففي الفصل التالي تحت عنوان «كيف نستعد للتربية بالوحيين؟»، وفي التطبيقات العملية التي سنتناولها في بقية الكتاب.

إذن، الحمل هو نقطة البداية عادةً التي تتجه إليها أنظار السائلين عن «متى نستعد للتربية؟». فهل الاستعداد يبدأ من هنا فقط حقًا؟ كلا بل من قبل ذلك أيضا، منذ قوله ﷻ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:٣٨]، أي من قبل الحمل والإنجاب أصلا، بأن يُترجَم (هَمِّي) كزوجة تبدأ حياتَها الأسرية، ومتجهزة (بنِية) إعمار أرض الله ﷻ بالإسلام، إلى (دعاء دءوب) أن يرزقني الله الذرية التي أحقق بها خطتي في تطبيق ذلك.

بل من قبل ذلك أكثر لا زالت البداية، فلم نصِل بعد.

منذ متى إذن نبدأ الاستعداد للتربية بالضبط؟

منذ قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

هنا أساسات البنيان، أوّل شخص من المفترض أن أجهزه وأستعد به: هو (أنا) أولًا، قبل أيّ تكوين للأسرة، قبل أيّ تخطيط للزواج، قبل أي دعاء بالذرية الصالحة، أول الأمر هو أن أكون (أنا) أولًا صالحة، (أنا) أوّل شخص من المفترض أن يتربَّى أولًا، من وقت وجودي في بيت أبي وأُمّي، لكي أُجهّز نفسي للزواج برجل صالح يكون أبًا صالحًا في أُسرة صالِحة لأولاد أريدهم أن يكونوا صالحين؛ صلاحًا يُرضي

(١) صحيح البخاري ٣٢٣١.

الله وليس مجرد صلاح البدن والهيئة، والأمر ليس خاصًا للإناث والحوامل، إنما الخطاب للرجال أيضًا.

حتى لو كان الوضع الآن في بيت الأهل قاسيًا ومُعِيقًا عن كمال السعي وبدء الاستعداد كما هو الحال في بعض الأسر، أو أنهم غير ملتزمين دينيًّا كفايةً بما يساعدني على غايتي، فلا ينبغي لذلك أن يعطلني عنها، فهم لن يكونوا أكثر قسوة أو تعويقًا مما فُعِل مع سيدنا إبراهيم من أبيه «آزر» الذي قال له: ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]. فلا نقول نحن كما قال المُفَرِّطون: ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُون﴾[الأعراف:١٧٣].

بل نبدأ ونبادر دون اختلاق الحجج والأعذار والتذرّع بالظروف والنّاس، ولْنقُل: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:٨٤].

ونحن كأمهات بشكل خاص، نضع مثال أم مريم نصب أعيننا دومًا ونتساءل: وأنا؟ ما خطتي من ذريتي؟ ما نيتي من الإنجاب؟ كيف استعددت لهذه الأمانة؟ كيف حالي مع نفسي وتربيتها؟ ما طموحي في ذرية المستقبل أو الحاضر؟ هل سقف الطموح عالٍ دائمًا فأطمح إلى سنامِ كُلِ شيء وأعلاه حتى إذا عجزتُ عن تحقيق ما طمحتُ إليه أحقق ما هو أقل منه مرتبة فلا أتخلى عن الطموح الكبير فيهم بالكلية؟ أم أنه دون المستوى المأمول؟ مثلًا لو كان طموحي فقط أن يكون الولد رياضيًّا قويًّا أو أكاديميًّا متفوقًا، فقد يفوته أن يُفلحَ في بقيةِ معالي الأمور.

فماذا عن الذي اكتشف أهمية كل ذلك متأخرا؟

الجواب ببساطة، قال ﷻ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيم﴾ [آل عمران:٨٩]، وقال أيضا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيم﴾[النحل:١١٩]
دائمـًا توجد فُرصة لبداية جديدة وصفحة جديدة مادامت الشّمس تشرق من مشرِقها،

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧]، المُهمّ أن نبدأ إجراءات إحياء الأرض، وأن نبدأ بالموِضع الصحيح ونسقي بالماء الصحيح، لنقلل عدد مرات الإخفاق والخيبات، ولا ننسى الاستعانة بالله قبل جميع خطواتنا، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

ونجتهد كثيرًا منذ هذه اللحظة في النّية؛ فالنّية تسبق العمل، ويمكننا بنيّتنا أن نسبق أمهر المُربّين، بمعنى أن ثمرتَنا يمكنها أن تسبقَ ثمرتَهم التي حشدوا لغرسِها كل غالٍ ونفيس، بتفاوت النيات بيننا وبينهم ومدى صدقها وإخلاصها؛ وهذه حقيقة لا جِدال فيها؛ وأسأل الله ﷻ أن يُعيننا على التطبيق.

أستغرب كثيرًا عندما أجد بعد كل هذا الكلام أُمهات أو آباء يقولون: «لكن كيف يمكننا أن نطبق هذا الكلام؟!»، هذا الكلام يا رفقة الخير: كلام عملي، بمعني: علينا أن نحضر ورقة وقلم ونحدد ما الذي خرجنا به من الكلام واستفدناه، ثم على أساس ذلك يضع كل واحد فينا خطته للاستعداد، بأولويات وخطوات مرتبة من الأَولَى إلى الأقل أولوية وهكذا، ولو لم نخرج من هذا الكلام إلّا بأنه قد آن الأوان لجلوسنا مع أنفسنا جلسة محاسبة وترتيب أوراق، وبحثنا في قلبنا وفي سجلّ طريقنا التربوي عن أنماط الخلل في البدايات والمُنطَلقات وما يتصل منها بمسارنا الحالي، فلو لم نخرج إلا بهذا فقط، فكفى بها غنيمة! لأن البدايات هي التي تحدد بقية المسار، وحجم الإخفاقات من عدمها.

هذا كان« متى نستعد للتربية بالوحيين»، فمتى نبدأ تطبيق التربية بالوحيين؟

الجواب: بمجرد معرفة الزوج والزوجة بأن هناك نطفة تتخلق في رحم الزوجة، وأوشك كلاهما أن يكون أبًا وأمًّا.

فكيف نستعد للتربية بالوحيين؟

هذا موضوع الفصل التالي.

الفصل الخامس

كيف نستعد للتربية بالوحيين؟

كيف أملأ نفسي أنا وأجهز وعائي جيدًا، لأُفرِغَ منه في وعاء ذريتي بشكلٍ صحيح؟ كيف هي خطوات تهيئة النُطَف المُودَعَة في الأرحامِ في المقامِ الأول لأجل عبودية الله الحق في أرضه، ثم تهيئتِها بعد ذلك في المقام الثاني لتعبيدِ الأرض لله؟

الجواب: جملة من العناصر المشتركة بين كل المراحل العمرية وليست خاصة بمرحلة دون مرحلة، ومشتركة بين الآباء والأمهات، نقوم بتفعيلها منذ البداية الأولى تماما، ثم مع بداية كل مرحلة نتأكد من سريانها. وإن فاتنا تفعيلها في مراحل سابقة؟

الجواب مرة أخرى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٩]

وتلك العناصر هي كالتالي بإجمال ومجرد رؤوس عناوين مؤقتًا:

١. إخلاص النية، لأنها بوابة النجاة من الخسارة ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:٤٠].

٢. التوبة، لأنها بوابة الفلاح والتوفيق: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص:٦٧].

٣. الدعاء، لأنه بوابة الإعانة الربانية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات:٧٥]، فلندعُ بإلحاح: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

٤. التقوى، لأن التقوى بوابة للرزق الوفير والفرج الكبير ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢].

٥. صِدقِ الاستعانَةِ بالله بالتجرد التام من حولي وقوتي إلى حول الله وقوته، والخضوع بضعفي بين يديه وعدم الاغترار بحسن تخطيطي أو الظن أنه يغنيني عن فضل الله وتوفيقه، لأن الخضوع والتواضع بين يديه بوابة البشريات: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِين﴾[الحج:٣٤].

٦. التدرب على الصبر الجميل واغتنام الكربات لتقوية درجاتنا فيه، لأن الصبر زاد التربية المنتظرة، وبوابة دائمة لمعية الله: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِين﴾ [البقرة:١٥٣].

٧. ذكر الله كثيرًا، لأن الذكر الكثير بوابة الثبات أمام الشدة، والفلاح أيضًا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُون﴾[الأنفال:٤٥].

٨. طلب العلم الشرعي والدنيوي الداعم لغرس الصلاح والتزكي والبصيرة فينا، لأن العلم بوابة للخشية الحق من الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُور﴾ [فاطر:٢٨].

٩. مراقبة النفس دومًا واختبارها كقدوة لمن حولها، استعدادًا لاقتداء الأبناء بها لاحقًا، لأن الاهتمام بتقديم القدوة الصالحة هو بوابة للطف الله الخفي وعنايته بثمرتنا في غيابنا: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:٨٢].

ثم عند اقتراب مرحلة الخِطبة، نضيف إلى ما سبق

١٠. حسن اختيار الفتاة للزوج، لأنه سيكون المعين لها على دينها، والأب لتلك النطفة المنتظرة، والمسئول عن تفعيل وتحقيق كافة حقوق الذرية وحقوق الأم واحتياجاتهم الدينية والنفسية والمالية والصحية وغيرها، والتي

ستتكلم عنها: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:٣٢]، وقال ﷺ: «تخيروا لنطفكم، فانكحوا الأكفاء وأنكِحوا إليهم»[١]، وقال أيضًا: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة»[٢].

كذلك حسن اختيار الشاب للزوجة التي ستكون المعينة له على دينه والحاضنة لطفله في أهم مراحل حياته، قال ﷺ: «فاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَداكَ»[٣]، وقال: «الدُّنْيا مَتاعٌ، وَخَيْرُ مَتاعِ الدُّنْيا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»[٤].

١١. العناية بالبيئة المحيطة التي ستكون حاضنة للطفل المنتظر بعد الزواج - أهل الزوج والزوجة، والمنطقة السكنية، والشارع، والبلد، وبيئتها الأخلاقية والاجتماعية - لأنها من أهم المؤثرات على ثمراتنا التربوية بالسلب إذا كانت بيئة فاسدة مفسدة للبناء الذي بنيناه: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا .﴾ [النحل:٩٢].

١٢. طلب العلم الشرعي الداعم لمهمتنا المستقبلية القريبة كأزواج طيبين صالحين وزوجات طيبات صالحات: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور:٢٦].

ويَحسُن بالأهل والأقارب عند عقد قران الزوجين، الدعاء لهما بالبركة والخير، «النَّبي ﷺ كانَ إذا رفَّأَ الإنسانَ - أي هنأه ودعا له - إذا تزوَّجَ، قالَ: بارَكَ اللهُ لَكَ، وبارَكَ علَيكَ، وجمعَ بَينكُما في خيرٍ»[٥].

---

(١) صححه الألباني - صحيح الجامع (٢٩٢٨) - أخرجه ابن ماجه (١٩٦٨)، والحاكم (٢٦٨٧)، والبيهقي (١٤١٣٠).
(٢) حسنه الألباني - غاية المرام (٢١٩).
(٣) صحيح البخاري: ٥٠٩٠.
(٤) صحيح مسلم: ١٤٦٧.
(٥) (صححه الألباني-صحيح أبي داود (٢١٣٠).

ثم بعد الزواج، نضيف إلى ما سبق

١٣. وضع خطط منتظمة بحد أدنى من المحاسبة اليومية في الطاعات[1]- فرائض ونوافل ومستحبات - وفيها متابعة واجبات الإعداد والتنمية المعرفية والمهارية والشرعية اللازمين لخطة التربية، بحيث تكون هوية البيت وسماته العامة واضحة ومحددة قبل مجيء الابن، مرة أخرى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ [الكهف:٨٢]، ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم:١٢].

١٤. تكوين الصحبة الصالحة لأسرتنا الناشئة[2]، والتي ستكون ضمن المَحاضِن التربوية التي نسعى لمحاوطة أبنائنا بها ليقتدوا بها وتقلل شعورهم بغربة الدين بجانب معاونتنا على أهدافنا التربوية: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣١- ٣٤].

١٥. طلب العلم الشرعي التفصيلي الداعم لمهمتنا المستقبلية كآباء وأمهات صالحين، في كل ما يخص تربية الأبناء وأنواع بنائهم المختلفة وكيفية التغلب على معيقات التربية الطيبة: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩].

ثم في حالة حدوث حملٍ

١٦. تهيئة النفس للرضا برزق المال إن كان قَليلًا، وعدم خشية الفقر بشكل فيه سوء ظن برب العالمين فهو الرزاق، وحسن الظن في رزقه يجلب الرزق من جميع الجهات التي نحمل همها: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾ [الإسراء:٣١] و﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

---

(١) عنصر الصحبة الصالحة، والخطة، مستفاد من النصائح الثمينة لكتابي، من أختي الحبيبة تسنيم راجح.
(٢) المصدر السابق.

والعكس صحيح، قال ﷺ: «قال الله: «أنا عند ظن عبدي بي»[1]»، وتلقين النفس أن العبرة ببركة الموجود لا بعدده على أية حال، وأن الفقر هو آخر الأمور التربوية التي نخشى منها على الذرية، قال ﷺ: «فَوَاللهِ ما الفَقْرَ أخْشَى علَيْكُم، ولَكِنْ أخْشَى علَيْكُم أنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيا، كما بُسِطَتْ علَى مَن كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا، وتُلْهِيكُمْ كما أَلْهَتْهُمْ»[2].

١٧. تهيئة النفس للرضا كذلك بهِبَةِ الذرية على أية حال كانت، سواء كان الموهوب ذكرًا أم أنثى، وسليمًا معافًى أم غير ذلك، ففي كُلٍّ رزقٌ ومَهَمَّةٌ بصبرٍ وأجر، بفضل الله.

هذه مجرد رؤوس عناوين بإجمال، ولنا مع كثير منها وقفات تأسيسية أوسع في كتاب «قواعد وأدوات التربية من الوحيين» بإذن الله، لمناسبتها هناك أكثر ولئلا نطيل عليكم هنا.

أما الآن، فدور السؤال: ما المراحل العمرية للإنسان؟

وهذا موضوع الفصل التالي.



---

(١) صحيح البخاري: ٧٥٠٥.
(٢) صحيح البخاري: 6425.

الفَصْلُ السَّادِسُ

ماالمراحل العمرية للإنسان؟

عنوان الكتاب كان من شقين: التربية بالوحيين + للمراحل العمرية، تكلمنا عن معنى التربية ومعنى التربية بالوحيين ولماذا وكيف ومتى نستعد لها، وبقِي الشق الآخَر من عنوان الكتاب: المراحل العمرية.

وبناءً على كل ما سبق كان من الضروري أن نبحث - كمسلمين - عن تصنيف للمراحل العمرية بشكل دقيق وموثوق ومضمون العواقب، ولن نجد مرجعًا كذلك سوى المرجع الشرعي، فكان من الواجب أن نبحث عن تصنيف للمراحل العمرية داخل الكيان الإسلامي، لأن غالبية التصنيفات العمرية المُعاصِرة - وحتى البعض منها الذي ينطلق من مرجعية تبدو إسلامية - تجدونها معتمِدة على التصنيف العالمي الغربي مع فروق بسيطة، فصار لدينا أشكال وألوان من التصنيفات العمرية التي مرجعيتها - في الغالب - الغرب، وتعتبر سببًا أساسيًّا للمشاكل التربوية المعاصرة وعائقًا أمام فَهمِنا لأولادِنا في مراحلهم العمرية المختلفة؛ لماذا؟ لأن أول خطوة لعلاج المشكلات يكون بحسن تشخيصها، والذي يعتمد على فهم المراحل وتصنيفها بدقة.

فعندما يكون التشخيص خطأً فكيف لي أن أعالِج؟ بالطبع سأعالج خطأ، لأن الحُكم على الشيء فرع عن تصوره، بمعنى أن التصور الذهني الأول للمشكلة هو أصل الشجرة، والحكم عليها هو الفرع الخارج من هذا الأصل.

*** ولتوضيح أهمية اعتماد تصنيف شرعي للمراحل العمرية نضرب أمثلة:**

مثال بالنسبة للطفولة عندهم وعندنا

ديننا يعتبر كل من هم دون البلوغ أطفالًا، مع إقراره ببعض الفروق الفقهية بينهم حسب العمر والإدراك، فنصنف الطفل منذ عمر سبع سنوات إلى عشر سنوات تقريبًا «طفل مُميّز» فلا نقول عنه طفل وحسب، إنما نقول «طفل مُميّز» أو «صبي مميز» أو «مميز»، وربما لا يصير مميزًا إلا عند إتمام العشر سنوات.

ثم من عشر سنوات إلى البلوغ الفعلي نصنفه كمراهق أوشك على البلوغ، وتضع الشريعة للبلوغ سن أقصاه ١٥ سنة، لكن لو حدث البلوغ قبلها فقد صار الفتى بالغًا مكلفًا ولا يعود مراهقًا، لأن المُراهق عندنا في الإسلام ليس كتعريفهم، فالمُراهق عندنا هي مِن «راهَق الصبي»؛ أي أوشك أو قارب على البلوغ، وقد يبلغُ الصبيَ الحُلُمَ في سن ٩ أو ١٠ سنوات كما في بعض الدول، فتكون مرحلة مراهقته هي مرحلة التمييز ولم نشعر.

بينما في التصنيفات الغربية يعتبرون الرضيع baby/infant هو الطفل قبل عمر العام، ويطلقون على الطفل من عمر ١ إلى ٣ طفل صغير toddler، والطفل من عمر ٣ إلى ٥ يسمونه preschooler أي طفل ما قبل المدرسة، والصبي المميز لديهم هو child ويصفونه بـ young person who is not adult yet، وهو من عمر ٥ إلى ١٢، ويسمى لديهم أيضا gradeschooler، بينما المراهق لديهم teenager من عمر ١٢-١٣ إلى ١٨-١٩، ولا يطلقون عليه بالغًا/ أو adult، فأقل من ١٨ سنة هو طفل في نظرهم، ولو بلغ! ويطلقون لفظة adult بدءً من سن ١٨ إلى ٢١: young adult، بل إن تصنيفهم أصلًا لكلمة teen ليس بناءً على عوامل تربوية، إنما بناءً على أن تلك المرحلة العمرية، تنتهي كل سنواتها بكلمة teen: thirteen/ fifteen/ nineteen!!

وتصنيفهم للطفولة ذا، واضح تمامًا في بنود اتفاقية حقوق الطفل الصادرة عن الأمم المتحدة:

Article 1

For the purposes of this Convention a child means every human being under the age of eighteen years unless under the law applicable to it majority is attained earlier

مادة ١

لأغراض هذه الاتفاقية، يعنى الطفل كل إنسان لم يتجاوز الثامنة عشرة، ما لم يبلغ سن الرشد قبل ذلك بموجب القانون المنطبق عليه»(١) .

ففي شرع الله: قد يكون الفتى بالغًا وقادرًا على الزواج وتحمل المسئولية في عمر ١٢ مثلًا.

بينما في شرع أهوائهم: هو طفل، ولو بلغ الحُلُم، بل وبعد الحُلُم! فيؤدي ذلك إلى سوء تصور لحقوق واحتياجات المرحلة، بالتالي سوء تربية لها وتلبية لمتطلباتها؛ ولكم أن تتخيلوا حجم جناية المسلمين على ذريتهم بتقليد هؤلاء في ذلك.

مثال بالنسبة للمراهقة عندنا وعندهم:

تبدأ عندهم بالبلوغ والذي يبدأ عندهم من سن ١٢ سنة، وتمتد لديهم إلى عتبات العشرين، بينما البلوغ في الإسلام هو نهاية المراهقة، وجاء تعريفها في موسوعة الجمهرة للمصطلحات الشرعية: «المراهَقة: عند المتقدمين – أي فقهاء السلف – هي

(١) الترجمة مباشرة من الموقع الرسمي – النسخة العربية الرسمية:
https//:www.ohchr.org/ar/instruments -mechanisms/instruments/convention-rights-child
وربما يقصدون بسن الرشد أي سن النضج أو البلوغ لأن الرشد في الإسلام لا يكون قبل البلوغ.

مقاربة البلوغ، أما عند علماء النفس والتربية المعاصرين، فهي مرحلة من مراحل عُمر الإنسان تبدأ عند البلوغ، وتستمر بضع سنوات»[1].

فضلًا عن المعنى الملازم لكلمة «مراهقة» لدى الغرب: (طيش، أو عدم نضج، أو إشباع شهوات بلا حدود)، والذي نشروه بين صفوف المسلمين للأسف، بينما في الإسلام هي كما قلنا مجرد وصف زمني للقرب من البلوغ، وقد كان الفتى في خير جيل «مراهِقا» وفي نفس الوقت ذو علمٍ ورجاحةِ عقلٍ واتزان، كعبد الله ابن عباس مثلًا وأنس بن مالك وغيرهما.

فشتان بين التصنيفين.

۞ مثال مجتمعي لدينا على النقيض الآخر:

بعض الناس يعتبر أحيانًا الطفل دونَ الحُلُم كبيرًا وراشدًا، فينتج عن ذلك شدة ومحاسبة بقدر مبالغ فيه وفي غير محله بناءً على سوء تصوّر للمرحلة العمرية، ومنهم من يعتبر الصغار غير مرفوع عنهم القلم، فيقولون له عندما يخطيء: أنت ستدخل النار، أو ستأخذ سيئات، أو الله غضبَ عليك، وهذا فيه كذب وادّعاء من عدة أوجه، بالإضافة إلى سوء توجيه وتربية للمرحلة بسبب سوء تصنيفها في ذهنهم.

لهذا كان من الضروري أن يكون لأولاد المسلمين تصنيفًا للمراحل العمرية مستقلًّا عن التصانيف العالمية والعُرفِية والمعاصرة كلها، ومستَنبَطًا بنقاء من الوحيين (القرآن والسنة)، استعنتُ في تصنيف هذه المراحل العمرية تصنيفًا شرعيًّا، بمرجع تربوي إسلامي موسوعي رائع، مُزكّىً من أهل الاختصاص في الطب النفسي الإسلامي والشرعي وغيرهم، عنوانه: **مدخل الأدلة المقاصدية التربوية حسب المرحل العمرية.**

۞ وجاء فيه تقسيم للمراحل العمرية كالتالي:

---

(١) الجمهرة – معجم المصطلحات الشرعية.

الجنينية، ثم الطفولة، ثم التمييز، ثم المراهقة، ثم البلوغ، ثم الشباب.

وجاء في «الأشباه والنظائر» للسيوطي تقسيم المراحل العمرية كالتالي:

قال في كفاية المتحفظ[1]: «الولد ما دام في بطن أمه فهو جنين، فإذا ولدتْه سُمي صبيًا، فإذا فُطِمَ سُمِّيَ غلامًا إلى سبعِ سنين، ثم يصير يافعًا إلى عشر، ثم يصير حَزوَرًا إلى خمس عشرة»[2].

وجاء في كتاب فقه المعاملات:

«وهو صريح في أن المميز لا يسمى طفلًا بل يقال للطفل بعد التمييز صبي وحزور، ويافع ومراهق وبالغ»[3].

فبناءً على كل ذلك وبالإضافة إلى دراستي المتواضعة لمقررات تربية إسلامية عدة وتجربتي المتواضعة أيضًا في تربية ثلاثة من الأبناء أكبرهم في عمر الشباب الآن، ولأن القرآن أشار إلى أن التربية عملية زراعية تحتاج لبذر وغرس واستنبات حين قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧].

فبناءً على ذلك كله رأيتُ أن يكون تصنيف المراحل العمرية بمرجعية شرعية كالتالي:

أولا: قسمتُ مراحلَ التربيةِ - في السلسلة كاملة وليس هذا الكتاب فقط - إلى ثلاث فئاتِ عُمرِية رئيسية، وبداخلها مراحل فرعية أو مَحطَّات داخلية، والأعمار تقريبية وهجرية.

---

(١) يقصد أن مؤلف «كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة العربية» قال في كتابه كذا.
(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي - القول في أحكام الصبي.
(٣) كتاب فقه المعاملات - اللقطة والأحكام المتعلقة بها - اللقيط وأحكامه، عبد العزيز محمد عزام، من فقرة ((معنى «اللقيط» شرعًا)).

الفئات العمرية الرئيسية الثلاثة هي

الفئة العمرية الرئيسية الأولى: الجنينية والطفولة «مرحلة البذور»

وهي مرحلة تعليمية تلقينية في المقام الأول، وإن تخللها أحيانا تدريب بسيط غير مكثف، ولنا معها كتابان بإذن الله:

١. **الكتاب الأول: (مرحلة الجنينية والطفولة الأولى)**

الجنين وأول ثلاثة أعوام للطفل وتشمل: الوليد، والرضيع، والفطيم، (وهو الكتاب الذي بين أيديكم).

٢. **الكتاب الثاني: (مرحلة الطفولة الثانية)**

من بعد الفطام إلى قُبَيل التمييز، (من بدء السنة الثالثة إلى بدء السنة السابعة).

الفئة العمرية الرئيسية الثانية: سن التمييز، وسن الحزاورة-المراهقة «مرحلة الساق»

وهي مرحلة تدريبية في المقام الأول، بجانب استمرار التلقين المناسب بالطبع، فيبدأ فيها التدريب الجاد المنتظم المكثف نوعا ما، مع شيء من المحاسبة لأجل غرس متين، ولنا معها:

٣. **الكتاب الثالث: من التمييز إلى قُبَيل البلوغ**

(من عمر سبع سنوات إلى أربعة عشر-خمسة عشر تقريبًا):

وهو الصبي المُمَيِّز، والفتى اليافع أو المُراهِق، على الترتيب.

الفئة العمرية الرئيسية الثالثة: سن البلوغ والشباب وما بعده، التكليف «مرحلة الثمار»:

وهي مرحلة إنتاج في المقام الأول، وفيها يبدأ التكليف والحصاد والمحاسبة الجادة، ولنا معها:

٤ . الكتاب الرابع: سن البُلُوغِ، وسن الفتوة، والشبابِ، والرشد، وسِن الأشُدّ (الأربعين) إلى نهاية العُمر.

فتبدأ من سن ١٥ سنة غالبًا، وتشهد تَمَدُّدِ الجُذُورِ وتَفَتُّحِ الثمار، ويسمى الإنسان فيها: فتًى بالغًا، أو شابًا، أو رجلًا، إن كان ذكرًا، وتسمى فتاة بالغة، أو شابة، أو امرأة، إن كانت أنثى.

ثانيا: بعض التفاصيل عن تلك المراحل الرئيسية

أولًا: تعريف مرحلة الجنينية

هو من الأمر الذي فيه خفاء وسِتر، جاء في تفسير ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام:٧٦]: سَتَرَهُ بِظَلامِهِ، وهَذِهِ المادَّةُ بِمُتَصَرِّفاتِها تَدُلُّ عَلى السَّتْر، وعَنِ الرّاغِبِ: أصْلُ الجَنِّ = السَّتْرُ عَنِ الحاسَّةِ(١).

وفي الفقه: الجنين هو ما استتر في بطن أمه، فإن خرج حيًا فهو ولد – وليد، ومولود، وإن خرج ميتًا فهو سَقْطٌ(٢).

وتبدأ الجنينية منذ أول يوم في تَخَلُّقِ الجنين، وحتى تسعة أشهر أو تمام الحمل، وأقل مدة للحمل: ستة أشهر، ولكننا هنا نتكلم عن الشائع في مدة الحمل، وهو تسعة أشهر.

في أي موضع ذكِرَت في القرآن والسنة؟

ذُكرت في قول الله ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم:٣٢].

---

(١) «روح المعاني» للآلوسي.
(٢) قاموس المعاني الفقهية.

وفي أحاديث مثل:

«سَأَلَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عن إمْلَاصِ المَرْأَةِ، هي الَّتي يُضْرَبُ بَطْنُهَا فَتُلْقِي جَنِينًا، فَقالَ: أيُّكُمْ سَمِعَ مِنَ النبي ﷺ فيه شيئًا؟»[١].

«اقْتَتَلَتِ امْرَأَتانِ مِن هُذَيْلٍ، فَرَمَتْ إحْداهُما الأُخْرَى بحَجَرٍ فَقَتَلَتْها وما في بَطْنِها، فاخْتَصَمُوا إلى النبي ﷺ، فَقَضَى أنَّ دِيَةَ جَنِينِها غُرَّةٌ، عَبْدٌ أوْ ولِيدَةٌ، وقَضَى أنَّ دِيَةَ المَرْأَةِ علَى عاقِلَتِها»[٢] .



ثانيًا: تعريف كلمة طفل من معاجم مختلفة

❋المولود الصغير.

❋أو هو الولد ما دام ناعمًا.

❋أو هو الصبي منذ أن يسقط من أمه – أي: بالولادة – وحتى يحتلم.

❋ أو هو الولد حتى يميز ثم لا يقال له بعدها طفلًا.

وبالطبع لاحظتم أن كلها مناسبة لما جاء في القرآن والسنة ومتشابكة فيما بينها في المعنى، فعند الميلاد سُمِّيَ طفلًا: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طفلًا ﴾ [الحج:٥]، ووليدا ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨]، وفي المهد ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩].

كما نلاحظ أن القرآن لم يجعل بين الطفولة وبين بلوغِ الحُلُم فاصلًا أو عنوانًا مستقلًّا، أي أنه ليس هناك اسمًا لمرحلة بينهما في الآية، تأملوها: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ

(١) صحيح البخاري: ٧٣١٧.
(٢) صحيح البخاري: ٦٩١٠.

مِنكُـمُ الْحُلُمَ﴾[النـور:٥٩]، لا يوجـد هنـا حـد بينهمـا، فالطفولـة في القـرآن بشـكل عـام بعدهـا سـبحان الله بلـوغ الحلـم مباشـرة[١].

بعض مواضع الألفاظ التي وردت في القرآن والسُّنة عن مرحلة الطفولة:

كلمة وليد، أو مولود:

في آية: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨].

ونفس المعنى (مولـود)، في آيـة: ﴿يَاأَيُّهَـا النَّـاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُـمْ وَاخْشَـوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَـن وَلَـدِهِ وَلاَ مَوْلُـودٌ هُـوَ جَازٍ عَـن وَالِدِهِ شَـيْئًا إِنَّ وَعْـدَ اللهِ حَـقٌّ فَـلاَ تَغُرَّنَّكُـمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُـم بِـاللهِ الْغَـرُور﴾ [لقمـان:٣٣].

وفي حديث: «كُل مولود يولد على الفطرة»[٢].

كلمة الرضيع، أو الرضاعة

جـاءت في حديـث «بـول الغـلام الرضيع يُنضَـح، وبـولُ الجارية يُغسَـل»[٣]، وسنشـرحه في موضِعه.

وآيـات الرضـاع في القـرآن معروفـة، ولا يوجـد فيهـا كلمـة رضيـع لكـن فيهـا ألفـاظ الرضـاع: ﴿فَـإِنْ أَرْضَعْـنَ لَكُـمْ﴾ [الطـلاق:٦]، ﴿أَوْحَيْنَـا إِلَـى أُمِّ مُوسَـى أَنْ أَرْضِعِيـهِ﴾ [القصـص:٧]، ﴿وَالْوَالِـدَاتُ يُرْضِعْـنَ أَوْلاَدَهُـنَّ﴾ [البقـرة:٢٣٣]، ﴿لِمَـنْ أَرَادَ أَن يُتِـمَّ الرَّضَاعَـةَ﴾ [البقـرة:٢٣٣] أي: مُشـتقات الكلمـة.



(١) كل الفقرة مستفادة من «**دليل المقاصد التربوية العامة للمراحل العمرية**».
(٢) صحيح البخاري: ١٣٨٥.
(٣) صححه ابن القيم – أعلام الموقعين (٢/ ٢٧٠)، وله روايات أخرى صحيحة باختلافات لفظية يسيرة كصحيح الترمذي (٦١٠).

أما كلمة صبيّ

جاءت في القرآن: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[مريم:١٢].

وفي السنة: «رفع القلمُ عن ثلاث: عن الصبيِّ حتى يبلغ...»[(١)]، وفي حديث: «كان النبي يُؤْتَى بالصِّبْيَانِ فيُحنِّكُهم»[(٢)]، ففي الحديث الآخير هي بمعنى المولود.

كلمة فطيم، أو فصيل

الفِطامُ: القَطْعُ وَالفَصْلُ، يُقال: «فَطَمَ العُودَ» إذا قَطَعَهُ، و«فَطَمَت الأُمُّ وَلَدَها»: فَصَلَتْهُ عن رَضاعٍ والفَصِيلُ في اللغة: وَلَدُ الناقة أو البقرة بعد فطامه وفصله عن أُمه[(٣)]، فيكون فطيمًا لو أنه بشر، وفصيلًا لو من الأنعام أو البشر.

بالتالي «فصيل» في معنى «فطيم»، وكلاهما جاءت في آيات وآحاديث.

آيات مثل: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤]، ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

أحاديث مثل:

حديث: «وكان لي أخٌ يُقالُ لهُ أبو عُمير أحسبُهُ فطيم»[(٤)]، وهذا الطفل هو صاحب حديث النُغير المعروف. وحديث الغامدية التي زنت وأتت النبي ﷺ ليطهرها بالحد، فقال لها: «اذْهَبِي، فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ»، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: «هَذَا يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ»[(٥)].

---

(١) صححه النووي - في المجموع (٦/ ٢٥٣)، وصححه ابن حزم في المُحلى (٩/ ٢٠٦).
(٢) صحيح ابن حيان: ١٣٧٢.
(٣) معجم المصطلحات الشرعية.
(٤) صحيح البخاري: ٦٢٠٣، وصحيح مسلم: ٢١٥٠.
(٥) صحيح مسلم: ١٦٩٥.

حديث جاء فيه: «ابنتي وَهيَ فطيمٌ أو شبَهُ – أي ما يشبه الفطيم ويقارب سنه»[1].

ولفظة الطفل (المذكورة آنفا):

جاءت في القرآن في عدة مواضع: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طفلًا﴾ [غافر:٦٧]، ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طفلًا﴾[الحج:٥]، ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور:٥٩]، ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور:٣١].

في المهد:

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[مريم:٢٩].

لفظة غلام:

وهي كلمة لمجموعة من المراحل العمرية، فالغلام قد يكون الفتى الذي بدأ نبات شاربه، أو هو الولد الصغير مطلقًا إلى أن يبلغ ويشب، وفي القاموس المحيط: هو الفتى حين ينبت شاربه[2] ،أو من حين يُولَد إلى أن يشب.

١. في القرآن:

﴿قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلامٌ﴾ [يوسف:١٩]، قيلت في يوسف عندما وُجد في البئر، وكان عمره حوالي ١٠ سنين.

﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ﴾ [الكهف:٧٤]، ومعلوم أنه قُتِل دون الحُلُم.

﴿فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف:٨٢]، وكانا طفلين صغيرين، ومعلوم ألا يُتْم بعدَ البلوغ.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠].

---

(١) صححه الألباني – صحيح أبي داود: ٢٢٤٤.
(٢) بتصرف.

وكلها بشكل عام ألفاظ تدل على الطفولة التي قبل البلوغ، القرآن أو السُنة سمّاه عند ولادته «وليدًا» أو «مولودًا» أو «صبيًّا»، ثم في العامين الخاصين بالرضاع هو: «رضيع أو يرضع» أو «في المهد صبيًّا» أيضا، ثم المرحلة التي بعد ذلك هو «صبي أو غلام» حتى يصيرَ مُمَيِزًا للعوراتِ والكلام بشكل واضح، وربما تتقاطع التعريفات أحيانا معا وتخرج مخرج الغالب فنقول «طفل» تجوزًا.

ثالثًا: تعريف مرحلة التمييز

المُميِّز

١. «هو الولد الذي يفهم الخطاب - ومقاصد الكلام - ويَرُد الجواب، وغالبًا يكون هذا في حوالي سن السابعة»(١).

٢. «هو الذي يعرف الضار من النافع، والمصلحة من غيرها في الأمور العامة إجمالًا، وإن لم يدرك الدقائق والتفاصيل في ذلك، فهو يفرق بين البيع والشراء مثلًا، فيعرف أن البيع يُخرج المبيع من الملك، وأن الشراء يترتب عليه دخول المبيع في الملك»(٢).

٣. هو الطفل الذي صار لديه علم بعورات النساء وإدراك لها، قال السعدي في تفسيره لآية: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور:٣١]، في بيان من يجوز ألا تحتجب المرأة منهم: «أي: الأطفال الذين دون التمييز، فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب، وعلل ﷻ ذلك، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وُجدت فيهم الشهوة بعد ودل هذا أن المميز تستتر منه المرأة، لأنه يظهر على عورات النساء».

فمصطلح «المميز» أو «التمييز» أي نعم لم يرد في القرآن والسنة، لكنه من

(١) الجمهرة: معجم المصطلحات الشرعية.
(٢) موقع الشيخ خالد السبت - السلاسل العلمية - أحكام الطفل.

مصطلحات الفقهاء للتعريف بالمرحلة، مأخوذة من تفسير الآية السابقة وأحكامها الشرعية.

نطلق عليه «غلام مُميّز»، ولا حرج لو قلنا: صبي مميز، أو «يافع»، أو «مميز» اختصارًا، يتراوح بين السابعة والعاشرة غالبًا، هذا هو الشائع، حيث يمكن أن يكون مُميّزا منذ بداية السابعة أو الثامنة أو التاسعة، وأقصاها العاشرة، فلا يبلغ الصبيُ العاشرةَ ثم نظل نطلق عليه كلمة «طفل» مجردة بل نُتبعها ببقية الوصف فنقول «طفل مميز» أو «صبي مراهق» لو قارب البلوغ، ولا نجلس أمامه بدون الحجاب مثلًا، أو نسمح له بأن يطّلع على العورات، إلى آخر الأحكام التي تخص مرحلة ما بعد التمييز وسنعرفها في كتابها بإذن الله.

لكن في نفس الوقت، التمييز لا يختص بسن السابعة بشكل قاطع، فيمكن لطفل أن يبلغ مرحلة التمييز عند سن ست سنوات مثلًا أو خمس، فتكون بذلك بدء فترة مراهقته - في خواتيم مرحلة التمييز - عند سن ٨ أو ٩، وهذا بالطبع يتبع الفروق الفردية والبيئة والمناطق والبلدان ونحو ذلك، «التمييز يكون غالبًا في سبع سنين، ولكن قد يميز الصبي وعمره خمس سنين، قال محمود بن الربيع رضي الله عنه: «عَقَلْتُ مِنَ النبيِّ ﷺ مَجَّةً مَجَّها في وجْهِي وأنا ابنُ خَمْسِ سِنِينَ مِن دَلْوٍ»[(١)]، فيه دليل أن التمييز ليس مقيّدًا بسبع سنين فقط، ولكن الغالب أنه يكون في سبع سنين، وإلا فقد يميّز الإنسان قبل السبع، فبعض الصغار يكون ذكيًّا يميز وهو صغير، وبعضهم يبلغ ثماني سنين وما يميز»[(٢)].

رابعًا: تعريف مرحلة المُراهَقة، الحزاورة

(١) صحيح البخاري: ٧٧.

(٢) بالجمع بين فتوى «حضور الصبي غير المميز إلى المسجد» على موقع الإسلام سؤال وجواب، وشرح العثيمين للحديث.

المراهق

هو الصبيُّ الذي قارب الحُلُم، ولم يحتلم بعد، ومن شواهده قول الشربيني: «والأصحُّ أن المراهِق - بكسر الهاء - مَن قارَب الحُلُم، حكمُه في نظره للأجنبية كالبالغ، فيَلزَم الوليُّ منعُه منه، ويلزمُها الاحتجابُ منه»(١).

ومثله الحَزْوَرُ:

(مفرد حزاورة)، وهو الغلامُ إذا اشتَدَّ وقوِيَ وخدَمَ، وقاربَ البُلوغَ(٢).

والحزاورة هي اللفظة التي وردت في السُنة عن تلك المرحلة:

قال جندب بن عبد الله: «كُنَّا معَ النبي ﷺ ونحنُ فتيانٌ حَزاوِرَةٌ، فتعلَّمنا الإيمانَ قبلَ أن نتعَلَّمَ القرآنَ ثمَّ تعلَّمنا القرآنَ فازدَدنا بِه إيمانًا»(٣).

كذلك لفظة «المراهقة» لفظة شرعية موجودة في كتب فقه الأئمة، وليست لفظة غربية كما يظن البعض، على سبيل المثال: ذكرها الفقهاء في شروط الزواج الصحيح وثبوت النسب؛ «الشرط الأول: ـ أن يكون الزوج ممن يتصور منه الحمل عادة، بأن يكون بالغًا في رأي المالكية والشافعية، ومثله في رأي الحنفية والحنابلة، المراهق: وهو عند الحنفية من بلغ اثنتي عشرة سنة، وعند الحنابلة: من بلغ عشر سنوات»((٤)).

فكلاهما – حزاورة ومراهقون – لفظةٌ عربية شرعية.

وتبدأ تلك المرحلة: منذ انتهاء سن التمييز وحتى عمر البلوغ، أي غالبا: من عمر ١٠ إلى ١٥ سنة وهذا كحد أقصى، فلا مراهقة بعد سن ١٥، ويمكن أن تقف المراهقة عند سن ١١ سنة إذا بلغ الفتى الحلُم عندها، بمعنى أن المراهقة لديه كانت

---

(١) الجمهرة: معجم المصطلحات الشرعية.
(٢) من شرح الدرر السنية للحديث.
(٣) صححه الألباني – صحيح ابن ماجه (٥٢).
(٤) كتاب الفقه الإسلامي وأدلته – د. وهبة الزحيلي.

سنة واحدة فقط (من ١٠ إلى ١١) ثم بلغَ الحُلُم عند سن ١١، فمسألة تعريف حدود المراحل في الإسلام كما قلنا ليست بالسن فحسب.

خامسًا :مرحلة البلوغ، التكليف

تبدأ عند بلوغ الحُلُم عادةً (أيًا كان العُمر)، وغالبًا تبدأ في الفترة بين ١٢ إلى ١٥ سنة، وتختلف حسب البلد والبيئة وما إلى ذلك، فقديما في البيئة العربية الصحراوية كانوا يبلغون مبكرًا بالفعل في عمر ٨ أو ٩، وحاليًا في استراليا وأوروبا وغيرها تبلغ الفتيات والصبيان مُبكرًا قبل العاشرة، بينما في السابق كان البلوغ يصل لدى الفتيات عند ١٢ سنة ولدى الصبيان عند ١٤، «المقياس الدولي للبلوغ الطبيعي في البنات البيض في الستينيات كان عند ١٢ سنة وفي الأولاد عند ١٤ سنة، ثم ظل يتناقص حتى وصل سن البلوغ في فترة ما إلى ١٠ سنوات و١٠ أشهر، إلى أن صار جيل البنات في آخر سنوات يصل إلى البلوغ قبل سن العاشرة - ٩سنوات و١٠ أشهر»[1].

لكن الفقهاء قالوا إن ١٥ سنة هي أقصى سن للبلوغ سواء بلغ الإنسان الحُلُمَ بَدَنِيًّا أم لا، لأنهم حددوا - حسب النصوص الشرعية - علامات معينة لتحديد البلوغ تجعلنا نقول إن هذا الولد أو تلك الفتاة قد بلغا سن التكليف.

وعلامات البلوغ هذه هي باختصار - (مؤقتًا إلى أن نأتي إلى تفاصيل هذه المرحلة في كتابها المستقل بإذن الله) - هي اجتماع عامل أو أكثر من الآتي (والكلام ينطبق على الجنسين الذكر والأنثى):

١. ظهور شعر العانة الخشِن.

٢. الاحتلام.

٣. بلوغ سن الخامسة عشر.

٤. ويضاف عامِل رابع للأنثى وهو الحيض.

---

(١) من رابط وثائقي على شبكة الجزيرة نقلا عن ديلي تليجراف.

فلو لم تظهر أي من هذه العلامات على الولد أو البنت حتى سن ١٥، نعتبرهم حينها قد بلغوا سن التكليف كالكبار. ولفظة «البلوغ أو بلوغ الحُلُم» مستمدة من الآية المذكورة من قبل في مصطلحات الطفولة: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ [النور:٥٩]، ومن الآية: ﴿ حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ ﴾ [النساء:٦]، ولها أحاديث كذلك.

سادسًا :مرحلة الشباب

يبدأ سن الشباب غالبًا بالبلوغ الذي أقصاه يكون عند سن ١٥، ويمتد الشباب إلى ٤٠ سنة، قال ﷻ: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ ﴾[الأحقاف:١٥][١].

وجاءت لفظة الشباب كثيرا في السنة: «يا معشر الشباب»[٢]، «وعن شبابه فيم أبلاه»[٣]، وغيرها، ونطلق أحيانًا على البالغ أو حتى اليافع والمراهق كلمة «شباب» من باب إكبارهم وتعميم الخطاب.

فمتى سن الرشد؟

الرشد: هو حسن التصرف في المال، والقدرة على استثماره واستغلاله استغلالًا حسنًا، وعكس الرشد: السفه، وهو: التبذير للمال وإنفاقه في غير حكمة، ونَعرف بلوغ الإنسان الرشد عن طريق «الاختبار بعد مرحلة البلوغ»: ﴿ حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء:٦].

لذلك فإن سن الرشد قد يأتي مع البلوغ أو بعده قليلًا أو كثيرًا، حسب التربية والاستعدادات وظروف الحياة الاجتماعية ونحوها، لهذا السبب هو ليس له سن محدد عند جمهور الفقهاء، فقد يكون الإنسان شابًا عشرينيًّا أو أكبر لكنه غير راشد

---

(١) واختلفت التفاسير حول سن الأشد وموقعه من سن الأربعين.
(٢) البخاري: ٥٠٦٦.
(٣) صححه المنذري – صحيح الترغيب والترهيب (٤/ ٢٩٨).

بعد، وقد يكون فتًى يبلغ ١٢ عامًا لكنه راشدٌ، لكن الرشد في كتب الفقه: يظهر لدى الشباب عند سن ١٨، وعند بعض الأئمة يبدأ من ٢١ سنة، والأمر راجع عادةً لما ذكروه من معيار وليس السن بالضرورة(١).

رأيتم منطلقات تعريف المراحل العمرية في ديننا، والفرق بينها وبين الغرب ابتداءً؟

سابعًا :وأما الأعمار المتبقية بعد الـ ٤٠، فهي:

الكهولة

من ٤٠ إلى ٦٠ سنة، حيث يبدأ منحنى اكتمال العقل والقوة في التناقص.

ثم الشيخوخة

من ٦٠ فما فوق، ونسأل الله أن يجعل أعمارنا في طاعته ونعوذ به من أرذل العمر.

نجمع كل ما سبق في آيتين بليغتين:

﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج:٥].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[غافر:٦٧].

(١) من فتوى بعنوان «ليس للرشد سن محدد عند جمهور الفقهاء» على موقع إسلام ويب.

الفصل السابع

لماذا نهتم بالطفولة رغم أنها مرفوع عنها القلم؟!

وبشكل أدق: لماذا للكائن الحلزوني بالأخص كتابان مستقلان؟!

أولًا: لأن من هنا يبدأ عقوقنا لأبنائنا

يظن الناس أن عقوقنا للأبناء هو الصراخ والخصام والحرمان المادي فقط، ولكن سترون معنا في رحلتنا كيف أن عقوقنا لهم يمكن أن يكون بأبسط الأشياء، مثل التسمية!

ومن أشكال العقوق أيضا عدم تحري الدين والأخلاق عند انتقاء الأب لأم أبنائه، والأم لوالد أبنائها، فالعقوق درجات، وهناك قصة معروفة ربما لغالبيتكم، هي لا أصل لها كرواية ولا كنِسبة إلى الفاروق عمر، لكن معناها صحيح بلا شك، فالخطأ فقط هو في نسبتها للفاروق أو كون أنها تُروَى على أنها حدثت بالفعل، لكن كما قلنا هي صحيحة المعنى والأثر التربوي، ومتماشية مع تربية السلف بالفعل.

تحكي القصة كما تُروَى، أنه جاء رجل إلى أمير المؤمنين وكان هو الخليفة الذى يُربي الأُمة حينئذ، جاء الرجل يشكو إليه عقوق ابنه، فأحضره الفاروق وأنّبه على عقوقه لوالده، فقال الابن: يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال: بلى، قال: فما هي يا أمير المؤمنين؟، قال: أن ينتقِي أمه، ويُحَسن اسمه، ويُعلمه الكتاب، أي: القرآن، فقال الابن: يا أمير المؤمنين إنه لم يفعل شيئا من ذلك، أما أمي فإنها كانت زوجة لمجوسي، وأما اسمي فقد سماني جُعلًا أو جُعرانًا وهو اسم

حشرة (كأنه يحتقره)، وأما الكتاب فلم يعلمني منه حرفًا، فقال أمير المؤمنين للأب (كما يُروَى): «جئتَ إليَّ تشكُو عقوقَ ابنِك وقد عققتَهُ قبل أن يَعُقَّك وأسأت إليه قبل أن يُسيئ إليك».

والقصة ليست بحاجة إلى شرح أو تعقيب، لكن فيها نقطتان لهما علاقة بتربية الأبناء:

١. انتقاء الأم الوالدة المربية لهذا الإنسان.

٢. انتقاء اسمه.

سبحان الله، لأن هذه هي البدايات التي يرتفع عليها البنيان.

وابن القيم أيضًا أكد هذا الكلام وهذه المسئولية، فقال نقلًا عن بعض أهل العلم: «أن الله ﷻ يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده فإنه كما أن للأب على ابنه حقًّا فللابن على أبيه حق، فكما قال الله ﷻ:﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾[العنكبوت:٨]، قال أيضًا: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٦].

فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سُدىً فقد أساء غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادُهم من قِبَلِ الأباء وإهمالِهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسُننه فأضاعوهم صِغارًا فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينفعوا أباءهم كبارًا»(١) .

وسترون قدر وعظمة كلمة «سُننِه» هذه في رحلتنا التربوية. كما عاتب بعضهم والده على العقوق، فقال: «يا أبتِ إنك عققتني صغيرًا فعققتُك كبيرًا وأضعتني وليدًا فأضعتُك شيخًا»(٢)، (وإن كنا لا نقر هنا المعاملة بالمثل بالطبع).

(١) تحفة المودود بأحكام المولود – لابن القيم.
(٢) تحفة المودود بأحكام المولود – لابن القيم.

كل ذلك يؤيده الحديثُ المعروف: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ»[1].

وكل تلك الأمور يجب استحضارها ونحن نتحدث عن التربية بالذات للطفولة ونتساءل: ما الذي جعل السلف يقولون هذا الكلام؟ والجواب يأتيكم في الفصول تِباعًا.

ثانيًا: لأن الإنسان كالبناء: له أدوار، أول وثان وثالث ورابع وأخير

يستحيل أن نشيد الدور الثاني قبل أن نشيد الدور الأول، وقد ينهار البناء إذا شيدنا الأدوار العليا بمواد بناء مغشوشة، إن لم يتولَّ الله البناء بلطفه وعافيته، وغالبًا سينهار كاملًا، بدون الأساسات التي تقام فوقها الأدوار تباعًا، ولا يعلم الإنسان متى يكون الدور الأخير بالطبع، ولكن يعلم أن الدور الأول هو مرحلة الطّفولة، إذن هي أخطر وأهم مرحلة في البناء الإنساني بعد الأساسات.

وأساسات الطفولة هي: الوالدان لهذا الإنسان، فالطفولة للإنسان بالضبط كالقاعدة لبقية الأدوار، والتي منها ينطلق ترقِّي البناء وعلوه، فإما يرتفع بثبات ومتانة لرسوخ القاعدة السليمة والأساسات الضاربة جذورها بقوة في باطن الأرض، وإما تنهار قاعدتُه فيخر عليه السقف من فوقه ويَسقط ولا تنفعه الأساسات في شيء والعياذ بالله، فاهتمامُكِ بالدّورِ السّابع يبدأُ بالأساسات والأدوار الأولى، وإهمالُك لهم يعني إهمالك للدور السّابع، هي عملية هندسية منطقية بحتة.

وقد ذكر باحثون وعلماء في المجال التربوي ونمو الطفل، أن السنوات الخمس أو الست الأولى من حياة الإنسان هى أهم مرحلة، حيث يتم فيها بناء (شخصية الطفل)، فيتشكل في هذه المرحلة ما سيظهر بعد ذلك في مراحله العمرية المتقدمة بإذن الله. يقول أحد هؤلاءِ المختصين في علمِ التربيةِ بمرجعية شرعية الدكتور عباس

---

(١) البخاري: ٦٥٩٩.

محمد: «السنوات الخمسة الأولى من العمر ذاتَ أثرٍ حاسمٍ في تحديد شخصية الطفل المستقبلية فهي مرحلةٌ حاسمة ومن أكثرِ المراحلِ تعقيدًا في حياة الفرد الإنساني ففيها يَتمُ إرساءُ معالم الشخصية وتحديدِ إطارِها العام، فالعديد من العلماء يعتقدون أن نمط شخصية الفرد المستقبلية إنما يُشتق من النمط الذي وضعته التربية في هذه الفترة»[1].

وهذا القول ليس قولًا منفردًا من الدكتور، فهناك عدةُ أبحاثٍ تؤيد كلامه بالفعل، «فما يقرب من ٩٠٪ من العملية التربوية تتم في السنوات الأولى»[2].

ثالثًا: لأن هذه المرحلة هي أشد مراحل الضعف الإنساني

فإن هذا الدور الأول – الطفولة – هو المرحلة الأولى للضعف البشري الكامل، فهي بلا عقل ولا قوة كافية بعد، بينما الشباب: وافرة العقل والقوة، ثم الهِرَم: عقلٌ بلا قوة، كما نعلم جميعًا.

قال ﷻ: ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِير ﴾ [الروم:٥٤].

ولا تتخيلوا أن هذا الضعف الطفولي الشديد شيء سيء، بل هو لحِكَمٍ جليلةٍ كثيرة، فمثلًا هذا الضعف هو الذي سيسهل علينا كسب مشاعر الصغار، فإن لم يكن هذا الضعف موجودًا لصارت التربية شاقة جدًّا على المربين وكان سيُحكَم عليها بالفشل المستمر، لأن الطفل حينئذ سيكون ببساطة كائنا مُستغنيًا عن أهلِه ومستغنيًا عن كل من يحتاجُ اليهم وبالتالي سيتجبّر ويتسلط أكثر وسيستكبر عن التّعلُّم وخفض الجناح والتواضع والتشارك والعلاقات، ولن يكون شاكرًا لوالديه ولا لربه ولن يكون

---

(١) د. عباس محمد في كتابه (رحاب الطب الاسلامي: التشكيل الشخصي للطفل)، المصدر: كتاب (مدخل الأدلة المقاصدية التربوية حسب المراحل العمرية).

(٢) دليل المقاصد التربوية: لمرحلة الطفولة – سلسلة ضخمة تأليف كوكبة من العلماء والمختصين.

مُتعلّقًا بهم ولا بأي صاحب فضل عليه بل سيكون مُكتَفيًا تمامًا بنفسه.

فمثلا: من صور هذا الضعف الطفولي - بالإضافة بالطبع لصور الضّعف الإنساني العام:

١. عدم القدرة على المشي مباشرة من بداية ولادته بل يأخذ وقتًا لتحقيق ذلك.

٢. عدم القدرة على الكلام والتعبير عن احتياجاته حيث يكون التعبير بالبُكاء و«الزن»!

٣. الاحتياج الدائم إلى من يُحَركه ويحمله ويُغَير له الحفاض وربما من ينيمه ومن يرقيه ومن يطعمه ومن يدفئه ومن يخفف عنه الغطاء أو ربما يُحكِمُه أكثر إلخ.

٤. الجهل بكل شيء والرغبة في تعلم كل شيء.

بالتالي كل مشاكِلهم المُرهقة والتصاقهُم الشّديد بالأم وافتقارهم الشديد لها ولنفقة الأب وحمايته، لا ننظر إليهم كأمور سلبية أو مزعجة ينبغي التخلص منها، بل على العكس يجب التعامل معها على أنها كنز وغنيمة ونعمة حقيقية لو لم تكن موجودة لما استطعنا الوصول إلى قلب ووجدان هذا الكائن الصغير أو الدخول إلى عالمه. فإشباع كل ذلك يجعله يسكن ويطمئن فيَمتَنُّ تلقائيًّا لمن شارك في ذلك، فيَشعُر تراكميًّا أن ضعفَه ينجبرُ بوالديه، واحتياجاته وفقره يتمّ إشباعهما عن طريقهما، فيتضاعف داخله أكثر وأكثر إحساس الامتنان والمحبّة والتّعلُّق بهما؛ هذه فطرة، كما قلنا في المسرات والمنافع.

رابعًا: هي صورة الإنسان في أصفى حالاته الذّهنية والقلبية والفطرية

أي كما أشرنا من قبل: حالة خام أولية كالصفحة البيضاء، وأي نعم: المساحة البيضاء كلما اتسعت كلما أرهقتنا في ملئها، لكن في نفس الوقت هي بيضاء لم تتلوث بعد ولم تزدحم سطورها بما يعيق ملئنا إياها بما نريد.

يسميها الغربيون: «المرحلة الذهبية»، وأسماها الإمام الغزالي بالـ «جوهرة»، فيما أوردناه من كلامه في بداية الباب، فيما يخص ما نقصده عن الصفحة البيضاء: (قلبه الطاهر جوهرة نفيسة، ساذجة، خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نُقِش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه)، ويقول المفكر الإسلامي مالك بن نبي أنه عندما جاءه رجل وقال: «إن ابني قد وصل العام الأول فأريد منهجـًا أربيه عليه، أجابه: فاتك القطار»[١].

يقصد بأن هناك مرحلة ثمينة مرت عليه دون الاستفادة منها، لأن من المتعذر حقيقةً تدارُكها! لكنها ليست دعوة للإحباط، فما لا يُدرَك كله لا يُترَك كله، وربنا الجبار يجبر دومًا نقصنا وضعفنا برحمته وفضله ولطفه، إنما هي دعوة لاستغلال الكنوز المتاحة وتدارُك ما فاتنا منها قدر الإمكان، حتى يرى الله منا خيرا فيؤتينا خيرًا مما أخذ منا ويغفر لنا.

ولن أقول للأمهات استمتعي بأمومتك وكلام من هذا القبيل وأسكت لا، فأي نعم أنا أؤيد هذه الشعارات وأحبها وأدعمها ففيها الكثير من المعاني السليمة بالفعل لأن الأمومة حقًّا لها جوانب كثيرة ممتعة، ولكن أحيانًا يكون بعض هذا الكلام فيه مثالية ومبالغة حين يتجنب القول أن بها جوانب شاقة بالفعل لا متعة فيها، ولكن فقط عندما يرتبط البذل باحتساب الأجر من الله أولًا، واعتقاد جازِم أنّها مرحلة كنوز وأننا بقدر ما سنتعب فيها بقدر ما ستكون راحتنا فيما بعدها بإذن الله في مواسم الحصاد المتتابعة. فنعمل تحت شعار «سأتعب الآن لأرتاح غدًا بإذن الله»، عندئذ: يَهون التعب وتُطِل اللذة، وعندما نفكر بهذه الطريقة في تربية أولادنا سيكون لدينا قوة تحمل وقدرة على العطاء أكبر وباعث أقوى للاستمرار بإحسان.



---

(١) من فتاوى الاستشارات على إسلام ويب، استشارة رقم: ٢١١٢٢٠٠.

وكما أنها كالبناء لها أدوار وأساسات، فإنها أيضا كالنبات كما قلنا من قبل؛ لها بذرة وجذور تحتاج لرعاية وسقاية حكيمة إذا أردنا لها أن تنمو وتتمدد وتترعرع سيقانها وأوراقها وتخرج ثمراتها من أكمامها وتصير شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها.

إذن، في هذه المرحلة كيف ينبغي أن نترجم اهتمامنا بالبذرة إلى أفعال؟

الجواب: من خلال خطة التربية السداسية خاصتنا، موضوع الفصل التالي.



الفصل الثامن

ما خطتنا السداسية للتربية؟

خطّة عملية رتبتُ أركانَها في ستّ نقاط، قد يوجد نقاط أكثر منها لدى غيري، ولكن لا أرى أن أي أم أو أب يستغني عن أي من هذه الستة بحال من الأحوال.

وتلك الخطة السداسية هي كما يلي وبالترتيب

١. معرفة سمات وطبيعة المرحلة بشكل عام بالإضافة الى معرفة طبيعة كل طفل على حدة بشكل خاص، فكُل طفل مختلف عن أخيه وعن أولاد الآخرين وعن أولاد المراحل الأخرى، مثلا: كل الأطفال يحبون الاستكشاف في الحد الأدنى منه، هذا عامٌ، وربما طفلك أقل في تلك عن غيره وربما أشد، وهذا خاص.

٢. معرفة احتياجات المرحلة وحقوقها بشكل عام، ثم معرفة احتياجات كُلّ طفل على حدة، فكل طفل غالبا لديه احتياجات خاصة مختلفة عن غيره، وربما لديه احتياج لأمر ما من احتياجات المرحلة الطبيعية أكثر من احتياج إخوانه له: رعاية أكثر، أو وقت أكثر، أو محاورة أكثر، وهكذا.

٣. معرفة مشكلات المرحلة والعقبات التي تقابِل المُربّي فيها بشكل عام بالإضافة إلى معرفة المشكلات والعقبات الخاصّة بكُلّ طِفل على حدة، والتي قد تظهر أحيانا منذ البدايات بوضوح، فمنذ أول يوم تظهر علامات وطبائع معينة مؤشِّرة لأمور، وبالرغم من أنها لا تكون انطباعات دائمة وثابتة – تمامًا كملامح الوجه التي تتغير كل يوم عن اليوم الذي قبله – إلا إنها تظل إشارات لأشياء مُعيّنة قد نحتاجها

لاحقًا تراكميًّا، فيمكننا أن نتعرف مبكرًا على بعض مشكلات وعقبات طفلنا بشكل خاص بغضّ النّظر عن مشكلات المرحلة العامة، مع التأكيد أن تركيزنا هو على المشكلات التي عمت بها البلوى في زماننا خاصة، ويَكثر عنها سؤال الأمهات بشكل خاص وينطبق عليها أنها من معيقات التربية أو التوافق الاجتماعي النفسي السليم بين الأم وابنها.

٤. معرفة كنوز ومميزات هذه المرحلة بشكل عام، بالإضافة إلى معرفة كنوز طفلي على حدة: ما مهاراته هو بشكل خاص؟ ما الاشياء التي تميزه هو عن أقرانه؟ ما الخلق أو الطبع المحمود البارز عنده؟ فكُلّ إنسان قد أودع الله فيه شيئًا ليس موجودًا عند الآخر لكي نكمل بعضنا البعض، فلا يوجد أي إنسان كامل وخزائن الله من الخيراتِ لا تنفد، كما قلنا من قبل قول النبي ﷺ: «إنّ الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم»[1].

٥. معرفة كيفية ملء هذا الوعاء (ملء الطفل)، أي: كيفية توظيف ما تعرفنا عليه في النقاط الأربعة بشكل عام وبشكل خاص، لملء هذا الوعاء بما يخدم ويحقق معاني التربية التي تكلمنا عنها سابقًا وما فيها من تهيئة للطفل تدريجيًّا لدور العبودية الحق لله تعالى.

٦. المرحلة السادسة والأخيرة: الاستعداد للمرحلة، وهذه الخطوة تختلف عن خطوة استعدادنا بأنفسنا للتربية بشكل عام، والتي فصلناها في فصل سابق.

وقد يستغرب البعض كيف يكون «الاستعداد» هو آخر مرحلة؟ والجواب: لأن الخطوات الخمس الأولى هي في غالبيتها خطوات معرفية (معلومات) وليست خطوات عملية (إجراءات)، كلها عبارة عن دراسة وتأصيل وترتيب أفكار وإطلالة

(١) مختلف في صحته، وصححه الألباني - صحيح الترغيب (١٥٧١)، صححه الألباني - صحيح الأدب المفرد (٢٠٩)، صححه الحاكم - المستدرك على الصحيحين (٩٥).

على كل عناصر وخيوط المرحلة المطلوب الإمساك بزمامها، أما المرحلة السادسة فهي التطبيق العملي لها جميعًا، وإن سأل سائل: حتى خطوة علاج المشكلات تعتبر نظرية؟ فالجواب: نعم، فحتى الجانب العملي الذي فيها ينبغي أن يكون معلومًا مسبقًا قبل صياغة خطوة الاستعداد للمرحلة بشكل دقيق، **لذا تجدون غالبية** الفصول الأولى أكثر دسامة وأكبر حجما من فصول الملء والاستعداد، فهكذا تكون دومًا الأمور التأسيسية التي ينبني عليها انطلاقة الأفعال.

فحين نسأل الأسئلة الستة:

١. ما طبيعة المرحلة وسماتُها؟

٢. ما احتياجاتها وحقوقها؟

٣. ما مشكلاتها وعقباتها وكيفية علاجها؟

٤. ما مكامن الكنوز فيها ؟

٥. كيف نملؤها؟

٦. كيف نستعد لها بعدما تعرفنا عليها؟

ونبحث عن إجاباتها ونحققها، حينها نستطيع بإذن الله أن نجيب عن السؤال الجامِع لكافة مقاصدنا التربوية والمطروحة منذ البداية: ماذا يريد الله منا في هذه المرحلة العمرية؟ وكيف تكون تربيتها المقاصدية السليمة وفق الضرورات الخمس وما يليها من احتياجات أو تحسينات، بما يرضي الله؟

ونختم بتنبيهات هامة تخص الفهم والتعامل مع تلك الخطوات

١. حين نقول «البناء» أو «النمو» أو «التربية» أو «الملء»، نقصد معنى واحدًا غالبًا:

(الترقي بتدرج)، فكلهم بنفس المعنى مع فروق لغوية بسيطة لا تعيق استعمالنا لهم هنا أحيانا كمفردة واحدة، مثال: النمو الديني، والتربية الدينية، والبناء الديني، والملء الديني إلخ.

٢. لدينا محاور كثيرة للنمو، والبناء، والتربية، والملء، فمنها: النفسي، والديني، والاجتماعي، والصحي، والحسي، والانفعالي، والمهاري، والإدراكي، والمعرفي إلخ، وكل ذلك نتناوله من القرآن والسُّنّة بقدر ما يوفقنا الله في ذلك، تنطلق جميعُها من خلاصة جامعة: أن للإنسان ثلاثة عناصر أو جنود: فِكر وشعور وسلوك، مسئول عنها عقل وقلب وجوارح، فمن هنا تحديدًا بدأت تتشعّب كل تلك المَحاوِر، لذلك قد تجدون أحيانًا تقاربًا بين بعضها بشكل يصعب معه انفصالهم؛ فأدمج المتقارب منهم معًا في فقرة واحدة، ثم كلما تمايزوا أكثر كلما فصلتُهم في فقرات مستقلة. وتتداخل مع بعضها لأن ديننا لا يتعامل مع قواعد صلبة، ولكن يتعامل مع نفس بشرية مرنة مُتفاعِلة على كل مستوى بشكل مُتشابك متكامل مدهش، فقد تجدون عنوانًا واحدًا مُكَررًا بين عدة محاور لتعدد زواياه؛ لكن لن تجدوا تكرارا لنفس محتواه، إنما العنوان فقط ثم تفصيل زاويته الجديدة المناسبة للمحور، كالرضاعة الطبيعية مثلًا، هي حق واحتياج صحي - غذائي، ونفسي أيضًا.

٣. قد تجدون أحيانا كذلك عناوين متشابهة بين فصول الحقوق والاحتياجات وفصول الاستعداد، والسبب في ذلك هو في العلاقة بين الفصلين: ففصول الاحتياجات والحقوق معنية بتشخيص المسألة وتفنيد تفرعاتها ومتعلقاتها وأدلتها من الوحيين، بينما فصول الاستعداد هي بمثابة الإجراء بناءً على التشخيص، لذا تجدونها في «الاستعداد» كالتغريدات القصيرة فقط ما استطعت، بخلاف فصول الحقوق والاحتياجات ففيها تفصيل كل ما وراء تلك التغريدات.

٤. لم أتكلم باستفاضة في المراحل العمرية عن تفاصيل المُتطلبات الغذائية والصحية وآثارها، فالسلسلة مَعنِيةٌ أكثر بالتربية المعنوية وما يُصلِحُها من كل جانب بما فيهم جانب الغذاء والصحة المتصل بها، وهذا لا يعني أننا أغفلنا الكلام عن جانب التغذية، إنما كلامنا عنه عامٌ من باب سرد أهميته ودوره في النمو المتصل بالتربية المثمرة، وما زاد عن ذلك فيمكنكم الرجوع إلى مختصي التغذية والنمو لتتعرفوا

عليه بالتفصيل أكثر، فتركيزنا هو حول الأمور الخاصة بمُستَقبِلاتِ التربية وناقِلات السلوك: الحواس والعقل والمشاعر والجوارح؛ ما يخص النمو الحسي، والحركي، والعقلي، والإدراكي، واللغوي، والمعرفي، والاجتماعي، والنفسي، والديني، والفطري، والأخلاقي إلخ، والمشكلات التي تعيق تحقيق التوافق النفسي والاجتماعي السليم بين المربي والمتربي، فهذا الذي حوله ندندن، ومن أرادوا مرجعًا تفصيليًّا متكاملًا ومصورًا لتغذية الطفل خلال أول ثلاث سنوات، فأنصحهم بالاستعانة بكتاب «مطبخ جومي»، تأليف أ/ زينب حسني، وإصدار دار نشر «٨٠ فكرة».

٥. مُتطلبات المرحلة، وحقوق المرحلة، واحتياجات المرحلة إلخ، كلها كذلك مفردات تؤدّي نفس المقصد هنا غالبًا، وإن كانت الحقوق مُرتبطة أكثر بالإثم وبالذنب والحرج الشرعي عند تركها، مما يوجب أداءها، بينما الاحتياجات والمُتطلبات تكون أقل في المرتبة وإن كانت مهمة وإهمالها قد يعد تقصيرًا من المربي.

المقصد: ليس كل ما هو مكتوب في فصول الحقوق والاحتياجات حقوقًا بالمعنى الفقهي المرتبط بالإثم والوجوب، وإنما بعضها بمعنى حقوق وبعضها احتياجات وبعضها سُنن وآداب في التعامل مع الطفل وتحسينات وتكميلات، يجمعهم جميعًا معنى: (الاحتياج إليها والحثّ على إشباعها بدرجة أو بأخرى، نظرا لأثرها التربوي المهم على الطفل بدرجة أو بأخرى)، وأحيانًا نكتشف حقًّا من الحقوق دون أن تكون الشريعة نصت عليه بشكل مباشر، فهذا يكون ضمن الحقوق وإن لم يكن بدرجة الحقوق التي يأثم بتركها الأهل كما قلنا، مثال: اللعب، هو حق من حقوق الطفل، ولم تنص الشريعة بشكل مباشر على ذلك، إنما وجدنا نصوصًا عدة للعب الصغار تبين مدى أهميته لهم، لكن هل يأثم الأهل بترك هذا مثلما يأثمون في غيره من الحقوق الكبرى كحق النسب والرضاع والنفقة؟ الإجابة: كلا فما لم يكن فيه إثم صريح، اعتبرتُه من الاحتياجات الهامة لفعله ﷺ أو سكوته عنه سكوتَ إقرار، وإن لم ينُصّ ﷺ مباشرة على أهميته، ثم سأبين بوضوح الحقوق التي يأثم المربي بالتفريط

فيهـا، في مواضعهـا، ليتضـح الفـرق بينهمـا.

٦. كل مـا سـأذكره هـو غيـض مـن فيـضِ كنـوز تربيـة النفـوس بالوحييـن، ولا أزعـم فيهـا الكمـال بـل أعـترف بقصورهـا حقًّـا وصدقًـا لا تواضعًـا، وأنهـا لا زالـت تحتـاج لأعمار ومؤسسـات وعمـل جمعـي وجهـد متراكـم لاسـتخراج بقيـة لآلئهـا المنثـورة في كافـة كتـب السـنن وأقـوال علمـاء خيـر القـرون وبفهمهـم المسـتقيم، لا بالتفسـير الحداثـي ولا غيـره، بخاصـة مـا سـتقرأونه في فصـول الحقـوق والاحتياجـات عامـةً، لكـن مـا كتبتـه لكـم منهـا ربمـا يكـون هـو أبرزهـا في كل محـور، وينـدرج تحتهـا بالطبـع مثيلُهـا في كل زمـان ممـا ينطبق عليـه قياسًـا أو استصحابًا وصفَ أنـه احتيـاج أو ضـرورة أو مصلحـة معتبـرة للطفـل، فأسـأل الله أن يتقبـل منـي جُهـد المُقِـلّ ويربيـه بيمينـه حتـى يصيـر كالجبـل، وأن يغفـر لـي قصـور علمـي ووقتـي عنهـا ويقيـض لنـا مـن يسـتلم الرايـةَ مـن بعـد.

٧. غالبيـة الأحاديـث مختصـة بمرحلتهـا تحديـدًا، سـواء كانـت الوليـد أو الجنيـن أو الرضيـع أو الفطيـم، إلا أن بعضهـا القليـل هـو عـن الطفـل أو الأبنـاء عمومـا في الإسـلام وربمـا أحيانًـا عـن المسـلمين بشـكل عـام صغـارًا وكبـارًا، ممـا يشـترك فيـه الإنسـان المسـلم في كل مراحلـه عامـةً ويصلـح لتطبيقـه معـه. وعلـى الجانـب الآخـر فـإن الأحاديـث التـي تتنـاول مرحلـة خاصـة محـددة فإنهـا لا تختـص بهـا وحدهـا وحسـب، فمنهـا أمـور يصلـح تطبيقهـا مـع مراحـل عمريـة غيرهـا بـل مـع الراشـدين، مثـل: أحاديـث المـزاح والملاعبـة والمحبـة الحسـية للصغـار ونحوهـا. هـذا عـام ويسـتثنى منـه مـا اختُـص بمرحلـة مـا.

٨. الأحاديـث الـواردة هـي الأحاديـث المقبولـة عنـد علمـاء الحديـث، أي: الصحيـح، والصحيـح لغيـره، والحسـن، والحسـن لغيـره، ومـا كان فيـه خـلاف حـول قبولـه، أنـوّه عنـه وأذكُـر مَـن صحَّـحه أو حسَّـنه.

٩. أحيانـا أُدخِـل «الجنينيـة» في عنـوان «مرحلـة الطفولـة» تَجَـوُّزًا، رغـم أن القـرآن فـرق بينهمـا حيـن قـال ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [النجم:٣٢]، وقـال:﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طفلًا ﴾ [الحج:٥]؛ اختصـارًا فقـط للعنـوان العـام وعلـى اعتبـار أن في نهايـات

الجنينية يصبح الجنين (طفلًا) كاملًا بالفعل مستعدا للخروج والحياة وكأن الجنين طفل مستتر في الرحم على وشك الظهور، بينما الوليد طفل ظاهر خارج الرحم.

١٠. بالنسبة للفظة * التربية الجنسية *: ظللت لسنوات أتحسس من استعمالها، بسبب ما أُلصِقَ بها من وقائع سيئةِ السمعة تنقبض النفسُ وتشمئز بمجرد سماعها، مما جعلني أعزم على تجنبها في كتابي واستبدال أي لفظة أخرى بها: كتربية الذكر والأنثى، أو التربية الغريزية، أو فقه الجنسين الذكر والأنثى، أو فقه الفروق بين الذكر والأنثى، أو التربية العفيفة كما سماها الشيخ الفاضل محمد خيري؛ إلا أني لم أجد في أي من تلك العناوين ما يعبر بشكل شرعي شامل عن كل العناصر المقصودة في الفقه من لفظة * التربية الجنسية *، بالإضافة إلى صعوبة استعمال بعضها في السرد واحتمال اختلاط معناها في الجُمَل على القاريء، فمن باب الرجوع إلى أصل اللفظة في الفقه الإسلامي، والذي لا حرج فيه شرعًا نظرًا لاستعمال الفقهاء بالفعل للفظة (الجنسين الذكر والأنثى، أو جنس المولود) ونحوها بما يُعَبر عن معناها الأصلي المراد الخالي من أي وصف خادش للحياء كما شاع في المجتمعات العربية، ومن باب التحدث مع الناس بلسانهم الذي يفهمونه بما أنها صارت - تقريبًا - تعريفًا اصطلاحيًّا ثابتًا لدى عمومهم وعامة أهل التربية، استخرتُ واستشرت وتراجعت عما عزمتُ عليه واستراح قلبي لاستعمالها، إلا أني سأضيف إليها لفظة تكسبها هيبةً وعِفةً أكثر، مراعاةً لكون البعض بالفعل - وأنا منهم – لا زال يتحسس ويتحرج من سماعها مُجردة. فجعلتها: * التربية الجنسية الشرعية *.

وتلك أيضًا عشرةٌ كاملة، سيحتاج القارئ إلى استحضارها طيلة رحلته في الكتاب، وقد صغتُ كل ما سبق بخطاب للآباء والأمهات معًا، لكن أرجو أن يسامِحني القارئ الكريم لتوجهي بالخطاب إلى الأمهات في غالبية الفصول التالية، على اعتبار أنها الحاضنة للطفولة: الحامل ثم المرضع وهكذا، وللوالد الكريم كذلك فصول طويلة معنا في الكتاب لا تفوتكم.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

كلمة أخيرة قبل العبور
كي لا ترفع حاجبيك كثيرا!

ستجدون مواضع وفقرات تتوقفون عندها مليًّا متعجبين متسائلين: وهل الوليد يشعر بذلك أو يراه؟! وهل الرضيع يفهم ذلك بعد؟! وهل الجنين يدرك هذا؟! فالوليد مثلًا لديه مستقبِلات تقتنص ما حوله وتدخله إلى عقله وداخل ذاكرته بشكل لا ندركه لكن يناسب تطور نموه شيئًا فشيئًا، ثم أثناء نومه يتكامل نموه النفسي والعقلي معًا وكل تلك المعلومات تعود تترابط عصبيًّا مع بعضها البعض، ثم الطفل يستيقظ في اليوم التالي ويخزن مرة أخرى ويعود للنوم مجددًا فيترابط الذي قام بتخزينه ثانيةً معًا بإحكام وترتيب في الذاكرة وهكذا.

فعندما تقفون متعجبين متسائلين تلك الأسئلة، فكل ما أريده منكم حينها أن تتذكروا معنى كلمة (سطوة الذِكرى)، التي تحدّث عنها دكتور علي جابر الفيفي في مقالة له بنفس العنوان، وذكر فيها أننا عندما نمُرّ بمكان ما، كمخبزٍ مثلا وله رائحة مُعيّنة وقد داعبت أنوفَنَا، أو مررنا برائحة عِطر معين، أو رأينا ثوبًا ما، أو ذهبنا لمكان ما، نشعر وكأن تلك المواقف هيّجت مشاعر حنين معينة بداخلنا تجاه هذا الشيء، وهذا ما أسماه (سطوة الذِكرى).

ثم انتقل بهذا المعنى إلى ترسيخ مفهوم أن غرسَنا لأبنائنا منذ صِغَرِهم وقيامِنا بأعمالٍ معهم متصلة بتعظيم الشعائر (ككثرة ترديد القرآن - وكثرة الأذكار - والصلاة في المسجد إلخ)، وكل ما يتعلّق بالدين الإسلامي وكثرة تكراره عليهم وهُم صِغار، يجعل هذه الأحاسيس والذكريات المرتبطة بها مُخزّنة بداخلهم طوال عمرهم، حتى

إذا كبروا وانحرفوا عن الطريق شيئا لا سمح الله، تظلّ تلك الذِكرى لها سطوة تجذبهم مرة أخرى إليها، فتكون سببًا في رجوعهم وتوبتهم بحول الله وقوّته، فقد تسمع آية أو كلمة توقظ بداخلك حنينا لأيام الالتزام الأولى.

وهذا ما أود التأكيد عليه مرارًا، أن مرحلة الطفولة من عُمر يومٍ إلى عُمر سبع سنوات، بل ومن قبلها مرحلة الجنينية، كلها مراحل تخزين في أدراج ذاكرة الأبناء، لكل ما يُمكن تخزينُه من أمور يتحقق معها مفهوم (سطوة الذكرى)، وهذا أبرز شيء في هذه المرحلة ومكمن كنزها، وسترون كيف أن هذا المفهوم مُتحقق فيها بشدّة، من خلال فصول سمات المراحل العمرية المدهشة. فلا تستهينوا أبدًا، لأن هناك مواطِن أنا أعلم كم ستشعرون فيها بالدهشة! تذكروا حينها كلامنا هنا، عن (سطوة الذكرى).

وهنا نقطة مهمة، من الممكن أن يضغط على الأم شعور التقصير أنها كأم لم تعطِ الوليد مثلًا - الذي عمره أسبوع - حقه من صناعة (سطوة الذكرى)،و ربما الجنين كذلك. فإذا استبدت بك النفس اللوامة بشكل يحبطك، استحضري حقيقة أن الله عز وجل كريم حليم، لا يغلق باب الخير من خزائنه أبدًا، وأننا بإذن الله نستطيع تعويض هذه الأمور في مرحلة الرضيع الممتدة عامين كاملين.

فماذا لو أن أولادك قد صاروا كبارًا الآن ولم تفعلي ذلك لا مع الوليد منهم ولا الرضيع ولا الفطيم ولا مراحل الطفولة كلها وأصبحوا مراهقين الآن وربما شبابًا بالغين؟

فالجواب الذي نردده كل مرة حبيبتي:

دومًا هناك فرصة لإصلاح الخطأ، دومًا هناك فرصة للبدء من جديد والغرس، ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النمل:١١]، وصدق من قال: «أن تأتي متأخرًا خير من ألا تأتي». وأي نعم، قد نتحمل عواقب تأخُرِنا بلا شك وقد تكون مؤلمة في بعض مراحلها لا سيما ألم تأخر الثمرة أكثر، لكن العواقب

الأشد هي أن نظل في الوضع الخطأ ولا نبدأ بتصحيح المسار، هذا الذي لا نستطيع تحمله ولا تحمل عواقبه لا في الدنيا ولا في صحائفنا يوم الحساب.

قال السعدي عند تفسيره لآية: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء:١١]: «أولادكم يا معشر الوالِدِين عندكم ودائع، قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدبونهم، وتكفونهم عن المفاسد، وتأمرونهم بطاعة الله وملازمة التقوى على الدوام، كما قال ﷻ: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٦]، فالأولاد عند والديهم موصًى بهم، فإما أن يقوموا بتلك الوصية، وإما أن يضيعوها فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب».

وتبقى لنا سؤال أخيركالتالي.



الفصل العاشر

كيف تكون التربية بالوحيين للمراحل العمرية؟

أيها القاريء قد أنهيتَ إجراءات القراءة اللازمة للعبور، يمكنك الآن بدء رحلتك إلى بقية الكتاب لتربية هذا الكائن الحلزوني اللطيف.

حيث تبقي لنا بعد كل ذلك سؤال واحد: **كيف تكون التربية بالوحيين؟**

وهذا حديث يطول شرحه، استدعَى سلسلة كاملة بدايتُها: البابُ التالي.



الباب الثاني

الجنينية والطفولة الأولى

(من عمر النطفة إلى عمر ٣ سنوات هجرية)

القسم الأول

تربية الجنين بالوحيين
(من النطفة إلى تمام التخلُّق - تسعة أشهر)

- **هل الجنين له تربية؟**

- نعم له تربية.

- ألا نبالغُ قليلا؟!!

- لا والله لا نبالغ.

- قطعة اللحم تلك المُتكَوِّمة على نَفسِها داخل الظلمات الثلاث؟!

- إي وربِّي! هنا أولُ بيتٍ تربوي يتربَّى فيه الإنسان.

وسنرى معًا كيف يكون ذلك إن شاء الله.

فبعد كل هذه المقدمة عن معنى التربية وتصنيف المراحل العمرية والضرورات الخمس وترتيب المصالح البشرية، آن أوان تفصيل تربية الإنسان على ضوء كل ذلك.

فإن لم تكن قرأت ما سبق، فأنت في الفصل الخطأ!



الفصل الأول

سمات الجنين

الجنين هو أول بذرة للإنسان في رحم الأم، فهو مرحلة النمو التي في الخفاء والظلام أولا قبل الخروج إلى النور، بالتالي لا عجب أن اسمه (جنين)، نظرًا لخفائه بالداخل، تمامًا مثل البذرة في باطن الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢]، وتمتد تلك المرحلة عادةً تسعة أشهر: منذ مرحلة النطفة وحتى تمام التخلق الصالح لخوض الحياة، وفي الباب الأول من الكتاب عند تعريف المراحل العمرية، ذكرنا تعريف الجنين وبعض مواضعه الأخرى في نصوص الوحيين وما إلى ذلك، يُرجع إليها هناك.

فما سمات الجنينية والجنين؟

أولًا: النمو العام للجنين

الجنينية هي أصل المراحل العمرية التي يتأسس عليها نمو الإنسان إلى نهاية عمره، والبيئة العامة التي تكون محاطة بها المرأة الحامل والظروف التي تمر بها تؤثر في شخصية وبناء الجنين بإذن الله، بالتالي تطور الجنين مرتبط جدًا بحالتها النفسية والصحية والغذائية، وكلما كانت هذه الأمور أفضل والأم تتبع التوصيات الشرعية والطبية بشكلٍ صحيح كلما كان نمو الجنين أفضل وسلوكياته عندما يخرج للحياة بإذن الله أقوَم.

ولهذا رخَّص الشرع للحامل في كثير من الأمور الشرعية لكيلا تتعرض لما لا تطيق فتضر جنينها المتصل بها، لذلك رأينا في فصل المقاصد، كيف أن الرخص من مقاصد حفظ النفس سبحان الله.

فبطن الأم إذن هو أول بيتٍ تربوي للإنسان المسلم وهو في أضعف حالاته وأضعف خلقِه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٣]، وبداخل المرحلة الجنينية مراحل عمرية متدرجة صعودًا، تسمى «أطوار»، وقد ذُكِرَتْ إجمالا في القرآن في قوله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤]، يقول السعدي في تفسيرها: «خلقًا مِن بَعد خَلقٍ، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق».

ثم تلك الأطوار فُصِّلت من لدن حكيم خبير في آياتٍ أخر، بيانها كالتالي:

الطور الأول: طور النطفة، أو طور الأمشاج

ولدينا ثلاثة أنواع من النطف: النطفة المُذَكرة والنطفة المؤنثة، اجتمعا معًا وكوّنا النطفة الثالثة التي تسمى نطفة الأمشاج، وهي اجتماع الحيوان المنوي مع البويضة بالتلقيح الطبيعي، هذا هو الطور الأول من مرحلة الجنين، ويستمر ٤٠ يومًا»[(١)]. قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢].

ثم الطور الثاني: طور العَلَقَة

وهي قطعة دم جامدة متعلقة بجدار الرحم، تستمر أيضًا ٤٠ يومًا، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون:١٤]، فإذا مر على العلقة ٤٠ يومًا «بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا»، وهو الملك الموكل بالرحم، فيأتي لِتَصْوِيرِهِ، وَتَخْلِيقِهِ، وَكِتَابَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ،

---

(١) دليل المقاصد التربوية لمرحلة الجنينية.

«فَيَقْضِي رَبُّكَ ما شَاءَ، وَيَكْتُبُ المَلَكُ - أي: يكتب أجله ورزقه وكل ما قضى الله - ثُمَّ يَخْرُجُ المَلَكُ بالصَّحِيفَةِ في يَدِهِ، فلا يَزِيدُ علَى ما أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ»، أي لا يضيف على قضاء الله بحق تلك النطفة شيئًا ولا ينقص شيئًا[1].

ثم الطور الثالث: طور المضغة

وفيه يتحول هذا الدم الجامد إلى قطعة لحم غير مُخلَّق، بقدر ما نمضغ، وتستمر أيضًا ٤٠ يومًا، قال ﷻ: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون:١٤]، وبذلك يكون الجنين قد أتم ١٢٠ يومًا، بنمو متدرج.

ثم الطور الرابع: طور نفخ الروح

فيه يرسل الله ﷻ الملَك الموكل بالأرحام ينفخ الروحَ في ابنك ويأذن له ربُه أن يُسَجَّل في سجل الأحياء. متى يكون هذا الطور بالضبط؟ بعد اليوم رقم ١٢٠، هذا باتفاق العلماء كما نقل ابن حجر[2]. هل هذا يعني أنه في اليوم الـ ١٢١ تُنفخ الروح؟ ليس شرطًا، الله وحده يعلم، لا يُعرف لها يوم محدد ولا توقيت محدد لكن اليقين إن شاء الله أنه بعد مدة ١٢٠ يومًا.جاء في بعض روايات أطوار الجنين، بعد ذكر طور المضغة: «ثُمَّ يُنْفَخُ فيه الرُّوحُ»[3].

ونفخ الروح يختلف عن بدء نبض الجنين، فمعروف أن نبض الجنين يبدأ بعد ٣٦ أو ٣٨ يومًا جنينيًّا - أي تقريبًا ٥ أسابيع - ثم تبدأ الدورة الدموية في العمل، وقبل ذلك يكون أنبوب غير مكتمل؛ بينما الروح لا تنفخ قبل ١٢٠ يومًا، أي ٤ أشهر.

ثم الطور الخامس: خَلقُ العظام

بعد مرور أربعة أشهر، أي في نهاية طور المضغة، قال ﷻ: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ

(١) من شرح الدرر السنية للحديث صحيح مسلم:٦٢٤٥).
(٢) دليل المقاصد التربوية لمرحلة الجنينية.
(٣) صحيح البخاري: ٧٤٥٤.

عِظَامًا﴾ [المؤمنون:١٤]، وهي عظام جنينية ذات طبيعة خاصة ثبت وجودها في ذلك الطور، وورد في بعض روايات حديث أطوار الجنين التي ذكرها ابن حجر، أن هذه المرحلة تستمر ٤٠ يومًا، وقال ابن القيم أن الخلق ينْتَقل في كل أَرْبَعِينَ يَوْمًا إلى طور آخر[١]، والله أعلم.

ثم الطور السادس: تغطية العظام باللحم

قال ﷻ: ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون:١٤]، إلى أن ينتهي اكتمال تصوير وتشكيل الإنسان الذي قضاه الله في رحم أمه تسعة أشهر.

أطوار متلاحقة من الضعف، تحتاج لحرص شديد وصبر وتمرُن على اعتياد وجود روح تنمو في الداخل، حياتُها وأمانُها وسواؤها مرتبط بسلوكياتي بشكل قوي ومباشر، إلا أن يشاء الله.

وهذه المرحلة بأطوارها المتسلسلة مجموعة في آيات وأحاديث كثيرة، ذكرنا أجزاء منها في مواضعها، ونذكرها بتمامها كالتالي:

۞ قال ﷻ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج:٥]، وهذه الآية سبحان الله لخصت بشكل عام المراحل العمرية، من بداية الجنينية إلى أرذل العمر.

---

(١) تفسير القرآن لابن القيم.

۞ وقـال ﷻ فيمـا يخـص العظـام: ﴿ثُـمَّ خَلَقْنَـا النُّطْفَـةَ عَلَقَـةً فَخَلَقْنَـا الْعَلَقَـةَ مُضْغَـةً فَخَلَقْنَـا الْمُضْغَـةَ عِظَامًـا فَكَسَـوْنَا الْعِظَـامَ لَحْمًـا ثُـمَّ أَنشَـأْنَاهُ خَلْقًـا آخَـرَ فَتَبَـارَكَ اللهُ أَحْسَـنُ الْخَالِقِيـنَ﴾ [المؤمنـون:١٤].

۞ وقـال ﷺ: «إن أحدكـم يُجمَـع خلقـه في بطـن أمـه أربعيـن يومًـا، ثـم يكـون علقـه مثـل ذلـك، ثـم يكـون مضغـه مثـل ذلـك، ثـم يَبعـث اللهُ ملكًـا فيؤمـر بأربـع كلمـات، ويقـال لـه: اكتـب عملـه ورزقـه وأجلـه وشـقي أو سـعيد[1]، ثـم ينفـخ فيـه الـروح»[2].

وبعـد كل مـا سـبق، مـاذا يمكـن أن نستشـعره أثنـاء مرحلـة الجنينيـة ويخـدم مقاصدهـا التربويـة؟

۞ يمكننـا عنـد بدايـة كل طـور منهـم أن نتأمـل ونستشـعر عظمـةَ تحـولات خلـق الجنيـن، فـكل هـذه المشـاعر بالمناسـبة تهيؤنـا نفسـيًّا لحُسـن اسـتقبال هـذه النعمـة واستشـعار مـدى عظمتهـا واصطفـاء الله ﷻ لنـا بهـا، وذلـك يسـاهم في تحملنـا للمشـاق التـي ستواجهنـا لاحقًـا، فنتربـى نحـن أولًا وينمـو بداخلنـا شـعور الارتبـاط والمحبـة تجـاه هـذا الزائـر الـذي يتجهـز للسـقوط في أيدينـا.

۞ كذلـك بتأملنـا لتلـك الأطـوار نتوجـه تلقائيًـا بأكـف الضراعـة إلـى خالـق هـذا الجنيـن أن يفـرغ عليـه السـلامة والعافيـة مـن الآفـات في بقيـة أطـوار النمـو، وأن يتولـى قلبـه بالصـلاح الـذي يهيـؤه لحسـن عبـادة ربـه ومعرفتـه، وأن يجعلـه عنـد ميقـات نفـخ الـروح الـذي هـو أعلـم بـه ﷻ مـن السـعداء لا الأشـقياء، ويجعـل لـه بسـطةً في العلـم والجِسـم والإيمـان وكل خيـر.



(١) جملة «اكتب شقي أم سعيد» لا يقصد بها «اجعَله شقيًا أو سعيدا»، وإنما يقصد اكتب علمنا عن مَصيرِه إلى الشقاء أم السعادة، وعلم الله عنا لا يؤثر في عَملِنا قطعًا، فما ربك بظلام للعبيد.

(٢) صحيح البخاري: ٣٢٠٨.

ثانيا: النمو التفصيلي للجنين

١- الحبل السري ودوره في النمو

يمتد من فتحة في بطن طفلك إلى المشيمة في رحمك و يتكون من:

- الوريد الذي يحمل الدم الغني بالأكسجين والمغذيات من المشيمة للطفل مباشرة.

- الشرايين التي تعيد الدم والنفايات - مثل ثاني أكسيد الكربون -من الطفل للمشيمة مجددًا. تلك الأوعية الدموية مغلفة ومحمية جيدًا بمواد لاصقة وطبقة من الغشاء تسمى السلينيوم، وهذا من أوائل المشاهد المدهشة التي تعكس حجم رعاية الله للإنسان قبل حتى أن يشعر.

٢- النمو الحركي للجنين والركلات! أول نشاط للكائن الحلزوني

من سمات الجنين أن له حركة، مثلما له حركة بعد خروجه إلى الدنيا، فمن قبل خروجه ومِن بعدِه، يُمارِس هذا الكائن الحلزوني الصغير نشاطًا حركيًّا دؤوبًا للتفاعل مع الحياة. وللجنين نوعان من الحركة: حركة إرادية وحركة لا إرادية، سبحان الله للجنين إرادة!؟ أجل، في أحد أطواره تبدأ لديه ظهور بذرة الإرادة الحرة من خلال الحركة التي نشعر بها داخل الرحم، وستعلمون قدر تلك النعمة حين نتكلم في فصول البناء الفطري للطفل عن أحد مكونات الفطرة: «الإرادة الحرة».

فما الفرق بين الحركتين عند الجنين؟

- **الحركة الإرادية**: تكون في صورة تَعَلُّقِه بالحبلِ السري الممتد بين سرته وبين مشيمة أمه، أو نومه ويقظته، أو تقلبه، أو ملامسته لأخيه التوأم بالجوار في نفس الرحم، أو ركلاته إلخ، ولا تبدأ إلا بعد ١٢٠ يومًا، أي: غالبًا بعد نفخ الروح. وحركات الجنين أو أنماط جسمه من الممكن أن تتغير كرد فعل للأصوات، حيث حكت أمهات عن

ركلات مفاجئة في الرحم عند سماع صفق الباب، أو صوت انفجار عوادم السيارات، فالجنين يسمع بعد الشهر الرابع كما سنرى.

۞ **والحركة اللاإرادية**: هي ما سوى ذلك، وتكون ناتجة عن تغذِّيته ونموِّه، بمعنى أنه يتحرك ويكبر كحركة النبات الذي يكبُر وينمو مادمنا نسقيه ونرعاه، قال ابن القيم: «فإن قيل: الجنين قبل نفخ الروح فيه، هل كان فيه حركة وإحساس أم لا؟ قيل: كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات، ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالإرادة، فلما نُفِخت روحه انضمت حركة حسيته وإراديته إلى حركة نموه واغتذائه»(١).

وقال العثيمين: «نماؤه الأول كنماء الأشجار بدون إحساس، بعد أن تنفخ فيه الروح يكون آدميًّا يتحرك، ولهذا إذا سقط الحمل من البطن قبل أربعة أشهر دُفِن في أي مكان من الأرض، بدون تغسيل، ولا تكفين، ولا صلاة عليه، ولا يُبعَث لأنه ليس آدميًّا، وبعد أربعة أشهر إذا سقط يجب أن يغسل، ويكفن، ويصلى عليه، ويدفن في المقابر، لأنه صار إنسانًا، ويُسَمَّى أيضًا، لأنه يوم القيامة سيدعَى باسمه»(٢).

وبالنسبة للركلات، فهي مؤشر على مدى سلامة تطور نمو الجنين:

۞ فالركلة الأولى هي إشارة طمأنة منه إليكِ على جانب من نموه الحركي والعصبي، وربما تشمل حركاته الأولى: رفرفة أو دحرجة، وكلما تقدمت الشهور أصبحتِ خبيرة بحركاته.

۞ والركل عمومًا قد يكون رد فعل استجابة لمؤثرات خارجية كما قلنا، إما أصوات فجائية أو غيرها، وإما أطعمة تناولَتْها الأم وجاءته نكهاتُها من خلال السائل الأمنيوسي - (وله نطق آخر: أمنيوتي - amniotic) - فيتحرك الجنين على سبيل الاستجابة الانفعالية لاستحسان طعمه أو عدم استحسانه (فالجنين يتذوق من الشهر الرابع كما سنرى).

---

(١) دليل المقاصد التربوية للمرحلة الجنينية، نقلا عن كتاب التبيان من أقسام القرآن لابن القيم.
(٢) من شرح العثيمين للحديث، في محاضرة تفسير سورة العلق (١٩).

۞ والركل يزداد عند نوم الحامل على جانبها غالبًا، حيث أن النوم على الجنب يُحسن من تدفق إمدادات الدم إلى الجنين مما يعزز حركته أكثر.

۞ وتبدأ غالبًا في الأسبوع السابع إلى التاسع من الحمل، أي في الشهر الثاني أو الثالث على الأكثر، لكن الأم لا تبدأ في الشعور بها غالبًا إلا بعد الشهر الخامس، ومؤكَّدًا بعد الشهر السابع.

لأجل ذلك، ينصح الأطباءُ الحاملَ بمراقبة حركة الجنين بعد هذا التوقيت، للإبلاغ عن خفوت أو قلة حركته، ليتم اتخاذ الإجراءات الصحية اللازمة لضمان سلامة تطور نموه، وبطبيعة الحال كلما اقتربت ساعة الولادة وكبر حجمه كلما قلت حركته بشكل متدرج طبيعي، لكن القلق يكون حين تقل بشكل مفاجيء ومخالف للطبيعي، فمثلا: بعد الشهر السابع معدل حركة الجنين حوالي ١٠ مراتٍ كل ساعتين.

فحين تجد الأم خلال ساعات أن معدل حركة طفلها قليل أو مخالف لما هو طبيعي، ربما تحتاج لمراجعة الطبيبة، إذ قد يكون السبب:

۞ إجهاد الأم.

۞ خلل في غذائها، مما يؤدي إلى خلل في نمو دماغ الجنين والأنظمة العصبية.

۞ نقص الأكسجين الواصل للجنين؛ بسبب: انقطاع المشيمة، أو تمزق طاريء لكيس السائل الأمنيوسي مما يؤدي لانخفاض كميته حول الجنين، أو مشكلات في الحبل السري، أو غيرها من الأسباب القابلة لسرعة المعالجة لتدارك أطوار النمو بسلام بحول الله وقوته.

فحين يركلك صغيرك بأنامل قدميه الدقيقة أو يرفرف بذراعيه يمينًا ويسارًا بشكل متتابع ومزعِج، تذكري كل ذلك واحمدي الله على نعمةٍ تُعافيكِ من الكثير من «الركلات النفسية» التي قد لا تندمل، عافَى الله كل مبتلى، وكتب أجر الأمهات أضعافًا مضاعفة.

٣- النمو الحسي للجنين

حاسة التذوق

من الشهر الرابع تقريبًا تبدأ غدد التذوق في التكون مثلها مثل غدد البالغين، ولوحظ أن الجنين يبتلع كمية كبيرة من السائل الأمنيوسي عندما يكون غنيا بنكهات حلوة الطعم، وتنخفض كميات ابتلاعه للسائل حين يكون غنيا بنكهات مُرة أو حامضية، ثم في شهور الحمل الأخيرة يبتلع حوالي لترًا من السائل يوميًّا، تهيئةً ربانيةً له لقرب شربه لحليب أمه الذي يكون متشبعا بمختلف النكهات.

حاسة الشم

منذ الشهر الثالث تقريبًا يبدأ الأنف في التطور وبالتالي تبدأ حاسة الشم في النشوء والنمو لديه حتى يستطيع بين الشهر السادس والسابع تمييز رائحة أمه، وإلى وقت قريب، كان العلماء يعتقدون أن الجنين ليس له حاسة شم لاعتقادهم أن الشم مرتبط بالهواء والتنفس فقط، لكن وُجد أن السائل الأمنيوسي، بجانب دعمه وتحفيزه لحاسة التذوق، ينقل أيضًا إلى الجنين الروائح القادمة من غذاء الأم، بخاصة: النفاذة القوية كروائح الثوم والبصل، واكتشف العلماء أن الجنين بعد خروجه للدنيا طفلا ينجذب لرائحة حليب أمه فسبحان الله.

حاسة اللمس

هي من أوائل الحواس التي تتكون في أول شهور الحمل (مثل حاسة التذوق)، تظهر قبل نهاية الشهر الثاني من الحمل، مع بدء تكون الأعضاء الأولية ونشأة إحساس اللمس فيها، ثم في الشهر الثالث تقريبًا تبدأ حاسة اللمس كذلك في الظهور في مناطق: الخدين، والأعضاء التناسلية، وكفتي اليدين والقدمين، ثم في الشهر الثامن تقريبًا يكون الجنين حساسًا للحر والبرد والضغط والألم، والمحفز لتلك الحاسة هو

السائل الأمينوسي المحفز لكافة الحواس.

ويشعر الجنين كذلك بالتربيت القادم من الخارج على بطن الأم، لأن الجنين في سائل وليس في غرفة صلبة بجدار عازل، فلعل الله ﷻ أنشأ للجنين حركة في بطنك وأحيانا تكون قوية ومزعجة وربما يرفسك ويوقظُك من نومك، لتكون بمثابة منبِّهاتٍ لكِ للتربيت عليه تلقائيا مما يشبع احتياجه للتواصل والتلامس والأمان.

رأيتم كيف هي عنايةَ الخالق ﷻ منذ البداية بالنمو النفسي للإنسان وإشباع حاجاته النفسية المهمة؟ هذا ولم يخرج بعد إلى الدنيا! ولم نَفرُغ من فصل السمات بعد!

حاسة السمع

بعد الشهر الأول تبدأ خلايا الجنين في التهيؤ لإنشاء أجزاء مختلفة من الحواس، كالعيون والأنف والأذنين، وبعد الشهر الثاني تبدأ الأذنين في النمو على جانبي الرأس، ثم بنهاية الشهر الرابع تقريبًا تكون مكتملةً وجاهزةً لبدء سماع الأصوات، أي بعد ١٢٠ يومًا، فربما وافق ذلك نفخ الروح والله أعلم، ثم من الشهر الخامس تقريبًا أو السادس تتطور أكثر في خاصية تمييز الأصوات، ثم من السابع تقريبًا يبدأ الجنين في التعرف على الأصوات والتفاعل معها، بعض الأبحاث أثبتت أن الأطفال الرُّضع بعد الولادة يميلون إلى الاستجابة للكلمات والأصوات التي كانوا يسمعونها خلال آخرِ ثلاثة أشهر من الحمل - سبحان الله - أي بعد مرور ١٨٠ يومًا تقريبًا من الحمل - مُقارنةً بالكلمات التي لم يسمعوها مطلقًا خلال فترة الحمل (بمعنى أن تلك الكلمات تكون ذبذباتُها مألوفة عندهم فيميلون لها بعد الولادة أكثر سبحان الله)، بالتالي فإن استغلال حاسة السمع بالذات ينمي مهاراتِ الاستجابة عند الجنين بعد ولادته بإذن الله.

فيمكن للجنين تخزين الصوت من الشهر الخامس للحمل، وعند الشهر السابع

للحمل – أي في آخر ثلاثة أشهر – يبدأ سماع الأصوات الخارجية والضجيج بوضوح أكبر وذلك من خلال الوصلات العظمية، مما يؤدي إلى تحركه انفعالا مع تلك الأصوات، مثلما رأينا في النمو الحركي كيف أن رد الفعل أحيانًا يكون بسبب سماع أصوات معينة، كما يمكنه تعلم الكلام في هذه المرحلة بطريقة ما، فهذه الأصوات والكلمات يتم تسجيلها في الذاكرة الخاصة بالطفل، فإذا قامت الأم مثلًا بقراءة نصوص معينة للجنين عدة مرات بصوت مسموع، فإنها ستجده بعد ولادته يُفَضِّل هذه النصوص عن غيرها، حتى لو قرأها له صوتٌ آخر غير صوت الأم ونقول «بصوت مسموع» لأنه من الممكن أن تكون الأصوات الواصلة إلى الجنين خافتة – باستثناء صوت أمه – إذ أن الأذنين كلاهما مغطىً بنوع من الشمع الذي يُحافظ على الجلد من التشقق بسبب السائل الأمنيوسي الذي يُحيط بالجنين، فسبحان من أحاط هذه المضغة بكل ذلك اللطف المدهش.

وليس من المستغرَب أن يكون أوضح صوت يمكن أن يَسمعه الجنين هو صوت أمه، إذ تنتقل معظم الأصوات الخارجية التي يسمعها الجنين عبر الهواء ثم عبر الرحم، بعكس صوت الأم الذي يتردد صداه في جسدها وعظامها، ممّا يضخم الصوت ويجعل الجنين يسمعه جيدًا، وأظهرت الأبحاث أن معدل نبضات قلب الجنين يزداد بعد سماع صوت أمه، ممّا يعني أن الجنين يكون أكثر يقظة أثناء تحدث الأم، لذلك يوصون بالتحدث إليه وقراءة الكتب له، وربما الغناء له (دون موسيقى بالطبع)، **وسنذكر في فصل «ملء الجنين»، كيف يمكن أن نستغل كل تلك الكنوز.**

حاسة البصر

هي الحاسة الأخيرة التي تتطور لدى الجنين، وتظل الجفون مغلقة داخل الرحم إلى منتصف أو نهاية الشهر السابع تقريبًا، إلى أن تتطور شبكية العين بالكامل، ثم تفتح الأعين، وفي حالة التوأم في نفس الكيس الجنينى (توأم متطابق)، لوحظ أنه عند

وقت فتحهما لأعينهما في الرحم لا توجد لديهما مشكلة في أن يُحدد أحدهما مكان الآخر أو يلمس وجهه أو يمسك يديه، بالنسبة للضوء: فإن الرحم ليس معتمًا تمامًا، فرغم أنه في الشهر الخامس تكون أعين الجنين لا زالتا مغلقتين، إلا إن شبكة العين تستطيع أن تحدد كمية قليلة من الضوء الذي تمت تصفيته من خلال أنسجة بطن الأم لو أنها كانت موجودة في مكان ذي إضاءة معقولة، ثم قرب نهاية الحمل بإمكان بؤبؤ العين تمييز الضوء والتوسع أو التقلص بحسب كميته، مما يجعل الجنين يتمكن من رؤية الأشياء ولكن بهيئة غامضة ليست واضحة بشكل كافٍ بعد.

وبشكل عام فإن أقوى حاسة دائمًا في المراحل المبكرة تلك: هي حاسة السمع سبحان الله، لكن لديه حواس أخرى فعالة تشارك في عملية التلقي كما قلنا: كالعين واللمس والتذوق والشم، ولكنها كلها بدرجات ضعيفة لا زالت بحاجة لمحفزات للنمو بجانب النمو الرباني الطبيعي لها، لكنها موجودة.

بالتالي، بعدما أنهينا جانبًا من سمات الجنين، **فإنه يترتب على ذلك جملة من الحقوق والاحتياجات لهذا الكائن اللطيف ذي الركلات، هي موضوعنا في الفصل التالي.**



الفَصْلُ الثَّانِي

حقوق واحتياجات الجنين

قال النبي ﷺ: «والسقط يُصَلَّى عليه، ويُدعَى لوالديه بالمغفرة والرحمة»[(١)].

قال العلماء: إذا نُفخ فيه الروح يُغَسَّل، ويُصلى عليه احترامًا للسقط.

هذا احترام وعناية الشريعة بالجنين وهو ميت، فما بالنا بعنايتها به وهو حي!

تعالوا لنتأمل جانبًا من تلك المُدهِشات التي تخص هذا الجنين في الوحيين، والذي اكتشف الغرب مؤخرًا فقط أنه يسمع ويتفاعل فأنشأوا «علم نفس الجنين» بعدما كان لعقودٍ طويلةٍ اسمه «علم نمو الجنين» فقط[(٢)]!



بحسب ما تعلمناه من مراتب المصالح والكُليّات الخمس فإن للجنين أيضًا نصيبًا من ذلك، فله حقٌ في حفظِ النسلِ، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ الدين وحفظ المال، مما يَستتبِع مجموعة من الحقوق والاحتياجات التي تخدم مقاصدها، في مراتبها الثلاثة: الضرورات، والحاجيات، والتحسينيات، وفيما يلي كيفية تلبية ذلك مع الجنين.

كيف يكون حفظ النسل هنا؟

باختيارنا للزوج الصالح الذي سيكون أباه، واجتناب مجيء هذا الجنين من زِنا أو زوجٍ غير مسلم أو أي زواج غير شرعي، قال الدكتور عبد المنعم الرفاعي، في مقالة

(١) صححه الألباني – صحيح أبي داوود: ٣١٨٠.
(٢) من محاضرة الطفولة المبكرة خصائص واحتياجات: تقديم د/ مأمون مبيض.

عـن حقـوق الطفـل في الإسـلام: «الحقُّ في بيئةٍ رَحِمَيَّةٍ طاهِرةٍ، فالرَّحِـم هـو البيئةُ الأولـى التي ينشأُ فيهـا الجنيـنُ، وقـد حَمَـى الإسـلامُ هـذه البيئةَ وأَحاطَهـا بسياجٍ عظيـمٍ وميثاقٍ غليـظٍ بيـن الرَّجـلِ والمـرأةِ، فـلا يدخُـل إلـى هـذه البيئـةِ إلا مـا يزْرَعُـه الـزَّوجُ ويغْرِسُـه بنفسِـه، وحـرَّم الإسـلامُ الزِّنـا المـؤدِّي إلـى تلـوُّث البيئـةِ الرحميـة بالأمـراض التناسـلية، وحمَـىَ الإسـلامُ بيئـةَ المـرأة مـن المُسـكِرات والمُفَتّـرات والمُخـدِّرات والأطعمَـةِ الفاسِـدةِ: ﴿ كُلُـواْ مِـن طَيِّبَـاتِ مَـا رَزَقْنَاكُـمْ﴾ [البقـرة:٥٧]، وحـرَّم المَيتـةَ والـدَّم ولحـمَ الخِنزيـر والطَّعـام الخبيـث كلـه، وكلّ هـذا يضمـن للجنيـن بيئـةً رَحِميَّـة نظيفـةً خاليـةً مِـنَ التَّلوُّث والمُفسـدات والمُهلكات»، ومسـألة توفيـر بيئـة رحميـة طاهـرة هـي ليسـت صيانـة للنسـل فقـط، بـل صيانـة لحقـوق واحتياجـات الجنيـن الاجتماعيـة والنفسـية والصحيـة أيضًـا.

كيف يكون حفظ نفس الجنين؟

١- بحفـظ حـق الجنيـن في الحيـاة، عـن طريـق تحريـم إجهاضـه إلا في الاضطـرار وبضوابـط شـرعية مفَصّلـة، واجتنـاب كل مـا يـؤدي إلـى إزهـاق روحـه وهلاكـه كمـا جـاء في حديـث «المرأتيـن المتعاركتيـن» سـابقًا، أو كمـا قـد تفعـل بعـض الأمهـات أحيانًـا مـن حمـلٍ للأشـياء الثقيلـة أو القفـز بقـوة وعنـف، بـل والحالـة النفسـية بشـكل عـام والقلـق الشّـديد قـد يـؤدي للإجهـاض، وسـواءٌ فعلـن ذلـك عمـدًا للتخلـص مـن الجنيـن أو بسـبب الإهمـال، فكلـه يـؤدي إلـى إيـذاء نفـس الجنيـن، وإهـدار حقـه في الحيـاة.

وحديـث المرأتيـن آنـف الذِكـر لـه روايـة أخـرى مدهشـة تبيـن كيـف كان مجتمـع الجاهليـة يسـتهين بمثـل تلـك الأنفُـس الضعيفـة، وكيـف جـاء الإسـلام ليُثبِـتَ ويُثَبِّـتَ حقوقهـا، وهـي بعـد لا زالـت في ظلمـات ثـلاث لا تعـي شـيئًا مـن هـذا كلـه، جـاء فيهـا: «فَقَـالَ ولِـيُّ المَـرْأَةِ الَّتـي غَرِمَـتْ: كيـفَ أَغْـرَمُ يـا رسـول الله مَـن لا شَـرِبَ ولَا أَكَلَ، ولَا نَطَـقَ ولَا اسْـتَهَلَّ، فَمِثْـلُ ذلـكَ يُطَـلُّ؟! فَقَـالَ النبـي ﷺ: إنَّمـا هـذا مِـن إخْـوَانِ الكُهَّـانِ»[1].

(١) صحيح البخاري: ٥٧٥٩.

وتأملوا الشرح: «فلمَّا سَمِعَ زوجُها - وهو الصَّحابيُّ «حَمَلُ بنُ مالكِ بنِ النابغةِ الهُذَليُّ» - أنه سيدفع دية عن الجنين المقتول قال: كيف ندفع دية لِمَن لم ينزل ويستهل صارخًا بعد ولم يولد أو يرى الحياةَ لحظةً؟! فمِثلُ ذلك الدَّمِ يكونُ هَدْرًا ولا تكونُ فيه دِيَةٌ يا رسول الله! فقال النبي ﷺ مؤدِّبًا للصحابة الكرام كعادته ومعلمًا إياهم مَواطِنَ الخطأ في حينها: «إنَّما هذا مِن إخوانِ الكُهَّانِ»، لِمُشابهتِه لهمْ في كَلامِهم الذي يُزيِّنونه بِسَجْعِهم، فيَرُدُّون به الحقَّ ويُقِرُّون الباطلَ، (والكاهنُ: هو مَن يَدَّعي عِلْمَ الغَيْبِ والإخبارَ بما سيَقَعُ مُستقبلًا، وكان للكُهَّانِ كَلامٌ مَسْجُوعٌ يُروِّجون به الباطلَ)»[1]، فالجنين له الحق في الحياة الذي يجب أن نحافظ عليه، وإهدار ذلك باطلٌ كسائر الأباطيل المنكرة، وإن لم يكتمل الجنين بسبب إيذاء بدني تعرضت له الأم، يكون للجنين دية تُدفع لأمه.

وهذا دعمٌ واضح لحقوقه واحتياجاته الصحية.

٢- كذلك حفظ نفس الجنين يكون بعدم تعريض الأم للفزع لأن ذلك أيضًا قد يقتل الجنين بالسقْط، كما في حديث: «اقتلوا الحيات»[2]، وفي رواية عن نوعين معينين من الحيات: «يُسْقِطانِ ما في بطونِ النِّساءِ»[3]، بالتالي، لو أن أمًا مثلاً تهوَى أفلام الرعب وَجَبَ عليها الانتباه لذلك الأمر، (بالإضافة إلى المنكرات التي في الأفلام، فلنتقِ الله في أنفسنا وفي حواس الجنين القناصة)، ومن البديهي أن يُراعِي الذين حولِ الحامل عدمَ إفزاعها أو تخويفها، حرصًا على حياة الجنين وصِحة مَن تَحمله. وفي هذا دعمٌ لحقوق الجنين واحتياجاته الصحية والنفسية.

٣- ومن ضمن حفظ نفس الجنين أمور أخرى عجيبة سبحان الله، فلو كان الجنين من زنا والعياذ بالله، فلا زال من حقه حفظ حياة أمه إلى أن تُنجبَه! وهنا يتم تأجيل «حق الدِين» المتمثل في إقامة الحدود على الزناة، تأجيلًا زمنيًّا، ويتم تقديم «حق

(١) من شرح الحديث في الدرر السنية.
(٢) صحيح البخاري: ٣٢٩٧.
(٣) صححه الألباني - صحيح النسائي: ٢٨٣١.

الجنين في الحياة» عليه، ترجيحًا لحق ومصلحة الجنين.

فقد روى عمران بن حصين ﷺ «أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حبلى من الزنا، فقالت: يا نبي الله، أصبتُ حدًا فأقِمهُ عليَّ، فدعا النبي ﷺ وليَّها، فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتِني بها»[1]، وبالفعل أتت بعدها ورجمت وصلى عليها النبي ﷺ، وكذلك في قصة الغامدية التي اعترفت بالزنا وطلبت منه أن يقيم عليها الحد قال لها: «فاذهبي حتى تلدي»[2]. وهذا دعم وصيانة لحقوق واحتياجات الجنين الصحية والنفسية والاجتماعية.

٤- بل إن من حفظ نفس الجنين سبحان الله، أنه لو ماتت أمه وهو لا زال في طور الأحياء في بطنها، يتم فتحها وإخراجه ومحاولة إبقائه على قيد الحياة، «قال العلماء: إذا ماتت الحامل وفي بطنها جنين والولد حيٌّ يتحرك قد تجاوز ستة أشهر يُشَقُّ بَطنُها ويُخرَجُ الولد؛ لقوله ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، ومن تركه عمدًا حتى يموت فهو قاتل نفسَه - أي قاتل نفس هذا الجنين»[3]. وهذا حفظ مستمر لحقوق الجنين النفسية والصحية.

٥-كذلك تشريع الرخص للحامل، بما فيها من رفعٍ للحرج عنها في كثير من التكاليف وأمور الحياة اليومية المُنهِكة لبدنها بدرجة أو بأخرى، وتعزيزٍ لكل ما يحميها وجنينها من الأضرار، فمن عناية الشريعة بالجنين هنا: إعطاء الرخصة للحامل أن تفطر في رمضان إذا خافت على جنينها، كالمريض والمسافر، قال النبي ﷺ: «إن اللهَ وضع عن المسافرِ شطرَ الصلاةِ وعن المسافرِ و(الحاملِ) والمرضعِ الصومَ أو الصيامَ»[4].

(١) صحيح مسلم: ١٦٩٦.
(٢) صحيح مسلم: ١٦٩٥.
(٣) من خطبة للشيخ المنجد بعنوان «الطفل الإسلامي والطفل الغربي١»، على موقعه.
(٤) أخرجه أبو داود:٢٤٠٨، والترمذي: ٧١٥، وابن ماجه: ١٦٦٧ واللفظ له، وأحمد: ١٩٠٦٩، وحسنه ابن العثيمين في مجموع فتاوى ابن عثيمين (٢٤١/ ٢٠)، والألباني: حسن صحيح.

بل أعفاها بعض العلماء من الكفارة، بخلاف الأم المُرضِع، والسبب: أن الحمل متصل بالحامل، فالخوف عليه كالخوف على بعض أعضائها - أي: لا يمكنها فصله عنها - أما المُرضع فيمكنها أن تسترضِعَ لولدها؛ فأدخلوها في قوله ﷻ: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤]، وهذا يؤكد عناية الشريعة الدعوية بحقوق واحتياجات الجنين الصحية والنفسية.

٦- كذلك حفظ نفس الجنين بحفظ حقه في حصول أمه على نفقة، من طعام وكساء وعلاج وتوفيرٍ لمسكنٍ ملائم، لأن: طعامها هو الذي يغذيه ويربيه يوما بعد يوم، واكتفاؤها نفسيًّا من الشعور الداخلي بالاستقرار والأمان يساهم في التطور السليم لنمو الجنين، فهذا من حفظ حقوق واحتياجات الحامل النفسية والصحية، بل والنفقةُ على أمه حتى في الطلاق البائن بينونة كبرى، قال ﷻ: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق:٦]، قال ابن قدامة: «فمن مظاهر عناية الإسلام بالطفل وهو نطفة في رحم أمه؛ ما أمر به الإسلام من النفقة للمرأة المطلقة ثلاثًا إذا كانت حاملًا، وهذه النفقة لأجل جنينها وليس لأجلها حيث قد سقطت نفقتها بطلاقها (الثالثة) فالمرأة التي يطلقها زوجها ثلاثًا تَبِينُ منه، وتصبح أجنبية عنه لا تجب لها عليه نفقة ولا سُكنى على القول الراجح من أقوال العلماء، إلا إذا كانت حاملًا فقط، فإنها تجب لها النفقة بالإجماع»[١]، وأضاف: «ولأن الحمل ولدُه، فيلزمه الإنفاق عليه، ولا يمكنه النفقة عليه إلا بالإنفاق عليها»[٢]. فوجود الشقاق بين والديه دافعٌ للتنبيه على تلك الأمور أكثر، فالبشر عند الشقاق يهدرون الحقوق وربما يغفلون عنها، لكن عين الله لا تغفل ولا تنام عن حقوق نطفة في ظلمات ثلاث، وهذا من حقوق واحتياجات الجنين النفسية والصحية والمالية.

رأيتم كيف أن الإنسان حتى وهو جنين يكون مُحاطًا بعناية شرعية في غاية

---

(١) المُغني لابن قدامة: (٨/ ٢٣٢).
(٢) المُغني لابن قدامة: (٨/ ٢٣٢).

العظمة، وكيف أن حفظَ حياته مسئولية في عنق الزوجين وكل المحيطين بهم لا الأم وحدها؟

٧- ومن مقاصد حفظ النفس أيضًا، حفظ حق الجنين في الوجود بين أبوين (الاثنين معًا)، ليس مع الأم فقط ولا الأب فقط، فهذا من أهم الحقوق والاحتياجات النفسية والاجتماعية للجنين.

٨- ومن مقاصد حفظ النفس، واجبٌ من أهم الواجبات التي شددت فيها الشريعة: عدمُ كتمان الأم لما في رحمها، لاتصاله بحق إثبات النسب؛ ففي حال نشوب الطلاقِ يجب على الأم أولا التأكد من خلوِّ الرحم من أية نطفة، ولو ثبت وجودها فعليها أن تتريث وتفكر وتحاول أن تجد طريقًا للإصلاح لكي تحفظ حق الجنين في الوجود والترعرع بين أبويه معًا كما قلنا، فلا تكتم وجود الحمل لكي تنتقم من أبيه مثلًا من باب المكايدة أو للحصول على الطلاق أولًا - وهذا الغرض هو أشدهم جرمًا - لكي تتزوج سريعًا قبل انتهاء عدة الحامل التي قد تبلغ تسعة أشهر، قال ﷻ: ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة:٢٢٨]، وهذا من الحقوق والاحتياجات للجنين الاجتماعية والنفسية.

٩- أيضًا من مقاصد حفظ نفس الجنين، حفظ حواسه، بخاصة حاسة السمع أبرز المستقبِلات في تلك المرحلة؛ بإبعاد الجنين عن المنكرات السمعية، ومراعاة حدة الصوت بحيث لا يتعرض لأصوات شديدة أو أي تلوث سمعي، كالأصوات الصاخبة - سواء موسيقية أو غيرها - فبالإضافة إلى نكارة الموسيقى شرعًا، إلا أن بعض الأصوات الصاخبة قد تؤدي أصلًا إلى خللٍ في نمو حاسة السمع والعياذ بالله أو فقدان الحاسة على المدى الطويل، (ومشكلتنا مع الموسيقى غير الصاخبة ولو غير ضارة حسيًّا، هو في حرمتها الشرعية بالطبع).

❁ **مثال لأماكن أصوات صاخبة قد تتعرض لها الأم:** مصنع فيه آلات تصدر أصواتًا شديدة تعمل فيه الأم وتتعرض لها باستمرار، أو السكن بجوار المطارات أو بجوار محطاتِ القطار السريعة حيث أن الطيارات حين تقلع أو تهبط تصدر أصواتًا شديدة ومزعجة ومرتفعة وأحيانًا يهتز الزُجاج من شدتها، أو صوت صياح شديد في زحام شديد تتعرض له الأم بشكل متكرر.

وأحب أن أعود مجددًا إلى حق الجنين في عدم تعريضه لسماع الموسيقى، لأنني للأسف رأيت مربيات من المفترض أننا نحسبهن على خير وصلاح واتباع للهَدي النبوي، ينصحن الأمهات بتشغيل الموسيقى للجنين سبحان الله! بينما من حفظ دينه بل وحفظِ نفسه وعقله، صيانة حواسه عن هذه المنكرات، بجانب أننا إن فعلنا ذلك نظلم أنفسنا بالمعصية، بالإضافة إلى أن هذا الأمر أصلًا ليس عليه أي دليل علمي حقيقي حتى الآن! ثم وإن ثبت علميًّا ما يزعمونه، فالخمر ثابت فيها نفعٌ وضررٌ معًا، ونفعُها لا يُبرر أبدًا شُربَها! ومن باب أولَى: الموسيقى «خمرُ النفوس» كما سماها بعض أهل العلم، وصَدَقوا! فكيف نعوّد الصغار على الائتناس بها منذ نعومة أظافرهم ولا نكون بذلك مفرطين في حفظ دينهم ونفسهم؟

١٠- ومن حفظ النفس أيضًا أن تجلس الأم جلسات سليمة تضمن سهولة حركة الجنين وتقلُباته وركلاته الحرة بسلام، فحق إشباع الحركة الدءوبة بحرية يبدأ مع الإنسان مبكرًا جدًا.

١١- بالإضافة إلى النقاط التي في العنوان التالي الخاصة بحفظ النفس والعقل معًا.



كيف يكون حفظ النفس والعقل معًا؟

١ – بحرص الأم على جرعات الأنفاس النقية يوميًّا وجرعات كافية من الأكسجين، لأن نقصانه بدرجة كبيرة قد يؤدي لعيوب في قلب الجنين أو تأخر في النمو أو خلل في خلايا الجهاز العصبي، وقد يؤدي لاضطرابات عصبية كالصرع أو مرض فرط الحركة ونقص الانتباه لاحقًا، (ولنا معه وقفة لاحقةٌ في الكتاب)، وغيرها من المشكلات التي قد تؤثر على الوليد بقية عمره ونسأل الله العافية.

٢ – بعدم التدخين ولا الجلوس في أماكن بها تدخين أو أدخنةِ ضارة أو سُمّية وغير جيدة التهوية، حيث أن التدخين يُؤدي إلى تشوهاتٍ جنينية كما المسكرات والعياذ بالله، فدخان السجائر يحتوي على ما يقرب من ٣٠٠٠ مادة كيميائية مختلفة، من المواد التي يمكن أن تضر بالبشر، بما في ذلك أول أكسيد الكربون، وهو سم جنيني معروف.

٣ – بعدم تناوُل الأم للأدوية إلا بمعرفة الأطباء، ولا حتى الأسبرين فيمكن أن يشكل خطورة على الجنين لاحتمالية تسببه في انخفاض الوزن عند الولادة، ومن الناحية الطبية ارتبط انخفاض الوزن عند الولادة بزيادة خطر حدوث مشاكل في الإبصار عند الرضع، فلننتبه.

٤ – باتباع الأم لنظام غذائي صحي سليم وتجنب الأغذية المضرة بصحة الجنين، حيث ثبت علميًّا أن بعض أنماط الغذاء في هذه الفترة من الممكن أن تسبب أمراضًا، كالتوحد (ولنا معه وقفة في الكتاب)، وعيوب خلقية في قلب المولود نسأل الله أن يُعافي كل مبتلى، قال النبي ﷺ: «ألا لا تجني أم على ولد»[1]، وقال الشيخ المنجد تعقيبا على الحديث:«فلا يجوز أن تتعاطى شيئًا يُضعِفُه أو يُشَوِّهه، وينبغي أن تتقوى لتغذيته في بطنها، وهذا من مسئوليتها»[2].

(١) صححه الألباني – صحيح ابن ماجه: ٢١٧٨، وصحيح الجامع: ٧٢٣٣، وصحيح النسائي: ٤٨٥٤.
(٢) من خطبة للشيخ المنجد بعنوان «الطفل الإسلامي والطفل الغربي١»، على موقعه.

❁ **ومن أبرز تلك الأغذية المهمة لصحة الحامل والجنين: (التمر)**، ولا ننسى تيسير الله نخلةً لمريم عند ولادتها لتهزها وتأكل من رطبها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥]، وإن كانت الآية عند المخاض، إلا أن التمر مفيد للحامل والجنين وهو يحب النكهات الحلوة كما قلنا، وهذا يلبي احتياجات نفسية أيضًا لديه، ولذلك فتلك النقطة بذاتها تندرج ليس فقط تحت الحقوق الصحية وإنما النفسية أيضًا[١].

٥- «امتناع الحامل كذلك عن تناول الخلطات العشبية سواءً التقليدية أو المجرّبة أو التي ينصح بها العطارون دون استشارة الأطباء، فكثير من خلطات الأعشاب قد تمثل خطورة على الجنين، إما بالتسبب في إسقاطه أو بحدوث تشوهات له، بالإضافة إلى عدم الإكثار من الكافيين أثناء الحمل لأنه فعليًّا يصل للجنين كما هو وينبهه، وكثرته تعني: أكثر مما يعادل كوبين اثنين للقهوة في اليوم، مما قد يضر به»[٢]، والنقاط الخمس تندرج تحت الحقوق والاحتياجات الصحية للجنين.

٦- كذلك من مقاصد حفظ نفس وعقل وحواس الجنين، إشباع الشعور بالأمان والأنس لديه وتغذيته بالحب والعطف بما يتناسب مع سمات الجنين، وتحفيز نمو الحواس لديه يومًا بعد يوم، بخاصة حاسة السمع التي تبدأ في التطور بعد مرور أربعة أشهر، بالإضافة إلى حاسة اللمس، فعندما يتحرك الجنين ونُربِّتُ على البطن بلطف يشعر بنا ويحب ذلك، وحين نحدثه بصوتٍ حنون رحيم ودود، فإنه يسمع ذلك ويخزنه ويشتاق إليه، حتى لو كان لا يميز المعاني ولا الحروف بعد، بمعنى أن الكلمات تكون مكتومة ليس لها معنى لفظي لكنه يميز الذبذبات والصوت المرتفع من الصوت المنخفض ويميز بين الضوضاء والهدوء، ويميزُ صوت أمه بالطبعِ أكثرَ من أي صوت آخر للأسباب التي ذكرناها سابقًا ، فكيف لو كانت الأم من التاليات

---

(١) من فتاوى العثيمين، بعنوان: ما السُّنَّةُ عندما يرزق الإنسان بمولود؟
(٢) تلك الإضافة هي من نصائح أختي الحبيبة تسنيم راجح لكتابي.

لكتاب الله؟ وكل ما ذكرناه في تلك النقطة هو من احتياجاته النفسية والصحية.



كيف يكون حفظ الدين؟

ماذا؟ الدين! نعم.

كيف ذلك وهو ما زال جنيناً؟

١- بحسن اختيار الزوج للزوجة، والزوجة للزوج، على دين وخلق وتقوى وعلم تربوي شرعي، قبل الزواج ابتداءً، وهذا وإن كنا ذكرناه في الباب الأول، إلا أننا نعيد كتابته هنا لمناسبته للمقام.

٢- بالاستعاذة من الشيطان الرجيم والحرص على الأذكار المسنونة عند المعاشرة الزوجية، ليحفظ الله النطفة قبل تكونها من تسلط الشيطان، قال ﷻ لإبليس: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ [الإسراء:٦٤]، وقال ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله، قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد، لم يضره»[١]، أي: لا يتسلط الشيطان عليه أو لا يضره بدنيا بالمَسّ وبما يضر عقله أو بدنه[٢]، والحديث موجّه للرجل، ولكن يمكن للزوجة كذلك أن تدعو بالدعاء لأن الأصل عدم خصوصيته بالرجل[٣]، فهذا ليس من الحقوق الدينية فحسب إنما من الحقوق التحصينية للجنين كذلك.

٣- كذلك الدعاء للنطفة بعد المعاشرة، أي قبل حتى العلم اليقيني بوجود حَمل، في قصة أم سليم المعروفة، ذهب أبو طلحة وأخبر النبي ﷺ بما فعَلَته زوجته معه

(١) صحيح البخاري: ١٤١، صحيح مسلم: ١٤٣٤.
(٢) بالجمع بين شرح الدرر السنية للحديث وفتوى على موقع الإسلام سؤال وجواب بعنوان: «ماذا يحدث إذا نسي أن يقول دعاء الجماع».
(٣) من فتوى لعدد من العلماء، من موقع الإسلام سؤال وجواب بعنوان «هل يشرع للمرأة أن تقول عند الجماع: اللهم جنبنا الشيطان؟».

لتخفف عليه خبر وفاة ابنهما، فدعا لهما ﷺ بالبركة في ثمرة ليلتهما وقال: «بارك الله في ليلتكما»[1]، فولدت بعدها غلامًا سماه ﷺ «عبد الله»، ومن بركة دعائه ﷺ لهذا الجنين أنه لما كبر وتزوج رزقه الله ﷻ من الأولاد تسعة، كلهم من حفظة القرآن.

٤- بكثرة إسماع الجنين للقرآن قدر الإمكان ورُقيتُه مع رقيتك لنفسك والدعاء أن يحفظ الله فطرته وينبته على الإسلام وحب كلام الله، وهذا ليس من الحقوق الدينية فحسب، إنما من الحقوق والاحتياجات التحصينية كذلك.

فإن كان يميز ذبذبات سائر الكلام، فتأثير كلام الله في خلاياه وسمعه وحواسه ليس كغيره وكذلك تأثير أي كلامٍ متصل بالله وأسمائه الحسنى، ألم نقرأ كيف أن الجنين يميز صوت أمه بوضوح؟فكيف لو كانت الأم من التاليات لكتاب الله كما قلنا، ولكلمات التوحيد والأذكار، آناء الليل وأطراف النهار «وكانت من القانتات» كمريم، فتُرزَق بخير ذرية مثلما رُزِقتْ مريم بعيسى عليه السلام إن شاء الله؟ فالقانتة هي المداوِمة على الطاعةِ والعبادة، وقد كانت مريم قبل ميلاد عيسى قانتة في المحراب، ومن بعد حملها به وميلاده لم تفتر عن القنوت لربها بكثرة التعبد؛ حتى كأنه اختلط بعظمها وخلاياها، فلا شك أن جنينها اختزن كل ذلك، بما ساهم في أن يكون غلامًا زكيًّا برًّا بوالدته وليس جبارًا شقيًّا، بخاصة حين نعرف في الفصول التالية أن التجارب العلمية أثبتت أن الجنين بالفعل له لغة خاصة سبحان الله.



كيف يكون حفظ المال؟

حتى المال نحفظه للجنين وهو مازال في بطن أمه! نعم، بالطبع له حق مالي محفوظ. كيف؟

---

(١) القصة بطولها في البخاري، صحيح البخاري: ١٣٠١، صحيح مسلم: ٢١٤٤.

١- بحفظ حقه في الميراث، فإذا كان له نصيب يتم تقسيم الميراث بناءً على وجود نطفةٍ في الرحم قادمةً بإذن الله ووَقف نصيبه إلى أن يأتي، وذلك على اعتبار أن تلك النطفة ستولد وتحيا، لدرجة أن هناك خلاف قائم بين الفقهاء حول طريقة تقسيم الميراث، هل يكون بعد ولادته ومعرفة جنسه ذكرًا أم أنثى؟ أم قبل ولادته إذا كان في الأمر عجلة؟ وكيف نقسم في تلك الحالة الأخيرة ونحن لا نعرف جنس المولود؟ سبحان الله! قضية مالية معقودة والطفل لم يولد بعد وليس مدركًا لشيء من حقوقه فيها، بل ومن الممكن ألا يخرج حيًّا إلى الدنيا. ومن ضمن مدهشات المسألة أنه بالفعل لو مات والده مثلًا وهو في بطن أمه ولا يعلم أحد هل هو ذكر أم أنثى، وهل توأم أم واحد، فإن قسمة الورثة في تلك الحالة تكون بشكل يُجعل فيه للجنين النصيب الأوفر ولهم النصيب الأقل من باب الاحتياط، فيبنون على أنه ذكر مثلًا ويقتسمون، ثم إذا جاءت أنثى يعيدون تقسيم ما فاض من نصيبها عليهم، بينما إذا كان جاء ذكرًا يكون نصيبه محفوظًا منذ البداية.

٢- بالنفقة عليه، من خلال النفقة على أمه التي تحمله في بطنها وتتغذى لإطعامه من بدنها، لأنه لا سبيل لإيصال حقه إليه سوى بذلك، كما بينا ما يتصل بذلك في حفظ النفس منذ بضع فقرات.

نستخلص من مقاصد حفظ النفس والعقل والمال والنسل والدين للجنين، الحقوق والاحتياجات الآتية إجمالا:

١- الحق في

- **حفظ الرحم،** بيته التربوي الأول، صحيًّا من جهة كل ما يدخل إلى المشيمة من خلال دم الأم، ونفسيًّا من خلال توفير كل ما يلزم لراحة الأم النفسية لانعكاس ذلك على نموه بسواء، واجتماعيًّا من جهة ثبوت النسب لأبيه.

- **توفير الطعام** اللازم لأمه ليتغذى بشكل سليم.

- **إيناس نفسه بكلام ربه.**
- **رقيته وتحصينه** من الشيطان.
- **حفظ ماله.**
- **حفظ عقله وحواسه** من كل ما قد يؤذيهم ويضر بوظائفهم ونموهم.

٢- الاحتياج إلى

- **المحاورة والتربيت.**
- **تحفيز الحواس الخمس.**
- **تخزين الذكريات.**
- **التفاعل مع حركته** وإشعاره أننا هنا معه.
- **طمأنته عند رد فعل «الركلات الفجائية»** بسبب صوت شديد مثلًا أو نحوه.

وبذلك نكون قد استعرضنا جملة من الحقوق والاحتياجات للجنين، وبناءً عليها هي وسماته، يمكننا معرفة كيفية ملء المرحلة بإذن الله، ولكن بعد أن نستعرض مشكلات المرحلة وعلاجها.



الفصل الثالث

مشكلات الجنين وعلاجها

بشكل عام، فإن أي مشكلة تؤثر على الأم، قد تؤثر بدورها على الجنين، فيجب التنبه لذلك، لكننا هنا نركز على مشكلات عامة وعملية ويكثر الاهتمام بها والسؤال عنها.

مشكلة ١: وجود أخ أكبر لديه استعدادات عالية للغيرة

غيرة الإخوة من أشهر المشكلات، وليست مشكلة معاصرة فقط، إنما عبر العصور، بل منذ بدء الخلق، لها قصتان في القرآن بين إخوة من أبناء الأنبياء، تعكسان لنا غيرة فتية راشدين.

- **الموضع الأول:** قصة ابني آدم عليه السلام، أول بشر على الأرض.
- **والموضع الثاني:** قصة إخوة يوسف أبناء يعقوب عليهما السلام.

في القصة الأولى: فضّل الله ﷻ ابنَ آدم الأول على أخيه الآخر لأنه كان الأتقى، حيث قدَّمَ التقِيُّ قربانًا زكيًّا من خِيرةِ ما عنده، بينما قدم الآخر قربانًا هزيلًا من أردأ ما عنده ﴿ فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ [المائدة:٢٧]، فكان من الطبيعي أن تنشب الغيرةُ في قلبه ﴿ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ [المائدة:٢٧]. أقول «من الطبيعي» لأن الغيرةَ ليست صفة سيئة في المطلق، بل مثلُها مثل الخوف والحِرص والفضول، كلها خصال فطرية أودعها الله في الإنسان لتكون دافعًا له لتحقيق مصالحَ معينة، وهنا كان من المفترض أن تكون الغيرة محمودةً وتؤدي دورها الذي أودعها الله فينا لأجله، بأن يتعلم الأخُ الشحيحُ الدرسَ ويدرك أن الله يتقبل من المتقين المخلصين له، فيغار أن

الله يتقبل من أخيه ولا يتقبل منه فيستغفر ويجتهد أن يكون مثله من المتقين موقنًا أن الله سيقبل منه بعدها مباشرة كما قَبِلَ من أخيه؛ فالله عدلٌ لا يظلم أحدًا وأكرمُنا عنده ﷻ هو أتقانا، بالتالي تصبح غيرتُه غيرةً لوامةً محمودةً **بيضاءَ** تقوده إلى مصلحته؛ لكنه حوَّل تلك الغيرة مِن أداة لقنص مصلحته في الدنيا والآخرة، إلى نار حسد تلتهم الأخضرَ واليابس وتهد مصلحة الآخرة لأجل مصلحة الدنيا، فكيف يقول أحدٌ عاقلٌ أن الخطأ من البداية هو - وحاش لله - في تفضيل الله ﷻ لأحدهما على الآخر في القبول تبعًا لمعيار التقوى التي هي من كَسبِ الإنسان واجتهاده في التزكية؟ إنها تربية رب العالمين للإنسان، والتي ينبغي ألا نتحرج منها بسبب مخالفتها لما في الكتب الغربية كما يحدث للأسف، والله أعلم بمن اتقى ويتقيه وسيتقيه على أية حال، وبمن في قلبهم مرض على أية حال، وبالمِحَن يُخرج أضغانَهم لعلهم يعقلون ويعتبرون ويتزكون قبل فوت الأوان.



أما القصة الثانية: فكان التفضيل من أب لأحد أبنائه، لكنه ليس تفضيلًا فيه جور وظلم، إنما تفضيل متوافق مع ضوابط العدل التي ينبغي لكل أب وأم أن يرعياها في تربية الأبناء، فيعطيان كل واحد منهم ما يحتاجه من رعايةٍ وبذلٍ، بغض النظر عما إذا كان نصيبه من ذلك متساويًا بالمسطرة مع نصيب إخوته أم لا، فالأصلُ أي نعم هو التسوية والعدل بين الإخوة في القبلات والعطايا وما إلى ذلك، ولكن عندما يكون هناك ابنٌ محتاج لنصيب من ذلك أوفرَ من أنصبة إخوته، لسببٍ معتبر شرعًا ومصلحةٍ مترجحةٍ، فللوالدين أن يغيّرا في تلك القسمة ويبينا السبب لتهدأ النفوس بعد البيان، وهذا ما حدث مع يوسف وأخيه، حيث كان يُغدِقُ عليهما يعقوب عليه السلام من الرعاية أزيد من إخوتهما الأكبر، نظرًا لصغر سنهما وضعفهما وتعرضهما للحرمان من أمهما في الصغر، فيوسف وأخيه كانا أخوين لهم من أبيهم لكن من أمٍ أخرى، فقام إخوة يوسف بترجمة اهتمام يعقوب بأخويهم ترجمة خطأ: ﴿إِذْ قَالُواْ

لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ [يوسف:٨]، ولم يقتنعوا بالأسباب الحقيقية التي تهدأ بعدها النفوس السوية، وأقنعوا أنفسهم بأن تلك الرعاية الزائدة إنما هي لأن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم، ثم لم يكتفوا بذلك الخطأ وإنما رتبوا على تلك الترجمة الخاطئة غيرةً غيرَ محمودةٍ، **الغيرةَ السوداءَ** التي تورد التهلكة وتأكل الأخضر واليابس وتضيع مصلحة الآخرة لحساب مصلحة الدنيا، كما حدث مع ابني آدم.

بالتالي، فليس كلُ طفل يستقبل أخًا جديدًا ذا مميزات مختلفة عنه، يكون عُرضةً لمشاعر الغيرة ويترجم التفاضل الطبيعي والمعتبَر بشكل خطأ، فهذه تكون بحسب استعدادات كل طفل وتطور نموه الإدراكي والنفسي وتكامُل ذلك مع سماته الشخصية وتفاعله مع التربية.

بالإضافة إلى تعامل الآخرين معه ومدى تعزيزهم لآثار الغيرة البيضاء أو السوداء.

ففي قصتَي ابني آدم وأبناء يعقوب، أدت **الغيرة السوداء** بين الإخوة، إلى الرغبة في قتل الأخ المتفوق عليهما سواء متفوقٌ عند ربهم أو عند أبيهم.

بينما في قصص أخرى لم يؤدِ التفاضل لمثل ذلك؛ كقصة موسى وهارون، إذ لم يؤد تفضيل الله لموسى على أخيه هارون بالنبوة أولًا إلى حسد هارون لموسى ولا إلى تكبر موسى على هارون، بل ساهم ذلك في تواضع موسى وطلبه لعون أخيه رغم أنه مُفضَّلٌ عليه بالنبوة أولًا، وأدى كذلك إلى سعي هارون إلى أن يكون بالكفاءةِ المطلوبة التي طلب موسى من ربه أن يعينه بها منه.

فلم يقل هارون لموسى مثلًا: «أكون مساعدًا لك وأنت تكون النبي الأول والسيد؟!»، ولم يقل له مثلما قالت بنو إسرائيل لنبيهم، بخصوص طالوت: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة:٢٤٧]، بينما لو تخيلنا أن نفس المشهد قد حدث بين ابنَيْ آدم، فلا شك غالبًا أن توافقهما كإخوة بدون **غيرة سوداء**، أمرٌ مُستبعَد، فبين موسى وهارون لم يؤد التفاضل إلى أي من ذلك بل

على العكس: أدى إلى تكاملهما وسعيهما معًا لتحقيق الدرجات الأعلى من التزكية والنجاح.

فليس دوما تفضيل أخٍ على أخيه يكون سببًا مباشرًا لإشعال الغيرة السوداء المؤذية، فلا مانع أبدًا من تعزيز الغيرة البيضاء بين الإخوة، وهي التي قال الله عن آثارها الحميدة في القرآن: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

۞ **فالغيرة البيضاء** لها آثار ومظاهر واضحة تؤدي إلى تكامل الأطراف أو تنافسهم على التفوق.

۞ **والغيرة السوداء** لها مظاهر وآثار واضحة كذلك، قد تفضي إلى إزهاق الروح والعياذ بالله.

ففي حالة الجنين وأخيه: نجد أحد الأطفال مثلًا لا يريد أن يأتي ليسمع نبضات أخيه الجنين ولا أن يرى آثار تحركات جسمه على جدار بطن أمهما ولا أن يكلمه ويبث إليه اشتياقه إلى نزوله قريبًا وما إلى ذلك - كطبيعة غالبية الأطفال- بل ربما تطورت الغيرة معه إلى درجة أن يركل هذا الذي في بطنها أو يسبه ويعلن عن عدم رغبته في قدومه للبيت. وبغض النظر عن مسببات تلك الغيرة السوداء وآثارها، فإن تلك المشكلة حين تقع، تسبب الكثير من التوتر والضغط النفسي والشد العصبي والغضب لدى الأم الحامل، فحين ترى أي أم طفلها يفعل أيًّا من ذلك فمما لا شك فيه أن ذلك أمر محزن لقلبها ومسببٌ لكل أعراض الضيق الضارة تلك، مما قد يرفع من نسبة الكوليسترول في دمها على المدى البعيد ويؤثر سلبًا على النمو الصّحي للجنين، وربما تكره مجيء الجنين للحياة ظنًا منها أن مجيئه سيكون بابًا جديدًا لمشاكل غير محتَمَلةٍ نفسيًّا.

الحل: التعامل الطبيعي والمعتاد والسليم عند حمل الأم بأخ أو أخت جديدة، يكون:

١- بتذكير الأخ الأكبر دومًا بعظم أجر الله لمن يبر والديه ويكون على حسن الخلق معهما ومع إخوته، وأن خيركم خيركم لأهله، وقيمة الأخوة في الإسلام ونصوصها اليسيرة من الوحيين والقريبة من لغة الصغار، مثل: ﴿قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:٦٩]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، "المسلم أخو المسلم»[(١)] إلخ.

٢-بتهيئة الأخ الأكبر للأمر بطريقة تتسم بالهدوء واللطف والتشويق والتحميس، لكل مميزات وجود رفيق إضافي له في الأسرة.

٣- بإخباره أن أخاه القادم يسمع صوته ويحفظه في ذاكرته ويميزه من بين الأصوات، فهو يشغل مساحة من مشاعر أخيه الجنين وعقله وسيحبه كثيرًا بعد قدومه وسيتمنى أن يكبر سريعًا ليلعب معه ويتشارك معه الأفراح والذكريات السعيدة.

٤- بأخذ رأي الأخ الأكبر عند شراء أغراض الجنين وإشعاره أن رأيه مهم ومحبوب.

٥- بشراء أغراض للأخ الأكبر عند شراء أغراض الجنين أحيانًا، بقدر المستطاع وليس شرطًا كل مرة، ولكن من الجيد أن نؤكد له كل مرة أن قدوم أخيه لن يسلب من نصيبه شيئًا، فلكلٍ رزقه الكريم، وإن عجَزنا عن ذلك أحيانًا، فنتجنب اصطحاب الطفل كل مرة وقت الشراء، منعًا لإثارة مشاعر حزن قد تؤجج الغيرة، فالصغار مهما كانوا يعشقون الأغراض الجديدة والمبهجة والهدايا.

٦- بمجالسة الطفل كلما سنحت الفرصة للتحاور معه في مشاعره نحو هذا الأخ الجديد ومحاولة الرد على أسئلته الشائكة تجاهه والسلبيات التي يظن أنها تترتب على قدومه أو موجودة قبل قدومه حتى، بهدوء ولطف وبساطة وصدق وحكمة،

(١) صحيح البخاري: ٦٩٥١.

بـدون تكلـف ولا كثافـة لأن هـذا قـد يفاقـم مـن تعلقـه بنا بشـكل يجعلـه يتأثـر عنـد انشـغالنا عنـه بأخيـه.

٧- بإشـعار الطفـل أنـه المسـاعد الأول للوالديـن وأنـه الفتـى القـوي الكريـم الـذي سيشـارك معهمـا في حمايـة ذلـك الأخ الضعيـف القـادم إلـى الدنيـا.

٨- ولا بـأس بإحضـار هديـة مـن مـال الجنيـن الخـاص - ولـو أنـه ليس لـه مـال خـاص فيمكـن للوالديـن تخصيـص حفنـة نقـود مـن مالهـم الخـاص باسـم الجنيـن عنـد اقـتراب موعـد الـولادة - ثـم شـراء هديـة لطيفـة مـن هـذا المـال وإعطاؤهـا لـلأخ الأكـبر وإخبـاره أنها مـن مـال (أخيـك حبيبـك)، ونحـث الأخ الأكـبر علـى المثـل، فمـاذا استفدنا مـن ذلك؟

الجـواب: لـم نكـذب علـى الأخ الأكـبر أو نخـبره أن أخـاه هـو مـن أحضرهـا لـه، كذلـك لـم يأخـذ الأب مـن مـال الجنيـن الخـاص بـدون سـبب معتـبر شـرعًا، فـالأب لـه ولايـة ماليـة علـى أمـوال ولـده يتصـرف فيهـا بمـا يخـدم مصلحتـه، وهـذا ممـا لا شـك فيـه مـن عيـن المصلحـة الراجحـة للطفـل، كذلـك غرَسْـنا في قلـب الأخ الأكـبر محبـة لأخيـه وعودنـاه علـى بـدء مبادلتـه إياهـا عمليًّـا.

٩- بعـدم الإسـراف في تدليـل الطفـل الأول أو المبالغـة في رعايتـه ومحاصـرة أوقاتـه بوجودنـا نحـن فقـط ليـل نهـار مِـن حولـه بمـا يشـعره أنـه محـور الكـون، فهـذا قـد يجعلـه يسـتاء بقـدوم ضيـفٍ جديـدٍ يـرى أنـه سيسـلبه كل تلـك الامتيـازات والمسـاحات الضخمـة؛ فكمـا قـال د/ عبـد الرحمـن الهاشـمي أن الطفـل الـذي لا يأخـذ أكثـر مـن حقـه ابتـداءً، لـن يسـتاء حيـن يـأتي غيـره ليأخـذ بـدوره حقـه الطبيعـي هـو الآخـر[١].

١٠- بالتالـي قبـل قـدوم الأخ الجديـد، نجتهـد في عمـل أنشـطة متنوعـة ومناسـبة لـلأخ الأول، تمـلأ عالمـه ولا تجعـل اهتمـام أهلـه بـه هـو محـور عالَمـه بالكامـل[٢].

---

(١) عناصر مستفادة من نصائح الحبيبة تسنيم راجح لكتابي.
(٢) عناصر مستفادة من نصائح الحبيبة تسنيم راجح لكتابي.

١١- كذلك بعدم جعل الطفل الجديد هو أيضًا محور الكون، فلا نقوم بتضخيم حدث مجيئه إلى الدنيا ولا نجعله محور حواراتنا اليومية ولا نبالغ في التجهيز لقدومه ولا بمشتروات ولا بحفلات إعلان دورية للأمور المتصلة بالحمل والولادة وغيرها مما شاع في زماننا للأسف وارتبط بكثير من البدع، فكل ذلك الاستعراض المبالغ فيه يشُعِر الطفل الأول أن هذا القادم الجديد صار مركز العالم، وربما سيبتلع عالمَه الخاص بداخله. نتحمس للحدث نعم، ونهتم بالتجهيزات والتبشير وما إلى ذلك بما يزيد تحمس الأخ الأول لقدومه، لكن دون مبالغات ولا مخالفات شرعية بالطبع[١].

١٢- بتعليم الأخ الأول أن كل واحد منا يحتاج لغيره في أمور، ويحتاج تبعًا لذلك التفاوت في الاحتياجات إلى تفاوت في الدعم والمساعدة والتفرغ.

فمثلما كان يحتاجنا من قبل أكثر من الآن، فأخوه الجديد الآن يحتاجنا جميعًا أكثر من المراحل التالية[٢].

١٣- بتجنب الصياح في وجهه كلما حاول الاقتراب من بطن الأم ليربت على أخيه أو ليسمع ويرى حركاته داخل الرحم.

١٤- وبالدعاء لهما جهرًا في آن واحد، بمعنى: ضَم اسميهما معًا في الدعاء لهما جهرًا، كلما شعرنا أن الأخ الأكبر ينصت إلينا، وسنرى في فصول لاحقة كيف راعى النبي ﷺ ذلك بالفعل.

كل هذا، في الأحوال الطبيعية.

أما في حالة أن الطفل من النوع شديد الغيرة ابتداءً أو نخشى أن نثير غيرةً كامنة غير محمودة:

١- فبالإضافة إلى كل ما سبق، تجتهد الأم في إخفاء جانب من آلامها ووعكاتها

(١) عناصر مستفادة من نصائح الحبيبة تسنيم راجح لكتابي.
(٢) عناصر مستفادة من نصائح الحبيبة تسنيم راجح لكتابي.

الصحية التي تحدث بسبب الحمل عن الأخ الأكبر، فأحيانًا يشعر بالكره للجنين الذي يسبب كل ذلك لأمه ويسلبها راحتها وابتساماتها وضحكاتها التي كانت تغرقه فيها ليل نهار.

٢- لا تنقل الأمُ سريرَ الأخ الأكبر من غرفتها - في حالة أنه لا زال فيها - استعدادًا لإعطاء مكانه لأخيه الأصغر حين يولد؛ كلا بل تجتهد في أن تجعلهما معًا في الغرفة في البداية، على أن تمهد له أنهما سينتقلان معًا يومًا ما إلى غرفة مستقلة يرتعان فيها معا، بعد أشهر معدودات.

الخلاصة من الجيد عدم إطفاء جذوة الغيرة بين الأبناء، لأنها غريزة طبيعية مفيدة تشبه الوقود للمزيد من العمل لأنها تثمر التنافس على الخير، ولكن من المهم الانتباه لآثارها على السلوك لنتبين ما إذا كانت لا زالت بيضاء حميدة نود في بقاء جذوتها، أم تحولت إلى سوداء غير حميدة توشك أن تحرق ثيابنا وبيوتنا والعياذ بالله.

والحل دومًا في **التوازن التربوي**، وفي نَقَعِ أطفالنا في قصص الوحيين العامرة بمختلف العبر التي تؤسس لهذا التوازن، دون إفراط وتشديد، ولا تفريط وتحسس.

مشكلة ٢: وجود مشاكل أُسرية تؤدي لفترات حُزن شديدة على الأُمّ

فالحامل التي تتعرض لذلك - أو ربما تتعرض أيضًا لنوبات فزع وهلع بسبب هذه المشاكل - فإن ذلك يؤثر سلبًا على نمو الجنين بسواء.

الحل: إذا كنا بطبيعة الحال نسعى لتجنب النزاعات الأسرية في كل وقت، فعلينا أن نضاعف من هذا السعي في وقت الحمل بشكل أخص، محتسبين الأجر من الله في حفظ النفس الضعيفة التي لا ذنب لها هنا. أعلم أنه من الصعب التحكم في ذلك أحيانًا، لكن كل ما نؤكد عليه هو أننا باستحضار خطورة تلك الأحزان على تطور نمو الجنين بشكل قد يؤثر في مستقبله لسنوات، كلما استعنا بالله في محاولة تجاوز -

أو على الأقل تأجيل - طوفان الهموم ذا إلى ما بعد خروج الطفل سليمًا معافىً بإذن الله إلى الدنيا، لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

والأمر ليس فيه دعوة للمثالية في الانفصال عن واقع الأحزان، بل سبقنا إليه سيدنا جبريل بوحي من ربه، حين قال لمريم لما حَزِنت بشدة من خبر حملِها بسيدنا عيسى من دون أب لدرجة أنها تمنت الموت: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۞ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۞ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٣-٢٦]، فالحامل تحتاج إلى مشاعر طيبة متفهمة مُطَمئِنة بعيدة عن الحزن والخوف والتوتر، وغذاءً صحيًّا ورواءً بدنيًّا ومعنويًّا يفيض عليها بالراحة النفسية والاستقرار، مع ضرورة التزامها بالذكر والدعاء أن يفرج الله عنها كربَها ويجعل لها منه مخرجًا ويحفظها وجنينها من كل ضيقٍ وضرٍ.

مشكلة ٣: التاريخ الصّحي للأم الحامل ونظامها الغذائي

لأنه من العوامل المؤثرة بشكل طويل المدى على الطفل ويمكن أن يؤدي لحدوث تطورات غير طبيعية وتشوهات خِلقية والعياذ بالله، على سبيل المثال مثلًا: زيادة نسبة الجلوكوز بدرجة كبيرة لدى الأم يضاعف من خطورة إصابة الجنين بعيوب خِلقية في القلب، والأمهات التي تعاني سكر النوع الأول الذي يظهر قبل سن الثلاثين أبناؤهم أكثر عرضة للتوحد، لذلك: قد يكون أحيانًا مجرد تعديل الأم لنظامها الغذائي مما يقي ذريتها من مرض التوحد أو بعض الاضطرابات العصبية، أسأل الله أن يعافي كل مُبتلى.

الحل: ما قلناه في الحقوق والاحتياجات الصحية، من اتباع نظام غذائي مناسب لمرحلة الحمل وتطور نمو الطفل بشكل سليم، وتجنب مسببات أمراض الحمل

بجدية - ويرجع فيها إلى الطبيبة - وعدم التعرض بشكل خاص لمناطق أو أطعمة فيها تلوث ومواد سمية وما إلى ذلك.

مشكلة ٤ : عدم اكتمال الحمل أو ظهور تشوّهات أو عيوب في تكوّن الجنين

فقد يكون معلوما لدى الطبيبة المعالجة (نظرًا لاطلاعها على التاريخ المرضي للأسرة مثلًا)، أن الجنين معرض لخلل في نموه أو لظهور عيب خلقي معين، وربما لا يتم توقع أي من ذلك بالتاريخ المرضي وإنما يظهر من خلال أشعة فحص الحمل - السونار - في مراحل متقدمة من الحمل، وغيرها من الأمور التكوينية التي قد تصيب الجنين وتعطل من مستقبلاته الحسية التي سنلقنه الحياة من خلالها، ونسأل الله العافية.

الحل: محاولة الالتزام بمواعيد الكشف الطبي على الجنين في مختلف أطوار نموه، وإطْلاع الطبيبة على أي سجل مرضي في العائلة نخشى من عواقبه على الجنين، والأخذ بأسباب وقاية أو علاج الجنين من مثل تلك الأمور مبكرًا ، سواء بجراحة أو إجراءات صحية معينة، ومن قبل ومن بعد، رقية الأم لنفسها وولدها والتزامها بالأذكار التحصينية لكليهما، وتهيئة النفس للرضى على كل حال، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى ما هاجر إليه، فلا يضره بعدها على أي جنبٍ قد قضى ربُه أن يهاجر إليه، وأعلم شخصًا قد جاء للدنيا بعد ١٣ سَقطًا لأمه! وكبر وترعرع وصار رب أسرة وأولاد، وفي السماء رزقكم وما توعدون.

هذه كانت إطلالة سريعة على الشائع من مشكلات المرحلة وعلاجها، وآن الأوان أن نجمع كنوز الجنين، في الفصل الرابع.

الفصل الرابع

كنوز الجنين

١- قابلية الجنين للسَمع، بما يؤهل مَن حوله لملئه بأكبر قدر ممكن من المُدخَلات السَمعِية المناسبة التي تُساهِم في تنميةِ روابط ائتناسِه بأسرتِه وبكلام ربه وبتعويده على صوت القرآن والذِكر والدعاء وذبذبات الكلام الطيب كله وتأسيس لغته، وتعليقه نفسيًا بأهله.

٢- قابلية الجنين للشعور باللمس كذلك، بما يساهم في تلقّيه وامتصاصه لمشاعر الحُب والارتباط أكثر تجاه الوالدين بفطرية تلقائية، فمكمن الكنز هنا هو أن الجنين صفحة بيضاء تمامًا يَسهُل تعاهُد بدايتَها النقية مبكرًا بخيرٍ يسيرٍ عميق الأثر قبل غزو المُشتّتات الأسرية التي تبدأ بعد الولادة.

٣- اتصاف المساحة الشخصية للأم الحامل بالاتساع والهدوء نوعًا ما عن المراحل المُقبِلة، وتمتعها بفترات زمنية أوفر قدرًا مما في قابل الأيام، مما يساعدها في استكمال واستدراك ما قد يكون فاتها من التجهز والاستعداد، فلا يفوتُنا هُنا أن نؤكد أن مَكمَن الكنز هُنا هو (عندكِ أنتِ أيتُها الأم)، إذ لا زال لديكِ مُتّسع من الوقت لتهيئةِ قدوةٍ من نفسك لابنكِ - إن كنتِ لم تبدئي بعد - قبل المُشتّتات التي ستحدث بعد ولادته وتجعل مسألة «إيجاد وقت لحكِّ جلدك» أمنية غالية عزيزة المنال!

٤- اتصاف تلك المساحة أيضًا، بـ(وجوب) الراحة فيها و(ضرورة) إسباغ عطف ورعاية وعناية وافرة على الأم من المحيطين بها، بجانب (وجود) الرخص الشرعية المسكوبة على بدنها وروحها في هذه الفترة، كل ذلك تعزيزًا لسلامتها هي وجنينها

كي تقر عينًا ونفسًا، ما نسميه «**معاملة فندقية إجبارية** »واجبة للأم الحامل على من حولها، يأثم من يفرط فيها منهم، وتأثم هي إن لم تغتنمها بشكل يحفظ جنينها من الضرر، يفتقد المرء كثيرًا فترات الراحة والعناية الإجبارية تلك!

باختصار كنوز هذه المرحلة تكمن في قدرتنا على إحداث تهيئةٍ هادئةٍ مُتدرجةٍ لنموٍ صحي للبدن والعقل والحواس، والذين نعتمد عليهم كمُستَقبِلات لكل ما سنُلَقِّنُ الأطفال إياه فيما بعد، فهم الأساس الذي سنبني عليه كل القناعات والمعلومات والقيم والمعارف والتوجيهات التي سننقلها للطفل منذ الولادة ،بجانب أنها مرحلة شحن نفسي وعلمي وذهني وتزكوي للأم بشكل إضافي نوعًا ما لتتجهز وتستعد لمرحلة الوليد أكثر وأكثر.

وبِناء على ما سبق من فصول، نستطيع أن نتكلم عن كيفية ملء هذه المرحلة، وهو موضوعنا في الفصل التالي.



الفصل الخامس

ملء الجنين

مما سبق من فصول، نستطيع أن نحدد خطة ملء المرحلة كالتالي:

١- قيام الليل وكثرة النوافل ولو جلوسًا إذا عجزت الأم عن الوقوف أو أرهقها، فلا ننسى: الجنين يسمع، وقد قال النبي ﷺ لسيدنا أنس حين طلب مرافقته إلى الجنة «أعني على نفسك بكثرة السجود»، وهناك أثر يُروَى عن سعيد بن المُسيب، أنه كان يقول لابنه ذات يوم: «لأزيدنّ في صلاتي من أجلِك يا بُنيّ رجاءَ أن أُحفَظَ فيك»، ثم تلا قول الله ﷻ: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:٨٢]. وفي ذلك بناء تحصيني وديني ونفسي للجنين، بجانب بناء لغوي تراكمي.

٢- تكرار الدندنة بجمل وصيغ الأذكار والتوحيد والقرآن على مسامع الجنين، أو السور التي ورد في حقها فضل التكرار، مثلًا: سورة البقرة، خواتيمها، آيةُ الكرسِي، المعوذات، الصمد إلخ، فهو يسمع ويتأثر بكلام الله ﷻ بما لا يشبه أي كلام آخر ويؤثر فيه بشكل قد لا نراه، لكنه واقع يقينًا وأكثر بركةً ونفعًا وتحقيقًا لأغراض أوسع؛ قال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، فلا أطيب ولا أفضل من كلام الله.

فمن الجميل أن نملأ حواس الجنين بالقرآن ونعبيء به غرفات الذاكرة ونعوّده على السكون والاطمئنان معه والائتناس به؛ **سماعًا** من خلال أصواتٍ من خارجنا، **وترتيلًا** بواسطة صوت الأم نفسها من الداخل - مثلما تكلمنا عن مريم التي كانت من القانتين قبل وبعد ميلاد عيسى - لأن صوت الأم أوضح وأقرب الأصوات التي تصل للجنين كما قلنا، فنضع القرآن والأذكار بجوارنا طوال الوقت دون أن يشغلنا

ذلك عن ترتيله وتلقينه للجنين بصوتنا، ونكرر الرُقية كذلك على مسامعه وبدنه: تضع الأم يمينها على بطنه أو تنفث الرقية في الكفين ثم تمسح على البطن، لأن الرقية تحُصِّنُه من مس الشياطين وبالتالي تحميه بإذن الله من معوِّقات الملء السّليم، وهذا كله ليس من البناء الديني والنفسي والحسي والتحصيني فقط، بل من الملء اللغوي أيضًا للجنين.

٣- الغذاء السليم المتوازن والخالي من الأضرار، فيجب ألا نستهين به فنحن هنا نبني الأجهزة التي ستتلقّى عنا: العقل والحواس والأعصاب والجوارح، فعناية الحامل بالجسم والصحة العامة أثناء فترة الحمل أمانة ينبغي عدم خيانتها، فهي من الأمور الحيوية جدًّا لسلامة صحة وعقل الجنين بما فيها من مراكز الإبصار في المخ وشبكته العصبية وغيرها كما قلنا، لذلك عليها اتباع إرشادات الأطباء والمختصين فيما يخص التغذية الصحيحة ومقدار الراحة اللازمة وما إلى ذلك، والامتناع أيضًا عن التدخين نهائيـًا أو التواجد في أي مكان به مدخلات حسية ضارة (أبخرة أو أطعمة أو تلوث أو أصوات)، وتكلمنا سابقًا عن الأسباب والعواقب، والامتناع عن تناول أي علاجات أو أدوية أثناء الحمل كذلك دون الرجوع للطبيب. وفي هذا تعزيز للبناء الصحي والحسي والعقلي السليم للجنين.

٤- تحفيز نمو الجنين الصحي، من خلال استشارة الأطباء في أغذية إضافية للحامل مما يوصي به المختصون وهيئات الصحة المعتمدة ويعوض النقص الغذائي الشائع والضعف العام بين الحوامل في زماننا، والحرص على تناولها مع النظام الغذائي الصحي المعتاد، مثل المكمل الغذائي «حمض الفوليك» الذي صار أساسيًّا في أشهر الحمل الثلاثة الأولى، ومثل زيت السمك «أوميجا ٣» سواء من مصادره الطبيعية أو الدوائية، والذي يدعم بقوة نمو عقل ومخ الجنين. وفي هذا تعزيز للبناء الصحي والعقلي السليم للجنين.

٥- تحفيز نمو الجنين الحسي والعقلي كذلك والتأسيس الأعمق للغته، من خلال

التحدث معه بصوتٍ حنون رحيم ودود، بكلمات حوارية بسيطة ومناسبة لحواسه الناشئة وثابتة ومكررة قدر الإمكان، بخاصة في آخر ثلاثة أشهر من الحمل، مثال: اهدأ صغيري، أو نم حبيبي، أو حفظك الله بني، أو ننتظرك بشوق إلخ، وهذا من البناء اللغوي والنفسي والعقلي للجنين.

أما سوى ذلك من الحوارات مع الجنين التي على شاكلة (لقد أتيتُ يا حبيبي انظر ماذا أحضرت من السوق هذه خضروات اسمها إلخ، أو كيف حالك بُني الجو اليوم مشمس كم يكون لطيفًا لو كنت بيننا ونفعل كذا إلخ، أو انظر ماذا جهزت لك من أغراض وألعاب وملابس أنا وأخوك ووالدك إلخ، أو استمع يا صغيري كيف كان يومي، أولًا استيقظت من النوم مفزوعةً في الساعة إلخ) فمثل هذه الحوارات ليس لها معنى أو أساس من الصحة، فلم يثبت جدواها علميًّا - حتى الآن - بالتالي لا تصل معانيها للطفل، إلا لو كانت من باب الثرثرة على مسامع الجنين بذبذبات من الأم لتعويد الجنين على تمييز صوتها من بين بقية الأصوات وإشعاره بأن هناك من يكلمه وحسب، فلا بأس، لكن مِن الأمهات من تعتقد أن الطفل يفهم تلك الحوارات اليومية مثلما يفهمها «الإنسان الذي في غيبوبة ويُقال إنه يسمعُنا ويفهمنا لكنه عاجز عن إبداء رد فعل مناسب فحسب!» ولو ثَبَتَ ذلك فلا يُقاس عليه الجنين بالطبع، فالجنين لم تتكون عنده اللغة بعد ولا مفرداتها ومدلولاتها، فكيف يفهم والله قد قال: ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:٧٨]؟

٦- جعلُ الأب يخاطبه كذلك بنفس الطريقة، وإخوة الجنين إن وجدوا، بخاصة في الشهور الثلاثة الأخيرة كما قلنا، وفي ذلك دعم لبنائه النفسي واللغوي والحسي والاجتماعي والعقلي.

٧- تعريض الجنين كذلك لأصوات الطبيعة وأصوات البشر الصحية الآمنة غير المنكَرة، ونحذر من الأصوات الشديدة، وننوع من الأصوات كما شئنا بعدها، ونتجنب الموسيقى بكل أنواعها وشبيهاتها من الأكابيلا ونحوها، ونستبدل

ذلـك بأصـوات أمـواج البحـر، والنسـيم، والعصافيـر، والمطـر، والرعـد، والسـيارات، والحيوانـات، وأي مـن المؤثـرات الصوتيـة الطبيعيـة غيـر المعالَجـة حاسـوبيًّا، وهـذا دعـم للبنـاء الحسـي والعقلـي والإدراكـي للجنيـن، واللغـوي والمعـرفي كذلـك.

٨- التربيـت على البطـن وتحريـك أيدينـا بلطـف تربيتـات تشـجيعية تواصليـة حنونـة، بخاصـة عندمـا يتحـرك الجنيـن، فنربـت عليـه برفـق إلـى أن تهـدأ اضطراباتـه، لاسـيما إذا كانـت الحركـة مفاجئـة نتيجـة لصـوت شـديد مفاجـيء، فاسـتجابتنا بتربيـت حـانٍ علـى البطـن يشـعر بـه الجنيـن، وهـذا مـن تعزيـز البنـاء النفسـي والاجتماعـي والحركـي والحسـي للجنيـن.

٩- عـدم التدخـل في تحديـد جنـس الجنيـن بـأي عمليـات طبيـة بعـد بـدء تكوّنـه في رحـم أمـه، فقـد يكـون لذلـك أثـره الخطيـر جنسـيًّا عليـه مسـتقبلًا وإن كان لايـزال العلـم لـم يكتشـفه بعـد، وللأسـف صـارت تلـك العمليـة ظاهـرة و«موضـة»، ولـم تعـد اسـتثناءً لحـالات مرضيـة عاجلـة وحسـب كمـا جـاء في شـروط إباحتهـا شـرعًا، ومعلـوم أن الطـب يتراجَـع بعـد سـنوات عـن بعـض نظرياتـه بعدمـا يتبيـن عبـر أجيـال وأجيـال ضررَهـا تراكميًـا، وكـم للعلـم الغربـي مـن كبـوات وأغلوطـات مرصـودة، بالتالـي فـإن في تـرك جنـس الجنيـن كمـا ارتضـاه الله لـه وقـدَّرَه منـذُ صـارَ نُطفـةً، دون تلاعُـب وعبـث بجيناتـه، حفـظٌ وصيانـةٌ لبنائـه الجنسـي الطبيعـي الموهـوب مـن الوهـاب: ﴿لِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَـا يَشَـاء يَهَـبُ لِمَـنْ يَشَـاء إِنَاثًـا وَيَهَـبُ لِمَـن يَشَـاء الذُّكُـور﴾ [الشورى:٤٩]، وهـذا مـن التربيـة الجنسـية الشـرعية السـليمة للجنيـن الـذي لـم يهـل علـى الدنيـا بعـد، لمـا فيـه مـن:

- الدعـم لهويتـه الجنسـية الأصليـة التـي يقدرهـا الله كيـف يشـاء حسـب مصلحـة الجنيـن في الداريـن.

- التربيـة العمليـة للأهـل علـى تقبـل الجنيـن المتكـوّن بتـوكل ورضـا، وترقـب نمـوه وخروجـه للدنيـا بشـغف، ومـن ثـم اسـتقبالِه بحفـاوة عنـد مجيئـه أيًّـا كان جِنسـه كمـا سـنرى.

۞ التوطين للأهل نفسيًّا أكثر وأكثر حين يَكبُر، على صيانة هويته الجنسية وعدم تعييره بها بما يدفعه لاضطرابات سلوكية وربما اضطرابات في الهوية الجنسية، كما سنرى في فصول الرضيع.

وقد أصدر مجمع الفقه الإسلامي بالفعل فتوى مفصّلة بتحريم التدخل الطبي لاختيار جنس الجنين، إلا في حالة الضرورة العلاجية في الأمراض الوراثية[1].

وكذلك دار الإفتاء المصرية عام ٢٠١٢ م - أي منذ عشر سنوات - أصدرت فتوى على هيئة بحث مطول ومفصل رائع جدًّا، أنقل لكم خلاصته التي جاءت في نهايته نصًّا: «القاعدة العامة في مسألة اختيار جنس الجنين (أي: تحديد جنسه) الحظر والمنع، والجواز استثنائي لحالات محددة وبشروط، ويمكن الاستئناس بالحجج الآتية:

أولًا: أن هذا «الفعل» مخالف للطريق «الفطري» «الطبيعي» الذي خلق الله الناس عليه وسن قوانين توزيع الذكور والإناث على وفقه، «فالأصل» أن تحديد الجنس مسألة لها «قانون» «وسنة» ربانية منذ أن خلق الناس وجعل التناسل بينهم سببًا لديمومة الحياة البشرية لأداء ما وجب على الإنسان من مهام وواجبات، والسماح بالتدخل في هذه العملية تغيير لهذه الفطرة ولأصل قانون الخلق وتناسلهم، ولهذا كان «طفل الأنابيب» مثلًا خروجًا عن الأصل، والأصل عدمه، ولكن ضرورة عدم الإنجاب أجازت إجراء عملية التلقيح الاصطناعي ولولاها لما جاز بحسب الأصل، ومن هنا نرى أن الأصل عدم اللجوء إلى هذه التقنية كأصل عام.

ثالثا: إن القول بالجواز - كقاعدة - يؤدي إلى تحكم الأهواء والرغبات، والشريعة كما يقول الإمام الشاطبي جاءت لتخرج الناس عن دواعِي أهوائهم، ويقول الشيخ الغزالي: إننا بدل أن نتقن الهندسة الوراثية يجب أن نتقن هندسة الأخلاق والتقاليد،

(١) من فتوى على موقع الإسلام سؤال وجواب بعنوان: هل يتعارض تحديد جنس الجنين مع كون الله تعالى هو الذي يهب الذكور والإناث.

وأن نفقه قول الله ﷻ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١] »[1].



ختامًا، كما لاحظتم قد أجملنا ودمجنا أنواع البناء والملء في الجنين في ذيل الفقرات، نظرًا لطبيعة المرحلة البسيطة في تفاصيلها، ثم يكون كلامنا عن أنواع الملء والبناء أكثر تصنيفًا وتشعبًا في تربية الوليد لتنامي تفاصيله عن مرحلة الجنين أكثر، ثم تبلغ التفاصيل والتصانيف ذروتَها في تربية الرضيع والفطيم، فكلٌّ يطول شرحه وتزداد تفاصيله حسبَ سماته واحتياجاته المرحلية المتصاعدة.

(١) مقتبس من فتوى على موقع دار الإفتاء المصرية بعنوان «تحديد جنس الجنين» بتاريخ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، بعد حذفي لثانيًا ورابعًا تجنبًا للإطالة.

الفصل السادس

الاستعداد للجنين (أي قبل الحمل)

كما قلنا في البداية، ونعيدها بما يناسب المقام:

١. تجديد النية وفصلنا جانبًا منها في فصل «كيفية الاستعداد للتربية بالوحيين».

٢. حسن اختيار الزوج؛ والد الجنين وولي أمره وشئونه وشئونك، ولقد اتضح الآن سبب كونها نقطة محورية ممتدة على كل المحاور في كل المراحل، وبها نتجنب الكثير من الأمور التي تؤثر بشكل كبير على مصالح الإنسان على المدى القريب والبعيد، «إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»[١].

٣. حسن اختيار الزوج للزوجة، الحاضنة للطفل في أهم أطوراه وأعوامه وأُولَى أنفاسه في الحياة، «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[٢].

٤. عدم التورط في أية أنواع زواج أو علاقات خارج إطار الزواج الشرعي بشروطه الحكيمة، حفظًا لحق الجنين في النسب والذي يترتب عليه كافة حقوقه واحتياجاته ومصالحه على كل مستوى كما رأينا، لذلك جعلت الشريعة الشُّهود مِن شروط العقد في الإسلام، لأن هذا ليس يحفظ سمعة الأم وحقوقها فحسب، إنما يحفظُ كذلك حقَّ الجنينَ في أبوَيـنِ ثابتَيْـنِ معلومَيـن مُوثَّقَيـن.

٥. التزام دعاء المعاشرة بين الزوجين، وسبق تفصيله.

٦. الدعاء للنطفة بعد المعاشرة بين الزوجين، وسبق تفصيله.

---

(١) الألباني: حسن صحيح - صحيح الترمذي: ١٠٨٤.
(٢) صحيح البخاري: ٥٠٩٠.

٧. السعي المتجدد لطلب العلم الشرعي بعدما استعددنا بما لا يسع المسلم جهله منه قبل الزواج، فنستزيد من فروع العلم التي تخص فقه الأسرة والتربية وتخدم حاجياته وتحسيناته، بجانب تنمية المعرفة في المجالات الطبية والصحية مما لا يسع المسلم جهله فيها كذلك، لمعرفة ما المطلوب للنمو الصحي البعيد عن الأمراض والتشوهات الخلقية وبذور الأمراض المقلقة، كالتوحد والفصام وصعوبات التعلم وغيرها، لكن دون إفراط ولا تفريط، أي بدون هوس كما قلنا سابقًا، فيمكننا أن نكتفي بمتابعة طبيبة أمينة علمًا ودينًا، دون التورط في البحث المحموم على مواقع الشبكة العنكبوتية الخاصة بمرحلة الحمل والولادة بشكل يقلق مضجعنا ويشغلنا عن بقية أسباب الاستعداد، فالله يحفظه ويرعاه من قبل حتى أن تشعري بوجوده بداخلك، فقاربي وسددي، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ثم أبشري.

٨. تجديد التوبة ومقتضيات التقوى، وقطعًا هذه ليست كلمات استهلاكية رتيبة، ولا موعظة متكررة بلا معنى، لا والله أبدا، فهناك آية مرتبطة بالكامل بالذرية لها علاقة بذلك، وهذا موضعها المناسب، قال ﷻ: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء:٩]، فهل نمتلك في ذريتنا أضعف من الجنين لنخشى عليه ونأمل أن يشمله الله بحفظه؟! فلنتقِ الله منذ البداية، بل كما قلنا: قبل أن تبدأ البداية! والتقوى عامة، لكن أخص هنا بالذكر «التقوى في القول» كما خصتها الآية؛ نحو: عدم قول الزور أو الكذب أو أي من آفات اللسان، نجتنبها جميعا ونلزم ألسنتنا القول السديد والحق الذي يرضي الله.

٩. الاعتقاد الجازم أن الرزق بيد الرازق وحده، فلا تنهشنا الوساوس والمخاوف من احتمالية حدوث حمل، بشكل يؤدي بنا إلى التفكير في التخلص منه إذا حدث والعياذ بالله، بسبب خشية تعرضنا للفقر أكثر بمجيء طفل للأسرة، عبّر القرآن عن ذلك قائلًا: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٣١]، جاء في تفسيرها: (خشية إملاق) أي توقُّع حدوث الفقر، فالمعنى المقصود: الجنين يقتلونه لخوفهم من العجز عن النفقة عليه، وهي تختلف

عن ﴿من إملاق﴾، وسيأتي شرحها في تربية الوليد لمناسبتها هناك.

خاتمة الفصل

وبذلك نكون قد انتهينا من جملة من المقاصد التربوية للجنين والتي تنطبق على كل جنين أودعه الله أمانة في أرحام الأمهات المسلمات، تنوعت بين الضرورات والحاجيات والتحسينات، وتحدثت بتفصيل عما يخدم الضرورات الخمس، وتركت الكلام عن كثير من التحسينات – الكماليات الدنيوية – نظرًا لأهمية الضرورات لكل طفل، ولوجود احتياجات معينة مشتركة بين جميع الأطفال لا تختلف من أسرة لغيرها، ولكون الكماليات تختلف من بيت لآخر ومن طفل لغيره، فما يهمنا في رحلتنا هو أن يصلكم بشكل عام أن تركيزنا على حفظ الكُليات – الضرورات الخمس – وما يتفرع عنها من مقاصد تابعة، سيسهل ترتيب أولوياتنا بشكل صحيح، ويسهل معرفة أين المبالغات، وما الاحتياجات، وما الكماليات، فيما يخص المصالح الدنيوية؛ ويبين لنا كل ما يخص تحصيل المصالح الأخروية بمراتبها الثلاثة، لنا ولأولادنا.

ولكن من المؤسف أن التجهيزات التحسينية لاستقبال خروج الطفل للدنيا قد شابها الترف، وصرنا نأتي بأشياء زائدة عن الحد والحاجة، وربما تسبب ذلك في أن نغفل أو نعجز عن الأهم للجنين، كعقيقته المنتظَرة مثلًا. فعلينا أن نتقي الله في النفقة على التحسينيات والكماليات الدنيوية بغير إسراف ولا نتعامل مع كل شيء على أنه حاجيات وضرورات ، وهذا في ذاته ليس تربية للأهل فحسب، إنما يمس بناء الجنين التحصيني من الشيطان، فماذا لو عرفتم أن كل ما زاد عن الحد في البيوت هو للشيطان؟ قال ﷺ: «فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ، وَفِرَاشٌ لِامْرَأَتِهِ، وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ، وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ»[1]، (أي أنَّ الرَّجلَ إذا أراد أنْ يَتوسَّعَ في الفُرشِ، فغايتُه ما يَحتاجُه وأهْلُه وضَيفُه، وما زاد على ذلك فهو مِن السَّرفِ والمُباهاةِ والاختيالِ بزِينةِ الدُّنيا، وهذا مَذمومٌ، وكلُّ مَذمومٍ يُضافُ إلى الشَّيطانِ؛ لأنَّه يَرتضيهِ ويَأمرُ به، فكأنَّه له، أو لأنَّه إذا لم يكن مما يحتاج إليه الرجل، كان مَبيتَ الشَّيطانِ ومَقيلَه عليه، وفي هذا نهيٌ عمَّا

(١) صحيح مسلم: ٢٠٨٤.

زاد عَنِ الحاجَةِ مِنَ الفِراشِ أو وتَركُ الإكثارِ مِن الآلاتِ والأمورِ المباحةِ والتَّرفُّهِ بها، واقتصار الإنسانُ على حاجتهِ، وأن ما زاد عليها فإنَّه للشَّيطانِ فلا يَنْبغي اتِّخاذُه)[1].

وهذا ليس خاصًا بالجنين فقط، فينبغي لنا مع كل المراحل العمرية تحصيل ما استطعنا من الثلاثة مراتب في المصالح الأخروية.

أما المصالح الدنيوية للطفل فنجتهد ألا نقصِّر في تحصيل ضروراتِه ثم حاجاتِه، وألا نسرف في تحسيناتِه، وأن نحتسب فيها النية لله رب العالمين.

أنهينا نموذج خطة لتربية الجنين بالوحيين وما يتوافق معهما من علوم الدنيا، ورأينا قَبَسًا من كنوز الوحيين عن حجم العناية الربانية التي تحيط به، ورأينا بوضوح كيف أن للجنينية تربية مقاصدية، من بناء لغوي، وشرعي، واجتماعي، وديني، ونفسي، وبدني؛ مثلها مثل بقية المراحل العمرية كما سنرى، ولكن الفرق بينهم دومًا يكون بقدر سمات وطبيعة وتطور كل مرحلة فحسب.

فالجنينية ليست تسعة أشهر مُهمَلة، وللأسف كثير من الأمهات يقللن من شأنها ولا يتجهزون لها ولا أثناءها، بينما السقاية والتربية يبدآن من هنا، ليس من عمر يوم في الحياة بل من عمر يوم في بطن الأم، من عمر النطفة يا رفقة الخير، بل قبل ذلك كما قلنا سابقًا : بتربية أنفسنا وتجهيز القدوات للنبتة الطيبة، فإذا لم ننتبه لحجم الأمانة جيدًا قبل الأربعة أشهر الأولى، فعلى الأقل نتأهب عند مرور أول مائة وعشرين يومًا من الحمل، لأنها بداية مرحلة حيوية في حياة وتربية الجنين، مليئة بالكنوز التي يمكننا من خلالها البناء والتحفيز لنمو المستقبِلات الحسية التي ستستقبل منا الحياة، بالإضافة إلى أنها جرس تنبيه باقتراب موعد خروجه للدنيا.

قال ﷻ: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر:١١]، فصّلنا (ما تحمله الأنثى)، وفي القسم القادم تفصيل (ما تضعه الأنثى) بإذن ربها وعِلمِه، فسبحان القائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠].

---

(١) شرح الدرر السنية للحديث.

القِسْمُ الثَّانِي

تربية الوليد بالوحيين

(أول أسبوع للإنسان في الدنيا!)

اكتملت أطوار الجنين وصار يركل بطنَ أمه بلا هوادة يريد الخروج، وحانت لحظة الولادة، وها هو الوليد بين أيدينا، الآن قد بدأ أول تعويد للطفل على انفصاله عن بدن أمه.

هنا يبدأ أول دروس «الفِطام الجزئي» للإنسان عن مشتهياته ولا ندري. سينقطع حبل وصاله ببدن أمه والذي دام واتصل تسعة أشهر، كانا فيها معًا كالكيان الواحد الملتصق.

تُراها ترتاحُ بعد قَطعِه وانفصالِه وفطامِه الجزئي ذا؟ كلا! سيظل طفلها ملتصقًا بها بعد، لكن بطرق أخرى، ودرجاتٍ أخرى، وَهنًا على وَهنٍ، كتبَ الله أجور الأمهات.

فاليوم هو أول ظهور حقيقي للكائن الحلزوني اللطيف بشحمِه ولحمِه وصراخِه وحركاتِه ومشاكله وكنوزه المخبوءة واحتياجاته التي لا تنتهي.

وقلنا سابقًا: قد عاتب بعضُهم والدَه على العقوق قائلًا: (يا أبتِ إنك عققتني صغيراً فعققتُك كبيرًا، وأضعتني **وليداً** فأضعتُكَ شيخًا).

وإن كان هذا ليس مبررًا للعقوق مطلقًا، إلا أن للوليد حقوقَ واحتياجات بالفعل.

فهلم معا نرى (**وليدًا**) هذه التي قال الفتى أن والدَه أضاعَها، كيف يُمكن للأهل ألا يضيِّعوها، وكيف يمكن أن يستغلوا كنوزها بحول الله وقوته.

فما التربية المطلوبة منا هنا للطفل الوليد في أسبوعه الأول في الدنيا؟

هذا ما سنعرفه في الفصول التالية إن شاء الله.



الفصل الأول

سمات الوليد

مرحلة الوليد في كتابنا كما قلنا سابقًا، هي أول أسبوع للإنسان في الدنيا منذ لحظة خروجه من الرحم، أي أن الوليد أو المولود هو: الطفل من عمر يوم إلى سبعة أيام من ولادته، سواء ذَكر أو أُنثى، جاء في القرآن: ﴿**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا**﴾ [**الشعراء:١٨**]، وسبق تعريفُه وسَردُ نصوصِه من الوحيين في فصل التعريف العام بالمراحل العمرية.

ولم أدمج الوليد مع الرضيع رغم أن مرحلة الرضاع متضمنة لمرحلة الوليد زمنيًا، لأن لدينا أحكامًا وتربية خاصة بمرحلة الوليد وحدها، فكما قلنا: تصنيفنا للمراحل العمرية شرعي وليس غربي، لأن التقسيم والتبويب الشّرعي بداخله لفتات تربوية ربانية تهمّنا وهي ما نبحث عنه، وقد وردت بالفعل ألفاظٌ شرعية تميز الوليد عن الرضيع، كما في سنن المولود مثلًا.

وسترون كيف أن الشريعة في هذا الأسبوع الأول تربي الوالدين أولًا قبل الطفل، بتدريبهما أولًا على حُسنِ تربيته منذ أول انطلاقة لأنفاسه، وعلى أمور معينة من احتياجاته وحقوقه المستمرة، مما يهيؤهم للعنايةً المستمرة به فيما بعد بإذن الله.

ولابد أن ندرك أن كل طفل يختلف عن غيره في معدل النمو والتطور وليس هناك داعٍ للقلق في أغلب الأحيان من تأخر الطفل للوصول لإحدى نقاط تطور النمو، لكننا فقط نضع مؤشرات نقيس عليها نوعا ما لتداركِ المشكلات مبكرًا وإصلاحها، صيانةً لمُستَقبِلاتِ التربية.

مرحلة الوليد هي أول مرحلة من مراحل الطفولة الأولى، قال ﷻ بعد مرحلة الجنين: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [غافر:٦٧]، الطفل فيها عبارة عن مجموعة مُستَقبِلات

أكبر وأوسع من ذي قبل وأقرب للمُدخَلات والمثيرات، تقتنص المعلومات، ثم يحفظها عقله في أدراج وخزانات الذاكرة بروابط وترتيب وأسس ذهنية معينة وتفاعلات عصبية دقيقة فيما بينها، وإن لم يَظهر لنا أي تفاعل من الطفل تجاهها بعد، ثم حين يأذنَ اللهُ للطفل بالبيانِ أخيرًا والاستجابات المناسبة لكل ذلك، يَخرُج كل شيء فجأة وكأن صنبورَ ماء قد انفتَح! وهذا يعلمنا أن ننتبه جيدًا لتلك الفترة الصامتة، لأنها أحد أهم مكامن (الكنز)، وقد اهتم ﷺ بمرحلة الوليد فأحاطها منذ أول لحظة بجملة من المثيرات لتلك المستقبِلات ومحفزاتِ الحواس والإدراك والمهارات ومنميات الفطرة وغيرها، كما سنرى، وتفاعُل الوالدين مع تلك المرحلة بهذا المفهوم يعزز من تطور نمو الطفل بشكل سليم في مختلف النواحي، الدينية والنفسية والاجتماعية والحسية والإدراكية والفطرية وغيرها.

١- مظاهر النمو الجسدي أو العضوي

تفصيلها ضمن سمات الرضيع، إنما نُثبت وجودها هنا كنقطة من النقاط منذ البداية فحسب.



٢- مظاهر النمو الفسيولوجي

وهو نمو وظائف الأعضاء، وهو يعنينا هنا بعض الشيء لارتباطه بتعب وراحة المربية الحاضنة: الأم فكلما كان نموًا طبيعيًّا، كلما ارتاحت الأم وتيسرت مهمتها التربوية.

ومما يساعد الوليد على سلامة نموه الفسيولوجي:

١- النوم الكافي

فمن سمات الوليد قضاؤه معظم وقته في النوم، فينام من ١٦ إلى ٢٠ ساعة تقريبًا

نظرًا لأن المواليد ليس لديهم ساعة بيولوجية داخلية مثل الكبار بعد، فما زال إيقاع الساعة لديهم غير منتظم وأنماط النوم عندهم ليست مرتبطة بضوء النهار أو الليل أو غيره، لذلك ينام ويستيقظ في أي وقت.

فإذا كان الوليد لديه اضطرابات في النوم عن هذا المعدل، أي أنه لا ينام كفاية أو ينام أكثر من ذلك فلابد من استشارة أطباء لأن من المهم تدارك مثل هذه الاضطرابات مبكرًا لتأثيرها على النمو، بجانب تأثيرها سلبًا على من يَرعى ويربي الوليد.

٢- الرضاعة الطبيعية الكافية

يحتاج الوليد إلى الرضاعة بكثرة، كل ساعتين أو ثلاث تقريبًا، أي بمعدل ٨ إلى ١٢ مرةً باليوم، وكلما زادت الرضعات كلما زاد إدرار لبن الأم، وزاد رزق الخير للوليد، مما يعزز نموه الشامل.

ومما يدل على كفاية الرضاعة: التبول والتبرز، وهما في هذه المرحلة لا إراديان وغير منتظمين، يبدأ الوليد التبرز خلال ٤٨ ساعة من الولادة ويكون على شكل مادة لزجة خضراء بها شعيرات سوداء ويزول هذا اللون القاتم في نهاية الأسبوع الأول من العمر وتتراوح عدد مرات التبرز يوميـًا في مرحلة الوليد من ٤ إلى ٥ مرات يوميًّا، وتَعَسُّر التبول والتبرز لسبب أو لآخر يؤدي لكثرة بكاء الطفل.

٣- مظاهر النمو الحركي

١- بعدما كانت حركة الجنين في بطن أمه نوعين: نوع إرادي من الضربات والركلات والتقلب والاستدارة بجسده، ونوع لا إرادي ناتج عن النمو والتغذِّي مثل حركة النبات أثناء نموه، فالحركة الآن عند الوليد ستختلف بحيث تختفي منها الحركة اللاإرادية الحاصلة نتيجة النمو الغذائي، وتزداد الحركات الإرادية أكثر، بجانب

حركات لا إرادية من نوع آخر يشير لنمو عصبي سليم.

- **إرادية**: مثل حركة بسط الذرعين وطيِّهم وقبض الأصابع على الأشياء وبسطهم، والاستجابات بشكل عام، كالقبض على أصابعنا عندما تُلامس أصابعه، أو بسط يده وقبضها بمفرده.

- **ولا إرادية جديدة**: مثل الانتفاضة من صوت مفاجئ شديد مثلًا.

لكن لا زالت كلها حركات عشوائية ومتكررة وغير منتظمة، وعلى الرغم من عشوائيتها إلا إنها تساعد في نمو الدماغ والذاكرة والعضلات، لذا يجب على الأمهات عدم تقييد حركة الوليد ولفه في الكثير من الملابس - ما نسميه بالمصرية «الكلفتة» المُبالَغ فيها - فيتكوم على نفسه بسببها وكأنه مازال في الرحم، نعم هذا الشعور مطلوبٌ للطفل أحيانًا، لكن الوليد يحتاج كذلك إلى حركة صحية حرة دون تقييد. ويمكن تهذيب هذه الحركات العشوائية وتعزيزها لتنتظم وتكون مناسبة مهاريًّا وذلك بالتمارين، للتخلص من الزائد منها لأن بعضها ليس عشوائيًا وإنما رد فعل ضروري لحياته وأمنه وسلامته: مثل فرط الحركة عند الجوع والألم وما يصاحبه من البكاء، والصراخ، والضيق.

٢- ومن مظاهر النمو الحركى أيضًا قدرة الوليد على المصّ من أجل الرضاعة.



٤- مظاهر النمو الحسي (البصر والسمع والتذوق والشم واللمس)

حاسة البصر

بمجرد الولادة من المفترض أن يقوم المختصون بفحص عيون الطفل للاطمئنان إلى أنه لا يعاني من مشاكل خلقية أو مرضية خاصة بحديثي الولادة، من عدوى

بكتيرية مثلًا قد تصيب عيونه في الأيام الأولى وما إلى ذلك، فالاكتشاف المبكر يساعد كثيرًا في العلاج كما قلنا.

* **بالنسبة للضوء**: الوليد يخرج من ظلمة رحم الأم، إلى نور العالم الساطع القوي، وصفها ﷻ قائلا: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ﴾ [الزمر:٦]، مما يجعل عين الوليد بحاجة إلى بعض الوقت للتأقلم على مستويات الضوء الجديدة، لكن الاحتياج إلى الضوء موجودٌ من أول يوم، أي علينا أن نجتنب التذرع بتلك السمة، في إبقاء الوليد في ظلام دامس خوفًا على عينيه، بل على العكس، فالعين تستجيب للضوء الساطع القوي بشكل طبيعي، فقط نحذر ونأخذ الحيطة من مستويات الضوء الشديدة ونعرضه للضوء بشكل طبيعي، فالوليد يستطيع التفرقة بين النور والظلام، وبين ظلمة الرحم والوضع الجديد الذي صار إليه بعد الولادة، وإن كانت رؤيته ضعيفة لا زالت، ويُعتبَر الضوء عاملًا مهمًّا في التطور السليم للنظام البصري عند الوليد.

* **بالنسبة للألوان**: تبدأ قشرة الدماغ البصرية بمعالجة تدفق المعلومات البصرية منذ اللحظة التي يفتح فيها الوليد عينيه لأول مرة، يكون للمُدخلات البصرية خلال الأيام الأولى للطفل بعض التأثيرات في تطور الجهاز العصبي للوليد، فعند الولادة، حاسة البصر عند الطفل موجودة لكن العين هنا تكون أقل الحواس، كما أن شبكية العين لا تستطيع التفريق بين الألوان المختلفة، ونسبة الرؤية ضعيفة ومشوشة، تقريبًا ١ إلى ٢٠، لكن لو وقف أحدهم أمام الوليد عن قرب سيكون الطفل قادرًا على تحديد ملامح وجهه لكن بضعف و تشوُّش، فلا يستطيع الرؤية أبعد من ٢٠-٤٠ سم.

لذلك توفير المدخلات البصرية وبتدريج وتتابع مناسب أمام عين الطفل ويؤدي لتطورها ونمو الأعضاء البصرية، وبالطبع يساهم في تطور الأجزاء التي لها علاقة

بالرؤيـة في دمـاغ المولـود، وبالتالي يحـد مـن المشـكلات الصحيـة للأطفـال.

وبسـبب ضعـف نظـر الوليـد، تعتقـد بعـض الأمهـات أنـه لا يـرى، بينمـا هـو يـرى لكنهـا رؤيـة ضبابيـة لا تميـز الأشـياء مـن بعضهـا سـوى الأشـياء الكبيـرة أو متباينـة الألـوان فيمـا بينهـا، فعنـد الـولادة يـرى أبيـض وأسـود فقـط وظـلال الرمـادي، ثـم في نهايـة الأسـبوع الأول (نهايـة مرحلـة الوليـد) يـرى بعـض الألـوان الفاقعـة أو المتباينـة أيضًـا: أحمـر - برتقالـي - أخضـر، لكـن لا يـرى الأزرق والبنفسـجي بعـد، لأن الضـوء الأزرق لـه أطـوال موجيـة أقصـر والخلايـا العصبيـة في شـبكية العيـن والدمـاغ التـي تتحكـم في رؤيـة الألـوان لـم تتطـور بعـد بشـكل كامـل.

وهنـا نكـرر حمـد الله ﷻ علـى نعمـة الإسـلام ونبـي الإسـلام ﷺ، حيـن نتأمـل الحديـث: «كان النَّبـيُّ ﷺ يدلَـعُ لسـانَه لِلحُسَـيْنِ فيـرى الصَّبـيُّ حُمـرةَ لسـانِه فيهَـشُّ إليـه»[(١)]. أي: يُخـرج ﷺ لسـانَه لـه بالمداعبـة كمـا نفعـل مـع صغارنـا، فيَبهـش الطفـل وينتبـه ويتهيـأ إلـى ذلـك الحَـدَث ويعجبـه ويسـرع إليـه، فهـذا يُسـاهِم في تعزيـز النمـو الحسّـي والإدراكـي إذ أن اللـون الأحمـر الفاقـع للسـان مـع صـوت المُلاعبـة نفسـها القريبـة مـن الوجـه يُخاطِبـان الحـواس الوليـدة بقـوة، فيُخزنهـا الطفـل حتـى وإن لـم يتفاعـل معهـا بعـد كمـا في الحديـث فبالطبـع هـذه الاسـتجابة الانفعاليـة خاصـة بالرضيـع الأكبـر لا الوليـد، وكلمـا تطـور نمـو الرضيـع كلمـا كان رد فعلـه للملاعبـة مختلفًـا، لكـن الشـاهد مـن كلامنـا: أن التحفيـز للحـواس يبـدأ مبكـرًا مـن أول يـوم حتـى لـو لـم يتفاعـل معنـا؛ فالأحـداث لا تمـر مـرور الكـرام أمـام حواسـه، فـلا تسـتهينوا بهـذه الأشـياء البسـيطة المتراكمـة. ولا تتقيـدوا بالضـرورة في هـذه المرحلـة بمـا يسـمى «منهـج جليـن دومـان - Glenn Doman» لتحفيـز حـواس حديثـي الـولادة، والـذي يعتمـد علـى اسـتعراض بطاقـات لصـور أشـكال وكائنـات وأغـراض بلونيـن اثنيـن فقـط: الأبيـض والأسـود، في الأشـهر

(١) صححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٦٩٧٥) وحسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٧٠) (وفي رواية: فيبهش إليه).

الأولى للطفل؛ لأنهم بذلك يضيقون واسعًا، بينما الأصل تحفيز البصر بكل الألوان بالفعل، وليس فقط الأبيض والأسود، ولا حتى الأبيض والأحمر فقط، فهناك كلام شائع أن الوليد لا يرى الألوان، بينما هو في نهاية الأسبوع الأول يرى كل الألوان لكن ليس بوضوح تام بعد فليس لديه دقة في التمييز بينها، ويتطور خلال الأشهر الأولى تراكميًّا.

Contrary to popular belief:

babies don't **only** see in black and white as newborns(١).

الترجمة: بعكس المعتقد الشائع: الأطفال ليس فقط يرون بالأبيض والأسود وهم في مرحلة حديثي الولادة.

At birth your baby sees only in black and white, and shades of gray.One week after birth the baby can see colors(٢)

الترجمة: عند الولادة يرى الطفل بالأبيض والأسود فقط وظلال الرمادي، وبمضي أسبوع منذ الولادة يرى الطفل الألوان.

لذلك جاءت توصيات بتحفيز بصرهم بكل الألوان الصارخة العالية في التباين بينها، فالأبيض والأسود خيار جيد نعم لكن لا نجعله الخيار الوحيد:

Encourage your child's development by providing toys and books with bold colors. In particular, your child may enjoy bright primary or rainbow shades-red, orange, green, blue, etc- versus more muted hues(٣)

(١) 

(٢) 

(٣) 

الترجمة: شجع نمو طفلك من خلال توفير الألعاب والكتب بألوان جريئة – على وجه الخصوص – قد يستمتع طفلك بظلال الألوان الأساسية أو ألوان قوس قزح الساطعة – الأحمر، والبرتقالي، والأخضر، والأزرق، وما إلى ذلك – مقابل درجات الألوان الأكثر كتمًا.

مع التذكير بأن اللون الأزرق يأخذ وقتًا أطول في تمييزه كما قلنا سابقًا.

حاسة السمع

جهاز السمع يكون مكتملًا والسمع يكون جيدًا إلى حد ما وليس بشكل كامل، فالجهاز السمعي كله لم يصل لمرحلة النضج الكاملة، فعند ولادة الطفل تكون هناك مادة سائلة في قناة معينة في الأذن تمنعه نسبيًا من الاستجابة السمعية الكاملة مؤقتًا، وهذا يجعل السمع عند الوليد لا يعمل بكفاءته التامة بعد، لكن عندما تختفي هذه المادة خلال أيام يستطيع أن يسمع الأصوات العالية الفجائية ويستجيب لها بحركات من جسمه، حسب تطور بقية النمو الطبيعي.

ورغم أن الوليد لا يسمع الأصوات المنخفضة، إلا أن حاسة السمع تعتبر من أقوى حواسه التي يعتمد عليها بشكل أساسي في التعرف على صوت الأم الذي ظل تسعة أشهر يحفظه ويحفظ ضربات قلبها، وكذلك في التعرف على بقية الأصوات عمومًا التي كان يسمعها، فتصبح وسيلته للتعامل مع العالم الخارجي أكثر من حاسة البصر التي لا تزال ضعيفة وتنمو تدريجيًّا مثل الوردة التي تتفتح أوراقها بروية، ففي هذه المرحلة لايزال يحب سماع صوت أمه وربما والده ويميزهما أكثر من بقية الأصوات، ويرتبط صوتهما لديه بالأجواء التي فيها طعام ونوم هنيء وأمان نفسي بشكل عام، لكن لا توجد استجابة «الالتفات ناحية الصوت» بعد، وبنفس الطريقة تكون الأصوات المحببة إليه ما كان يصله ذبذباتها وهو جنين، مثل صوت المكنسة، الخلاط، السيارات، الشوارع، ضوضاء معينة إلخ.

وبالطبع على رأس قائمة الأصوات المحببة تلك في حالة أننا قمنا بخطة تربية الجنين السابقة:

- **صوت القرآن، الآذان، الأذكار، الكلمات الطيبة المتكررة** التي نوهنا عن أهمية ترديدها على الجنين في نهاية الحَمل، فكلها تعيده بالذاكرة إلى الذبذبات التي كان يميزها وهو جنين في رحم أمه، بيت الأمان الأول بالنسبة إليه، لذلك تجد الغربيين قد اخترعوا ما يُسمى (white noise) وهي تسجيلات يكون فيها صوت مِكنسة، كركبة منزلية، أصوات بعض الناس العادية إلخ، ويضعونها بجانب الأطفال لأنهم وجدوا سبحان الله أن لها تأثيرًا نفسيًّا مماثلًا لتأثير صوت وضربات القلب وصوت تدفق الدم في الأوعية الدموية التي في الرحم.

وبالمناسبة: كان هناك مقطع مرئي انتشر مؤخرا، لطبيبٍ مدرس يُعلم الطلاب مهارة التفريق بين أصوات القلب والأوعية الدموية وغيرها، وكان ذلك الطبيب مبدعًا في تلك المهارة حفظه الله، فكانت الأصوات حقًّا وكأنها صوت تدفق للدماء في الأوعية، مثل صوت (ششششش) وصوت دقات القلب (دودوودودوم) وغيرها من الأصوات العجيبة داخل جسدنا التي لو وضعتم سماعة الطبيب ستسمعونها، والتي ألفها الجنين واعتادها، ولو لاحظتم أن صوت الهَدهدة الذي توارثناها أبًا عن جدٍّ ونُصدِرُه تلقائيًّا لتهدئة الطفل بين أيدينا وهو يبكي: (شش ششش ششش) يجعله يهدأ سبحان الله، لأنه صوت يشبه صوت تدفق الدم في الأوعية الرحمية وله نفس التأثير النفسي على الطفل، فهذا صوت علمي بالفعل فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[1].

---

(١) معلومة طبية شفهية مباشرة من طبيب الأطفال د. محمد مجدي، سبق التعريف به.

فمتى نشعر بالقلق على حاسة السمع عند الوليد لو لم يستجب للأصوات المرتفعة ولا يصدر منه ردود فعل حركية – انتفاضة – عند سماعها؟

البعض يقول: تظهر تلك الاستجابة بعد أول أسبوع، أي: نهاية مرحلة الوليد، والبعض يقول أسبوعان، فإذا تأخرت فالأفضل استشارة مختصين، والمراقبة للاطمئنان، لأن مشكلات السمع عند الأطفال يتم علاجها بسلاسة لو اكتشفت مبكرًا بفضل الله كما قلنا، وبفضل الله أصبح فحص السمع لحديثي الولادة خلال الأسبوع الأول من العمر من برامج الترصد الإجبارية في وزارة الصحة المصرية. ونتنبه ألا نعرض الوليد إلى أصوات مزعجة وصاخبة وشديدة وبشكل متكرر لأن ذلك قد يسبب فقدان سَمع مُكتسب، بأن يكون مولودًا بحاسة سمع سليمة وليس عنده فقدان سمع خَلقِي، ثم نُكسِبُه بهذه الأصوات الصاخبة فقدان السمع والعياذ بالله، فلنَحذر لأن حاسة السمع لا يخفى على أحد مركزيتها في التواصل والتخاطب والتعلم.

حاسة الشم

لا زال الوليد يميز رائحة أمه دونًا عن بقية الأشخاص، لاسيما وأن رائحة السائل الأمينوسي الذي كان يحيط الجنين هي نفسها رائحة الغدد العرَقية الموجودة في موضع الرضاعة عند الأم، سبحان ربي الودود وتباركت عنايته بالجوانب النفسية للوليد. كما يستطيع الوليد مباشرة بعد الولادة بحوالي ١٢ ساعةً التمييز بين الروائح المحببة والطيبة، والروائح الكريهة والمقززة، ويستطيع تمييز رائحة اللبن من البداية قبل إتمام الأسبوع.

حاسة التذوق

رغم أنها تنمو من أول شهور في مرحلة الجنين كما قلنا من قبل، إلا أنها لا زالت تتسم بالضعف، لكن بالإضافة إلى كون الوليد يمكنه أن يميز بين الروائح الطيبة والروائح الكريهة، فإنه كذلك يكون حساسًا لطعم المواد الحلوة والمواد المرة

سبحان الله، لأنه كما قلنا حين كان جنينًا كان محاطًا بالسائل الأمينوسي وهو سائل طعمه حلو، فالوليد يحب الحلو و ينفر من المر المالح، فمن جديد نسبح الخالق الودود الذي يتودد بالعطايا الملائمة، لمن لايزال بعد يتعرف على الدنيا، ولا ننسى أيضًا أن نكرر حمد الله على نعمة الإسلام الذي جعل من سنن المولود التحنيك بالتمر ما إن يتنفس أنفاس الحياة ويخرج للدنيا - كما سيأتي تفصيله في بقية خِطتِنا التربوية - بل وجعل لبن الأم في بدايته له طبيعة سُكرية، فسبحان الودود اللطيف في كل مرحلة من مراحل تطور نمو الإنسان.

حاسة اللمس

بالنسبة للوليد تكون حاسة اللمس أكثر قوة من الجنين بالطبع، فيكون حساسًا للحرارة والبرودة والملامسة الخشنة، ويشعر إذا حملناه ولامسناه ولاعبناه، وهناك استجاباتٌ نختبرها لديه: كأن نلمس شفتيه لمسًا خفيفًا نختبر به حركة المص، ونضع إصبعنا في بطن كفه نختبر به حركة قبضه على الأشياء؛ فحاسة اللمس تبدأ عن طريق الفم والجلد معًا، لذلك يُفضّل حملُه بين ذراعيك والتربيتُ عليه مع الاقتراب والنظر إليه، وهذا كله يدعم نموه النفسي والحسي والعصبي، فاللمس مرتبط بالاتصال السمعي والبصري كنوع من اللغة المتكاملة التي يفهمها، فهو يحفظ صوت ضربات قلب أمه كما ذكرنا ورائحتها وصوتها، فبمجرد أن تحمله يسكت ويهدأ - غالبًا إن لم يكن ثمة مشكلة - لأنه يسترجع الصوت والرائحة التي اعتاد عليهما في الرحم الذي عاش فيه تسعة أشهر كان يغمره فيهم الشعور بالأمان، وأثبتت أبحاثٌ أن الاتصال بالجلد وحرارته منشطٌ قوي ومحفز فعال للتوقف عن البكاء، إذن يستطيع الطفل إدراك الحنان واللطف والرحمة في التعامل معه، ما يطلقون عليه «الحوار باللمس»، لذلك فإن حاسّة اللمس مرتبطة جدًا بالنمو الانفعالي للوليد كذلك، وقد ثبت علميًا أيضًا أن مشكلات السلوك الخاصة ببعض الأطفال التي توجد فيما بعد تكون ناتجة عن فقدانهم للاتصال اللمسي مع الأم للأسف، وأوصى المختصون بالرِّقة في التعامل

مع المواليد منذ اللحظة الأولي؛ حتى في الحضّانات في المشافي أوصوا أن يكون فيها تلامسًا من وقت لآخر مع جسم الطفل يعوضه عن الأجهزة الباردة القاسية التي ليس بها دفء وليس بها تلامُسٌ حسيٌّ حقيقيٌّ حنون؛ ولو أن ندلّكُه فحسب، مما يساعده على الهدوء والاسترخاء، وينشّط الدورة الدموية ويساعد على تنشيط حركة الأمعاء.



٥- مظاهر النّمو العقلي

ذاكرة الوليد في حالة رائعة أكثر مما نتخيل، جزء الدماغ المسئول عن الذاكرة لديه يكون قد اكتمل بمقدار ٤٠٪، وهذا الذي يجعل الوليد يستطيع عند شم موضع الرضاعة، استرجاعَ صوت أمه وصوت جريان الأوعية الدموية في رحمها وصوت ضربات قلبها، من الذاكرة.

ومن مظاهر النمو العقلي والعصبي

صُراخ المولود وإصداره الأصوات العشوائية الغامضة المتكررة، وهذا من أبرز السمات بالطبع لهذا الكائن الحلزوني الصغير، أصوات مزعجة لا ريب وتدمر أعصابنا أحيانًا كما هو معروف، لكن هذا هو التواصُل اللغوي الوحيد الذي يتقنه الوليد حتى الآن، ويتحسن تدريجيًّا مع تطور النمو ثم يتحول إلى حروفٍ ثم كلماتٍ ثم جُملٍ، فسبحان من خلق الإنسان وعلمه البيان . فاصبري وأبشري، والله المُستعان على كل ذلك ونسأله ﷻ أن يقوّي درجات احتمال الأمهات وأن يرفع درجاتهن في الصابرين.

٦- مظاهر النمو اللغوي

ماذا؟! هل للوليد لُغة؟! نعم تتخيّلون! لديه لُغةٌ قام بتخزينها وهو جنين. هناك أبحاثٌ طبيةٌ معاصرةٌ تعلن اكتشاف أن بُكاءَ الطفل الألماني لُه لَكْنةٌ نُطقيةٌ مُختلفةٌ، والعربي لهُ لَكْنةٌ مُختلفةٌ، والياباني لُه لَكْنةٌ مُختلفةٌ، وهكذا؛ كل طفل له لكنّةُ بكاءٍ

مختلفةٌ عـن غيـره مـن الجنسيات الأخـرى[1].

ويؤكـد ذلـك الـكلام مـا ذكَرتـه دراسـة أجريـت علـى رُضَّـع أمريكييـن وآخريـن سـويديين، وجد فيهـا أن المولـود خلال السـاعات الأولـى يميز بيـن لغـة الأم التي اعتادهـا في رحمهـا وبيـن اللغـات الأخـرى.

وعـن كيفيـة تلك الدراسـة والتي شـارك فيهـا ٨٠ طفـلا تصـل معـدلات أعمارهـم إلـى ٣٠ سـاعة:

قامـوا بربـط مصاصـة الأطفـال المطاطيـة (اللهايـة) التـي كانـت ذات تقنيـة عاليـة، بحاسـوب يقـوم بقيـاس اسـتجابات المواليـد تجـاه الأصـوات، حيـث تـم إسـماعهم أصـوات حـروف العلـة مـن لغتهـم الأم وأخـرى مـن لغـة أخرى، وذلـك في الوقـت الـذي كان يقـوم المواليـد خلالـه بمـص اللهايـة المذكـورة، وتـم إحصـاء عـدد المـرات التـي قـام المواليـد فيهـا بمـص اللهايـة وربطوهـا بصـوت حـروف العلـة التي جذبـت انتباههـم بشـكل أكبر، ووجـد أن المواليـد مـن كلا البلديـن قامـوا بمـص لهاياتهـم لمـرات أكثـر عنـد سـماعهم للغـة الأم الخاصـة بهـم.

ذكّـرني هـذا بمقطـع مرئـي انتشـر مؤخـرًا علـى سـبيل الضحـك، لبُـكاء طفـل كـوري بلكنـة مختلفـة عنـا وكأنـه بـكاء بلسـان كـوري بالفعـل! وقلـت لنفسـي مرتابـة: المقطـع بالتأكيـد مُركَّـبٌ وغيـر حقيقـي! ولكـن بعـد تعلمـي أن للوليـد لغـة كوّنهـا بالسـماع وهـو جنيـن وتكـون بحسـب لغـة البلـد أو المحيـط الـذي نشـأ فيـه جنينًـا، اتضـح لـي أنـه مـن الممكـن جـدًا بالفعـل ألا يكـون المقطـع مركبًـا، سـبحان الله.

٧- مظاهر النمو الانفعالي

الوليـد يحـنُّ إلـى كل الأشـياء التـي كانـت في الرحـم، أول بيـت تربّـى فيـه ونَعِـمَ

(١) معلومة طبية شفهية مباشرة من طبيب الأطفال د. محمد مجدي، سبق التعريف به.

بالأمان، وأول حضنٍ تلقاه بدنه وروحه من بَشر، فبناءً على الذاكرة وتخزين الشعور سواء تجاه الأشياء التي كانت تصنع له البهجة أو العكس، يشعر بالحنين تجاه الأمور المبهجة في الذاكرة، ويشعر بالخوف والحزن عندما يفقدها، وكذلك عندما يشعر بالجوع أو الرغبة في المص وما شابه، يحس أيضًا بانفعال الوحدة، ويحس بالتعب والبلل أو الالتهاب أو الألم، يحس بالرغبة في الحركة والتنقل، يحس بالرغبة في «الكلفتة» – سبق شرحها – والضم الحاني بالملابس، مثل شعوره السابق في رحم الأم، يشعر بالبرد والحر والخشونة والنعومة وينفعل معها بالراحة أو الضيق إلخ، ويُتَرجَمُ هذا كله لانفعال «البكاء» أو "الزن"، فيسكُن بُكاؤه ويهدأ، لشعوره بالأمان والراحة النفسية إذا امتلك الأشياء التي تصنع له بهجة مماثلة لما اعتاده، وهذا هو تعبيره عن السرور حاليًا؛ أشياء مثل العطف والمُعاملة الحلوة والتربيت والهمس الحاني الرؤوف، ولفه في غطاء مُحكَم دون تقييد شديد لحركته بما يشبه ضمة الرحم له؛ إلى غير ذلك من مظاهر العطف الحسية.

كان هذا مرورًا سريعًا على سمات الوليد، وجزء يسير من نعم الله علينا، رب العالمين الذي يربينا على عينه منذ كنا نطفة في ظلمات الرحم، بالنعم والرعاية والترقي الصحي الآمن على كل مستويات البناء.

فماذا عن حقوق واحتياجات الوليد؟ في الفصل التالي بإذن الله.



الفصل الثاني

حقوق واحتياجات الوليد

هل حقا يُفَضَّل ألا نعطي فرصة للطفل أن يبكي أصلًا كما يفعل بعض الآباء؟ هل هذا صواب ومنطقي وواقعي عقلًا وشرعًا وصحيًا؟ هل اسم الطفل بهذه الأهمية التي نزعمها؟ هل كما يقال: ينبغي ألا نعوِّده على «الشِيل أو الحمل»؟ هل الرضاعة الطبيعية احتياج غذائي فقط؟ إذا أُهديت منحة مالية باسم المولود كهدية خاصة به، هل من حقي أن آخذها وأنفقها لنفسي؟ كيف هيأ الإسلام الأجواء الاحتفالية المبهجة لاستقبال هذا الكائن المدهش، بما يعزز نموه النفسي والاجتماعي والحسي والعقلي والديني؟ ما علاقة «التحنيك بتمرة» بإشباع الحاجات النفسية للوليد؟

وغيرها أسئلة كثيرة مع إجاباتها، تبين حجم كمال شرعنا وكفاءته لأن يكون هو الحق الذي لا يكون بعده إلا الباطل، ولا يَصلح غيره للإنسان، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].



المحور الأول

حقوق واحتياجات الوليد الدينية

أولًا: حق الوليد في تفعيل فطرته الإيمانية بمجرد بروزه للدنيا

١ - بالتزام الأهل بسنن المولود ذات الزوايا الدينية

المتأمل لسمات الوليد يجد كيف أنها من دلائل نبوة محمد ﷺ، فقد علمنا ﷺ سُننًا للمولود مُرتبطةً بقوّة بالحواس والنمو العصبي والعقلي وحُسنِ استغلال قدرات المولود كما سنبين، لذا كان مِن حقوق الطفل في الإسلام: الالتزام بسنن النبي ﷺ عند ولادته.

وكما قلنا سابقًا: هي تربية عملية للأهل أولًا قبل أن تكون للوليد، على الالتزام بحق الوليد في طاعتهم لله في كل شأنه منذ أول يوم وتطبيقهم لشرعه فيه والحفاظ على فطرته، لأن اعتياد الأهل على هذا من أول يوم هو عين المصلحة والمنفعة الحق للطفل على مدى مراحل عمره كلها، كما فصلنا في الباب الأول.

وسنن المولود تُشبِع جملة من الحقوق والاحتياجات، ففيها زوايا نفسية واجتماعية وأخلاقية وصحية وحسية في نفس الوقت، لا زاوية دينية فقط، وبعضها مشترك بين أكثر من محور، وفي هذا المحور سنركز على الزاوية الدينية، أي: ما يمثل منها تربية الوليد منذ أول يوم على التوحيد وسنن الفطرة، ثم نتناول بقية السنن في بقية المحاور حسب مواضعها، فمن سنن المولود النبوية ذات الزوايا الإيمانية:

تأذينه ﷺ في أذن الوليد فور الولادة:

بناء على ما قلناه في سمات المرحلة سواءٌ مرحلة الجنين أو الوليد فما عاد لدينا شك أن الوليد يسمع، وسواء أثبت العلم واكتشف أن الوليد يسمع أم لا، فنحن نطبق

حقوقه واحتياجاته التي تعلمناها من السنة، موقنين أن لها أثر وحكمة، وقد ورد أنه ﷺ قد أذّن في أذُن الحسين بن عليّ وليدًا، والحديث حَسَّنَه بعضُ أهل العلم بمجموع طرقه، وقال الشيخ عثمان الخميس أنه وإن كان الحديث فيه ضعف أو لا يثبت سنده إلا أنه مُشتَهَر وجَرَى عليه عملُ أهل السلف بلا إنكار فهو ثابت بفعل سلف الأمة وإن لم يثبت كحديث نبوي، فالأفضل أن يؤذن، وأوردَه ابنُ القيم مُقرًا بالعمل به، في كتابه «تحفة المودود بأحكام المولود»[1].

الحديث: عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ أذَّن في أذنِ الحسنِ بنِ علي حين ولدتْه فاطمةُ، بالصلاة»[2].

وفي ذلك إشارة قوية إلى حرصه ﷺ على تربية الأبناء على العبودية من أول يوم، فيكون أول ما يطرق سمع الوليد كلمات التوحيد، قال ابن القيم: «وسر التأذين ـ والله أعلم: أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلماته المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا، كما يُلَقَّن كلمة التوحيد عند خروجه منها، وغيرُ مُستنكرٍ وصولِ أثرِ التأذين إلى قلبه، وتأثرِهِ به وإن لم يشعُر، وفيه معنى آخر وهو أن تكون دعوته إلى الله وإلى دينه الإسلام وإلى عبادته سابقة على دعوة الشيطان، كما كانت فطرة الله التي فطر الناس عليها سابقة على تغيير الشيطان لها ونقله عنه»[3].

تعرفون حين نستلم هاتفًا ذكيًا جديدًا؟ بـ «كرتونته» كما نقول بالمصرية؟ ما هو أول شيء نفعله مع هذا الجهاز بمجرد فك العبوة؟ نحمله أولًا بحرص شديد مخافةَ أن نخدشه، ثم نضعه في الشاحن عدد الساعات المطلوبة قبل أول استعمال، حسب

---

(١) من فتاوى الشيخ المرئية، بعنوان «ما هي السنن للمولود» و»هل ثبت الآذان في أذن المولود؟»، وبعض فتاوى العلماء الأخرى.

(٢) سنن الترمذي (١٥١٤) –خلاصة حكم المحدث: حسن صحيح | وفي سنن أبي داود (٥١٠٥)، خلاصة حكم المحدث سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح].

(٣) بتصرف يسير، من كتابه تحفة المودود بأحكام المولود.

الإرشادات المعهودة والمتكررة مع كل جهاز جديد، كذلك الوليد؛ له عناية خاصة منذ أول يوم جاءنا فيه بـ«كرتونته» - إذا صح التعبير - بفطرته السليمة، أول شحن لها هو: (الأذان)، وهذا أول تفعيل للفطرة الإيمانية فيه. وحديث «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانُه أو يُنَصِّرانُه»، فيه إشارة واضحة لتأثر المولود بتدخُّل والديه في حواسِه بالمدخَلات بالفعل، أي أنه مهيأٌ للتلقي عنهما وفطرتُه مهيأة للاستقبال كذلك منذ ولادته، هما وكل المحيط الخارجي للوليد؛ ففي إسماع الوليد للأذان: تفعيل لفطرته الإيمانية وحثٌّ للوالدين على بدء اغتنامها واستغلالها منذ اللحظات الأولى للملء الإيماني المطلوب لهذه النفس.

أدركنا لماذا الامتنان للوالدين يبدأ مبكرًا جدًا؟ تتذكرون حين قلنا معنى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤]، ومدى عمقه؟ أي: كما نمّياني باستقامةٍ وصبرٍ وصانا فطرتي ونمَّياها وزكَّياها منذ أول يوم؟ كل هذه الصفحات ولا زلنا نتكلم فقط في أول احتياج ديني للوليد بمجرد بروزه إلى الدنيا، وهو التأذين في أُذنه بتوحيد خالقِه ومُوجِدِه.

۞ ويفضل التأذين فور الولادة - لأسباب سنذكرها في موضعها في فصل الحقوق التحصينية.

۞ لكن بالنسبة للإقامة في الأذن اليسرى للوليد، فأحاديثه ضعيفة جدًّا(١).

٢- بإسماعنا للمولود دعائنا له كما كان يفعل النبي ﷺ

فكما استقبل المولود بأذنه التأذين، يستقبل كذلك دعاءنا له وما فيه من ذكر لله وتعظيمه وتكرار الرجاء فيه إلخ، كل ذلك يتراكم في خزانات الذاكرة السمعية، وقد فعله النبي ﷺ مرارًا:

۞ قالت أسماء بنت أبي بكر أَنَّهَا حَمَلَتْ بعَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ بمَكَّةَ قالَتْ:

(١) قد يُؤخَذُ بالحديث الضعيف أحيانًا بشروط، ولكن الحديث الضعيف جدا يُترَك تمامًا فمن شروط الأخذ بالضعيف ألا يكون شديد الضعف.

«فَخَرَجْتُ وَأَنَا مُتِمٌّ - أي أتمت شهور الحمل وتنتظر الولادة- فأَتَيْتُ المَدِينَةَ فَنَزَلْتُ بقُبَاءٍ فَوَلَدْتُهُ بقُبَاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ النبي ﷺ فَوَضَعَهُ في حجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ في فِيهِ، فَكانَ أَوَّلَ شيءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ النبي ﷺ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بالتَّمْرَةِ، ثُمَّ دَعَا له وَبَرَّكَ عليه - أي: دعا له بالبركة وغيرها من الخير - وَكانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ في الإسْلَامِ»[1].

۞ وقالت عائشة: «أنَّ النبي ﷺ كانَ يُؤْتَى بالصِّبْيانِ فيُبَرِّكُ عليهم ويُحَنِّكُهُمْ»[2].

وقال أبو موسى الأشعري: «وُلِدَ لي غُلَامٌ، فأتَيْتُ به النبي ﷺ فَسَمَّاهُ إبْرَاهِيمَ، فَحَنَّكَهُ بتَمْرَةٍ، ودَعَا له بالبَرَكَةِ، ودَفَعَهُ إلَيَّ»[3].

۞ هذه الدعوات كلها كانت في وجه الوليد كما رأيتم، والحديث الأخير يؤكد ذلك أكثر، ففيه أنه ﷺ بعدما دعا له بالبركة «دفعه إلى أبيه»، أي دعا له وهو يحمله بين ذراعيه الشريفتين ﷺ مقتربًا بوجهه وصوته من حواسه الوليدة، فسبحان من أرشد نبيه إلى مصالح الصغار والكبار على حد سواء. وفي هذه المسألة تلبية لاحتياجات المولود النفسية أيضًا وتعزيز لبنائه اللغوي كذلك، لا الديني فحسب، كما سنبين في بقية المحاور تباعًا بإذن الله.



ثانيا: حق الوليد في التزام أهله بسنن المولود المتصلة بسنن الفطرة

وسيأتي تفصيل كل ما يخص الفطرة بإذن الله وماذا يخدشها وكيف ننميها ونصونها، في فصول ملء الرضيع بإذن الله، ولكن نقتبس منها هنا مؤقتًا ما يناسب المقام لأهميته، سنن الفطرة هي عبارة عن السنة القديمة التي اختارها جميعُ الأنبياء

(١) صحيح البخاري: ٣٩٠٩، صحيح مسلم: ٢١٤٦.
(٢) مسلم (٢١٤٧).
(٣) البخاري (٥٤٦٧).

واتفقت عليها جميع الشرائع، كأنها أمر عظيم جليل قد فُطِروا عليه جميعًا ولا يصح أن يُستَثنى فيه منهم أحد، وهم أزكى البشر بلا منازع، فهي «السُنة»، وقيل هي «الدين».

لكن هي بشكل أو بآخر من خِصالِ النظافة وكمال الهيئة والجمال للبدن، لذلك فإن فيها خِصالًا كثيرة، أبرزها عشرة: «قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء (المراد: الاستنشاق والاستنثار، وهما: إدخال الماء في الأنف وإخراجه من أجل تنظيفه)، وقَص وتقليم الأظافر،وغسل ثنايا جلد الأصابع، ونتف الإبط، وحلق العانة (وهو الاستحداد)، وانتقاص الماء (وهو الاستنجاء بعد التبول والتبرز)، والمضمضة، والختان»[1].

فمن الحفاظ على سنن الفطرة وخِصال النظافة والجمال في الوليد - والتي هي ضمن منظومته الدينية لاتصالها بسنن الفطرة وهي كذلك من **سُننِ المولود** - أن نصنع معه **أمرين**:

*** أولهما: الختان**

وهو الختان المعروف، مبسوط شرحه في كتب الفقه، ويُرجَع في كيفية تطبيقه إلى أهل الطب والاختصاص، وذكرناه هنا في المحور الديني لاتصاله فيما بعد بالطهارة التي يترتب عليها قبول العبادات من عدمه، واتصاله بشكل عام بسنن الفطرة التي لم يفارقها أحد من الأنبياء، وزوايا أخلاقية أخرى، أي أن له زوايا دينية وأخلاقية، ولنا وقفة أخرى معه أخرى في المحور الصحي، قال النبي ﷺ: «خَمْسٌ مِنَ الفِطْرَةِ»، وذكر منهن: «الخِتَانُ»[2].

*** ثانيهما: تنظيف بدنه ورأسه من القَذَر**

---

(١) كلها بالجمع بين أحاديث سنَن الفطرة الثابتة عن النبي ﷺ وهي كثيرة.
(٢) البخاري (٥٨٨٩).

لحديث النبي ﷺ: «معَ الغلامِ عقيقتُه فأهرقوا عنهُ دمًا وأَميطوا عنهُ الأذَى»[1].

فكلمة «الأذى» في الحديث لها تفسيران، أحدهما أنه القذر الذي على بدن المولود ورأسه، لرواية أوردها ابن حجر: «ويُماطُ عنهُ أقذارُه في العقيقة»[2].

ويقابل هذا في زماننا تحميم المولود بالصابون الطبيعي جيد الرائحة وتعطيره بالروائح والمطيبات المناسبة لبشرته، قال الشيخ المنجد: «كل ذلك كي يعتاد الوليد وبدنه مبكرًا النظافة وجمال الرائحة حيث يدهن رأسه بالزعفران وهو ذلك الماء طيب الرائحة». بالإضافة إلى إشباع جانب نفسي هنا، وهو اعتياد الطفل نفسيًّا منذ أول أيامه في الدنيا على إماطة أهله ومَن حولَه للأذَى عنه ومسحهم إياه عن بدنه.

إلا أننا ننبه إلى ضرورة الاكتفاء في أول يوم للوليد بمسح الأذى عن بدنه بقطن مثلًا فقط في البداية وعدم تحميمه أو تغسيله قبل مرور ٢٤ ساعة أو على الأقل ٦ ساعات منذ لحظة ولادته، لأن تأخير التحميم التام إلى ما بعد إزالة الأذى بقطن نظيف، يقلل من حدوث نقص الحرارة ونقص الأكسجين ويؤدي إلى تجنب جفاف الجلد، فمادة الـvernix التي تكون على جلد الوليد لحظة ولادته لها طبيعة ترطيبية وتعتبر مضادًا للبكتريا أيضًا سبحان الله، كما يُنصح بملامسة جسم المولود لأمه والتصاقه بجلدها أول يوم ولادته لمساعدة ذلك في نجاح الرضاعة، حيث أثبتت دراسة أمريكية أن تأخير الاستحمام لمدة ١٢ ساعة أدى إلى نجاح الرضاعة بنسبة ١٦٦٪!

ومن تنظيف الرأس كذلك: حلق الشعر، وهي من سنن المولود، سواءٌ كان ولدًا أو بنتًا:

(١) صححه النووي-المجموع للنووي (٨/ ٤٤٨) | وصححها شعيب الأرنؤوط (١٧٨٧١) | وأخرجه البخاري معلقاً بعد حديث (٥٤٧١) مختصراً، وأخرجه موصولاً أبو داود (٢٨٣٩) مختصراً، والترمذي (١٥١٥، ٦٥٨) مفرقًا، والنسائي (٤٢١٤، ٢٥٨٢) مفرقًا، وابن ماجه (١٨٤٤، ٣١٦٤) مفرقًا، وأحمد (١٦٢٣٤) واللفظ له.

(٢) فتح الباري لابن حجر الصفحة أو الرقم (٩/ ٥٠٧) خلاصة حكم المحدث: له طرق.

لنفس الحديث المذكور سابقًا: «أميطوا عنه الأذى»، فهذا هو التفسير الثاني لكلمة «الأذى» في الحديث عند بعض الفقهاء، أنه هو الشعر المولود به الوليد[1]، ومعلوم أن الأذى مفسدة وقلنا إن الشريعة جاءت لجلب مصالح البشر ودفع المفاسد عنهم، ومن هنا لزم دفع الأذى والمفاسد عن الصبي، بخاصة وهو في المرحلة التي يعجز فيها عن التعبير عن نفسه، فيُحلق رأسه ويتم تنظيفها من القذر وغسلها وتطييبها بروائح زكية.

ومن تمام إماطة الأذى عن الوليد منذ أول يوم، ألا يكون الحلق قزعًا:

القزع: هو أن يُحلَقَ رأسُ الصبي ويُترَكَ منه مواضع متفرقة غير محلوقة تشبيهًا بـ (قزع السحاب) وهي قطع السحاب المتفرقة، فالمطلوب هو أن يكون الحلق من جميع الرأس، لنهي النبي ﷺ عن تشويه رأس الصبي بالقزع، قال ابن عمر: «سَمِعْتُ النبي ﷺ يَنْهَى عَنِ القَزَعِ، قالَ عُبَيْدُ اللهِ: قُلتُ: وما القَزَعُ؟ فأشَارَ لَنَا عُبَيْدُ اللهِ قالَ: إذَا حَلَقَ الصَّبِيَّ، وتَرَكَ هَاهُنَا شَعَرَةً، وهَاهُنَا وهَاهُنَا، فأشَارَ لَنَا عُبَيْدُ اللهِ إلى نَاصِيَتِهِ وجَانِبَيْ رَأْسِهِ»[2]، وفي رواية، أي: «يحلق بعض رأس الصبي ويترك بعض»[3].

لأن حلق البعض وترك البعض الآخر:

۞ يتنافى مع الشخصية الإسلامية التي يتميز بها المسلم عن بقية الملل والمعتقدات، وعن سائر أهل الميوعة والانحلال، ففيه تشبه بالكفار وأهل الفسق لأنه بالفعل مستورد في زماننا من قِبَلِهم.

۞ يتنافى مع ما تعلمناه من الشريعة، من مبدأ العدل عمومًا في التعامل مع البدن: فمثلًا نحن منهيون أن نقعد ونصف بدننا في الظل والنصف الآخر في الشمس، أو أن نمشي في نعل واحدة دون الأخرى، فإما نخلعهما معًا أو نلبسهما معًا، وهكذا.

---

(١) وفي شرح الحديث على الدرر السنية: وإماطة الأذى: بحَلْقِ الشَّعرِ الَّذي وُلِدَ به، وإزالةِ أثَرِ الولادةِ، وما يَخرُجُ على جَسَدِهِ مِن أثَرِها.
(٢) البخاري (٥٩٢٠).
(٣) مسلم (٢١٢٠).

نقاط إضافية تخص حلق الشعر

١- ينبغي ألا ننفر من تفعيل تلك السُنة، ونقول «لا لا لن نحلق! سيكون الولد أصلعَ هكذا وهذا مقزز أو مؤلم ومقبض!»، أي نعم هي سُنة وليست بواجبة، لكن ينبغي أن نستشعر المسئولية كآباء ومربين عن احتياجات الوليد ونلبيها، محتسبين الأجر من الله، ثم إنها فترة قصيرة وسرعان ما سينبت بعدها الشعر، فلا داعي للقلق.

٢- اختلف الفقهاء حول حكم حلق شعر الأنثى كالصبي، فمنهم من اعتبره أمرًا منهيًّا عنه لعموم النهي عن حلق المرأة لشعرها، ومنهم من قاسه على حلق شعر الغلام لعموم لفظ المولود، وبعضهم قال حسب المصلحة، (وهو كلام الشيخ المنجد)[١]، وأهل الطب قالوا إن حلقه للأنثى كذلك أفضل، (وهذا من كلام للشيخ عثمان الخميس)[٢].

٣- توقيت الحلق يكون آخر يوم في مرحلة الوليد: السابع، قال النبي ﷺ: «كلُّ غلامٍ رهينةٌ بعقيقتِه، تُذبَحُ عنه يومَ سابعِه ويُسمَّى فيه، ويُحْلَقُ رأسُه»[٣].

٤- التصدق بوزن شعره -تقريبًا- فضةً أو ذهبًا أو ما يقابلهما، قال ﷺ: «يا فاطمةُ احلِقي رأسَه وتصدَّقي بزِنةِ شعرِه فضَّةً فوزنَّاهُ فَكانَ وزنُه درهمًا أو بعضَ درهَمٍ»[٤].

وأنصح بمطالعة بقية تفاصيل آداب سنن المولود في كتاب **«٤٣ فائدة في أحكام المولود» للشيخ المنجد**، مبسط وسهل وقليل الصفحات، ومتاح على موقعه.

---

(١) فتوى مرئية له بعنوان: «حكم حلق رأس المولودة الأنثى».
(٢) فتوى مرئية له بعنوان: «هل يؤذن للمولود ويحلق رأس المولودة».
(٣) صححه الألباني-إرواء الغليل (١١٦٥-١١٦٩)، وصحيح أبي داود (٢٨٢٣).
(٤) حسّنه ابن حجر العسقلاني-هداية الرواة (٤/ ١٣٧) | أخرجه الترمذي (١٥١٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٤٧١٦)، والحاكم (٧٥٨٩) باختلاف يسير.

ثالثا: حق الوليد في تجنيبه عادات الجاهلية والاكتفاء بسنن الإسلام للمولود

غيَّر النبي ﷺ عادة الجاهلية في الاحتفال بالوليد فماذا كانوا يفعلون؟ كانوا يذبحون شاة ويلطخون رأس الوليد بدمها. ويفعل شيئًا مثل ذلك: النصارى، حيث يضعون ماءً معمدًا على رأس الوليد لكي يتخلص من خطيئة سيدنا آدم عليه السلام بزعمهم! وكل ذلك ومثله، عادات جاهلية أبدلتها الشريعة وجاءت بسُنّة من سُنن الفطرة وخِصال الجمال، وأبدلتْ الدم بماء به عطر غير مُضرّ لرأس المولود، قال بريدة بن الحصيب الأسلمي: «كنَّا في الجاهليَّةِ إذا وُلِدَ لأحدِنا غلامٌ ذبحَ شاةً ولطخَ رأسَهُ بدمِها فلمَّا جاءَ اللهُ بالإسلامِ كنَّا نذبحُ شاةً ونحلقُ رأسَهُ ونلطِّخُهُ بزعفرانٍ»[1].

وعن عائشة تقول: «وَكانَ أَهْلُ الجاهليَّةِ يجعَلونَ قطنةً في دمِ العقيقةِ، ويجعلونَها على رأسِ المولودِ، فأمرَهُم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن يجعلوا مكان الدَّمِ خَلوقًا»[2]. ولنا كلام عن العقيقة في موضعها.

ونُكرر مرة أخرى أن كُل هذا هو من شدة اهتمام النبي ﷺ بالطفل وحرصه على مصلحته الموافقة للمصلحة الشرعية وحسن تربيته لأبائهم على اجتناب كل ما لهُ علاقة بالجاهلية والتمسُّك بالسُّنّة من أول يوم، بالتالي أي جاهلية حديثة تُرتكب في زماننا عند استقبال الوليد تخُص بدنهُ بشكل عام أو أي أمر آخر، يجب تركها.

بهذا أكون قد أنهيت ما أمكن من الحقوق الدينية للوليد، فماذا عن حقوقه التحصينية؟

هذا ما سنتعرف عليه في المحور التالي.

---

(١) قال الألباني: حسن صحيح-صحيح أبي (٢٨٤٣).

(٢) صححه الألباني (٤/ ٣٨٩) | وصححه الصنعاني-سبل السلام ((٤/ ١٥٠) | وصححه ابن حجر-التلخيص الحبير (٤/ ١٤٩٩).

المحور الثاني

حقوق واحتياجات الوليد التحصينية

نعني هنا بشكل خاص: تحصينه من الشيطان، عدوه اللدود منذ أول بروز له من بطن أمه إلى الدنيا، وإلى أن يعود إلى بطن الأرض، بعد عمر مبارك في طاعة الله؛ بل من قبل تكونه في بطنها كما تكلمنا في فصول الجنين، أما التحصين من الأضرار الحسية البدنية فضمن المحور الصحي.

وتحصين الطفل هو أحد جوانب «الحماية له»، التابعة لحق الولاية الشخصية على الطفل، والتي هي من أضخم حقوقه التي يأثم الأهل بالتفريط فيها، كما سنفصِّل تباعًا.

أولا: حق الوليد في التزام أهله بسنن المولود ذات الزوايا التحصينية

١ - ومنها التأذين في أذنه اليمنى فور ولادته:

ذكرناه في المحور الديني مرتان لما فيه من غرس للتوحيد في الوليد وتفعيل فطرته الإيمانية، ونذكره هنا لما فيه من زوايا تحصينية للوليد مِن الشيطان، فالشيطان يلكز المولود عند ولادته، والتأذين هو بمثابة لكزة مضادة لإغاظة وطرد الشيطان الذي يعادي هذا المولود منذ أول يوم:

- قال أبو هريرة: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما مِن بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِن مَسِّ الشَّيْطَانِ، غيرَ مَرْيَمَ وابْنِهَا، ثُمَّ يقولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: ﴿وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦]»[١].

أي أن كل المواليد، يمسهم الشيطان بنزغة بيده، أي: قرصة وطعنة بإصبعه في

(١) البخاري (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦).

جنبهم، فيصرخ الوليد منها، فصراخ الإنسان الأول في الدنيا هو بسبب طعنة الشيطان له... أيُّ استقبالٍ شيطانيٍ عامرٍ بالحفاوة هذا لابن آدم!

إلا مريم وابنها، عصمهما الله من تلك القرصة عند مجيئهما للدنيا، بدعوة جدته له ولأمِّه - وهذا يبين لنا أهمية دعائنا للذرية بإخلاص نية لله، فلما جاء إبليس ليطعن عيسى عليه السلام جعل الله بينهما كالحجاب، فجاءت طعنته في هذا الحجاب، أو صار كيس الجنين حجابًا للجنين عن الطعنة[١].

«ولا يُعارَضُ تَفسيرُ بُكاءِ الطِّفلِ بمَسِّ الشَّيطانِ أو طَعْنِه، بما يُذكَرُ مِن بَعضِ الأسبابِ الطَّبيعيَّةِ، كتَأثُّرِ الوليدِ بدُخولِ الهواءِ إلى رِئَتِه مثلًا؛ فالبُكاءَ قدْ يكونُ له أكثَرُ مِن سَببٍ، وإذا كان الأمرُ كذلك فإنَّما يَهتَمُّ الرَّسولُ ﷺ ببَيانِ ما هو أهمُّ؛ لِما فيه مِن تَنبيهِ النَّاسِ على التَّحرُّزِ مِن الشَّيطانِ»[٢].

وبالطبع، فإن ذلك ينبه الأهل إلى شدة العداوة بينه وبيننا وبين ذريتنا إلى يوم البعث، وأنها ستكون منذ أول يوم يتنفس فيه وليدهم أنفاس الحياة، لكي ينتبهوا أكثر إن لم يكونوا قد انتبهوا بعد للأمر الجلل الذي هم بصدده.

والأذان يجعل الشيطان يولي مدبرًا: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ». - وفي رواية[٣]: «وله حصاص» - وهو: الجري الشديد - حتَّى لا يَسْمع التَّأْذِينَ»[٤]، قال ابن القيم استكمالًا لكلامه عن فوائد سنة التأذين: «فائدة أخرى وهي هروب الشيطان من كلمات الأذان، والذي كان يرصده وهو يولد، فيُسمِع شيطانَه ما يضعفه ويغيظه أول لحظات تعلقه به»[٥].

---

(١) من شرح الدرر السنية للحديث.
(٢) شرح الدرر السنية للحديث.
(٣) صححها شعيب الأرنؤوط -تخريج سنن ال دارقطني ١٤٠٤).
(٤) البخاري (٦٠٨)، صحيح مسلم:٣٨٦).
(٥) تحفة الودود في أحكام المولود-لابن القيم.

ففي الزاوية التحصينية للتأذين إشارة واضحة للأهل إذن:

- بالانتباه الشديد منذ أول لحظة، من أي غفلة محتملة عن هذا العدو اللئيم الرجيم: الشيطان.
- وبالفرار إلى الله منه منذ اللحظة الأولى في تربية الوليد.
- وفيه غرس لكراهيتهم له في قلوبهم منذ أول يوم وتفعيل التربص به لمواجهة إيذائه دومًا بهجمات مضادة واستباقية.

كل هذا والأهل لا زالوا بعد في أول لحظات التناول لهذا الضيف الجديد بين أيديهم، لأجل ضمان حسن وجِدية تأهبهم والتزامهم منذ اللحظات الأولى بكافة الإجراءات الدينية والتحصينية اللازمة لصيانة هذه النفس وسلامة عيشها في الحياة، من هذا العدو الذي يسعى لإحزانها وإيذائها، ولذلك يفضل - إن أمكن كما قلنا سابقًا - الاجتهاد في التأذين مباشرة فور بروز رأس الوليد وأذنيه، وبما أن في تلك اللحظات غالبًا يكون الأب خارج حجرة الولادة، فمن الممكن أن يوصِي الطبيبة المسئولة عن الولادة بالتأذين مباشرة فور بروز أذني الطفل قدر الإمكان في غير حضور الرجال بالطبع، أو يُطلب من الطبيبات المشرفات على الولادة السماح للأب بالحضور ليُؤَذِّن هو بنفسه.

لأن الأذان والإقامة من أعمال الرجال في الأصل، فإن تعذر تأذين رجل، فيمكن للأم أن تؤذن في أذن وليدها، لكن بصوت خافت لا يصل إلى الرجال[1].

وإن تعذر التأذين فور الولادة، فلا بأس بعدها بقليل، فعلى كل حال: صوت الأذان يغيظ إبليس، فكما أغاظ هذا الرجيمُ وليدَنا، فمن حق وليدِنا علينا أن نغيظَه بالمثل، ونُرِيَ شيطانَه منا حراسةً متينة له منه بالتوحيد منذ أول يوم، وقد ذكر بعض المختصين، أن بعض الأطباء النفسيين في بلاد الغرب سبحان الله يعالجون مرضاهم

(١) حسب كلام بعض العلماء، كالشيخ خالد المصلح في فتوى مرئية بعنوان «هل يصح للمرأة أن تؤذن في أذن المولود؟».

بـالأذان، ويقولـون أنهـم يلاحظـون عليهـم الهـدوء والطمأنينـة واسـتقرار النفس ومـا إلـى ذلـك، وهـو مـا لا يجدونـه لـو كانـوا يسـتعملون الموسـيقى[١].

رأيتـم في فصـل سـمات الوليـد الاسـتقبال الـذي هيـأه الله ﷻ لنـا في أسـبوعنا الأول في الدنيـا، كيـف كان؟ ورأيتـم الآن اسـتقبال عـدوه وعدونـا لنـا كيـف هـو؟ صـدق الله إذ قـال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، وشـتان مـا بيـن اسـتقبال ولـيٍّ رءوف رحيـم، وعـدو حسـودٍ رجيـم، والحمـد لله رب العالميـن علـى وُدِّه ولطفـه بعبـاده.

٢- ومنها العقيقة

فمـن فوائدهـا: فـكّ رِهـان المولـود مـن أسـرِ الشـيطان، قـال النبـي ﷺ: «كُل غُـلام مُرتهـنٌ بعقيقتـه تُذبـح عنـهُ يـوم السـابع»[٢]. مُرتهـن: أحـد معانيهـا أنـه يفـك تسـلُّط الشـيطان عليـه، وذبـح العقيقـة يكـون في يـوم السـابع كذلـك، آخـر يـوم في مرحلـة الوليـد، فـإن لـم يكُـن ففـي الرابـع عشـر، وإلا ففـي الحـادي والعشـرين كمـا قـال ﷺ: «العقيقـةُ تُذبَـحُ لسـبعٍ، أو لأربـع عشـرة، أو لإحـدى وعشـرينَ»[٣].

فما معنى العقيقة؟ لها معنيان:

- هـي الشـعر الـذي يولـد بـه المولـود، سـواء المولـود مـن النـاس أو الأنعـام، والـذي ينبُـت لـه وهـو في بطـن أُمـه، ويمـاط عنـه يـوم السـابع.
- أو هي الذّبح الذي يُذبح عن الوليد يوم السابع.

فالأصـل في معناهـا اللغـوي أنهـا شـعر المولـود، ثـم أسـمت العـرب الذّبيحـة عقيقـة

(١) من شرح الشيخ خالد السبت للحديث في درس بعنوان: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان» على موقعه.
(٢) صححه الألباني-صحيح ابن ماجه (2580) | وصححه ابن باز-فتاوى نور على الدرب (١٨/ ٢٣٦).
(٣) صححه الألباني-صحيح الجامع- أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»(٤٨٨٢)، والبيهقي (١٩٧٧١)، والديلمي في «الفردوس»(٤٢٣٢) وقال ابن القيم في تحفة المولود: «والظاهر أن التقييد بذلك استحباب ـ أي باليوم السابع ـ وإلا فلو ذبح عنه في الرابع أو الثامن أو العاشر أو ما بعده أجزأت» وبقية آداب وشروط العقيقة ومواصفاتها غير متصلة بملفنا تربية الطفولة بشكل مباشر، فأتخطاها لغيرها.

عند حلق شعر المولود على عادتهم في تسمية الشيء باسم السبب الخاص به، أو ما يُجاورُه أو الذي له علاقة به في الزمان أو المكان أو المناسبة إلخ، فأصبحت تُطلق على الذبيحة التي نذبحها عند حلق شعر الوليد، والاثنين في يوم واحد سبحان الله: (السابع)، نهاية مرحلة الوليد.

فالعقيقة تفكّ رهن المولود، وأيضًا بها معنى الفِدية، يُفدَى بها كما فدى الله إسماعيل الذبيح ﷺ بالكبش، ولها مقاصد اجتماعية عديدة فليست فوائدها تحصينية فحسب، كما ستقرأون معنا في المحور الاجتماعي، لدرجة أنه لِعظيم قدرِها وأثرها، قد دعا الإمام أحمد لمن استقرضَ لشرائها، (أي: من اقترض مالًا ليشتري ويصنع العقيقة لوليده) دعا له أن يُخْلِف الله عليه، لأنه أحيا سُنة.

وهنا نتساءل مجددًا: أي دين هذا؟ وأي عناية تلك؟ وأي تربية للأهل هذه وحثٍ دؤوب لهم على الاجتهاد في فكّ رهان الوليد من كُلّ ضُرّ وبكل الوسائل؟ وأي تودد من الملك الودود ﷻ لهذا الضيف المكرم، العاجز عن تحصيل حقوقه بنفسه وإشباع احتياجاته بنفسه أو حتى التعبير عنها، فيُسخر له كلَ من حوله بكل هذه الأدوات والوسائل والسبل؟ الحمد لله مرارًا على تربية الإسلام.

ثانيًا: حق الوليد في الدعاء له، واستجلاب دعاء أهل الصلاح له

وهذه تختلف مقاصدها عن (إسماع الوليد دعائنا له في وجهه)، والتي ذكرنا جانبًا منها في المحور الديني، فالمقصود هنا هو: الدعاء له بشكل عام سواء كان الوليد يسمعنا أو لا يسمعنا، قريبًا منا أو بعيدًا عنا، بالإضافة إلى استجلاب دعاء خيرة الناس له كذلك، لما في ذلك من تكثيف التحصين، وقد ورد في نصوص عدة من الوحيين الدعاء للوليد بشكل خاص، حرصًا من الشريعة أن ينال من حفظ الله ﷻ أكثره وأطيبه، ذكرناها في المحور الديني، فنكتفي بذكر واحد منها هنا ويرجع لبقيتها هناك، قَالَتْ عَائِشَةُ: «أنَّ النبي كانَ يُؤْتَى بالصِّبْيانِ فيُبَرِّكُ عليهم ويُحَنِّكُهُمْ»(١).

(١) مسلم (٢١٤٧).

ملحوظة هامة:

من أدعية السلف بالبركة للمولود أثار تروى عن التابعين، منها عن الحسن البصري أنه سأله رجل عن التهنئة كيف أقول، فقال: «قل جعله الله مباركًا عليك وعلى أمة محمد ﷺ»، وحتى الأثر الآخر المشهور: «بورك لك في الموهوب وشكرت الواهب وبلغ أشده ورزقت بره»، يُروَى كذلك عن الحسن البصري رحمه الله لكن لم يثبت عنه بسند صحيح، لكن كلها تُروى كآثار عن السلف على سبيل كلمات طيبة تقال – إن قيلت – في تلك المناسبة، فهي أفضل من استعمال بعض الألفاظ المخترَعة التي لم ترد لا عند علماء السلف ولا الخلف، مثلما يقال: «يتربى في عزك أو اللي جابلك يخليلك أو اسمع كلام أمك وما تسمعش كلام أبوك»، و «بالرفاه والبنين» والتي هي من أقوال الجاهلية التي غيّرها النبي ﷺ لأنها تدعو بالذرية الذكور فقط دون الإناث». كلام بعضه فيه جاهلية، بجانب خلوه من قرع الآذان بكلمات الدين والتوحيد ومن إرجاع الفضل والشكر لله على نعمة المولود ورجاء رعاية الله له.

على أننا لا نلتزم بمقولات السلف هذه وكأنها أحاديث نبوية. ويباح أن ندعو بما نشاء من صنوف الخير للوليد، و«خير الآخرة» دوما هو أعظم أهدافنا، إلى جانب جملة من العناوين، نذكرها مؤقتا كرؤوس أقلام فقط على أن نفصلها في فصول الرضيع، تحاشيا للتكرار لاشتراكها معه فيها بالإضافة إلى أخرى غيرها تناسب الرضيع أكثر، وهي كالتالي:

ثالثًا: حق الوليد في تحصينه بالرقية

رابعًا: حق الوليد في تحصينه ضد سائر مداخل الشيطان الأخرى

فهناك نماذج تحصينية عامة حثنا ﷺ على اقتفائها، ومن حق الوليد أن نشمله بما يناسبه منها، فمن الأمور المتصلة منها بيوميات الوليد (وتفصيلها وبقيتها في فصول الرضيع):

۞ حثه ﷺ على غلق الأبواب وأوعية الشراب والتسمية على كل شيء ما استطعنا.

۞ حثه ﷺ بشكل خاص على التسمية عند الطعام.

۞ حثه ﷺ على إغلاق الفم بكف يدنا عند التثاؤب لئلا يدخل الشيطان.

۞ حثه ﷺ على التسمية قبل خلع الملابس سترًا لأعين الجن والشياطين عن العورات.

۞ حثه ﷺ على إزالة النجس والقذر وتنظيف مواضع مظنة الاتساخ، والتعطر.

۞ حثه ﷺ على عدم الإسراف في أثاث المنزل لأن الزائد يكون للشيطان.

۞ حثه ﷺ على الحرص على وجود الملائكة في البيوت وعدم وجود ما يمنع دخولها، فإذا ذهبت الملائكة حضرت الشياطين (الكلاب أو التماثيل أو الصور المحرمة أو ما فيه تعاويذ شيطانية، أو موسيقى، أو الجرس المحرم إلخ).

ونستخلص مما سبق كذلك، أن من الوسائل لحفظ الوليد والطفل بشكل عام: شكر الله ﷻ على تلك النعمة بالصدقات والنُسُك: مثل بَذْل العقيقة وما فيها من إطعام للأهل والأقربين، ومثل بذل صدقاتٍ أخرى وما يترتب عليها أيضًا من إطعامٍ للفقراء: كالتصدُّق بوزن شعر المولود، وإخراج زكاة الفطر عنه فهي تجب على الأب إذا وُلِد الطفل في توقيتها، وكل ذلك يزرع في قلب الآباء تعظيم شأن هذا الضيف الجديد والعناية به، وغيرها الكثير مما يؤكد حث الشريعة الوالدين على الامتنان العميق لتلك النعمة والشعور بعِظمها وبالتالي استشعار قدر المسئولية تجاهها، والاندفاع تلقائيا إلى العناية بها بجِد، تارة بالصدقة وتارة باللسان وتارة بالرعاية الحسية وتارة المعنوية، اهتمام دؤوب بإحسان لا ينتهي.

فماذا عن الحقوق والاحتياجات النفسية للوليد؟ هذا موضوع المحور التالي.

المحور الثالث

حقوق واحتياجات الوليد النفسية

أولًا: حق الوليد في التزام أهله بسنن المولود ذات الزوايا النفسية

وهي هنا اثنتان:

١- تحنيك الوليد

حديث عائشة: «أنَّ النبي كانَ يُؤْتَى بالصِّبْيانِ فيُبَرِّكُ عليهم ويُحَنِّكُهُمْ»[١].

وحديث أسماء بنت أبي بكر، والذي حكت فيه عن وليدها عبد الله بن الزبير قائلة: «ثُمَّ دَعَا بتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ في فِيهِ، فَكانَ أَوَّلَ شيءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ النبي ﷺ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بالتَّمْرَةِ»[٢].

ولما ولدت أم سليم غلامًا، أرسلت به مع أنس إلى النبي ﷺ ومعه تمر: «فأخذ ﷺ التمرات فألقاهن في فيه - فمه ﷺ - فلاكهن - أي: مضغهن شيئًا يسيرًا لتطريتهن - ثم جمع لعابه - أي: جمع التمر الممضوغ قليلًا في فمه ﷺ - ثم فغر فاه فأوجره إياه -أي: فتح فم الوليد فألقاهن في فمه - (فجعل الطفل يتلمظ) - أي: يتتبعها ويلعقها بطرف لسانه بشغف، فقال ﷺ: «حب الأنصار التمر»[٣]، وفي رواية[٤]: «فحنّكه وسماه عبد الله، فما كان في الأنصار شاب أفضل منه»، وفي رواية[٥]: «فخرَجَ منه رَجُلٌ كثيرٌ (ذرية كثيرة) واستُشْهِد بفارِسَ».

(١) مسلم (٢١٤٧).
(٢) البخاري (٣٩٠٩) | صحيح مسلم:٢١٤٦).
(٣) مسلم (٢١٤٤).
(٤) أخرجها صحيح البخاري: ٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤)، وأبو داود (٤٩٥١)، وأحمد (١٤٠٦٥) واللفظ له.
(٥) أخرجها صحيح البخاري: ١٣٠١)، ومسلم (٢١٤٤)، وأبو داود (٤٩٥١) بنحوه، وأحمد (١٢٨٦٥) واللفظ له.

ربما تتساءلون ما الذي أتى بالتحنيك هنا بينما هو متصل بالصحة والغذاء؟ تعالوا لنتعرف أولا على معنى الحديث، وستدركون بأنفكسم الإجابة.

معنى التحنيك

هو دلك حنك الوليد بتمرة ممضوغة أو مرطبة، أي: مضغ الشيء قليلًا وتطريته وتنعيمه ووضعه في فم الصبي ودلك حنكه وجانبي فمه بهذا الشيء، قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري): «والتحنيك مضغ الشيء ووضعه في فم الصبي ودلك حنكه به، يصنع ذلك بالصبي ليتمرن على الأكل، ويقوى عليه، وينبغي عند التحنيك أن يفتح فاه حتى ينزل جوفه - يقصد اللعاب»(١).

فما علاقة التحنيك بالنمو النفسي!؟

تذكرون حين قلنا إن الجنين كان معتادًا في بطن أمه على الطعم السكري الحلو بسبب السائل الأمنيوسي الذي يحاوطه من كل جانب ويستلذ بطعمه وينمي لديه حاسة التذوق والشم وهو لا زال بعدُ داخل بيته الأول: الرحم؟ فإن مِن تتابُعِ تَوَدُدِ الله ﷻ لخلقِه بالنعم تلو الأخرى، أن جعل من سُنن المولود تلك السنة الودودة الكريمة: «التحنيك»، لما لها من نفس الأثر النفسي الذي كان يسببه طعم السائل الأمنيوسي، والذي يتلذذ به الوليد ويحن إليه ويشعره بالأمان لأنه يذكره بالأجواء التي كان ينعم بها في الرحم، والتي هي محببة إلى نفسه؛ فيظل يستعيدها عن طريق ذاكرة حاسة التذوق، ويتلهف لكل ما يثيرها بداخله مرة أخرى ويفرح به سبحان الله.

ونفس الشيء بالنسبة لطعم حليب الأم في فم الوليد، جعله الله ذا طبيعة سكرية هو أيضًا - كما سنرى في حق الرضاعة - ولعلكم الآن كذلك أدركتم معنى الجملة التي قالها ﷺ بعدما رأى لهفة الوليد على مص ولعق التمرة: «حُب الأنصار التمر»، وأدركتم كيف أنه يرعى الاحتياجات النفسية للصغار منذ أول أنفاسهم في الدنيا

(١) من مقالة فقهية على «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: «التفسير العلمي لتحنيك المولود بالتمر».

ويشير إليها، كذلك التحنيك يجعل الوليد آمنًا على استمرار غذائه والعناية به، لذلك وضعتهما - التحنيك والرضاع - في المحورين النفسي والصحي.

تأملتم كيف كانت أول قطراتِ شراب ودَلكاتِ طعام لهذا الكائن الصغير مُناسِبةً تمامًا لما يحبه ومعتاد عليه، وكيف هو حُسن تهيئةِ الله للأجواء المحببة إليه؟ سبحان الله الودود العظيم الكريم.

٢- تسمية الوليد يوم المولِد، أو يوم السابع إن فاتنا يوم المولد

هو حق يعكس كيف أن الطفل يحتاج إلى أن يكون ذا قيمة ووزن وهوية منذ أول يوم وأنه ليس نكرة كعامة الأنعام التي لا نُسمّيها عادةً، فنحن عندما نجد بعض الأنعام له اسم نتعجب!! كالقصواء مثلًا ناقة النبي ﷺ، ودلدل وفضة والشهباء بغلات كانت للنبي ﷺ، وغيرهم من دواب الصحابة، الشاهد: ليست كل الأنعام ذات اسم، وحين يحدث ذلك نعتبره شيئًا مثيرًا للدهشة! فالتسمية إشعارٌ بالقيمة والتّميُّز والتّفرُّد والكينونة والاحترام، ووليد بلا اسم هو وليد مُهدرَةٌ كرامتُه مُحتَقَرٌ شأنُه، مثلما نقول في لُغتنا العامية: (فلان اللي ما يتسمّاش)، أو (يا هذا!)، على سبيل الإهانة!

وبالإضافة إلى أن التسمية ليست من الحقوق النفسية فحسب، فهي من الحقوق الاجتماعية كذلك بل والدينية، فليس الضرر النفسي هو في عدم تسمية الطفل فقط، إنما الاسمُ المُختارُ ذاتُه لهُ ضوابط كذلك حين نتأمّلُها نجِدُها تُلبّي جُملةً من حقوق واحتياجات الطفل الدينية والتحصينية والنفسية والاجتماعية، ممتدة بطول مراحله العمرية كلها، وتعتبر من مقاصد ووسائل حفظ النفس والدين سُبحان الله، فالاسم هو من أكثر الكلمات اللغوية التي ستتكرر على آذان الإنسان منذ أول يوم وأول أسبوع له في الدنيا: «أحضِروا فُلان، احمِلوا فُلانة، فُلان يبكي ارقوه، ها هي فلانة استيقظت، فلان جائع أرضعوه» وهكذا.

وهنا كلامٌ ثمين: «لا شك أن مسألة الأسماء هي من المسائل المهمة في حياة

الناس، إذ الاسم عنوان المسمى ودليل عليه وضرورة للتفاهم معه ومنه وإليه، وهو للمسمى زينة ووعاء وشعار يُدعَى به في الآخرة والأولى، وتنويهٌ بالدين، وإشعار بأنه من أهل هذا الدين، وهو في طبائع الناس له اعتباراته ودلالاته»(١).

فما هي تلك الضوابط التي جعلتنا نقول ذلك؟ تعالوا نتأمل أحاديث التسمية، وسيتضح الجواب:

أولًا: ثلاثة أحاديث هامة تبرز جانبًا مدهشًا من ضوابط التسمية، قال النبي ﷺ:

- «إِنَّ أَحَبَّ أَسْمائِكُمْ إلى اللهِ عبدُ اللهِ وعَبْدُ الرَّحْمَنِ»(٢).
- «أحبُّ الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقُها حارث وهمّام، وأقبحُها حرب ومُرّة»(٣).
- «تسمّوا بأسماء الأنبياء»(٤).

وفي هذه الثلاثة ابتداءً، أمورٌ تربوية عديدة:

١. الحثّ على الاسم الذي فيهِ النِّداء بالعبودية لله وحده أو التذكير بها

وهذا من حفظ الدين، وكذلك أسماء الأنبياء كما في الحديث، فهي تخدم مقصدين:

* مقصد التذكير بخير قدوات للبشر (وسيأتي بيانه في موضعه).
* مقصد التذكير برسالات توحيد الله وعبادته عن طريق التذكير برسله.

---

(١) من مقالة فقهية على «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: «آداب تسمية الأبناء».
(٢) مسلم (٢١٣٢).
(٣) صححه الألباني–السلسلة الصحيحة (٣/ ٣٤) –صحيح أبي داود (٤٩٥٠)، وصحيح الأدب المفرد (٦٢٥) وصححه ابن تيمية–مجموع الفتاوى (٧/ ٤٣).
(٤) نفس تخريج الحديث السابق.

٢. الحثّ على الاسم الذي فيهِ تحرّي الصّدق والواقعية

وهـذا اسـتفدناه حيـن قـال ﷺ: «أصدقُهـا حـارث وهمّـام»، فالشّـريعة تحُثُّنـا ليـس فقـط علـى نقـاء العقيـدة في اسـم الوليـد، إنمـا علـى تحـرّي الصـدق والواقعيـة فيـه أيضًـا، والحديـث يلفـت الأنظـار إلـى أصـدق تلـك الأسـماء التـي تُعبّـر عـن الواقِـع، وكأن أدب التسـمية نفسـه هـو أداة تربويـة في حـدّ ذاتهـا تُربّـي علـى الصّـدق ومعرفـة قَـدر النّفـس مـن أول أنفاسـنا في الحيـاة، وهـذا الصـدق مـع النفـس والواقعيـة هُمـا مـن مقاصـد حفـظ العقـل والنفـس بالمناسـبة.

* فمعنى حارث: هو الحارث لدنياه ودينُه وهمّام بهما، فالحرث من الكسب.

* ومعنـى همّـام: هـو الـذي يهـمُّ بالأمـر فيعـزِمُ عليـه، فالإنسـان كثيـر الهـمّ بالشـيء، وكثيـر الطلـب للكسـب.

قـال ابـن تيميـة في مجمـوع الفتـاوى: «والهمّـام: الكثيـر الهـمّ الـذي يهـمّ بالشـيء» وليـس منّـا مـن أحـد إلّا ويهـمّ بشـيء، ويُكمـل ابـن تيميـة الجملـة بسـطر عندمـا قرأتـه ابتسـمت: «وهـو مبدأ (الإرادة)، أول (الإرادة)»، أي: الإرادة الحُـرّة التـي هـي مـن مكونـات الفِطـرة السـتة سـبحان الله، التـي ينبغـي صيانتهـا مـن الخـدش واسـتغلالها وتفعيلهـا لخدمـة الإيمـان لاحقًـا، ولذلـك ابتسـمت! فمـرة أخـرى، التربيـة النبويـة للإنسـان في أول أطـوار حياتـه تؤكـد لنـا أنهـا صيغـت بإحـكام لتصـون الفطـرة مـن الخـدش وتعـزز جوانبهـا الطيبـة بـكل مكوناتهـا وسـيأتي تفصيلهـا في قسـم الرضيـع.

كل ذلك ولا زلنا في تربية الوليد، وفيما يخص المحور الثالث فقط!

وأمـا التخـوف مـن أن يكـون هـذا الاسـم - حـارث وهمـام - غريبًـا اليـوم، فالمسـألة تختلـف مـن بلـد لآخـر، فَلَـو أن هـذا الاسـم في بعـض الأماكـن غيـر مسـتنكر، فـلا مانـع، وهمـام وحـارث بالفعـل اسـمان عربيـان معروفـان في مناطـق عربيـة كثيـرة، المهـم ألا يكـون

مستنكرًا في البيئة التي سينشأ فيها الوليد، حتى لا يؤثر على الولد نفسيًا بالسلب، فالواجب أن نراعي المستحب من التسمية حسب الزمان والمكان.

٣. الحثّ على الاسم الذي يُذّكّر بالقدوات الصالحة ليل نهار

واستفدناها كما قلنا من حديث التسمي بأسماء الأنبياء، خير قدوات سلوكية وإيمانية عرفتها البشرية، ولدينا هنا لفتة مهمة فيما يخص التسمية بأسماء الأنبياء: يجوز التسمي باسم «محمد» ﷺ، لكن كُنيتُه لا، والتي هي (أبو القاسم)، قال النبي ﷺ: «سمُّوا باسمي ولا تكنُّوا بكنيتي»[1]، وهناك خلاف بين العلماء حول ما إذا كان النهي مقيدًا بفعل ذلك في زمن النبي ﷺ فقط، أم عامًّا في كل الأزمنة، أم ممنوع في حال كنا سنجمع الاسم مع الكُنية في نفس الوقت فنجد شخصًا اسمه «محمد» وكُنيته «أبو القاسم» سواء في زمنه ﷺ أو غيره، فالأحوط أن نسمي باسمه الكريم ﷺ فقط، ونترك كنيته.

٤. البعد عن الأسماء القبيحة المُنفرة المُقبضة

وذلك استفدناه من كلامه ﷺ: «وأقبحها مُرة وحرب»، لماذا حرب ومرة؟

* لأن حرب: ما إن نسمعها نشعر بانقباض وكأن طبول الحرب دقت، فيها بشاعة القتل والتدمير والكرب.

* ومُرة: فيها المرارة، كلمة مُقبضة بذاتها تأباها الطباع المنشرحة.

ومثل ذلك، اسم «الحيوان»، أو «الجربان»، أو «جعران»، أو «حزين» أو «الأطرش»، نجد أسماء عائلات كبرى بهذا الشكل، في حين أنهم يمكنهم تغييره، فلماذا الاحتفاظ بهذه الأسماء؟ كذلك اسم «هُيام»، وهو مرض يصيب الإبل، أيضًا: «مُوتَة»، أو «سِنجة»، أو «طيخا» أو «وَحش» أو «رِسال» وهي قوائم البعير! و»شجَن

---

(١) البخاري (٢١٢٠).

أو أشجان» وأحد معانيه: الحزن والهم والغم، فحريٌ بنا اجتناب ما يقبض النفوس وينفرها بخاصة الأسماء القبيحة، وهذا من مقاصد حفظ النفس، لأن الطفل الذي يتسمى بمثلها ينمو بجراحات نفسية غالبًا، وهو من حفظ الفطرة كذلك فطرة الأخلاق والقيم، والتي تندرج بدورها تحت مقاصد حفظ دينه.

ملحوظة مهمة فيما يخص الاسم القبيح والحسن:

بعض الناس يسمون ابنهم باسم قبيح ليمنعوا عنه الحسد، أو ليعيش ولا يموت وهو صغير، وهذا الصنيع فيه جهل وجاهلية مركبة، ففوق قُبح الاسم، تلك عقائد فاسدة لا تغني عن الولد شيئًا.

«إضافة إلى أن العادة جرت – أحيانًا – أن يأخذ المُسَمى نصيبًا من اسمه، فإذا كان اسمه كئيبًا كانت الكآبة فيه، وإذا كان اسمه ذميمًا رأيت من ذلك فيه، فأما تلك المقولة أن كل إنسان له من اسمه نصيب، فهي مقولة مشهورة ذكرها كثير من العلماء، كابن الحاج وابن القيم وغيرهما، وهي ليست قاعدة مطردة كما لا يخفى، وإنما هذا مما قد يقع، ويراه الناس وقد يقع أيضًا: أن يسمى الشخص باسم ويكون حاله مخالفًا لهذا الاسم»(١).

فلنجتهد إذن في تطبيق آداب التسمية، ثم نتوكل بعدها على الله، ولنا إطلالة لاحقة في الكتاب، حول ضوابط تلك المقولة وأمثالها.

لاحظتم أن معظم الكلام عن أسماء الذكور، فما نصيب أسماء الإناث من السنة النبوية؟

الجواب: ينطبق عليها كل شروط التسمية والمحاذير الشرعية، ما عدا الأمور المتصلة بالذكور فقط كالتسمية بعبد الله وعبد الرحمن وأسماء الأنبياء بالطبع،

---

(١) من أحكام المولود على «إسلام ويب» بعنوان «أحب الأسماء إلى الله (ذكورا وإناثا)».

ويستعاض عنها بأسماء بنات النبي ﷺ كفاطمة ورقية وزوجاته كعائشة وخديجة، بخاصة اسم زينب فقد سمى به النبي ﷺ إناثًا كما سنبين، وأسماء الصحابيات والقدوات الإسلامية من خير القرون أو على مر عصور الأنبياء: مثل مريم وآسية إلخ، ولا بأس للإناث التسمية بـ «أمة الله» بالمثل[1].

ثانيًا: ضوابط وفوائد أخرى مدهشة من أحاديث أخرى للتسمية

۞ البعد عن الأسماء التي فيها ميوعة أو إثارة للغرائز والمعاصي:

مثل: زوزو، وميمي[2]، وعاشق، وغرام، وناعوم إلخ، وأكثر ما يكون ذلك الأمر في أسماء الإناث دون الذكور.

۞ عدم تسمية الذكور بأسماء إناث، ولا العكس:

وهذا من التربية الجنسية الشرعية التي سيأتي تفصيلها في «ملء المرحلة».

۞ عدم التسمية بالاسم الذي فيه تزكية أو اسم مضاف إلى الدين والإسلام:

اسم بَرَّة غيّره ﷺ إلي زينب، مرتان مع صحابيتين مختلفتين، وغيّره مرة ثالثة مع غيرهما إلى جويرية، لأن «برة» فيه تزكية معنوية للنفس، بوصف صاحبته بأنها كثيرة البر، وهذا مبالغة في تزكيتها، فحين غيّره ﷺ إلى زينب قال: «لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البِر منكم»[3]، لأن بَرَّة تعني كثيرة فعل الخير، وهذا يجعلها باستمرار ترى عملها مما قد يورث عُجبًا كلما استمعت لندائها، «ومثله: اسم نور الدين، شمس الدين، سيف الإسلام إلخ، وكان علماء السلف يكرهون تلقيبهم بها، فكان الإمام النووي يكره تلقيبه بمحيي الدين، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كان يكره تلقيبه

---

(١) من أحكام المولود على «إسلام ويب» بعنوان حكم تسمية البنت بأمة الله.
(٢) هذا يختلف عن ترخيم اسم أنثى بهما بعيدا عن أسماع الرجال الأجانب، ليس لخطأ ترخيم الاسم أمام غير المحارم -لأن النبي ﷺ كان ينادي عائشة بعائش ولا حرج- إنما للميوعة فيهما وأمثالهما.
(٣) صححه الألباني-صحيح الجامع (٧٢٩٧)، وصحيح أبي داود (٤٩٥٣).

بتقي الدين وكان يقول: لكن أهلي لقبوني بذلك فاشتهر، (وذلك مكروه في حياتهم بالطبع، أما بعد مماتهم فلا خوف عليهم من ذلك)»[1].

عدم التسمية بما لا يليق إلا بالله:

مثل قدوس، أو رحمن، أو صمد، أو الحَكَم، أو ملك الملوك، أو سلطانة السلاطين إلخ، كل هذه معاني لا تليق إلا بالله ﷻ، قال النبي ﷺ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ علَى اللهِ يَومَ القِيامَةِ، وأَخْبَثُهُ وأَغْيَظُهُ عليه، رَجُلٍ كانَ يُسَمَّى مَلِكَ الأمْلاكِ، لا مَلِكَ إلَّا اللهُ»[2].

تستعجبون وتستبعِدون أن يُسمَى مسلمٌ باسم لا يليق إلا بالله؟ هل تعلمون أن من المسلمين من يسمون بناتهن «مايا»؟ بينما أحد معانيها المتداولة: أنها إلهة الربيع عند الرومان وزوجة البركان![3].

وقد غيّر النبي كُنية أبي الحَكَم إلى أبي شُريح، عن أبي شريح أنه كان يُسمى أبا الحكم، فقال له ﷺ: «إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكم»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال ﷺ: «ما أحسن هذا!» - أي أثنى على إصلاحه بين الناس - ثم قال ﷺ: «فما لك من الولد؟» فقلت: شريح ومسلم وعبد الله، قال: «من أكبرهم؟» قلت: شريح، قال: «أنت أبو شريح»[4]، ومعناها: من الانبساط وانشراح الصّدر، كما في الآية: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١].

ومما لا يليق إلا بالله كذلك، ما يكون فيه تَعَبُّد لغيره من المخلوقات، فلا نُسمِّي: عبد النبي أو عبد الرسول[5].

عدم التسمية كذلك بالاسم الذي لو نفيناه كان المعنى سيئًا ومقبضًا:

---

(١) من المقالة الفقهية على «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: «آداب تسمية الأبناء».

(٢) مسلم (٢١٤٣).

(٣) من المقالة الفقهية على «إسلام ويب» بعنوان: نظرات حول التسمية بـ "مايا».

(٤) صححه الألباني-صحيح الأدب المفرد (٦٢٣).

(٥) ولا عبد الدار، ولا أبو الحَكَم، ولا نُسمّي نبيّ أو نبيه.

أي أنه ليس الاسم فحسب علينا أن نجتهد ألا يكون قبيحًا، بل علينا كذلك اختبار الاسم في جملة منفية صحيحة المعنى لنرى هل سيكون بذلك قبيحًا أو مقبضًا أو ذا مقصد سيء أم لا! ونترك التسمية به لو كان كذلك، قال النبي ﷺ: «ولا تُسمِّين غلامك يسارًا ولا رباحًا ولا نجيحًا ولا أفلح فإنك تقول أثَم هو؟ - أي: هل هو موجود؟ - فلا يكون!»[1]، وفي رواية: «نَهَانَا النبي ﷺ أَنْ نُسَمِّيَ رَقِيقَنَا بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ: أَفْلَحَ وَرَبَاحٍ وَيَسَارٍ وَنَافِعٍ»[2].

فمثلا حين نسأل: (هل عندكم يسار؟) فيجيب السامع: (ليس هنا يسار أو ليس عندنا يسار)، مُقبضٌ بالفعل وفيه استحضار لمعاني الشقاء والعسر، وكذلك اسم نجاح وبركة وساجد وساجدة ومجاهد ونافع: (هل عندكم نجاح؟ لا، هل عندكم بركة؟ لا) فكلها وأشباهها رغم أنها أسماء جميلة إلا أن في استعمالها كراهة لسوءِ الجوابِ بنفي وجودها، (كراهةَ تنزيه وليس كراهة تحريم)، فلا يشترط تغييرهم مثلما يشترط مع الاسم المحرم، لأن النبي ﷺ نفسه كان لديه غلام يخدمه اسمه «رباح» ومولىً اسمه «يسار» ولم يغير اسميهما، بينما نهى الصحابةَ عن تسمية عبيدهم به، مما يدل أن النهي ليس للتحريم[3].

وقال ﷺ: «إن عشتُ نهيتُ أمتِي إن شاء الله أن يسمي أحدهم بركة، ونافعًا، وأفلح يُقال: هاهنا بركة؟ فيُقال: ليس ها هنا!»، فقُبض ﷺ ولم ينه عن ذلك - يقصد لم ينه عن ذلك نهيَ التحريم[4].

وكان ﷺ يحب الحَسَن من الكلام وحُسنَ الفأل والبِشر وهنا المسألة لا علاقة لها بالتطير، بل على العكس، فالنبي هنا يغلق باب التطير والانقباض عند الناس، عن طريق الابتعاد عن المُقبِض من الكلام وتبعاته لعلمه أن الناس بالفعل تتأثر بالكلام

(١) مسلم (٢١٣٧).
(٢) مسلم (٢١٣٦).
(٣) من مقالة فقهية على «إسلام ويب» بعنوان: «حكم التسمية بـ(ساجدة) و(مجاهد)».
(٤) صححه الألباني-صحيح الأدب المفرد (٦٣٧).

وتنقبض وربما وقعت في شرك بسبب ذلك.

قال الخطابي: «النبي ﷺ في الحديث نفسه بيّن المعنى في ذلك، وكراهة العلة التي من أجلها وقع النهي عن التسمية بها، وذلك أنهم كانوا يقصدون بهذه الأسماء وبما فيها من معانٍ؛ إما التبرك بها أو التفاؤل بحسن ألفاظها، فحذَّرهم أن يفعلوا، لئلا ينقلب عليهم ما قصدوه في هذه الأسماء إلى الضد، وذلك إذا سألوا فقالوا: أثَم يسار؟ أثَم رباح؟، فإذا قيل: لا، تطيّروا بذلك وتشاءموا به، وأضمروا الإياس من اليسر والنجاح، فنهاهم عن السبب الذي يجلب لهم سوء الظن بالله سبحانه، ويورثهم الإياس من خيره»[1].

«وأضاف ابن القيم علة أخرى: أن المُسمَّى بذلك إذا كانت صفاتُه مخالفة لاسمه، ذَمَّه الناس كلما ذكروا اسمه فيقولون: ما هو بنافع بل هو ضار، وما هو بصالح بل هو طالح، وهكذا، فقال: وأمر آخر أيضًا وهو أن يطالَب المُسمَى بمُقتضَى اسمه، فلا يكون عنده، فيُجعَلُ ذلك سببًا لذمِّه وسبِّه»[2].

سبحان الله اهتمامٌ تربوي عميق بالاسم ومعناه ولوازمه، وعناية شديدة باللفظ لغويًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا وفطريًّا وعقائديًّا وأخلاقيًّا، لأنها كلمة ستتردد على مسامع الإنسان منذ أول أسبوع في حياته وحتى نهاية عمره، فلابد وأنها ستؤثر فيه.

ومعروف وشائع ومستقرٌ بين الناس أن البلاء موكل بالكلام والنُطق، وتلك المقولة لها معانٍ صحيحة لا شيء فيها، ومعانٍ أخرى خطأ تخالف العقيدة فلننتبه؛

كالتطير بالاسم القبيح والاعتقاد أنه مضر بذاته والفزع عند التلفظ بأي كلام مقبض اعتقادًا في جذبه للأحزان والمصائب، ونحوها.

(١) من «معالم السنن»-شرح سنن أبي داود للخطابي (٤/ ١٢٨) -نقلا عن شبكة الألوكة.
(٢) من مقالة في الآداب-على «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: تسمية المولود بنافع ورباح ومبارك.

وإليكم بيان جزء من ذلك[1]:

رَوَى القاضِي أبو يوسف في الآثار بسنده عن عائشة أنها قالت: «إِنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْكَلَامِ»[2].

قال السخاوي: «ويشهد لمعناه قول النبي ﷺ للأعرابي الذي دخل عليه يَعُوده في مرضه، قَالَ أبو هريرة راوي الحديث: «وكانَ النبي ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ قَالَ: لا بَأْسَ، طَهُورٌ إنْ شَاءَ اللهُ، فَقَالَ له: لا بَأْسَ، طَهُورٌ إنْ شَاءَ اللهُ، قَالَ - المريض: قُلتَ: طَهُورٌ؟! كَلَّا، بَلْ هي حُمَّى تَفُورُ -أَوْ تَثُورُ - عَلَى شَيخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ القُبُورَ، فَقَالَ النبي ﷺ: فَنَعَمْ إذنْ».

* وأنشد القاضي ابن بهلول: «لا تنطقنّ بما كرهتَ فربما | نَطَقَ اللسانُ بحادثٍ».

* قال أبو الخير الهاشمي: «البلاء موكل بالمنطِق، أي: ربّما نطق الإنسان بما يكون فيه بلاء».

* وقال الزمخشري: «يضْرب فِي كلمة يتَكَلَّم بهَا الرجل، فَتكون باعثة للبلاء».

* «والمقصود من مقولة (البلاء موكل بالمنطق أو بالكلام) أن الرجل قد يتكلم بالكلمة فيصيبه بلاءٌ، وِفقَ ما نطق وتكلم به، وهذا صحيح، يشهد له جملة من النصوص الشرعية، والوقائع والحوادث في القديم والحديث، وقد ذكر شيئًا من ذلك ابن القيم في «تحفة المودود بأحكام المولود». ورغم كل ذلك، فإنها ليست بقاعدة عامة مطردة فلا يقال: إن كل ما يتكلَّم به الإنسان يُبتلَى به، والواقع خير شاهد على بطلان هذا الفهم، والمَغزَى من هذه الجملة: تحذير الإنسان من النطق بالسوء، أو أن يستفتح على نفسه بشر، أو أن يتشاءم بأمر، ويطلق ذلك في مقالِه ونُطقِه؛ كي لا يُبتلَى به، وأن يُحسِنَ انتقاءِ ألفاظِه، ويختار الكلمات الحسنة ذات المعاني الجميلة، والتي

(١) من مقالة في الآداب–على «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: هل البلاء موكل بالمنطق؟
(٢) في سنده عن عائشة مقال، ولا يصح عن النبي، هو من الأمثال المتداولة.

تحمل دلالات طيبة، وتفيد تفاؤلًا وأملًا واستبشارًا».

ومن الجميل مطالعة بحث قيم جدًّا للدكتورة هيفاء بنت ناصر الرشيد[1]، عن هذا الأثر المشهور «البلاء موكل بالمنطق»، فنَّدت فيه ما يصح وما لا يصح في حق هذا الأثر من معانٍ، وضبطت القاعدة العقائدية فيها بشكل متميز بارك الله فيها، بما ينفي عن تلك المقولة شبهة «قانون الجذب» الشركي، والذي يدعيه المعالِجون بالطاقة بزعمهم أن الاسم القبيح يجذب القَدَر المُحزِن.

۞ عدم التسمية بأسماء الشياطين والأصنام:

تتعجبون مجددًا؟ هل تعلمون أن من المسلمين من يُسَمُّون بناتهن «راما»؟ بينما هو اسم وَثَن وصنَم مُقَدَّس عند بعضِ الشعوب![2].

۞ عدم التسمية بأسماء الكفار الدالة عليهم دون غيرهم:

مثل: «جرجس، أو كريستينا، أو ليليان، أو رونالدو»، حرام[3]، وتشتد الحرمة إذا كان الاسم اسم وثني بالطبع.

جاء في تسمية المولود للشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «أنادي بلسان الشريعة الإسلامية على المسلمين أن يتقوا الله، وأن يلتزموا بأدب الإسلام، وسنة النبي ﷺ، وألا يؤذوا السمع والبصر في تلكم الأسماء المرذولة، وأن لا يؤذوا أولادهم بها، فيحجبوا بذلك عنهم زينتَهم: الأسماء الشرعية. وما هذه إلا ظاهرة مَرَضِية مؤذية - يقصد مرض القلب بالتشبع والتلبس بحضارة الغرب، ما نسميه بـ "عقدة الخواجة» - يجب على من بسط الله يده أن يصدها عن مواليد المسلمين، فيلزمهم عن طريق الأحوال المدنية بالأسماء المشروعة فقط»[4].

(١) بحث «البلاء موكل بالمنطق | دراسة عقدية-للدكتورة هيفاء الرشيد: https//:t.me/fowz3_k606 وأتفق مع غالبية ما جاء في البحث بارك الله في كاتبته، لذا أنصح به

(٢) من مقالة فقهية على «إسلام ويب» بعنوان: «اسم (راما) في الميزان».

(٣) من المقالة الفقهية على «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: «آداب تسمية الأبناء».

(٤) من المقالة الفقهية على «إسلام ويب» بعنوان: نظرات حول التسمية بـ "مايا».

❁ **عدم التسمية بأسماء اشتهر بها الفساق من المغنيين والمغنيات وأمثالهم:**

ولا نحتاج لذكر أمثلة، لعل الله يتوب عليهم يومًا، ونسأل الله لنا ولهم الهداية.

بقيت نقطتان مهمتان في التسمية تخصان التوقيت والتغيير:

❁ **بالنسبة لتوقيت التسمية:**

يوم الولادة أو يوم السابع، آخر يوم في مرحلة الوليد، وقد سمى النبي ﷺ ولده إبراهيم يوم ولادته، وسمى أولاد بعض الصحابة في اليوم الأول، وفي يوم السابع، فالتوقيتان من السُنة ولا حرج[(١)].

❁ **وبالنسبة لتغيير الاسم:**

فقد غيّر ﷺ أسماء، منها ما كانت قبيحة، ومنها ما لم تكن قبيحة لكن كان فيها تزكية أو مبالغة في المدح أو فيها عواقب مقبضة كما فصلنا.

على سبيل المثال لا الحصر:

* اسم زحم غيره إلى بشير.

* اسم حُزن أو حَزن غيره إلى سهل.

* كُنية أبي الحَكَم غيرها إلى أبي شُريح، كما قلنا سابقًا، لعدم جواز اسم «الحَكَم» إلا لله.

* واسم عاصية غيره إلى جميلة، («جميلة» فيه تزكية حسية للشكل وليس تزكية معنوية للنفس، فليست هي التزكية المنهي عنها وليس فيه مُبالغة كذلك، هو هنا من قبيل الفأل الطيب والاسم الحسن المبهج).

* واسم «برة» غيره ثلاث مرات كما قلنا: اثنتان جعلهما «زينب»، وثالثة جعلها

(١) فتوى لابن باز على موقعه بعنوان: الوقت المناسب لتسمية المولود والأحق بتسميته.

«جويرية»[١].

❋ ويحكي علي بن أبي طالب يقول: «لمَّا وُلِدَ الحسنُ سمَّيتُهُ حربًا، فجاءَ النبي ﷺ، فقالَ: أروني ابني، ما سمَّيتُموهُ؟ قلتُ: حَربًا، قالَ ﷺ: بل هوَ حَسَنٌ، فلمَّا وُلِدَ الحُسَيْنُ سمَّيتُهُ حَربًا، فجاءَ ﷺ فقالَ: أَروني ابني، ما سَمَّيتُموهُ؟ قُلتُ حربًا، قالَ ﷺ: بل هوَ حُسَيْنٌ، فلمَّا وُلِدَ الثَّالثُ سمَّيتُهُ حَربًا، فجاءَ النبي ﷺ، فقالَ: أروني ابني، ما سمَّيتُموهُ؟ قلتُ: حربًا، قالَ: بل هوَ مُحسِّنٌ، ثمَّ قالَ ﷺ: سمَّيتُهُم بأسماءِ ولَدِ هارونَ: شبَرُ، وشبيرُ، ومشبِّرٌ»[٢].

بالتالي، حتى لو اكتشفنا أن اسم الطفل بعدما كبر كان مخالفًا لأدب التسمية فمن حقه علينا أن نغيّره كما غير النبي ﷺ للكبار أسماءهم، وأن نتحمل ثقل الإجراءات القانونية في سبيل تنفيذ ذلك، وألا نتعنت ونقول أن الناس ستضحك علينا وتسخر منا لتغييرنا الاسم بعدما كل هذه المدة، فالحق أحق أن يُتبَعَ متى تَبيَّن، بجانب أن مصلحة الطفل هنا أولى من كلام الناس عنا؛ وعلى العكس، فإن هذا الإجراء سيصونه من كلام الناس الأشد ألمًا، بالإضافة إلى ما في ذلك من حفظ لعقيدته من الأسماء التي فيها شرك وخلل عقدي، وحفظ لأخلاقه من الكِبر بسبب الأسماء التي فيها تزكية لنفسه، وحفظ لفطرته وحواسه من استساغة سماع القُبح واعتياده، وصيانة لسوائه النفسي ولأمانه الأسري والاجتماعي وكرامته وانشراح صدره بالفأل الحسن.

أيضًا لأن تلك الأسماء هي التي ستتم مناداتهم بها يوم القيامة على رؤوس الأشهاد! أورد البخاري في صحيحه تحت باب «باب ما يُدعَى الناس بآبائهم»: «إنَّ الغادِرَ يُرْفَعُ له لِواءٌ يَومَ القِيامَةِ، يُقالُ: هذِه غَدْرَةُ فُلانِ بنِ فُلانٍ»[٣].

كل هذا ولا زلنا نستفتح المحور الثالث! الحمد لله مرات ومرات على نعمة هذا

---

(١) من أحكام المولود على «إسلام ويب» بعنوان «أحب الأسماء إلى الله (ذكورا وإناثا)»

(٢) صححه أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر (٢/ ١٩٦) | وصححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٦٩٥٨)

(٣) البخاري (٦١٧٧)، صحيح مسلم:١٧٣٥).

الدين العظيم، فاسم الوليد يصاحبه إلى دخول الجنة بإذن الله، وتلك كانت خطوات العناية به من البداية للنهاية.

إذن نجمل في نقاط ونقول: مراتب الأسماء من حيث التفضيل خمسة(١):

١- اسم عبد الله وعبد الرحمن.

٢- ثم سائر الأسماء المعبدة لله، مثل عبد العزيز وعبد الرحيم وعبد الملك وعبد الإله إلخ.

٣- ثم أسماء الأنبياء والمرسلين، وخيرهم وأفضلهم وسيدهم هو نبينا محمد أو أحمد، ثم أولو العزم من الرسل، وهم إبراهيم وموسى وعيسى ونوح، ثم سائر الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعًا السلام.

٤- ثم أسماء عباد الله الصالحين، وعلى رأسهم الصحابة، اقتداء بهم وتذكيرًا بالدين والصلاح وتلمسًا لرفعة الدرجة مثل درجاتهم.

٥- ثم كل اسم حسن ذو معنى صحيح جميل.

فالمطلوب أول شيء، لتفعيل مقاصد التسمية للوليد بشكل شامل (ديني ونفسي واجتماعي):

١- أن نختار ما أمكن الاسم المقترن باسم من أسماء الله.

٢- وإلا: نختار بعدها ما أمكن من أسماء الأنبياء والقدوات الربانية الصالحة عمومًا.

٣- وإلا: نختار بعدها أسماء فيها صدق وواقعية وحُسن، تكون متوافقة مع العرف والبيئة المحيطة.

---

(١) من المقالة الفقهية على «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: «آداب تسمية الأبناء».

٤- وإلا: فأيًّا كان الاسم الذي سنختاره بعد ذلك، فيكون بشروط وضوابط وآداب التسمية.

٥- ثم تغيير الاسم وقتما يتبين لنا تنافيه مع مقاصد التسمية، بخاصة ما تبين لنا أنه محرم لا يجوز.

أنهينا الكلام في عدة صفحات عن أول حق من حقوق واحتياجات الوليد **النفسية**، وما نظن أننا انتيهنا من ذلك بعد كما نحب، ولكن نترك المسألة إلى غيرها اضطرارًا، لنستكملَ استعراضَ الصورة البهية للتربية النبوية العطرة في بقية حقوق واحتياجات الوليد النفسية.

ثانيًا: حق الوليد في التواصل العاطفي الحسي وغير الحسي معه

أعرف أختًا كانت تنفر وتبتعد عن الأطفال المواليد والرضع، بخلاف كل الناس، مع أن الله ﷻ جعل رائحتهم جميلة وملمسهم ناعم لطيف خلاب، بشكل يشجع على الضم والشم واللمس والاحتضان، بل ربما أردنا أحيانًا أكلَهم لا مجرد احتضان وتقبيل عادي! لفرط لطافتهم في تلك المرحلة، أما صديقتي تلك فكانت تنفر سبحان الله! وعندما كنا نسألها: لماذا؟ ما بك؟ كانت تتلعثم ولا تجيد جوابًا وتبتسم، ثم تعاود الانتفاض حين يقتربون منها! وبمجرد أن أنجبت صديقتي الجميلة، نشطت فطرتُها الطبيعية كأن شيئًا لم يكن! كم كنت أشفق عليها من قبل، فمحروم مَن حِيل بينه وبين الاقتراب من الأطفال بنفورهم منه، فكيف بحرمان وغُبن مَن ينفر هو منهم ولا ينجذب نحوهم بالشم والضم والتقبيل والتربيت واللمس؟

فمن احتياجات الوليد أن يشعر برحمتنا وحبنا له وشفقتنا وعطفنا عليه، وهو يشعر بذلك من خلال رفقنا في حمله وأخذنا بقبضة يده الرقيقة أثناء الحديث إليه، واقترابنا بلطف من وجهه وحواسه مع التفوه بكلمات رقيقة قصيرة واضحة متكررة

وبأصوات حانية هادئة نعبر لـه فيها عـن حُبنا وإن لم يفهـم ذلك، مثـل: «حبيبي الصغير»، أو «فاكهـة ماما»، أو «كتكـوتي»، أو «هديتـي الجميلـة» إلـخ، بخاصـة لـو كانـت هـي نفس الكلمات المترددة على مسامعه في نهايات الحَمل، بالإضافة إلى بقية مظاهر «التلامُس الحسّي» بالجوارح كتقبيل الطفل وحَمله بين الذراعين واحتوائه في حجرنا ووضع أُصبعنا في قبضة يده المدهشة.

والسنة عامرة بمشاهد من ذلك، منها:

١- إجلاس الوليد في حجرنا وحضننا.

٢- التلامس معه والتربيت عليه وإمساك يده.

٣- تقبيله وشمه.

٤- حَمله على ذراعنا.

٥- التواصل اللغوي معه بما يناسب نموه اللغوي (وتفصيل ذلك نتناوله في المحور السابع: الحقوق والاحتياجات اللغوية والمعرفية).

٦- ملاعبته بما يناسب نموه الحسي المتفتح كالزهرة الناشئة.

٧- الدعاء له في وجهه قريبا من حواسه، أي نجعله يسمع منا دعاءنا الحاني له.

وتلك السبعة هي ما يناسب الوليد من التواصل العاطفي الرحيم، نتناول نصوصها الشرعية وسائر تفاصيلها في فصول الرضيع، لاشتراكه مع الوليد فيها بالكامل، بالإضافة إلى صور أخرى من العطف والحنان والرحمة وحسن التواصل خاصة بالرضيع وحده لتطور نموه المتصاعد؛ فنصوص التواصل النبوي الودود بمختلف صوره مع هؤلاء الصغار أكثر من أن تحصى، فنتناولها كلها هناك لئلا نكرر في موضعين، بخاصة حق الملاعبة، فهو متشعب أكثر بكثير مع الرضيع، ولنا معه وقفات هناك تمتد لصفحات، لا تفوتكم!

فلنغتنم تلك المرحلة، قبل أن يثقل وزن الطفل ونعجز عن حمله وربما عن ملاحقته أو الإمساك به من الأصل.

إلا أننا نبه على مسألة في تقبيل الوليد: تقبيله في هذه المرحلة الأفضل يكون على الرأس أو الكف وما إلى ذلك، المهم البعد عن مناطق الفم والأنف تفاديا للعدوى، لأن في هذه المرحلة مناعة الأطفال لا زالت ناشئة.

ثالثًا: حق الوليد في الإشفاق عليه من البكاء، وعدم تركه دون محاولة إغاثته وتسكينه

جاء في الحديث: «أن النبي ﷺ جوَّز ذات يومٍ في الفجر - أي: خفف في الصلاة - فقيل يا رسول الله ﷺ لِمَ جوزت؟ - يعنى لِمَ خففت؟ - قال: «سمعتُ بكاء صبي فظننت أن أُمَّه معنا تصلي فأردتُّ أن أُفرغَ له أُمَّه»[1]، وهذا ليس الحديث الوحيد بهذا المعنى.

وبشكل خاص، هناك وصايا طبية أيضًا بعدم ترك الأهل للطفل يبكي، على الأقل حتى أول ثلاثة أشهر من عمره، نظرًا لضعف الرؤية لدى حديثي الولادة بعد كما شرحنا في سمات الوليد بالتفصيل، فيعتمد الطفل أكثر هنا على حاسة الشم واللمس للشعور بالأمان، بالذات عند التصاقه بجلد أمه غالبًا استعدادًا للرضاع، «فهو هنا عند اقترابه منها يُميز رائحة ولون موضع الرضاعة نتيجة لما ذكرناه في السمات من رؤية الوليد عن قرب للألوان المتباينة كالأبيض والأسود ومن حساسية حاسة الشم واللمس، فنتيجة لكل ذلك يهدأ حتى لو لم يكن جائعًا ولكنه في ذلك الوقت يكون مشتاقًا إلى شعوره بالأمان ذا»[2].

فلا يملك الطفل في هذه المرحلة سوى البكاء للتعبير عن حق أو احتياج، ولو

---

(١) صححه الألباني-صفة الصلاة (١٠٢) | أخرجه الترمذي (٣٧٦) بمعناه مختصراً، وأحمد (١٣٧٠١) واللفظ له.

(٢) توصية شفهية مباشرة من طبيب الأطفال د. محمد مجدي، سبق التعريف به.

تُرِكوا أحيانًا يبكون طويلًا قد يحدث لديهم (فَتق أو فتاق) في حالة ضعف عضلات البطن، وهذا أمر صعب معرفته مُسبقًا فوجب الانتباه، فقد يكون بسيطًا أو قد يحتاج لعملية جراحية لإغلاقه مجددًا، لذلك فإن تلبية ندائهم هو من مقاصد حفظ النفس في هذه المرحلة، فماذا بعد أول أسبوع بل أول ثلاثة أشهر للطفل؟ الجواب في فصول الرضيع، نظرًا لتشعب تفاصيلها تبعا لتطور نمو الطفل الشامل.

وبمناسبة تلك النقطة: هناك آباء ومربون يقولون إنهم لا يتركون الطفل يبكي أصلًا ابتداءً! أي إنهم يبادرون بتلبية كل شيء له قبل حتى أن يُظهِر أي سلوك بكائي ولو بسيط! بالطبع هذا غريب جدًّا ويتعارض مع النمو السليم للطفل، وتفصيل الرد: في نفس الموضع مع الرضيع.

رابعًا: حق الوليد في الإشفاق عليه من الألم

ظهر ذلك في استبداله ﷺ للعلاج الشاق والمؤلم نوعا ما للصغار طالما هناك بديل أرفق، في حديث «العلاق والعَذرة»، جاء فيه: «أن أم قيس بنت محصن أتَتْ رَسولَ ﷺ بابْنٍ لها قدْ عَلَّقَتْ عليه مِنَ العُذْرَةِ، فقالَ ﷺ: اتَّقُوا اللهَ، علَى ما تَدْغَرُونَ أوْلادَكُمْ بهذِه الأعْلاقِ»[1]، وفي رواية مسلم: «عَلامَ تَدْغَرْنَ أَوْلَادَكُنَّ بهذا العِلَاقِ؟»[2]، وفي رواية للبخاري عن أنس بن مالك: «لا تُعَذِّبُوا صِبْيَانَكُمْ بالغَمْزِ مِنَ العُذْرَةِ»[3].

الشرح: «العذرة» قيل هي ما يُعرَفُ بالتهابِ اللَّوزتينِ في الحَلْقِ، وعادة النساء في معالجة العذرة كانت أن تأخذ خرقة فتفتلها فتلًا شديدًا وتدخلها في أنف الصبي وتطعن ذلك الموضع فينفجر منه دم أسود وربما سببت له قرحة، وذلك الطعن يُسمى دغرًا، فمعنى «تدغرن أولادكن» أنها تغمز حلق الولد بأصبعها فترفع ذلك الموضع وتكبسه، و«الإعلاق» هو معالجة عذرة الصبي، ثم وصف لهم بديلًا طبيًّا مناسبًا لهم دون هذا

---

(١) البخاري (٥٧١٨).

(٢) مسلم (٢٢١٤).

(٣) البخاري (٥٦٩٦).

الألم والمشقة، ولنا مع الحديث وقفة أخرى في الرضيع بما يناسبه.

خامسًا: حق الوليد في الحضانة، مع أمه أرحم الناس به ما لم يوجد مانع

سادسًا: حق الوليد في الولاية عليه

سابعًا: حق الوليد في الرضاع

وهنا في ثلاثتهم كلام كبير ضخم، فهي من الحقوق الكبرى التي يأثم الأهل إذا أهملوها، فما معنى الحضانة؟ وما سبل العناية المدهشة التي أحاطتها الشريعة بها؟ وما الولاية؟ ولماذا وضعنا الرضاع في المحور النفسي بينما هي غذاء؟ ولماذا لا يجب التهاون في إحلال الحليب الصناعي مكانها واستسهال ذلك؟ وماذا لو رفضت الأم إرضاع طفلها؟ أو رفض الأب الإنفاق على غذائها؟ تلك الأسئلة وغيرها وكامل التفاصيل عن تلك الحقوق الثلاثة، يشترك فيها الرضيع مع الوليد بالكامل ويزيد عليه فيها، بما أن مدة حضانته ورضاعه وولايته أطول، لذا آثرت تفصيلها في تربية الرضيع تحت نفس العنوان والمحور، تحاشيًا للتكرار هنا وهناك والإثقال عليكم، فنطالعها هناك ونرى مدى عظمة الأحكام الشرعية التي تخص تيسير هذه الحقوق للطفل، بخاصة حق الرضاع والضوابط المذهلة التي وضعَتها لصيانته.

أنهينا المحور النفسي، ودومًا أقول وبصدقٍ أُشهِدُ اللهَ عليه دون مبالغة، أن هذا فقط هو ما استطعتُ إحصاءه من كنوز الوحيين التي لا تنتهي، فيما يخص الحقوق والاحتياجات النفسية للوليد الذي لم يتم بعد أسبوعه الأول في الدنيا، والتي صانها الإسلام مما يسمى «الجوع العاطفي»، منذ نعومة أظافره، نظرًا لأهمية المحور النفسي في حسن التلقي فيما بعد بما يحقق مصالح الطفل.

ولا زال هناك الكثير من الكنوز تنتظر المتوسمين.

فماذا عن الحقوق والاحتياجات المالية للوليد؟ هذا موضوعنا في المحور التالي.

المحور الرابع

حقوق واحتياجات الوليد المالية

هذا الباب تتشابه كثير من عناوينه وتفاصيلها، مع عناوين وتفاصيل نفس الباب في تربية الرضيع، إلا أن مرحلة الرضيع بها عناوين إضافية، فأكتفي هنا بإثبات العناوين ووضع نبذة تشويقية قصيرة، على أن يكون تفصيلها مع بقية ما يختص بالرضيع منها، تحت نفس المحور هناك، وحين تطالعون تفاصيل وأحكام الحقوق المالية، سيتأكد لديكم أكثر مدى عظمة الوحيين والحكمة المبثوثة في شريعتنا المذهلة، بشكل لا تتمالكون أنفسَكم بعده في معاودة ترديد: الحمد لله على نعمة الإسلام وتربية رب العالمين للإنسان، فحتى الحقوق المالية للصغار محاطة بضوابط صارمة لضمان عدم التلاعب بها، فالمال به قوام حياته واحتياجاته، فهنيئًا للوليد المسلم ميلادَه في حضن الإسلام.

أولًا: حق الوليد في الميراث

في مرحلة الجنين كُنّا تحدّثنا عن الميراث والتقسيم باعتبار وجود روح قادمة في الطريق؛ بينما المقصود هنا هو وضع المال المقسوم له من الميراث قبل مجيئه للدنيا، في نصيبه فِعليًّا بعدما جاء للحياة، ليُنفَق عليه منهُ إذا احتاج أو يُدَّخَر لمستقبله بحسب مصلحته، لئلا تتعطل مصالحه الحيوية من رضاع أو كساء أوعلاج، فلو وُلِد يتيمًا أو مات أبوه بعد ولادته أو امتنع عن النفقة عليه أو لا يجد ما ينفقه عليه، تكون حقوقه المالية مكفولة، وهذا يندرج تحت مقاصِد حِفظ المال وحفظ النفس.

فبمُجرد ولادة الطفل والتأكُّد من حياته ولو بشهقة أو عطسة أو صرخة ولو لمدة ثوانٍ فقط فإنه يستحق هذا المال، قال ﷺ: «لا يرث الصبي حتى يستهل صارخًا،

واستهلاله أن يبكي ويصيح أو يعطس»[1]. حتى لو مات بعدها بثوانٍ يُصبح لورثته نصيب في ماله هذا الذي استحقه في تلك الثواني المعدودات!

ثانيًا: حق الوليد في الولاية المالية عليه

وهي أحد طرفي الولاية التي ذكرناها في المحور النفسي، تتمثل الولاية المالية في الإشراف والإدارة على كل أموال الوليد، وليس على الإرث فقط، أحيانًا يعطي الأشخاص للوليد مِنحة مالية مودعة باسمه أو عطية مادية خصيصًا له - كمنحةِ قدومه للدنيا مثلًا وما إلى ذلك - فمن حقه على أهله الولاية المالية عليها بأحكام الشريعة لحفظها من الضياع، فمَن أولَى الناس برعاية هذا الحق؟ ولماذا أصلا نعتبر هذا السؤال مهمًا؟ هذا ما سنقرأ تفاصيله في فصول الرضيع.



ثالثًا: حق الوليد في النفقة عليه، للإطعام والكسوة والعلاج

وكما قلنا في بداية الفصل: تفصيل كل ما يخص تلك العناوين مشترك مع الرضيع، فجهزوا أذهانكم وأفئدتكم للكثير من المُدهِشات!

كان هذا مرورًا سريعًا جدًا على جملة من الحقوق المالية للوليد في الإسلام، غفر الله جهلي وتقصيري في سرد بقية كنوز الوحيين عنها.

فماذا عن حقوق واحتياجات الوليد الاجتماعية؟ هذا موضوع المحور التالي.



(١) صححه الألباني-صحيح ابن ماجه (٢٢٤٠).

المحور الخامس

حقوق واحتياجات الوليد الاجتماعية

وهو المحور المعنيُ بمكانة الطفل بين الناس وتواصله معهم، بدءًا من «الخلية الاجتماعية الأولى: أسرة الطفل»، وصولًا إلى بقية دائرته الاجتماعية الأوسع(١).

أولًا: حق الوليد في النسب

أي حفظ نسب الوليد، وهو يندرج تحت مقاصد حفظ النسل والنفس معًا، ومعناه: الاعتراف باتصال الطفل بأبويه وأمه نسبًا واستحقاقه لجميع الحقوق المترتبة على ذلك من رضاعة وحضانة ونفقه وولاية، إلى آخر ما ذكرناه منذ البداية، فكله لن يتم إلا بإثبات وحفظ النسب! فهو بمثابة زر التشغيل والتفعيل لكل حقوق واحتياجات الوليد، أدركتم أهميته في التربية؟

بالتالي، الاستهانة بهذا الحق يؤثر على نفسية وعقلية وصحة الطفل وبنائه الاجتماعي والديني وحقوقه المالية والتحصينية والصحية والنفسية، باختصار: كل شيء!

يقول د/ وهبه الزُحيلي: «النسب أقوى الدعائم التي تقوم عليها الأسرة ويرتبط من خلاله أفرادها برباط دائم من الصِّلة تقوم علي أساس وحدة الدم، ورابطة النسب هي نسيج الأسرة الذي لا ينفصم عُراه، وهو نعمة عُظْمَى أنعمها الله على الإنسان، إذ لولاها لتفككت أواصر الأسرة وذابت الصِّلة بينهم ولما بقى أثر من حنان وعطف ورحمة بين الأفراد، لذلك امتن الله ﷻ على الإنسان بالنسب، قال سبحانه – في سياق تعليمنا النعم التي تستوجب شكرنا له – ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤](٢).

---

(١) كما أسمتها د. هند شلبي رحمها الله.

(٢) د/ وهبة الزحيلي –الفقه الإسلامي وأدلته.

بل إن حق النسب في ذاته - بغض النظر عن حصول الطفل على أي من حقوقه بسببه أو عدم حصوله - يعتبر احتياج نفسي ضروري جدًّا بذاته، بشكل قد لا نتخيله، تأملوا معي تلك القصة:

جمع النبي ﷺ يوما صحابته وكلمهم عن أمور عظيمة، ثم قال: «سَلُونِي فَقَامَ عبدُ اللهِ بنُ حُذَافَةَ فَقالَ: مَن أَبِي يا رسول الله؟ قالَ: أَبُوكَ حُذَافَةُ»[1].

«قد كانَ يُطعَنُ في نَسبِ حذافة، فنَسَبَه ﷺ إلى أبيه الذي يُعرَفُ به بين الَّناسِ، وهذا السُّؤالُ كانَ يُمكِنُ أن يَتسبَّبَ في فَضيحةٍ للسَّائلِ وأهلِه لو كان النبي نسبه لأب آخر فيكون ابنَ زِنًا، ولذلك جاءَ في روايةِ مُسلم أنَّ أُمَّ عبدِ اللهِ بنِ حُذافةَ لامَتِ ابنَها على هذا السُّؤالِ، وقالت: «ما سَمِعتُ بابْنٍ قطُّ أَعَقَّ منك!! أَأَمِنتَ أنْ تَكونَ أمُّك قد قارَفَتْ بعضَ ما تُقارِفُ نِساءُ أهلِ الجاهليَّةِ، فتَفضَحَها على أعيُنِ النَّاسِ؟! قالَ عبدُ اللهِ بنُ حُذافةَ: (واللهِ لو ألحَقَني بعبدٍ أسوَدَ لَلَحِقتُه)»[2].

تأملتم مقالته! ما عاد يهمه أي شيء، ولا حتى أحب وأقرب الناس إليه وأحقهما بحسن صحبته وبرِّه: أمه! ما عاد يعنيه إلا أن تهدأ حيرته العاصفة وتستقر ريبته الفتاكة ويُخرِس ألسنة الناس الذين يعيش بينهم، بمعرفته إلى أي أب ينتسب حقًا، حتى لو كان الثمن الفضيحة لنفسه وأهله! وحتى لو كان نسبه إلى عبد أسود، وقد كان هذا وذاك مذمتين شديدتين جدًا أيام الجاهلية! فتأملوا.

وربما لأجل ذلك كله قال ﷺ في حق الولد الذي يتبرأ من نسبه لأبيه عامدًا مُختارًا بإرادته الحرة حين يكبُر: «كُفرٌ بامرئٍ ادِّعاءُ نسَبٍ لا يعرفُهُ، أو جَحْدُهُ وإن دَقَّ»[3].

---

(١) البخاري (٧٢٩٤).

(٢) من شرح الدرر السنية للحديث.

(٣) حسنه الألباني-صحيح الجامع (٤٤٨٦)، وصحيح ابن ماجه (٢٢٣٣) | أخرجه ابن ماجه (٢٧٤٤) واللفظ له، وأحمد (٧٠١٩).

وفي رواية: «كُفرٌ بالله تَبَرُّؤٌ من نسبٍ، وإن دقَّ»[1]، «أي: تعمُّدَ الانتِسابِ لغَيرِ الأبِ مع العِلمِ بذلك، ذنبٌ عظيمٌ يَقتَضي الكُفرَ، والانتِفاءُ مِن النَّسبِ الصَّحيحِ المعلومِ صِحَّتُه، كفرٌ أيضًا، فمَن استَحلَّ فِعلَ هذا معَ عِلمِه فقدْ كفَر الكُفرَ الأكبرَ المخرج مِن الملَّةِ، وأمَّا مَن فَعَله غيرَ مُستحِلٍّ له فهو مَحمولٌ على كُفرِ النِّعمةِ والإحسانِ وحَقِّ اللهِ وحقِّ أبيه، وهذا «الانتسابُ» أو «الانتفاءُ مِنه» - بغير الحق - فيه خلط للأنساب يترَتَّبُ عليه خطَرٌ عظيمٌ وفَسادٌ كثيرٌ: مِن حِرْمانِ وارثٍ، وتوريثِ مَن ليس بوارِثٍ، وتحريمِ أبضاعٍ مُباحةٍ، وإباحةِ أبضاعٍ مُحرَّمةٍ، والطَّعنِ في نسَبِه، وازدراءٍ لأصولِه الَّتي تَولَّد منها، وعقوقٍ لها، وضياعِ الولاءِ والعَقْلِ، مع ما فيه مِن قَطيعةِ الرَّحِم»[2].

فمن حفظ النسب للوليد

١ - منع الشريعة للأم من إنكار نسبه لأبيه، والتحريم عليها كذلك نسبة الولد إلى غير أبيه الحقيقي.

- قال ﷻ: ﴿ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة:٢٢٨]، ذكرناها من قبل في فصول الجنين عند كلامنا عما تفعله أحيانًا بعض الزوجات من ذلك لمكايدة الزوج أو تحقيق غايات شخصية معينة، فتكتم وجود جنين، وكذلك قوله: ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة:١٢]، أي: لا يُلحِقن بأزواجهن أولادًا ليسوا منهم.

- وقال ﷺ: «أيُما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم -أي: ولدًا من الزنا وكأنه ينتسب لهم - فليست من الله في شيء ولن يُدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله ﷻ منه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين يوم القيامة»[3].

---

(١) حسنه الألباني-صحيح الجامع (٤٤٨٥).

(٢) من شرح الدرر السنية للحديث/ وأبضاع: الفروج، والكلمة هنا كناية عن الزواج بالنساء.

(٣) مختلف في صحته-وصححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٤١٠٨) | وحسنه ابن حجر-هداية الرواة (٣/ ٣٢٣) | وصححه شعيب الأرنؤوط-تخريج شرح السنة (٢٣٤٧) | والمنذري قال: صحيح أو حسن أو ما يقاربهما-الترغيب والترهيب (٣/ ٢٦٥).

٢-تحريم الشريعة للتبني، وقد كان معمولًا به في الجاهلية حتى بعثته ﷺ، ثم نزلت عليه آيات أبطلته، وقد تبنى ﷺ زيدَ بن حارثه قبل ذلك التشريع، حتى كان يُدعَى بـ «زيد بن محمد»، إلى أن نزلت: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيل * ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤-٥].

وهذا الكلام موجّه لِمن يكفلون طفلًا وليدًا أو رضيعًا، كتب الله أجرهم وأورثهم صحبة النبي ﷺ في الجنة آمين؛ فينبغي عليهم توضيح الأمر بشفافية: سواء للطفل اليتيم، أو للطفل الأصلي الذي من صلبهم وسيُرافِق الطفلَ اليتيم، فلا يقولون لابنهم الأصلي: «هذا ابننا مثلما أنت ابننا»[1]، ويُخفون عنهما حقيقة الأمر حتى يكبر الأولاد وهما يعتقدان أنهما من نفس البطن ونفس النسب ثم تحدث لهُما الصدمة عندما ينكشف لهم كذب وزيف هذا الكلام، بخاصة صدمة الطفل اليتيم، فلا بد من الحيطة، لأنه قد يحدُث بسبب هذا أيضًا اختلاط أنساب وضياع حقوق مالية متصلة بالميراث، إلى آخر الأحكام الشرعية المهدرة في حالة عدم التوضيح.

وتلك الآثار النفسية السيئة متصلة أكثر بالمراحل العمرية الأكبر بطبيعة الحال - الرضيع وأكبر منه - لكن ذكرناها هنا لاتصالها بنفس المسألة بشكل دقيق يصعب معه فصلهما.

وفي هذا الباب من كنوز الأحكام الشرعية ما أعجز عن إحصائه كذلك مما يخص كيفية وطرق وأسباب ثبوت النسب في حال تنازع الوالدين مثلًا، ورفض الأب أن يعترِف بولده ليكيد الأم ويمتنع عن النفقة، أو ليسجنها والعياذُ بالله، أو إن حدث طلاق لا سمح الله وكانت الأم حاملًا ولا تدري ثم فوجئت بالجنين بعد الطلاق،

---

(١) يمكن للمرأة هنا إرضاع اليتيم كي يصير أخًا لابنهما بالرضاعة، فحينئذ تقول له أنت «ابني» من الرضاع وهو «ابني» من الرحم، ولا حرج.

فهناك قواعد كثيرة لا حصر لها نظّمت أحكام ومسائل تلك القضية لحساسيتها ولتَرَتُبِ حقوقٍ عظيمة عليها، تُبيّن كلها مدى عِناية الشريعة بهذا الحق عميق الأثر على الوليد من كل الزوايا وليس الاجتماعية فقط، ولكن لا مجال لسردها الآن لعدم اتصالها المُباشِر كقواعِد فقهية بمسألة تربية الوليد نفسه، فيكفي ما تم ذِكره، والذي يحفظ حق الوليد في النّسب، وحقه في نفقة أبيه عليه وعلى أُمّه، وحقه في الحضانة وغيرها من الحقوق المُترتبة على ثبوت النّسب، لينمو الطفل بسواء على كافة الأصعِدة، فيكفينا التأكيد على وجود شروط صارمة لحفظ هذا الحق وأن هذا جانب مُضيء آخر من الحقوق الاجتماعية للوليد في حضن الإسلام.



ثانيًا: حق الوليد في إظهارنا الفرحة بقدومه، وبغض النظر عن كونه ذكرًا أم أنثى

هذان حقان مستقلان وليسا حقًّا واحدًا، وفيهما بالطبع زوايا حقوق واحتياجات نفسية، لكنها ظاهرة اجتماعية في الأساس لذا سردناها هنا في الحقوق الاجتماعية.

أولًا: الشق الأول: إظهار الفرحة بقدومه:

لدينا في القرآن الكريم نصوصٌ كثيرةٌ لإشاعة الفرح والبشارة بقدوم الوليد، فمثلًا بشرت الملائكة الرسل بالذرية؛ ومن ذلك: حين بَشرت سيدنا إبراهيم وزوجته: قال ﷻ: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوب﴾ [هود:٧١]، وغيرها من آيات القرآن التي تبشر الآباء بالذرية وتؤكد أنها من البشارات، لذلك ذم الله ﷻ من تَبَرَّمَ من إنجابه الأنثى لأنه ﷻ هو الذي وهبها كما وهب الذكر، فكلاهما هبةٌ وهدية يُعابُ رافضُها وجاحدُها، بالإضافة إلى أن الحياة لا تستمر إلا بالذكر والأنثى معًا، لذلك ذم الله هؤلاء قائلًا: ﴿أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُون﴾ [النحل:٥٩]، ونظرًا لأن مجيء الذرية بُشرى، كان السلف يُهنئون بعضهم البعض على وصول المولود.

إذن هناك مظهران في إظهار الفرح بالوليد

التبشير بقدومه قبل أن يجيء.

والتهنئة بقدومه بعدما جاء.

۞ **التبشير**: كأن نقول مثلًا «مبارك! أنتِ حامل، أو أنا حامل، أو فلانة حامل! إلخ»، أي: إبلاغُ الخبر قبل معرفته، بشكل سار ومبهج وفيه مظاهر سرور.

۞ **والتهنئة**: هي إظهار الفرح بالخبر السار بعد معرفته وانتشاره، كما حصل لكعب بن مالك لما نزلت توبته، وقد كان فيها الأمران: فيها التبشير وفيها التهنئة(١)، وبهذا المثال سيتضح الفرق بينهما أكثر، حيث إنه لما نزلت التوبة عليه، كان كعب معزولًا بمفرده في بيته، فذهب إليه البشيرُ يبشره بالمفاجأة، فلم يكن يعلمها بعد، ثم بعدها ذهب سيدنا كعب إلى المسجد فتوافد الناس إليه يهنئونه ويباركون له ويَدعون له بعدما عرف الخبر وابتهج به.

المهم أنه بأي من هاتين الطريقتين أو حتى بكلتيهما، تتم إشاعة الفرحة بقدوم الوليد وبخروج نسمة مسلمة يكاثر بها النبي ﷺ الأمم يوم القيامة ونُشِيعُ بها نسبَه بين الناس، وكلتاهما تتم بأية وسيلة مهما كانت بسيطة لكن تؤدي المقصد والغرض: كالهاتف، أو الهدية، أو الزيارة إلخ.

هذا بالنسبة للشق الأول في حق الوليد فيما يخص الفرح بقدومه بشكل عام.

ثانيا: الشق الثاني: أن نفعل هذا بغض النظر عن هل هو ذكر أم أنثى:

تفصيله في نقطة مستقلة تالية، فهذا أيضًا من حقوق الوليد الاجتماعية المستقلة عن أي شأن آخر.

---

(١) مستفاد من كلام لابن القيم-تحفة المودود بأحكام المولود، باختصار وتصرف يسير.

ثالثًا: حق الوليد عامة في عدم التفرقة بين الذكر والأنثى دون سبب معتبر شرعًا، وتعزيز الحقوق الاجتماعية للوليدة الأنثى بشكل خاص عند وجود دعوات جاهلية:

معروف أن العرب في الجاهلية كانوا يترقبون قدوم الصبيان ليكونوا لهم عزًّا وسندًا في التجارة وطلب الرزق والحروب وأعمال القبيلة والتفاخر بالعدد والقوة وغير ذلك، أما بالنسبة للبنات، فكانوا يترقبون قدومهن لوأدهن أحياء! فكان قدوم الوليدة إعلانَ شهادةِ وفاة لها، لا شهادة ميلاد، لرعبهم من وقوعهن في الأسر وتحولهن لمِلك يمين في يد خصومهم، مما يلحق العار والانكسار بالأهل، بجانب عدم مساعدة البنات لآبائهن في أعمال القوة التي يتقنها الرجال، فالبنت بالنسبة لهم: (مشروع مسئولية ثقيلة، كائن ضعيف مُستهلِك غيرُ منتِج، مخدوم أكثر من كونه خادم، وربما جلب لهم العار يومًا بسبب ضعفه!)، مما كان يحملهم على كراهية قدومها بشكل يعجزون عن إخفائه.

قال ﷻ واصفًا حالهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيم * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُون﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

ولم يبدأ ذلك في المجتمع فجأة دون مقدمات، بل سبقه خطوات شيطان بالتأكيد كعادة منهج إفساد إبليس للبشر، حتى جاء الإسلام بشريعة الرحمن، فحفظ للبنت حقوقها ورفع شأنها وجعل حسن تربيتها ورعايتها والنفقة عليها سببًا من الأسباب الموصلة لرضوان الله ﷻ وجنته والأجر العظيم، وحث على العدل بينها وبين الذكور:

- فنرى النبي ﷺ يأمر المسلمين بالذبح والإطعام فرحًا بمجيء الوليدة كما يذبحون ويطعمون فرحًا بمجيء الوليد الذكر.

- ونرى عائشة رضي الله عنها لا تهتم هل المولود الجديد ذكر أم أنثى؟ بل

المهم هو أنه جاء سليمًا معافىً، قال كثير بن عبيد: «كانت عائشةُ رضي اللهُ عنها إذا وُلِدَ فيهم مولودٌ – يعني من أهلِها – لا تسألْ: غلامًا ولا جاريةً؟ تقول: خُلِقَ سويًّا؟ – أي: هل خالٍ من العيوب والأمراض والمشكلات ومعافىً في بدنه وصحته ونحو ذلك؟ فإذا قيل: نعم، قالت: الحمدُ لله ربِّ العالمينَ»[1]، وأعطى الإناث عناية إضافية عند انتشار تلك الجاهلية كما سنقرأ في المحور الاجتماعي للرضيع.

فهل تظنون أن تلك الجاهلية قد ولَّت إلى غير رجعة وأننا لسنا بحاجة لتثبيت أركان هذا الحق مجددًا في المجتمع؟ كلا ما أدبرت وما ولَّت، ففي كل زمان نرى بعض أمارات جاهلية أمس تجاه الإناث، بل كثير ممن لا زال يرتكبها هم ممن يُسَمَّون مجتمعيًّا بـ«علية القوم المثقفين» أصحاب الشهادات العلمية والتحضر، بل امتدت كذلك من بعض الأمهات تجاه المواليد الذكور، فنجد المشهدين: بعض الآباء والجدود يكرهون مجيء المولود أنثى، ويعاقبون أهلها معنويًّا – وربما ماديًّا – على ذلك، وكذلك بعض الأمهات حين يعلمن أنهن سينجبن ذكرًا، تُظهِر النكد والحزن والندم لقدومه، بينما تُظهر النقيض لقدوم المولود أنثى، والأسوأ إذا أظهرت ذلك على مرأى ومسمع من صغارها الآخرين أو الناس، مما ينذر بعواقب مماثلة لجاهلية أمس إن لم نؤسس مناعة ضد ذلك مبكرًا منذ لحظات الميلاد، فكما أن رفض الرجال لإنجاب الإناث ممنوع، فرفض النساء لإنجاب الذكور أيضًا ممنوع، فكل ذلك تنمو نبتتُه مبكرًا في ظلمات الأرض وهم لا يشعرون، إن لم يراقب المرء قلبه وإخلاص توحيده لله ويقينه في حكمة قضائه كله ورضائه على أية حال، فالأولَى للآباء بدء التعود على عدم التفرقة بين الذكر والأنثى والتمرُّن على التحرز من ذلك مبكرًا، أي منذ مرحلة الوليد هنا، بل منذ مرحلة الجنين حين تكلمنا في حقوق واحتياجات الجنين الجنسية الشريعة: عدم تغيير «جنس الجنين»؛ ضمانًا لنموٍ اجتماعيٍ سليم للطفل بإذن الله، بالذات إعطاء التعريف بحقوق البنات عناية خاصة،

(١) صحيح الأدب المفرد (٩٥١) –قال الألباني: حسن الإسناد موقوفًا.

لاسيما مع عودة الجاهلية الحديثة، بجانب تلقين الأبناء الذكور ذلك لئلا ينشأوا على احتقار الإناث ودهس حقوقهن.

وربما يسأل أحدكم سؤالا: ألم تقل أم مريم بعد ولادتها مباشرة لمولودتها الأنثى «مريم»: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ [آل عمران:٣٦] - أو على الافتراض الآخر من أنها من قول الله ﷻ لا أم مريم - فبالتالي من الطبيعي أن نفرح لقدوم أحدهما أكثر من الآخر للتفاضل بينهما؟

والجواب: أي نعم هما مختلفان بالفعل، فكلامنا ليس لنفي اختلافهما في الخصائص بما يدعم تنوع خِدمة الدين؛ إنما لتحريم التفرقة بينهما في مظاهر الحب والعطف والاحتفاء ونحوها بزعم اختلافهما في الخصائص، فالأصل هو الفرحة بقدوم هبة الله أيًّا كانت مذكرة أم مؤنثة، هدية بيضاء أم حمراء أم صفراء، ففي كلٍّ تنوعٌ وخير وبهجة للروح، وكلها هدايا محمودة وهِباتٌ غاليةٌ بيضٌ وحُمرٌ مختلفٌ ألوانها مِن الحميد المجيد: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُور﴾ [الشورى:٤٩].

فمع أن الآية جاءت في سياق الاختلاف في الخصائص المقرون بتمني أم مريم الولد لأنه ذو الخصائص الأقوى والأقدر على خدمة دين الله ودور عبادته، إلا أن الله ﷻ قد علمها درسًا تربويًّا بليغًا، مفاده: أنه حتى نوع المولود مسألة لا يَعلمُ الخيرَ الأفضل فيها حق المعرفة إلا الله، فتلك الأنثى الزكية «مريم» التي أنجبتها أم مريم، هي التي جاءت بالذَكر الزكي المبارك «عيسى بن مريم»، والذي أصبح نبيًّا بعد ذلك كما كانت ترجو جدتُه، ذكرًا قويًّا متمكنًا من الخصائص المرجوة والمطلوبة لتحَمُّل أمانة إبلاغ الدين للناس، وهذا خير مُضاعَف بلا شك، عما كانت ترجوه من أمنيتها الأولى وتتوقعه.

فالمهم - كما تعلمنا من أمنا عائشة - ماذا؟ أن الوليد جاء سويَّ الخِلقةِ وجاهزًا

لتعميرِ الحياة وتعبيدها لربه بسواء، وبالطبع أحيانًا يأتي مولود غير مكتمل النمو أو عنده مشكلات نمو تعيقه عن تعمير الحياة والتفاعل معها بشكل سليم مائة بالمائة، وهذا الطفل بالطبع وأهله لهم عظيم الأجر عند ربنا الشكور الكريم: هو لصبره على ابتلائه، وهم لصبرهم على رعايته وعلى ابتلائهم.

فكلامنا لا يقلل أبدا من شأن من جاء غير مكتمل الخلقه أو طبيعته فيها نقص أو مرض ونحوه، إنما نتكلم عن الغرض الأصلي من الإنجاب والتربية، والذي من المفترض أنه مقصود كل مسلم من الحياة الزوجية، ألا وهو: إخراج ذرية سوية خالية من المشكلات والمعوقات في طريق عبودتيها لله وتعبيدها الأرض له سبحانه، ولو بأقل المتاح.

ذكرنا هنا جوانب معينة من فقه المسألة خاصة بمرحلة الوليد فحسب، ونؤجل البقية لفصول الرضيع النفسية والاجتماعية لتشعب التفاصيل المرتبطة بذلك معًا هناك أكثر بطبيعة الحال.

رابعًا: حق الوليد في العدل بينه وبين إخوته بشكل عام

ليس لأن الوليد يدرك أيًّا من ذلك في هذه المرحلة بالطبع، وإنما للعواقب المترتبة على ذلك مما يتصل بحقوقه واحتياجاته:

- **فلا نُفَضِّلَ الوليدَ على إخوته لئلا يكرهوه أو يؤذوه**، بل يجتهد الأهل في مراعاة حقوق الإخوة ومتطلباتهم هم كذلك حتى لا تتغير قلوبهم على أخيهم الوليد وتسوء علاقتهم وربما نالوه بإيذاء.

- **وكذلك لا نفضل إخوته عليه لئلا يحتقروه ويهملوا شأنه وربما آذوه أيضًا استخفافًا به.**

فلأجل أن يتفادى بعض الأهل نشأة الغيرة منهم تجاهه يفرطون في حقوقه!

معتقدين أن هذا لا خطورة منه لأن الوليد لا يفهم ذلك بعد - وهذا صحيح فهو لا يفهم - لكن إخوته الكبار يفهمون!

مثل تعمد الأهل ترك الوليد يبكي دون إغاثة أو شفقة أحيانًا مع قول عبارات لإخوته مثل «دعوا هذا المزعج ولنكمل لعبنا معًا»، ونحوها.. كلا.

لا هذه ولا تلك، فالعدل والتوازن من حق الوليد، فلا إفراط ولا تفريط، ونحن محاسبون على العدل بين الأبناء عمومًا كلٌ بقدر احتياجاته، فلا يضاعِفُ الوالدان الحب والاهتمام والرعاية واللطف مع الوليد، ويخصمان مثلهم من نصيب إخوته ويهملان احتياجاتهم المماثلة. وكذلك لا يُحَمّلان إخوته ما لا يطيقون من طلبات لازمة لأجل رعاية أخيهم معهما، سواءٌ عمدًا، أو من غير عمدٍ، مما يؤجج الغيرة المذمومة بينهم والحقد والغل.

فإذا كان هناك اضطرار لفعل ذلك، فلا يتم دون توعية للإخوة الأكبر بملابسات الأمر والمنطق من ورائه، مِن ضَعف أخيهم الوليد مثلًا واحتياجكم لمساعدتهم وفخركم بهم لتحملهم مسئولية أخيهم الأصغر الجديد ومساعدتهم لكما في شئون حياته وإشباع احتياجاته، ولا يخفى ما في ذلك من تربية للأخ الأكبر كذلك والتعويد له على إنفاقه من صحته ووقته وماله على أهل بيته من باب «خيركم خيركم لأهله»[(١)]، وتنشئةً له على قيمة إفراغ الرحمة والعطف على الصغير من الكبير وعلى الضعيف من القوي، بقدر طاقته وتحمله.

وينبغي اعتياد الوالدين على ذلك مبكرًا لئلا نعاني من عواقب «الغيرة السوداء» التي فصلناها في فقرات «الغيرة بين الإخوة» في مشكلات المرحلة الجنينية، فيرجع إليها تحاشيًا للتكرار.

---

(١) صححه الألباني-صحيح الترمذي (3895)، وصحيح الترغيب (١٩٢٤).

خامسًا: حق الوليد في التزام الأهل بسنن المولود التي لها زوايا اجتماعية

ومن سنن المولود الاجتماعية

التسمية:

وسبق بيانها كاملة في المحور النفسي، وبينَّا حجم تشابكها مع الجانب الاجتماعي أيضًا، فيرجع إلى تفاصيلها هناك.

والاحتفال مجتمعيا بقدومه بعمل العقيقة وجمع الناس على بهجة الطعام:

وذلك مستفاد من حديث العقيقة الذي ذكرناه سابقًا: «كلُّ غلامٍ مرتَهَنٌ بعقيقتِهِ تُذبَحُ عنهُ يومَ سابعِهِ ويُحلَقُ ويُسمَّى»[1]. و«العقيقة» تختلف عن مسألة «إشاعه الفرح بقدوم الوليد بالتبشير والتهنئة» التي ذكرناها في بداية الفصل:

-لكون العقيقة بذاتها سُنة ثابتة من سنن المولود.

-ولكونها تحتاج جُهدًا ومالًا لا يُقارَنا بمجرد التهنئة والتبشير.

-ولأن التبشير والتهنئة هما مما سيفعله الناس لا الأهل، فالعقيقة تكون على الأهل وحدهم.

وسبق أن تكلمنا عن جوانب من فقه العقيقة من قبل إجمالًا، أما هنا فنبرز ما فيها من جوانب **اجتماعية** إضافية على مجرد تهيئة أجواء الفرحة بين الناس بمجيء المولود، فمن ذلك:

١. اجتماعهم على الفرحة به معًا.

٢. اجتماعهم على مظاهر الاحتفال بتلك الفرحة وما فيها من طعام

(١) صححه الألباني-صحيح الترمذي (3895)، وصحيح الترغيب (١٩٢٤).

وشـراب محبـب للجميـع وأجـواء مـن الألفـة والتلاقـي والمـودة؛ ممـا ينشُـر محبتـه في قلـوب النـاس أكثـر ويُشـعرهم بمكانتـه بيـن أهلـه، ويصـون نمـوّه النفسـي والاجتماعـي أكثـر وأكثـر فيمـا بعـد كمـا قلنـا، وهـذا أيضًـا مقصـد اجتماعـي.

٣. تَحقـق مقصـد اجتماعـي لـه علاقـة بضـرورة حفـظ النسـب ألا وهـو «إعـلام النـاس بميـلاد الوليـد وأن اسـمه فـلان وهـو ابـن فـلان التابـع لعائلـة فـلان»؛ وهـذا حـق اجتماعـي مركـزي للوليـد وسـبق الـكلام عنـه في أول عناصـر الفصـل.

٤. إثبات وترسيخ لجِنس المولود أكثر من حيث كونه ذكرًا أم أُنثى، لأن السُّنّة: إذا كان ولـدًا نعقّ عنه بشاتين، ولـو أُنثى نعقّ عنها بشاةٍ واحدة، فتشيع بين النـاس أكثر وتتأكد هويةُ هذا الضيف الجديد، وهو احتياج ومقصد اجتماعي أيضًا.

فـكل ذلـك فيـه تربيـة إضافيـة لمـن حـول الطفـل علـى إكبـار أمـره ومحبتـه وحفـظ مكانتـه المجتمعيـة، لأن ترسـيخ ذلـك فيمـن حولـه مـن أول يـوم يصـون تراكميًّـا نمـوه الاجتماعـي والنفسـي والصحـي.

ربمـا أدركنـا الآن لمـاذا دعـا الإمـام أحمـد لمـن اقتـرض لشـراء العقيقـة! صـدق مـن زَكَّـى هـؤلاء القـوم ضمـن خيـر القـرون الأولـى، وحثنـا علـى تلمـس حكمتهـم واتباعهـا مـن بعـده ﷺ.



سادسًا: حق الوليد في تكنية أهله باسمه لو كان هو المولود الأول لهم

ففيهـا ترسـيخ لقيمتـه مجتمعيًّـا أكثـر في النفـوس، فالنـاس حيـن يسـمعونها تكُـرر كثيـرًا يَعظُـم في وجدانهـم قـدر هـذا الطفـل أكثـر والشـعور بأهميتـه عنـد والديـه، وبالفعـل يتـم تخزينهـا في ذاكـرة الوليـد منـذ الآن تراكميًّـا بالتكـرار السـمعي اليومـي لهـا، وقـد فعلهـا ﷺ مـع أحـد الصحابـة كمـا حكينـا في التسـمية، حديـث «أبـو الحَكَـم»، حيـن أراد ﷺ

تغيير كنيته تلك لأن الله هو الحَكَم، فقال له ﷺ: «فما لك من الولد؟» فقلت: شريح ومسلم وعبد الله، قال: «من أكبرُهم؟ قلت: شريح، قال: «أنت أبو شريح»[١].

سابعًا: الذهاب به إلى أهل الصلاح والمعارف للدعاء له في وجهه

ذكرناها من قبل في المحور التحصيني تحت عنوان «استجلاب دعاء الصالحين له»، ونذكرها هنا أيضًا لما فيها من زاوية اجتماعية إضافية متمثلة في نشر محبتي للطفل بين الناس بخاصة أهل الصلاح والتقوى فيعرفون أني أخاف عليه وأتلمس كل سبيل يجلب له الخير فيهتمون لأمره معي، وكأنني أُسوق العالمَ أجمع ليهتم بسعادته ومصالحه معي ويعطف عليه، وتتكون بذلك له مكانة اجتماعية أوسع وأطيب، مما يساهم في نشأته في مُحيط اجتماعي سوي صحي.

أوردنا نصوصها الشرعية من قبل، نقتبس منها واحدًا فقط تفاديًا للتكرار: قال أبو موسى الأشعري: «وُلِدَ لي غُلَامٌ، فأتَيْتُ به النبي ﷺ فَسَمَّاهُ إبْرَاهِيمَ، فَحَنَّكَهُ بتَمْرَةٍ، ودَعَا له بالبَرَكَةِ، ودَفَعَهُ إلَيَّ»[٢]، واشتهر عن الصحابة ذلك.

وهكذا نكون أنهينا الحقوق الاجتماعية التي استطعت إحصاءها من كنوز الوحيين، ولا أزعم فيها الكمال أيضًا كمثيلاتها السابقات، ولكن جُهد المُقل، فاللهم تقبل.

ولعلكم الآن عرفتم لماذا قلنا في بداية المرحلة أننا لا نبالغ إذ نقول إن للوليد في أسبوعه الأول في الدنيا تربية يطول شرحها؟

فماذا عن الحقوق والاحتياجات الصحية للوليد؟

هذا موضوع المحور التالي بإذن الله.

---

(١) صححه الألباني-صحيح الأدب المفرد (٦٢٣).
(٢) البخاري (٥٤٦٧).

المحور السادس

حقوق واحتياجات الوليد الصحية

ونعني به: كل ما يتصل بحفظ حياة النفس وما يتعلق بها.

أولًا: حق الوليد في الحياة

تناولناها في حقوق الجنين بما يناسبه، وجاء دورها معنا مرة أخرى بعدما قدم إلى الدنيا، وقد تستغربون مثل هذا العنوان في مثل زماننا، لكن قتل المواليد للأسف لا زال موجودًا إلى يومنا هذا، رغم أن هذا الحق يندرج بكل وضوح وبشكل مباشر تحت إحدى الضرورات الخمس التي لا يجهلها أحد: ضرورة حفظ النفس، إلا أن بعض الناس يرتكبون تلك الجريمة المنكرة عبر كل زمان، وبصور متنوعة ولأسباب شبه متكررة:

- إما بسبب الزنا والعياذ بالله، فنرى إحداهن على الشاشات في إحدى الدول وهي تلقي بوليدها في القمامة بعدما فشلت في قتله في بطنها، وقد قال ربنا: ﴿ولَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٢].

- أو بسبب الفقر وقلة ذات اليد وقد قال ربنا: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]، أي: لا تقتلوهم بسبب وجود فقر وضيق ذات اليد عن النفقة بوفرة على الطفل، لا مجرد خشية حدوث الفقر باحتمال مجيئ الطفل للدنيا.

- أو بسبب مشاكل زوجية تمنع الزوجة من تقبل فكرة ارتباطها بطفل بقية عمرها من هذا الرجل الذي تسعى للطلاق منه.

- أو بسبب ما قلناه في المحور الاجتماعي عن «كراهية البنات» بشكل خاص، ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل:٥٩]، ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩]، وهذا السبب كان أبرز في الجاهلية القديمة.

ومهما كانت الأسباب، أو الوسائل، يظل الأمر بنفس ضخامة العنوان: حرمان الوليد من حقه في الحياة، وكله يدخل ضمن نهي الله ﷻ: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١].

وفيما يخص خشية الفقر بشكل خاصٍ هناك وعيدٌ شديد، ربما لأن من يقتل ولده بسبب الرزق، يضم إلى ذنبه ذنب أشد، ألا وهو إساءة الظن بربه وكرمه ورزقه وخزائنه، واعتراض على رزقه منه سبحانه. في مرة سأل سيدنا عبد الله بن مسعود النبيَ ﷺ: «أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك قال عبد الله: إن ذلك لعظيم. ثم أيّ؟ فقال ﷺ: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»[(١)]، وصدق النبي ﷺ فهذه هي الترجمة الحقيقة لما فعله الأب بالفعل، بدون مبالغة، مهما برر فعلته، فأي شح نفسٍ وسوادِ قلبٍ هذا؟

وأكتفي بهذا القدر لظني أن من يقرءون كلامي الآن بعيدون عن ذلك بالفعل بإذن الله، وإنما كان لابد من وضع المسألة في موضعها ضمن الحقوق لعدم تفويت المقال عن المقام.

ثانيًا: حق الوليد في تطبيق سنن المولود التي لها علاقة بصحته

ومنها أمور ذكرناها في الحقوق والاحتياجات الدينية والتحصينية و لها أيضًا زوايا صحية، وبيانها كالتالي:

١-فمن سنن المولود الصحية: حلق شعر الوليد

قال ﷺ: «كُلُّ غلامٍ رهينةٌ بعقيقتِه، تُذبَحُ عنه يومَ سابعِه ويُسمَّى فيه ويُحْلَقُ رأسُه»[(٢)].

ومما يُروَى في الجانب الصحي: «حلق رأسِه وإماطةُ الأذى عنه وإزالةُ الشعر

(١) البخاري (٤٤٧٧)، (٧٢٥٠)، صحيح مسلم:٨٦).
(٢) صححه الألباني-إرواء الغليل (١١٦٥-١١٦٩)، وصحيح أبي داود (٢٨٢٣).

الضعيف ليخلفه شعر أقوى وأمكَن منه وأنفع للرأس، مع ما فيه من التخفيف عن الصبي وفتح مسام الرأس ليخرج البخار منها بيسر وسهولة وفي ذلك تقوية بصره وشمه وسمعه»[١].

«إن شعر الطفل يكون حاملًا لبعض الميكروبات بسبب الولادة، وحلاقة الشعر تحمي البصيلات من هذه الميكروبات، وتظل سليمة، ويخرج الشعر من جديد نظيفًا معافًى»[٢].

وهناك كلام أكثر من ذلك عن فوائده الصحية منتشر على الإنترنت في مواقعَ مختلفةٍ، لكن لم نجد أبحاثًا علمية تؤكده أو تثبت أي من ذلك بعد، إلا أنه أكثر من طبيب وأهل علم ثِقات قد أكدوا على أن الحلق من الأمور الصحية للمولود بالفعل، بالإضافة إلى أنها سنة بالطبع.

٢- الختان

أوردناه سابقًا في المحور الديني، له زوايا صحية فيها جملة من الفوائد الصحية المعترف بها محليًّا وعالميًّا والتي من أجلها يُعتبَر من محاسن الشريعة ومن معجزات النبي ﷺ، يقول د. علي البار[٣]:

- الوقاية من الالتهابات الموضعية في الأعضاء التناسلية للذكر الناتجة عن وجود هذه القطعة من الجلد التي تُزال، وتلك الالتهابات من الممكن أن تصبح مزمنة وتُعرض الطفل لأمراض كبيرة في المستقبل لا قدر الله قد تصل لسرطان في الأعضاء التناسلية عافانا الله.

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود-ابن القيم.

(٢) من كتاب «آداب المولود بين الإعجاز العلمي والتحدي التربوي»، لمحمد سلامة الغنيمي| دكتوراة في فلسفة التربية تخصص أصول تربية، ومدرس بالأزهر.

(٣) بتصرف واختصار الدكتور محمد علي البار في مقالته في مجلة الإعجاز العلمي العدد الرابع عن التفسير العلمي لتحنيك الطفل، بتصرف واختصار يسير جدا، وهو استشاري أمراض باطنية ومستشار قسم الطب الإسلامي، مركز الملك فهد للبحوث الطبية، جامعة الملك عبد العزيز بجدة. لمزيد تفاصيل عن الفوائد العلمية بقلمه: مقالة على في الطب والتداوي على «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: فوائد الختان الصحية والشرعية.

۞ الأطفال غير المختونين يتعرضون لزيادة كبيرة في التهابات المجاري البولية، وتكون خطيرة جدًا في بعض الأحيان بدرجة تسبب التهاب السحايا، والبعض يتسبب له فشل كلوي والبعض الآخر حصلت لهم وفاة بسبب انتشار الميكروبات في الجسم.

۞ الوقاية من سرطان أعضاء الذكور التناسلية، وأجمعت الدراسات أن سرطان العضو يكاد يكون منعدمًا عند الأطفال المختونين، بينما نسبته عند غير المختونين ليست بالقليلة.

۞ وبعض الأطباء قالوا إنه يساعد الطفل على تجنب التبول اللا إرادي الليلي - وهو أحد مشكلات الرضيع وما بعد الرضيع أحيانًا كذلك.

وبالتالي يتبين لنا كيف أن سنن الجمال والفطرة تلك والخاصة بصحة الوليد، فيها أيضًا وقاية من الأمراض والميكروبات والتطورات الصحية الضارة بالأطفال حينما يكبرون.

٣- التحنيك

وقد سبق تعريفه وسرد أحاديثه إجمالًا في محور الحقوق والاحتياجات النفسية، فمنعًا للتكرار، نقتبس واحدًا منها فقط لمناسبةِ تفصيلِه هنا أكثر، قبل أن نسرد زواياه الصحية.

حديث (فجعل الطفل يتلمظ):

«لما ولدت أم سليم غلامًا، أرسلت به مع أنس إلى النبي ﷺ ومعه تمر، فأخذ ﷺ التمرات فألقاهن في فيه - في فمه ﷺ - فلاكهُن - مضغهن شيئًا يسيرًا لتطريتهن - ثم جمع لعابه - أي التمر الممضوغ يسيرًا في فمه ﷺ - ثم فغر فاه فأوجره إياه - فتح فم الوليد فألقاهن فيه - (فجعل الطفل يتلمظ)»[١].

(١) مسلم (٢١٤٤).

يتلمظ: يتتبع الطعم بلسانه ويتذوقه ويحرك لسانه ويخرجه بعد الأكل أو الشّرب ويمسح به شفتيه لينهل آثارهما، أي أن الوليد يمارس مع الطعام الذي في فمه مهارة المص والتذوق والتتبع.

فمن الفوائد الصحية للتحنيك على الوليد

۞ تمرين له على استعمال وسيلة غذائية جديدة ومهمة لحياته المقبلة استعدادًا للرضاعة الطبيعية التي سيعتمد عليها طويلًا.

وأقول: سبحان الله من أول يوم يتعلم أن الحياة تمرين متواصل دءوب، وفي هذا تربية لنا كذلك على ألا نتحسس نحن كأهل للطفل، بالخوف عليه من أقل شيء أو أدنى جهد يناله، فها هو الإنسان من أول يوم له، يمارس الحياة بشكل طبيعي ويتدافع معها ويلوكها بين فكيه ويتمرن على متطلبات العيش فيها بنفسه في رعاية رب العالمين.

۞ ويقول الدكتور أنيس الراوي(١): يولد الطفل مُعقّمًا مائة بالمائة، فيحتاج إلى فلورا بالفمّ، ووجِدَ أن التحنيك يمنح الطفل الفلورا، والفلورا هي: كائنات دقيقة ليست ضارة تتواجد طبيعيًّا في الفم ولها أدوار حيوية، منها: إحداث توازن في الفم بحيث لا يطغى نوع من الكائنات على الآخرين.

۞ ويقول الدكتور علي البار(٢): مستوى السكر «الجلوكوز» في الدم بالنسبة للمولودين حديثًا يكون منخفضًا، وكلما كان وزن المولود أقل كان مستوى السكر منخفضًا، بالتالي فإن المواليد الخداج [الذين وزنهم أقل من ٢,٥ كجم] يكون

(١) دليل المقاصد التربوية العامة، والدكتور أنيس الراوي هو أحد المحاضرين في موقع الجمعية الأردنية لإعجاز القرآن والسنة، ويمكنكم مطالعة التعريف به في موقعهم، قسم المحاضرين.

(٢) الدكتور محمد علي البار في مقالته في مجلة الإعجاز العلمي العدد الرابع عن التفسير العلمي لتحنيك الطفل، بتصرف واختصار يسير جدا، وهو استشاري أمراض باطنية ومستشار قسم الطب الإسلامي، مركز الملك فهد للبحوث الطبية، جامعة الملك عبد العزيز بجدة والمعلومات نقلا عن من مقالة في الطب والتداوي على «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: التفسير العلمي لتحنيك المولود بالتمر.

منخفضًا جدًا، ويؤدي هبوطًا شديدًا في مستوى سكر الدم، مما يؤدي إلى: رفض المولود الرضاعة، أو ارتخاء للعضلات،أو توقف متكرر في عملية التنفس وحصول ازرقاق للجسم، أو اختلاجات ونوبات تشنج، وقد يؤدي ذلك إلى مضاعفات خطيرة مزمنة: كتأخر في النمو أو تخلف عقلي أو شلل دماغي أو إصابة السمع أو البصر أو كليهما أو نوبات صرع - تشنجات متكررة، وإذا لم يتم العلاج في حينه قد تنتهي بالوفاة، رغم أن علاجها سهل ميسور وهو إعطاء السكر الجلوكوز مذابًا في الماء إما بالفم أو بواسطة الوريد - وهذا بالطبع يكون بمعرفة الطبيب بعد إجراء التحاليل وما إلى ذلك.

وقيام الرسول ﷺ بتحنيك المواليد بالتمر فيه حكمة بالغة، فالتمر يحتوي على السكر «الجلوكوز» بكميات وافرة بخاصة بعد إذابته بالريق الذي يحتوي على أنزيمات خاصة تحول السكر الثنائي «السكروز» إلى سكر أحادي، كما أن الريق ييسر إذابة هذه السكريات مما يسمح للمولود بأن يستفيد منها، وبما أن كثيرًا من المواليد يحتاجون للسكر الجلوكوز بعد ولادتهم مباشرة، فإن تحنيك المولود يقيه بإذن الله من مضاعفات نقص السكر الخطيرة التي سردناها، فهو علاج وقائي ذو أهمية بالغة وهو إعجاز طبي لم تكن البشرية تعرفه.

فبناءً على الاكتشافات الطبية هذه، يعتبر الرسول ﷺ هو أوّل من وَضع مادة سكرية طبيعية في فم المولود وجعل هذا سُنّة يسير عليها الناس إلى يومنا هذا منذ أكثر من ١٤٠٠ عام.

ثالثًا: حق الوليد في الرضاع الطبيعي وبالقدر الذي يحفظ صحته ونموه

وهذه هي الزاوية الصحية للرضاع، وهو ليس فقط غذاءً ونموًّا، وإنما أيضًا مناعة وسلامة من أمراض، أي يدعم بوضوح الكثير من مقاصد حفظ النفس، نتناول منه هنا الجانب الذي يخص الوليد فقط، والبقية في فصول الرضيع بما يناسبهما معًا هناك أكثر.

غذاء الطفل في الرحم وهو جنين كان يأتيه بدون اختيار منه أو من أمه، من خلال سُرَّتِه التي ربط الله فيها خرطومًا - الحبل السُري - يوصل إليه الغذاء من مشيمة الأم، سواءٌ أكلَت وشربَت أم نسيَت، فلا تتعرض حياته للخطر عندما تنسى هي أن تأكل وتشرب أحيانًا، إذ هو لا يستطيع التعبير عن جوعه بالبكاء بعد! لذا كان للجنين حقٌ على أمه حينها أن تتغذى جيدًا وتنتبه إلى كل ما تلقيه إليه في جوفها، وكذلك كان حقًّا على الأب حينئذ أن يُنفق على الأُم جيدًا، لأنها السبيل الوحيد لتغذيته.

ثم حين خرج الطفل من الرحم، وبدأ يشق طريقًا في الحياة انقطع عنه فيه هذا الغذاء التلقائي، أصبح على الأبوين واجبًا أكبر وأشد صرامة في ألا يفرطوا في حق الغذاء الجديد: الرضاعة بالفم، فالأُم ترضعه حليبها بالليل والنهار حسب احتياجاته وعليها ألا تغفل عن حقه في ذلك، وإن غفلت، فقد ألهم الله الطفل الآن البكاء ليطلب حقه وينبهها، كذلك الأب عليه هنا أن يُنفق على إدرار وتغذية هذا الحليب بعناصره الغذائية اللازمة لكليهما: الأم والطفل، لارتباط كل ذلك بالنمو الصحي للابن، وأن يحرصا على أن يكون رضاعًا طبيعيًّا فلا يُستعاض عنه بالحليب الصناعي إلا لسببٍ معتبر، لفوائده الشاملة التي لا تتوفر في غيره.

نذكر من تلك الفوائد الشقَ الصحيَ الخاصَ بالوليد فقط:

فمن أهم مراحل الرضاعة: حليبُ الأسابيع الأولى، والتي تدخل فيها مرحلة الوليد، ونظرًا لتميُّز خواص الحليب فيها عن غيره في بقية مراحل الرضيع سبحان الله سُمِّيَ باسم خاص به: «اللبأ» أو كما يسميه المصريون: «اللبن السرسوب»، حتى أن الفقهاء أوجبوا على الأم إرضاع وليدها منه.

يقول د/ وهبة الزحيلي: «أوجب الشافعية على الأم إرضاع الوليد (اللبأ)، وهو أول الحليب النازل أول الولادة، يكون متوفرًا تقريبًا أول أسبوع أو أسبوعين، لأنه ليس له مثيل - (فهو سائل سميك أصفر اللون غني جدًا بالبروتين والأجسام المضادة التي

تساعد على التخطي سريعًا لما يعرف بالاصفرار عند المواليد «اليرقان أو الصفرا»، والحفاظ على صحة الطفل) - فمن حقه أن يأخذ تلك الحفنات الأولى الغالية، من أمه وجوبًا، في رأي الشافعية»[1].

ولمن يهتمون بتوصيات منظمة الصحة العالمية، التي يعتبرها العالم منصة حماية الطفل الأولى – زعمًا – فقد أوصت منذ سنواتٍ الأطباءَ بأمور كثيرة جدًا تخُصّ الرضاعة؛ يعنينا منها لمرحلة الوليد بشكل خاص: «الشروع في إرضاع الطفل طبيعيًّا في غضون الساعات الأولى من ميلاده»، أي: مصداقًا لتوصيات فقهاء شريعتنا المحكمة، فالحمد لله رب العالمين.

بالإضافة إلى توصيات وفوائد صحية أخرى، نتناولها كما قلنا في فصول الرضيع.

رابعًا: حق الوليد في النفقة على أمه التي يتغذى منها

غنية عن كثير شرح.

خامسا: حق الوليد في الوقاية والعلاج من المرض

(وهذا من عناصر الولاية عليه - التطبيب)

علاج الأطفال واجب على أوليائهم، لأن من ضمن عناصر «الولاية الشخصية» التي أجّلنا تفصيلَها إلى فصول الرضيع: عنصر التطبيب، وهو العلاج، فيندرج بوضوح تحت مقاصد حفظ النفس، ونوّهنا في حقوق الوليد النفسية عن حديث «العلاق والعذرة» والذي يؤكد على منعه ﷺ تعريض الطفل للعلاجات الشاقة والمؤلمة له وتعذيبه علاجيًّا دون داع في وجود بدائل أطيب، مع تقديمه ﷺ لهم البديل العلاجي المناسب، فالحديث لا يعتني فقط بتقديم البدائل الأقل إيلامًا إنما الأفضل صحيًّا أيضًا.

---

(١) انتهى كلام الدكتور وهبة الزحيلي بتصرف، مع إضافتي لفقرة تعريف اللبأ وعناصره الغذائية، في الجملة الاعتراضية بالمنتصف.

ويندرج تحت بنود الوقاية من الأمراض، أمور شتى لا حصر لها بحسب كل زمان ومكان، نجتهد في استيفائها، ولكن من الأمثلة الهامة في زماننا لتلبية عنصر الوقاية، مسألة وقائية في غاية الخطورة متصلة بالوليد بشكل خاص:

إجراء تحليل الغدة الدرقية للوقاية من احتمالية التأخر العقلي

ففي إهمال ذلك التحليل احتمالية إصابة الطفل في مراحله الأكبر بالتأخر العقلي في حال إذا كان هناك مشكلة في الغدة ولم يتم اكتشاف ذلك مبكرًا، عافانا الله وإياكم. وينبغي إجراؤه خلال الأسبوع الأول من الولادة، ويتم في مصر من خلال إحدى جهتين: إما معامل خاصة بسعر مُكلف نوعًا ما لكن نتائجها تكون موثوقة؛ وإما مكاتب الصحة العامة عن طريق تحليل مجاني يتم إجراؤه من خلال سحب عينة من كعب الرِجل، ويتميز بأنه لو كانت نتيجة التحليل تفيد بأن الغدة سليمة، فستكون سليمة بالفعل بيقين، وفي هذه الحالة لا يتم الاتصال بأهل الطفل وتكون تلك إشارة للأهل بأن الطفل سليم، لكن المشكلة تكمن في ما إذا كانت النتيجة تفيد بأن الطفل مريض، فمعنى ذلك أن الطفل «يحتمل» أن يكون عنده مشكلة في الغدة ويحتمل ألا يكون، مما يوجب إعادة التحليل مجددًا .

وهنا القلق ومكمن الخطورة، لأن مكتب الصحة هو المنوط بإبلاغ الأهل بالحاجة إلى إعادة سحب عينة جديدة، وقد لا يتمكنوا من الوصول للأهل مرة أخرى قبل مُضِيّ الأسبوع؛ فالخطورة هنا تكمن في احتمالية فوات توقيت هذا التحليل، وما يترتب على ذلك، لذا ننصح بإجرائه في معامل خاصة، أو الاتصال بمكتب الصحة قبل انتهاء الأسبوع إلى أن يتلقى الأهل منه إفادة حاسمة في الوقت المناسب بإذن الله.

وبذلك نكون قد أنهينا ما أمكن من الحقوق والاحتياجات الصحية التي لا أزعم كالعادة أنها ذات كمال ولكن ربما هي الأبرز في هذه المرحلة، وننتقل الآن للمحور الأخير: حقوق واحتياجات الوليد اللغوية والمعرفية.

المحور السابع (الأخير)

حقوق واحتياجات الوليد اللغوية والمعرفية

أولًا: حق الوليد في التواصل اللغوي معه وعدم تغليف أجوائه بالصمت المطبق

فإن كنا نتواصل لغويًّا مع الجنين قبيل الولادة بعدما تبين لنا كيف أنه بعد الولادة يتفاعل مع الكلمات التي خزنها في ذاكرته السمعية بخاصة في آخر ثلاثة أشهر من المرحلة الجنينية، أفلا نتواصل معه لغويًّا بعدما خرج من تلك الغرفة السميكة المُغلقَة داخل ظلماتٍ ثلاث، إلى العالم الأوسع حيث تفتحت حواسه لكلامنا أكثر وصارت أقرب إلى جوارحنا أكثر وصار هو أقرب للمثيرات الحسية واللغوية أكثر؟

ظهر ذلك في الأحاديث التي جاء فيها:

- التأذين في أذن الوليد عند ولادته
- الدعاء للوليد عند تحنيكه
- رقية الوليد عند بكائه

ثانيًا: حق التواصل مع الوليد لغويًّا بما يناسبه

ولا يخفى ما في كل ما سبق من تواصل لغوي يناسب حواسهم الناشئة التي تعرفنا على خواصها في السمات وكيف أنها تعمل وتقتنص بالفعل ولكن تحتاج للاقتراب من الوليد لكي تلتقط أبعاده جيدا وتخزنه، وإن لم يفهم ألفاظها بعد.

ففي التأذين في أذن الوليد عند ولادته:

تواصل معه بما يناسبه لغويًّا وحسيًّا لأن كلمات الأذان في الأُذُن: قريبة، و قصيرة،

و بسيطة غير معقدة، و مُفَصلة، و مقسمة لمقاطع بفواصل زمنية بينها، و هادئة، و موزونة بقدر ما، و مكررة فيما بينها.

وفي الدعاء للوليد عند تحنيكه

اقتراب للنبي ﷺ من حواسه أيضًا، إذ كان يحمله بين ذراعيه ثم دعا له ثم دفعه لأبيه.

وفي رقية الوليد عند البكاء

نفس الاقتراب كذلك، فمعلوم أن الراقي يكون أقرب ما يكون من حواس وبدن من يرقيه.

ولنا مع كل تلك النقاط وأحاديثها وقفة أطول وأكثر تفصيلًا بطبيعة الحال، في فصول الرضيع.

ثالثًا: حق الوليد في تعريض سمعه للقرآن وذكر الله بتكرار

بخاصة قصار السور والأذكار القصيرة وكل ما يناسب نموه اللغوي الناشيء كما قلنا باختصار، من خلال حمله على ذراعنا ونحن نصلي، أو في حجرنا ونحن نسبح أو نكَبِر مثلًا.

ونجمع في ختام صفحات حقوق واحتياجات الوليد، سُننَ الوليد أو المولود كلها في فقرة جامعة، لأهمية تلك السنن بشكل خاص واتصالها بعمق بحقوق واحتياجات الوليد الشاملة كما تبين لنا.

فسنن المولود كما أوردناها هي

١. حمد الله وشكره على قدوم الوليد، وعدم المبالاة ذَكَرًا كان أم أنثى.

٢. التأذين في أذن الوليد اليمنى عند ولادته.

٣. تسمية الوليد بآداب التسمية الشرعية في يومه الأول أو السابع.

٤. تحنيك الوليد بالتمر بُعَيْدَ ولادته.

٥. العقيقة عن الوليد بكبش أو اثنين بحسب هو ذكر أم أنثى، في نهاية مرحلة الوليد، يوم سابعه.

٦. حلق شعر الوليد الذي كان على رأسه وهو جنين، في اليوم السابع كذلك.

٧. التصدق بوزن شعر رأسه فضة من باب شكر النعمة.

٨. ختان الوليد.

وبنفس الطريقة، نجمع الحقوق التي يجب على الوالدين صيانتها ويأثمون بتضييعها دون عذر، لأهمية العناية بها أكثر من غيرها.

فمن أبرزها:

١. حق النسب.

٢. حق الرضاع.

٣. حق الحضانة.

٤. حق الولاية.

٥. حق النفقة.

فمن كل ما سبق، يتبين لنا أن هناك أمورًا من الضرورات لا تستقيم الحياة بدونها متعلقة بالضرورات الخمس، وأمورًا من الحاجيات تصعب الحياة بدونها ومن الرحمة توفيرها لكن بحكمة ورشد، وأمورًا من التحسينيات، نسعى للتخفف منها قدر الإمكان مادامت متعلقة بالدنيا، أما الدين، فينبغي أن نحقق ما استطعنا من كل مراتب مصالحه

بما فيها التحسينيات، لكن نراعي الترتيب، الأولى ثم الأقل أولوية ثم الذي يليه.

وكل ما ذكرناه بشكل عام يؤكد أن الاهتمام بالوليد يشمل كل الأصعدة، وكيف أن الشريعة توفر تربية للأهل أولًا وحثا لهم على إعمال السُنن في حق الوليد من أول يوم، فيحافظون على فطرته منذ أول أنفاسه ويتمسكون بها وبإنقاذه من كل ما يضره أو يؤذيه أو يؤلمه أو يصيبه بنجس أو أمراض أو غيرها، وكل هذا وهو مازال لا يشعر بنا بعد الشعور الكامل ولا يعي أفعالنا بشكلها التام وإنما يخزنها في الذاكرة بطريقة عصبية يفهمها ويتفاعل معها بالقدر القليل جدًّا والمناسب لمرحلته العمرية، وقبلَه الجنين، ومع ذلك لم يسقط الشرع هذا القدر البسيط من عنايتهما.

فكيف بالمراحل الأكبر والتي فيها الطفل أكثر إدراكًا ووعيًا وأكثر ثراءً في الاستجابات والتفاعلات مع الحياة، الرضيع وما فوقه؟

تلك كانت إطلالتنا السريعة على حقوق واحتياجات الوليد.

فماذا عن مشكلاته؟ هذا موضوع الفصل القادم.



الفصل الثالث

مشكلات الوليد وعلاجها

بعض المشكلات عامة في المرحلة في كل زمان، وبعضها معاصرة حديثة لم تكن موجودة سابقًا، لكننا سنتناول المشكلات هنا في تربية الوليد إجمالًا دون تقسيم لأنواع المشكلات تحت تلك التصنيفات، ثم تصنيف أنواع المشكلات سيكون في فصول الرضيع، لدسامتها وتفرعها أكثر، كذلك ستجدون مشكلاتٍ مشتركةً بين الوليد والرضيع، بعضها عناوين مشتركة فقط مع اختلاف التفاصيل، وبعضها عناوين وتفاصيل مشتركة، فما كان من النوع الثاني، كتبت عنوانه هنا وأجلت الكلام عنه إلى فصول الرضيع، وما كان من النوع الأول فصّلت فيه لكلِ مرحلة بما يناسبها.

١ – البكاء

ليس كثيرًا ومزعجًا كأسابيع الرضيع اللاحقة، فالبكاء في مرحلة الوليد أقل وأهون مقارنة بما بعده، لأنه كما ذكرنا في «سمات الوليد» ينام أكثر، ففي أول أسبوع ينام تقريبًا ١٧ ساعةً مُتقطعةً، فيقضي مُعظم وقته في النوم – حوالي من ١٦ إلى ٢٠ ساعة – لكن المشكلة أن الوليد غالبًا ينام أكثر النهار وليس الليل، فليس لديه إيقاع الساعة البيولوجية الداخلية بعد وليس مرتبطًا بنهار وليل، فيكثر بكاؤه ليلًا أكثر من النهار، وتبلغ صعوبة بكائه أحيانًا درجات شديدة عند المغص الذي قد يطول أحيانًا، مما يسبب لبعض الأمهات صداعًا مؤلمًا وإنهاكًا شديدًا وربما يلجئها هي أيضًا للبكاء مثله من فرط المعاناة تحت مطارق الصوت وتَتَابُعِه دون توقف على أذنيها وفؤادها، لاسيما إذا استيقظت ليلًا من نومها على نوبة البكاء تلك وتكون نوبةً عصية على فك

شفرتها، فللبكاء شفرةٌ عادةً لأن الوليد بالذات لا يبكي دون سبب[1]، تلك إذن ليست مشكلة واحدة، إنما مشكلات عدة في آن واحد، أعان الله الأمهات وضاعف أجورهن.

الحل: لا مجال عند بكاء الوليد سوى أن نذهب إليه ما استطعنا دون توتر بالطبع، ونعالج سبب البكاء ليهدأ، وهذا الحل كما قلنا سابقًا مستمر معنا حتى أول ثلاثة أشهر على الأقل.

١- فنسمِّ الله أولًا.

٢- ثم نرقيه ولو بأسرع رقية.

٣- ثم بعدها نحاول تخمين سبب البكاء: المغص أو الحفاض أو الملابس أو الرغبة في التحرك أو الجوع إلخ، ونلبي حاجته ونراقب خفوت الصوت.

وتفصيل الرقية وطرق معرفة سبب البكاء ومعالجته، تجدونها في فصول الرضيع.

٢- المغص

ذكرناه إجمالًا ضمن أسباب البكاء، وهو يُعتبر من أشدها وأبرزها وأكثرها إرباكًا للأم، فالأم تستطيع إسكات بكاء الجوع وغيره من الأسباب المحتملة التي يسهل الاستعداد لها قبل بدء نوبة البكاء، لكنها عند المغص تقف عاجزة مرتبكة، لكون المغص يأتي فجأة دون توقعات ولأن الوليد لا يأكل الأطعمة بعد ولا يتناول الألعاب في فمه، فيظل سبب المغص مبهما أكثر، وربما يدوم طويلًا ولا يستجيب للعلاجات المتنوعة بشكل محير ومؤلم وضاغط نفسيًّا.

الحل: نظرًا لأن الوليد والرضيع يشتركان في بعض أسباب المغص فهما يشتركان

(١) ويقال إن في أول ثلاثة أشهر قد يستمر بكاء الطفل لساعات أو دقائق بدون سبب أحيانا، فيما يسمى «بكاء الـ ١٠٠ يوم»، ويقال إن الحل هنا هو تشتيت حواس الطفل عن طريق الخروج به خارج الغرفة أو إحداث صوت عال أو جلبة أو حمله واحتضانه أو السير به في عربته وهزه. إلخ.

أيضًا في أساليب علاجه والوقاية منه؛ والتي تتعلق بمدى عناية الأم بإرضاع الطفل بشكل صحيح لئلا يدخل إليه الهواء أثناء الرضاعة، وعنايتها بأنواع الأطعمة التي تتناولها، وغيرها، فيرجع إلى تفصيلها في فصول الرضيع مع بقية الأسباب هناك.

٣- آلام جرح الولادة إن وُجِد

تنقصف دونه الأقلام وتَبلَى الأوراق وتجف المحبرة، بخاصة جرح الولادة القيصرية وتبعاته الأشد ألمًا والأطول زمنًا.

الحل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِين﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِين﴾ [آل عمران:١٤٦].

باختصار: الاحتساب الاحتساب الاحتساب، والصبر والدعاء والذكر، كلهم من الحلول المشتركة لكل المشكلات التي حلها الوحيد غالبًا هو مرور الوقت بسلام، وكل ما كان لله هان.

ويُهَوِّن عليكِ ذلك أيضًا: التفكيرُ في أنها مشكلة مؤقتة تخفت كثيرًا - غالبًا - مع نهاية مرحلة الوليد إن لم يكن قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، فهوّني على نفسك فالرحمن لا يُحَمِّل نفسًا إلا وسعها؛ لئلا تتحول إلى «اكتئاب ما بعد الولادة» ومضاعفاته النفسية الشديدة، ولنا إطلالة عليه في الكتاب بإذن الله.

٤- شدة ارتباط الوليد بنا وبتلبيتنا لحاجاته

كما قلنا مرارًا: مشكلة وكنز في نفس الوقت، لكنها لا تظهر بشكل قوي بعد في مرحلة الوليد، نتيجة لكثرة نومه وقلة التزامات رعايته بعد، ولأن غالبًا في أول أيام للوليد يكون الأهل لا زالوا حول الأم، فلا تكون تلك المشكلة ملموسة ومتعبة للأم في هذا الوقت بقوة بعد.

الحـل: هـي إذن في مرحلـة الوليـد لا تحتـاج لحـل بقـدر مـا تحتـاج لتهيئـة نفسـية، فربما أهم حل هنا هو احتساب الأجر والاستحضار دومًا أن الطفل يخزن تراكميًّا كل مظاهر عطفي ولهفتي عليه وتلبيتي لاحتياجاته وأننا ملاذه الآمن المريح - بعد حفظ الله وأمنه - بجانب حلول عملية أخرى الأنسب تناولها في فصول الرضيع نظرًا لتعدد وتنامي التزامات رعايته.

٥- تنظيم نوم الوليد، بخاصة في الليل

الوليد لا يفرق بين الليل والنهار فهو لم يضبط الساعة البيولجية بعد التي تمكنه من ذلك، مما بالتالي يؤثر على انتظام نوم الأم، ومعروف أن اضطرابات النوم تسبب أحيانًا للإنسان انهيارًا عصبيًّا أو اضطرابات انفعالية - وربما سلوكية - سيئة.

الحل:

❁ على الأم اغتنام ساعات النهار في هذه المرحلة، في الراحة والنوم قدر الإمكان أثناء نوم وليدها، استعدادًا لمعركة «يقظاتِ الليل» المحتملة، موقنة أنها مرحلة مؤقتة، فتنظيم أمر نومه بالليل ليس مستحيلًا، لكنه مرتبط بانتظام الرضاعة فيما بعد أكثر واستقرار أحوال الطفل عمومًا وتطور نموه العصبي والحسي، وهذا قد يأخذ أسابيع إضافية بعد مرحلة الوليد بقليل، وربما لا يستغرق الأمر أكثر من شهر لتستعيد الأم ليلها الهانيء من جديد نوعًا ما، وكل آت قريب، فاصبري وأبشري.

❁ ولكن إذا لاحظنا اضطرابات في النوم لدى الوليد بشكل مبالغ فيه سواء ليلية أو نهارية، أو كثرة نومه بشكل مبالغ فيه - مثلًا ينام ٢٢ ساعة يوميًّا - فهذا كله مقلق؛ ولو أنه ينام مثلًا ٨ ساعات فقط طوال الليل والنهار، وربما متفرقة وبقية الوقت يكون في حالة تيقظ وبكاء فهذا أيضًا مقلق ويحتاج للعرض على طبيب، فربما لدى الطفل مشكلة تُعِيقُ التنفس وتسبب اضطرابات النوم، أو ربما لديه خمول يستدعي علاجًا عاجلًا، أو غيرها من الأسباب التي تستلزم سؤال أطباء، لذلك ذكرنا عدد ساعات

النوم التقريبية للوليد في سمات الوليد، لتتمكني من متابعة ذلك بدقة.

۞ ويمكنك حاليا محاولة تقليل صحوات الوليد الليلية، عن طريق إشباعه قبل نَوْمةِ الليلِ المعتادة، حتى نستبعد استيقاظَه ليلًا من الجوع، والذي هو من أبرز الأسباب في هذه المرحلة، وإن لم يكن الحليب مشبعًا بشكل كافٍ فيفضل الاستعانة بأخصائية رضاعة ترشدك للخطوات اللازمة لزيادة إدراره، وهو تخصص مستقل عن طب الأطفال العام يتم التركيز فيه فقط على مشكلات الرضاعة ومعيقاتها وسبل علاجها وطرق الإرضاع السليمة، مع أهمية الامتناع عن اللجوء لرضعات عشبية لإشباع الطفل، فبجانب ثبوت ضررها على الطفل ونُصح الأطباء للأمهات بعدم إعطاء أي منها للطفل قبل عمر ٦ أشهر، فهي أيضًا تزاحم كمية الحليب المطلوبة لنموه السليم، فملء معدة حديثي الولادة عمومًا بشيء ليس ذا قيمة غذائية يقلل من النصيب المطلوب من الغذاء له في هذه الفترة وبالتالي يعرقل حصول الطفل على جميع احتياجاته الغذائية مما يعيق تطور نموه بشكل طبيعي، فالأكمل لنموه الصحي هو عدم تفويت أي من رضعاته، سواء الليلية أو النهارية، بخاصة رضاع الليل، حيث تم اكتشاف تميزه بعناصر غذائية مختلفة عن رضاع النهار، مما يدفعنا لحث الأمهات على عدم التكاسل عن هذا الكنز الثمين. والله يحب المحسنين، وتفاصيل أكثر عن الرضاعة نتناولها في فصول الرضيع.

٦- رفض الوليد للرضاعة

وقد يكون لعدة أسباب، لكن يميز منها مرحلةَ الوليد بشكل خاص عن المراحل الأكبر:

۞ نقص منسوب السكر لدى الوليد والذي أشرنا إليه في الفصل السابق وقلنا أن مستوى سكر الجلوكوز في الدم لدى المولودين حديثًا يكون منخفضًا، وكلما كان وزن المولود أقل كان مستوى السكر منخفضًا، والهبوط الشديد في مستوى السكر في الدم

يؤدي لأعراض عدة خطيرة، لعل أهونها مما ذكرنا: رفض الوليد للرضاعة.

۞ أو ربما لأن الطفل وُلِد مبكرًا، ممَّا يجعل منعكساته وعضلاته غير مكتملة النمو تمامًا بعد أو ربما نمت ولكنها أضعف من أن تسحب لبن الرضاع بالقوة الكافية[1].

الحل: عرض الطفل على الطبيب المختص، فإذا كان السبب هو نقص السكر يقوم الطبيب حينها بعمل الفحوصات اللازمة ومعالجة المشكلة، وأحيانًا يكون العلاج الموصوف من الطبيب في هذه الحالة هو إعطاء الوليد السكر الجلوكوز مذابًا في الماء إما بالفم أو بواسطة الوريد، وهو نفس نوع السكر الموجود بوفرة في التمر سبحان الله، والذي أوصانا ﷺ بتحنيك المولود به فور ولادته، وتناولنا ذلك بالتفصيل في فصل حقوق واحتياجات الوليد.

وإذا كانت المشكلة مختصة بضعف عملية سحب الطفل للحليب، فتتم متابعة طبية لتطور نموه بشكل سليم، بجانب متابعة عملية رَضاعِه مع مختصة رضاعة.

٧- التهابات وآلام موضِع الرضاعة:

من أبرز معوقات إتمام الرضاع إلى نهايته، تبدأ أحيانًا منذ الأسبوع الأول، حسب درجة حساسية الجلد وحسب توقيت بدء الوليد في تناول موضع الرضاعة بشكل خطأ، وتصل أحيانًا لتشققات مدممة وربما صديد يجعل حتى من فكرة سحب الحليب لإرضاعه له فكرة خاطئة مضرة بصحته.

٨- تنظيم الرضاع

هناك مدرستان في الإرضاع: إما إرضاع الطفل حسب الطلب، وإما إرضاعه بجدول منتظم يناسب الجرعات المطلوبة لنموه يوميًّا، كل منهما له وجاهته وفوائده

(١) مستفادة من نصائح الحبيبة تسنيم راجح لكتابي.

ومصاعبه، لكن تنظيم الرضاع قد يكون صعبًا في البداية بطبيعة الحال فالوليد لا يزال ينام غالبية اليوم وقد لا تستطيع الأم بعدُ إيقاظَه لإطعامه في وقت معين وبكمية معينة حسب جدولٍ ما كالمراحل الأكبر.

٩- تحدي الرضاعة بشكل عام

غاية كل أم أن يتم رضاع ابنها وبسلام، ومن المشكلات المعاصرة حديثًا، شيوع تعثر كثير من الأمهات في الرضاعة الطبيعية ولجوئهن للحليب الصناعي بدلًا منها ربما بعد عشرة أيام من الولادة، وقد شاع هذا في زماننا نظرًا لأسباب عدة، ذكرنا منها مؤقتا: امتناع الوليد عن الرضاعة.

والحل المشترك بين تلك المشكلات مجتمعة:

نقول للأمهات الجادات المستقيمات على الفطرة السوية المبتغيات لإيصال رزق وليدها إليه خالصًا سائغًا مباركًا: إن انتظام مسألة الرضاعة في الأيام الأولى بسلام يبشر بالخير في بقية الطريق، والإخفاق في ذلك في البدايات قد يؤدي لجفاف حليب الأم مبكرًا وانقطاع هذا الخير إذا أُحبِطنا واستسلمنا، فعليكِ بالعناية باللحظات الأولى للرضاعة والصبر على إزالة المعوقات والوقاية المسبقة بسؤال أهل الخبرة والعلم. وتفصيل المعوقات وأسبابها وعلاجها مشتركة مع الرضيع، بالإضافة لأسباب أخرى تناسب الرضيع أكثر، لذا نقرأ تفاصيل المسألة هناك تفاديًا للتكرار.

١٠- مشكلة الخوف من حَمل الوليد وتحميمه نظرًا لشده ضعفه

هذا موضوع مُربِك جدًّا بسبب الضعف الشديد لبنيان الوليد ورقة حاله ولين عِظامه وصغِر حجمِه وعدم تماسك مفاصله بعد، فنظل في خوف مِن حمله وفي ارتباك أثناء حملِه، وعملية الغُسل والتحميم أيضًا تكون صعبة وتُسبب توترًا مُضاعَفًا.

الحل: لمن يعانون من ذلك في مرحلة حديثي الولادة تلك، ويتهيبون من حمل الطفل سواء لإرضاعه أو لتحميمه أو تنظيفه أو غير ذلك:

۞ يمكنهم تحميمه في الفراش بمنشفة ناعمة وماء دافيء فيه صابون قليل جدًّا ومناسب لبشرته، ثم منشفة ناعمة ومبللة خالية من الصابون نزيل بها أثر الغسل، ونجتهد في إسراع تلك العملية وجعلها في غرفة دافئة حتى لا يصاب بالبرد، وعلى أية حال: لا يحتاج لتحميمه كثيرًا بعد.

۞ ويمكنهم تغيير الحفاض في الفراش بنفس الطريقة، لكن بمناديل وقطن وليس بمنشفة، نتخلص منهم في القمامة بإحكام بعدما ننتهي.

۞ ويمكنهم إرضاعه في الفراش كذلك، تنيّم الأمُ الوليدَ على جانبه على الفراش وترضعه، على أن يكون مرفوعًا قليلًا بزاوية ٢٠ درجة مثلا، لتتأكد من أن أنفاسه ليست مكتومة، أو تضعه على وسادة رفيعة جدًّا وطرية، وتحمله عليها إلى حضنها مائلة قليلًا، أو تحمله وهو في اللفافة القماشية المحكمة الخاصة به.

۞ مع تعلم طرق حمله الصحيحة في هذه المرحلة من الأهل وذوي الخبرة وعدم جذبه من أطرافه، والحرص بشكل عام عند مسكه وحمله أن يكون برفق، تأسيًا بالنبي ﷺ مع حفيديه كما سنرى في فصول الرضيع.

۞ المهم ألا تبالغ الأم في القلق من تلك المشكلة، فلديها ما يكفي بالفعل لمخزون القلق والتوتر، ولتطمئن أنها مرحلة مؤقتة كذلك ربما تستغرق أقل من شهر، وأن الله يحفظ الوليد ويتولاه برعايته على كل حال، لا نحن.

١١- مشكلة الآثار الجانبية للتطعيمات

لا يوجد رسميًّا - تبعًا لتطعيمات وزراة الصحة المصرية - سوى تطعيم واحد فقط في أول ١٢ أو ٢٤ ساعة من عمر الطفل، وهو التطعيم ضد التهاب الكبد الذي قد ينتقل من الأم لطفلها بالعدوى، وأعراضه الجانبية خفيفة ونادرة الحدوث، كارتفاع

بسيط في درجة حرارة الوليد أو وجود وجع في منطقة التطعيم ربما تسبب بكاء الطفل.

الحل:

احتضان الأم لطفلها بعدها وإرضاعه مباشرة ورقيته بالطبع.

١٢- مشكلة الحاجة لتهيئة مكان نوم آمن وملائم له وقريبًا منا دون أن يكون معنا في الفراش

احتياج الأم لتجهيز فراش مناسب لنوم الطفل، يكون نظيفًا، محاطًا بحواجز أمان وستارة خفيفة للحماية من الحشرات والبعوض ونحوه (ناموسية)، ولا يكون الفراش خشنًا ولا ضيقًا ولا مصنوعًا من خامات سيئة أو لينة، سهل وضعه بجوار فراش الأم والتعامل من خلاله مع الطفل بسهولة في فترات يقظات الليل.

فلماذا لا يكون معنا في نفس الفراش؟

حوادث كثيرة وقعت بسبب ذلك، حين يستيقظ الأهل على مصيبة أن الصغير قد مات، إما لوقوعه من جوارهم على الأرض وهو نائم بسبب دفعه من أحد النائمين بجواره دون أن يشعر، أو تستيقظ الأم وتجد نفسها نائمة على وليدها والعياذ بالله، أو قد نامت وهي ترضعه مما كتم أنفاسَه، أو قد رفعت غطاء الفراش عليه بالكامل وهي تتغطى ليلًا أثناء نومها فاختنق الوليد أسفله.

هذه حوادث معروفه، بسبب عدم التحرز من نوم حديثي الولادة بجوار الكبار، لها مثيلاتها في أزمنة أئمة الفقه حيث أفردوا لها مسائل فقهية تحت أبواب القتل الخطأ - أو ما جرى مجرى الخطأ - عافانا الله، «ما جرى مجرى الخطأ هو الذي انتفى فيه القصد أصلًا، كالنائم ينقلب على غيره فيقتله، ويأثم من يقع فيه - هو والقتل الخطأ - لتقصيره في التحرز والاحتياط في حالة تستوجب المبالغة فيهما»[١].

(١) مستفادة من نصائح الحبيبة تسنيم راجح لكتابي.

الشاهد: ما يعنينا هو أن الأمر خطير لما فيه من استهانة بحياة الطفل والتي حِفظُها هو أحد الضرورات الخمس، فعلام يا رفقة الخير نتعرض لكل ذلك ونستهين بالأمر؟

الحل:

۞ إن لم تتوفر بعد إمكانات شراء فراش للطفل، يمكننا شراء مهد صغير ونضعه ملتصقًا بسريرنا على كرسي مرتفع قوي وعريض يستوعب قاعدة المهد بالكامل ويمنع من سقوطه، أو نحشره بين سريرنا والحائط، المهم أن يكون هناك فاصلًا مناسبًا بين سريرنا وسرير الوليد يحميه من تقلباتنا ولا يعيق التعامل معه عن قرب أثناء الليل.

۞ وشاع بين الأمهات أن الوليد يحتاج لتقليبه أثناء اليوم والليلة، وهذا غير دقيق، فلا حاجة لتقليبه.

۞ ولتقليل متلازمة الموت المفاجئ يوصَى بنومه على ظهره.

۞ كذلك لا نضع الوليد على بطنه في هذه المرحلة إلا بعد أن يشتد عوده ويجيد مهارة الالتفات بعنقه، إلا إذا كنّا متيقظين بجانبه، فهناك أُناس يضعون الطفل على بطنه ليلًا وهو نائم وهو لم يتعلم بعد مهارة لف رقبته يمينًا ويسارًا بإتقان إنما يمارسها باضطراب، فنراه يلف رأسه قليلًا ثم يعجز عن رفعها وإكمال اللفة فتدفن رأسه في الوسادة ولا يستطيع الرجوع، فتكتم أنفاسه والعياذ بالله ولا يسمعه أحد لأن الجميع نيام.

فانتبهن حبيباتي ولنستعد لتلك المرحلة الضعيفة بما يصونها من فقه مثل تلك المسائل الشرعية والضرورات الإنسانية، ولا ننام أبدًا وهو في حضننا إلا لو بكامل احتياطات الأمان.

١٣- مشكلة التبوّل والتبرز اللاإرادي، بخاصة لو كان على ملابسنا أو بدننا.

١٤- مشكلة تقبيل الوليد من فمه.

وتلك المشكلتان لا تتميزان عن الرضيع في التفاصيل والعلاج، فنتناولهما هناك منعًا للتكرار.

كان هذا مرورًا عامًّا على أبرز مشكلات المرحلة فيما أعلم، وعلاجها ما أمكن، وهي تعتبر بالنسبة للمراحل اللاحقة مشكلات هينة وخفيفة ومُهَيِّئة لما بعدها بالتدريج، فأبشِرن يا أمهات بمرحلة الوليد واستمتعن بهذا الأسبوع أيُّما استمتاع، وتهيأن للمراحل المتطورة من هذا الكائن الحلزوني الصغير.

ومن المهم أن نعلم أنه ليس هناك حلٌ سحريٌ لكل مشكلة، فهناك قدر من المشقة سنتحمله كأمهات بشكل عام، يختلف من أسرة لأخرى، والله المستعان على كل حال، أعان الله الأمهات وثبت أقدامهن وأفئدتهن على الحق وكل خير يرضيه ﷻ.

فأين كنوز الوليد؟

هذا موضوع الفصل التالي بإذن الله.



الفصل الرابع

كنوز الوليد

١. شدة احتياج الوليد لنا

وهي أحد عناوين المشكلات أيضًا كما قلنا، لأنها مشكلة وكنز في نفس الوقت، فهدوء الطفل من البكاء بين أيدينا كنز، لذلك بكاؤه لاحتياجه لنا كنز! والرضاعة وما فيها من أوجاع كنز، والحضانة وما فيها من تعب كنز.

٢. بكارة الحواس لديه والمشاعر ورهافتها وحساسيتها وبراءة القلب وانفعالاته

بخاصة قبل بدء مراحل الرضيع الأكبر حين يبدأ الطفل في التماكُر وارتكاب المخادعات البريئة المكشوفة، والبدء في ابتزاز عواطفنا ليحصل على ما يريد، كل ذلك ليس منه شيء بعد في مرحلة الوليد مطلقًا، براءة تامة ونقاء سابغ في كل شيء، الإنسان في أنقى صورِه وأصدقها وأطهرها.

تمامًا كما قال الغزالي وصَدَق: «الصبي أمانة عند والديه **وقلبه الطاهر جوهرة ساذجة خالية من كل نقش وصورة**، وهو قابل لكل ما نُقش وهو مائل لكل ما يُمال به إليه»، فعلينا حسن استغلال احتياج الوليد المستمر لنا وتلبيته جيدًا لنكون بالنسبة له مرجع الأمان والسعادة والسكينة فنتمكن من تنمية تلك الجوهرة وتلميعها وصيانتها لتكون دومًا بأبهى صورة وبريق.

٣. كثرة نوم الوليد

لأن ذلك يعطي هدنة للأم كي تلتقط أنفاسها قليلًا لتكون أقدر على التعامل

تدريجيًّا مع هذه المرحلة الجديدة المربكة، فيبدأ تعرضها لمشكلات الأطفال بالتدريج، فيما يشبه (أسبوع تدريب للمبتدئين)، من خلال نموذج مصغر لتلك المشكلات والمفاجآت: (مرحلة الوليد).

وهذا النوم الطويل من ناحية أخرى هو كنز من كنوز المرحلة، للوليد نفسه لا الأم فحسب، لأن نمو الوليد يتطور يومًا بعد يوم سريعًا أثناء النوم، سواء العقلي أو البدني، فجهازه العصبي يجمع كل المُدخَلات من وقت خروجه من الرحم، ويضيفها إلى مدخلاته المخزنة منذ كان جنينًا، ثم أثناء نومه تتم معالجة كل تلك المعلومات الجديدة معًا ويتم ترتيبها في الذواكر العقلية الخاصة بها: الإدراكية، والحسية، والمعرفية، والانفعالية إلخ، بجانب تسارع نموه البدني أكثر أثناء نومه كذلك، فكل هذا يتم بكفاءة أشد أثناء فترة نوم الوليد.

٤. خفة وزن الوليد

ذكرنا في مشكلات المرحلة، رقة أعضائه ولين عظمه وعدم تماسك مفاصله، وكيف أنها ترهبنا من حمله، ثم هنا نقول أن خفة وزنه تغرينا بحَمله وتجاوز تلك المخاوف، فخفة الوزن – وهي ممتدة للشهور الأولى من مرحلة الرضيع – مشجعة أكثر في مقابل ازدياد وزنهم في المراحل المتقدمة بما يجعل حمل الطفل حينئذ أمرًا مرهقًا جدًا لبعض الأمهات سواء من حيث كثافة حمله أو طول مدة حمله مما يضطرها لأن تستبدل حمله بالعربة أو بكرسي الرضيع أو بإنابة غيرها في حمله، بينما مع الوليد قد نحمله كثيرًا ومددًا طويلة ولا نشعر بالتعب أو الثقل، سواء على ذراعنا أو حجرنا أو كتفنا.

تلك أبرز الكنوز التي أحسبها خاصة بمرحلة الوليد.

فكيف نملأ الوليد؟

ذلك موضوع الفصل التالي بإذن الله

الفصل الخامس

ملء الوليد

بعد استعراض السمات والاحتياجات والمشكلات ومواطن الكنوز، يصبح الملء تلقائيًّا سهلًا بإذن الله لكل ركن من أركان البناء في التربية، وسنقسم هذه الأركان إلى عناوين موضوعية إلى حد ما، لكن لا شك أنها ستظل تتداخل مع بعضها البعض كما رأيتم سابقًا في الجنين لكن بشكل أقل هنا، نظرًا لتطور النمو هنا عما سبق، لكنني مع ذلك سأجتهد في عرض الأنسب منهم تحت عنوانه وتصنيفه الموضوعي بدقة، بجانب تفادي التكرار ما استطعت. فبناء على كل ما سبق من فصول، نستطيع أن نجمع كل ما هو نافع ومهم لملء الوليد، فيما يلي:

أولًا: البناء الديني للوليد

١- الدعاء له بكل ما فيه صلاح دينه، واستجلاب دعاء أهل الصلاح له؛ وكل أدعية الذرية التي جاءت في القرآن والسنة هي من أفضل ما ندعو لهم به لصلاح دينهم، وسبق بيان بعضها.

٢- تطبيق سنن المولود التي فيها تفعيل لفطرته الإيمانية: كالتأذين في أذنه اليمنى عند ولادته.

٣- تطبيق سنن المولود المتصلة بسنن الفطرة: كالختان وتنظيف رأسه وبدنه من القذر.

٤- تفعيل فطرته الإيمانية كذلك: بإسماعه دعائنا له قرب وجهه وحواسه، والاقتراب بالوليد من النافذة عند ارتفاع أصوات الأذان كلما نُودِي للصلاة من المسجد المجاور.

٥- تجنيبه عادات الجاهلية والاكتفاء بسنن الإسلام للمولود، (جاهلية مثل: حفلات الـ «دي - جي» و«اسمع كلام أمك وما تسمعش كلام أبوك» وما شابه، وسبق بيانه)، ولا يُلطّخ رأسَه بدماء، ولا بغيرها من عادات الجاهلية أو البدع القديمة أو الحديثة.

٦- ترديد أذكار اليوم والليلة وأذكار الأحوال عمومًا على مسامعه، وسنفصلها في «تربية الرضيع».

٧- ترتيل القرآن على سمعِه، لاسيما ونحنُ نُطعِمُه في أحضاننا، وتشغيله في الأجواء حول سمعه ما استطعنا.

٨- عدم تسميته بأسماء تخدش الفِطرة الإيمانية وعقيدة التوحيد والقيم والأخلاق، أو تخالف آداب وضوابط التسمية الشرعية، ويفضل تسميته باسم يُرسخ فطرته الإيمانية.

٩- رقيته بصوت مسموع عند بكائه وتهدئته بذكر الله والقرآن.

١٠- حمله في صلاتنا في البيت إن أمكن، ونحنو عليه فيها، ونتخفف فيها إن بكى وتململ، وبعدها نجعله في حضننا دقائق ريثما نقول أذكارنا بصوت يسمعه، من تسبيح وتهليل وحمد لله وتكبير وذكر الله ﷻ.

١١- عدم تعويده على الأنس بالموسيقى، إيناسه فقط بالقرآن وذكر ربه في اليوم والليلة، أو حتى بأناشيد إسلامية خفيفة بدون موسيقى - تناسب تطور نموه اللغوي - مع تغليب الإيناس بالقرآن.

ثانيًا: البناء التحصيني للوليد

١- تطبيق سنن المولود التحصينية: كالتأذين في أذنه اليمنى عند ولادته، والعقيقة.

٢- الدعاء له أن يحفظه الله من شياطين الإنس والجن.

٣- التخلص من كل ما يحول بيننا وبين إجابة دعائنا لهم؛ فدعاؤنا لهم يشمل: طلبنا من الله أن يحصنهم من شياطين الإنس والجن، ومن موانع إجابة الدعاء: المال الحرام والغفلة والإعراض والغش والخيانة والذنوب بشكل عام، فإن رينَها على القلب مانع من إجابة الدعاء[(١)].

٤- رقيته بالرقى الشرعية، بخاصة الرقى النبوية للحسن والحسين.

٥- رقيته بالأخص عند بكائه أو مرضه، مثال: تدليك موضع ألمه أو مغصه برفق وعطف مع كلمات الله المطمئنة للنفس، حتى يسكن ويزول.

٦- قراءة أذكار التحصين الأخرى في مواضعها اليومية: عند النوم مثلًا، ودخول الخلاء، وعند إطعامه، وخلع الحفاض إلخ.

٧- ملء أرجاء البيت دوريًّا بسورة البقرة: «إن الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَة»[(٢)].

٨- تحصينه من بقية مداخل الشيطان: غلق الأبواب وأوعية الرضاع والتسمية عند كل عمل متصل بالمولود ما استطعنا، بخاصة التسمية قبل إرضاعه وقبل خلع ملابسه وتغيير الحفاض، وإغلاق فمه بكف يدنا عند التثاؤب لئلا يدخل الشيطان، وإزالة النجس والقذر وتنظيف مواضع مظنة الاتساخ، وتعطيره، وعدم الإسراف في أثاث المنزل لأن الزائد يكون للشيطان، والتأكد من عدم وجود ما يمنع دخول الملائكة للبيت، فإذا ذهبت الملائكة حضرت الشياطين (الكلاب أو التماثيل أو الصور المحرمة أو المنكرات أو ما فيه تعاويذ شيطانية أو موسيقى إلخ).



---

(١) مستفادة من نصائح الحبيبة تسنيم راجح لكتابي.
(٢) مسلم (٧٨٠).

ثالثًا: البناء النفسي للوليد

١- تطبيق سنن المولود التي فيها زاوية نفسية: كالتحنيك، وتسميته يوم مولده أو السابع، وبدء مناداته به بحب وعطف.

٢- عدم تسميته بأسماء تجلِب لهُ السُخرية حين يكبر.

٣- التهدئة للوليد من الفزع والبكاء ونحوهما بالقرآن، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

٤- التواصل العاطفي معه بمظاهر حسية ومعنوية: كإجلاسه في حجرنا وحضننا والتلامس معه والتربيت عليه وإمساك يده وتقبيله وشمه وحَمله على ذراعنا والتواصل اللغوي معه بما يناسب نموه اللغوي وملاعبته بما يناسب نموه الحسي المتفتح كالزهرة الناشئة والدعاء له بحنو ورحمة في وجهه قريبًا من حواسه.

٥- عدم تعويده على الأنس بالموسيقى.

٦- عدم تركه يبكي دون طمأنة وتهدئة وعلاج لمشكلته بعون الله.

٧- عدم تعريضه لعلاجات مؤلمة في وجود بديل غير مؤلم.

٨- الاهتمام برضاعه وحضانته وحمايته من كل ضر.

٩- العدل بينه وبين إخوته لئلا يكرهونه أو يحتقرونه ويسيئون معاملته.

رابعًا: البناء الصحي للوليد

١- تطبيق سُنن المولود الصحية، المُتصِلة بالغذاء ونحوه، كالتحنيك بتمر.

٢- الإنفاق على الوليد وأمه ورعاية ضروراتهم المعيشية بل وحاجياتهم التي تجعل الحياة أقل مشقة وصعوبة، وتوفير جو هانئ وهادئ للأم أثناء حضانتها للوليد وإرضاعها له.

٣- توفير كل أسباب الرضاعة الطبيعية الوفيرة والحرص على حصول الوليد على لبن السرسوب، وعدم استسهال استبدال اللبن الصناعي بحليب الأم، خاصة في أول أسابيع، إلا لأسباب طبية أو صحية مُعتبرة تخُص صحتها أو صحة الوليد أو مصلحته.

٤- توفير أسباب العافية والوقاية من الضرر والأمراض وعلاجه منها إذا وقعت، قدر الإمكان. (توفير ملابس كافية حتى لا يُصاب بالبرد، وملابس مناسبة لجلده الرقيق، وحفاضات كافية حتى لا يُصاب بالالتهابات والجروح والقُرح، وتحليل الغدة الدرقية في موعده إلخ).

٥- عدم ترك الوليد يبكي طويلًا، مخافة التعرض للفتاق.

٦- عدم جعل الوليد ينام معنا في فراشنا.

٧- عدم تركه ينام على بطنه دون رقابة، إلا بعد إلى أن يشتد عوده ويجيد مهارة الالتفات بعنقه.

٨- الحرص على نومه على ظهره ما أمكن، تقليلًا لمتلازمة الموت المفاجيء.

في البناء الحسي - الإدراكي - اللغوي للوليد

١- الجهر بالقرب منه بجمل بسيطة مكررة عربية واضحة حنونة، ونحن نطعمه أو نوقظه أو نغير الحفاض أو نحمله إلخ، مثال: أهلا حبيبي أو صباح النور أو صحوتَ أخيرًا أو لماذا تبكي؟ أو أنت جائع؟ أو لا تحزن يا جميل أو نم في أمان الله أو الله يحفظك إلخ، وهذه محاورة فردية مع الوليد.

٢- بالإضافة إلى عَقد محاورات عامة حول الوليد - دون تكلف - أي تكلم الكبار مع بعضهم البعض في محيط الطفل، فنحيط أجواءه بالكلام المتنوع الطبيعي وليس فقط المحاورة الفردية القريبة معه، فلا نُغَلِّف الغرفة التي فيها الوليد بصمت القبور.

٣- مناداته باسمه أو كنيته، كلما سنحت مناسبة، لتعتاد أذناه على سجعه اللغوي وجرسه الصوتي.

٤- تعريض حواسه لما يحفز نموها ويستثيرها.

فلتحفيز حاسة البصر

نقترب من وجهه ونحن نكلمه، أو نعرضه لدرجات الضوء المختلفة مع تجنيبه السطوع الشديد الذي قد يضره، أو استعراض أغراض بألوان فاقعة أو ألوان متناقضة كالأبيض والأسود والأحمر والأخضر والبرتقالي والأصفر، قريبًا من وجهه، لكن دون مبالغة وإفراط.

ولتحفيز حاسة السمع

تعريض الوليد لأصوات واضحة وملفتة مثل: «الشخشيخة»[(١)]، كلامنا المفصل البطيء المكرر الحاني أو قصار السور المفصلة بجواره أو مناداته باسمه إلخ.

ولتحفيز حاسة اللمس

وضع إصبعنا في كف يده ليقبض عليها حينًا ويتركها حينًا، فبالإضافة إلى أن هذا يعتبر من التلامس الحنون، فهو يحفز حاسة اللمس لديه والمهارات الانعكاسية، ولغة التلامس غير اللفظية.

بالتالي كل ما سبق في البناء الديني والتحصيني والنفسي من أمور حسية لغوية، هو أيضًا من البناء الحسي - اللغوي للوليد: كإسماعه الأذان تكرارًا، والرقية والقرآن والأذكار والدعاء له في وجهه وما إلى ذلك.

في البناء الاجتماعي للوليد

١- إشاعة الفرحة بقدومه بين الأهل وبِغَض النظر ذكر أم أنثى.

٢- إشاعة نسبه بين الناس.

---

(١) وهي لعبة جوفاء بداخلها حبيبات أو كريات حرة، تحدث جلبة وصوتًا كلما حركناها.

٣- تطبيق سنن المولود المتصلة بالمظاهر الاجتماعية (العقيقة)، وجمع الناس على الطعام عليها لنشر محبته في قلوبهم تجاهه، ونشر نسبَه بين الناس أكثر وترسيخ هويته أكثر، ونقش ذكرى حلوة لمجيئه في قلوب الناس.

٤- العدل بينه وبين إخوته فلا نميل إليه على حسابهم في هذه المرحلة حتى لا يكرهوه، ولا نميل إليهم كذلك على حسابه حتى لا يحتقروا شأنه ويهملوه.

بالتالي: ينشأ للطفل أساسٌ اجتماعيٌ صحيٌ في محيط أسرته الصغيرة: (والديه وإخوته)، وأساسٌ اجتماعيٌ صحيٌ في محيط أسرته الأكبر: (الأهل والأحباب)، مما يدعم نموًّا اجتماعيًّا سليمًا.

في البناء الجنسي الشرعي للوليد، التربية الجنسية الشرعية

١- عدم إبداء تفاوت في مظاهر الفرحة بقدوم الوليد، بين الفرحة بالذكر والفرحة بالأنثى.

٢- إعطاء الوليد اسمًا يناسب جنسه، فلا نسميه بأسماء إناث لو كان ذكرًا، ولا العكس.

فبعد كل ذلك نستطيع أن نجيب على آخر سؤال في تربية الوليد:

كيف نستعد للمرحلة؟

والجواب في الفصل التالي والأخير، من قسم تربية الوليد.

الفصل السادس

الاستعداد للوليد

١- بالاستعانة بالله عز وجل، تلك رفيقة القلوب في كل المراحل.

٢- ببيت يكون بجوار مسجد، لو لا زال بالإمكان توفير هذا الأمر بسهولة.

٣- ببيت بجوار الأهل لو أن ظروف الأم النفساء صعبة وبحاجة لدعم ومساعدة مستمرة.

٤- بدراسة معلومات فصول السمات والحقوق والاحتياجات والملء والمشكلات وعلاجها، والحرص على تحصيل ما يلزم منها جميعًا قدر الإمكان، والاستزادة من العلم بهم.

٥- بتجديد التوبة ومراجعة المنكرات والشركيات في البيت وحذفها وتطهيره من كل رجس وبدء صفحة جديدة كصفحة الوليد، فنعود مثله كمن ولدته أمه.

٦- بالتفرغ الذهني مما ليس أولوية في هذه الفترة، هذه المرحلة فعليًّا تحتاج لاهتمام وتركيز وإعداد واستحضار للمعلومات الشرعية والطبية ووظائف الأمومة من هنا وهناك.

٧- بالتنبيه على الأسرة الصغيرة والكبيرة بحقوق واحتياجات هذا الضيف الجديد وتوعيتهم بها، بخاصة الدينية والصحية، وبرغبتكم في تنشئته بعيدًا عن كل منكر يغضب الله ويضر بالوليد.

٨- بتجهيز مال العقيقة، فكثير من الناس ينشَغل عنها ويتذكرها فقط في آخر

شهر قبل الولادة، ومعلوم كم يكون هذا التوقيت حينئذ صعبًا وعامرًا بالمُربِكات، بالتالي يجدون أنفسهم بدون المال الكافي وقد برزت لديهم التزامات إضافية؛ مما قد يؤخر العقيقة كثيرًا ربما لسنوات، وأعرف أناسًا فعلوا العقيقة بعد سن الخامسة وربما بعد بلوغ الأولاد، أي نعم هذا يجوز شرعًا، لكن الأفضل بالطبع والسُنة: أن تكون عند الولادة في اليوم السابع، للأسباب التي فصلناها.

٩- بتجهيز اسم للمولود وتعلم فقه اختياره وأحكام وآداب التسمية، فيُفَضل أن نكون قد اخترنا الاسم قبل الولادة منعًا للاضطراب والاختلاف حول مَن يُسمِي الوليد عند ولادته، فكل ذلك يحتاج استعدادًا مبكرًا لعدم مناسبة الظروف للتفكير في الأمر بصفاء ذهني بعد الولادة، لئلا يؤدي ارتباكنا بمجيء الوليد أخيرًا، إلى تأخرنا عن إصابة توقيت السُنة في التسمية كذلك.

١٠- بتجهيز الملابس المناسبة والكافية للوليد وكافة أغراضه التي تلبي ضروراته واحتياجاته - زجاجات الرضاع والأغطية وترمومتر قياس الحرارة إلخ - ما يكفي مثلًا مدة شهرين أو ثلاثة، نظرًا لصعوبة نزول الأم غالبًا قبل هذه الفترة لشراء أي شيء، بالتالي لا تكتئب في مرحلة شعورها بالعجز المتراكم، مما يؤثر سلبًا عليها وعليه وعلى الرضاعة، (ثم بعد هذه الفترة غالبًا تكون الأم بإذن الله قد استعادت صحتها ونشاطها نوعًا ما، وتستطيع النزول).

١١- بتوفير أغراض البيت أيضًا واحتياجات الأُم الشخصية من ملابس وأطعمة ومناشف وأدوية وغيرها، لنفس السبب السابق.

١٢- بالاستعداد بسرير مناسب للوليد منفصل عن فراشنا ولكن بجوار سريرنا، وسبق تفصيل ذلك في فصل المشكلات والعلاج.

١٣- تهيئة الأخ الأكبر - إن وُجِد - لفكرة قدوم أخٍ له إلى الدنيا، بما ذكرناه في «الغيرة» من قبل.

١٤- تجهيز بعض الوجبات في مجمد الطعام - الفريزر - فلا تبذل الأم بعد الولادة وقتًا وجهدًا في إعداد الطعام.

١٥- تجهيز قائمةٍ بالصديقات والقريبات اللواتي يمكنهن مساعدة الأم بعد الولادة وإبلاغهن بموعد الولادة التقريبي ليكنَّ على استعداد.

١٦- تجهيز حقيبة المَشفى التي ستأخذها الأم معها يوم الولادة، وفيها أغراضها وأغراض مولودها(١).

فكل ذلك وغيره هو من باب التهيئة لأجواء صحية ونفسية ومنزلية مريحة للطفل وللأم، مما يقلل الحزن واكتئاب ما بعد الحمل الذي نسمع عنه، ولنا وقفة تفصيلية معه في فصول الرضيع.

أنهينا تربية الوليد بالوحيين. كل ذلك: أسبوع واحد فقط!

وهذا هو الوليد، ومن قبله كان الجنين الذي كان علماء النفس الغربي وعلم نفس النمو المعاصر في يوم من الأيام قريبٍ يظنون أنه ليس لديه مشاعر وانفعالات تجاه أي شيء وكان هذا مبلغهم من العلم وتجبروا به وحسبوا أنهم على شيء من أمور التربية، بينما المعصوم ﷺ علمنا تربية الجنين والوليد على كل مستويات التربية التي لم تكن لتخطر ببال، منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، وكل مراحل النمو والبناء، بينما كانت بقية الأمم مازالت في ظلمات الجهل بقيمة قطعة اللحم الحمراء تلك في دين الإسلام.

وفي الفصل التالي، نحن على موعد مع القسم الثالث والمرحلة الأعجب من عمر هذا الكائن الحلزوني: تربية الرضيع.

---

(١) النقاط من ١٤ إلى ١٦ نصائح ثمينة مهداة لكتابي، من الحبيبة تسنيم راجح، بتصرف واختصار يسيرين.

القسم الثالث

تربية الرضيع بالوحيين

(أول عامين للإنسان في الدنيا)

الفصل الأول

سمات الرضيع

وردت «الكائن الحلزوني» مرارًا، منذ مرحلة الجنين إلى الآن، ولازالت معنا إلى الكتاب القادم أيضًا بإذن الله!

فمن هو؟ هو كائن لا يستوعب غالبية لغة البشر، لا يفهم التنبيهات بدقة بعد، لو ضربه أحدٌ على يده ربما يضحك! ولو ضحكنا في وجهه بصوت عال ربما يبكي! القوانين لديه معكوسة إن كان ثمة قوانين من الأساس، إذا لسعه كوب الشاي الساخن ينسَى ويذهب إليه بالحضن مجددًا، وربما سَكَبَه علينا وضَحِك على عويلنا ولا يفهم الكرب الذي وضعَنا فيه، ما إن يكتمل جانب من تخلقه في الرحم، يبدأ ركلاته ليخرج إلى الأرض، ثم ما إن يكتمل جانب من نموه على الأرض ويبدأ الحبو، يصبح لدينا كائن ذو «محرك دينامو» وحنجرة قعقاعية منطلقٌ على أربع عجلات غير مرئية وخارج السيطرة ومُسَلَط على من يعيشون معه تكفيرًا لسيئاتهم ورفعًا لدرجاتهم بإذن الله وتعليما لهم بشكل عملي مدى حلم الحليم على خلقه.

هذه ومضة بسيطة من قصة هذا الكائن الصغير المدهش، وبقية الإجابة تأتيكم تباعًا، فاحبسوا أنفاسكم، ولا تُشغِلْكِ القراءةُ الآن عن مراقبتِه.

مثلما فصلنا أن للجنين أطوارًا، فللطفولة الأولى أيضًا أطوارٌ، وهي: الوليد والرضيع والفطيم، وسبق تعريف الرضيع ومواضعه في الوحيين، في فصول المقدمة عند ألفاظ الطفولة، فيرجع إليها. هي أول عامين منذ الولادة، على اعتبار أن الطفل يتم رضاعَه إلى عامين، أنهينا في

قسم الوليد ما يميز تربية أول أسبوع، ثم نتناول هنا تفصيل كل مرحلة الرضيع وما تشترك فيه معها مرحلةُ الوليد.

وقد ينتهي الرضاع نفسه – سواء الطبيعي أو الصناعي – من حياة الطفل مبكرًا عن العامين لأي سبب ويبدأ في تناول الطعام، ولكن هذا لا يُخرجه تربويًّا من تصنيف «الرضيع» إلى تصنيف «الفطيم»، وإنما هذا يُخرجُ فقط من سماته ومشكلاته – وما إلى ذلك – الجوانب التي تختص بالرضاع، ويضيف بدلا منها: الجوانب التي تختص بالفطام ليس أكثر، إنما نفس السمات والمشكلات العامة للمرحلة تظل معه، لذلك نسميه رضيعًا إلى تمام العامين، بغض النظر عن تمام رضاعه من عدمه.

من حيث تطور النمو

۞ تنقسم مرحلة الرضيع عادةً لأطوار شهرية كالحِزَم، ونلحظ تطورًا ملموسًا بين الحزم الشهرية للسنة الأولى، رغم قلة المسافة الزمنية الفاصلة بينهما، بينما في السنة الثانية يقل التباين في النمو بين شهورها.

۞ وكل حزمة شهرية لها سمات، تساعدنا في التفرقة بين مشكلات المرحلة وطبيعتها وكيفية تنميتها والاستعداد لها.

۞ وكل ما سيتم ذكره في هذا الفصل هو الطبيعي المعتاد نوعًا ما لمراحله الشهرية، لكن أحيانًا يتم تحفيز الحس والإدراك للرضيع مبكرًا، أو يكون قد جبله الله على تطور سريع في السمات، مما يجعلنا نجد طفلًا مثلًا قد سبق بِسماتٍ ومهاراتٍ تخص بعض المراحل المتقدمة – مَشَى مبكرًا أو تَكَلمَ مبكرًا إلخ.

وهذا مُشاهَد ومُجَرَّب، فما نستطيعه هو: تحفيز الحواس عسى ربنا أن يمن علينا بثمرة زكية متميزة تقر العين، لكن التحفيز يكون بشكل مناسب دون مبالغة في التلقين الحسي والإدراكي بما قد لا ينفع الطفل أو قد يُشَوِّش على المُدخَلاتِ الأهم والأنسب لمرحلته، وهنا تبرز أهمية أخرى لهذا الفصل، أن يساعدكم في تتبع ذلك

بإذن الله، وستدركون أهمية سرد كل تلك التفاصيل اللطيفة لاحقًا في فصول "مشكلات الرضيع وعلاجها" و"كيفية اغتنام كنوز الرضيع".

أولًا: مرور عام على أبرز سمات المرحلة ومظاهر النمو

١ – مظاهر عامة للنمو العقلي والعصبي للدماغ

(من أهم العناصر لأنه ينبني عليه بقية عناصر النمو)

١ – خلال العام الأول

- يولد الطفل بخلايا مخ كاملة النمو، ثم خلال السنة الأولى تتواصل وتتكاثر الخلايا العصبية بسرعة كبيرة لتصبح حوالي ١٠٠ مليون خلية عصبية، مما يخلق تريليونات من نقاط الاتصال العصبية، ويساعد على تسارع تطور الحواس الأساسية: الشم، والتذوق، والسمع، واللمس، والبصر، والمهارات الحركية، فيتضاعف حجم دماغ الطفل بسرعة هائلة (كان عند الولادة ثلث حجم مخ البالغين تقريبًا، ثم يصل إلى ٨٠٪ عند بلوغ الطفل ثلاث سنوات، ثم حجمه الكامل كالبالغين في سن الرابعة)؛ لذلك خلق الله اليافوخ في رأس الطفل لينًا ليسمح بنمو عقل الطفل، ويُغلَقُ اليافوخ تدريجيًّا إلى بلوغ الطفل ١٨ شهرًا (سنة ونصف)، ومن هنا ندرك أهمية تلك السنوات لنمو مخ الطفل.

- بالنسبة للمخيخ، يصل حجمه إلى ثلاثة أضعافه خلال السنة الأولى للرضيع، وموجود في الجزء الخلفي للدماغ، ويساعد على التوازن، والتناسق، والانسجام العضلي، وإتقان الحبو ومن بعده المشي وسائر المهارات الحركية.

- ساق الدماغ هو أكثر أجزاء المخ تطورًا بعد الولادة، ويتحكم في ردود الفعل الفِطرية الغريزية عند الرضيع، كالبكاء والرضاعة، وينظم الوظائف الحيوية: كالتنفس، وضغط الدم، ونبضات القلب.

۞ تشكل القشرة البصرية ثلث الدماغ، تبدأ بمعالجة تدفق المعلومات البصرية منذ اللحظة التي يفتح فيها الطفل عينيه لأول مرة وتحتاج حوالي ٣ أشهر لتكتسب القدرة على رؤية العالم المحيط بوضوح وتمييز ألوانه.

۞ ردود الأفعال بطيئة في الأشهر الأولى، بسبب عدم اكتمال مادة الميالين في أجزاء كثيرة من المخ، وهي مادة دهنية تخلق غطاءًا واقيًا حول العصب وتساعد في انتقال الإشارات العصبية بسرعة، وتلعب دورًا كبيرًا في عملية التعلم، والنمو، وتشكيل السلوك، والحركة.

۞ بالنسبة للذاكرة، فخلال شهر واحد يمكن لطفلك تذكر وقت الطعام عادةً ويبدأ توقع الرضاعة، (ويمكن استغلال ذلك في تنظيم الرضاع كما سنرى).

۞ ولا يفوتنا أن نقول إن **الرضاعة الطبيعية** لها دور هائل في ضمان نمو سليم لكل مكونات الدماغ تلك وتطورها، وأن **الاحتضان** يزيد من حجم الدماغ.



٢- خلال العام الثاني

تشهد المنطقة الرئيسة في الدماغ تطورًا متسارعًا وملحوظًا - وهي الجزء الخاص بتعلم اللغة -فنجد الطفل بدأ ينتج مفردات أحسن، ومع الوقت يتعلم كيف ينطق جملًا كاملة.

تبدأ دماغ الرضيع من الشهر ١٨ (سنة ونصف) في تجهيز نفسها للتعامل مع التحذيرات الخارجية، فيتعرف الطفل على الصواب والخطأ ومصدر الخطر والأذى والألم، بالتالي يتطور نموه الاجتماعي أفضل.

تتطور الذاكرة تراكميًّا طيلة العامين، فتصبح الصورة الذهنية أكثر دقة ووضوحًا.

يتطور دماغ الرضيع فيه بحسب علاقة الطفل بمن حوله وبيئته وتجاربه ومستوى

تعرض حواسه للمحفزات وتلقيه للرضاعة الطبيعية، وكلما كان في بيئة طبيعية غنية بالمحفزات المناسبة لنموه، كلما كانت وصلات الدماغ العصبية ومساراتها أفضل.

٢- مظاهر عامة للنمو الانفعالي

انفعال البكاء والتبسم:

بالإضافة إلى انفعالات مرحلة الوليد السابقة، تظهر على الرضيع الآن وطوال العامين انفعالات جديدة متطورة حسب عمره: كالبهجة والحزن والاهتمام والشعور بالإثارة والحماسة، والسعادة، وتظهر استجابة الابتسامة - وهي مظهر انفعالي اجتماعي نفصّله في النمو الاجتماعي - ويظهر الغضب، والإحباط من الإخفاق، والخوف من أمر ما، كالخوف من (الغرباء أو الصوت الصاخب أو الظلام أو غياب الأم من أمام عينه لاسيما وهو في عمر الأشهر، حيث لا يدرك بعد أنها عندما تختفي لدقائق ستظهر في النهاية).

٣- مظاهر عامة للنمو الجسمي أو العضوي

ليس موضوعنا في ملفنا التربوي بشكل تفصيلي كما قلنا إلا أننا يهمنا منه بشكل خاص: «نمو الأسنان»، لأنه في محطةٍ ما يكون ضمن مشكلات المرحلة، يبدأ التسنين من أول سن ٦ أشهر حيث تبرز أول سِنّتين لبنيتين سُفليتين، حتى تتطور تباعًا وتصل إلى ٢٠ سِنّة عند بلوغ العامين، وتكتمل بهم حينئذ الأسنان اللبنية - ١٠ بأعلى و١٠ بأسفل، كلهم لبنية - يمكث الطفل بهم دون تبديل حتى يبلغ ٦ سنوات.

٤- مظاهر عامة للنمو الفسيولوجي: (نمو وظائف الأعضاء)

النوم: تصبح ساعات النوم حوالي ١٦ ساعة يوميًا حتى عمر شهر ونصف تقريبًا، ثم من ١٦ إلى ١٢ ساعة حتى عمر السنة، ثم من ١١ إلى ١٤ ساعة حتى عمر العامين، خلال النوم يستكمل الدماغ نموه.

الرضاعة: تختلف كميتها حسب شهور الرضيع، كذلك سبحان الله تتغير مكونات حليب الأم حسب احتياجات كل مرحلة، وحليب الليل غير حليب النهار.

التبرز والتبول: مؤشران للرضاعة الكافية كما قلنا، وينتظم العدد مع تطور النمو وانتظام الرضاع وفي غير حالات المرض، وعادة يكونان مرتبطين بعدد مرات الرضاعة وكميتها.

لماذا نهتم بمؤشرات الرضاعة؟ لأنها كما قلنا مهمة لتطور دماغ الطفل وحواسه الذين نعتمد عليهم في تلقي المعارف والتربية التي تهيؤه للسعي بفلاح في الحياة.



٥- مظاهر عامة للنمو النفسي

- الارتباط بالأم بشدة والراحة النفسية عند وجودها وأثناء الرضاعة، بخاصة في العام الأول.
- بدءًا من عمر سنة تنمو الرغبة في الاستكشاف أكثر، لذلك يبدأ في تقبل البعد قليلا عن أمه للتعرف على المحيط حوله.

٦- مظاهر عامة للنمو الاجتماعي

التوافق الاجتماعي:

- يتطور التوافق الاجتماعي مع أمه بحسب تلبيتها لاحتياجاته في الفترات الحرجة له، ومن خلاله يفهمان إشارات بعضهما البعض.
- يبدأ التوافق الاجتماعي مع الآخرين مبكرًا، ويتم تطوير المهارات الاجتماعية بالممارسة العامة للتواصل وباللعب.

التبسم للآخرين:

۞ من آثار النمو العصبي السليم، حتى إنها من الأمور التي نختبر بها مبكرًا إصابة الطفل بالتوحد من عدمه، عافى الله كل مبتلى. تظهر الابتسامة الاجتماعية في عمر شهرين تقريبًا وغالبًا الأم حينها تكون مثار تلك الابتسامة.

۞ ابتسامة الرضيع تعني أنه يُطور مهاراته الاجتماعية، وأن نظره ودماغه وجهازه العصبي قد تطور، وأنه بدأ يتعرف على الأشخاص من حوله ويتذكرهم، وأنه صار يدرك أن مشاعره وأفعاله مؤثرة على الآخرين، فيبتسم لينال نفس الشيء منهم.

متى يبدأ ابتسام الرضيع؟

نظريًا يبدأ بالابتسام قبيل ولادته، أي وهو لا يزال جنينًا لا يعرف بعد الذي ينتظره، لكنها تكون ابتسامة لا إرادية، أقرب لانقباض وانبساط عضلات الوجه فحسب، أما الابتسامة العذبة الحقيقية فتبدأ بعمر ٢-٣ أشهر تقريبًا، وهناك أنواع مختلفة من ابتسامات الأطفال، كالتالي:

۞ **الابتسامة الانعكاسية**: هي الابتسامة الأولى التي يبديها، تكون كرد فعل انعكاسي وليست مقصودة ولا تعني البهجة، نلاحظها عندما يتغوط، أو خلال النوم.

۞ **الابتسامة الاجتماعية أو المُقابِلة**: تبدأ عند بلوغ الرضيع الشهرين تقريبًا، وتعني أنه يرد التبسم للآخرين، فهي مؤشر لتطور دماغه بشكل سليم، ويستعمل فيها كل معالم وجهه وليس فقط فمه.

۞ **الابتسامة الحقيقية**: تبدأ ببلوغه ثلاثة أشهر، حيث يبتسم للوجوه التي يحبها أو المألوفة لديه أو ألعابه المفضلة.

۞ **الابتسامة الصفراء**: وتلك لم يصل إليها عقله البريء بعد والحمد لله، فاغتنموا البراءة قبل تبدلها!

كيف نحث الرضيع على الابتسام والضحك؟

لا أظن أن هناك بشرًا يجهل الإجابة، ومع ذلك نغترف لها من كنوز الوحيين، في فصل «ملء الرضيع».

ثانيا: مرور تفصيلي على بعض أبرز مظاهر النمو.

مظاهر النمو الحركي

الشهر الأول

أولًا: حركة الجسم العامة

- لا يستطيع القيام لكن قد يتحرك لا إراديًّا عدة سنتيمترات، (ما نسميه بالمصرية «كثرة الفرك»، فلو غفلنا عنه قد نجده في طرف السرير أو على الأرض).
- قد يبدأ تدريجيًا في التدحرج أو الانقلاب بشكل جانبي
- يرفع رأسه بضعة سنتيمترات ويحركها.

ثانيًا: التحكم في اليدين

- حركة أطرافه غير متناسقة
- كفوفه غالبًا مضمومة ويقربها من فمه وعينه.
- يمسك بالأشياء فترات قصيرة.
- قد يبدأ بعد ٣ أسابيع في مص إصبعه (وسنتكلم عن مص الأصابع لاحقًا)

من عمر ١-٣ أشهر

أولًا: حركة الجسم العامة

- تطور في التوازن، ومقاومة الجاذبية.

- يرفع رأسه وصدره وهو مستلقٍ على بطنه لفترة معقولة.
- حركة ذراعيه عشوائية لكن أكثر نشاطًا وحماسًا.
- يمد ساقيه ويركل بهما.

ثانيًا: التحكم في اليدين

- يكتشف كفوفه بوضوح ويحب اللعب بها لعدة أشهر. ويستوعب تدريجيًا أن كفوفه جزء منه.
- يجمع كفيه ويلعب بهما.
- يفتح كفه ليلتقط الأشياء الممدودة إليه.
- يمسك اللُعَب لكن لا يستطيع النظر إليها وهو ممسك بها، لأنه لازال غير قادر على الربط بينهما عصبيًّا وحسيًّا.
- مص الأصابع وارد إن لم يكن حدث في الشهر الأول.

من عمر ٣-٦ أشهر

أولًا: حركة الجسم العامة

- يثبت رأسه جالسًا ويستطيع تحريك وجهه جانبيًا في حدود عمر ٤ أشهر.
- يجلس، ويمكن دعمه بوسائد
- يستدير برأسه وجسمه.
- قد تظهر علامات اقتراب الحبو في هذه المرحلة أو التالية (كأن يحاول سحب نفسه للأمام أو الخلف أو يرفع جسمه ليصبح موازيًا للأرض مع اختباره المتكرر لتحريك أطرافه).

- يحرك رأسه نحو مصدر الصوت، ويتتبع الأشياء حين تسقط من يده، لكن لو خرجت خارج مجال رؤيته يمكن أن ينساها.

ثانيًا: التحكم في اليدين

- يلتقط الأشياء التي توضع في يده.
- تتطور قدرة الحركة في يديه.
- عند اكتمال ٦ أشهر يضع الأشياء في فمه.
- يمسك الألعاب بقوة وتركيز أكثر فيتتبعها بعينيه وهو ينقلها من كف لآخر (بدء استخدام يديه بالتنسيق مع عينيه)

من عمر ٦-٩ أشهر

أولًا: حركة الجسم العامة

- تطور في التدحرج والانقلاب من البطن إلى الظهر والعكس.
- يجلس بشكل كامل بمفرده، ويغير أوضاع الجلوس حسب احتياجاته.
- بدء الحبو على بطنه وقوائمه الأربعة، وهذا يقوي العضلات ويطور مهارات الحركة الطبيعية.
- قد يحبو للخلف أو الأمام، وقد لا يحبو مطلقا وينتقل مباشرة لمرحلة الوقوف أو المشي (الجزئي) بالاستناد إلى الأثاث أو الأشخاص (لكن عادةً يبدأ المشي الجزئي في مرحلة تالية).
- لا ينصح «بالمشاية» ذات العجلات والتي يوضع فيها الطفل شبه واقفا وملامسا الأرض بأنامل قدميه فقد تسبب التقوس للساقين وتغير من مشيته.، فلا نعطيها للطفل قبل بدئه لخطواته الأولى بنفسه.

۞ ذروة الحبو حين يحرك يده اليمنى مع ساقه اليسرى والعكس، وهنا يبدأ في اكتساب سرعة أكبر هي من أبرز مظاهر هذه المرحلة أعان الله الأمهات وضاعف أجورهن.

۞ متى نقلق؟ إذا بلغ السنة ولم يكتشف دمج حركة يديه وقدميه معا بتناسق للحركة، فيمكن استشارة أطباء مختصين في النمو.

ثانيًا: التحكم في اليدين

۞ يصبح الاستكشاف مستقلًا عن الكبار نوعًا ما.

۞ تطور الإمساك بالأشياء ونقلها من يد لأخرى.

۞ مد اليد للإمساك بالأشياء الصغيرة أمامه، وإدخال أصابعه فيها أو إمساكها بأصبعين كالملقط وتغيير مكانها.

۞ يصل إلى أشياء مُخبأة، أو أشياء يريدها. وهي ميزة وعيب، فخاتمك الصغير الذي سقط من يدك واختفى سيتمكن من إيجاده بسهولة، وستكتشفين أنه قد تمكن من ذلك عندما تغيرين له الحفاض.

من عمر ٩-١٢ شهر

أولًا: حركة الجسم العامة

۞ يلتفت عند مناداته باسمه.

۞ يتحرك بالحبو على البطن، أو يبدأ المشيَ الجزئي مستندًا إلى الأثاث أو الأشخاص، إن لم يكن قد بدأ ذلك من قبل.

۞ يقف بمفرده فترة قصيرة وقوفًا تامًّا.

۞ يمشي خطوات قليلة بمفرده.

ثانيًا: التحكم في اليدين

۞ تطور في كل ما سبق من مهارات التحكم بالأصابع واليد.

۞ قد يبدأ في ضرب الأشياء بيده أو يرميها أو يهزها، ليختبر قدراته والمحيط من حوله.

۞ بالتالي يتمكن أكثر من إطعام نفسه بأصابعه ويده: فيمسك لقمة خبز أو موزة مثلًا ويقضم وهو يمسكها بإحكام.

۞ يبدأ في التصفيق.

۞ تتنامى القدرة على القبض على الرضّاعة بإحكام ووضعها في فمه وإبعادها عند انتهائه.

۞ يستطيع البناء وإعادة التركيب للألعاب ويأنس للعبة «الغميضة» كثيرًا.

من عمر ١٢-١٨ شهر (سنة - سنة ونصف)

أولًا: حركة الجسم العامة

۞ هذا التوقيت هو الأشهر لبدء المشي إن لم يكن قد بدأ سابقًا، فيبدأ المشي بين ١٢ إلى ١٣ شهر.

۞ تنمو القدرة على دفع شيء أمامه.

۞ وبشكل عام: ليس هناك ما يجعلنا نتعجله فلا زال هناك متسع من الوقت. فإذا تجاوز الشهر الـ١٨ دون بدء المشي: نستشير المختصين. والاستشارة مبكرًا عن ذلك لن تضر.

۞ تنمو القدرة على الانحناء لالتقاط لعبة والوقوف لفترات أطول.

ثانيًا: التحكم في اليدين

- تصبح بشكل عام حركته أفضل وإمساكه للأشياء أكثر إحكامًا.

من عمر ١٨-٢٤ (سنة ونصف -سنتين)

أولًا: حركة الجسم العامة

- يمشي بسرعة وتناسق أكثر
- قد يبدأ الركض ولو بشكل بسيط، وبنهاية السنتين يتقنه أكثر.
- يستطيع في سن ١٨ شهرًا الصعود للدرج عند الإمساك بيده، وفي سن ٢٤ شهرًا يصعد وينزل بمفرده (مع رقابة الأهل)
- يحب جر وسحب الأشياء من خلفه، سواء بحبل أو بعربة ونحو ذلك.
- تبدأ لديه القدرة على الوقوف على أطراف أصابع قدميه، وربما القفز في الهواء ولو مسافة بسيطة

ثانيًا: التحكم في اليدين

- يمسك ورقة وقلم ويرسم خط عمودي نوعا ما أو نقاط عشوائية أشبه بخربشات قطط، ثم في عمر السنتين يرسم خطًّا أفقيًّا ودائرة وتصبح الخطوط أكثر استقامة ودقة.
- يمسك بإحكام كوب ماء، والشرب منه بإتقان بمفرده.

بدء تفضيله ليد على الأخرى (يمنى ويسرى)، وقد يرافقه ذلك مدى الحياة.



مظاهر النمو المعرفي والإدراكي والانفعالي

الشهر الأول

- يحافظ على الاتصال البصري مع الشخص الذي يعتني به
- يستجيب للمحفزات البيئية والمثيرات الحسية من خلال حركات الأطراف وإصدار الأصوات.
- فيحرك أطرافه بفرحة مع تعبيرات وجهه كرد فعل للعناية به أو كرد فعل لعدم الرضا. (أي: وسيلته للتعبير حاليا هي التواصل غير اللفظي: حركة الأطراف/ وتعابير الوجه/ والبكاء).
- رغم نومه معظم اليوم، إلا أنه وهو نائم يستجيب لأصوات والديه، ويستمتع بها في اليقظة.
- يتعرف على ملامح والديه ويفضلهما على الآخرين.

من عمر ١-٣ أشهر

- يزداد اهتمامه ببيئته المحيطة سواء أشخاص أو أغراض.
- يتعرف على الشخصيات المألوفة ويبتسم لهم.
- أحيانًا يقاوم لو تم إزعاجه، ويستطيع رمي الأشياء لو فقد الاهتمام بها.

من عمر٣-٦ أشهر

- يميز بين الناس أكثر ويصنفهم وفقًا لمدى وجودهم في حياته.
- يتململ من وضعية الاستلقاء، ويُفَضِّلُ وضعَه على كرسي ليتجول بنظره.
- يفحص الأشياء المختلفة عن طريق وضعها في الفم، ويساعد هذا على تطوير العلاقة بين اليد والفم.

❁ يبدأ في اكتشاف قانون «السبب والنتيجة»، أي: استيعاب أنه لو ضرب اللعبة مثلًا ستتحرك. تلك القدرة على إدراك رد الفعل والنتائج تؤدي في النهاية إلى مهارة إدراكية أكثر تعقيداً وهي [حل المشكلات]، ولكي تختبري تلك المهارة: اضغطي على أي زر في إحدى ألعابه وراقبي ردة فعله، سرعان ما سيضغط على نفس الزر بنفسه.

❁ يطيل النظر في وجوه من يكلمونه ويحاول محاكاة تعابير الوجه التي يراها.

❁ يلعب بكفيه وقدميه بشكل متناغم مع ما كتبناه في التطور الحركي، فيدرك أكثر أن هذه هي يده ورجله هو، لا أحد سواه.

من عمر ٦-٩ أشهر

❁ تتنامى قدرته على إشغال نفسه وحواسه، فيتعلم مهارة «التنظيم الذاتي»، أي: بجانب أنه يبكي لشعوره بالتعب، أو الجوع مثلا، يبدأ في تعلم تهدئة نفسه بنفسه بدلًا من انتظار المعونة.

❁ يتنامى الإدراك الشخصي، فيبدي تعابير فرح واضحة تجاه الوالدين والمألوفين، وتعابير الخوف البسيط والقلق من الغرباء.

❁ تتنامى مهارة التمييز بين الأشياء المألوفة والجديدة، وقد يعبر عن ذلك بابتسامة.

❁ يتطور الإدراك المكاني تبعا للتطور الحركي فيبدأ في التحرك نحو لعبة أو إخراجها من مخبأها.

❁ يبدأ تنظيم الأشياء إلى فئات حسب الشكل واللون والحجم والعدد حتى ٣ أشياء. سبحان القائل: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا﴾، ثم ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

۞ تسعده لعبة إخفاء الوجه وإظهاره، ولعبة هز «الشخشيخة» (لعبة تحدث صوتًا مع تحريكها) أو أي شيء يُحدث ضوضاء.

۞ يمتد الاستكشاف إلى الوجوه فيشدها كما لو كانت إحدى لعبه المفضلة. لذلك فإن شعرك وأقراط أذنيك والعقد في عنقك قد لا يكونون في أمان من بطشه حاليًا قد نصحتك.

۞ يستطيع تمرير مكعب مثلًا من إحدى يديه إلى الأخرى/ والبحث عن شيء قد سقط/ والنبش عن شيء ما بأصابعه والتقاطه في قبضة يده باحتراف.

من عمر ٩-١٢ شهر

۞ حين يفتقد أهله أو يغادرون قد يحزن ويبدأ في البكاء.

۞ يخجل حين يدرك وجود غرباء أمامه.

۞ يميز الأشياء من الحياة اليومية بشكل أكبر، مثل: الوجوه/ أعضاء الجسم/ الحيوانات في الشارع/ ملابسه، ويتعرف على أصوات الحيوانات ويقلدها.

۞ يفهم كلمة «لا» حين تقال له بشكل ونبرة مناسبة موحية، ومثلها كلمة «كِخ»، فتبدأ هنا القدرة على تنفيذ تعليمات أولية فيها صيغة الأمر أو النهي أو الاستفهام: مثلًا «أعطني قبلة»، «تعال أعطك شيئا»، أي أن الرضيع الأقل من عام يفهم كلمة «لا» و «افعل» و»لا تفعل» وغيرها، بعكس مزاعم أدبيات التربية الغربية.

۞ تظهر لديه نزعة التفضيل لأشياء معينة على غيرها -لعبة/ طعام إلخ. أي أنه يبدأ في ممارسة مهارات «المقارنة» و «المفاضلة» و «الاختيار» لما يفضله، وتبدأ فطرة الإرادة الحرة في الظهور سبحان الله.

۞ تنمو القدرة على إدخال شيء صغير في شيء أكبر.

۞ يظهر منه تكرار لإسقاط الألعاب عامدا، ليختبر أين ستذهب وما الصوت

الذي ستحدثه إلخ، فيجعل أهله يتفاعلون معه مرات بإعادتها إليه وهو يستمتع بذلك (وربما رضيع الـ٦ أشهر يبدأ تلك المهارة من قبل).

- يلوح بيديه ليقول «سلام» أو «إلى اللقاء»، والإشارة بإصبعه إلى أشياء، وإبداء موافقته أو رفضه لشيء ما عن طريق تحريك رأسه.

- يحاول استخدام تعابير وجه مناسبة لكلماته، فيها كثير من محاكاة الآخرين.

- يستمتع بالأنشطة المشتركة، فيستمتع بإعادة القيام بالتعليمات البسيطة التي فيها مرح وبهجة ولعب: مثل «أين أنفك»، و«صفق بيديك» إلخ.

- تطور إدراكه هنا يعتمد على استرجاعه للكلمات المتكررة، لذلك يحتاج إلى التكرار مع تثبيت الكلمة نوعا ما فترة معقولة لتثبت.

- تبدأ بذرة المحاكاة تثمر، وتختلف درجتها حسب الفروق الفردية والتحفيز.

من عمر ١٢-١٨ شهر (سنة - سنة ونصف)

- إدراكه المكاني يتنامى فقد صار قادرا على تحديد المكان الذي ستصل إليه اللعبة التي رماها.

- تزايد الرغبة في استكشاف كل شيء، بخاصة بعد نمو الإدراك المكاني بسبب تطور الحركة

- أصبح أقدر على الإشارة للأشياء التي يحبها ويفضلها.

- يتفاعل مع الآخرين اجتماعيا وبصريا، ويعبر عن رغباته بدرجات متفاوتة

- يستمتع بتفحّص طعامه، وقد يصبح انتقائيا أكثر لنوعيات الطعام.

- يستمتع حين يقوم بتغطية نفسه أو ارتداء شيء بنفسه إلخ، ونجاحه في اعتماده على نفسه مصدر هام لنموه النفسي والاجتماعي.

- يميز أعضاء جسده ويشير إليها عند تسميتها بصوت عالٍ.

۞ يستطيع تقليب صفحات الكتاب، وأحيانًا الإمساك بعدة صفحات في آن واحد ونقلها إلى الجانب الآخر (وهذا وارد قبل عمر سنة).

من عمر ١٨-٢٤ (سنة ونص-سنتين)

۞ لازال حب الاستطلاع والاستكشاف يتزايد، وإدراكه المكاني والزماني يتنامى.

۞ ينمو إدراكه لمفهوم «الوقت»، فحين نقول له: مرة أخرى/ ليس اليوم/ بعد الأكل/ لاحقًا إلخ، يفهم.

۞ يبدأ في طلب الذهاب إلى الحمام. إلخ، وبالفعل يسهل جدًا في تلك المرحلة تمرينه على خلع الحفاض.

۞ قد يبدي التمرد أحيانًا بعدما تعلم كلمة «لا» فيُكثر من قول «لا أريد» بسبب وبدون سبب.

۞ تزيد قدرته على إلباس نفسه بخاصة لو كانت الملابس غير معقدة، كالنعل والسروال السهل والطاقية، لكنه غير قادر على التعامل مع الأزرار والحزام والحذاء ذي الأربطة، وربما السحَّاب/ السوستة.

۞ يبدي بشكل أوضح القدرة على مساعدة الأهل في مهام مختلفة تناسب قدراته، مثل: جمع الجوارب من حبال المَنشر الداخلي/ جمع المكعبات في علبتها. إلخ (بعضها يمكن للرضيع قبل سن السنة أن يمارسه، لكن يكون غالبا بشكل عشوائي).

۞ أحيانًا يحاكي تصرفات الكبار تلقائيا: جمع الأشياء في علب وترتيب السرير وتسريح شعره بل وذقنه كما يفعل الكبار، ووضع عطور على ملابسه وارتداء حذاء الأم أو الأب وحمل حقائبهما ومحاولة غسل أسنانه بنفسه مثلهم إلخ

۞ يتطور التنسيق الحركي بين العين واليد، فتنمو قدرته على تركيب الأحجيات (البازل) السهلة/ دحرجة الكرة بقدمه نحو مرمَى قريب/ بناء برج مكعبات بسيط إلخ

- يبدأ في تمييز أسماء عدد أكبر من الأشخاص والأشياء والكائنات المألوفين.

مظاهر النمو اللغوي

الشهر الأول

- يخزن كل ما يسمعه، مثلما كان يفعل وهو جنين ووليد.
- لا يحاول إظهار اللغة بأي طريقة. البكاء فقط هو لغته للتواصل والتعبير

من عمر ١ -٣ أشهر

- في نهاية الشهر الثاني يبدأ القرقرة -الضحك بصوتٍ عالٍ.
- تظهر كلما كبر مجموعة أصوات أكثر.
- ولازال البكاء أكثر وسيلة للتعبير

من عمر٣-٦ أشهر

- في عمر ٤ أشهر يدرك اللغة مِن حوله بشكل أوضح، خاصة عن طريق دمج فهمه لحركات وجه المتكلم وإشاراته مع الكلام وربط دلالات التواصل اللفظي وغير اللفظي.
- يفهم كيف يستخدم اللغة بطريقته، فيبدأ في عمر ٤-٥ أشهر في إصدار أصوات عشوائية مثل (أغ، أ ر ر) عندما نكلمه ثم يبدأ في إصدار أصوات بعض الحروف مثل: (ب، م، ن) مع تكرير الصوت.
- يمكنه نطق الحروف الساكنة والمتحركة وبعض مقاطع الكلمات، ثم يبدأ في تكريرها، مثل: (جه، مه)، ثم يمكنه الجمع بينها في جملة واحدة لاحقًا، خاصةً عند الحديث إليه.
- المناغاة التي تعبر عن حالة الرضا والسرور تزداد كلما استجابت لها الأم أو

من حوله، وتبدأ في الشهر الثالث/ الرابع.

۞ يتدرب على الكلام تلقائيا أحيانًا حتى عندما يكون وحده، لمجرد المتعة.

من عمر ٦-٩ أشهر

۞ تطور ملحوظ عما سبق.

۞ جمل المناغاة المطولة، التي تقاطعها غرغرة وهمهمة، تزداد تألقًا.

۞ المناغاة بالجمع بين أصوات متحركة وساكنة مثل: جا به جا به جا، بدون تمييز.

۞ يصدر أصواتًا تشبه الحقيقية وينغّم كلمات، مع تكرير الصوت.

من عمر ٩-١٢ شهر

۞ يبدأ فهم الكلمات البسيطة مثل «كلب، عصير، بابا إلخ». وقد يتمكن من فهم حتى ٢٥ كلمة أو عبارات بسيطة بنهاية العام الأول.

۞ يستمر بإصدار أصواته الأولية والثرثرة والتنغيم سواءٌ كان وحده أو بحضور الناس.

۞ يصدر مقاطع كلمات كمحاولة لبدء الكلام: مثل (بابابا... دادادا... ماماما). في نهاية المرحلة يستطيع قول ٣ كلمات، منها «ماما» و «بابا» بشكل مميز.

۞ يبدأ في اختراع كلمات أولية يستخدمها بصورة ثابتة للتعبير عن أشياء محددة ولكنها ليست كلمات حقيقية.

۞ يستطيع التحدث بصوت عالٍ ويمكنه البدء بغناء بضع كلمات من أنشودة تتردد أمامه، بطريقته اللغوية الخاصة.

۞ يجمع بين مقاطع أطول، ويبدأ بتغيير نبرة صوته مثلما يفعل الكبار.

- يعرف اسمه بوضوح ويرد عند ذكره قبل إتمام عامه الأول.
- يتعلم المناداة على والديه.
- في نهاية هذه الفترة يبدأ تمييز الأسماء المعروفة له، مثل اسم الأم والأب والإخوة.
- كلمة «لا»/ «كخ» قد صار يفهمها جيدا عندما تقال بالنبرة المناسبة.
- وصار يعبر عنها بالمثل بلغة الجسد بإيماء رأسه، أو بلغة الكلام مباشرة: «لأ»/ «دأ»/ «تؤ».
- يستخدم الأصوات والحركات التي اكتسبها بهدف نقل رسالة ما.

من عمر ١٢-١٨ شهر (سنة - سنة ونصف)

- يصدر كلمته الأولى غالبا إن لم يكن قد بدأ في المرحلة السابقة لكن لا نقلق لو أنه لم يفعلها بعد.
- الأصوات التى يتقنها الطفل من عمر ١٤ شهر إلى عامين: ت، أ، ع، ح، هـ، م، ن، ل، و، ى.
- يزداد مخزون الكلمات تدريجيًا، وتكون الاختلافات بين الأطفال كبيرة جدًا حسب طريقة التنشئة بجانب الجينات والاستعدادات
- يزداد عدد الكلمات التي يستطيع استخدامها، (٦-١٠ كلمات)، مثل: (بابا، ماما إلخ)
- يفهم عددًا أكبر من الكلمات بما في ذلك الأفعال، حتى لو لازال لا يستطيع نطقها
- يفهم الجمل القصيرة والتعليمات البسيطة أكثر، مثل «أعطني الكرة، أمسك الكوب، قل بسم الله.إلخ».

۞ يستعمل الكلمات بشكل أساسي للتعبير عن الأشياء التي يهتم بها، وقد يعبر عنها بجزء من حروفها أو بأصواتها: مثلا: كلب-هَوْ، قطة-نياو، إلخ

۞ في عمر ١٥ أشهر، يستطيع قول ٥ كلمات ولو بشكل غير مكتمل الوضوح بعد، مما يجعلها أقرب للهيروغليفية ويجعل الأهل فقط غالبا هم من يفهم تلك الطلاسم.

۞ في نهاية المرحلة، عدد الكلمات المعتاد هو ٢٠-٥٠.

۞ يعبر عن تلك الكلمات بمعانٍ يفهمها، ليس مجرد تكرار وحفظ لها. فمثلًا: رأى قطة فيقول قطة ويعبر عن أمور يريدها بعينها، مثلا: يريد أن يأكل شيئًا محددًا فيطلبه بالاسم إلخ

۞ يستعمل الضمائر الشخصية/ ياء المتكلم، مثلا: لعبت(ي)، طعام(ي) إلخ

۞ يقلد أصوات بعض الحيوانات، مثلا: هوهو، مياو إلخ

من عمر ١٨-٢٤ (سنة ونص-سنتين)

۞ تتطور اللغة بشكل سريع، ويستمتع بتعلم الكلمات الجديدة فاللغة صارت جزءًا يوميًّا أساسيًّا.

۞ تركز عباراته على المحتوى، ولا تحتوي عادة عناصر الجملة العادية وأدوات الربط، فيقول مثلًا: «بابا شُغل» بدلا من «بابا ذهب إلى الشغل/ العمل».

۞ ويستطيع الربط بين عدة كلمات معًا، مثل: «ذهب أبي» أو «خلع الحذاء».

۞ لاحقًا، يستطيع إضافة كلمات مثل: كفى، أكثر، لا يوجد (بس/ كفاية/ كمان/ مفيش إلخ)

۞ في سن العامين، يستطيع معظم الأطفال تكوين جملة من ٣ كلمات ويستعمل الضمير أنا، مثل: «أنا أذهب لأبي».

- وهنا تبدأ مرحلة إثبات الشخصية –وربما العناد– في البروز أكثر.
- لازال يستخدم كلمات فريدة لا يفهمها في الغالب سوى الأهل، في محاولة للتقارب اللغوي.
- يبدأ باستخدام اللغة كلعبة لتطوير خياله.
- تطور الكلام لدى الأطفال الذين يبقون في المنزل مع شخص واحد يكون بطيئا لقلة التواصل الاجتماعي مع البشر.

مظاهر النمو العقلي/ العصبي (الذاكرة)

الشهر الأول

- يمتلك حوالي ٤٠٪ من الذاكرة، وبه يتعرف على صوت أمه/ الروائح والأصوات التي اعتاد معايشتها وهو جنين في الرحم.

من عمر ١-٣ أشهر

- ببلوغ ثلاثة أشهر يتذكر الصور أو الألعاب الجديدة التي عُرضت عليه قبل بضعة أيام/ أفراد عائلته الذين يراهم باستمرار.

من عمر٣-٦ أشهر

- ببلوغه أربعة أشهر، يمكنه تمييز وجوه الكثير من الأشخاص.

من عمر ٦-٩ أشهر

- يشبه ما قيل في الأشهر من ٣-٦ مع تطور متنامي بالطبع.



من عمر ٩-١٢ شهر

تطور كبير في ذكرياته فتزداد نشاطًا وتخزينًا للأحداث والمواقف وردود الأفعال. ويؤدي هذا إلى تكون رد فعل عاطفي معين لديه سلبا أو إيجابا تجاه شخص أو مكان ما، وتعتمد الاستجابات على الخبرة التراكمية والثبوت لهذا الشخص أو المكان في ذاكرته، فنجد الطفل يتذكر أحداثا تعود لبضعة أشهر.

من عمر ١٢-١٨ شهر

يشبه ما قيل في الشهور من١٢-١٨.

من عمر ١٨-٢٤ (سنة ونص - سنتين)

نفس ما قيل في الأشهر السابقة، بجانب تذكر الطفل لأحداث تعود لأشهر أبعد وأحيانًا إلى سنة مضت.

مظاهر النمو الحسي

١. **البصر**

الشهر الأول

- حساسية عيونه للضوء ضعيفة (الضوء اللازم لطفل عمره شهر للإحساس بالضوء أعلى ٥٠ مرة منه عند البالغ) فيفرق بين النور والظلام لو كان الضوء شديد السطوع في الغرفة لذلك لا يؤثر على نومه ترك بعض الإضاءة الخافتة في مكان نومه.
- نظره محدود وضعيف، ثم يتنامى فيبدأ المتابعة بالنظرات خلال أربعين يومـًا.
- يتطور تمييزه للألوان، فعند الولادة يرى أبيض وأسود فقط وظلال الرمادي/ ثم في نهاية الأسبوع الأول يرى بعض الألوان المتباينة أيضًا: أحمر-برتقالي-أخضر/

وخلال الأسابيع الأولى يبدأ في تمييز الألوان أكثر/ ويستغرق وقتًا ليرى اللون الأزرق والبنفسجي، لأن الضوء الأزرق له أطوال موجية أقصر، مع وجود مستقبلات لونية أقل في شبكية العين له.

- يحاول تركيز بصره على من يحدثه عن قرب، والتركيز عموما على الأشياء التي على بعد ٢٠ سم.
- يتتبع الأجسام المتحركة قريبًا من وجهه
- تبدو نظراته متنقلة وأحيانًا تشبه المصابين بالحول، عافَى الله كل مبتلى.

من عمر ١-٣ أشهر

- العيون أكثر حساسية للضوء، لذلك قد نحتاج إلى إطفاء الأنوار قليلاً أثناء أوقات النوم ليغفو بعمق.
- يصبح البصر أكثر حدة، والعينين تتحرك أفضل كفريق واحد. ويحب متابعة الأشياء المتحركة.
- يميز أكثر بين الألوان
- مسافة إبصاره للأشياء الأبعد تزداد، لكن لا تتعدى ٦٠ سنتيمترًا.
- يميز بعض الأشياء المألوفة: كدميته أو زجاجة الحليب مثلًا.
- أصبح قادرًا على تحويل نظره من كائن إلى آخر دون الحاجة إلى تحريك الرأس.
- تركيزه على الأشخاص وتعابير وجههم صار أقوى وأكثر.



من عمر٣-٦ شهور

۞ القدرة على رؤية طيف الألوان الكاملة (قوس قزح/ قوس الألوان) عند ٥ أو ٦ أشهر، كرؤية الكبار.

۞ البدء في ملاحقة والدته ببصره حين تتحرك/ والأشياء المتحركة.

۞ يميز الوجوه، وبشكل عام فإن الحواس المتعلقة بالرؤية تطورت بشكل ملحوظ.

۞ يتوجه ببصره ناحية الأصوات ويتابعها بعينيه لو كان معها حركة.

من عمر ٦-٩ أشهر

۞ تحريك العينين أسرع وأكثر دقة لمتابعة الأجسام المتحركة، مع تحسن في حدة البصر.

۞ تزايد القدرة على الرؤية عامةً وبخاصة الأشياء الصغيرة والدقيقة جدًا

۞ قدرته على رؤية المسافات تصبح أكثر عمقًا ودقة.

من عمر ٩-١٢ شهر

۞ تتسع مساحة الرؤية خاصة مع تطور التركيز والانتباه والعمليات الإدراكية الحركية، فيستطيع الإمساك بالأشياء بعد النظر إليها.

۞ يميز بين درجات الألوان والظلال عندما ينهي عامه الأول.

۞ يتأمل محادثات الكبار من حوله ببصره وينصت إليها حتى لو كانوا لا يوجهون إليه الكلام.

۞ يستمر في توجيه رأسه ناحية المتكلم.

من عمر ١٢-١٨ شهر (سنة - سنة ونصف)

- يبدأ بصر الرضيع في التشابه مع بصر البالغين بشكل أقوى.
- تتنامى أكثر القدرة على تمييز الاختلافات بين الألوان، ورؤية العمق والارتفاعات والمسافات بشكل أدق وأكثر واقعية.

من عمر ١٨-٢٤ (سنة ونص - سنتين)

- يزداد تشابه بصره أكثر مع بصر البالغين، وتمييزه لاختلافات درجات الألوان بشكل أدق، ورؤيته للعمق والارتفاعات والمسافات بشكل أوضح وأقرب للحقيقة.



٢. السمع

الشهر الأول

- يستطيع سماع الأصوات المختلفة وتمييز نبرة الصوت، ومعرفة جزء من الرسالة المراد نقلها إليه، لكن لا يزال غير قادر على لفظ الكلام بنفسه أو استيعابه كاملا.

من عمر ١-٣ أشهر

- يتعرف على أصوات محددة ويميزها وعلى رأسها صوت أمه. فإن لم يستجب لصوتك حتى تمام الثلاثة أشهر، فمن المهم عرضه على مختص، ومشكلات السمع تُعالَج أفضل بالكشف المبكر، والنتائج أفضل لو تم اكتشافها قبل الثلاثة أشهر الأولى.
- يصغي للأصوات وتصبح استجاباته أكثر وضوحًا واتساقًا.
- يوقف كل شيء وكل حركة وينصت باهتمام عند الحديث بالقرب منه.

۞ يدير رأسه نحو مصدر الأصوات، ويبدأ بالنظر إلى الوجه الذي يتحدث إليه ويبتسم له.

۞ لا يزال يصاب بالقلق والخوف نوعا ما من الأصوات القوية والمرتفعة.

۞ يبدأ في تعلم تطوير السمع والنطق معا، ولا يزال غير قادر على فهم الكلام بتفاصيله إنما يفهم جزءً من الرسالة المراد نقلها إليه، وبشكل أوضح مما كان عليه في عمر الشهر.

۞ يستطيع التمييز بين الصوت الناتج عن الفرحة أو الناتج عن الضيق. وظهر ذلك بالفعل في مقطعٌ مرئي رأيتُه منذ فترة، لأب يحمل رضيعَه بين ذراعيه وهو في تلك المرحلة العمرية، ويلاعبه بالشكاية إليه من مشكلة ويحكيها بصوت حزين وملامح وجه باكية، فما كان من الرضيع إلا أن بكى في ثوانٍ معدودات سبحان الله.

من عمر ٣-٦ أشهر

۞ يحدد مصادر الأصوات ويميز بينها بصورة أفضل، بالذات صوت الأم ويبتسم حين يسمعه (وقد تبدأ تلك الابتسامة من الشهر الثاني)، ويمكن أن يلتفت إليها عندما يسمعها.

۞ وهكذا يفعل مع الألعاب التي تصدر أصواتًا.

۞ تتطور اللغة، حيث أن الأذن هي وسيلة الاكتشاف اللغوية حاليا، فمن المهم أن نعتني بمثيرات هذه الحاسة كعنايتنا بحاسة البصر.

من عمر ٦-٩ أشهر

۞ يستمع إليك لأنه بدأ في التركيز والانتباه بصورة أكبر، وبالتالي صار يعرف معاني بعض الكلمات التي تكررت على مسامعه، مثل: الكوب، والرضّاعة.

۞ يتمكن من الاستجابة للطلبات فيتوجه نحو من ناداه، وهذا يعتبر تطورا

حركيا ومعرفيا ولغويا أيضًا لشدة تداخلهم.

من عمر ٩-١٢ شهر

- يستمتع بتشغيل الألعاب التي تصدر الأصوات بخاصة الأصوات الطبيعية.
- يبدي شدة إصغاء إلى الأشخاص بانتباه واهتمام.

من عمر ١٢-١٨ شهر (سنة - سنة ونصف)

- تتضاعف القدرة على سماع الأصوات المختلفة بوضوح أكثر والاستجابة لها وتمييز مصدر الصوت.
- يفحص الأصوات الجديدة بشغف ويهتم بها.

من عمر ١٨-٢٤ (سنة ونص-سنتين)

- يتحسن التمييز السمعي بشكل أكبر، مما يسهم في تحسين النطق.

متى تقلقين على حاسة سمع الوليد؟

- لو أنه لا يستجيب للأصوات العالية بانتفاضة الجوارح مثلًا أو اضطراب جفون العين. إلخ
- لو أنه لا يستجيب لصوتك إلى أن تجاوز العام والنصف ولم تنتبهي كل ذلك الوقت! فهنا تذهبين فورًا لطبيب مختص -بل يُفَضل مبكرًا عن ذلك كما قلنا في مرحلة ١ إلى ٣ أشهر.



٣. التذوق

الشهر الأول

۞ لازال يتمتع بحاسة تذوق واضحة تميز بين الحلو والمر، وتتطور طيلة الشهر.

من ١-٣ أشهر

۞ لازال يستطيع التمييز بين المذاق الحلو والمُر، ويعتبر حليب الرضاعة هو طعامه الوحيد، لذا مذاقه هو المفضل لديه.

من عمر٣-٦ أشهر

۞ يكرر وضع بعض الأشياء في فمه، مثل: الألعاب/ غطاء الفراش الخاص به.إلخ، وهذا دليل على اعتماده على لسانه في استكشاف طبيعة الأشياء.

من عمر ٦-٩ أشهر

۞ بدء دخول بعض الأطعمة الصلبة بمثابة مفاجأة له، لاعتياده على مذاق الحليب فحسب. سيحب بعض أنواع الطعام ويرفض أخرى وقد تضطرين لتقديمها إليه عدة مرّات حتى يعتادها ويحبها.

۞ القدرة على تجربة الأطعمة بلسانه وأصابعه وبتزايد استقباله للأطعمة الصحية المختلفة تتحسن حاسة التذوق أكثر وقدرته على التعبير عن رفض الطعام تصبح أوضح ويعتاد على بعض الأطعمة بالتكرار.

من عمر ٩-١٢ شهر

۞ نفس ما قيل في الشهور من ٦-٩.

من عمر ١٢-١٨ شهر (سنة - سنة ونصف)

- نفس ما قيل في الشهور من ٦-٩.

من عمر ١٨-٢٤ (سنة ونص-سنتين)

- نفس ما قيل في الشهور من٦-٩.



٤. اللمس

الشهر الأول

- تتطور خلال الشهر أكثر مما كانت عليه في المرحلة الجنينية ومرحلة الوليد.

من عمر ١-٣ أشهر

- تنمو استجابته لدرجات الحرارة لتمتعه ببشرة حسّاسة.
- يستجيب لأي محاولة دغدغة
- يظهر مص أصابعه هنا، لدى الرضع الشغوفين بالأمر. (وقد يبدأ قبل ذلك)

من ٣-٦ أشهر

- يحاول ضرب وتحريك الألعاب المعلقة من حوله.
- قد يبكي إذا شعر بالبلل في منطقة الحفّاض.
- لمسات أمه له تهدئه كثيرًا.
- تزداد استجابته في هذه المرحلة للدغدغة

من عمر ٦-٩ أشهر

- تزايد معدل استكشافه للمحيط بأصابعه، وتزايد التحكم في الإمساك بالأشياء التي كانت تسقط من يده من قبل.

- يمكنه إمساك الطعام بيده ووضعه في فمه (لا داعي للقلق من صنع بعض الفوضى واتساخ المكان فما زال يتعلم، لكن نراعي تحقيق ذلك بتوازن، فلا نعوده على الاتساخ والفوضى، وأيضًا نفسح المجال لحواسه للتفاعل مع محيطه واختبار الحياة بأنامله وإن أدى ذلك لشيء من الخسائر المحتملة والمعقولة.)

من عمر ٩-١٢ شهر

- تتنامى قدرته على الشعور بالأشياء وخواصها عن طريق لمسها بيديه.

- ظهور القدرة على وضع يده على المكان الذي يشعر فيه بألم ويدل الآخرين عليه .

من عمر ١٢-١٨ شهر (سنة - سنة ونصف)

- نفس ما قيل في الشهور من ٩-١٢

من عمر ١٨-٢٤ (سنة ونص-سنتين)

- نفس ما قيل في الشهور من ٩-١٢.



٥. **الشم**

الشهر الأول

- تتطور بالتزامن مع التذوق، وهي من الحواس الحاضرة بقوة منذ كان في رحم أمه، وتحتفظ الدماغ بتجارب الشم التي عايشها الجنين، إلى ما بعد الولادة.

۞ يتعرف على رائحة أمه ويرد بتعابير الوجه المختلفة على الروائح التي يتعرض لها.

۞ وبما أن بصره ليس بالقوة الكافية بعد، فإنه يعتمد على الرائحة شبه اعتماد تام للتعامل مع عالمه، حتى أنه قد ذكرت إحدى الدراسات أن حديثي الولادة الذين يشمون رائحة حليب أمهم عند سحب الدم عند الطبيب، كانوا أقل قلقًا وتوترًا ممن تعرضوا لرائحة حليب أمٍ أخرى. ووجدت دراسة أخرى أن الرضع الذين يبكون يهدأون أسرع إذا ما مُنِحوا ملابس لها رائحة أمهم، بالمقارنة بمنحهم ملابس بدون وجود رائحتها، لذلك فهناك نصائح للأمهات بعدم طمس رائحتهن بالعطور الثقيلة في مرحلة الرضيع.

من عمر ١-٣ أشهر

۞ يميز بين الأشخاص بالشم، وإذا كانت هناك رائحة غريبة لشخص لا يعرفه فيمكن أن يشعر بالخوف والقلق ويبكي.

۞ ينفر من الروائح السيئة الكريهة ويسعد بالروائح الزكية الطيبة، لكن لا يتمكن من التعبير عن هذا بشكل تلاحظه الأم.

۞ يميز الروائح أكثر بخاصة تلك المألوفة لديه، كرائحة أمه ومنطقة رضاعه من أمه، فيشعر بالراحة والطمأنينة باستنشاقها.

۞ فكيف عرفنا تلك المعلومة وغيرها؟ الجواب: تجارب يجريها العلماء بمجسات عصبية معينة متصلة بشاشات طبية صممت خصيصا لرصد استجابات الدماغ العصبية ودرجاته وقياس مؤشراتها، عند التعرض لكل تلك الأمور، من الجنينية إلى ما بعدها.

من ٣-٦ أشهر

۞ ينمو شعور الطفل بالروائح وحساسيته تجاهها خلال الشهر الرابع والخامس.

من عمر ٦-٩ أشهر

۞ يعتاد على الروائح الأبرز من حوله سواء الأشخاص أو الأطعمة.

۞ ويمكن أن يرضى بتناول بعض الأطعمة التي رفضها من قبل بعد الاعتياد على رائحتها

۞ لازالت حاسة الشم تساعده في تحديد ما يعجبه وما لا يعجبه، لكن ستكون استجابته وانطباعاته عن الروائح أكثر وضوحًا، ومع قدوم الشهر السادس وبدء الطفل في تناول بعض الأطعمة يستخدم حاستي الشم والتذوق ليقرر تناولها أم لا. وإذا أعجبته رائحة الطعام فسوف يعبر عن ذلك بحركات تدل على البهجة والسعادة، بعكس لو لم تعجبه فيبدي الغضب والإعراض.

من عمر ٩-١٢ شهر

۞ نفس ما قيل في الشهور من ٦-٩.

من عمر ١٢-١٨ شهر (سنة - سنة ونصف)

۞ نفس ما قيل في الشهور من٦-٩

من عمر ١٨-٢٤ (سنة ونص-سنتين)

۞ نفس ما قيل في الشهور من ٦-٩.

الفصل الثاني

حقوق واحتياجات الرضيع

الغربُ يتشدقون بحقوق الطفل ويقيمون لذلك مؤسساتٍ لمتابعة أطفال العالم والتيقن من حصولهم على حقوقهم وعدم تعرضهم «للقهر» من قِبَل الآباء - زعموا!، ومعلوم أنهم في الأصل يصونون حقوق «وصولهم هم للطفل» لا حقوق الطفل، لينفردوا به بعيدا عن المرجعية الأبوية والدينية والأخلاقية ويتمكنوا من سلخه من فطرته ودينه، واستغلاله لصالح أغراضهم الخبيثة، والتي منها البيدوفيليا - الشذوذ عن الفطرة مع الأطفال - والعياذ بالله، ولا أدلَّ على ذلك مما رأيناه مؤخرًا من دعم بعض تلك المؤسسات لـ «حق الطفل في اختيار جِنسَه وميولِه الجنسية»، ودعمِها القَوِي لمؤسسةِ الانضباط الإيجابي الأمريكية PDA أشهر مؤسسة تربوية غربية، والتي تدعم الشذوذ عن الفطرة وحرية الميول الجنسية وكل مباديء العلمانية.

أيكون هؤلاء على تلك القمة وهم أبعد ما يكونون عن شرف صيانة حقوق الطفل وحفظه، بينما نحن الذين نملك أعظم دستور لحماية حقوق الطفل وصحته النفسية طلعت عليه شمس، ونبيُنا أقسَطُ الناس وأعرفُهم بالحقوق، ونأتي فنقهر أبناءنا ونستهينُ بحقوقهم بل نستهين بتعلُّمِها أصلًا، ونربيهم حسب المزاج والهوى؟ بل ومنا من يهرع لتعلم تلك الحقوق من الغرب والشرق.

إن الاستهانة بحقوقِ أولادنا المكفولة لهم شرعًا، بزعم أنهم لازالوا صغارًا، أو بزعم أننا الكبار وهم الطرف الخاضع الضعيف المحتاج إلينا والتابع لنا، جَورٌ

ممنوع وظلمٌ، قد حرَّمه الله على نفسه وجعله بيننا محرمًا، وقال ﷺ: «لا أشهد على جَور»[1].

ابنك إنسانٌ ونفسٌ، له حقوق كفلتْها له الشريعةُ مثلَنا تمامًا، حتى وهو لايزال جنينًا كما رأينا، ولا يعني هذا التفريط في تأديبهم وتنشئتهم على الجادة، بما يناسب كل مرحلة، فما تلك الحقوق والاحتياجات المدهشة؟



(١) البخاري (٢٦٥٠).

المحور الأول

حقوق واحتياجات الرضيع الدينية

أولًا: حق الرضيع في تحبيبه في دينه وتجنيبه كل ما ينفره منه

أي احتياجه إلى سقاية شجرة الإسلام في قلبه، بكل ما ينمي بداخله حب دينه وحب خالقه وتعظيمه، وبتجنب كل ما يغرس في قلبه النفور أو الضيق من أي من ذلك، لمسنا ذلك بوضوح في تربية النبي ﷺ للصغار، من خلال عدة مواقف:

١ - في اصطحاب النبي ﷺ لهم إلى المسجد، وحملهم في الصلاة برفق ورحمة

❁ يقول أبو قَتادةَ الأنصاريُّ أنَّ النبي ﷺ كانَ يُصَلِّي وهو حَامِلٌ أُمَامَةَ بنْتَ زَيْنَبَ بنْتِ النبي ﷺ، ولِأَبِي العَاصِ بنِ رَبِيعَةَ بنِ عبدِ شَمْسٍ، فَإِذَا سَجَدَ وضَعَهَا، وإذَا قَامَ حَمَلَهَا[١].

❁ وفي رواية لأبي قتادة أشد **عذوبة**: «بَينا نحنُ جلوس في المسجِدِ، إذ خرجَ علينا النبي ﷺ يحمِلُ أمامةَ بنتَ أبي العاصِ بنِ الرَّبيعِ، وأمُّها زينبُ بنتُ النبي ﷺ، وَهيَ صبيَّةٌ يحملُها، فصلَّى النبي ﷺ وَهيَ على عاتقِهِ، يضعُها إذا رَكعَ، ويُعيدُها إذا قامَ، حتَّى قَضى صلاتَهُ يفعلُ ذلِكَ بِها»[٢].

❁ وفي حديث آخر يقول شداد بن الهاد الليثي: «خرج علينا النبي ﷺ في إحدى صلاتي العَشِيّ، الظهر أو العصر، وهو حامل الحسن أو الحسين، فتقدم ﷺ فوضعه، ثم كبَّر للصلاة»[٣].

أي أنه ﷺ كان يتعمد أخذهم للصلاة الفردية والجماعية على حد سواء، بالتالي

(١) البخاري (٥١٦).
(٢) صححه الألباني-صحيح النسائي (٧١٠)، وصحيح أبي داود (٩١٨).
(٣) صححه الألباني-صحيح النسائي-أخرجه النسائي (١١٤١) واللفظ له، وأحمد (١٦٠٧٦) | وصححه الوادعي-الصحيح المسند (٤٧٥).

فإن الحديث القائل بأنه ﷺ قد قال: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم»، لا يُعمل به، ليس فقط لكونه حديثًا ضعيفًا جدًّا عند العلماء لا يصح الاستدلال به، وإنما لمعارضته للسنة الشريفة بوضوح، وقد كان ﷺ يصطحب الرضع وأكبر منهم إلى المساجد، وكان الرجال يأتونه بالمواليد في المسجد كما ذكرنا من قبل ليحنكهم ويدعو لهم، وكانت تصل أصواتُ بكاء الأطفال إلى صفوف الرجال أثناء الصلاة، من عند صفوف النساء في الخلف ولا ينهاهن ﷺ عن اصطحابهم إلى المسجد مرة أخرى، بل كان يتخفف في صلاته لأجلهم ورعاية لحقهم في ذلك كسائر المسلمين، فكل ذلك يعزز ويستحث نمو الطفل وبناءه ليس الديني فحسب، وإنما اللغوي والحسي والإدراكي والنفسي والاجتماعي أيضًا، بالإضافة إلى أنه من حفظ الفطرة الإيمانية.

بل الأمر ليس فقط في أوقات الصلاة، إنما كان الصغار في الخُطَب والدروس وحلقات المساجد:

- «كانَ النبي ﷺ يخطُبُ، فجاءَ الحسنُ والحُسَيْنُ، وعليهما قميصانِ أحمرانِ يعثُرانِ فيهما، فنزلَ النبي ﷺ، فقَطعَ كلامَهُ، فحملَهُما ثمَّ عادَ إلى المنبرِ»(١).
- «وكانَ نبيُّ اللهِ ﷺ إذا جلَسَ يجلِسُ إليهِ نفرٌ من أصحابِهِ، وفيهم رجلٌ لَهُ ابنٌ صغيرٌ يأتيهِ من خلفِ ظَهْرِهِ، فيُقعدُهُ بينَ يديهِ»(٢).

إذن هؤلاء الصغار موجودون في المساجد، في الخطب، في مجالس الصلاة، بين صفوف الصلاة، سواء مع النبي ﷺ في صلاته منفردًا، أو مع صحابته في صلاة جماعة؛ فيرى الصغار في كل تلك المشاهد، ليس فقط الشعائر، وإنما أيضًا أعدادًا متزايدة من المسلمين العابدين الذاكرين لله، غير والديه وأهله، فيرسخ في ذهنه ووجدانه أكثر قوة وحجم الإسلام وعظمته، ويؤكد ذلك جملة من الأحاديث الأخرى التي ستقرأونها

(١) صححه الألباني-صحيح النسائي (١٤١٢).
(٢) صححه الألباني -صحيح النسائي (٢٠٨٧).

في النقاط تباعًا، اكتفيتُ بها في مواضع أخرى لاحقة لمناسبتها لمقاصدها هناك أكثر، اتقاءًا للتكرار ما استطعت.

لكن الأمر ليس على إطلاقه، رغم ذلك، فكيف نحقق التوازن بين تلبية حقوق الصغار في ارتياد المساجد وحضور الصلوات، وبين الحفاظ على حرمة المسجد وهيبة الصلاة وعدم التشويش على المصلين؟

الجواب فيما قاله علماؤنا الأجلاء من شروط اصطحاب الأطفال للمسجد؛ مثل أمن الطهارة وعدم تسبب الطفل في إزعاج مفرط للمصلين أو تشويش عليهم بالصوت والحركة والمشاغبات، وربما تعريضهم للمشكلات؛ كالطفل الذي يضرب المصلين أو يكشف ملابسهم أو يخطف أغراضهم ويجري بعيدا أو يتمشى بين الصفوف ويشقها عنوةً ذهابًا وإيابًا إلخ.

وربما تلك السلوكيات في فترة ما بالفعل زادت عن الحد مما جعل العلماء يحذرون منها بقوة، فبدى وكأن الشريعة تمنع الصغار من دخول المساجد، بينما الأصل خلاف ذلك؛ فمن كان من الأطفال هادئًا يلتزم بالوقوف أو الجلوس بجانب أهله أو عند أقدامهم لا يجاوزها إلى المصلين - كما في أحاديثه ﷺ - فهذا يُصطَحب للصلاة ولا حرج.

«وسئل الإمام مالك عن الصبيان يؤتى بهم إلى المساجد؟ فقال: إن كان لا يعبث لصغره ويَكُفّ إذا نُهي فلا أرى بهذا بأسًا، وإن كان يعبث لصغره فلا أرى أن يؤتى به إلى المسجد»(١).

وقد منع ﷺ جهر بعض المصلين على بعض بالقراءة، فكيف بالتشويش عليهم

(١) مما جاء في «المدونة» (١/ ١٩٥)، وهي مجموعة من الأسئلة والأجوبة عن مسائل الفقه وردت للإمام مالك، ورواها عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسحنون (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) الذي جمعها وصنفها، ورواها عن عبد الرحمن بن القاسم العتقي (١٩١هـ/ ٨٠٦م) عن الإمام مالك بن أنس، وتنسب أحيانًا إلى سحنون، لأنه رواها، فيقال مدونة سحنون، نقلا عن فتوى في «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: «هل يأخذ ابنه للمسجد مع كونه يلعب ويشوش على المصلين».

باللعب والضوضاء؟ قال ﷺ: «فلا يؤذِيَنَّ بعضُكم بعضًا ولا يرفعْ بعضُكم على بعضٍ في القراءةِ أو قالَ في الصَّلاةِ»[1].

وفي نفس الوقت: «مجرد حصول صوت أو حركة من الصبي الصغير في المسجد ليس بمسوّغ لمنعه من المسجد، فقد كان الأطفال يفعلون ذلك في مسجده ﷺ ويُقِرُّهم، ويُخفف الصلاة رحمةً بهم، وبأمهاتهم، ولكن من عُلِمَ منه زيادة أذية للمصلين، فهذا هو الذي ينبغي ألا يصحب إلى المسجد حتى يتأدب بآدابه»[2].

٢- وفي إتاحته ﷺ الفرص لهم ليلعبوا (بأمان) بجوار مواضع العبادات وأهل الطاعات:

* وتأملوا بقية حديث شداد الليثي الذي ذكرنا جزءًا منه منذ قليل: «خرج علينا النبي ﷺ في إحدى صلاتي العَشِيّ، الظهر أو العصر، وهو حامل الحسن أو الحسين، فتقدم ﷺ فوضعه - أي على الأرض بجواره - ثم كبَّر للصلاة»، فيكمل شداد قائلًا: «فصلى ﷺ، فسجد بين ظهري صلاته سجدة أطالها»، يقول شداد: «إني رفعت رأسي، فإذا الصبي على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد، فرجعت في سجودي، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة، قال الناس: يا رسول الله ﷺ، إنك سجدت بين ظهري الصلاة سجدة أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمرٌ، أو أنه يُوحى إليك، قال ﷺ: كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني - (ركب على ظهري) - فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»[3].

* ويحكي عبد الله بن مسعود يقول: «كان الرسول ﷺ يصلي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا منعوهما أشار إليهم أن دعوهما، فلما قضى الصلاة

---

(١) صححه الألباني-صحيح أبي داود (١٣٣٢) واللفظ له، وأحمد (١١٨٩٦).

(٢) من فتوى في «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: «هل يأخذ ابنه للمسجد مع كونه يلعب ويشوش على المصلين».

(٣) صححه الألباني-صحيح النسائي-أخرجه النسائي (١١٤١) واللفظ له، وأحمد (١٦٠٧٦) | وصححه الوادعي-الصحيح المسند (٤٧٥) باختلافات يسيرة.

وضعهما في حجره»[1]، وروى مثل تلك المواقف صحابة آخرون كثر.

وأحب أن أؤكد مجددًا على كلمة «**بأمان**» التي في العنوان، فأنا أعلم أمهات كانت تقرص ولدَها بقوة وهي تصلي، حيث كان ينتظر سجودها ثم يثب على رأسها وربما فعل ذلك بقوة مؤلمة، وأحيانًا كان يرفع ثوب صلاتها أو يشد حجابها وربما جذب مع الخمار بضعَ خصلات من شعرها، فكانت تقرصه بشدة وهي تصلي ليبتعد عنها، وقد كان يكفيها قبض كفيه بكفها وحسب ريثما تقوم، غفر الله لهن، أُدرك تمامًا صعوبة تلك المواقف على الأم المسكينة، لكن كلما استحضرنا الغاية هان الطريق، وكلما تأملنا سوء العاقبة إن لم نتحمل، هان الألم، النبي ﷺ حين كان يَؤم الرجال في الصلاة، كانت رحمته بأم الصبي خلفه إذا بكى صبيها تسبق رغبته في إطالة الصلاة والتمتع بها، فكيف لو رأى مَن تَقرِصُ رضيعها وتضربه أثناء الصلاة؟

مع تأكيدنا على ضرورة أخذ الاحتياطات في السجود ومنع الطفل من اعتياد ذلك، كأن نمسك يده ونحجزه عنا ريثما ننتهي من السجود ثم نعيد يدنا إلى الأرض مجددًا في السجود، فقد رُخِّصَ في ترك السجود على كامل السبعة أعظم عند الحاجة، أعان الله الأمهات وضاعف أجورهن.

٣- وفي تخففه ﷺ في الصلوات عندما يكون:

كي لا يكره الطفل وجودنا في الصلاة. ولسنا أتقى من النبي ﷺ كي نترفع عن ذلك أو نستحي:

۞ «كان النبي ﷺ يسمع بكاء الصبي مع أمه وهو في الصلاة فيقرأ بالسورة الخفيفة أو بالسورة القصيرة»[2].

۞ وفي حديث آخر ذكرناه سابقًا، أنه ﷺ جوّز ذات يوم في الفجر - أي خفف -

(١) حسنه الألباني-صفة الصلاة (١٤٨) | وصحيح ابن خزيمة وقال: إسناده حسن رجاله ثقات رجال مسلم | أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨١٧٠)، وابن خزيمة (٨٨٧) باختلاف يسير، وأبو يعلى (٥٠١٧) واللفظ له.
(٢) مسلم (٤٧٠).

فقيل: يا رسول الله، لمَ جوَّزت؟! قال: «سمعت بكاء صبي فظننت أن أمه معنا تصلي فأردت أن (أفرغ له أمه)»(١).

وقال ﷺ: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّزُ في صلاتي مما أعلمُ مِن (شِدةِ وَجدِ أمِهِ من بكائه)»(٢)، أي: من شدة تلهف واضطراب قلب أمه عليه بسبب بكائه، وفي رواية: (كراهية أن أشق على أمه)(٣)، وفي رواية: (فيخفف مَخَافَةَ أَنْ تُفْتَنَ أُمُّهُ)(٤).

فلا يظن أحد أن ذلك كله رحمةً بالرضيع فحسب وإنما رحمةً بأمه كذلك، بما ينعكس على الرضيع أيضًا بالطبع، بل وأكد ﷺ هذا المقصد بحديث عام: «إذا أَمَّ أَحَدُكُمُ النَّاسَ، فَلْيُخَفِّفْ، فإنَّ فِيهِمُ الصَّغِيرَ، والْكَبِيرَ، والضَّعِيفَ، والْمَرِيضَ، فإذا صَلَّى وحْدَهُ فَلْيُصَلِّ كيفَ شاءَ»(٥).

وقال أنس: «كانَ النبي ﷺ يَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ مع أُمِّهِ وهو في الصَّلَاةِ، فَيَقْرَأُ بالسُّورَةِ الخَفِيفَةِ، أوْ بالسُّورَةِ القَصِيرَةِ»(٦)، أي ربما قرأ ثلاث آيات فحسب من أجل هذا الصغير وأمه!

وتلك الأحاديث يضاف إليها أيضًا الأحاديث في النقاط السابقة، التي جاء فيها الذهاب بهم للمسجد وعدم نبذهم بعيدًا عنه، حتى لو وصل صوت بكائهم إلى أُذُن الإمام، كما كان يحدث في زمن إمامنا ﷺ في صلاة الجماعة وكان يتخفف فيها حينها دون أن ينهى الأم بعدها عن القدوم ثانية بطفلها؛ فها هنا يا رفقة الخير تُحاط نبتة الإسلام في قلوب براعم الأمة بالعناية منذ أيامها الأولى.

فحين نصحبه معنا للصلاة، ونرفق به أثناءها

(١) صححه الألباني-صفة الصلاة (١٠٢) | أخرجه الترمذي (٣٧٦) بمعناه مختصراً، وأحمد (١٣٧٠١) واللفظ له.
(٢) البخاري (٧١٠).
(٣) البخاري (٨٦٨).
(٤) البخاري (٧٠٨)، ومسلم (٤٦٩).
(٥) مسلم (٤٦٧).
(٦) مسلم (٤٧٠).

إذا بكى، ونتيح مساحة للعبه بأمان خلالها، ولا نؤلمه ونحن فيها، يَصير حينئذ وقتَ الصلاةِ مُحَببًا إليه فيُحب الصلاةَ، والمُرَبِي الذي يصلي، ورَبَ المُرَبِي الذي يقف بين يديه يصلي والعكس صحيح، وهذا يندرج تحت ضرورة حفظ الدين.

ولا يخفى ما في ذلك كله من تعويد الأطفال أيضًا على بعض الأمور التربوية الأخرى:

۞ على سبيل المثال، تعويدهم على أنهم سيتم إنزالهم أحيانًا على الأرض، حتى نتمكن من إتمام الركوع، وإتمام السجود على سبعة أعظم كما نحن مأمورن، فيُخَزِّن الطفل ذلك في ذاكرته ويتعلمه بالمشاهدة والممارسة المتكررة، ويدرك أن هناك مواضع تعبدية لن يكون محمولًا فيها كما يهوى.

۞ كذلك تعويدهم - حين نضعهم على الأرض ونكمل صلاتنا - أننا لن نبيح لهم المرور بيننا وبين سترة الصلاة ريثما نُسلِّم، فيعتادون على احترام ذلك الموضع وتلك العبادة بالتكرار عمليًّا أيضًا.

۞ كذلك تعويدهم على «الكف» عن اللعب المفرط، في أوقات وأماكن العبادة.

وكل ذلك هو من الغرس الإيماني المتدرج كما سنفصل في البناء الديني للرضيع.

وإذا سأل سائل: أليس في إطالة السجود وهم على ظهورنا - إن تحملنا ذلك - مَضَرَّةٌ بصلاتنا؟

فالجواب: بل على العكس، فهذا سيؤدي لمزيد ذِكر ودعوات في السجود وبتركيز أكثر بإذن الله بخاصة لو كان خفيف الوزن، وكان استمتاع الطفل يلهيه عن البكاء وإشغالِنا وارتكابِ أمور خطرة بعيدًا عنا فاستمرار بكائهم وقلقنا عليهم سيفسد علينا الخشوع والتركيز أكثر بالفعل.

وعلى كل حال، فمن الأفضل إعطاء الرضيع لعبة جديدة مثلًا وقت الصلاة أو إعطاؤه لأحد الأهل لنتمكن من إتمام الصلاة بخشوع، وعلينا ألا نتحرج من أي اضطراب يحدث في الصلاة بسبب ذلك، فالإسلام رفع عنا ذلك الحرج حرصًا على النمو الديني والنفسي السليم للرضيع، وقد فعلها خيرُ مربٍّ من قبل ﷺ بلا حرج كما بينَّا. ونجتهد في التركيز والخشوع بيقين أن أجرنا على الله على أية حال طالما المسألة لله وبما يرضيه فنطمئن، فالأحاديث بكل وضوح تعكس أهمية إشباع احتياج وحق اللعب عند الأطفال بجوار أماكن العبادات حتى لو كان ذلك على حساب صلاتنا نحن بقدر لا يفسدها علينا ولا على الآخرين بالطبع كما فَصَّلنا، وسنتناول في صفحات تالية عند فقرات اللعب بقية أمور متصلة بتلك المسألة، لمناسبتها هناك أكثر، كما سنتناول في فصل مشكلات الرضيع وعلاجها، ما يخص القلق من حملهم بالحفاض أثناء الصلاة، وسائر ما يتعلق بتيسير حصولهم على هذا الحق.

٤- وفي أمره ﷺ باصطحاب الصغار لصلاة العيدين

ولا يخفَى على أي مسلمٍ حجمَ ما تغرسه تلك الخطوة من محبةٍ للإسلام في قلوبهم الغضة، لِما يصاحب أجواء صلاة العيدين مِن حلوى وهدايا وألعاب وبالونات وألوان وزينة وعطاءات مالية ومفاجآت مدهشة وربما ملابس جديدة وأجواء مبهجة يعشقها الصغار.

ثانيًا: حق الرضيع في صيانة فطرته السوية مما قد يخدشها

من أي من المدخلات المعاصرة التي تقتحم عالم الرضيع وتقلب هذا الميزان بداخله تراكميًّا.

ومن أخطر المدخلات التي لا ينتبه لأثرها كثير من المربين إلا بعد فوات الأوان غالبًا:

تربية الرضيع بفلسفات الغرب الإنسانية وقيمِه العرجاء الشوهاء.

وبشكل عام قد حذر ﷺ المسلمين كافة - مربين ومتربين - من دخول جُحر الضب الخاص بغير المسلمين أو التأسي باليهود والنصارى، بخاصة في زماننا لأن كثيرًا منهم قد صاروا منتكسي الفطرة، فحتى المشتركات الإنسانية بين كل البشر كادت تختفي لديهم وتنسحق؛ فالصواب والخطأ عندهم صارت نابعة من نزعات إنسانية متفلتة من تربية رب العالمين وغارقة في اتباع الهوى والمادية بشكل جعلهم ينحرفون عن الفطرة السوية أكثر، بالتالي فلسفاتهم ونظرياتهم «الإنسانية» المتفشية بين صفوف المسلمين ساهمت في تشويه الفطرة بشكل عام، والإيمانية والأخلاقية بشكل خاص، وتفصيل ذلك في كتاب لاحق بإذن الله.

فمن صيانة فطرة الرضيع وحقوقه واحتياجاته الدينية، تربيته بتربية رب العالمين ورسوله فقط، ففيهما الكفاية والبركة والصيانة والأمان من انتكاس الفطرة بلا ريب، ولا ننسى كيف أن في تربية الوليد منذ أول يوم كانت هناك عادات جاهلية أكد ﷺ على تركها واستبدل بها سنن المولود، في إشارة صريحة وواضحة منه ﷺ لنا أن نُنَشِّىءَ هذه الأنفس على قيمة شرعية ثابتة عبر مراحل نموهم كلها، مفادها الحديث النبوي الشريف: «أَلَا كُلُّ شَيءٍ مِن أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ»، ولا أشد من جاهلية العصر الحديث وفلسفاته الإنسانية، فتنة وشرًا على التربية، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فالغرب مثلًا يعتبرون توجيه الطفل ناحية أي ميول دينية - أو حتى غيرها - هو نوع إجبار وإملاء للطفل وتسلط عليه هم يرفُضُونه ويعتبرونه مُعيقًا عن الإبداع ونمو المهارات الذاتية.

وبناءً على ذلك، ذكَرَتْ صديقتي لي مرة قصة مؤلمةً مرعبة، عن حوار لها مع صديقتها المتبعة لتوجيهات التربية الغربية بتفاني وانضباط، كان الحوار كالتالي، قالت لها صديقتي: حين يفعل صغيري سلوكًا طيبًا أقول له: (أحسنت بني أنت بذلك مسلم قوي بفضل الله) لأعزز بداخله هويته الإسلامية بجانب التشجيع على

السلوك فجاءها الرد الصادم من صديقتها التي قالت بثقة وتلقائية: «لكن هذا خطأ ولا يصح تربويًّا، فهذا توجيه مباشر للطفل»، تقصد أن توجيه الصغار لأي قيمة أو أي شيء حتى لو كان هويتهم الإسلامية، خطأ تربوي! وتُكمل كلامها المرعب وتقول: «أنا عن نفسي إلى الآن لم أوجِّه ابني لذلك، وأترك له حرية اختيار ما إذا كان يريد أن يصبح مسلمًا أم لا»!!

وبالفعل هذا ضمن فلسفات الغرب التعليمية (والتي من بينها فلسفة مونتيسوري)؛ بينما قال ﷺ: «ما مِن عبدٍ يسترعيه الله رعيَّةً فلم يُحِطها بنصحِه إلا لم يجِد رائحةَ الجنَّةِ»(١).

صدق ربي حين قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢]. انصاعوا لأهل الباطل بنوايا حسنة، وغفلوا عن نوايا أهل الباطل الخبيثة وانخدعوا بـ «قوالب الحق» التي وضعوا فيها باطلَهم ترويجًا له وإسحارًا للأعين، كما قال ابن القيم: «فكل صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله إلّا بإخراجه في قالب حق»(٢).

وبالمناسبة: تلك الأم على قدر من التدين والمعرفة بأصول الدين، أي أنها في ظن الناس أبعد ما يكون عن تفكير غير الملتزمين، لكن هذا بالطبع سيكون حال من لا يعتبر التربيةَ (دينًا)(٣).

ومؤخرًا رأيت موقفًا مماثلًا لتلك القصة في مواقع التواصل، على منشور يسرد نموذجًا لكيفية التعقيب على سلوكيات الطفل وتقويمها بالآية والحديث، فعلقت إحدى الأمهات معترضةً وقالت: هذا خطأ، لأنه يجعل الطفل يظن أن الدين هو الذي يتحكم في سلوكياته، فالصواب هو عدم ربط السلوك بالآية والحديث لئلا يكره الطفل الإسلام!!

(١) البخاري (٧١٥٠)، صحيح مسلم:١٤٢).
(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ٣٤٣- ابن القيم.
(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ٣٤٣- ابن القيم.

رأيتم خطورة الانفتاح على جحر الضب ذا؟ عرفتم لماذا نقول إن من حقوق الرضيع الدينية أن نصون فطرته عن التنشئة بفلسفات الغرب؟ ولدي نماذج أخرى في جعبتي لا تُحصَى، تطالعونها بإذن الله في الكتاب الخاص بنقد كل تلك التربويات الغربية الفاسدة المفسدة.

بالإضافة إلى كل ما سيأتي ذكره في بقية العناصر الدينية التالية، لما فيها أيضًا من تحفيز وتفعيل للفطرة الإيمانية، وشرح الفطرة بكامل مكوناتها وكيفية صيانتها من الخدش، يأتي في «البناء الفطري» للرضيع.

ثالثًا: احتياج الرضيع إلى عدم تركيز أهله على العلوم الدنيوية فقط على حساب العلوم الدينية

عندما نجتهد في تنمية وتحفيز حواس ولغة الرضيع، تجد بعض المسلمين يركز كل جهده على العلوم والمعارف الدنيوية، إذ يفترضون في الطفل قوًى خارقةً ومواهبَ مُبَكِّرةً جديرةً بالاقتناصِ والاغتنام في تعلم العلوم الحيوية والحساب وتفاصيل المجرات والكواكب وأنواع الديناصورات - المُنقَرِضة! - بل وأشكال الكائنات المِجهرية تحت المجهر وربما يوفرون له تليسكوبًا لرصد النجوم في الفلك فما المانع! ثم عند تعليم نفس الطفل: الدين والعقيدة والقرآن والأخلاق، في نفس الوقت، يقولون: (لا هذا خطأ! هذا لا يكون قبل سن ٧ سنوات، فهو لن يفهم ولن يستوعب! وهو ليس مُخَاطَبًا بأي من هذا بعد).

وتلك هي نفس النزعة الغربية تجاه العلوم الدنيوية، والتي يتم تصديرها كذلك ضمن فلسفاتهم التربوية لتنشئة الصغار، ألا يشعر المسلمون وهم يفعلون ذلك أنهم يزيحون الدين جانبًا من قلوب الصغار ويزاحمونه بالعلم التجريبي فقط تمامًا كالغرب الكافر بربه؟ ألا يلاحِظ المربون ذلك الخبث الواضح والذي لا يستلزم كثيرَ علمٍ بالمناسبة إنما يستلزم فقط حاسة شمٍّ إسلامية سليمة نقية كحواس الصغار تلتقط

ما رائحته تُزكِمُ الأنوفَ بوضوح؟ أليس منهم رجل رشيد؟

وبالطبع لا أحتاج للتأكيد على أن مشكلتنا ليست مع تطوير معارف الطفل العلمية الدنيوية، إنما مشكلتنا هي مع طغيان ذلك على حساب التلقين الديني، وتناقض المبررات التي تساق لأجل هذا.

فيا أيتها الأمهات: أي شخص يزعم أنه مُربٍ أو معلمٍ للبراعم الصغار، ويحاول إقناعكم بهذا، صُمُّوا آذانكم عنه، وأول علوم تلقنونها لصغاركم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١].

۞ وقد كان الإمام التستري يُعَلم ابن أخته وهو ابن ثلاث سنوات، أمور العقيدة والآخرة وصفات الله وأمور التوحيد ويخوّفُه من المعصية، وكان ذلك بالتدريج بالطبع، ولنا وقفة مع روائع تلك القصة في فصل البناء الديني للرضيع فلا يفوتكم.

۞ وكذلك الحسن، حفيد النبي ﷺ، والذي ولد في نصف شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، أي توفي عنه النبي ﷺ وهو ابن ٧ سنوات فقط.

وقد روَى عن النبي ﷺ أحاديث قد حفظها منه، منها قوله: «علمني النبي كلمات أقولهن في الوتر»، وذكر دعاء القنوت المشهور الذي أوله اللهم اهدنا فيمن هديت»، وتأملوا حين قال «في الوتر» أي أنه كان يصلي الوتر - نافلة - وهو أصغر من سبع سنوات ويحفظ عن النبي ﷺ تلك الأذكار كذلك، وليس هذا إلا بالنقع صغيرًا في بيت عامر بذكر الله والقدوات الدءوبة على طاعته وعبادته آناء الليل وأطراف النهار، مع حسن معاملة تُهيء النفس لحُسن التلقي، كما سنرى في الاحتياجات والحقوق النفسية، التي أشبعها ﷺ للصغار، بشكل جعلهم يتلقون عنه كل خير بسهولة ويسر.

۞ وكذلك أخوه الحسين فهو أصغر منه أصلًا، ولد في شعبان سنة أربع هجريًا، وقد حفظ وروى عن النبي ﷺ أيضًا.

۞ كذلك يقول عَمْرُو بنُ سَلِمةَ يحكي عن حاله وهو أقل من ٦ سنوات: «وكُنتُ غُلامًا حافِظًا، فحفِظْتُ مِن ذلك قُرآنًا كثيرًا»[1]، وفي رواية البخاري قال: «فَكُنْتُ أحْفَظُ ذلكَ الكَلامَ، وكَأنَّما يُغْرَى في صَدْرِي» أي: يُلْصَقُ بالغراء!![2].

يتكلم عن الركبان الذين يمرون بهم في المدينة يسألونهم عن الإسلام، فكان الناس يَقُصون عليهم جانبًا من الدين والقرآن، فكان عمرو وهو لايزال أصغر من ٦ سنوات، يحفظ ما يسمعه منهم من القرآن، حتى تكوّن لديه حفظًا كثيرًا تراكميًا على مدى شهور، ثم بعد فتح مكة أسلموا وعلمهم ﷺ الصلاة وأمرهم أن يؤمَهم أحفظُهم للقرآن، وفي رواية: أقرؤُهم، فلم يجدوا سوى هذا الصغير!

فأمَّهم وهو في سن ست أو سبع سنوات، رجالهم ونساءهم!! وهو لا يجيد حتى بعد سترَ عورته حينئذٍ إذا تكشفت أثناء الصلاة، حتى أنهم اشتروا له قميصًا ليسترها ولم يفرح بهدية مثله قط.

الشاهد: ترديد القرآن على مسامع الصغار حتى وإن لم يفهموه بعد كاملًا، مهم جدًا:

۞ لتحفيز اللغة - تأملوا لفظ (أقرؤُهم).

۞ وتحفيز الحفظ والسمع.

۞ وتأسيس هوية إسلامية وعربية منذ الصغر وقواعد إجمالية للخير والشر تتفق مع فطرتهم وتنميتها تراكميًا.

فلا نستهين بحقهم في التعرض يوميًا للقرآن وعلوم الشريعة المبسطة بلغة سهلة وبتكرار فكما رأينا في سمات الرضيع: التلقي السمعي - اللغوي يبدأ مبكرًا، فكيف لا نستغل ذلك في حفظ علوم وأصول الدين أول شيء؟ نعم، الأمر تظهر ثمرته غالبًا

---

(١) صححه الألباني-صحيح أبي داود (٥٨٥) | وصححه شعيب الأرنؤوط(٥٨٦).

(٢) صحيح البخاري: (٤٣٠٢) والقصة كاملة ومطولة في البخاري.

في نهاية مرحلة الرضيع أو الفطيم، وربما في المرحلة التي بعدهما قبل سن التمييز، ولكن هذا لا يجعلنا نترك التلقين في مرحلة الرضيع، بل يجعلنا نبدأ مبكرًا، فربما تزهر باكورة الثمرة حينها وإنما عليك البلاغ، ثم توقيت الثمرة يكون وقت أن يأذن الله، فالرضيع يحتاج إلى تحفيز حواسه لتنمو مهاراته الإدراكية والحسية واللغوية، ويسرف بعض المربين في تحقيق ذلك عن طريق العلوم والمحفزات الدنيوية فقط وبكثافة عجيبة غير مناسبة لنموه الناشيء، بينما من حق الرضيع أن نحفز حواسه ومهاراته اللغوية بالقرآن وعلوم الوحيين أولا، وألا نركز فقط على العلوم الدنيوية، مع حرص على عدم إملاله أو محاصرته بها بالطبع.

رابعًا: حق الرضيع في تفعيل ما يناسبه من سنن الفطرة لديه

قلنا سابقًا أن فيها خِصالًا كثيرةً، وذكرنا عشرة من أبرزها. ويناسب الرضيع منها:

- قص أظافره وعدم تركها أكثر من أربعين يومًا، قال ﷺ: «وُقِّتَ لنا في قَصِّ الشَّارِبِ، وتَقْلِيمِ الأظْفارِ، ونَتْفِ الإبِطِ، وحَلْقِ العانَةِ، أنْ لا نَتْرُكَ أكْثَرَ مِن أرْبَعِينَ لَيْلَةً»[1].
- غسل براجمه (ثنايا الجلد).
- تنظيفه من النجس (الاستنجاء).
- تنظيف أسنانه التي بدأت تخرج (ما يشبه استعمال السواك).
- تنظيف أنفه (ما يشبه الاستنشاق والاستنثار).
- المضمضة.

خامسًا: حق الرضيع في تنمية فطرته الإيمانية بشكل خاص

ويظهر ذلك بوضوح في كل المواقف النبوية التي يربط فيها ﷺ الصغار بربهم،

(١) مسلم (٢٥٨).

ولعل من أبرز ما ذكرناه سابقًا وأكثرها تكرارًا:

- دعاؤه ﷺ للرضع في وجوههم وطلب الخيرات والمسرات للنفس من الخالق المالك الرزاق.
- واصطحابه ﷺ لهم إلى المساجد تارة في صلاة منفردًا وتارة في صلاة جماعة.
- وسائر أمور التحبيب في الدين والتلقين الشرعي الحكيم.

وهي ممتدة بطول الفصل في بقية النقاط، فتأملوها.

سادسًا: حق الرضيع في محاوطة عقله وسمعه وبصره بالشعائر الدينية عموما وببصمات الهوية الإسلامية:

ظهر لنا ذلك الاحتياج جليا في عدة إجراءات نبوية:

- إجلاسه ﷺ للرضع في حجره، وإسماعه إياهم دعاءه لهم.
- تحريمه ﷺ عيش المسلمين بين ظهراني الكافرين، فمن أسباب ذلك: ألا ينشأ الصغار بعيدًا عن معالم الهوية الإسلامية وقريبًا من كل ما يخالفها.
- إيجابه ﷺ شعيرة الأذان ليصدح خمس مرات في اليوم بكلمات التوحيد فيسمعها الصغير والكبير وكل بيت، ويرى الصغار أهليهم يتركون كل شيء لأجل الصلاة لله في البيوت والمساجد.
- حظره ﷺ المحرمات على الأطفال مثلهم مثل الكبار، فلا يقربوا الخمر ولا لحم الخنزير ولا الذهب ولا الحرير – الصبيان – ولا الموسيقى ولا يروا الفواحش إلخ، وتحذيره للأهل من الإثم إن هم فعلوا ذلك فالرضيع لا إثم له بعد وغير مكلف، إنما يُمنَعُ مِن ذلك من باب الغرس والتعويد.
- منعه ﷺ الطفل من الاندفاع إلى الأكل قبل ذكر اسم الله.
- حثه على اصطحابهم لصلاة العيدين.

❁ وبكل ما ذكرناه في عنصر «تحبيبه في دينه» في بداية الفصل.

وغيرها مما لا يحصيه قلم ويحتاج لمُصَنفات بحجم كتب السيرة، فهذا غيض من فيض رعايته ﷺ لتلك النبتة الصغيرة بجوار جداول الإسلام الرقراقة، ويترتب على كل تلك النقاط، خطوات عملية لتطبيق وتفصيل هذه التربية النبوية وهو ما سنعرفه في فصل ملء الرضيع: البناء الديني.

سابعًا: احتياج الرضيع إلى القدوة الحسنة له في الأخلاق والعبودية والعادات

فيحتاج لوجود نموذج ليحاكيه ما إن تبدأ مرحلة المحاكاة، بشكل خاص: نموذج والديه، ومعلوم كم هو تأثر الأبناء بآبائهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، فلابد أن يعتاد الرضيع على رؤيتهما في مواضع الخير والصلاح وحسن الخلق والمسارعة للطاعات وحسن العادات والعبادات بهيئات جذابة محببة للنفس، كذلك يعتاد على رؤيتهما يمتنعان ويترفعان عن سوء الأخلاق والعادات، والغفلة عن الذكر، وإهمال الشعائر، وخفوت صوت الإسلام في البيت أو الحوارات، وذلك يندرج تحت مقصد حفظ الأخلاق الذي هو جزء من ضرورة حفظ الدين، وسنفصل في عناصر ذلك أيضًا في فصل «البناء الأخلاقي للرضيع».

ثامنًا: حق الرضيع في الولاية عليه (عنصر التعليم والتأديب)

فتشمل: تعليم الطفل العلمَ الإيماني والأخلاقي بشكل خاص - لأننا نتكلم عن الحقوق الدينية - والمناسب للغرس في مرحلته، فالرضيع يحتاج إلى وليّ يكون مسئولًا عن متابعة حسن تعلمه لكل ما سبق وغيره مما سيأتي تفصيله في فصول البناء والملء، مما يندرج تحت عنوان التعليم والتأديب الديني والأخلاقي للرضيع، ولنا وقفات مع (التأديب) في فصول تالية.

المحور الثاني

حقوق واحتياجات الرضيع التحصينية

نكرر: نعني هنا بشكل خاص: تحصينه من الشيطان، أما التحصين من الأضرار الحسية البدنية فضمن المحور الصحي، وتحصين الطفل هو أحد جوانب «الحماية له»، التابعة لحق الولاية الشخصية عليه، والتي هي من أضخم حقوقه التي يأثم الأهل بالتفريط فيها، كما سنُفَصِّل تباعًا.

أولًا: حق الرضيع في الدعاء له، واستجلاب دعاء أهل الصلاح له

وسبق تفصيلها في الوليد عند ولادته، وهي ممتدة مع الرضيع، بل ذكرنا الدعاء لهم في مواضع كثيرة، فهو يكاد لا ينفصل عن أي من المحاور سبحان الله لأهميته وتعدد زواياه التربوية، إلا أنه يعتبر احتياج تحصيني في المقام الأول: «كانَ النبيُّ ﷺ يُؤْتَى بالصِّبْيَانِ فَيَدْعُو لهم»[1].

ثانيًا: حق الرضيع في تحصينه بالرقية

بالأذكار والتعوذات الشرعية، وليس المقصود هنا فحسب هو الحث النبوي العام لعموم المسلمين بالتزام الرقية لهم ولأهليهم، كلا:

- بل إن هناك أحاديث موجهة لرقية الصغار بشكل خاص، لاسيما عندما يبكون ولا ندري السبب:

«دَخَلَ النبي ﷺ فسَمِعَ صَوتَ صَبيٍّ يَبْكي، فقال: ما لصَبيِّكم هذا يَبْكي؟ هلَّا استَرقَيْتُم له من العَينِ؟»[2].

---

(١) البخاري (٦٣٥٥).
(٢) حسنه الألباني-صحيح الجامع (٥٦٦٢).

وأحيانًا كان يرقيهم بنفسه دون بكائهم بالضرورة:

قال ابن عباس: «كانَ النبي ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ والحُسَيْنَ، ويقولُ: إنَّ أَبَاكُما كانَ يُعَوِّذُ بهَا إسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ: أَعُوذُ بكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِن كُلِّ شيطَانٍ وهَامَّةٍ، ومِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»(١).

وتأملوا امتداد هذا الحق التحصيني للأبناء عبر الزمان من لدن سيدنا إبراهيم! حقًّا وصدقًا إن هذه أمتكم أمة واحدة.

وجدير بالذكر أنه ﷺ بعدما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما من التعوذات، فهي بلا شك على رأس الرُقى المستعملة في تحصين الرضيع، وتعتبر الرقية ضمن وسائل حفظ النفس، وفيها دعم للنمو النفسي والدينى واللغوي عند الطفل أيضًا، ففيها إبداء الاهتمام والحنان والمرحمة والشفقة والتودد والحرص والحُب والالتصاق بالطفل والتواصل معه باللمس والكلام إلخ.

كل ذلك يُزهر في روحه مُروجًا مختلفٌ ألوانها، حين نضع كفَّنا على رأسه وبدنه ونقول الرقى الربانية، لذلك ذكرنا النمو الديني مع تلك الباقة، لأن فيها تعويد للطفل على صورة ذهنية إيمانية متكررة وضرورية لصيانة فطرته الإيمانية الناشئة، ملخصها: «الذين يعتنون بك أيها الصغير الجميل، ضِعافٌ مثلُك وعاجزون لا حول لهم ولا قوة بغير الله، يلجؤون لربك وربهم ﷻ عندما يصيبُك الضُر، ولئلا يصيبَك الضُر».

ثالثًا: حق الرضيع في تحصينه من الشيطان في مواضع بعينها:

١- أمره ﷺ بكف الأطفال عن اللعب في وقت انتشار الشياطين:

جاء ذلك في حديث "جنح الليل"، قال ﷺ: "إذا كانَ جُنْحُ اللَّيْلِ - أوْ أمْسَيْتُمْ - فَكُفُّوا صِبْيانَكُمْ؛ فإنَّ الشَّياطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فإذا ذَهَبَ ساعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَحُلُّوهُمْ"(٢).

(١) البخاري (٣٣٧١).
(٢) البخاري (٥٦٢٣)، صحيح مسلم:٢٠١٢).

الشرح: "جُنْحُ اللَّيلِ": أوَّلُ ظلامِه، «فكُفُّوا صِبيانكم»: فامنَعوهم من الانتشارِ ومِن الخروجِ من البُيوتِ في ذلك الوقتِ؛ لأنَّ هذا وقتُ انتشارِ الشَّياطينِ، تذهَبُ وتجيءُ مِن بدايةِ مَغيبِ الشَّمسِ إلى ذَهابِ ساعةٍ مِن اللَّيلِ، فإذا ذهَبَت ساعة مِن اللَّيلِ، فاترُكوهم وليس المقصودُ من (سَّاعةٍ من الليل) السَّاعةَ المعهودةَ الآنَ التي تساوي ستون دقيقةً، بل المرادُ جزءٌ من الوقتِ.

«وعلى هذا يبدأ وقت المنع من غروب الشمس حتى دخول وقت صلاة العشاء»(١).

«وقد خَشِيَ ﷺ على الصِّبيانِ عند انتشارِ الجِنِّ والشَّياطينِ أن تُلِمَّ بهم فتصرَعَهم؛ فإنَّ الشيطانَ قد أعطاه اللهُ قوةً على هذا، وقد علَّمَنا النبي ﷺ أنَّ التعرُّضَ للفِتَنِ مما لا ينبغي، والاحتراسَ منها أحزَمُ، على أنَّ ذلك الاحتراسَ لا يَرُدُّ قَدَرًا، ولكن لتبلُغَ النَّفسُ عُذْرَها، والحِكمةُ في انتشارِهم حينئذٍ أنَّ حرَكتَهم في اللَّيلِ أمكَنُ منها لهم في النَّهارِ؛ لأنَّ الظَّلامَ أجمعُ للقُوى الشَّيطانيَّةِ من غيرِه، وكذلك كلُّ سوادٍ، ويقالُ: إنَّ الشياطينَ تستعينُ بالظُّلْمةِ وتكرَهُ النُّورَ»(٢).



٢- حجزه ﷺ الطفل عن الأكل إن لم يُسَمِّ، وتعليمه التسمية أولًا:

أي نظل نسمي نحن على طعامه ورضاعه في بداية المرحلة؛ ثم بعدما يبدأ الطفل في النطق نعلمه التسمية بنفسه ونمنعه من مس الطعام إلا بعد أن يسمِّ الله، من باب الغرس والتعليم والتحصين.

عن حُذَيْفَةَ قَالَ: «كنَّا إذا حضَرْنا مَعَ النبي ﷺ طَعَامًا لَم نَضَعْ أَيدِينَا حتَّى يَبْدأَ النبي ﷺ فَيَضَع يدَه، وَإِنَّا حَضَرْنا معهُ مَرَّةً طَعامًا، فجاءَت جارِيَةٌ كأَنَّها تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ

(١) من فتوى على «إسلام ويب» بعنوان: وقت منع الأطفال من الخروج بدءا وانتهاء.
(٢) من شرح الدرر السنية للحديث.

لتَضعَ يَدهَا في الطَّعامِ، فَأَخذَ النبي ﷺ بيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرابِيٌّ كأَنَّمَا يُدْفَعُ، فَأَخذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ النبي: إِنَّ الشَّيْطانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعامَ أَنْ لا يُذْكَرَ اسمُ الله ﷻ عَلَيْهِ، وإِنَّهُ جاءَ بهذهِ الجاريةِ لِيَسْتَحِلَّ بِها، فَأَخذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بهذا الأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بهِ، فَأَخذْتُ بيدِهِ، والَّذِي نَفسي بِيَدِهِ، إِنَّ يدَهُ في يَدي مَعَ يَدَيْهِما ثُمَّ ذَكَرَ اسمَ اللهِ وأَكَل»[1].

رابعًا حق الرضيع في تحصينه ضد سائر مداخل الشيطان الأخرى:

هناك نماذج تحصينية عامة حثنا ﷺ على اقتفائها – وسبق ذكر أمور منها في الوليد بما يناسب يومياته – ومن حق الرضيع أن نشمله بما يناسبه منها.

فمن الأمور المتصلة منها بيومياته:

١ – حثه ﷺ على غلق الأبواب وأوعية الشراب والتسمية على كل شيء ما استطعنا:

لِما جاء في بقية حديث "جنح الليل": "فأَغْلِقُوا الأَبْوابَ، واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، فإِنَّ الشَّيْطانَ لا يَفْتَحُ بابًا مُغْلَقًا"[2]، "وأَوْكُوا قِرَبَكُمْ واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، وخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ، ولو أَنْ تَعْرُضُوا عليها شَيئًا"، أي: أحكموا غلق القربة وما شابهها وغطوا آنية الطعام ولو بأن تضعوا شيئًا عليها بالعَرض كملعقة أو عود خشبي، فلو أن الطفل يأخذ رضعات من قارورة الرضاعة، نغطيها بعد فراغه منها إلى موعد التقامه لها مرة أخرى، ونسمي الله ولو أنه يأكل من طبق أو وعاء وترك بقية، نغطيه بأي شيء ولو عارضًا، ونسمِّ الله ونغلق الأبواب علينا ونسمِّ الله، "والحديثُ يدُلُّ على أنَّ الشَّيطانَ إنَّما يَتسلَّطُ على المُفرِّطِ لا على المُتحرِّزِ، وفي الحديث، أَخْذُ الحَيطةِ والحذَرُ مِن كلِّ ما يضُرُّ»[3].

---

(١) مسلم (٢٠١٧).

(٢) البخاري (٥٦٢٣)، صحيح مسلم:٢٠١٢).

(٣) من شرح الدرر السنية للحديث.

٢- حثه ﷺ بشكل خاص على التسمية عند الطعام:

من حديث الجارية: «إِنَّ الشَّيْطانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعامَ أَنْ لا يُذْكَرَ اسمُ الله ﷻ عَلَيْهِ»(١)، فنسمي قبل إرضاع ابننا أو إطعامه، إلى أن يتمكن من التسمية بنفسه.

٣- حثه ﷺ على إغلاق الفم بكف يدنا اليسرى عند التثاؤب لئلا يدخل الشيطان:

قال ﷺ: «**إذا تَثاءبَ أَحَدُكم فَلْيمْسِكْ بيدِهِ على فِيهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخل**»(٢)، فإذا تثاءب الرضيع، نضع كفنا على فمه، إلى أن يعتادها ويفعلها بنفسه.

٤- حثه ﷺ على التسمية قبل خلع الملابس سترًا لأعين الجن والشياطين عن العورات:

«سترُ ما بين أعيُنِ الجنِّ وعَوراتِ بني آدمَ: إذا دخل أحدُهم الخلاءَ أن يقولَ: بسمِ اللهِ»(٣)، فنسمي الله عند خلع ملابس الطفل، بخاصة عند تغيير الحفاض.

٥- حثه ﷺ على إزالة النجس والقذر وتنظيف مواضع مظنة الاتساخ، والتعطر:

رأينا سابقًا كيف أن الوليد يُنَظَّف ويُغسَل عن بَدنه القَذَر ويُدهَن رأسه بخليط طيب الرائحة، والأمر ممتد معنا هنا أيضًا مع الرضيع، ومن المهم أن نعرف أن كل هذا التنظيف بجانب أنه من سنن الفطرة، فهو مما يطرد الشياطين، هو والتعطير كذلك.

قال ابن القيم في زاد المعاد: «وفي الطِّيب من الخاصية: أنَّ الملائكة تُحبه، والشياطين تنفِرُ عنه، وأحبُّ شيءٍ إلى الشياطين: الرائحةُ المنتنة الكريهة، فالأرواحُ الطيبة تُحِبُّ الرائحة الطيبة، والأرواحُ الخبيثة تُحِبُّ الرائحة الخبيثة، وكل روح تميل إلى ما يناسبها ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور:٢٦]، فما ذُكر في الآية وإن كان في النساء والرجال، فإنه يتناول

(١) مسلم (٢٠١٧).
(٢) مسلم (٢٩٩٥).
(٣) صححه الألباني-صحيح الترمذي (٦٠٦).

الأعمالَ والأقوالَ والمطاعم والمشارب والملابس والروائح، إما بعموم لفظه، أو بعموم معناه».

فتطييب بدن الرضيع بالمسك أو غيره من أنواع الطيب يُنَفِّر الشياطين عنه، خاصة بعد تنظيفه أولًا من القذر والنجس، وربما لذلك كانت فاطمة تُلبِسُ الحسَنَ (سِخابًا) قبل خروجه من المنزل لملاقاة جده ﷺ والارتماء في حضنه ﷺ، وأحد معانيه: عقدٌ فيه أخلاط الطيب مِن القَرَنْفُلِ والمِسْكِ والعُودِ ونَحوِها، يُعمَلُ على هَيئةِ السُّبْحةِ ويُجعَلُ قِلادةً للصِّبيانِ والجَواري حول رقبتهم، فيما يشبه «عود الفل والياسمين» في زماننا! قال أبو هريرة: «فَحَبَسَتْهُ شيئًا، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا تُلْبِسُهُ سِخَابًا، أَوْ تُغَسِّلُهُ. فَجَاءَ يَشْتَدُّ -يُسرِع في المشي- حتَّى عَانَقَهُ وقَبَّلَهُ»[1]، وفي رواية: «فقَامَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَمْشِي وَفِي عُنُقِهِ السِّخَابُ»[2]، «وفي الحديثِ: تَنظيفُ الصِّبيانِ وتَربِيَتُهم، لا سيَّما عندَ مُلاقاةِ الكِبارِ»[3]، وحديث (السِخاب) سيصحبنا كثيرًا لكثرة كنوزه النبوية التربوية.

ومن مواطن مظنة الاتساخ

* الحفاضات، فنتفقدها دوريًّا ونزيح النجس.

* والأنف عند الاستيقاظ قال ﷺ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِن مَنَامِهِ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فإنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ علَى خَيَاشِيمِهِ»[4].

٦- حثه ﷺ على عدم الإسراف في أثاث المنزل لأن الزائد عن الحاجة في البيوت يكون للشيطان:

للحديث المذكور في المقاصد في الباب الأول: قال ﷺ: «فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ، وَفِرَاشٌ

(١) البخاري (٢١٢٢)، ومسلم (٢٤٢١).
(٢) البخاري (٥٨٨٤).
(٣) من شرح الدرر السنية للحديث.
(٤) البخاري (٣٢٩٥)، ومسلم (٢٣٨).

لِامْرَأَتِهِ، وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ، وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ»[1]، وسبق شرحه فيرجع إليه.

٧- حثه ﷺ على الحرص على وجود الملائكة في البيوت وعدم الاحتفاظ بما يمنع دخولها، فإذا ذهبت الملائكة حضرت الشياطين:

هل تعلمون أن الحسن أو الحسين كان لديه جروٌ أو كلبٌ في بيت رسول الله، مخبوء تحت بعض الأثاث؟ ولم يعرف ﷺ بالأمر إلا بعد تغيُّبِ الملَك جبريل عن موعده معه، يقول ﷺ: «أتاني جبريلُ عليهِ السلامُ فقال لي: أتيتُك البارحةَ، فلم يمنعني أن أكونَ دخلتُ إلا أنَّهُ كان على البابِ تماثيل، وكان في البيتِ قرامُ سترٍ فيه تماثيلُ، وكان في البيتِ كلبٌ.

- فمُرْ برأسِ التمثالِ الذي في البيتِ يُقطعُ، فيصيرُ كهيئةِ الشجرةِ.
- ومُرْ بالسترِ فليُقطعْ، فليُجعلْ منه وسادتيْنِ منبوذتيْنِ تُوطآنِ.
- ومُرْ بالكلبِ فليُخرجْ.

ففعل رسولُ اللهِ ﷺ، وإذا الكلبُ لحسنٍ أو حسينٍ، كان تحتَ نضدٍ لهم - أثاث في البيت كالسرير- فأمرَ به فأُخْرِجَ»[2].

فكيف هو حجم تفريط الآباء الذي يُحضِرون بأنفسهم لأطفالهم كلبًا في المنزل يعيش ويلعب معهم؟ ويزينون غرفهم بورق حائط وثريات فيهم صور ذوات الأرواح؟

كذلك قوله ﷺ: «لَا تَدْخُلُ المَلَائِكَةُ بَيْتًا فيه كلبٌ ولَا صُورَة»[3]، (أي: التماثيل أو صور ذوات الأرواح المحرمة، فلو كانت في لعب الأطفال أو الوسائد والأغراض المُهانة التي تُوطأ ويلعب بها فليست بالصور المحرمة كالصور على الفُرُش والبُسط، وأما الصور على الملابس ففيها خلاف، وبعضها لا يظهر فيه الامتهان كصور الفنانين

---

(١) مسلم (٢٠٨٤).
(٢) صححه الألباني-صحيح أبي داود- أخرجه أبو داود (٤١٥٨)، والترمذي (٢٨٠٦).
(٣) البخاري (٣٣٢).

واللاعبين فإنها ما وضعت إلا للمحبة والإكرام، وبعضها يظهر فيه الامتهان كالصور على حفاظات الأطفال، وبعضها بين ذلك، والأحوط اجتنابه»[1].

وجاء في شرح حديث جبريل «إنَّا لا نَدْخُلُ بَيْتًا فيه صُورَةٌ ولا كَلْبٌ» فيمن يفعل ذلك في بيته: «عُوقِبُ بحِرمانِه مِن زِيارةِ المَلائِكةِ بَيتَه، وصَلاتِها فيه، واستِغفارِها له، وتَبريكِها عليه، ورَفعِها أذَى الشَّيطانِ»[2].

وقال د/ إبراهيم الدويش: «فالمكانُ الذي لا تدخلُ فيه الملائكةُ يحلُّ فيه الشَّياطينُ ولا شكَّ، ولعلَّ ذلك يفسِّرُ لنا قضيَّةَ هياج بعضِ الأطفالِ وصراخِهم وتعكُّرِ نفسيَّاتِهم، فتجدُ رُبَّما أنَّ لباسَه فيه صورةٌ، فلننتبِه لمثلِ هذا الأمرِ»[3].

وسئل الشيخ عبد الرحمن البراك عن دليل قول ابن القيم أنَّ الملائكةَ إذا وَجدوا في البيتِ صورةً أو كلبًا تخرجُ، فتدخلُ حينئذ الشياطين، فقال: «مِن المضادَّةِ بينَ الملائكةِ والشّياطينِ، هما ضِدَّانِ، ما تحبُّهُ الشَّياطينُ تكرَهُهُ الملائكةُ، والشَّياطينُ يَنْفِرُونَ مِن الملائكةِ، فهذا استنباطٌ، فالبيتُ الذي لا تدخلُهُ الملائكةُ هذا حَرِيٌّ أنْ تدخلَه الشَّياطينُ»[4].

كذلك الأشياء التي تحوِي تعاويذ شيطانية وطلاسم غير مفهومة، سواء من خلال مقاطع مرئية أو صوتية كالأغانِ والرسوم المتحركة (الكرتون) المذاعة في أرجاء البيت، وكل ما يحوِي المعازف (الموسيقى) مزامير للشيطان، وكثير من البيوت يقوم بتفعيل تلك الأشياء ليل نهار من باب «الهيصة» والجلبة الصوتية، وإن لم يتابعوها مباشرة ،أو يضعوا الطفل أمامها.فلننتبه.

ومن مزامير الشيطان المنتشرة في البيوت أيضًا ويغفل عنها كثير من المربين

---

(١) من فتوى الإسلام سؤال وجواب بعنوان: حكم لبس الثياب وعليها صورة صغيرة أو مخفية.
(٢) البخاري (٣٢٢٧).
(٣) من مقالة لد. إبراهيم الدويش بعنوان: توجيهات وأفكار في تربية الصغار، على موقع صيد الفوائد.
(٤) من فتوى للشيخ البراك بعنوان «ما الدَّليل على أنَّ الشَّياطين لا تدخل بيتًا فيه ملائكة؟»، على موقعه.

حتى الحريصين منهم على الخير واتقاء المحاذير: (الجرس).

قال ﷺ: «الْجَرَسُ مَزامِيرُ الشَّيْطانِ»[١]، «لا تَصْحَبُ المَلائِكَةُ رُفْقَةً فيها كَلْبٌ ولا جَرَسٌ»[٢]، وروى أنس أن النبي ﷺ أمرَ بِقَطْعِ الأَجْرَاسِ[٣].

«هو ناقوسٌ مِن المعدِنِ يُعلَّقُ في عُنقِ الدَّوابِّ له صَلْصلةٌ وصَوتٌ عندَ الحرَكةِ، وهو من مزامير الشيطان لأنَّه يَصدُرُ منه أنْغامٌ وألْحانٌ لها رَنينٌ تُشبِهُ آلاتِ اللَّهْوِ والطَّرَبِ، وهو يُشبِهُ ناقوسَ النَّصارى الذي يدعون به إلى صلاتهم»[٤].

إلى آخر منافذ الشيطان التي ينبغي تتبعها واجتنابها، وكلما تطور نمو الطفل الإدراكي واللغوي، نعلمه اجتنابها بنفسه ما أمكن، دون ضغط أو توتر وبالتدريج.

فماذا عن الحقوق النفسية؟

في المحور التالي.



(١) مسلم (٢١١٤).
(٢) مسلم (٢١١٣).
(٣) صححه الألباني-صحيح أبي داود (١٢٤٥).
(٤) من شرح الدرر السنية للأحاديث الثلاثة، وهناك أسباب أخرى إضافية في الشروح، لكراهة النبي ﷺ للجرس.

المحور الثالث

حقوق واحتياجات الرضيع النفسية

ينهلون من الغرب المعلوم خبث منطلقاته للجميع، توصيات منظماته الصحية والتربوية الرسمية حول معايير الصحة النفسية للطفل، وكأن المسلمين لا مُحمَّدَ لهم ﷺ!

تعالوا نكتشف معًا كيف أن هؤلاء قد صدق فيهم قولُ الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول



حين سنتكلم عن أمور كاللعب أو الكلام أو المهارات وما إلى ذلك، نقصد المراحل العمرية الشهرية في الرضيع التي تنسجم مع تلك السمات بالطبع، فيرجى العودة لفصول سمات الرضيع لفهم ما يناسب كل مرحلة شهرية قبل التطبيق.

أولًا: حق الرضيع في اللعب والاستكشاف واختبار الحياة بمساحة كافية وأمان وتَشَارُك

﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:١٢]، قيلت بشكل منطقي في حق يوسف عليه السلام، وكان عمره تقريبًا عشر سنوات، فما بالنا بمن هو أصغر؟ وما بالنا ببقية شواهدها في السنة؟ لا يناسب النمو الصحي لرضيعك أن يكون مقيدًا طوال الوقت في كرسي أو في عربة، حركته تحتاج للتحرر لتلبية احتياجه للاستكشاف واختبار دروب عالمه الجديد، لتوفير مجالٍ لتطورٍ سليم لنموه.

وسنرى في الفقرات التالية حجم وتشعب حق الأطفال، ذكرانًا وإناثًا، في اللعب كما تتبعناه في السنة النبوية، ونرى كيف أفسح ﷺ لهذا الاحتياج النفسي مساحات مدهشة!

١ - إفساح النبي ﷺ المجال لهم رغم عدم ملائمة الظروف أحيانًا:

۞ ولو حتى في وقت صلاتنا، أقدس موضع يكون فيه الإنسان مناجيًا ربه.

فكان يتسع مقام الصلاة أحيانًا للعب الصغار، ولو كان ذلك بين قدم المصلي وفوق ظهره سبحان الله، واتضح ذلك جليًّا من خلال أحاديث اللعب المذكورة سابقًا في المحور الديني، ولازال لنا إطلالات معها في فقراتها المناسبة.

۞ ولو حتى أطال المكث قليلا ﷺ أحيانًا، ليقضي الطفل نهمتَه.

ونقصد هنا بشكل خاص حديث شداد الليثي وخاتمته المدهشة حين تعجبوا من إطالته للسجود فسألوه فقال ﷺ: «ابني ارتحلني - ركب على ظهري - فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»[١].

وهنا يأتي سؤال منطقي:

هل السماح للرضيع باللعب بين أيدينا في الصلاة وغيرها إلى أن (يَقضِيَ حاجتَه)، أمر مُطلَقٌ دون حدود؟

والجواب: بالطبع لا، الحُكم يكون حسب المستطاع، فلا إفراط ولا تفريط، فليس شرطًا في كل الصلوات، وهو غير مستطاع بالفعل في كل الأوقات، بجانب أنها أحيانًا حين تكون أثناء الصلاة، لا يكون جلوس الرضيع على ظهرنا مثلًا من قبيل اللعب بل ربما لمجرد الجلوس فقط! وقد وردت مواضع رفع ﷺ فيها رأسه من السجود قبل أن ينزل عنه الصغار: قال أبو هريرة: «كُنَّا نُصَلِّي مع النبي ﷺ العشاءَ، فإذا سجدَ وثَبَ الحَسَنُ والحُسَيْنُ على ظهرِهِ، وإذا رفعَ رأسَهُ أَخَذَهُما بيدِهِ من خلفِهِ أخذًا رفيقًا، فوضعَهُما وضْعًا رَفيقًا، فإذا عادَ؛ عادَا»[٢]، أي إذا عاد للسجود عادا للصعود على ظهره.

(١) صححه الألباني-صحيح النسائي-أخرجه النسائي (١١٤١) واللفظ له، وأحمد (١٦٠٧٦) | وصححه الوادعي-الصحيح المسند (٤٧٥) باختلافات يسيرة.
(٢) حسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٣١٢).

فالأمر فيه توازن وديننا رفع عنا الحرج، والمشقة تجلب التيسير كما تعلمنا من قواعد الفقه، فبجانب أنه ﷺ يشبع فيهم جوانب نفسية عميقة، فإنه كذلك يربيهم على معاني الفطام عن بعض المباحات، لئلا تعتاد نفوسهم على النهم بلا حدود، ولكن غالبية حاله مع الصغار كالرضع ومن هم مثلهم، أنه يفسح لهم المجال أكثر، إذن: لو كان الأمر لعبًا، فلنتركه قليلًا قدر الإمكان وسرعان ما سيمل وتنتهي نهمته من اللعبة، وإن عجزنا أحيانًا عن ذلك فلا حرج ونحاول تطييب خاطره بأمر آخر إن أمكن.

۞ ولو حتى كان اللعب والاستكشاف متعلقًا بلحيته الشريفة ﷺ.

حيث كان يترك الصغار بأمان ولا يتبرم ولا يتضجر من عبث أناملهم، ولقد رأينا في سمات الرضيع كيف تنمو حاسة اللمس بقوة لديهم تبعًا لكثرة المحفزات اللمسية، وهذا يرينا كيف أن النبي ﷺ كان يفسح المجال لحواس الرضيع لتنمو مداركها بحرية وأمان، جاء ذلك في جزء من حديث لأبي هريرةَ: « فأُتِيَ بحُسين يَشتَدُّ – أي: يهرول – حتى وَقَعَ في حِجرِه ﷺ، ثم أدخلَ يدَه في لِحيَتِه ﷺ»[(١)].

۞ ولو حتى كان اللعب في خاتم النبوة أعلى ظهره الشريف ﷺ.

فيتحملهم ولا يمنعهم ولا يتحرج أبدًا ﷺ، قالت أم خالد تحكي عن نفسها حين كانت صغيرة وزارت النبي ﷺ مع أبيها: «فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ بخَاتَمِ النُّبُوَّةِ، فَزَبَرَنِي أَبِي – أي: نهاني أو منعني أو زجرني»، قَالَ النبي ﷺ: «دَعْهَا»[(٢)].

٢- توفيره ﷺ مساحة في البيت لأغراض لعبهم، فلا يضيق بها ذرعًا:

لمسنا ذلك الاحتياج من حديث لعب عائشة المعروف والذي جاء فيه: «قدِمَ النبي ﷺ، من غزوةِ تبوكٍ – أو خيبرٍ – وفي سهوتِها سِترٌ – أي في سهوة بيتها، وأحد

(١) صححه الحاكم–المستدرك على الصحيحين (٤٨٩١).
(٢) البخاري (٣٠٧١).

معاني السهوة: الجزء المحفور في الجدار يُوضَعُ فيه الأشياء، فهو كالفجوة الفارغة في الحائط، أو «كالخزانة الحائطية المحفورة في الجدار»[1].

ما يشبه في أيامنا: صندوق اللعب!

«فهَبَّتْ ريحٌ، فكَشَفَتْ ناحيةَ السِّتْرِ عن بناتٍ لعائشةَ - أي: لُعَب وعرائس»[2]، وعائشة لم تكن رضيعة حينئذ بالطبع، والرضيع أولَى بتلك المساحات.

٣- دعمه ﷺ لمساحات من اللعب بأمان وحرية خارج البيت، بشكل يتيح تواصلًا اجتماعيًا صحيًّا مع الأقران والطبيعة:

وهذا ضروري لنمو نفسي واجتماعي سليم ومتين، فلا يكون كل لعب الرضيع في البيوت بين أربعة جدران ضيقة. وتأملوا في الأحاديث التالية كيف قام ﷺ بدعم هذا العنصر في الأطفال الأكبر سنًا من الرضيع، فكيف بالرضيع الأصغر الأحوج إلى اللعب؟ فبقياس الأولى، نورد النماذج التالية لنقيس عليها.

۞ الاحتياج إلى اللعب في المكان الآمن خارج البيت ومع الأقران:

يروي أحد الصحابة أنهم «خرجوا معَ النبي ﷺ إلى طَعامٍ دُعوا لَهُ، «فإذا حُسَيْنٌ يلعَبُ في السِّكَّةِ»[3]، وفي رواية: «فإذا حُسَيْنٌ مع الصِّبيانِ يلعَبُ»[4]، وأخذ ﷺ في ملاعبته وملاطفته ومضاحكته، كما سنفصل بقية الحديث في مواضعه المناسبة، فحديث السكة هذا أيضًا من الأحاديث التي سترافقنا كثيرًا في رحلتنا لما فيه من درر وكنوز تربوية لا تنتهي.

---

(١) من شرح حديث عائشة من درس قصة «سليمان عليه السلام» على موقع الشيخ المنجد.

(٢) صححه الألباني-صحيح أبي داود (٤٩٣٢) واللفظ له، والبيهقي (٢١٥١٠) | وروايات أخرى للقصة صححها أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر (١٤/ ٢٦٤).

(٣) حسنه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٨)، والقصة في صحيح ابن حبان (٦٩٧١).

(٤) صححها ابن حبان-صحيح ابن حبان (٦٩٧١).

الاحتياج إلى اللعب في الحدائق وأماكن الزرع أو ما يشبهها:

تحكي فاطمة أنَّ النبي ﷺ أتاها يومًا فقال: «أين ابناي؟ - يقصِدُ الحسنَ والحسين - فقالت: ذهب بهما عليٌّ، فتوجَّه النبي ﷺ فوجدَهما يلعبان في مشربَةٍ، وبين أيديهما فَضلٌ من تمرٍ - أي يلعبان هناك وهما يأكلان تمرًا، فقال: «يا عليُّ ألا تقلبُ ابنيَّ قبلَ أن يشتد الحرِّ؟»[1].

والمشربة: أحد معانيها هي المكان الذي يُشرَبُ فيه والأرض الليّنة دائمة النبات، وفي روايات المنذري والهيثمي جاءت «شَرَبة» والتي معناها في معجم المعاني: الشَّرَبَةُ هي الحوضُ الصغير يُحْفَرُ حَوْلَ الشجرة ويُمْلأُ ماءً لتشربه.

فالشَّاهدُ: أنَّ عليًّا أخرجَ الحسنَ والحسينَ للنُّزهَة واللعب خارج البيت في مكان ذي زرع وخضرة وماء وشمس، ويأكلون وهم يلعبون في الهواء الطلق مصدرًا غذائيًّا صحيًّا ومهمًّا للطاقة: **التمر**، وأنه ﷺ حريص على إرجاعهم للبيت قبل اشتداد حرارة الشمس.

لكن بالنسبة للصغار بعمر المشي والركض واللعب والانتشار في المنتزهات والأماكن المفتوحة، نجنبهم اللعب بالخارج وقت انتشار الشياطين، كما فصلنا في المحور التحصيني.

الاحتياج إلى اللعب بالأرجوحة وما يماثلها:

قالت عائشة عن نفسها وسنها ست سنوات، حين أتى ﷺ لبيتهم ليخطبها لنفسه وقد نادتها أمها لتنظفها وتزينها قبل مجيئه: «فأَتَتْنِي أُمِّي أُمُّ رُومَانَ وإِنِّي لَفِي أُرْجُوحَةٍ، ومَعِي صَوَاحِبُ لِي»[2]، ومرة أخرى: فما بالنا بالرضيع؟ لا شك هو أولَى.

---

(١) حسنه الهيثمي-مجمع الزوائد (١٠/ ٣١٩) | وحسنه المنذري-الترغيب والترهيب (٤/ ١٨١) | وأخرجه وصححه الحاكم في المستدرك على الصحيحين وقال «كلهم ثقات»(٤٨٣٨)، بينما خالفه الذهبي وغيره

(٢) البخاري (٣٨٩٤).

۞ الاحتيـاج إلى اللعـب مـع الأقـران بـل وتوفيـر الأهـل للأقـران ليلعبـوا معـه في البيـت:

* الحديث السابق حين كانت عائشة بِكرًا في بيت والديها في عمر الست سنوات: «وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي»(١).

* ثـم حديث آخر عنهـا حيـن أصبحـت زوجـة في بيتـه ﷺ في عمـر التسـع سـنوات: «كُنْتُ أَلْعَبُ بالبَنَاتِ عِنْدَ النبي ﷺ وكانَ لي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي فَكانَ النبي ﷺ إذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ منه، فيُسَرِّبُهُنَّ إلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي»(٢).

الشـرح: تحكـي أنَّهـا كانـت تَلعَـبُ بالعرائـس والتَّماثيـلُ المُسـمَّاةُ بلُعَـبِ البنـاتِ، وكان لهـا صَواحـبُ مِـن أقرانها يلعَبْـنَ معهـا بِهـنَّ، فـكان ﷺ إذا دخَـل عليهـا الحُجـرةَ هـي وصويحباتهـا يَتغيَّبْـنَ منـه ﷺ ويَدخُلْـنَ وراءَ السِّـترِ - وأصلُـه مِـن قُمْـعِ الثَّمـرةِ، أي: يَدخُلْـنَ في السِّترِ كمـا تَدخُـلُ الثَّمـرةُ في قُمعِهـا فيَبعَثُهـن ويُرسِـلُهنَّ ﷺ إليها فيلعَبْـنَ معهـا مـن جديـد(٣).

ومعلـوم أن الـزواج في هـذه السـن الصغيـرة كان معروفًـا ومتبعًـا آنـذاك في جزيـرة العـرب بـل وفي بعض البلاد والحضارات حولها، والأمر متغيرٌ حسب الزمان والمكان.

۞ الاحتيـاج إلـى اللعـب بالدمـى والعرائـس ونحوهـا، سـواء وحدهـم أو مـع أقرانهـم:

* **فمع أقران** حديث عائشة: «كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكانَ لي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي»(٤).

* **أو بمفردهم** حديث «لُعَبِها» التي كانت في «سَهوَتِها» والذي ذكرناه وجاء فيه

(١) البخاري (٣٨٩٤).
(٢) البخاري (٦١٣٠).
(٣) شرح الدرر السنية للحديث.
(٤) البخاري (٦١٣٠).

«فهَبَّتْ ريحٌ، فكَشَفَتْ ناحيةَ السِّتْرِ عن بناتٍ لعائشةَ - لَعِبٌ وعرائسُ - فقال: ما هذا يا عائشةُ؟ قالت: بناتي»[1].

الشاهد: الاحتياج إلى وجود لُعَب منوعة، حسب ميل الطفل، ودون إسراف بالطبع.

❁ في إقرار اللعب حتى بالتراب والرمال!:

رأيت من الأمهات من ترفض أن يمس طفلها الرمال خوفًا عليه من الاتساخ وتقززًا من احتمال وجود روث قطط أو ما شابه، وكنت أحاول إقناع بعضهن أن نقوم بتنقية حفنة من الرمال بمصفاة الألعاب، لنترك الطفل يرتع ويلعب فالتراب مطهر للنجس في الأساس، ولكن للأسف كن لا يقتنعن، بينما تلك عادة طفولية تلقائية منذ عهده ﷺ وما قبله.

جاء في حديث القلادة الثمينة التي أهديت للنبي ﷺ بينما نساؤه مجتمعات معه في البيت ومعهن حفيدته «أمامة» بنت ابنته، أن عائشة قالت: «وأمامة بنت أبي العاص بن الربيع جارية (تلعب في جانب البيت بالتراب)»[2]، ومعلوم أن القطط كانت تطوف عليهم في البيوت والطرقات، (وسيأتي تفصيل الحديث).

٤- إتاحته ﷺ اللعب لهم دون تضييقات خانقة:

تضييقات مثل تفضيل الأهل لملابس الطفل والمحافظة بشكل يعيق انطلاقه في اللعب، فاللعب طبيعة وسمة رئيسية من سمات واحتياجات المرحلة، والتضييق عليه في اللعب لكيلا تتسخ ملابسه أو تهترىء، وتقييد حرية حركته وانطلاقه الصحي في الحياة، يجعله يعتقد أن الملابس أغلى وأعز منه ومن احتياجاته النفسية الضرورية،

---

(١) صححه الألباني-صحيح أبي داود (٤٩٣٢) واللفظ له، والبيهقي (٢١٥١٠) | وروايات أخرى للقصة صححها أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر (١٤/ ٢٦٤).
(٢) حسنه الشوكاني-در السحابة (465).

وربما يورثه ذلك أيضًا شدة تعلق بزينة الدنيا، بدلا من تهوينها في عينه وقلبه وتعليمه أنها وسيلة لانطلاقه الصحي السوي في الحياة وليست غاية بذاتها.

يبدو ذلك واضحًا في حديث أم خالد سابق الذِكر، حيث جاء في بقيته: «ثُمَّ قَالَ النبي ﷺ بعدما مدح ملابسها الجميلة: «أَبْلِي وأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وأَخْلِقِي»[1].

وكأن المعنى: (عساكِ تبلين وتخلِقين تلك الملابس يا صغيرة في لعب وأكل وصحة وعافية آمين، البَسي وعيشي وانطلقي بلبسك الجميل في الحياة وأذيبيه لعبًا وبهجةً وحيويةً إلى أنْ يَصِيرَ ما تَلْبَسينَه كالخِرقة البالية فلا يهمك، فهذا هو مصيره في النهاية على كل حال ومصير كل زينة الدنيا، فاللهم بارك في عمرها حتى يبلَى ثوبُها)، فنطبق ذلك قدر المستطاع.

٥- صيانته ﷺ لحقهم في مشاهدة غيرهم وهم يلعبون، وتوفير وقت كافٍ لذلك:

حديث لعب «الأحباش» المعروف، تقول عائشة: «دخل الحبشةُ المسجدَ يلعبون فقال لي النبي ﷺ: «يا حُمَيراء» - وهذا نعتٌ لعائشةَ بأنَّها جَميلةٌ بَيضاءُ مُشرَبةٌ بحُمْرةِ الدَّمِ، ما نطلق عليه: وجه نضرٌ تجري فيه الدموية - «أتُحبِّينَ أنْ تنظُري إليهم؟» - وتأملوا مبادرته هو ﷺ بتَفَقُّد هذا الاحتياج، تكمل عائشة: «فقلتُ: نعم، فقام على البابِ، وجئتُه فوضعتُ ذقْني على عاتقِه، فأسندتُ وجهي إلى خدِّه، قالت: «ومن قولهم يومئذٍ (أبا القاسم طَيِّبًا) ﷺ، فقال ﷺ: حسبُكِ؟ فقلتُ: يا رسول الله لا تعجَلْ فقام لي، ثم قال: حسبُكِ؟ فقلتُ: لا تعجَلْ رسول الله[2]، في رواية: حتَّى أكُونَ أنا الَّتي أسْأَمُ، فاقْدُرُوا قَدْرَ الجارِيَةِ الحَدِيثَةِ السِّنِّ، الحَرِيصَةِ علَى اللَّهْوِ»[3].

---

(١) البخاري (٥٩٩٣).

(٢) صححه الألباني-السلسلة الصحيحة (٧/ ٨١٨) | وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٩٥١) | وصححه ابن حجر العسقلاني-فتح الباري (٢/ ٥١٥).

(٣) البخاري: (٥٢٣٦)، ومسلم (٨٩٢).

كل هذا وهي أكبر من الرضيع بمراحل، فما بالنا بالرضيع الأحوج أكثر إلى مشاهدة اللعب بلا شك، حسيًّا وإدراكيًّا ونفسيًّا؟ فاللهم صلِّ على أبي القاسم الطيب.

٦- حرصُه ﷺ على ممازحة الصغار وملاعبتهم وإضحاكهم بنفسه:

وهذا يختلف عن إتاحة مجال للعب بحرية وأمان، فهنا نعني: تفاعل المربي بنفسه مع الطفل باللعب وإخراج الضحكات العذبة من قلوبهم بإذن الله. ونسوق لذلك أحاديث غالبيتها سترد في كتب المراحل العمرية الأكبر من الرضيع، ولكن أوردُ جانبًا يسيرًا منها هنا لنبين كيف أن الرضيع بلا شك أجدر وأولَى بمظاهر الملاعبة والممازحة، لحرصه على اللعب والمرح أكثر.

ففي الملاعبة

۞ حديث أنس: «كان ﷺ يُلاعِبُ زينبَ بنتَ أمِّ سلَمَةَ ويَقولُ: «يا زُوَيْنِبُ يا زُوَيْنِبُ»، مرارًا[١].

۞ ومن حديث السكة: «أنَّهم خرجوا معَ النبي ﷺ إلى طَعامٍ دُعوا لَهُ، فإذا حُسَيْنٌ يلعَبُ في السِّكَّةِ، فتقدَّمَ النبي ﷺ أمامَ القومِ، وبَسطَ يديهِ، فجعلَ الغلامُ يفِرُّ ها هُنا وَها هُنا، ويُضاحِكُهُ النبي ﷺ حتَّى أخذَهُ»[٢]، مشهد يشبه كثيرًا أحد مشاهدنا المعروفة مع الرضيع، حين نفتح له ذراعينا قائلين بالعامية بحب وشغف ومرح وتبسم: «حَبَا حَبَا مين يجيلي» فيبدأ الصغار في المراوغة والتملص يمينًا ويسارًا بأعين لامعةٍ بالضحك إعلانًا منهم للرغبة في اللعب، فنستجيب لهم بقدر من الحماسةٍ والتصابي محاولين الإمساك بهم ونحن نقول: «امسِكْ امسِكْ همسكك أهو!»، ثم حين نمسك بهم ويسمعون « قفشتك! أو مسكتك!» تنفجر ضحكاتهم العذبة مُزهرةً

---

(١) صححه الألباني-صحيح الجامع (٥٠٢٥).
(٢) حسنه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٨)، والقصة في صحيح ابن حبان (٦٩٧١).

في نفوسهم جذورًا جديدة للنمو النفسي والانفعالي وغيره من أزهار الأمان والسعادة والأُنس، فصلَّ اللهم وسلم على نبينا الكريم.

۞ كذلك: حديث ملاعبته ﷺ للصغار بلسانه الشريف: «كان النَّبيُّ ﷺ يدلَعُ لسانَه لِلحُسَيْنِ فيرى الصَّبيُّ حُمرةَ لسانِه فيهَشُّ إليه»[1]، (أي يتحمس له ويعجبه ويتفاعل معه).

۞ كذلك: كان ﷺ يصُفُّ عبدَ اللهِ وعبيدَ اللهِ وكثيرَ - كلهم بنو العباسِ - ويقولُ: «مَن سبق إلَيَّ فله كذا وكذا» - أي يوقفهم صفًّا للتسابق ويرصُد مكافآتٍ لمن يَسبِقُ منهم ويصل إليه ﷺ أولًا - فيستبقون إليه فيقَعونَ على ظهرِه وصَدرِه - بأبي هو وأمي وكل ما أملك - فيلتزِمُهم ويُقبِّلُهم ﷺ»[2].

۞ و «مجَّةُ مَحْمُودِ بنِ الرَّبيعِ» التي حكاها بنفسه، قالَ: «عقلتُ مِنَ النبي ﷺ مَجَّةً مَجَّها في وجْهِي وأنا ابنُ خَمْسِ سِنِينَ، مِن دَلْوٍ»[3]، أي بخة من الفم لحفنات ماء، في الوجه، ويقابلها أيضًا: رش حفنات ماء من دون الفم، على الوجه، ومعروف أن الصغار يعشقون اللعب بالماء وتنفرط لتلك اللعبة ضحكاتهم الزكية، ولكن علينا أن نختبر أولًا تلك اللعبة مع الطفل، حتى لا نُحزِنُه ونخيفه من حيث نريد إضحاكه وملاعبته، بخاصة لو كانت البخة من الفم، فهناك أطفال حاليًا لديهم نوع تحسس من أشياء كثيرة، ربما تلك من ضمنها.

عن نفسي: ربيت أولادي على أنها سنة نبوية وألا يتأففوا من أهلهم في مثل تلك الأمور، طالما البخة من ماء نظيف وفم نظيف لا طعام فيه ونحوه، وضممتُ لأدلة

(١) صححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٦٩٧٥) | وحسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٧٠) (وفي رواية: فيبهش إليه).

(٢) حوله خلاف: حسنه الهيثمي-مجمع الزوائد (٩/ ٢٨٥) وقال: إسناده حسن | وحسنه الشوكاني-در السحابة (٢٨١) | وقال ابن حجر العسقلاني: مرسل جيد الإسناد-تهذيب التهذيب (٨/ ٤٢١) | وصححه الحاكم-المستدرك على الصحيحين (٦٧٠٩) | بينما ضعفه أحمد شاكر والألباني وآخرون

(٣) البخاري (٧٧).

إقناعهم حديثَ عائشة التي قالت فيه أن النبي ﷺ كان يتلمس موضع رشفاتها على الكوب ليشرب منه، فهي علامة محبة وعدم تقزز ممن نحب، لكن لا بأس: نراعي من لديهم تحسس من ذلك، ريثما يعتادون الأمر تدريجيًّا بلطف.

قال العثيمين: «وفي هذا الحديث جواز مج الماء في وجه الصبي، بشرط أن نأمن العاقبة، لأن الرسول ﷺ ليس كغيره، فريقُه بركةٌ وخير، وأما غيره فليس كذلك، لكن لو مثلًا رشق عليه من مائه تودُّدًا له فلا بأس، بشرط ألا يؤدّي إلى فزعِه أيضًا، لأن بعض الصبيان لو ترشق عليه الماء فزع وصاح، لكن إذا عرفنا أنه عنده شيء من التفهم والتقبل ورشقته بالماء من باب التودُّدِ إليه فهذا يشبه مج النبي ﷺ الماء في وجه محمود بن الربيع»[١].

ومن اللطائف الإضافية هنا أن نعرف أن مجة الماء المباركة تلك من فمه ﷺ على وجه الصغير محمود، هي التي دخل بها رضي الله عنه في قائمة الصحابة، حيث أنه لما كبر لم يبقَ في ذهنه من ذكر رؤية النبي ﷺ إلا تلك المجة العذبة من فمه الطاهر.

وفي الممازحة والإضحاك

۞ قال أنس بن مالك: أنه ﷺ قال له «يا ذا الأُذُنينِ»، قال أحد رواة الحديث: «يعني يمازحه»[٢]، إذ ينتبه السامع للكلمة وكأنها أمر غريب - بينما هي أمر عادي! - ثم سرعان ما يضحك من الدهشة حين يدرك مغزى الدعابة.

۞ ومثلها حكاها أنس أيضًا: أنَّ رجلًا استحملَ النبي ﷺ - وفي رواية: يا رسول الله احملني، أي طلب منه أن يحمله على دابة - فقال له ﷺ: «إنِّي حامِلُكَ على ولدِ نَّاقةٍ»، فقالَ الرجل: «يا رسول الله! ما أصنعُ بولَدِ النَّاقةِ؟» فقالَ ﷺ: «وَهَل تلِدُ الإبلَ إلَّا

(١) من شرح العثيمين للحديث، بتصرف يسير واختصار.
(٢) البخاري (٣٣٢٨).

النُّوقُ؟!»[1]، يمازِح الرجل كذلك بنفس الطريقة السابقة ليضحكه ﷺ، وكأن المستمع يظن أن النبي ﷺ يقصد أنه سيحمله على صغير الناقة وهو ضعيف بلا شك، بينما هو يقصد ناقة عادية فكل النوق «مولودة» من ناقة بالفعل، أي «ولد» لناقة.

۞ وقد كان الفاروق يمشي على يديه ورجليه وأولادُه على ظهرِه يلعبُون وهو يسيرُ بهم كالحصانِ، فيراه بعضُ النَّاسِ فيقولُون: أتفعلُ ذلك وأنت أميرُ المؤمنين!؟ فيقول: «نعم، ينبغي للرجُلِ أن يكونَ في أهلِه كالصبيِّ - أي يكون معهم في البيت كالصبي في الأُنسِ وسُّهولةِ الخلق والتباسط - فإذا كان في القومِ كان رَجُلًا»[2].

۞ ثم إن ديننا أصلًا دين التبسم، قد حث رسوله ﷺ المسلمين عليه وحمسهم إليه عن طريق جعل طلاقة الوجه والتبسم في وجه الآخرين صدقة - ويستحق سبحان الله - فلو رأى المُتبسمُ في وجوه الناس، الأزهارَ التي تنبُتُ في أرواحهم في الحال بسُقيا تبسمِه، لما أراح شفتيه من طيب البسمات.

فما بالنا بأثرها على الرضيع وتطور نموه النفسي والاجتماعي؟ وسنرى في بعض فقرات اضطرابات السلوك في الكتاب أهمية التبسم كمعيار ومؤشر لصحة النمو.

باختصار: الرحمة المهداة ﷺ أرشدنا إلى عمق احتياج الصغار والكبار للملاعبة والممازحة والتبسم في وجوههم عمومًا، ولا شك أن الصغار أشد تأثرًا بإشباع هذا الاحتياج وتلهفًا عليه، بشرط إشباعه بالضوابط التي وضعها ﷺ، لئلا يؤدي لنتائج عكسية، تخالف احتياجاتهم النفسية.

---

(١) صححه الألباني-صحيح الترمذي (١٩٩١).
(٢) من مقالة لد. إبراهيم الدويش بعنوان: توجيهات وأفكار في تربية الصغار، على موقع صيد الفوائد

فمن شروط المزاح الشرعي

۞ ألا يكون فيه كذب لأي سبب غير معتبر شرعًا، ولا سِباب ولا ترويع ولا أمور مؤذية بغرض التضاحك من رد فعلهم المندهش أو المفزوع أو المنتفض أو المصدوم إلخ، ولا استهزاء بشيء من الدين ولا غيبة أو نميمة أو سخرية من أحد، وألا يكون بإسراف.

فمن نماذج الترويع لأجل المزاح

* حَكْيُ الخرافاتِ المرعبة؛ كحكايات أُمِنا الغولة، وأبو رجل مسلوخة، ووحش الظلام، وحجرة الفئران.

* الإشارة إليه بأداة خطيرةٍ قد تؤذِي بَدَنه، لنضحَكَ من محاولاتِه تفاديها وهو يتقافَزُ في الهواء أو يبكي ويفر مسرعًا متعثرًا في خطواته من الفزع، ومن يفعلُ ذلك تلعنه الملائكة حتى يُنزلَ يدَه ويؤمِّن أخاه من أذاه، فقد تَفلِتُ من يديهِ وتصيبُه وتجرحُه، وكم من جُرحٍ وقعَ في مَقتل، قال ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكةَ تلعنه حتى يدعَه، وإنْ كانَ أخاهُ لأَبيهِ وأُمِّهِ»[١]، «وهذا لإيضاحِ عُمُومِ النَّهي في كلِّ الناس، سَواءٌ مَن يُتَّهمُ فيه ومَن لا يُتَّهمُ»[٢].

* إخفاء أغراضه دون أن يشعر، لنتأمل رد فعله المذعور وهو يبحث عنها ونضحك:

«لا يأْخذَنَّ أحدُكم متاعَ أخيهِ لاعبًا ولا جادًّا، ومن أخذ عصا أخيهِ فلْيرُدَّها»، (أي: لا يأخذن أحدكم أغراض أخيه لا بالسَّرِقَةِ على وَجْهِ الغَصْبِ والتَّعدِّي، ولا على وَجْهِ المُمازَحةِ واللَّعِبِ؛ لأنَّ في ذَلِكَ ما يُحْزِنُ الإنسانَ ويُصيبُه بالفَزَعِ على مالِه

---

(١) مسلم (٢٦١٦).
(٢) شرح الدرر السنية للحديث.

وأَغْراضِـه، ومـن فعـل ذلـك فليبـادر بإظهـار الشـيء ورده لصاحبـه ليطمئـن)[١].

وفي الترويـع بشـكل عـام قـال ﷺ: «لا يَحِـلُّ لمسـلمٍ أن يُـرَوِّعَ مسـلمًا»[٢]، حتـى أن بعـضَ العلمـاء صنَّـفَ الترويـعَ ضمـن (الكبائـر) نظـرًا لتشـديد الوصايـا النبويـة فيـه.

وفي الكذب لأجل المزاح:

* قـال ﷺ: «ويـلٌ للـذي يحـدِّثُ فيكـذبُ لِيُضحـكَ بـهِ القـومَ، ويـلٌ لـهُ، ويـلٌ لـهُ»[٣]، ولا يخفـى تعـارض ذلـك مع احتيـاج الصغـار لصدقنا معهـم، كمـا سنفصل في بقيـة الفصل تباعًا.

* يقـول أبـو هريـرة: قالـوا: يـا رسـول الله! إنَّـكَ تداعِبُنـا؟!، قـالَ: «إنِّـي لا أقـولُ إلَّا حقًّـا»[٤].

* وقال ﷺ: «إنِّي لأمزحُ ولا أقولُ إلَّا حقًّا»[٥].

وفي الكذب لأجل غرض «نبيل»!

أذكـر مـرة مقطعًـا مرئيًّـا، قامـت فيـه طفلـة بعمـر عاميـن أو ثلاثـة - أي أقـرب للفطيـم منهـا للرضيـع - بسـؤال والدتهـا وهـي تصفـف لهـا شـعرها وتلاحـظ بعـض الشـعرات البيـض فيـه: «لمـاذا يوجـد شـعرات بيضـاء في رأسـك يـا أمـي؟»، قالـت: «لأنـك كلمـا أحزنتِني نبتَـت لـي واحـدة»، فقالـت لهـا الطفلـة بكل بـراءة ومنطـق سـليم: «فمـاذا فعلـتِ إذن لجـدتي يـا أمـي؟»، تلـك هـي ثمـرات الفطـرة العقليـة السـليمة المودعـة فينـا، والتـي يخدشـها الأهـل بالتلاعـب بهـا، كمـا سـنحكي في فصـول الفطـرة، وكثيـر مـن الأهـل

(١) حسنه الألباني-صحيح أبي داود (٥٠٠٣) | صححه الوادعي-صحيح المسند (١٢٠٢).
(٢) صححه الألباني-صحيح الجامع (٧٦٥٨).
(٣) صححه ابن باز-مجموع-فتاوى ابن باز (٧/ ٧٤) | وحسنه الألباني-صحيح أبي داود (٤٩٩٠) | وحسنه الألباني-صحيح الترمذي (٢٣١٥).
(٤) حسنه الترمذي—سنن الترمذي-وقال: حسن صحيح (١٩٩٠).
(٥) حسنه اهيثمي-مجمع الزوائد (٩/ ٢٠).

يورطون أنفسهم في حرجٍ بالغ يَذهبُ بهيبة المربي، بمراوغتهم في الكلام مع أبنائهم وتورطهم في التناقض الصريح والكذب.

وفي عدم اشتمال المزاح على استهزاءٍ بشيء من الدين، ولا غيبة أو نميمة أو سخرية:

فإن الغيبة والنميمة أصلًا من الكبائر، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢]، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»[١]، والاستهزاء بالدين بغرض المزاح هو من صفات المنافقين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾ [التوبة:٦٥].

وفي أهمية ألا يكون المزاح بإسراف، لأن كثرة الضحك عامةً مذمومةٌ شرعًا:

قال النبي ﷺ لأبي هريرة: «وإياكَ وكثرةَ الضَّحِكِ؛ فإنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ فسادُ القلبِ»[٢].

كل ذلك مع عدم إغفاله ﷺ لعناصر الأمان أثناء ملاعبته الرضيع، كما سنرى في بقية الحقوق والاحتياجات تحت عنوانها المناسب.

كل تلك الصفحات ولا زلنا نتكلم فقط عن مظاهر الاحتياج النفسي الكبير للعب ولوازمه في المدرسة التربوية النبوية!

ثانيًا: حق الرضيع في الحب والعطف الحسي بكل صوره

منذ أيامه الأولى كما قلنا في الوليد، إلا أنه هناك كانت مظاهرها محصورة في حوالي سبعة عناصر فقط، بينما مع الرضيع فإن المَشاهد النبوية عنها على امتداد عامين تفوق الحصر.

فمنها: عناق الطفل وضمه، والتلامس الحنون معه والتربيت، وشمّ الطفل،

(١) مسلم (١٠٥).
(٢) صححه الألباني-صحيح الجامع (٧٨٣٣).

وإجلاسه في الحجر أو على البطن، وإخفاؤه داخل عباءتنا – أو الوشاح الكبير خاصتنا أو غطائنا الواسع الذي نلفه على بدننا، والتقاط لعاب الصغار الذي يسيل والتلذذ بطعمه أمامهم.

ومنها بالأخص: تقبيل الصغار، وهو تربية عاطفية وجدانية نفسية للطفل تحقق له توازنًا نفسيًا عظيمًا، سماها نبي الرحمة (رحمة)! فهي تُشعِر الطفل بأنه مَرضِيٌّ عنه، ومحبوبٌ، ومطلوبٌ قُربُه، ومُرَحَّبٌ به، ومُتَقَبَّلٌ بين أهله، ومأمونٌ عليه بينَهم، ومرحُومٌ منهم، وله قيمةٌ عندهم وأهمية، ولا نستنكف عن التودد إليه.

ومنها بالأخص كذلك:

حملهم حسب تطور نمو الطفل (سواء على العاتق -أي: بين الكتف والرقبة – أو على الذراع، أو على الورك -أي :الجانب).

وكل مظاهر العاطفة الحسية تلك قد فعلها مع الأطفالِ أرحمُ الناس بالعيال ﷺ، كما سنرى.

ولنا هنا إشارة مهمة : يمكننا اعتبار أن كل المظاهر الحسية للتعبير عن المحبة، هي بنفس درجة التعب البسيطة، فهي لا تستدعي مجهودًا ومعاناةً تُذكَر، إذ أستطيع مثلًا تقبيل الرضيع أو جعله في حجري وفي نفس الوقت يداي متحررتان تفعلان أي شيء آخر وليستا مقيدتين بحمله؛ كذلك يمكنني التربيت على رأسه باستعمال يد واحدة ويدي الأخرى منهمكة في شيء آخر، كل ذلك دون مشقة أو استجماع جوارح عدة أو بذل مجهود ثقيل.

بينما «الحمل على الذراع» يحتاج مجهودًا أكبر وتفرغًا أكثر للجوارح، بالتالي: يحتاج مجاهدة أشد لكي نبادر إلى إشباعه في الطفل دون أن يكون باكيًا مثلًا، مما يجعلنا نغفل عن فعله غالبًا. وأشد من مجرد الحَمل على الذراع: «الحَملُ على

العاتق، أوالكتف، والحمل على الورك (الجانب))»، والذَين يناسبان مراحل متقدمة من عمر ونمو الرضيع؛ وثلاثتُها فعلها النبي ﷺ.

فلنغتنم إذن حَملَهم في مراحل الرضيع الأولى لخفةِ وزنهم فيها كما أوصينا في مرحلة الوليد، ونحتسب أن التعب يوشك أن ينتهي ونكون قد غنمنا جَبرًا وزهرًا وأجرًا بإذن الله؛ قبل أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه تلك الأمور ثقيلة بحق فنتردد حينها أكثر في حملهم ونتوقف.

ولنجتهد في فعله ما تيسر دون احتياج من الطفل بالضرورة لأن نحمله لسبب أو لآخر، مثلما كان ﷺ يفعل مع صغاره، فقد كان يأخذهم ويحملهم طوعًا لا كرهًا ولا اضطرارًا، ولم يجبره على ذلك بكاؤهم ولا أي شيء سِوَى:

- حرصه ﷺ على إشباع كافة الاحتياجات النفسية المتعلقة بالتعبير الحسي عن الحب والود والعطف من أدناها وأسهلها بَذْلًا، إلى أعلاها وأصعبها جهدًا.

- وحرصه ﷺ على إعلام الطفل بوضوح أنه يعتني باحتياجاته العاطفية النفسية، مهما كان في الأمر مشقةٌ ومجاهدة وبَذلٍ بدنيٍ إضافي عن الضروري.

لذلك وضعتُ (حَمل الصغار) في نقطة مستقلة عندما سردنا النقاط تفصيليًّا، كمن يضع حولها إطارًا كبيرًا أو يسلط عليها العدسة المكبرة، نظرًا لتكاسل أغلبنا عنها، وهي بالفعل مُرهقةٌ، لكن باستحضارنا دومًا أن الأجر على قدر المشقة مادام العمل لله ووفق مراده ومرضاته، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين، وأن الزهرة الفواحة تستحق فائق العناية، وأنه لا أهم من الصلاة والوقوف بين يدي الله عند النبي ﷺ ومع ذلك فعل ما فعل مِن حملِهم فيها وفعَلَه مرارًا، فما بالنا به خارج الصلاة! فباستحضار كل ذلك: **يهون التعب.**

وسبحان الله «عدم التلامس البشري» بين الإنسان والناس كان عقوبة للسامري.

لـو تأملنـا الآيـة التـي ذكـر اللهُ ﷻ فيهـا عِقـاب السّـامري علـى لسـان موسـى: ﴿**قَـالَ فَاذْهَـبْ فَـإِنَّ لَـكَ فِـي الْحَيَـاةِ أَن تَقُـولَ لاَ مِسَـاسَ**﴾ [طـه:٩٧]، نجـد أن هـذا يعنـي أنـه سيقضي بقيـة عُمرُه يقول للناس (لا تلمسني! ولا ألمِسُك!)، وسيظل يبعـد عـن النـاس ويتلفّـت حولـه كـي لا يلمِسـهُ أحـد ولا يلمِـس هـو أحـد، لأنـه لـو لمِـس النـاس سيضُرّهم ولـو لمسـوهُ سيتضرر! قـد جعـل الله في تلامسـه مـع النـاس (ألمًـا شـديدًا) للطرفيـن: «فلـو لمِسَـهُ أحـد سـوف يُصـاب مِثلُـه، كأنـه أسـلاك كهربائيـة مكشـوفة مَـن مسّـها تكهـرب منهـا!»[1].

فأُورِثَ صـدودًا مزدوجًـا عـن تلك النعمـة الحسية الهامـة للإنسـان، عقوبـةً لـه علـى بشـاعة مـا صَنَـعَ مـن صدٍ للنـاس عـن التوحيـد: أعظـم نعمـةٍ في الوجـود، فعـاش بقيّـة عُمُره بعيـدًا عـن البشـر مُخالطًـا للحيوانـات والبهائـم، مثلمـا أبعدَهـم عـن التوحيـد الصـافي سـبحان الله، جـزاءً وفاقًـا.

الشـاهد: هـذا يبيـن لنـا شـدة مسـألة (العجـز عـن ملامسـة أحـد أو أن يمـس الإنسـان أحـدا) مـا بقـي لـه مـن حياتـه، وأنهـا مـن أمرّ عقوبـات وعذابـات الدنيـا النفسـية، فمعلـوم كـم يحتـاج الإنسـان للتلامُـس الـودود مع غيره والشـعور بالأُلفة الحسـية والمعنويـة علـى حـد سـواء، نسـأل الله العافيـة مـن عقوبتـه وسـخطه. وهـذا يلفـت عنايتنـا إلـى أهميـة تجنيب أولادنـا شـدة أثـر الحرمـان مـن هـذه التواصـل الحسـي الرحيـم.

ولشـدة تداخـل تلـك المظاهـر معًـا في الأحاديـث النبويـة، وتفاديًـا لتكـرار الحديـث كل مـرة عنـد ذكـر كلٍ منهـا فُـرادَى، سـأذكرها جُملـةً متتابعـة معًـا، كعقـد اللؤلـؤ والمرجـان المنتظـم في خيـط ذهبـي واحـد.

١ – ففيما يخص إخفاءهم وشملهم داخل ردائنا (داخل الحبوة):

۞ قـال أسـامة بـن زيـد: «طرقـتُ النبي ﷺ ذاتَ ليلـةٍ في بَعضِ الحاجـةِ فخرجَ النبي

(١) أيسر التفاسير–أبو بكر الجزائري–طه–٩٧.

ﷺ وَهوَ مشتملٌ على شيءٍ لا أدري ما هوَ - أي: يخفي شيئا أسفل عباءته أو ردائه ولا يدري أسامةُ ما هو! - فلمَّا فَرغتُ من حاجَتي، قلتُ: ما هذا الَّذي أنتَ مشتملٌ علَيهِ؟!، فَكَشفَهُ ﷺ فإذا حسنٌ وحُسَيْنٌ على ورِكَيهِ، فقالَ ﷺ: هذانِ ابناي وابنا ابنتي، اللَّهمَّ إنِّي أحبُّهما فأحبَّهما وأحببْ مَن يُحبُّهما»[1].

والاشتمال على شيء: أي يتلفف بالثوب حتى يجلل به جميع جسده، ولا يرفع شيئًا من جوانبه، فلا يمكنه إخراج يده إلا من أسفله، كالرداء الذي بلا أكمام.

۞ وقال أحد الصحابة: «لقد رأيتُ النبي ﷺ واضِعَهُ في حَبوَتِه - أي واضعًا أحد حفيديه أسفل ردائه - يَقولُ: مَن أحَبَّني فليُحِبَّه، فليُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ»[2].

والحُبْوةُ: ثَوبٌ يُلْقَى على الظَّهرِ، ويُربَطُ طَرَفاهُ على السَّاقَيْنِ بعْدَ ضَمِّهما، ويتلحف بها كالعباءة الفضفاضة ونحوها كما نقول بالعامية «الكلفتة» معنا داخل ردائنا الواسع الفضفاض، سواء كان بطانية أو عباءة مفتوحة أو معطف كبير أو وشاح طويل وعريض إلخ.

۞ وحديث لكاع الذي سيأتي ذكره كاملًا، ورد فيه: «فجاء الحسن فاشتد - وكأنه يُسارع الخطى - (حتى وثب في حبوتِه)»[3]، أي في رداء النبي ﷺ الذي يلفه على ملابسه وبدنه.

وفيما يخص بقية مظاهر التعبير عن المحبة الحسية:

٢- تقبيل الطفل وعناقه والتلامس معه وشمه وضمه والمسح على رأسه والتربيت عليه وحَمله على العاتق (الكتف بجوار الرقبة)، أو الذراع، أو الورك (الجنب أعلى الخصر):

---

(١) حسنه الألباني-صحيح الترمذي (٣٧٦٩) واللفظ له | واللفظ له، وأخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٥٢٤).

(٢) صححه الوادعي-الصحيح المسند (١٤٨٠) | وصححه شعيب الأرنؤوط-تخريج سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٥٤) وتخريج المسند لشعيب (٢٣١٠٦) | أخرجه أحمد (٢٣١٠٦) واللفظ له، وابن أبي شيبة (٣٢٨٥٢)، والحاكم (٤٨٠٦).

(٣) حسنه شعيب الأرنؤوط-تخريج المسند لشعيب (١٠٨٩١) | أخرجه صحيح البخاري: ٢١٢٢) باختلاف يسير، ومسلم (٢٤٢١) مختصراً.

۞ قال أحد الصحابة: «كنتُ معَ الحسَنِ بنِ عليٍّ فلَقِيَنا أبو هُرَيرَةَ فقال – أبو هريرة: «أرِني أُقَبِّلْ مِنكَ حيثُ رأيتُ النبي ﷺ يُقَبِّلُ، فقال بالقَميصَةِ –أي أزاحها أو فتحها – فقبَّل سُرَّتَه»[١].

۞ كذلك الصحابة مع أبنائهم، قال البراء بن عازب: «دخلتُ مع أبي بكرٍ أولَ ما قدم المدينةَ، فإذا عائشةُ ابنتُه مضَّجِعةً قد أصابتها حُمَّى، فأتاها أبو بكرٍ فقال لها: كيف أنتِ يا بُنيةَ؟ وقبَّل خدَّها»[٢].

۞ كذلك: «جاءَ الحسَنُ والحسينُ يَسعيانِ إلى النبي ﷺ فضمَّهما إليه»[٣].

۞ ومن حديث السكة المذكور سابقًا: «فجعلَ إحدى يديهِ تحتَ ذقنِهِ، والأخرى في فأسِ رأسِهِ فقبَّلَهُ»[٤]، أي: أمسَكَ ﷺ بيَدِهِ ذَقْنَ الحُسينِ، ويَدُهُ الْأُخرى جعَلَها خلفَ رأسِ الحُسينِ، في طرفِها من الأسفلِ.

۞ جانب آخر من حديث السخاب حين زار ﷺ فاطمة ليرى حفيده الحسن: «فَجَاءَ يَشْتَدُّ حَتَّى عَانَقَهُ وَقَبَّلَهُ»[٥]، أي جاء الطفل يسرع في الخطى، وفي رواية: «فَقَالَ

۞ النبي ﷺ بِيَدِهِ هَكَذَا (فتح ذراعيه)، فَقَالَ الْحَسَنُ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَالْتَزَمَهُ (أي عانقه)[٦]، وفي رواية: «فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ يَسْعَى، حتَّى اعْتَنَقَ كُلُّ وَاحِدٍ منهما صَاحِبَهُ»[٧].

۞ حديث أبي هريرة: «خرَجَ علينا النبي ﷺ ومعه حَسَنٌ وحُسَينٌ، هذا على عاتِقِه، وهذا على عاتِقِه، وهو يَلثِمُ – يُقَبِّل – هذا مَرَّةً، وهذا مَرَّةً، حتى انتَهى إلينا»[٨].

---

(١) صححه أحمد شاكر–تخريج المسند لشاكر (١٣/ ١٩٥).
(٢) صححه الألباني–صحيح أبي داود (٥٢٢٢).
(٣) صححه الألباني–صحيح ابن ماجه (٢٩٧٢).
(٤) حسنه الألباني–صحيح ابن ماجه (١١٨).
(٥) البخاري (٢١٢٢)، ومسلم (٢٤٢١).
(٦) البخاري (٥٨٨٤).
(٧) مسلم (٢٤٢١).
(٨) حسنه شعيب الأرنؤوط–تخريج المسند لعشيب (٩٦٧٣) | صححه الحاكم–المستدرك على الصحيحين (٤٨٤١) | وقال الشوكاني: إسناده رجاله ثقات–در السحابة (٢٣٩).

قال البراء بن عازب: «رَأَيْتُ النبي ﷺ، والحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ علَى عَاتِقِهِ، يقولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُ فأحِبَّهُ»(١).

الحديث الذي ذكرناه في فقرة إخفائهم داخل ردائنا: «فخرجَ النبي ﷺ وَهوَ مشتملٌ على شيءٍ لا أدري ما هوَ، فلمَّا فَرغتُ من حاجَتي، قلتُ: ما هذا الَّذي أنتَ مشتملٌ علَيهِ؟! فَكَشفَهُ فإذا حسنٌ وحُسَيْنٌ على ورِكَيهِ»(٢).

قالَ ﷺ للحسنِ: «اللَّهمَّ إنِّي أحبُّهُ فأحبَّهُ وأحببَّ من يحبُّهُ، وضَمَّهُ إلى صدرِه»(٣).

وحديث أمامة بنت زينب المذكور سابقًا: "بينا نحنُ جلوس في المسجِدِ، إذ خرجَ عَلينا النبي ﷺ يحمِلُ أمامةَ بنتَ أبي العاصِ بنِ الرَّبيعِ، وأمُّها زينبُ بنتُ النبي ﷺ، وَهيَ صبيَّةٌ يحملُها، فصلَّى النبي وَهيَ على عاتِقِهِ (الكتف، بجوار الرقبة)، يضعُها إذا رَكَعَ، ويُعيدُها إذا قامَ، حتَّى قَضى صلاتَهُ يفعلُ ذلِكَ بِها"(٤)، وفي رواية: فَإِذَا رَكَعَ وضَعَهَا، وإِذَا رَفَعَ مِنَ السُّجُودِ أعَادَهَا(٥).

وحديث سابق، عن عبد الله بن شداد، عن أبيه قال: «خرج علينا النبي ﷺ في إحدى صلاتي العشي، الظهر أو العصر، وهو حامل الحسن أو الحسين، فتقدم النبي ﷺ فوضعه، ثم كبَّر للصلاة، فصلى»(٦).

---

(١) البخاري (٣٧٩٤).
(٢) حسنه الألباني-صحيح الترمذي (٣٧٦٩) واللفظ له، وأخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٥٢٤).
(٣) صححه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٦) | أخرجه صحيح البخاري: ٢١٢٢) بنحوه مطولًا، ومسلم (٢٤٢١) مختصراً، وابن ماجه (١٤٢) واللفظ له.
(٤) صححه الألباني-صحيح النسائي (٧١٠) | وللقصة روايات أخرى في البخاري ومسلم.
(٥) مسلم (٥٤٣)، ومثلها في صحيح البخاري: ٥٩٩٦).
(٦) صححه الألباني-صحيح النسائي-أخرجه النسائي (١١٤١) واللفظ له، وأحمد (١٦٠٧٦) | وصححه الوادعي-الصحيح المسند (٤٧٥).

٣- بل قطع المسافات الطويلة لتقبيل الرضيع فقط وشمه وعناقه ثم الرجوع:

۞ عن أبي هريرة قال: «خرج النبي ﷺ في طائفة النهار لا يكلمني ولا أكلمه، حتى أتى سوق بني قينقاع، فجلس بفناء بيت فاطمة، فقال: «أثَمَّ لُكَع، أثَمَّ لُكَع؟ أي: أين الحسن؟ موجود؟» فجاء يشتد حتى عانقه وقَبَّله، وقال: «اللهم أحبه وأحب من يحبه»[1].

فكان ﷺ يقتطع من وقته لحفيده، يزوره، ويُقَبّله، ويضعه في حجره ويدعو له ويعبر له عن حبه ثم ينصرف، فالذهاب لزيارتهم والاهتمام برؤيتهم وهم بعيدون عنا لأي سبب يشعرون به ويخزنونه.

۞ حديث آخر كان ﷺ ينطلق من مسجده إلى العوالي قاصدًا ظِئر إبراهيم - أي مرضعة ولده إبراهيم - فيمشي المسافة الطويلة فقط ليقبله، ثم يرجع، يَحكي أَنسٌ يقول: «وَكان إبراهيمُ ابنُه مِن ماريَةَ القِبطيَّةِ مُستَرضَعًا في عَوالي المدينَةِ، أيِ: القُرى الَّتي عندَ المدينةِ، فَكانَ ﷺ يَنطلِقُ ونَحن مَعه، فيَدخلُ البيتَ - أيِ: الذي فيهِ إبراهيمُ - فَيأخذُ ابنَه فيُقبِّلُه ثُمَّ يَرجعُ»[2]، وفي رواية البخاري: «فقبله وشمَّه»[3]، وقد تُوفِّيَ إبراهيم ولَه ستَّةَ عشرَ شهرًا أو سَبعةَ عشرَ، وقيلَ: سبعونَ يومًا، أي توفي وهو رضيع.

وقد وردت أحاديث كثيرة تُظهر أفعال المحبة الحسية هذه لكل المراحل العمرية، لكن بالأخص مع الصغار، مما يدل على مركزيتها في الرحمة والتربية النبوية على مدار العمر كله بشكل عام.

لذلك، لما ذكر بعض الناس أمام النبي ﷺ أنهم لا يُقَبلون صبيانهم، أنكر عليهم ذلك وخوّفهم بشدة من عاقبته:

۞ «قَبَّلَ النبي ﷺ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ وعِنْدَهُ الأقْرَعُ بنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا،

(١) صحيح البخاري: ٢١٢٢).
(٢) مسلم (٢٣١٦).
(٣) البخاري (١٣٠٣).

فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ ما قَبَّلْتُ منهمْ أحَدًا، فَنَظَرَ إلَيْهِ النبي ﷺ ثُمَّ قَالَ: مَن لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»[1].

۞ و«جَاءَ أعْرَابِيٌّ إلى النبي ﷺ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟! فَما نُقَبِّلُهُمْ! فَقَالَ النبي ﷺ: أوَأَمْلِكُ لكَ أنْ نَزَعَ اللهُ مِن قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ!»[2]، وفي رواية مسلم أنهم كانوا طائفة من الأعراب وقال لهم النبي ﷺ: وَأَمْلِكُ إنْ كانَ اللهُ نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ؟!»[3].

۞ «وكان النَّبيُّ ﷺ يدلَعُ لسانَه لِلحُسَيْنِ فيرى الصَّبيُّ حُمرةَ لسانِه فيهَشُّ إليه، فقال له عُيَينةُ بنُ بَدرٍ: ألَا أراه يصنَعُ هذا بهذا! فواللهِ إنَّه لَيكونُ لي الولدُ قد خرَج وجهُه وما قبَّلْتُه قطُّ! فقال النَّبيُّ ﷺ: مَن لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ»[4].

وهنا سؤال

الكلام المتداوَل عن القُبُلاتِ الأربعة لأطفالنا واللمسات الخمسة وما ترمز إليه من معانٍ بعينها لأن كل منها له مكان «علمي» فالقبلة في منتصف الرأس على الشعر تعني الفخر بينما قبلة الرضا هي على الجبين وقبلة المودة هي على اليدين، وعن اللمسات مثل ذلك فاللمسة خلف الرأس تعني الرأفة، وعلى الشعر تعني الفخر، وعلى الجبين تعطي طاقة إيجابية وما إلى ذلك، هل هذا الكلام صحيح؟ لأن من قام بنشره بين الناس دعاة تربويون أفاضل، مما أشعر الناس بصدق المعلومة واتصالها بالتربية النبوية ربما.

والجواب: لم أجد ما يُثبت كلامهم هذا لا في السنة النبوية ولا في العلم كما قيل، فتقبيل الأبناء في السُنة جاء مُطلقًا دون تحديد مواضع بعينها كما رأيتم، وكذلك التلامس مع الأبناء جاء مطلقًا دون تقيد أو تحديد لمواضع بعينها، بالإضافة إلى أنه لا

(١) البخاري (٥٩٩٧).
(٢) البخاري (٥٩٩٨).
(٣) مسلم (٢٣١٧).
(٤) صححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٦٩٧٥) | وحسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٧٠) (وفي رواية: فيبهش إليه).

يوجد دليل علمي تجريبي على ثبوت تلك المعاني الحصرية لكل موضع، فنصيحتي: لا داعي للتقيد بأي من ذلك ولا نشره، فأي صورة من صور التواصل الحسي معهم تملؤهم بالأمان والرواء العاطفي والشعور بالقيمة والفخر والرضا.

٤- وفيما يخص إجلاس الصغار في الحجر والتلامس الحنون معهم كذلك والتربيت مجددًا:

۞ عن أسامة بن زيد قال: «كان نبي الله يأخذني فيُقعدني على فخذه ويُقعد الحسن بن عليّ على فخذه الأخرى ثم يضمنا ثم يقول: اللهم ارحمهما فإني أرحمهم»[١].

۞ وما ذكرناه من قبل من أنه كان يُؤتَى بالصبيِ الصغير فيُجلِسُه في حجره ﷺ، حتى إن الصبي ليبول في حجره فلا يرفعه إلى أهله حتى لا يظنوا أنه تضجر من ذلك ﷺ، لا يُحرج ضيفَه الصغير في حجره ولا أهله ولا يفزعه، عَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ، أَنَّهَا أَتَتْ بابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ (أي رضيع لم يُفطم بعد)، إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فأجْلَسَهُ رَسولُ اللهِ في حَجْرِهِ، فَبَالَ علَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بمَاءٍ، فَنَضَحَهُ ولَمْ يَغْسِلْهُ»[٢].

۞ ومن أحاديث الصلاة مع الحسن والحسين: «فلمَّا صلى وضعَهُما على فخذيْهِ، واحِدًا هَهُنا، ووَاحِدًا هَهُنا»[٣].

۞ ومثله من حديث في فقرات اللعب: «فلمَّا قَضى الصَّلاةَ وضعَهما في حجرِهِ وقالَ: من أحبَّني فليُحبَّ هذينِ»[٤].

۞ وقال أحد الصحابة: «سمّاني رسول الله يوسف وأجلسني في حجره ومسح على رأسي»[٥].

---

(١) صححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٦٩٦١).
(٢) البخاري (٢٢٣).
(٣) حسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٣٣٢٥).
(٤) حسنه الألباني-صفة الصلاة (١٤٨) | وصحيح ابن خزيمة وقال: إسناده حسن رجاله ثقات رجال مسلم | أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨١٧٠)، وابن خزيمة (٨٨٧) باختلاف يسير، وأبو يعلى (٥٠١٧) واللفظ له.
(٥) صححه الألباني-مختصر الشمائل (٢٩٢).

۞ وحديث صبيان الأنصار: «أن النبي ﷺ كان يزورُ الأنصارَ، فإذا جاء إلى دورِ الأنصارِ جاء صبيانُ الأنصارِ يدورون حوله، فيدعو لهم، (ويمسحُ رؤوسَهم) ويسلمُ عليهم»[1].

٥- فيما يخص التقاط لعابهم واستطعامه أمامهم:

قال أبو هريرة: «رأيتُ النبي ﷺ يمصُّ لعابَ الحسنِ والحُسَيْنِ كما يمصُّ الرَّجلَ التَّمرةَ»[2].

۞ الشرح: اللُّعابُ هو ما يَسِيلُ مِن الفَمِ، «كما يمَصُّ الرَّجلُ التَّمْرةَ»، أي: «كان يُقبِّلُهما ويمَصُّ لُعابَهما - الذي يسيل من جوانب الفم - كما يمَصُّ الرَّجلُ التَّمْرةَ إذا أرادَ أنْ يَستمتِعَ بطَعْمِها، ففي الحديثِ إظهارُ رَحمته ﷺ بالأطفالِ، وبَيانٌ لشِدَّةِ حُبِّه لسِبْطَيْه - حفيديه - وتَعليمٌ لِأُمَّتِه كيف يعطفون على الصِّغار، ولا يَنبِذونهم ولا يُبعِدونهم ولا يتأففون منهم»[3]، ملاطفة منه ﷺ للصغار لأبعد حد ولو كان بالتقاط اللعاب السائل من الفم الذي - عادةً - يتأفف منه الناس، فهذا إشعار مستمر بالتقبل المحبب للنفس وعدم النبذ لأي شيء يخصهم، بل ويتحمل حتى بولهم على ملابسه ﷺ بهدوء وبساطة.

ولا أنسى كيف كان جد أولادي رحمه الله - والد زوجي - حين رُزقنا بأول مولود لنا «حمزة»، وبدأ صغيري مرحلة سيلان اللعاب على جوانب الفم وخارجه، كلما سال اللعاب يقول لنا رحمه الله - وحمزة ينصت له مبتسمًا وكان رضيعًا حوالي تسعة أشهر: «ناولوني طبقًا يا نااااس أغرف فيه هذا العسل المنهمر من فمِ الجميل حمزة لنأكله»، وكان إذا سقط على إصبعه منه شيئًا وهو يلاعبه بالفعل يلعقه ويمصه

(١) صححه الألباني-آداب الزفاف (٩٧) | وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح-مجمع الزوائد (٨/ ٣٧).
(٢) صححه ابن عساكر-تاريخ دمشق (٢٢٣/ ١٣) | أخرجه ابن شاهين في «شرح مذاهب أهل السنة»(١٧٩)، وأبو نعيم في «فضائل الخلفاء الراشدين»(١٣٦) باختلاف يسير
(٣) شرح الدرر السنية للحديث

بتلذذ واستمتاع أمام صغيري، فيهش له حمزة ويسعد وهو يسمعه يقول ملاطفا: «الله! الله! ما هذا العسل اللذيذ!».

وبالفعل غالبيتنا لا يتقزز في تلك المرحلة العمرية من لعاب الرضّع أو رائحة فمهم لأنهما يكونان بلا طعم ولا رائحة كريهة تثير النفس، فسبحان الله! قد جعلهم الله في تلك المرحلة بهذا النقاء والنظافة وجمال الرائحة حتى نلبي مثل هذه الاحتياجات المهمة لنموهم النفسي السوي المتكامل، وإشعارهم بأن حتى لعابهم الذي يسيل على جنبات فمهم هو بالنسبة لمن حولهم كنزٌ رقيقٌ ثمين.

كل ذلك نقطة في بحار الشريعة الرقراقة التي حثت على إسباغ مظاهر الرحمة الحسية وغير الحسية والعطف على الصغار، حتى أن ديننا اعتبر نساء قريش خير نساء العرب، بسبب ما تميزن به في العطف والتحنان على الصغار، قال ﷺ: «نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ - أي خير نساء العرب - :(أَحْنَاهُ عَلَى طِفْلٍ)، وأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ»[1].

ثالثًا: احتياج الرضيع إلى الشعور بالأهمية والاهتمام به وبوجوده وبذل أمارات المحبة والرحمة (غير الحسية)

أي: التي بدون تلامس حسي، والمتمثلة في الأفعال والأقوال لا التواصل البدني الحنون، وقد ظهر ذلك في عدة مواقف في السيرة النبوية مع الصغار بشكل عام والرضع بشكل خاص.

١- في عدم نبذ النبي ﷺ الرضيع للبكاء كمن لا أهل له، بدون سبب معتبر شرعًا:

ذكرناها بإجمال سابقًا في المحور النفسي للوليد، مستندين إلى حديث: «أن النبي ﷺ جوَّز ذات يومٍ في الفجر - أي: خفف في الصلاة - فقيل يا رسول الله لِمَ

(١) البخاري (٣٤٣٤)، ومسلم (٢٥٢٧).

جوزت؟يعنى لِمَ خففت؟ - قال: سمعتُ بكاء صبي فظننت أن أُمه معنا تصلى ثم قال جملةً - واقرأوها بتمعّن وعلقوها أمام أعينكم في البيوت منقوشة بماء الذهب: «**فأردتُّ أن أُفرغَ له أُمَّه**»[1].

هذا كلامه وفعله ﷺ في الصلاة - وهي صلاة جماعة وليس منفردا! - لأجل تسكين بكاء هؤلاء الصغار، فما بالنا بأي شيء آخر أقل شأنًا من الصلاة؟

وقلنا أن هذا الأمر ممتد من مرحلة الوليد وحتى أول ثلاثة أشهر للرضيع - على الأقل، لا نتركهم يكون طويلًا بل نتفرغ لتسكينهم، لأن من سمات تلك المرحلة شدة الضعف والعجز عن التعبير عن الاحتياجات بغير البكاء، وسرعة الهدوء والاستكانة باللمس والعطف غالبًا، بالتالي لا نُصغي لمن يُوصُوننا بعدم حمل المواليد الجدد عند بكائهم وأنه «ليس كلما بكى تحملينه»، وما إلى ذلك بزعم عدم تعويده على الحَمل، فبجانب أن هذا من حقوقهم النفسية حاليًا، فهو من مقاصد حفظ النفس مثلما أشرنا سابقًا إلى احتمالية حدوث «الفتاق» للطفل، بالتالي نجتهد في تسكين بكائه بأقرب علاجٍ مطلوب، وإن لم يبقَ لنا حلٌ سوى حمله فلا نبخل عليه؛ ولا نقلق من تبعات ذلك، فإن (عدم صبر القلوب) على بكاء الصغار يعتبر من الفطرة الطبيعية للآباء، وليس المطلوب دومًا هو حملهم ليسكتوا عن البكاء، المطلوب فقط هو التفاعل برحمة مع بكائهم ولو اضطررنا لحملهم، وحين يكبر ويتمكن من التعبير بالكلام أكثر ويستقل نوعًا ما عنا، نستطيع أن نميز هنا البكاء الذي غرضه الضغط علينا فقط والبكاء الذي هو لحاجة بالفعل، فنتخذ الإجراء المناسب، فهذا هو الأصل كما قلنا: (أردت أن أفرغ له أمه)، بجانب أحاديث فقرة «تخفيفه ﷺ للصلاة عند سماعه بكاء صبي، يرجع لها تفاديًا للتكرار.

فحتى لو أن الرضيع يبكي لسبب لا نملك دفعه وبالتالي لا نملك إسكاته، فعلى

---

(١) صححه الألباني-صفة الصلاة (١٠٢) | أخرجه الترمذي (٣٧٦) بمعناه مختصراً، وأحمد (١٣٧٠١) واللفظ له.

الأقل نشعره بالرحمة والعطف ونحاول تعويضه بتربيت ودندنة بأناشيد يحبها مثلًا أو آيات السكينة، أو لفت انتباهه لشيء يخفف من شعوره بالألم، أما أن نتركه تمامًا يبكي دون أي رد فعل منا وكأننا أصنام أمامه وجمادات لا روح فيها، فكلا. مثلًا: لو أنه يأخذ حقنةً طبيَّةً ضروريةً مؤلمةً، أو دواءً مرًا لابد منه، أو لديه التهابات في موضع الحفاض تؤلمه أثناء تغييره ودلكه بالدهانات الموضوعية العلاجية، أو يبكي بسبب ضياع لعبته مرة أخرى إلخ، فحينئذ لا يكون رد فعلنا كالطبيب الذي اعتاد على تشريح أبدان مرضاه فلم يعد يهتز لمشهد الدماء؛ بل نتذكر أننا أمهات ينبغي ما استطعنا أن نتعاطف مع مَواطن تألم صغارنا ونحاول التخفيف عنهم إن عجزنا عن دفعه. أما لو كان بكاؤهم من باب العناد والتمرد على التوجيهات ونحوه، فتفصيله في مشكلات الرضيع.

٢- في إعطاء النبي ﷺ الألقاب اللطيفة والطفولية وترخيم الاسم:

في إعطاء النبي ﷺ الألقاب اللطيفة والطفولية

لكاع أو لُكَع:

«أيْنَ لُكَعُ؟ - ثَلَاثًا - ادْعُ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ»[(١)]، وفي رواية: «أين لَكاعِ؟ ادعُ لي لَكاعِ»[(٢)].

لكاع ولكع: هو الصغير قليل الجسم أو صغير السن الَّذي لا يَهْتدي لمَنطِقٍ ولا غيرِه، والكلمة كناية عن حفيده[(٣)]، مثلما قد نقول لصغارنا: «أين الكتكوت؟ أو أين الصغير؟ أو أين النونو؟ أو أين عروستي الصغيرة؟ أو أين لقيمتي أو فراولتي أو زهرتي أو لؤلؤتي؟»[(٤)].

---

(١) البخاري (٥٨٨٤) واللفظ له، ومسلم (٢٤٢١).
(٢) حسنها الألباني-السلسلة الصحيحة (٦/ ٧٢٥).
(٣) شرح الدرر السنية للحديث.
(٤) (وتُطلَقُ لكاع: على قليل العلم الغبي الأحمق إذا أُطلقت في سياق الذم بالطبع. لكنها هنا في سياق المحبة.

ريحانة:

قالَ ابن عمر: أهْلُ العِرَاقِ يَسْأَلُونَ عَنِ الذُّبَابِ وقدْ قَتَلُوا ابْنَ ابْنَةِ النبي ﷺ، وقالَ النبي ﷺ: «هُما رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيا!»(١)، «يَعني الحسَنَ والحُسَينَ، ووَجهُ تَشْبيهِهما بالرَّيْحانَتَينِ: أنَّ الولَدَ يُشَمُّ ويُقبَّلُ، فكأنَّهم مِن جُملةِ الرَّياحينِ، وقيلَ: لِما يَجِدُه مِن الرَّاحةِ النَّفْسيَّةِ في تَقْبيلِهما وضَمِّهما إلى صَدرِه، وشَمِّهما، كما يَجِدُ الإنْسانُ راحَتَه عندَ شَمِّ الزُّهورِ والرَّياحينِ؛ لأنَّهما بمَثابةِ أوْلادِه، والولَدُ الصَّالِحُ رَيْحانةٌ مِن رَياحينِ الجنَّةِ»(٢).

حُمَيراء:

وهو نَعْتٌ ووصف لعائشةَ بأنَّها جَميلةٌ بَيضاءُ مُشرَبةٌ بحُمْرةِ الدَّمِ، كان يناديها به النبي ﷺ، وسبق ذكره من قبل في حديث لعب الأحباش، قال ﷺ: «يا حُميراءُ أتُحبِّينَ أنْ تنظُري إليهم؟ فقلتُ نعم»(٣).

ترخيم الاسم أو (الدلع)

* حديث زوينب المذكور سابقًا: «كان ﷺ يُلاعِبُ زينبَ بنتَ أمِّ سلَمَةَ ويَقولُ: يا زُوَيْنِبُ! يا زُوَيْنِبُ! مِرارًا»(٤).

* وأحاديث «عائش» كلها: قال النبي ﷺ لعائشة: «يا عائِشَ هذا جِبْريلُ يُقْرِئُكِ السَّلامَ»(٥).

* وفي حديث البقيع المعروف، قال لها ﷺ: «مالكِ يا عائش؟»(٦).

---

(١) البخاري (٣٧٥٣).
(٢) شرح الدرر السنية للحديث.
(٣) صححه الألباني-السلسلة الصحيحة (٧/ ٨١٨) | وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٩٥١) | وصححه ابن حجر العسقلاني-فتح الباري (٢/ ٥١٥).
(٤) صححه الألباني-صحيح الجامع (٥٠٢٥).
(٥) البخاري (٦٢٠١).
(٦) مسلم (٩٧٤).

فالأمر معمول به في التربية النبوية مع الصغار والكبار كذلك، لأثره الجميل المحبب في النفوس.

٣- في إظهاره ﷺ الشفقة بهم والتضرر بما قد يؤلمهم والسعي الفعلي لإزالته:

من خلال مواقف نبوية عدة مع الأبناء والصغار والرضع كذلك:

* قال النبي ﷺ يومًا: «فإِنَّما ابْنَتي بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُنِي ما رَابَهَا وَيُؤْذِينِي ما آذَاهَا»(١)، وفي رواية: «فاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، فمَن أغْضَبَها أغْضَبَنِي»(٢).

وهذا فيما لا يُغضِبُ الله بالطبع، فهي هي فاطمة التي قال فيها ﷺ في معرض تأديبه لمن يشفعون في حد السرقة لئلا يقام على المرأة المخزومية: «وَاللهِ لو كَانَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»(٣).

وإن قيل «هي فتاة كبيرة ونحن نتكلم عن الرضيع؟»، فالجواب بالإضافة إلى عموم مثل تلك الأحاديث على كل المراحل: العبرةُ بالأصل والسبب، وهو أنها (بضعةٌ منه) ﷺ، منذ كانت جنينًا ثم وليدة ثم رضيعة وإلى ما شاء الله.

* كذلك حديث «التعثُّر» الذي ذكرناه سابقًا في فقرة «حضور الصغار الخُطَبْ»: عن بُريدةَ قالَ: «خطبَنا النبي ﷺ، فأقبلَ الحسنُ، والحسينُ، عليْهما قَميصانِ أحمرانِ يَعثُرانِ ويقومانِ، فنزلَ فأخذَهما، فصعِدَ بِهما المنبرَ، ثمَّ قالَ: صدق الله! إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ! رأيتُ هذينِ يعثرانِ في قميصَيهما، فلم أصبِرْ حتَّى قَطعتُ كَلامي فحَملتُهُما، ثمَّ أخذَ في الخطبةِ»(٤).

وجاء في شرح الحديث: «كمال المحبة الطبيعية الفطرية الجِبِلِّيَّة للأولاد، بما لا

---

(١) مسلم (٢٤٤٩).
(٢) البخاري (٣٧١٤).
(٣) البخاري (٣٧٣٣)، صحيح مسلم:1689).
(٤) صححه الألباني-صحيح النسائي (١٤١٢).

يتعارض مع المحبة الأصلية لله فمحمود أن تظهر ولا تتأخر»، ولنا مع ذلك الحديث وقفات تربوية أخرى.

فكما قلنا مرارًا: لا يرتاح الوالد وهو يرى ولده في وضعية غير سليمة، أو يتأذى ولو بأقل شيء، فيهرع إليه لإقالة عثراته متلفهًا، فما بالنا بالفتن إذا رآها تهجم عليه ويهوِي إليها؟ فنَقِيضُ تلك الشفقة حينئذ يكون مخالفًا للفطرة الطبيعية تجاه الأبناء.

وهنا سؤال مهم لا يفوتُنا: هل ينبغي دومًا أن أقيل عثراتهم؟ ألا يُعيقُ ذلك نمو قيمة اعتمادِه على نفسِه في حل مشكلاته الخاصة؟ والجواب في نهاية الفصل، لئلا نقطع تسلسل النقاط هنا.

* حديث آخر: جاءَ الحسَنُ والحسينُ يَسعيانِ - يجريان ويُسرعان - إلى النبي ﷺ فضمَّهما إليه وقال: «إنَّ الولدَ مَبخلةٌ مَجبنة»[1].

«أي: إنَّ الأولاَدَ سبَبٌ للبُخلِ بالمالِ، وسببٌ لِجُبنِ الأبِ؛ يتَخلَّفُ عن السعيِ في سبيل الله مثلًا بسبَبِ حُبِّه لهم والخوفِ مِن الموتِ وتركهم. وفي روايةٍ عِندَ الطَّبرانيِّ قال: «مَجْهَلةٌ»، فربما تكاسَل أيضًا عن تَركِ الرِّحلةِ في تحصيل وطلَبِ العِلمِ؛ لاهتِمامِه بتَحْصيلِ المالِ لولده. وفي روايةٍ لأحمَدَ «مَحْزَنةٌ»؛ أي أنه يَغمر أبويه بكَثرَةِ الحُزنِ؛ فيحزنان إنْ مَرِضَ مثلًا أو طلَب شيئًا لا قُدرَةَ لهما عليه أو تألم من شيء. فالأولادَ مَظِنَّةٌ لِيَكونوا سَببًا في حُدوثِ هذه الأمورِ مِن الآباءِ، فَلْيَحذَروا ويجتهدوا في تحقيق الشفقة بالحد الجِبلي الطبيعي فقط بما لا يتعارض مع تقديم محبة الله على ما سواها، فقوله ﷺ لتلك الكلمات هو كناية عن محبته الشديدة لحفيديه، فيكون مدحًا تبعًا لهذا المقام لأنها دلالة على كمال المحبة الأبوية الطبيعية لكنها دلالة أيضًا على المودَّةِ العادِيَّةِ المورِّثةِ للبُخلِ والجُبنِ لِمَن لم يَكُنْ كامِلًا في مَرْتبةِ العُبوديَّةِ، مما يستدعي حث من كان هذا حاله، على تقديم مَحبَّةِ مَرْضاةِ الله على ما سِواه، لأنَّه هو

(١) صححه الألباني-صحيح ابن ماجه (٢٩٧٢) | أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٦) واللفظ له، وأحمد (١٧٥٩٨).

المحبوبُ الحقيقيُّ وما سِواه مَحْبوبٌ إضافيٌّ»[1].

– ويندرج تحت عنوان «الشفقة بهم» أيضًا: أحاديث تخفيفه ﷺ في الصلاة عند سماع بكاء الرضيع ليفرغ له أمه، وتناولناها سابقًا فيُرجع إليها دفعًا للتكرار.

ومن الشفقة بهم، عدم تعريضهم لأنواع علاج شاقة ومؤلمة بدون بحث في البدائل:

* حديث مشابه لحديث «العذرة» الذي شرحناه مختصرًا سابقًا: عن أم قيس بنت محصن أنها أتت النبي ﷺ بابن لها لم يبلغ أن يأكل الطعام وقد أعلقت عليه من العذرة فقال ﷺ: «علام تدغرن أولادكن بهذا العِلاق؟! عليكم بالعود الهندي فإن فيه سبعة أشفيه»[2].

أي باختصار: أمه تحاول علاجه من مرض ما في الحلق، بعلاج شاق ومؤلم نوعًا ما، فنهاها ﷺ عنه وأعطاها البديل الأطيب من الطب النبوي وهو العود الهندي المعروف بفوائده، (وبالطبع لا يُستعمل مع صغارنا دون سؤال الطبيب).

وهذا يشبه في زماننا مثلًا: التحاميل (**اللبوس**)، فإن كان الطفل شديد الحساسية له ويتضرر منه بشدة ويتشنج ويتألم، فلنبحث عن بديلٍ آخر فلا داعي للإصرار مطلقًا في هذه الحالة إلا إذا أوصَى الطبيبُ بذلك.

ومن الشفقة بهم كذلك، إيثارهم بأكلنا وشربنا أحيانًا إذا احتاجوه:

قالت عائشة: «جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فأطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فأعْطَتْ – المسكينة – كُلَّ وَاحِدَةٍ منهما تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إلى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا – أي طلبتا أن تأخذا تلك التمرة أيضًا – فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ، الَّتي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بيْنَهُمَا، فأعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الذي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقالَ:

(١) من شرح الدرر السنية للحديث، بتصرف يسير واختصار.
(٢) مسلم (٢٢١٤)، صحيح البخاري: ٥٧١٣).

إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ»[1].

وهذا بخلاف ما تروج له التربية الحديثة من فلسفة تربوية فيها روح أنانية وأثرة مخالفة لفطرة الأمومة، فمما يقول بعضُهم: «إياكِ أن تأكلي بواقي أكل أولادك، إياك أن تقبلي بالجلوس على المقعد المعوج أو غير المريح وتتركي لهم هم المقاعد المريحة دونك، إياكِ أن تصنعي لأحد منهم طعامًا وهو يستطيع صنعه لنفسه إلخ»، بينما المرأة في الإسلام هي الأم الفطرية، التي لو كانت الأمور بيدها لما ألقت ولدها أبدًا في عنت أو مشقة أو ألم، هي الوحيدة مضرب المثل الحسي لرحمة الله التي لا نتصور حجمها ولا قدرها، كما قلنا من قبل في فصول الوليد وسُقنا له أحاديث.

لذلك كله، كانت الحضانة في مرحلة الطفولة غالبًا من حق الأم ومطلوب تمكينها منها لأنها الأحرص هنا على تمام الشفقة والمرحمة بالطفل لشدة ما يحتاجه نموه في هذه المرحلة من العطف والحنان والشفقة، كما سنفصل في «حق الحضانة»، وكلُ ميل للعنف والشدة والجفاء في هذه المرحلة بغير حقٍ، يؤثر على شخصية الطفل سلبًا.

وهذه ليست دعوة مفتوحة لإفساد الأبناء بالتدليل الزائد، إنما محاولة منا لإحياء تعريف الأمومة الفطرية من جديد، وبيان أن ممارسة الأمومة، وتعليم الطفل القيم وتأديبه وتهذيبه: لا يتعارضان.

٤- الدعاء في وجوههم بشكل عام بوجوه الخير:

حديث: «اللهم أني أحبهما فأحبهما»[2]، والذي تكرر كثيرًا بصور شتى جمعناها، فيُرجَع إليها.

---

(١) مسلم (٢٦٣٠).

(٢) حسنه الألباني-صحيح الترمذي (٣٧٦٩) واللفظ له | واللفظ له، وأخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٥٢٤).

كذلك ما جاء في حديث «صبيان الأنصار»: «فإذا جاء إلى دورِ الأنصارِ جاء صبيانُ الأنصارِ يدورون حوله، (فيدعو لهم)»[(١)].

٥- التعبير عن حبهم لفظيًا وعدم الاكتفاء بأفعال المحبة والعطاء المادي فقط، بل والرجاء من الله أمامهم أن يحبهم الله، بل وحث الناس والمجتمع على حبهم وتحذير من يبغضهم ويؤذيهم نفسيًا:

حديث «لكاع» حيث جاء فيه قوله: «اللهم إني أحبه، فأحِبَّه، وأحب من يحبه»[(٢)]، بل في حديث «السخاب» ورد أنه كررهم ﷺ في نفس اللحظة ثلاث مرات[(٣)].

وحديث أسامة بن زيد حين زار النبي ﷺ ليلًا وكان ﷺ يحمل الحسن والحسين على وركيه معًا تحت حَبوته، وذكرناه في نفس فقرة إخفائهم داخل عباءاتنا كنوع من المحبة والاحتضان، حيث قال ﷺ في آخره: «اللَّهمَّ إنِّي أحبُّهما فأحبَّهما وأحبَّ مَن يحبُّهما»[(٤)].

أيضا أحد أحاديث «الحبوة»، والذي يتكلم فيه الصحابي عن حفيد النبي ﷺ قائلا: «لقد رأيتُ النبي ﷺ واضِعَهُ في حَبوَتِه - أي أسفل ردائه - يَقولُ: مَن أحَبَّني فليُحِبَّه، فليُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ»[(٥)].

---

(١) صححه الألباني-آداب الزفاف (٩٧) | وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح-مجمع الزوائد (٨/ ٣٧).
(٢) البخاري (٥٨٨٤).
(٣) صححه أحمد شاكر (١٦/ ١٦٣).
(٤) حسنه الألباني-صحيح الترمذي (٣٧٦٩) واللفظ له | واللفظ له، وأخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٥٢٤).
(٥) صححه الوادعي-الصحيح المسند (١٤٨٠) | وصححه شعيب الأرنؤوط-تخريج سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٥٤) وتخريج المسند لشعيب (٢٣١٠٦) | أخرجه أحمد (٢٣١٠٦) واللفظ له، وابن أبي شيبة (٣٢٨٥٢)، والحاكم (٤٨٠٦).

وحديث «الإجلاس في الحجر»، نجد في نهايته: «فلمَّا قَضى الصَّلاةَ وضعَهما في حجرِهِ وقالَ:

«من أحبَّني فليُحبَّ هذينِ».[1]

وتكملة حديث «السكة»: «فجعلَ إحدى يديهِ تحتَ ذقنِهِ، والأخرى في فأسِ رأسِهِ، فقبَّلَهُ وقالَ: حُسَيْنٌ منِّي، وأنا مِن حُسَيْنٍ، أحبَّ اللهُ من أحبَّ حُسَيْنًا»[2].

وقال ﷺ: «مَن أحَبَّهما فقد أحَبَّني، ومَن أبغَضَهما فقد أبغَضَني»[3].

وقال ﷺ للحسنِ: «اللَّهمَّ إنِّي أحبُّهُ فأحبَّهُ وأحِبَّ من يحبُّهُ، وضمَّهُ إلى صدرِه»[4].

ولا يخفى ما في الأحاديث من الدمج بين مظاهر المحبة الحسية وغير الحسية، بجانب إشعاره الدائم لهم بالتصاقهم وارتباطهم به ﷺ كيانًا واحدًا، جاء في شرح الحديث: «أي بيننا مِن الاتحادِ والاتِّصالِ والرَّحِمِ ما يَصِحُّ أنْ يُقالَ معه بأنَّ كلًّا مِنا مِن الآخَرِ، وهذا يُبيِّنُ أنَّهما كالشَّيءِ الواحدِ في وُجوبِ المحبَّةِ وحُرمةِ التَّعرُّضِ والمُحاربةِ»[5].

٦- الترحيب والاحتفاء بقدومهم واستقبالهم بحفاوة:

مثلما نقول في يومنا عند الترحيب: أهلًا أهلًا، أو مرحبًا، وهناك احتفاء بالطفل داخل البيت بعيدًا عن أعين الناس، كاستقبالهم بحفاوة عند الاستيقاظ مثلًا أو القدوم من الروضة وما شابه، وهناك احتفاء بالطفل خارج البيت أمام الناس، كلا النوعين يُشبِعُ زوايا نفسية واجتماعية، حتى النوع الأول، لأنه يخدم التوافق

(١) حسنه الألباني-صفة الصلاة (١٤٨) | وصحيح ابن خزيمة وقال: إسناده حسن رجاله ثقات رجال مسلم| أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨١٧٠)، وابن خزيمة (٨٨٧) باختلاف يسير، وأبو يعلى (٥٠١٧) واللفظ له.
(٢) حسنه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٨).
(٣) صححه أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر (١٤/ ٢٦٠) | وحسنه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٧).
(٤) صححه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٦) | أخرجه صحيح البخاري: ٢١٢٢) بنحوه مطولًا، ومسلم (٢٤٢١) مختصراً، وابن ماجه (١٤٢) واللفظ له.
(٥) شرح الدرر السنية للحديث.

الاجتماعي الأسري، لذا كان من الصعب فصلُهما، ولهذا السبب هناك علم خاص اسمه Psychosociology ، لاشتراكهما معًا في كثير من الآثار المترتبة، لذا سأسرد هنا كل النصوص التي أظهرت إشباع النبي ﷺ لهذا الجانب عامةً، ثم في المحور الاجتماعي سأكتب عنوانها فقط وأحيل القارئ إلى هنا، تحاشيًا للتكرار. وبعضها ورد في الأبناء الصغار، وغيرها ورد في الأبناء الكبار، فالأمر عامٌ للأبناء بإذن الله بكل مراحلهم العمرية.

أحاديث تظهر احتفاء النبي ﷺ بالأبناء داخل البيت:

أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النبي ﷺ، فَقالَ النبي ﷺ: «مَرْحَبًا بابْنَتي، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عن يَمِينِهِ، أَوْ عن شِمَالِهِ»[(١)].

وكانت تأتيه هي وعليٌّ والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعًا، ويحسن استقبالهم بحفاوة.

أحاديث تُظهِر احتفاء النبي ﷺ بالأبناء خارج البيت أو أمام الناس:

حديث «السِخاب»: «فَقَامَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَمْشِي وَفِي عُنُقِهِ السِّخَابُ، فَقَالَ النبي ﷺ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَقَالَ الْحَسَنُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَالْتَزَمَهُ»[(٢)]، «أي: بَسَطَ النبي ﷺ يده وذراعه كما هي عادةُ مَن يريد المُعانَقةَ، ففعل الحسنُ مثلما فعل ﷺ، حتَّى الْتزَمه النبي ﷺ وعانقَه»[(٣)].

وحديث «السكة»: «فتقدَّمَ النبي ﷺ أمامَ القومِ، وبَسطَ يديهِ»[(٤)]، أي: تقدمَ وبادرَ وفتحَ ذراعيه ليتلقى ويستقبل حفيده بحفاوة أمامهم.

---

(١) البخاري (٣٦٢٣).
(٢) البخاري (٥٨٨٤).
(٣) شرح الدرر السنية للحديث.
(٤) حسنه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٨)، والقصة في صحيح ابن حبان (٦٩٧١).

وغيرها الكثير، مما يشبع حاجة النفوس إلى الاحتفاء باستقبالها، سواءًا أمام الناس أو بعيدًا عن العيون، وبأية وسيلة متاحة ودون تكلف ومبالغة، عن طريق القيام لهم أو تقبيلهم أو إجلاسهم مكاننا أو الإفساح لهم بجوارنا أو فتح الذراعين لاحتضانهم وحملهم، وقول (مَرحبًا) أو غيرها، كما رويَ أن بعض السلف كان يستقبل ابنته الرضيعة بجملة: «يا أهلًا بستر أبيك من النار»، كناية عن أن من رُزق البنات فصبر على تربيتهن كُن سِترًا له من النار، والتنوع يغرس تلك المعاني في نفوسهم وليس شرطًا التزام طريقة واحدة منهم في كل مرة، المهم هو إشعار الصغار أنهم مَرئيون، أن قدومَهم أمرٌ ملحوظٌ ومحاطٌ بالعناية والاهتمام والشغف والفرحة والحفاوة، حتى لو كان هذا القدوم هو مجرد استيقاظ الرضيع من النوم.

وتجدر الإشارة إلى أن قصة «يا أهلًا بستر أبيك من النار» تُنسَبُ خطئًا لسيدنا عبد الله بن مسعود.

٧- وفي إظهاره ﷺ الاهتمام بأغراضهم وقصصهم واهتماماتهم:

نفس حديث لُعَب عائشة و«خيل سليمان»، ففي حوار النبي ﷺ معها لما كشف الهواء الستر عن «صندوق لعبها» المحفور في الحائط، ما يُغنِي عن أي تفصيل، بدأها ﷺ بالحوار وإظهار الاهتمام فقال: «ما هذا يا عائشةُ؟ قالت: بناتي - أي ألعاب مجسمة وعرائس - ورأى بينَهُنَّ فرسًا له جَناحانٍ مِن رِقاعٍ، فقال: ما هذا الذي أرى وَسَطَهُنَّ؟ قالت: فَرَسٌ. قال: وما هذا الذي عليه؟ قالت: جَناحان. قال: فرسٌ له جَناحانِ!؟ قالت: أما سَمِعْتَ أن لسليمانَ خيلًا لها أجنحةً؟ قالت: فضَحِكَ حتى رَأَيْتُ نواجذَه!»[١].

ويؤخذ منه أيضًا: الضحك أمامهم من أفعالهم البريئة ولفتات نباهتهم الذكية، فهذا يشعرهم بالسعادة وبالأهمية وأنهم مؤثّرون في الكبار، ليس ضحك سخرية، إنما

(١) صححه الألباني-صحيح أبي داود (٤٩٣٢) واللفظ له، والبيهقي (٢١٥١٠) | وروايات أخرى للقصة صححها أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر (١٤/ ٢٦٤).

ضحك دهشة ببراءتهم وصفاء مخيلتهم، فأن تتخيل عائشةُ أن النبي ﷺ يَخفَى عليه أمور إخوانه الأنبياء، أمرٌ يجعله ﷺ يضحك مبتهجًا ببراءتها ونباهتها مسايرًا لها في كلامها متلطفًا.

وحديث النغير المعروف، والذي يهتم فيه النبي ﷺ بسؤال الصغير عن الذي شغل قلبه وأهمَّه، مع أنه يعلمه ﷺ، قال أخوه أنس بن مالك: «كانَ النبي ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكانَ لي أَخٌ يُقَالُ له: أَبُو عُمَيْرٍ، قالَ: أَحْسِبُهُ، قالَ: كانَ فَطِيمًا، قالَ: فَكانَ إذَا جَاءَ النبي ﷺ فَرَآهُ، قالَ: أَبَا عُمَيْرٍ، ما فَعَلَ النُّغَيْرُ؟ قالَ: فَكانَ يَلْعَبُ بهِ»(١).

فنشبع لديهم هذه الأمور وأمثالها، لكن بشرط ألا يكون ذلك عن طريق استعراض صورهم في مواقع التواصل والطرقات والتعبير عن حجم جمالهم وجمال أغراضهم وحبنا لهم ونحو ذلك، ليراهم البَرُّ والفاجِر، هذا قد يجر إليهم المضرة والأذى بالعين أو الحسد، بجانب تعويد الطفل على الاستعراض والتباهي والخيلاء، بخاصة لو كانت فتاة فهذا يخدش فطرة الحياء فيها، ناهيك عن مساوئ الأمر من زوايا أخرى اجتماعية وأخلاقية ونحوها، لا متسع لذكرها هنا.

٨- وفي مهاداته لهم ﷺ بالهدايا المفرحة، وإظهار التفاعل معهم بها:

حديث أم خالد بنت خالد حين كانت صغيرة: «أُتِيَ النبي ﷺ بثِيابٍ فيها خَمِيصَةٌ سَوْداءُ، فقالَ: مَن تَرَوْنَ نَكْسُوها هذِه الخَمِيصَةَ؟ فَأُسْكِتَ القَوْمُ! قالَ: ائْتُونِي بأُمِّ خالِدٍ، فَأُتِيَ بي النبي ﷺ فألْبَسَنِيها بيَدِهِ، وقالَ: (أبْلِي وأَخْلِقِي) مَرَّتَيْنِ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إلى عَلَمِ الخَمِيصَةِ ويُشِيرُ بيَدِهِ إلَيَّ ويقولُ: يا أُمَّ خالِدٍ هذا سَنا، يا أُمَّ خالِدٍ هذا سَنا»(٢)، وفي رواية أخرى: «سنه سنه»(٣).

---

(١) البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).
(٢) البخاري (٥٨٤٥).
(٣) البخاري (٣٠٧١).

والسَّنا أو السنة بلِسانِ الحَبَشِيَّةِ: الحَسَنُ - الحسنة - وكان ﷺ إذا أوتيَ بأول الثمر - باكورة الثمار أهداه لأصغر الأولاد عنده، يقول أبو هريرة: «أنَّ النبي ﷺ كانَ يُؤْتَى بأَوَّلِ الثَّمَرِ، فيَقولُ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في مَدِينَتِنَا، وفي ثِمَارِنَا، وفي مُدِّنَا، وفي صَاعِنَا بَرَكَةً مع بَرَكَةٍ، ثُمَّ يُعْطِيهِ أَصْغَرَ مَن يَحْضُرُهُ مِنَ الوِلْدَانِ»[1]، وفي رواية: «ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ له فيُعْطِيهِ ذلكَ الثَّمَرَ»[2].

٩- وفي ذهابه ﷺ معهم حيث انطلقوا به:

يحكي أنس بن مالك يقول: «إنْ كَانَتِ الأمَةُ مِن إمَاءِ أهْلِ المَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بيَدِ النبي ﷺ فَتَنْطَلِقُ به حَيْثُ شَاءَتْ»[3]، وفي رواية: «فما يَنزِعُ يدَهُ من يدِها حتَّى تذْهبَ بهِ حيثُ شاءَت منَ المدينةِ في حاجَتِها»[4].

فمثلًا قد تجدين طفلك يناديكِ لترَيْ جبلَ العُملات الهائل في نظره والذي يفتخر بصنعه من عُملات النقود «الفكة»، وينظر إليك بعين لامعة مفعمة بالحماس متشوقًا أن يرى في عينيك فخرَك بصنيعه، أو ربما طفلتكِ أتت إليك مسرعة بحماس أيضًا وأخذت بيدك لتريكِ كيف صَفَّت عرائسها القماشية لحفلة الشاي خاصتها، أو ربما لكي تشير إلى شيء ما عجَزَتْ يداها عن الحصول عليه وتريد منك المساعدة، وربما يحدث ذلك وأنتِ مُلقاة على الأريكة في حالة من التعب والخمول والرغبة في الاسترخاء، بما لا يتلاءم مطلقًا مع فرط نشاطهم وبكارة حماستهم لِما يدعونكِ إليه.

فإن استطعتِ أن تقتدي بالرحمة المهداة ﷺ وتجبري خواطر أفئدة الطير هذه بقيامك معهم محتسبةً بكل خطوة أجرًا لصحيفتك وغذاءًا ورواءًا لنفوسهم، فلا تترددي، فإنما هي غنائم باردة توشك أن تنقضي أزمنة اقتناصها سريعًا، ويبقى الأثر والأجر بإذن الله.

(١) مسلم (١٣٧٣).
(٢) صححه الألباني-مختصر الشمائل (١٧٢).
(٣) البخاري٦٠٧٢.
(٤) صححه الألباني-صحيح ابن ماجه (٣٣٨٦).

١٠- في زيارته ﷺ لهم:

ظهر ذلك من خلال زيارته ﷺ مرارًا لبيت ابنته فاطمة خصيصًا للسؤال عن حفيديه ومجالستهم وبث الحنان لهم، وظهر أيضًا من خلال زيارته لرضيعه إبراهيم رغم بعد المسافة ومشقتها، فقط لأجل تقبيله وشمه وضمه - وسبق تفصيل كل أحاديث تلك المواضع. وتذكروا ما قلناه في سمات الرضيع: من تنامي سمة الإدراك الشخصي لديه مع تطور نموه مما يجعله يبدي تعابير فرح واضحة تجاه الأقارب المألوفين والمعارف كالوالدين والإخوة وغيرهم، ويبدي تعابير الخوف البسيط والقلق والترقب من الغرباء، فلعل لأجل ذلك أيضًا كان ﷺ يزور صغاره كثيرًا.

رابعًا: حق الرضيع في الحضانة، وتمكينها مع أمه أرحم الناس به، إن لم يوجد موانع

هي من الحقوق الكبرى للطفل، والتي يترتب عليها إثم بإهدارها وإهمالها، تتمثل في العطف والحنان والرعاية الرحيمة له وتدبير طعامه وملبسه ونومه، وتنظيفه وغسله وغسل ثيابه إلخ، فهذه حقوق حفظتها الشريعة له منذ أول يوم بأحكام وضوابط متينة، إلى أن يستقل الطفل بأمره.

وأفضل حضانة للطفل، هي التي تكون بين والدَين مُتَحابَين فيما بينهما، ومُحِبَّين لطفلهما ومبتهجَين بمجيئه، يتقيان الله في حقوقه ومصالحه، ومجتمعين على إعطائها العناية اللازمة، وهذا هو الأصل للمُكَوِّن الطبيعي للأسرة الحاضنة، فما معنى الحضانة لغة وشرعًا؟ وما هي سبل العناية المدهشة التي أحاطتها الشريعة بها حفظًا لحقوق واحتياجات الطفل؟ تلك أسئلة ختمنا بها كلامنا هناك في تربية الوليد، وآن أوان جوابها، فأعيرونا قلوبكم.

معنى الحضانة

لغةً: مأخوذة من الحِضن والضم إلى الجنب، وشَرعًا: ليس بعيدًا عن ذلك

المعنـى، فمعناهـا: تربيـة الولـد لمـن لـه حـق الحضانـة عليـه أو: تربيـة وحفـظ مـن لا يستقل بأمـور نفسـه عمـا يؤذيـه لعـدم تمييـزه - كالطفـل الصغيـر الأقـل مـن سـن التمييـز أو الشـخص الكبيـر لكنـه مجنـون - عـن طريـق رعايـة شـئونه وتدبيـر طعامـه وملبسـه ونومـه وتنظيفـه والعنايـة بـه وغسـله وغسـل ثيابـه ونحـو ذلـك، إلـى سـن معينـة. إذن الحضانـة نـوعُ ولايـة وسُـلطة، وهـي حـق للوالديـن معًـا مـادام الـزواج قائمًـا بينهمـا.

ولكـن إذا تعـذر استمرار حضانتهمـا معًـا للطفـل، بـأن حـدث طـلاق للزوجـة أو ترمُّـل ومـا إلـى ذلـك، فلمـن تـؤول الحضانـة؟

القاعـدة أن أفضـل الحضانـة هـي حضانـة الأم، **والاسـتثناء** هـو غيـر ذلـك، فـالأم هـي أقـدر النـاس علـى إسـباغ كل عناصـر الحضانـة لطفلهـا، لذلـك نجـد دومًـا أن مضـرب المثـل في المرحمـة هـو: (رحمـة الأم)، فكلمـا أراد النبـي ﷺ أن يقـرب في أذهـان النـاس حجـم وعظمـة رحمـة الله، يقارنهـا لهـم بأعظـم رحمـة في الأرض متعـارَفٌ ومُتَفَـقٌ عليهـا بيـن المخلوقـات، ألا وهـي: رحمـة الأم ونجـد ذلـك واضحًـا في عـدة مشـاهد، أشـهرها القصـة التاليـة:

في مـرة كانـت أمـام النبـي ﷺ، امـرأة تبحـث عـن صبـي لهـا، فلمـا وَجَدَتْـهُ «أَخَذَتْـهُ، فأَلْصَقَتْهُ ببَطْنِهَـا وأَرْضَعَتْـهُ، فَقَـالَ النبـي ﷺ للصحابـة: أتُـرَوْنَ هـذِه طَارِحَـةً ولَدَهَـا في النَّـارِ؟ قُلْنَـا: لَا، وهـي تَقْـدِرُ علَـى ألَّا تَطْرَحَـهُ، فَقَـالَ: «لَلَّـهُ أرْحَـمُ بعِبَـادِهِ مِـن هـذِه بوَلَدِهَـا»[1].

فـإن تعـذر الجمـع بيـن الوالديـن في حضانـة، فـإن الشـريعة جعلـت الأم هـي الأحـق بالحضانـة للطفـل إلـى أن يبلـغ سـبع سـنوات، (بخاصـة حضانـة الرضيـع إلـى أن يصيـر فطيمًـا)، باتفـاق الفقهـاء، مـا لـم يوجـد مـا يمنـع ذلـك شـرعًا، لارتبـاط الطفـل بهـذا الكيـان الحنـون الـذي احتـواه طيلـة تسـعة أشـهر وتعلـقَ بـه.

يقـول د/ وهبـة الزحيلـي: «الإنـاث أليـق بحضانـة الصغـار؛ لأنهـن أشـفق وأهـدى إلـى

(١) البخاري (٥٩٩٩).

التربية، وأصبر على القيام بها، وأشد ملازمة للأطفال، فإذا بلغ الطفل سنًّا معينة، كان الحق في تربيته للرجل؛ لأنه أقدر على حمايته وصيانته وتربيته من النساء»[1].

ورُوِيَ أن عمر بن الخطاب طلق زوجتَه أُمَ عاصم، ثم أتى عليها وفى حِجرها عاصم فأراد أن يأخذه منها فصار يشده وهي تشده فتجاذباه بينهما حتى بكى الغلام، فانطلق الفاروق إلى أبى بكر فقال لعمر جملة ذهبية بحق: «مَسْحُها، وحِجْرُهُا، ورِيحهُا، خيرٌ له مِنكَ، حتى يَشِبَّ الصبي فيختارُ لنفسه»[2].

بالتالي فإن حضانة الرضيع هي لأمِه طالما ليس في حضانتها ضرر شرعي عليه، إلى أن يكبر ويختار بنفسه عند سن التمييز مع أي والديه يُكمِلُ حياتَه، وهناك أحاديث عدة تعكس تنازُع أحد الوالدين في عهد النبي ﷺ ثم تخييره ﷺ للصبي المميز بين والديه، منها حديث أبي هريرة: «سَمِعْتُ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى النبي ﷺ، وَأَنَا قَاعِدٌ عِنْدَهُ، فَقَالَتْ: يا رسول الله ﷺ، إِنَّ زَوْجِي يُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ بِابْنِي، يكمل أبو هريرة قائلًا: فَقَالَ زَوْجُهَا: مَنْ يُحَاقُّنِي فِي وَلَدِي؟ فَقَالَ النبي ﷺ – للطفل: (هَذَا أَبُوكَ، وَهَذِهِ أُمُّكَ؛ فَخُذْ بِيَدِ أَيِّهِمَا شِئْتَ)، فَأَخَذَ بِيَدِ أُمِّهِ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ»[3].

وبالإضافة إلى أن النساء في هذه المرحلة يكونون أقدر الناس على رعاية الطفل وفهم احتياجاته وأكثرهم صبرًا من الأب أو الرجال عمومًا، فهي أيضًا مالكة لحق الرضاعة، بالتالي فهي نفسها أكثر تعلقًا بطفلها وأشد ارتباطًا به من الأب ولذلك أيضًا تكون أكثر شفقة ورحمة عليه، فتقديم الأم في حق الحضانة ليس فقط يُراعِي مصلحة الطفل، بل يُراعِي أيضًا مصلحةَ الأم لتعلقها به وتضررها بالتفريق بينهما، وقد قال النبي ﷺ: «مَن فرّق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»[4]، ويستحق والله! لأنه حينئذ ينزع روحين من بعضهما البعض انتزاعًا.

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي، وغالبية فقه الحقوق في هذا الفصل، من كتابه.

(٢) هذا الأثر موجود في كتاب دكتور الزحيلي «الفقه الإسلامي وأدلته» ذكر أنه رواه أبى شيبه في مصنفه.

(٣) صححه الألباني-صحيح أبي داود (٢٢٧٧).

(٤) حسنه الألباني-صحيح الترمذي (١٥٦٦) واللفظ له، وأحمد (23513).

وحديث آخر بنفس المعنى لكن في عالم الحيوان سبحان الله، بما يؤكد مجددًا امتداد تلك المنظومة في كل الكائنات وكأنه قانونٌ كونيٌّ وسُنةٌ لا تتبدل؛ يقول عبد الله بن مسعود: «كنا مع النبي ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرَةً - مثل الحمامة أو العصفورة - معها فرخان - أي: كتكوتان صغيران أو حمامتان صغيرتان - فأخذنا فرخيها، فجاءت تعرِش - وفي رواية: تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال مؤنبًا: «من فجعَ هذه في ولدِها؟ رُدُّوا ولدَها إليها»[1]، والمعنى: تطير وترفرف وتضرب بجناحيها بقوة واضطراب فزعًا لأجل أبنائها.

كذلك فإن تقديم الأم في حق الحضانة يُراعي أيضًا مصلحة الأب، لأنه لن يكون مُتفرغًا للطفل بسبب سعيه لطلب الرزق ليُنفق عليه، فلو كانت حضانة الطفل لأبيه والأب في نفس الوقت يعمل، ماذا سيفعل لو احتاج الطفل للرضاعة؟ ماذا سيُطعِمُه؟ حليب صناعي لا تُقارَن فوائده الصحية والنفسية بالرضاعة الطبيعية قطعًا، وإما سيأتي لابنه بمُرضِعة مع صعوبة توفّر ذلك في زماننا الآن، وإن وجدها في زماننا فلن تُعطي الطفلَ الاهتمام والعطف والاحتواء والاحتضان الذين ستُعطيهم له أمه مهما كان، فعين المصلحة للجميع هي في هذا الحُكم إلا إذا كان هناك مانع شرعي من حضانة الأم، كزواج الأم مثلًا بغير طليقها أبي الولد، فالمسألة هنا فيها تفصيل يطول شرحه، لكن خلاصته: أن من أقوى أسباب أحقية الأم بالحضانة هو تفرغها لرعاية الطفل، فلو أنها ستنشغل عنه بشيء - زواج جديد أو عمل أو دراسة أو سفر وترحال أو تسوق إلخ - وتترك صغيرها يتنقل بين البيوت وروضات الرعاية - إذ كل ما كان يعنيها فقط أنها انتزعت حق الحضانة من الأب لتكيده فحسب مثلًا أو تضايقه أو تحصل على نفقة؛ فلا شك أنها بذلك تكون مقصرة في حق الحضانة هادرة لحقوقها التي لأجلها أعطيت لها، بالتالي يصبح حينئذٍ غيرُها أولى بها منها.

والكلام عن العمل هنا بالطبع ينطبق على الأمهات اللاتي يعملن وهن غير

---

(١) صححه النووي-رياض الصالحين (٥١٩) | وصححه الألباني-صحيح أبي داود (٥٢٦٨).

محتاجات للكسب، بل تعمل فقط لتحقيق الذات والمكانة والثروة المُضاعَفة وما شابه ذلك من حظوظ النفس، ما يطلق عليه حاليا الـ «كاريير وتحقيق الذات والشغف»، وقد سمعنا كثيرًا عن أخواتٍ موظفاتٍ في المجال المِهني عمومًا يتركن أولادهُن بعد الولادةِ بأيام في روضة للرُضّع أو تتركه عند والدتها مع قوارير رضعات لبن صناعي، لكي تستأنف عملها أو تُكمِل الدكتوراة!!

حقيقة نحنُ بحاجة لإعادة تصحيح أولوياتنا كأمهاتٍ مؤتمَناتٍ على كنزٍ ثمينٍ أودعه الله بين أيدينا، لأن من هنا تبدأ التربية ومن هُنا يبدأ العقوق كذلك كما قلنا، بعقوقِنا نحن لهم، فتداركي أمرَكِ الآن لئلَّا تأتي في المستقبل تتسائلين «لماذا ابني لا يتفاعل معي؟! لماذا ليس لي سلطان عاطفي عليه؟!»، «لماذا يُفضِّل عليَّ فلانًا أو فلانة؟»؛ لأن الجواب حينها قد يكون: لأنه ربما لم يَنعَم معك في فترةِ الحضانة بحِضنك وعطفك ومرحمتك ولم تُشبِعي احتياجاته النفسية؛ فكُلما تم تحقيق هذه الاحتياجات وإشباعها، كلما حصل نموٌّ نفسيٌّ سليمٌ يحقق ما نرجوه من صلاح أبنائنا ويُقلل المشكلات التي تواجِهنا فيما بعد معهم في المراحل المتقدمة بإذن الله.

هذا في الأغلب الأعم، ولكل قاعدة استثناءات بالطبع، فاغتنمي مرحلة الرضيع جيدًا، وقد أعانتك الشريعة على ذلك بالفعل وذللت لكِ كل ما قد يحول بينك وبينها، سواء بالرخص أو بالنفقة أو بكافة الحقوق الأخرى، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا هادي سواه.

ويناسب المقام هنا أن نذكر مقالة لطيفة لأختي الحبيبة تسنيم راجح، جاء فيها كيف أن المراجع والدراسات الغربية المعنية بمجال تغذية الحامل والمرضع، مليئةٌ بوصف التعب والإرهاق الطبيعي الذي تعاني منه الحامل والمرضع، ومزدحمةٌ بالحديث عن التغيرات الفسيولوجية الطبيعية التي تمر بها، وعامرةٌ بتعظيم قدر الرضاعة الطبيعية نظرًا لفوائدها العجيبة، ومُكثرة من الحديث عن حاجة الأم للراحة والتعافي وإعطاء جسدها حقه إلخ، ثم تساءلَتْ: «هل بعد كل هذا يقولون للأم أن

ترتاح فعلًا؟ هل يكتبون في التوصيات أي شيء عن تطبيق العلم؟ هل يقولون أن تناقص الرضاعة الطبيعية الذي حصل حول العالم مع خروج النساء للعمل كان في الحقيقة مرتبطًا بخروجهن للعمل؟ هل يحلون معضلة حاجتها للراحة واجبارهم إياها على العمل بحجة أنها ستكون عاطلة فاشلة غير مساهمة في المجتمع ولا محققة لذاتها إن فعلت؟ أبدًا! ولا أيًا من ذلك!»[1].

وقالت أن فترة الإغلاق العالمي بسبب كورونا، زادت فيها نسبة الرضاعة الطبيعية في البيوت وأفصحت النساء أنهن يكرهن ماكينات سحب الحليب وأنهن سعيدات وممتنات جدًّا بقضاء تلك الأوقات مع صغارهن ويتمنين ألا تنتهي، وبدلًا من أن يجدن دعمًا من الحكومات للمرضع لكي تمكث بالبيت لأجل اغتنام تلك الكنوز، خرجت التوصيات الصحية تطالب الحكومة بأن تفرض على الشركات تأمين غرفة لضخ الحليب للمرأة المرضعة!! فتظل الأم تذهب للعمل وهي حديثة عهد بولادة، وتشقى وتتعب وتترك وليدها المسكين وحيدًا في الروضة، ثم كل ساعتين تختطف ربعَ الساعة لتجلس في غرفة تستخرج فيها وحيدةً هي أيضًا، الحليب بواسطة أجهزة سحب الحليب البلاستيكية الصماء الباردة!!

قارني نعمة الإسلام وتكريمه وعنايته بالأم، بتلك المادية القاتلة لكل جميل، وقارني كيف أن هؤلاء أوتوا العلم ولم يطبقوه، وأعيذك بالله أن تكوني مثلهم، ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِين﴾ [الزمر:٦٦].
وبالطبع مرة أخرى: كلامي ليس للأخوات العاملات المضطرات للكسب لسد نفقة صغارهن لغياب العائل المالي المنفق، أعانهم وكفاهن ورزقهن الرزاق الكريم وتولى ذريتهن بما يقر أعينهن آمين، لما يحملنه من دور ثقيل للوالدين معًا.

---

(١) من مقالة أختي الحبيبة تسنيم راجح، بتصرف واختصار لضيق المقام. رابط المقالة الماتعة كاملة من خلال ال qr code



إذن في شريعتنا، مدار الأمر دوما حول (مصلحة الطفل)، وهذا ما سنبين كيفية تحقيق الشريعة له بشكل مدهش فإن حق الحضانة عند الطلاق مختَلَفٌ فيه بين العلماء لأي الوالدين يكون حسب زواج الأم من عدمه وما إلى ذلك، ويدور الخلاف حول معيار (مصلحة الرضيع)، فأينما كانت مصلحته كانت الحضانة.

تأملوا معي كيف راعت الشريعة نفسية الطفل في مسألة زواج الأم فيما بعد وعلاقة ذلك باستيفاء حقها في الحضانة من عدمه: «جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت له: يا رسول الله، إن ابني هذا كان بطني له وِعاءً، وثديي له سِقاءً، وحِجري له حِواء، وإن أباه طلّقني وأراد أن ينتزعه مني، فقال ﷺ: (أنت أحق به ما لم تنكحي)»[1].

لأن زوج الأم قد يعامِل الصغير بقسوة وكراهية وعدم اكتراث بمصالحه - غالبًا - ولأنها ستكون مشغولة عن صغيرها بحق الزوج القيّم عليها، أما لو كانت متزوجة بقريب هو من ذوي أرحام المحضون، كعمه وابن عمه، فلا يسقط حقها في الحضانة، لأن من تزوجته له حق في الحضانة - من جهة الرحم - مما يورث في قلبه شفقة تلقائية تحمله على رعايته كما لو كان أباه الأصلي، فيتعاونان على كفالته»[2].

فكما رأيتم: حتى (منعُها من الحضانة) في حال زواجها، قد يَسقط بحسب (مصلحة الطفل)، وكذلك لو تزوجت من خارج ذوي أرحام للطفل ووافق طليقها وزوجها الجديد على حضانتها للطفل يعود إليها حقها في الحضانة؛ فهي لا تُعاقَب على زواجها الجديد، الأمر يتبع معيار (مصلحة الطفل) كل مرة، والتي قد تسقط تحت الأقدام حين تنشأ النزاعات وتتعملق الأهواء.

وكذلك: «لا تَسقط حضانتها بزواجها إذا كان المحضون في زمن الرضاعة أو يلحقه ضرر من فراقها أو كانت به علة أو عاهة تجعل حضانته مستعصية على غير الأم»[3].

---

(١) حسنه-الألباني-صحيح أبي داود (٢٢٧٦)
(٢) كتاب د. وهبة الزحيلي-كتاب أدلة الفقه الإسلامية بتصرف يسير لتوضيح المعنى أكثر.
(٣) مقرر فقه الأسرة-فصل حقوق الأولاد/ بالجامعة الإسلامية مشكاة.

ومن شدة العناية بمصلحة الرضيع، أنّه لو رفضت الأم حضانة الولد، لتكيد الزوج مثلًا أو تُجبره لدفع مال أكثر بغير حق، أو تتفرغ لشغل جديد أو زواج جديد ونحو ذلك، فإن كانت مصلحة الطفل مُتعلّقة بهذا ولا يوجد غيرها لحضانته من ذوي الأرحام - أو مثلما ذكرنا من بدائل أُخرى - فتُجبَر حينها على حضانته بالشرع والقانون، أو بالوسيلة الإلزامية الخاصة بالمجتمع، فهي لازمة لها وواجبةً عليها وليس لها الحق في التّخلي عن هذا الواجب خاصةً إن لم يكن للولد حضانة أُخرى ترعى الطفل.

فماذا إن تعذرت حضانة الأم؟

تأملوا معي كيف اعتنت الشريعة بتوفير الحاضنة البديلة المناسبة للوليد بشروط صارمة تتبع (مصلحة الطفل) وتراعي نموه النفسي والديني وغيرهما، لشدة ارتباط هذا الأمر بجوانب تربوية عميقة جدًا للرضيع والطفل عمومًا.

فللحضانة ترتيب، الحضانة ليست فوضى ولا أمرًا عشوائيًّا حسب الأهواء، اختلف الفقهاء في ترتيب مستحقي الحضانة بعد الأم، إلا أنه في الجملة يقدمون النساء على الرجال، فيبدأ الترتيب الحكيم من الأم، ثم أمها على قول جمهور الفقهاء، ثم إن تعذَّر فتنتقل إلى سلسلة من الإناث من ذوي القربى، كل ذلك ولم يظهر أي رجل معنا في الترتيب بعد، محاولات دءوبة من الشريعة الحكيمة لتلبية احتياج الرضيع إلى كيانٍ حانٍ أنثوي في هذه الفترة الحرجة جدًّا، فإن لم يتوفر هذا الكيان، تنتقل للأب ثم نعاود محاولة البحث عن الكيانات الأنثوية الحنونة من جديد من تلك الجهة الجديدة ولا نيأس، لأننا نتكلم عن حق أصيل للرضيع يتغذى عليه بدنه وروحه كما الحليب![1].

ومن الفقهاء من قَدَّم الخالة والعمة قبل الأخت، ثم الأب، ثم الأقرب فالأقرب،

(١) من أحكام الحضانة على إسلام ويب، بعنوان: أقوال الفقهاء في الأحق بالحضانة، وإلى أي عمر تستمر؟

باختصار: تقديم النساء من المحارم في الحضانة حفظًا لحقوق الطفل وتحقيقًا لمصلحته الأكبر واحتياجاته. رأيتم مدى الاعتناء الشديد بترتيب الحضانة حتى صارت مسألة خلافية بين الفقهاء لاختلاف تقدير المصلحة للطفل لدى كل منهم؟

ومن أجمل ما جاء في أحكام هذا الباب، أن الحاضن الذي دوره في ترتيب الحضانة بعد حضانة الأم، لو لم يُرد أن يتحملها فله أن يتنازل عنها لمن بعده في الترتيب، قال العثيمين: «الحضانة حق للحاضن، لا حق عليه، فإذا أراد أن يتخلى عنها لمن دونه: جاز له ذلك»[١]، وهذا عين الحكمة والتحقيق لمصلحة الطفل، فكيف لمن أُجبِرَ على حضانته وهو ليس ابنَه الأصلي، أن يقوم بحقها وهو راضي النفس؟

بينما تُجبَرُ الأم المفَرِّطة في الحضانة فقط في حال تعذُّر وجود أي حاضن غيرها للطفل، فلا تُجبر من البداية، بل عندما صار الأمر كالضرورة التي لا مفر منها للطفل، ولا شك أن قلبها عندئذ يكون أشفق على الطفل من غيرها إن أجبرت في هذه الحال، فتأملوا كيف هي رعاية الشريعة للمسألة بحكمة بالغة سبحان الله[٢].

هذا بالإضافة إلى شروط استحقاق الحضانة الواجب توفرها في الحاضنة البديلة للتأكد من أنها ذات أهلية وصلاحية لحضانة هذا الكائن الضعيف، ومن أهم تلك الشروط: (الأمانة على الأخلاق)، فلا حضانة لغير أمين على تربية الولد وتقويم أخلاقه، كالفاسق - (مِن سكيرٍ أو مُشتهرٍ بالزنا أو اللهو الحرام والعربدة - رجلًا أو امرأة) - فسقًا يَضيع به الولد خاصة إذا كان في سن يعقله.

ولكن، ألا يزال رضيعًا صغيرًا جدًّا بعد كي نحمل همَّ هذا الأمر الأخلاقي؟

نعم لكن الشريعة لا تريد ضمان حقوقه النفسية فحسب والحنان وما إلى ذلك، وإهمال بقية حقوقه التربوية، وإنما من حقه كذلك أن ينشأ في أحضان ذات الخلق

---

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع (١٣/ ٥٣٦) -للعثيمين، من موقع «الإسلام سؤال وجواب».
(٢) من فقه الأسرة على «الإسلام سؤال وجواب» مقالة بعنوان: متى تنتهي الحضانة ومن ينفق على الأولاد بعد انتهائها؟

والدين، فلا ننسى أن الوليد ذاكرته لا ترحم ما يمر أمامها، تقتنص كل شيء وتقتات عليه لتكْبُر، وإن لم يظهر لنا ثمرة ذلك في الحال.

وتصل أهمية الحضانة للرضيع والطفل عمومًا في الإسلام إلى درجة أن يتم تأجيل قتل أمه لو استوجبت القتل بحد من حدود الله، حتى يشبَّ إلى الفِطام، وبعد فقده لأمه بإقامة الحد، لا يُترَكُ الولد للشوارع بل يُرَبَّى في بيوت المسلمين، فأطفالنا في الإسلام ليسوا مشردين، أطفال الإسلام كنوز مكنونة في حفظ وحماية ورعاية وحضانة وكفالة، فمن حرص النبي ﷺ على أن يشب الرضيع راضعًا من أمه متمتعًا بحضنها حتى تمام الرضاع، أنه لما جاءته المرأة الغامدية التي زنت، وأخبرته أنها حبلى من الزنا، قال لها: «ارجعي حتى تلدي»، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه»، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، قالت: هذا يا رسول الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها»، رحمة الله عليها ورضي عنها[1].

كل ذلك لأجل رعاية الرضيع، ليبقى عند أقرب الناس إليه نفسيًّا وأكثرهم حبًّا له وتحقيقًا لمصلحته واتصالًا برحمه، يرعاه، ويحنو عليه، وكل ذلك التفصيل في شريعتنا في بندٍ واحدٍ فقط يخص عنوانًا واحدًا فقط من احتياجات الطفل! ويندرج كله تحت مقاصد حفظ الصحة النفسية التي هي من حفظ النفس، أحد الضرورات الخمس.

ولمن أراد التوسع في الغوص في أحكام الحضانة المدهشة للتعرف على حجم عناية الشريعة بهذا الحق الأصيل للرضيع والطفل بشكل عام، يمكنه الرجوع لكتب الفقه وشروحه، لئلا نطيل عليكم.

---

(١) مسلم (١٦٩٥) القصة لها رواية أخرى تفيد برجم الأم قبل أن تفطم ابنها، حيث تم دفعه إلى غيرها من الصحابة ليكفله بحضانة ورضاع بدلا منها، وهي في صحيح مسلم أيضًا، وأخذ بها الإمام مالك لكن رواية رجمها بعد فطامه أخذ بها الإمام الشافعي والإمام أحمد وبعض أهل العلم، لأنهم قالوا إن الرواية الثانية لأنها تثبت حكما زائدا عن الرواية الأخرى ولأن فيها مراعاة لحق الطفل، فإذا روعي حقه وهو جنين، فيراعى كذلك وهو رضيع هذا من حيث المعنى بجانب أنها الرواية الأكثر في الرواة وهذا الكلام في هذا الهامش: من فم الشيخ منصور الصقعوب مباشرة التعريف بالشيخ الفاضل كاملا موجود على موقع مداد، وموقعه الرسمي.

خامسًا: حق الرضيع في الولاية الشخصية عليه (عناصر: الحماية، والتعليم، والتأديب)

هـي أحـد حقـوق الطفـل الكـبرى أيضًـا التـي يأثـم الأهـل بإهدارهـا، أشـرنا إليهـا كذلـك في تربيـة الوليـد، لكنهـا هنـاك تتمثـل في عنصـر الحمايـة، فـلا تأديـب بعـد للوليـد بالطبـع، ولا تعليـم لـه بعـد أيضًـا بالمعنـى الشـامل، أمـا هنـا مـع الرضيـع، فهـي تتمثـل في تلـك العناصـر الثلاثـة معًـا.

فما الولاية؟ وما الفرق بينها وبين الحضانة؟

هي تدبير الكبير الراشد لشئون القاصر الشخصية والمالية، وتختلف عن الحضانة التي ذكرنـا تعريفهـا منذ قليـل، فالولايـة تشـمل أمورًا أخـرى: كالحماية والحفـظ والتأديب والتهذيـب والتعليـم ورعايـة الصحـة والتطبيـب - أي الوقايـة والعـلاج - ورعايـة النمـو الجسـمي والتثقيـف والإشـراف على الـزواج حيـن يكـبر والإشـراف علـى الأمـوال حتـى يكـبر إلـخ، فـكأن الحضانـة نـوعٌ مـن (الولايـة الخاصـة) تحـت المظلـة الأكـبر (للولايـة الشـخصية) علـى الطفـل، لكننـا تناولنـا الحضانـة في نقطـة مسـتقلة لأنهـا حـق مسـتقل عـن الولايـة في الشـرع وفي الكـلام، ولاختـلاف الأحـكام والمُـدَد المتعلقـة بهـا، بجانـب تفردهـا بآثـار نفسـية مختلفـة عـن بقيـة أنـواع الولايـة، بالتالـي يدخـل ضمـن الولايـة: عناصـر مـن الحضانـة، لكـن الحضانـة مـن حـق الأم كمـا فصلنـا قبـل سـن التمييـز، أمـا الولايـة عمومًـا بنوعيهـا: فالمسـئول عنهـا هـو الأب، بخاصـة بعـد انتهـاء فـترة الحضانـة، فالولايـة مسـتمرة، بعكـس الرضـاع والحضانـة.

فمن القاصر في تعريف الشريعة؟

هـو مـن لـم يسـتكمل أهليـة الأداء في الحيـاة عمومًـا،(سـواءً كان فاقـدًا للأهليـة مـن الأصـل - مثـل الصبـي الأقـل مـن سـن التمييـز/ أو عنـده نقـص في الأهليـة - مثـل الصبـي المميـز، مـن ٧ سـنواتٍ تقريبًـا فمـا فـوق)، ثـم بعـد البلـوغ: فـإن مسـألة الولايـة لهـا شـأن

آخر تمامًا، نأخذها في كتاب مرحلة البلوغ بإذن الله سواءً بالنسبة للفتى أو بالنسبة للفتاة.

والولاية نوعان

۞ **هناك الولاية على النفس أو ولاية نفسية – شخصية:** أي: صلاحيات الإشراف على شئون الطفل الشخصية بشكل عام: الصيانة والحفظ والتأديب والتهذيب والحماية، ورعاية الصحة والعلاج ورعاية النمو الجسمي، والتعليم والتثقيف والإشراف على الزواج حين يكبر، وما إلى ذلك(١).

۞ **وهناك الولاية على المال أو الولاية المالية:** أي: صلاحيات الإشراف على شئون القاصر المالية من استثمار وتصرفات في المال بالبيع أو التأجير أو الرهن، وما إلى ذلك(٢).

بالتالي كل المذكور في فصول الحقوق والاحتياجات التحصينية، هو ضمن عنصر الحماية في الولاية الشخصية، وكم من آباء يفرطون في تحصين الأبناء من منافذ شياطين الإنس والجن.

شاعت الولاية بين الناس باسم «ولي الأمر»، وللأسف اختلط معناها عند كثيرين، وطغى العرف فيها على الشرع، ففي هذا الحق كلامٌ مهمٌ جدًّا يغفل عنه كثير من الآباء والأمهات على حد سواء ويؤدي لعواقب تربوية وخيمة، فبسبب اختلال الرؤية في هذه النقطة وتعطيلها لدى بعض المربين وخلافهم حول من هو الأحق بالولاية، حدثت مشاكل عميقة في هذا الجيل يصعُب علاج آثارها، سواء بسبب عدم معرفة الوالدين أصلًا أو أحدهما أن له ولاية على أولاده، أو عدم أهلية صاحب الولاية لها، سواء الشخصية أو المالية.

فالذي يهمنا هنا بشدة، هو معرفة وتحديد من صاحب الولاية في الأسرة، من

(١) الفقه الإسلامي وأدلته-د. وهبة الزحيلي.
(٢) الفقه الإسلامي وأدلته-د. وهبة الزحيلي

المسئول شرعًا أمام الله عن حماية وعلاج الوليد مثلًا وأن ينزل به في عتمات الليالي يبحث عن مَشفًى أو طبيب إذا لزم الأمر، أو يأتي للوليد بعلبة حليب لو كان يأكل حليبًا صناعيًّا وقد نفد فجأة، أو غير ذلك إلخ؟

من المسؤول عن تحصينه وحمايته من منافذ شياطين الإنس والجن بحول الله وقوته؟ من المتحمل لهذه المسئولية أصالةً، الأم أم الأب؟ الأب بالطبع.

نظرةٌ على الواقع وستجدون إجابة مختلفة لهذا السؤال للأسف، ولا يعني هذا أن تمتنع الأم عن أداء مثل تلك المهام، إنما نتكلم هنا عن تلك المسئولية، التي حين تم التنازع عليها تارة للتملص منها، وتارة أخرى للتعدي عليها واقتناصها بغير حق، ظهر كثير من الفساد والمشكلات في البيوت، بينما المسلم يعرف ما له وما عليه أولًا، قبل أن يسعى في الحياة بهواه لئلا يَظلِم أو يُظلم، أو يَضِل أو يُضِل.

فماذا لو أن الأب غائب؟ أو ليس ذا أهلية؟

تنتقل الولاية لمن يليه في مراتب الولاية وحسب تحقق شروط الولي، تمامًا كما في شروط الحضانة، فالأمر ليس فوضى هنا كذلك.

فما شروط الولي؟ وما الدور الذي يجب عليه القيام به؟ ولماذا عندما اختفى هذا الدور أصبح لدينا مشاكل في كل المراحل العمرية؟

«يشترط في الولي على النفس: البلوغ والعقل (التكليف) والقدرة على تربية الولد، والأمانة على أخلاقه، والإسلام، فلا ولاية لغير بالغ، ولا لغير عاقل، ولا لسفيه مبذر غير راشد؛ فهؤلاء في حاجة إلى من يتولى شئونهم، ولا ولاية لفاسق ماجن ساقط العدالة لا يبالي بما يفعل، لأنه يضر بأخلاق القاصر وبماله، ولا ولاية لمهمل للولد كأن يتركه مريضًا، دون أن يحاول علاجه مع قدرته عليه، أو كأن يحرمه التعليم - الشرعي والدنيوي - مع صلاحية الولد؛ فذلك ضار بمصلحة القاصر،

وتنتقل الولاية حينئذ إلى الأصلح وفق الترتيب المتقدم»[١].

«ويُكتَفى في تحقق العدالة بـ «ظاهر الإنسان» أي لا يكون مشتهرًا بالفسق والفجور مجاهرًا بالمنكرات، وإلا فمن منا لا يرتكب المعاصي؟ إنما المعنى هو أن يكون مستور الحال»[٢].

فحين نتأمل شروط الوليّ تلك، نوقن تمامًا كيف أن الولاية تعتبر من أهم لوازم حقوق واحتياجات الرضيع والطفل عمومًا النفسية والصحية والمالية والدينية بل والتحصينية كما أشرنا، فندرك سبب تناولنا إياها ضمن حقوق الرضيع الدينية سابقًا، ثم النفسية هنا، ثم المالية لاحقًا بسبب عنصر الولاية على المال، ثم الصحية في الختام بسبب عنصر التطبيب - العلاج الذي فيها- وفي محور الحقوق والاحتياجات اللغوية والمعرفية، سترون أهمية العناية بولاية التعليم ومتابعتها.

أي أننا بصدد جبل عملاق من الحقوق والاحتياجات!

ولأنها بهذه الأهمية للرضيع، قامت الشريعة بضمان توفرها حتى لولد الزنا والعياذ بالله، فلا ذنب له ليتحمل جريمة غيره، كما قلنا في حديث الغامدية في فقرات حق الرضاع، وكيف أن النبي ﷺ في نهاية القصة دفع بالصبي إلى أحد المسلمين ليقوم على رعايته وتربيته.

متى تبدأ الولاية على النفس ومتى تنتهي؟

اتفق الفُقهاء على أنها تبدأ من سن الولادة (مرحلة الوليد)، أي: من أول يوم واختلفوا في توقيت انتهائها بدءًا من البلوغ، لبدء اعتماد الطفل على نفسه وتمكُّنُه من كثير من أمور الحياة (عقلًا وفِعلًا) نوعًا ما، وفرَّقوا بين الولاية على الذكر والولاية على الأنثى، وخلاصة قولهم فيما يختص بمرحلة الطفولة، أن هذا الحق في الولاية

(١) الفقه الإسلامي وأدلته-د. وهبة الزحيلي.
(٢) مقرر فقه الأسرة/ فصل الولاية/ بالجامعة الإسلامية مشكاة.

والمسئولية لا ينتهي إلا بعد سنوات من الرعاية لا تقل بأية حال عن سن التمييز وتمتد إلى البلوغ كحد أدنى، «ويُجبَرُ الوَليُّ على أخذِ القاصرِ بعد انتهاء الحضانة؛ لأن الولايةَ على النفس حق من حقوق المولى عليه»[1].

وليس هذا فحسب، فنجد في الولاية الشخصية مراعاة المشاعر والميول النفسية وتطور الاحتياجات بتطور المراحل العمرية! نجده في شروط تحديد الولي في حال انفصال الأبوين.

حيث إنه مراعاةً للفروق بين الذكر والأنثى وأثر ذلك على النمو النفسي المتراكم، جُعِلَ توقيت انتهاء حضانة الصبي حين يبلغ سن التمييز، وحينها يختار بين أبويه إن أراد في حال طلاقهما، لاحتياجه لولاية أبيه حينئذ أكثر لينشأ منشأ الرجال، بينما توقيت انتهاء حضانة الأنثى تُرِك كما هو: عند البلوغ؛ لاستمرار احتياج الفتاة لتوجيهات الأم حتى بلوغ هذه المرحلة، ثم لاحتياجها بعدها لولاية الأب من حيث الصيانة والحماية عمن يطمعون بها إذ بلغت، وهذا يدخل ضمن مقومات التربية الجنسية الشرعية للذكر والأنثى[2].

فأيُّ مراعاةٍ وعنايةٍ للصحة النفسية للطفل وللفروق الفردية الدقيقة أعظم من هذا؟

تفاصيل كثيرة، هي نقطة في بحر من مدهشات تلك المسألة، وبَسطُها بوفرة يكون في كتاب المراحل العمرية المتقدمة بإذن الله لمناسبتها هناك أكثر، إنما أردت فقط أن أبين مدى امتداد أثر الولاية وأركانها على مر المراحل العمرية في مختلف مستويات البناء والتربية، وحجم المسئولية التي جهلها وتهاون بها كثير من الآباء المسلمين، منذ أول مراحل الطفل.

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته-د. وهبة الزحيلي.
(٢) باختصار وتبسيط من كتاب الفقه الإسلامي وأدلته للد. وهبة الزحيلي.

نقطة هامة قبل أن نغلق ملف الولاية

قلنا أكثر من مرة كلمة «تأديب»، وذكرناها في المحور الديني كذلك، فهل للرضيع تأديب؟ بالطبع! وهل يُعقَل أن يُترَك بلا تأديب، فينشأ ويترعرع كالسوائم والعياذ بالله؟ لكن ربما القارئ بمجرد ذكر كلمة «تأديب»، تقفز في مُخَيِّلَتِه صورة المربي ممسكًا بعصا ومُكَبِّلا الرضيع في كرسي بحجرة معزولة بالبيت، ويُزَمجِر كوَحش الأساطير وقد طفِقَ بالرضيعِ مسحًا بالسوقِ والأعناق!، وهذه صورة مغلوطة عن التأديب بلا شك، لأي مرحلة عمرية بالمناسبة!

التأديب بشكل مجتمعي عام بعيدًا عن دائرة الأسرة الخاصة:

مراتب، ودرجات، وصور، وأنواع، وأدوات.

- **مراتبه**: هناك تأديب بإشارة صامتة، وهناك تلميح، وهناك تصريح.
- **درجاته**: هناك تأديب برفق، وهناك تأديب وسط: أعلى من الرفق وأدنى من الشدة، وهناك تأديب بشدة.
- **أنواعه**: مباح، وواجب، ومستحب، ومحرم، ومكروه.
- **أدواته وصوره**: (سواء المباح منها أو غير المباح):

النهي المباشر عن الفعل وبيان أنه خطأ بهدوء وبساطة أو الصمت استنكارًا مع تغير ملامح الوجه، أو نظرة العين الحادة، أو التحديق بالعينين على اتساعهما مع زم الشفتين، أو العتاب، أو اللوم، أو الغضب، أو الصوت العالي، أو السب، أو الدعاء على الشخص، أو الصفع، أو الضرب البدني بالشروط والضوابط، أو الضرب البدني المحرم، أو التهديد، أو الهجر، أو النبذ، أو الحرمان من امتيازات، أو تسطيح العلاقة، أو التبكيت، أو الفضح، أو إقامة الحدود، أو التقييد والحصار أو الشماتة، أو الإهانة، أو

السخرية، أو مقابلة الأذى بأذى، أو الزجر، أو المنع الإجباري عن الخطأ، أو التوبيخ، أو التعنيف، أو التجاهل إلخ.

كلها تحقق الغرض من تأديب وردع الشخص عادةً، لكن ليست كلها مباحة شرعًا كما رأيتم، وليس كل المباح شرعًا منها مباحًا مع الأبناء، وليس كل المباح شرعًا منها مع الأبناء مباحًا مع كل المراحل العمرية، وليس كل المباح منها في مراحل بعينها، يظل مباحًا طوال الوقت!!

فمثلًا: يجوز أن أؤدب أحد الناس بالدعاء عليه، أو بسبه إذا سبني أولًا، لكن لا يجوز ذلك مع أي من الأبناء، هذا فيه نهي وتحذير شرعيٌ واضح، كذلك لا يجوز تأديب أي أحد - صغير أو كبير - بالصفع على الوجه، ولا يجوز استعمال الضرب التأديبي مع الأبناء - حتى لو بضوابطه الشرعية وشروطه - إذا ثَبَتَ أنه غير ذي جدوى أو أن الطفل لا يعقِله بعد، فهذا شرط من الشروط إذا فُقِد يمتنع الضرب، وهكذا كل وسائل التأديب، فالمسألة دقيقة وفيها تفصيل بحسب المواقف والمراحل والمحيط الاجتماعي، ولا يتسع المقام للسرد هنا، نُفصلها بإذن الله في كتاب «قواعد وأدوات التربية من الوحيين» بإذن الله.

إنما الذي يعنينا الآن هو إثبات أن الصبي غير المميز بعد له تأديب في الشريعة قطعًا، بما يفهمه ويعقله وينفعه ولا يضره، لأجل كفه ومنعه عن الفعل الخطأ أو المؤذي لنفسه أو لغيره، إن لم يمتنع بالحُسنى واللين وسائر الوسائل التربوية الأخرى الأنسب مع تلك المرحلة، كما سنرى في فصل حلول المشكلات.

فما صور تأديب الرضيع مثلًا؟

يمكن بالنظرة الزاجرة الصامتة، أو بالنهي المباشر عن الخطأ بهدوء وبساطة - اضطررت للتأكيد عليها رغم بداهتها لأن كما قلنا سابقًا بعضُ التربويين يقولون أن الطفل لا يفهم كلمة لا! - أو بالعتاب اللفظي الذي يستوعبه نموه اللغوي، أو بالمنع

الفعلي الإجباري من الخطأ عن طريق إمساك اليد لو كان الخطأ هو أنه يصفعنا على وجوهنا مثلًا، أو يسكب كوب العصير علينا ونحو ذلك، أو بتقييده في كرسيِّهِ أو عربة الأطفال بحزامِ الأمان لمنعه وحجزه عن الخطأ أو الخطر الذي يصر عليه مادام مَطلُوقًا ولا يرتدع عن الاقتراب منه في حال أني في مكان لا أملك فيه غير ذلك مثلًا، أو بالزجر الحازم بقوة عن الخطأ مادام الطفل يستوعب ويعقل، فما سردناه في سمات المرحلة يؤكد أن الطفل في هذا التوقيت يكون قد استوعب أمورًا إدراكية وحسية منطقية معينة متصلة بفهم بعض القوانين كالسبب والنتيجة والفعل وردة الفعل، فبحسب الفروق الفردية وحجم النمو الإدراكي واللغوي والنفسي للطفل، نعلم أي وسيلة هي الأنسب له، فكل أم أدرَى.

ولكن بشكل عام: لا يجوز استعمال أي وسيلة تأديبية تفوق قدر الحاجة، أو تضر الطفل ولا تنفعه، أو يكون لا يعقِلُها بعد، فلا نحن نترك الطفل يمارس سمات مرحلته دون حدود بزعم أن هذا من ضرورات الصحة النفسية، وفي نفس الوقت نربي ونؤدب بالحكمة التي هي وضع الشيء في موضِعه، وبالرفق الذي ما كان في شيء إلا زانه، وكلُ مُرَبٍّ عليه من الله رقيبٌ يسمعُ ويرى.

أما من يُحَرِّمون أي من وسائل التأديب أو الترهيب مع الطفل غير المميز بزعم أنه لا يفرق بين الخير والشر بشكل كامل بعد، ويكتفون فقط بما يُسَمُّونه «الحَزم»، والذي لا يُسمن ولا يُغني من جوع، فقد ظلموا أنفسهم ورعيتهم من حيث لا يشعرون وبما يخالف التربية الإسلامية بل ويخالف العُرف التربوي الإنساني المشترك، تلك قاعدة فطرية بالأساس لا يجادل فيها عاقل، ناهيك عن أن يكون مُسلمًا، وهو ما عبر عنه الدكتور الفاضل عبد الرحمن الهاشمي في دوراته التربوية بما يلي:

«دين سكر خفيف قليل التكليف كثير الطبطبة أخرجَ جيلًا هشًّا فإن ما يُوجِعُني قد يُقَوِّيني وهذا في تربية الأبناء أيضًا»[1].

(١) الكلام هنا منقول نصا من رسالة لأخت اسمها حلا شهاب، نشرها الدكتور الهاشمي في قناته على تليجرام، ضمن رسائل المتابعين عما تعلموه من دورات مركز «مكاني» و «فقه النفس».

وهو ما عبر عنه أيضًا الشاعر أحمد شوقي بمقطوعته الطفولية البهية:

بينَ الحديقةِ والنَّهَـرْ وجمالِ ألـوانِ الزّهَـرْ
سارَت مها مسرورةً مع والدٍ حانٍ أَبَـرّ
فـرأَت هنالـك نخلـةً معوجَّـةً بيـن الشَّـجَرْ
فتناولَـت حبلًا وقالَـت: يا أبي هيَّا انتظِـرْ
حتَّى نقـوِّمَ عودَهـا لتكـونَ أجملَ في النَّظَرْ
فأجابَ والدُهـا: لقـد كـبرَت وطالَ بها العُمُرْ
ومن العسيرِ صلاحُها فـاتَ الأوانُ ولا مَفَـرّ
قد ينفعُ الإصلاحُ والتَّـهذيبُ في عهدِ الصِّغَرْ
والنَّشءُ إن أهملتَـه طفـلاً تعثَّـرَ في الكِبَـرْ



ولنا وقفات مع نماذج للتأديب، في صفحات مشكلات الرضيع، مع الأخذ في الاعتبار أن التربية كلها سواء جانب الغرس فيها أو التأديب، لها قواعد وممنوعات يجب مراعاتها قبل التطبيق، في مختلف المراحل العمرية؛ وتفصيل ذلك بإذن الله في كتاب «قواعد وأدوات التربية من الوحيين».

سادسًا: حق الرضيع في الرضاع

من الحقوق الكبرى كما ذكرنا من قبل، والتي يأثم الأهل بتركها أو إهمالها، لاحتوائها على جوانب عدة من الاحتياجات الأساسية للطفل في تلك المرحلة، لذلك كم كنت مُحتارة بشدة في أي محور احتياجات أضعُ الرضاع، مَصنعُ الخيراتِ الثمينِ ذا! أأضعُه في محور الاحتياجات الصحية لأن الرضاعة غذاء؟ أم أضعه في المحور النفسي

لأنها منجم تراحُم وتواصل نفسي تنقصف الأقلام في وصفه؟ أم أضعه في الاحتياجات المالية لضرورة النفقة على الأم لتتغذى؟ أم أضعه في الاجتماعية لمساهمة الرضاعةِ في نمو التوافق الاجتماعي الصحي الضروري بين الطفل وأمه، والذي هو نواة أولى رئيسية وتأسيسية لتوافُقِه الاجتماعي العام؟

ثم أنهيتُ حيرتي فوضعتُه في محورين فقط: **النفسي** و**الصحي** لئلَّا أشتتكم معي، وإن كنتم ستجدون الرضاعة حاضرة معنا دومًا في غيرهما ولو بين السطور.

وكيف لا تكون الرضاعة من الاحتياجات النفسية الأصيلة للطفل، وهي أحد أكبر مُشبعاتِها لما فيها من احتضان وتلامس وحمل برفق وضم بحنان إلى آخر عناصر التعبير عن المحبة والعطف والاهتمام الحسي، والتي تشبه كثيرًا الأجواء المحببة للطفل حين كان في بطن أمه وتشعره بالأنس والدفء والأمان والشبع النفسي، بجانب تحقيقها للعُنصر الغذائي والمناعي الحيوي جدًا للطفل.

قال ﷻ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، فالوالدات هي الأم، وعليها الرضاعة، والمولود له هو الأب، وعليه النفقة لدعم تلك الرضاعة (وغير الرضاعة بالطبع).

يقول د/ وهبة الزحيلي: «اتفق فقهاء الإسلام على أن الرضاع واجب على الأم (ديانةً)، تُسأل عنه أمام الله ﷻ حفاظًا على حياة الولد، سواء أكانت متزوجة بوالد الرضيع أم مُطلَّقة منه وانتهت عدتها، واختلفوا في وجوبه عليها (قضاءً)، أي: هل يستطيع القاضي إجبارها عليه أم لا؟».

ومنشأ الخلاف بين الفقهاء فيما يخص إجبار الأم هو: خلافهم حول فهم المراد من قوله ﷻ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، إلى

قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٣].

يكمل الزحيلي كلامه فيقول: «ويُفهَم منه أن الفقهاء اتفقوا على وجوب الإرضاع على الأُم في ثلاث حالات»(١)، وتأملوا الشروط التي سنذكرها لتدركوا مدى حرص الشريعة على هذا الحق الأصيل للطفل وعنايتها بتوفيره:

الشرط الأول: «ألا يقبل الطفل الرضاعة إلا من أُمه، فيجب عندئذٍ إرضاعه إنقاذًا للولد من الهلاك، كذلك لو أتينا بمرضعة – مستأجرة - وانتهت مدة إجارتها ولَم يقبل الطفل إلا الرضاعة منها: تُجبَر المُرضعة على استدامة الإجارة»، أي نؤجِّرها بعدما تنتهي مدتها (جَبرًا)، حفظًا لحياة الرضيع سبحان الله! حتى المرضعة التي يحتاجها الطفل هناك نوع من الإجبار لها أن تستمر في إرضاعه لو الطفل لا يقبل الرضاع إلا منها.

الشرط الثاني: «ألا توجد مرضعة أُخرى سوى الأم»، فيَلزم حينها الأُمَ إرضاعُه حفظًا لحياته.

الشرط الثالث: «إذا كان الأب غير موجود أو لم يكن لديه مال ولا لدى الولد مال خاص به»، لماذا هذا الشرط؟ لأن النفقة مختصة بالأب، فهو من ينفق على الأُم ويطعمها وهو من يستأجر مرضعة ونحو ذلك.

فيجب حينئذ في الحالات الثلاث، إجبار الأم على إرضاع الوليد لئلَّا يموت.

فيما عدا تلك الشروط: ماذا لو امتنعت الأم عن إرضاع طفلها؟

وقد يتعجب القارئ من السؤال ابتداءًا، فلعله لا يعلم أن بعض الأمهات تحرم رضيعها من حقه في الرضاع بسبب تعارضه مع «طموحاتها الأخرى» في الحياة بعيدًا عن «طموحات الأمومة» المتواضعة في نظرها، ومنهن من تمتنع عن الرضاعة لمجرد

(١) الفقه الإسلامي وأدلته-د. وهبة الزحيلي. بتصرف واختصار.

تأففها واشمئزازها من الفكرة، عن نفسي كنت أعرف أمهات يسخرن منها قائلات: (هل أنا بقرة؟!)، سبحان الله! أليس التزاوج والأكل والشرب يا أمة الله قد جعله الله بين الحيوانات حتى البقر؟ فهل هذا يجعلنا جميعا كالبقر؟ بل أليست الولادة الطبيعية جعلها الله أيضًا لدى أنواع من الحيوانات، فهل هذا يجعل الأمَ كالحيوان؟ كذلك الرضاعة جعلها الله في كثير من إناث المخلوقات، وليست في البقرة فحسب! فمم نشعر بالمعرة سبحان الله في حين أن الإنسان لا ينبغي له أن يشعر بالعار إلا مما فرط فيه من حقوق فقط؟ فليت من يَسخرون من الرضاعة ويَصِمُونَها بذلك، يتعلمون من الأنعام وغيرها عدم التفريط في حقوق الأبناء.

قال ﷺ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ، فَأَخَذَا بِضَبْعَيَّ، فَإِذَا أَنَا بِنِسَاءٍ تَنْهَشُ ثُدِيَّهُنَّ الْحَيَّاتُ، قُلْتُ: مَا بَالُ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ»[1]، والحديث ليس على إطلاقه، ولكن يُحمَل على الحالة التي يتضرر فيها الطفل بحرمانه من لبن الرضاع، أما إذا لم يتضرر بذلك - إما بوجود مرضع له، أو باكتفائه بالحليب الصناعي دون أن يتضرر به - فلا حرج.

وعدم التضرر هذا يُحدده الأطباء لا قناعاتٌ شخصيةٌ، فما نريد الإشارة إليه هو أن هناك أمهات توقف لبن الرضاع تمامًا عن الطفل بعد شهره السادس أو التاسع مثلًا من تلقاء نفسها وتكتفي بالطعام، وهناك من تكتفي باللبن الصناعي بديلًا عن اللبن الطبيعي من تلقاء نفسها أيضًا، دون استشارة طبيب ولا التشاور مع زوج لتحديد ما إذا كان هذا يضره أم لا، وكل هذا من الاستهانة بحق الطفل النفسي والصحي والغذائي، في الرضاعة، ولا ننسى: وجوب حق الرضاع على الأم (ديانةً)، فهي أمانة ورزق تُسأل عنه بين يدي الحسيب الرقيب يوم القيامة، وإن فلتت من سؤال قضاة الدنيا.

فلا يُفطم الطفل قبل السنتين إلا بالتراضي والتشاور بين الأبوين، لقوله ﷻ: ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣]، فلا

---

(١) صححه الألباني-صحيح الترغيب (٢٣٩٣) | وصححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٧٤٩١).

يحق لأحد الأبوين أن ينفرد بقرار فطم الولد! فقضية فطم الولد المتعلقة بتغذيته بدنيًّا ونفسيًّا ليست أمرًا هينًا، فلا الأب حرٌّ فيها، ولا الأمُّ، بل لا بد من قرار مشترك مبني على دراسة أمينة لمصلحة الولد، وربما يحتاجان إلى التشاور مع مختصين، كل ذلك احتياطٌ لسلامة ومصلحة الطفل جاءت به أحكم شريعة وقانون لحقوق الطفل.

«فإذا امتنعت الأم عن الإرضاع بما لا يخالف هذه الشروط وجب على الأب أن يستأجر مرضعة وتسمى في الشريعة ظِئر»، يعني يستأجر ظئرًا لإرضاع الطفل محافظةً على حياته»[١]. هل هذا فحسب؟ بل تأملوا الآتي: «وعلى الظئر المستأجرة أن ترضعه عند أمه»[٢]، فهذا هو «حق الحضانة» مجددًا، لا يَسقُط بسبب تعذَّر حصول الطفل على حق الرضاع من أمه سبحان الله.

فيمكن أن تتحقق الحضانة بدون تحقق الرضاع، فالظِئر أو المرضعة المستأجرة تُرضع الطفل عند أمه لأن الحضانة حق للأم والطفل معًا ولازال قائمًا لم ترفضه الأم، فلو عاقب الأبُ الأمَ بحرمانها من الحضانة لرفضِها الإرضاع، فهو في الحقيقة يعاقِبُ طفله الذي لا ذنب له.

كذلك: «إن لم يستأجر الأب مرضعة كان للأم أن تطالبه بقضاءِ ما عليه من نفقة أو أجرة للرضاع لتستأجر هي من ترضعه»[٣].

ولا يجوز للأم أن تعضِل الأب بأجرٍ كبيرٍ للرضاع، ولا أن تلزمه بأجرة أكثر من الأجرة المعهودة فلا «تبتزه» لتُرضع ولدَها - سواء كان الأب موسرًا أو معسرًا - رفقًا بالأب كذلك ودفعًا للضرر عنه هو أيضًا كما في بقية الآية: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، كل تلك الإجراءات لتيسير وصول هذا الحق الضروري للطفل دون معوقات أو عقبات، لشدة ارتباطه بتربيته السوية.

---

(١) أدلة الفقه الإسلامي-د. وهبة الزحيلي.
(٢) أدلة الفقه الإسلامي-د. وهبة الزحيلي.
(٣) أدلة الفقه الإسلامي-د. وهبة الزحيلي.

كذلك: «منع الأم من إرضاع ابنها إضرارٌ بها وبالرضيع، ولا يجوز لقول الله ﷻ: ﴿وَلاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ وقال ﷻ بالآية نفسها: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣]»[(١)]، فنصّ على أن التي ولدت هي الأحق برضاع ولدها في الحولين بالكامل.

ويقال للأم حينئذ:

- إما أن ترضعيه متبرعةً بدون أجرة - هذا في حالة الطلاق.
- أو ترضعيه بمثل الأجرة التي تطالبين بها غيرك من المرضعات.
- وإما أن تسلميه لمرضعة أخرى.

فتم تقديم الأم في الاختيار لأن إرضاعَها للطفل ليس حقًا لها هي فقط، بل حق للرضيع أيضًا.

قال الإمام ابن حزم: «الواجب على كل والدة أن ترضِعَ ولدَها، أحبت أم كرهت، ولو أنها بنت خليفة، وتُجبَرُ على ذلك؛ إلا أن تكون مطلقة فلا تُجبَر إلا أن تشاء هي ذلك، فلها ذلك سواء أحب أبوه أم كره»[(٢)].

تأملتم حجم اهتمام الشريعة بإرساء قواعد وضوابط ضمان وصول هذا الحق للرضيع كي لا يُترك لنزاعات وأهواء قد لا ترحم ضعفه؟

أيضًا من جملة عناية الشريعة بالرضاع، الرخص:

فمثلما يسرت على الحامل بالرخص حين كانت تحمل الطفل في بطنها جنينًا، يسرت على المرضع بالرخص في الصوم لتتغذى جيدًا لأجل رضيعها، وكذلك مراعاة للحالة النفسية والجسدية للمرضع حفظًا لحقوقها والعناية بها هي أيضًا، قال ﷺ:

---

(١) أدلة الفقه الإسلامي-د. وهبة الزحيلي.
(٢) المُحَلَّى لابن حَزم: ١٠/ ٣٣٥-نقلا عن مقرر فقه الأسرة/ فصول حقوق الأولاد/ بالجامعة الإسلامية مشكاة.

«إن الله وضع عن المسافر شطر الصلاة، وعن المسافر والحامل و(المُرضِع) الصوم أو الصيام»، وفي هذا تحقيق لمقاصد حفظ النفس؛ فصيام المرضع أحيانًا قد يؤثر على تغذية وصحة الطفل ونوعية العناصر الغذائية الكاملة والكميات المشبعة من الرضاعة.

كذلك، اتخاذ الطفل كوسيلة للثأر في النزاعات ممنوع:

فدققت الشريعة أيضًا في الأمور التي قد تنجم عن النزاع والشقاق بين الوالدين بما يضر بمصلحة الرضيع، ويؤكد ذلكَ نفسُ الآية المذكورة آنفًا: ﴿لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، فلا هي تَحرم رضيعها من الرضاعة لأجل الإضرار بطليقها أو أي سبب آخر غير معتبرٍ شرعًا، ولا الرضيع يُنتزع منها من قِبَل الزوج للإضرار بها في حالة الطلاق، فإذا استحكم الشقاق بينهما بما يعطِّل الرضاع فلتُرضِعه غيرُها كما قلنا، فللطفل حق الرضاع الطبيعي مهما حدث، قال ﷻ: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق:٦]، أي: فإذا بدا منكما الشُحُّ في الإرضاع بأن امتنع الأب من الأجرة التي تريدها الأم للإرضاع، وامتنعت الأم من الإرضاع لعدم رضائها بالأجرة، يستأجر الأب مرضعة تُرضع الطفل، فهو لا ذنب له: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرِ﴾ [فاطر:١٨].

أيضا تقديم الشريعة (زمنيًّا) لحق الطفل في الرضاع، على تفعيل الحدود:

فكما قلنا في المرحلة الجنينية أن من حفظ نفس الجنين: تقديم حياته على تطبيق الحدود لو أمه زنت والعياذ بالله، فكذلك هنا من حفظ نفس الرضيع: تقديم حقه في الرضاع على الرجم، مثلما قدّم حقه في الحضانة من قبل؛ لنفس الحديث المذكور سابقًا عن قصة الغامدية التي زنت.

فلما كانت حُبلَى قال: «ارجعي حتى تلدي» وهذا لحق الجنين في الحياة.

ثم حين ولدت قال: «ارجعي فأرضعيه حتى تفطميه» وهذا لحق الرضيع في الرضاع والحضانة.

ثم تأملوا نهاية القصة مجددًا: «فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها»(١).

أي أنه قبل إقامة الحد عليها، تم الاطمئنان على عدة أمور:

- أن الطفل لن يرَ رجمَ أمِه حتى الموت بعينيه.
- أن حضانتَه انتقلت لغيرها فلن يُترَكَ هكذا للشوارع مشردًا.
- أن أمه ترَى قبل موتها ما يُطمئِنُها على معاشِه من بعدها.

أي دستور لحقوق الطفل هذا؟!!

ومن جملة القصص المدهشة التي تبين لنا عظمة هذا الحق للطفل في الإسلام:

١. إبراهيم ابن النبي ﷺ من ماريا الذي توفي وهو في سن الرضاع قبل إكمال رضاعه، سخَّر الله له مرضعتين تتمان رضاعه في الجنة! وهنا: الصمتُ في حرمِ الجمالِ جمالٌ! وكأن جنةَ الرضيع يزداد نعيمُها بتمامِ رضاعه.

قال ﷺ: «إن إبراهيم ابني وإنه مات في الثدي - أي في سن الرضاع من لبن الأم - وإن له لظئرين - أي مرضعتين بدلًا من واحدة في الدنيا - تكملان رضاعَه في الجنة»(٢)، أي تُتِمّان مدة الرضاع تامَّةِ الخيرات، وهي الحولان كاملان، وكان قد توفي إبراهيم وله ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا (تقريبًا سنة ونصف)، وقيل توفي وهو سبعون يوما (تقريبًا شهرين و١٠ أيام).

٢. بل يُروَى أن الفاروق حين كان خليفة، جعلَ تركَ الأُم لرضيعها يبكي وهو يريد لبنها، ما يشبه القتل! كان سيدنا عُمر في خلافته لا يفرض لمولود علاوة - أي:

(١) مسلم (١٦٩٥).
(٢) مسلم (١٦٩٥).

زيادة من بيت المال - حتى يُفطم، ثم تراجع عن ذلك القرار وفرض لكل مولود من حين ولادته عطية مالية من بيت مال المسلمين، لسبب بسيط جدًا رآه الفاروقُ سببًا خطيرًا جدًا! فما هو؟

ذات ليلة سمع بكاء رضيع - ربما سمعه من خلف دار أو نافذة معينة وهو يسير في الطرقات يتفقد الرعية كعادته - فقال لأمه: «أرضعيه»، فرَدّتْ وهي لا تعرف من يكلمها: «إن أمير المؤمنين لا يفرض لمولود حتى يُفطَم وإني فطمته»، أي أنها لن تطعمه لبنها بعد اليوم حتى تأخذ العطية من بيت المال! فقال سيدنا عُمر لنفسه: «إن كدتُ لِأن أقتلَه!»، وقال لها: «أرضعيه فإن أمير المؤمنين سوف يَفرِضُ له»، ثم فرضها بالفعل للمولود حين يولد، لئلا تفطم الأم أولادَها لأجل المال، رحم الله عمرًا، كان أرحم بالولد من بعض الأمهات سلفا وخلفًا![1].

رأيتم قدر الرضاع في الإسلام؟ وكيف أحاطه بمنظومة قوانين تفصيلية تدعم وصوله؟ ثم نجد أمهات بعدها تستهين وتقول: (أنا لست بقرة)؟ أعزكم الله وأعاذكم.

ولدينا أمثلة معاصرة تقاس على كل ما سبق:

- لو سُجِنت الأم أو اضطرت للعمل أو السفر رغمًا عنها بشكل اضطراري، لا ينبغي حينئذ حرمان الطفل من الرضاع بل تُمَكَّنُ الأُم من إرضاعه، فإن تعسّر فيُعطَي رضاع آخر من غيرها، طبيعيًّا لا صناعيًّا، أكررها كثيرًا نظرًا لشيوع استبدال الحليب الصناعي بالحليب الطبيعي للأسف، وسنتناول في «مشكلات الرضيع» طرق عبور «تحدي الرضاعة» بنجاح بإذن الله.

وفي ختام تلك المسألة

نشير إلى أنه ينبغي تعلم أحكام الرضاع المُعتَبر في «التحريم من الرضاع» في حالة

---

(١) القصة منقولة من موقع «رسول الله»، مقالة بعنوان: الرضاعة إلى الحولين والفطام، تحت قسم: مَنْهَجُ التربية النبوية للطفل- الشيخ محمد نور بن عبد الحفيظ سويد.

أن الوالد استجلب مرضعة، لأن هذا أمر متعلق بحقوق الطفل الاجتماعية والمالية وواجباته الشرعية حين يكبر، فالأمر في الإسلام محكوم بضوابط ورقابة ووعي، وليس كما هو شائع في الدول الغربية فيما يسمى بـ (بنك الحليب)، حيث تقوم الأمهات المرضعات بإفراغ ألبانهن في قوارير أو أكياس ثم بيعها لمؤسسة تحفظه في ثلاجات، يشتري منه من أراد! ولا يخفى على أحد ما في ذلك مِن اختلاط الحابل بالنابل وزواجٍ بالمحارم، يُضاف إلى اختلاط الأنساب الذي تغرق فيه مجتمعاتهم بسبب الزنا والعياذ بالله، منكرات بعضها فوق بعض، عافانا الله من حالهم وهداهم إلى نور الحق الذي وهبنا الله إياه، قال ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ ما يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»[1].

هل نفضنا أيدينا من مدهشات فقه الرضاع في الإسلام وبيان حجم دعمه لهذا الحق؟ لا والله.

تبقت معنا لؤلؤة مدهشة متصلة بالنقطة الأخيرة التي ذكرناها، تستحق أن تكون مِسكَ الخِتامِ مؤقتًا: «انفردت الشريعة الإسلامية – من بين الشرائع السماوية القائمة الآن – بجعل الرضاع سببًا من أسباب التحريم، فجعلت المُرضِع تكتسب **الأمومة** من حيث أنها تغذي الطفل بجزء من جسمها، فتدخل أجزاؤها في تكونيه وتكون جزءًا منه وتنشِزُ عِظامَه، فصارت في هذا كـ (**أمه**) التي ولدته، وصار أولادها إخوةً له، لأن تكوينَ أبدانِهم مِن أصلٍ واحد: حليب تلك الأم، وفي ذلك حَثٌّ للمُرضِعات على الإقبالِ على رضاعِ الصغار من غير أولادِهن دون تحرج أو إحجام، لإنقاذ حياةِ الأطفال، فحين تجد المُرضِعةُ من **الإجلال** و**التكريم** لمكانتها ما يكون للأمِ نفسَها، حينئذ تُقبِلُ على الرضاعة دون غضاضة»[2].

سابعًا: حق الرضيع في أن نضع أنفسنا مكانه أحيانًا

تأملوا معي قول النبي ﷺ: «اعدِلوا بين أولادكم في النِّحَلِ – العطايا والهِبات –

(١) البخاري (٢٦٤٥).
(٢) مستفاد من مقرر فقه الأسرة/ فصل الرضاع/ بالجامعة الإسلامية مشكاة، بتصرف واختصار وإعادة صياغة قليلًا.

(كما) تُحبّون أن يعدِلوا بينكم في البِرِّ واللُّطفِ»[1].

فبجانب النص العام الذي أرشدنا فيه ﷺ إلى قاعدة عامة في العدل والمعاملات، والذي جاء فيه «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»؛ يؤكد عليها ﷺ مع الأبناء بشكلٍ خاص بهذا الحديث، وكأنه يعطي **معيارًا** شديد الوضوح لهذا الأمر يُسهِّل علينا قياسَ غيرِه عليه، فتخيلي معي مثلًا أن ولدك يدخل يوميًّا ليحتضن أباه ويتجاهلك، أو يستقبله بفرحة عارمة بينما حين تدخلين البيت لا يكاد ينتبه لذلك، أو يضع لقمة من طعامه بأنامله الدقيقة في فم والده ولا يُعطِيكِ مثلَها، فبماذا ستشعرين؟

وكذلك النبي ﷺ يريد منكِ أن تستشعري هذا الشعور وأنتِ تقررين أنك بالتأكيد تريدين وتحبين من ولدكِ أن يعدلَ بينكِ وبين والدِه، ليحثَكِ ﷺ أن تعدلي بالمثل معه في البر واللطف وما إلى ذلك.

فهذا الحديث يعلمنا بكل وضوح أن من احتياجات الطفل النفسية، أن نضع أنفسنا أحيانًا مكانهم شعوريًّا لنتأمل ونتوقع كيف ستنفعل قلوبهم لأفعال ما، لكي نتفادى ما يؤذيهم من ذلك مما لا يتنافى بالتأكيد مع الشرع أو التربية في شيء، فلا يزعم أحدٌ أن هذا الحديث مُسَوِّغٌ وذريعةٌ لتعميم الندية الكاملة بيننا وبينهم والمساواة في كل شيء، أو حتى ترك تأديبهم.

ما يؤلمني الآن في الحقيقة، هو أن بعض المنتسبين للإسلام العاملين في التربية، يزعمون أن الغرب هم من علمونا ذلك الجانب النفسي، فاللهم صلِّ وسلِّم على المربي الأول والأعظم الذي قلتَ عنه: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]**، واعف اللهم عن إخوتِنا ممن لم يعرفوا قدر ما تحمله السنة من كنوزه التربوية التي تفوق أضعاف الخيرات التي يزعم بعضُهم أنها تنزل علينا من سحاب الغرب المركوم، فمالوا إليه وقالوا هذا عارِضٌ مُمطِرُنا، بينما تحت أقدامِهم جناتٌ تجري من تحتها

(١) صححه الألباني-صحيح الجامع (١٠٤٦) | صححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٥١٤٠).

أنهار الوحيين، وما العارِضُ إلا ريحٌ فيها عذابٌ أليم، تدمر الفطرة، وتُخَرِّب الأسرة.

ثامنًا: الحاجة للعدل بينهم في مظاهر الاهتمام الأسري والعطايا ونحوها، قدر ما يناسب المصلحة

دلنا على ذلك نصوص نبوية عامة:

- «اعدلوا بينَ أولادكم، اعدلوا بينَ أولادكم، اعْدِلوا بينَ أولادكم»[1].
- «فاتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم»[2].

ثم تفاصيل خاصة:

دقيقة ولطيفة جدًّا تبرز أكثر وأكثر أن ديننا هو الدين الوحيد بحق الذي ينبغي تلقيبه بـ «**دين الإنسانية**»، من زاوية أنه الأعرف بمصالحها، لا من زاوية أنها إلهٌ يُعبَد من دون الله والعياذ بالله.

أي: دين الإنسانية بحق، لا كما يزعم الذين شوهوا هذا المصطلح للأسف ونسبوا إليه أهواء بشرية بهيمية أنانية لا علاقة لها بالإنسانية إلا من جهة بعض الغرائز فقط!

١- العدل بينهم في إعطاء الألقاب اللطيفة: «ريحانتاي»:

حديث الريحانتين: عن الحسن والحسين: «قالَ النبي ﷺ: هُما رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا!»[3].

٢- العدل بينهم في الحمل:

والأحاديث المذكورة سابقًا في ذلك كثيرة، نقتبس واحدًا منها فقط مُختصرًا يناسب المقام

(١) صححه الألباني-صحيح أبي داود (٣٥٤٤).
(٢) البخاري (٢٥٨٧).
(٣) البخاري (٣٧٥٣).

قول أبي هريرة: «خرَجَ علينا النبي ﷺ ومعه حَسَنٌ وحُسَينٌ، هذا على عاتِقِه، وهذا على عاتِقِه»[1].

٣- العدل بينهم في التقبيل:

الحديث السابق، جاء في بقيته: «وهو يَلثِمُ هذا مَرَّةً، وهذا مَرَّةً، حتى انتَهَى إلينا»[2]، وفيها أيضًا تتابُع تقبيل الصغار دفعةً واحدةً كما نفعل أحيانًا سبحان الله.

٤- العدل بينهم في الإجلاس في حجرنا:

قول أبي هريرة في حديث سابق عن الحسن والحسين: «فلمَّا صلى وضعَهُما على فخذيْهِ واحِدًا هَهُنا، ووَاحِدًا هَهُنا»[3].

وننوه هنا مجددًا ، إلى أنه أحيانًا قد يحصل أحد الأبناء على معاملة إضافية خاصة فيها بَذْلٌ له من الوالدين أكثر من إخوته، لظروف تخصه تستدعي هذا، فوجب توضيح الأمر للأولاد لئلا تُوغَر الصدور، فالأبناء حين يقارنون المعاملة ويجدون ما يرسخ لديهم أن أحد إخوتهم مُفَضَّلٌ عند أبيهم أكثر منهم، يحسدونه ويمتلئ قلبهم غلًا عليه، كما حكينا في فصول تربية الجنين عند مسألة «الغيرة»، وفصلنا فيها باستعراض قصص القرآن عن يوسف وإخوته وعن الأخوين ابني آدم وعن الأخوين موسى وهارون، فيرجع إليها للأهمية وتفاديًا لتكرارها هنا.

٥- الحاجة إلى العدل بينهم في المعاملة ذكرانًا وإناثًا بما لا يخالف الفروق الشرعية بينهما:

ونعني بها: معاملة الجنسين دومًا بالعدل في الأمور الإنسانية التي يتساوَى في الاحتياج إليها كل البشر ذكرانًا وإناثًا، فتصبح التفرقة بينهما في الحقوق والواجبات

---

(١) حسنه شعيب الأرنؤوط-تخريج المسند لعشيب (٩٦٧٣) | صححه الحاكم-المستدرك على الصحيحين (٤٨٤١) | وقال الشوكاني: إسناده رجاله ثقات-در السحابة (٢٣٩).

(٢) حسنه شعيب الأرنؤوط-تخريج المسند لعشيب (٩٦٧٣) | صححه الحاكم-المستدرك على الصحيحين (٤٨٤١) | وقال الشوكاني: إسناده رجاله ثقات-در السحابة (٢٣٩).

(٣) حسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٣٣٢٥).

حاصلةً بحسب اختلاف خصائص كل منهما فحسب و ما يتبع ذلك من أحكام شرعية، لا تبعًا للأهواء والتفضيل القلبي لأحدهما على الآخر، فالنبي ﷺ أقام العدل بين جميع الصغار، سواء بين الذكور وبعضهم البعض، أو بين الذكور والإناث، فلم يكن صغاره الذكور فقط هم الداخلين في دائرة حبه وحنانه، حيث كان يعطف على حفيدته أُمامة مثلما يعطف على حسن وحسين رضي الله عنهم جميعًا.

فشوهد كثيرًا ما وهو خارج من البيت وعلى كتفه أُمامةَ كما يفعل معهما، أو وهو حامل لها على ظهره في صلاةٍ فإذا ركع وضعها على الأرض وإذا قام رفعها، مثلما رأوه يفعل معهما أيضًا من قبل، بحسب أحاديث كثيرة مرت علينا، وغيرها.

فآية أم مريم كما قلنا سابقًا: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ [آل عمران:٣٦]، قيلت في سياق إثبات الاختلاف بين الجنسين في الخصائص - وهذا ثابت ومعروف ولا ينكره عاقل سليم الفطرة - ولم تأتِ في سياق التفرقة بينهما في العدل والمعاملة والكرامة والمحبة والتقبل والعطف والعطايا وما إلى ذلك، ولذلك علَّمَها الله الدرس الحكيمَ المستفاد من ذلك كما قلنا في فصول الوليد. **مثال تطبيقي للعدل بينهما، وتخيلوا نّظَرَاتِ النبي خلال المشهد، وصلُّوا عليه وسلموا تسليمًا :**

يقول أنس: «كان مع النبي ﷺ رجلٌ، فجاءَ ابنٌ لهُ فقَبَّلَهُ وأجلسهُ على فَخِذِهِ، ثم جاءتْ بنتٌ لهُ فأَجْلَسَها إلى جنبِه - يقصد دون تقبيلها بالمثل!، قال ﷺ: (فهلَّا عَدَلتَ بينَهُمَا؟)»[1].

كم نفتقد لطفَه ورحمتَه وشفقتَه وعدلَه ورقابتَه، بأبي هو وأمي وكل ما أملك، لأن هذه اللفتة النبوية غير عادية وتكشف عن أكثر مما تتوقعون، فقد نتساءل: ربما البِنتُ لا تعلم أن أباها قد قَبَّل أخاها منذ قليل، فلن تتأثر لأنها ربما جاءت بعدما قَبَّلَه

(١) حسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٣٠٩٨).

بالفعل فلم تره، ولا ترى حاليًا سوى أنه جالس على فخذ أبيهما فقط مثلها.

والجواب: (لكنَّ الصبيَّ رأى)، وهذا مهم أيضًا.

فهو قد رأى بنفسِه أن أباه أعطاه قبلة ولم يعطِ أختَه مثلَها حين أقبلت إليه مِثلَه، وربما هذا يغرس في قلب هذا الأخ أنه أفضل من أخته عند أبيه وربما دفعه ذلك للغرور والتسلط عليها وعدم العدل معها والإحسان إليها، والأب غالبًا لم يقصد أيًّا من ذلك، لكن حواس وعقول الصغار قناصة لا ترحم وتقارن بين المُدخَلات بدقة عالية، والنبي الأمين يعلم ذلك ويعلمنا مراعاته ومراقبته.

ونجمع تلك المواقف النبوية التطبيقية لهذا العنصر النفسي كالتالي:

- حَملُه ﷺ لحفيدته الأنثى - أمامة بنت ابنته زينب - في الصلاة مثلما يحمل حفيديه الذكور.

- ملاعبته ﷺ وملاطفته للفتيات الصغيرات كما يلاعب ويلاطف الصبيان الذكور.

- حثه ﷺ الآباء على العدل بين الأبناء في مظاهر المحبة الحسية كالتقبيل وغيرها، ذكرانًا وإناثًا.

- دفاعه ﷺ عن حق الصبية في تقبيل أبيها لها كما قبَّل أخاها، كما في حديث «فهلا عدلت بينهما؟»[1].

- عدله ﷺ بينهما في تحمل تبولهما على ملابسه، فيتحمل ذلك من الصبية كما يتحمله من الصبي، بغير تعنيف لأحد منهما دون الآخر: «أُتِيَ النبي ﷺ بغلام فبال عليه، فأمر به فنضح، وأتي بجارية فبالت عليه فأمر به فغسل»[2].

وكلهم ذكرنا أحاديثهم كاملة مرارًا من قبل فيُرجَع إليها.

---

(١) حسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٣٠٩٨).
(٢) صححه ابن القيم-إعلام الموقعين (٢/ ٢٧١).

أمثلة جاهلية من واقعنا المعاصر تخالف هدي النبي ﷺ:

أعرف من واقعنا المعاصر أُسَرًا تُعَظِّمُ ذرية الذكور أكثر وتحتفي بهم وتتجاهل ذريةَ الإناث.

وليس المقصود الوالدين فقط، بل أحيانًا نجد الجدود يحتقرون شأن البنات ويعبسون عند معرفة أنهن وُلِدنَ بنات وحين يكبرن يهملونهن لمجرد أنهن بنات، والسبب معروف، إذ لن يمتد اسم الجدود من خلالهن جيلًا بعد جيل بخلاف المولود الذكر! فيكرهونهن ويتعمدون إظهارَ ذلك لوالديهم وكأنهم يثأرون منهما لجلبهما إياها بنتًا لا ولدًا، مِصداقًا للآية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨]، مما يجعل الطفلة بين عائلتها الكبيرة مرفوضة ممقوتة شاعرة بالحرج والضيق أنها أنثى، لذا ذم الله هؤلاء في كل زمان ومكان بقرآن يتلى إلى يوم الدين: ﴿أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٩].

وأعرف أسرًا فيها الآباء يفرقون في المعاملة بين الذكر والأنثى من ناحية إعلاء شأن الذكر أكثر من البنت ليس بسبب حمل الذكور لاسمهم، إنما بزعم أنه الأرجح عقلًا والأقوى دورًا والأحق بالخدمة والتعظيم، فيقيمون البنت مثلًا من مجلسها لأجل أن يجلس أخاها، ويعطون أخاها ليشرب أولًا قبلها، في حين أن الدور دورها وحقها الذي لا يجوز شرعًا انتزاعه منها دون إذنها وعن طيب خاطر - كما سنرى في بقية الحقوق - وربما يوقظونها من نومها لتعد كوبًا من الشاي لأخيها.

وأشدهم قهرًا للبنت، حين تفعل ذلك أمها التي من نفس جنسها والمفترض أنها أدرى الناس بمشاعرها، وأخطرهم على دين الفتاة من يصبغ تلك الفِعال الجاهلية بصبغةٍ إسلامية، فيفتنها في دينها ويقذف في قلبها نفورًا من الإسلام، والإسلام من ذلك براء. ولنا في المحور الاجتماعي تفاصيل أكثر.

٦- الحاجة إلى العدل بينهم في الهدايا والعطايا المادية والمعنوية:

الإسلام يهتم بمشاعر الطفل، بالذات في الأمور المحسوسة بقوة كالهدايا والمنح المالية والعطايا ومظاهر المحبة الحسية، لأن تمييزها ليس صعبًا على الطفل، فالعدل بين الأولاد واجب في الهدايا والألعاب والعيديات والأعطيات إلا ما اقتضت المصلحة التفاوت فيه، وما وُجد سببه وتم تبيينه بوضوح كما ذكرنا من قبل.

تعالوا نتأمل كيف راعى ﷺ ذلك بحكمة وتوازن كالمعتاد:

۞ أردف ﷺ مرةً الحسنَ والحسين معًا في نفس الوقت، على بغلتِه الشهباء، قال سلمة بن الأكوع: «لقَدْ قُدْتُ بنَبِيِّ اللهِ ﷺ والحَسَنِ والحُسَيْنِ، بَغْلَتَه الشَّهْباءَ، حتَّى أدْخَلْتُهُمْ حُجْرَةَ النبي ﷺ؛ هذا قُدَّامَهُ، وهذا خَلْفَهُ»[١]، وكما هو واضح من أن وزنهما كان قليلًا مما يدل على صغر سنهما بالفعل، حيث جاء في فوائد الحديث: «رُكوبُ أكثرَ مِن شَخصٍ على الدَّابَّةِ إذا تَحمَّلت ذلك دونَ إشقاقٍ عليها»[٢]، ولا شك أنها لن تتحمل الثلاثة إلا لو كان الحفيدين صغيرين خفيفين.

۞ والحديث الذي ذكرناه سابقًا: «اعدِلوا بين أولادكم في النِّحَلِ - العطايا والهِبات - كما تُحبّون أن يعدِلوا بينكم في البِرِّ واللُّطفِ»[٣].

۞ وقال النعمان بن البشير: «أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقالَتْ عَمْرَةُ بنْتُ رَوَاحَةَ: لا أَرْضَى حتَّى تُشْهِدَ النبي ﷺ، فأتَى النبي ﷺ، فَقالَ: إنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِن عَمْرَةَ بنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فأمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يا رسول الله ﷺ، قالَ: أَعْطَيْتَ سَائِرَ ولَدِكَ مِثْلَ هذا؟، قالَ: لَا، قالَ: فَاتَّقُوا اللهَ واعْدِلُوا بيْنَ أَوْلَادِكُمْ، قالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ»[٤].

۞ وقالتِ امْرَأَةُ بَشِيرٍ: «انْحَلِ ابْنِي غُلَامَكَ وَأَشْهِدْ لي النبي ﷺ، فأتَى النبي ﷺ، فَقالَ: إنَّ ابْنَةَ فُلَانٍ سَأَلَتْنِي أَنْ أَنْحَلَ ابْنَهَا غُلَامِي، وَقالَتْ: أَشْهِدْ لي النبي ﷺ،

---

(١) مسلم (٢٤٢٣).
(٢) شرح الدرر السنية للحديث.
(٣) صححه الألباني-صحيح الجامع (١٠٤٦) | صححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٥١٤٠).
(٤) البخاري (٢٥٨٧).

فَقالَ: أَلَهُ إخْوَةٌ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: أَفَكُلَّهُمْ أَعْطَيْتَ مِثْلَ ما أَعْطَيْتَهُ؟ قالَ: لَا، قالَ: فليسَ يَصْلُحُ هذا، وإنِّي لا أَشْهَدُ إلَّا علَى حَقٍّ»(١).

والعدل بينهم في العطايا له زوايا أخرى، فللكبير ما ليس للصغير أحيانا، فأعوض الصغير بأمر يناسبه، تأليفًا للقلوب. مثال:

۞ إيثار أصغر الأطفال بباكورة الثمر، أي: بداية فاكهة الموسم:

الحديث الذي ذكرناه سابقًا في فقرة هدايا الصغار: «أنَّ النبي ﷺ كانَ يُؤْتَى بأَوَّلِ الثَّمَرِ، فيَدعو بالبركة فيه «ثُمَّ يُعْطِيهِ أَصْغَرَ مَن يَحْضُرُهُ مِنَ الوِلْدَانِ»، وفي رواية: «ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ له فيُعْطِيهِ ذلكَ الثَّمَرَ»(٢)، «ولعلَّه خَصَّ الصَّغيرَ بهذا، لكَوْنِهِ أَرْغَبَ فيهِ، وأَكْثَرَ تَطلُّعًا إليه، وحِرْصًا عليه»(٣).

ولذلك حين يأتي صغيري إلى المطبخ جوعان، على إثر رائحة الطعام الذي أعده وقد خرجَتْ باكورتَه الأولى فيطلُب منها قطعة، أعطيه واحدةً وأقول له: (علمني ذلك النبيُ ﷺ، أن نؤثرَ أصغرَ الموجودين من الأطفال بباكورةِ الثمر)، أقولها ليحب نبيَه ويتعلم مدى رحمته ورفقِه باحتياجاتهم مِن قبل أن يراهم، وعندما كبُر قليلًا صِرتُ أحيانًا أطلب منه الصبر حتى يجتمع الجميع على الطعام، ليكونَ مؤمنًا قويًّا يجيد التحكمَ في شهواتِ نفسه؛ فأنوع أحيانًا بين الأمرين لأدمج بين الحسنين.

۞ وإيثار أكبر الأطفال بتكنّي أبيه باسمه هو:

فعلها ﷺ مع أحد الصحابة - كما قلنا في تسمية الوليد في حديث «أبا الحَكَم»: «قال ﷺ: «فما لك من الولد؟»، فقال: «شريح ومسلم وعبد الله»، قال ﷺ: «من أكبرهم؟» قال الصحابي: «شريح، قال ﷺ: «أنت أبو شريح»(٤).

---

(١) مسلم(١٦٢٤).
(٢) صححه الألباني-مختصر الشمائل (١٧٢).
(٣) من شرح الدرر السنية للحديث.
(٤) صححه الألباني-صحيح الأدب المفرد (٦٢٣).

٧- الحاجة إلى العدل بينهم في احترام الحقوق والأدوار:

لدينا قاعدة فقهية تقول «من وَجَب له شيءٌ من الأشياء: لم يُدفَعْ عنه أو ولم يُتَسَوَّر عليه إلا بإذنه»، أي أن صاحب الحق، لا ينبغي أن نتعدي عليه أو نغصبه منه بدون استئذانه وموافقته.

استخلصها الفقهاء من عامة نصوص الشريعة بالطبع وإليكم أمثلة تربوية تطبيقية نبوية من حياتنا اليومية، توضحها أكثر.

حق الطفل في البدء به لو كان هو أول من طلب الشيء:

قال علي بن أبي طالب:« دخلَ عليَّ النبي ﷺ وأَنا نائمٌ على المَنامةِ فاستَسقى الحسَنُ أوِ الحُسَيْنُ قالَ: فقامَ النبي ﷺ إلى شاةٍ لَنا بكرٍ فحلبَها فدرَّت، فَجاءَهُ الحسَنُ، فَنحَّاهُ النبي ﷺ -أي أزاحه جانبًا قليلًا ليشرب الحسين أولًا، فقالَت فاطِمةُ: يا رسول الله ﷺ، كأنَّهُ أحبُّهما إليكَ؟ قالَ: لا، ولَكِنَّهُ استَسقَى قبلَهُ»[١].

أو حق الطفل في عدم إقامته من مجلسه الذي يجلس فيه بدون سبب معتبر شرعًا

- «نَهى النبي ﷺ أنْ يُقامَ الرَّجُلُ مِن مَجْلِسِهِ ويَجْلِسَ فيه آخَرُ، ولَكِنْ تَفَسَّحُوا وتَوَسَّعُوا»[٢].

- وقال ﷺ: «لا يُقيمَنَّ أحَدُكُمْ أخاهُ، ثُمَّ يَجْلِسُ في مَجْلِسِهِ وَكانَ ابنُ عُمَرَ، إذا قامَ له رَجُلٌ عن مَجْلِسِهِ، لَمْ يَجْلِسْ فِيهِ»[٣].

حتى لو قام الرضيع ليتناول لعبة مثلًا أو يشرب ماءً ثم عاد إلى مجلسه، فلا

(١) صححه أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر (٢/ ١٢٨) | أخرجه أحمد(٧٩٢) واللفظ له، وابن أبي عاصم في «السنة»(١٣٢٢) مختصرا، والبزار(٧٧٩) باختلاف يسير.

(٢) البخاري ((6270.

(٣) مسلم (٢١٧٧).

ننهره ونزيحه ونقول «أنتَ تركتَ المكان»، بل نفسح له فهو لازال الأحق به لعدم غيابه عنه طويلًا، قال ﷺ: «إذا قامَ أحَدُكُمْ – وفي رواية: مَن قامَ مِن مَجْلِسِهِ – ثُمَّ رَجَعَ إلَيْهِ، فَهو أحَقُّ بهِ»(١).

ويزداد الظلم حين أفعلها لأجعل أخاه يجلس مكانه أو أخته، لما فيه من زرعٍ للحِقدِ والغل بينهما فلنتنبه مرة أخرى: للعدل بين الإخوة.

۞ أو حق احترام أغراضه وعدم الأخذ منها لإعطائها لإخوته دون طيب نفسِه، إلا لسبب معتبر:

فلا آخذ لعبته أو طعامه أو شرابه أو ملابسه مثلًا، لأعطي أخاه إياها ربما لإسكات بكائه على ما يريد من أغراض أخيه، أو أي سبب آخر غير معتبر شرعًا، قال ﷺ: «ألَا لا تَظْلِموا، ألَا لا يَحِلُّ مالُ امرِئٍ إلا بِطِيبِ نفسٍ منه»(٢)، فبالإضافة إلى الاستهانة هنا بحق ابنك الأول، فإن المربي كذلك يفسد الابن الثاني، بل يؤجج بينهما نيران الحقد والغل أيضًا.

تاسعًا: حق الرضيع في عدم إجباره بسيف «طاعة الوالدين» على أمرٍ يتنافى مع شروط طاعة الوالدين.

فالطاعة غير البر، البرُّ والإحسان أمرٌ مطلق للوالدين ولو كانا كافرين.

بينما الطاعة مقيدة بشروط(٣):

١. ألا تكون في معصية لله، لأن الطاعة الأصلية لله، وطاعة الوالدين تابعة لها، مثال شهير:

اضرب أباك أو اشتم فلانًا.

---

(١) مسلم (٢١٧٩).

(٢) صححه الألباني-هداية الرواة (٢٨٧٥).

(٣) بتصرف واختصار، من فتوى على موقع «الإسلام سؤال وجواب» بعنوان: حكم ترك طاعة الوالدين لأجل العلاج.

٢. أن تكون في طاعتهما منفعة لهما أو دفع أذى عنهما، من غير تعنت ولا إرهاق لولديهما، مثال: ابعد حقيبتي عن الماء.

٣. ألّا يكون في الطاعة ضرر على الولد لأن الضرر تَسقطُ به الفرائضُ والواجبات، ومن الضرر: هدر حقوقه التي كفلها الإسلام، مثال: انزل الشارع وحدك ولا تخف.

فالطاعة تكون في إطار مصلحة الطفل وتربيته وتعويده على الخير وتأديبه وإصلاحه، دون إضرار به أو تسلط غير مبرر شرعًا، فأولادنا ليسوا عبيدًا أو خدمًا عندنا؛ بل يطيعوننا ويلبُّون نداءنا ويخدمون محيطهم الاجتماعي في سياق التعاون والبر وتعليمهم فنون الحياة وحسن العشرة، والفرق واضح.

ولعل من أشهر الأمثلة على ذلك:

- إجبارُ الرضيع الذي بدأ يأكل الطعام، على أكل أطعمة لا يَستسيغها، بحجة أنه لا يعلم مصلحته الغذائية جيدًا بعد أو أنه يُعانِد ويجب تأديبُه، أو بحجة أن الرجال يأكلون كل الأصناف «فكن رجلًا يا ولد!»، بينما ذلك لا ينافِي الرجولة في شيء، فالنبي ﷺ أشرف وأصلح الناس وأوفرهم مروءة ورجولة، كانت نفسُه تأنف من بعض الأطعمة ولا يقربها، «جِيء ﷺ بضَبٍّ مجنوذ ليأكله، فلما أخبروه أنه لحمُ ضَبّ رفع يده عنه، فسأله الضيفُ: أحرام هو يا رسول الله؟ فقال: لا، ولكن لم يكن بأرضِ قومي - أي ليس بمكة - فأجِدُني أعافُه - أي لا أتقبل أكله ولم أعتده»[١].

ومن أمثلة ذلك أيضًا:

- إجباره على إكمال أكله كاملًا رغم شبعه.

لا أنسى مشهدًا منذ سنوات، كنا في اجتماع نسائي كبير لأمهات وأطفالهن،

(١) البخاري (٥٥٣٧).

وكانت هناك أم قد حجزت رضيعها (حوالي تسعة أشهر) في عربتِه وأحكمت وثاقه وصارت تطعمه من طبق في يدها تحت التهديد، وحين يرفض تضربه على ظهر يده وتعاود المحاولة، وحين تستسلم تنهرها أمها وتقول: «أكملي! لا تتركيه لمزاجه! لابد أن يأكل جيدًا! هو لا يعرف مصلحته!»، فصارت أمه تكرر ضربَه كلما صد الملعقة ورفض الأكل، وقاطعَتهما إحدى الأمهات محاولةً أن تنصحهما بأن هذا خطأ ويؤذِي الطفلَ ويضُر بمصلحته، لكن لا حياة لمن تنادي.

تلك حقوق تستهين بها بعض الأمهات فلا تتعجبن من ذكرها هنا والتأكيد عليها، فالطفل له الحق في انتقاء طعامِه وشرابه وملبسه وهواياته ومكان جلوسه ونحوه، بما لا يُفسِد تربيتَه أو يخالفَ أحكامَ الشريعة أو مصلحة راجحة، بل تعتبر تلك المسائل فرصة مناسبة لتعليمه مهارات اتخاذ القرارات في الأمور المعيشية البسيطة والترجيح بين خيارات متعددة، مع توجيهه دومًا للأصلح والأفضل، ليقارن ويتعلم ويُهَيأ مبكرًا لحسنِ تفعيلِ الإرادةِ الحرة وتحليل عواقِب الأفعال.

وغير ذلك من المواقف الحياتية اليومية، والتي ينبغي مراجعتها وفق حقوق المسلم عمومًا والرضيع خصوصًا، فالأمر ليس بالهوى والقناعات الشخصية للمربي، والإفراط في التسلط بغير حق يُورث غضبًا وعنادًا ونفورًا ومراوغةً لدى الطفل تجاه المربي، وربما أورث ضعفًا وانكسارًا وهوانًا يصعب ترميمهم في شخصية الولد فيما بعد.

عاشرًا: الحاجة إلى الاحترام وعدم الاحتقار أو الإهانة

وهذا له موضعان: داخل البيت حيث لا ترانا العيون، وهذا له زوايا نفسية أكثر، وأمام الناس سواء داخل البيت أو خارجه، وهذا له زوايا اجتماعية أكثر، نذكر ما يتصل بالنوع الأول هنا، ونكمل ما يتصل بالمحور الاجتماعي أكثر هناك، على أننا نؤكد أن كليهما يعزز النمو الاجتماعي والنفسي بدرجة معينة، وتزداد الدرجة

«اجتماعيًّـا» بحسـب ممارسـة العنصـر أمـام النـاس أم بعيـدًا عـن أعينهـم.

١ – من خلال الكنية أو التكنية:

قبـل أن يتعجـب بعضكـم ويظـن أنهـا سُـنة قديمـة قـد ولَّـتْ ولا تناسـب زماننـا، دعـوني أقـصُّ عليكـم شـيئًا لطيفًـا. منـذ بضعـة أشـهر، نشَـرتُ مقالـةً صغيـرة عـن أهميـة الكنيـة للصغـار وفوائدهـا النفسـية والاجتماعيـة وأثرهـا في التربيـة الجنسـية الشـرعية (وسيأتي بيانـه)، فجاءني تعليـق مـن أم سـورية تطبـق بالفعل تلك السُـنّة بشـكل رائع يدعـو للتأمل والتأسِّـي. تحكـي أنهـا اعتـادت منـاداة صغيرهـا بكنيتـه غالـب الوقـت، فـإذا شـاغَب وارتكـبَ سـلوكيات سـيئة نادتـه باسـمه الأصلـي لا كنيتـه، فترسَّـخَ في وجـدان الولـد أنـه يفقِـدُ مَيـزةَ (إكبـارٍ جُزئِـي) حيـن يخطـئ، وأنـه مـادام معتـدل السـلوك فهـو في مكانـة أعلـى وأشـرف واسـتحقاق للإكبـار أكثـر. فنعمـت التربيـة!

رأيتـم كيـف أن التربيـة النبويـة منـذ البكـور، تغـرس فيهـم بتكـرار، معـاني المسئولية والإكبـار والثِقَـل؟

رأيتـم كيـف أنهـا مناسـبة لـكل زمـان ومـكان، لكننـا فقـط مـن ننسـلخ منهـا جهـلًا بقيمتهـا؟ والله لا أجـد شـيئًا قـد سـنَّته شـريعتنا إلا وتيقنـتُ أنهـا حـقٌّ مـن عنـد الحقِ سبحانه.

«الكُنيـة سُـنة ومـن آداب الإسـلام: والتكنِّـي أدبٌ مـن آداب الإسـلام، قـال عنـه الشـيخ الألبـاني: «وهـذا أدبٌ إسـلامي ليـس لـه نظيـر عنـد الأمـم الأخـرى – فيمـا أعلـم – فعلـى المسـلمين أن يتمسـكوا بـه رجـالًا ونسـاءًا، ويدَعـوا مـا تسـرب إليهـم مـن عـادات الأعاجـم كـ (البيـك) و(الأفنـدي) و(الباشـا) ونحـو ذلـك، كـ (المسـيو) و(السـيدة) و(الآنسـة) إذ كل ذلـك دخيـل في الإسـلام»، وهـو يُعتبـر مـن السـنة فقـد تكنَّـى النبـي ﷺ – كمـا هـو معـروف – وكَنَّـى بعـضَ أصحابـه، ففـي صحيـح البخـاري: أن النبـي ﷺ كَنَّـى عليـًا «بـأبي تـراب» فكانـت أحـب أسـمائه إليـه، وهكـذا كان السـلف الصالـح»(١).

(١) من مقالة في الآداب على إسلام ويب بعنوان: التكني من آداب الإسلام.

من أسباب استعمال العرب للكنية: «تعظيم المَكْنيّ وإجلاله، ولم يقتصر التكنِّي على الكبير، بل كانوا يَكنُون الصغير تفاؤلا بأنه سيطول عمره حتى يتزوج وينجب ويُسمِّي، وهذا فألٌ حسن، وقد اختار ﷺ لنفسه مِن الكُنى «أبا القاسم»، وسار على هديه في ذلك صحابته والتابعون ومَن بعدهم»[(١)].

ويظهر هذا الأمر في أحاديث سبق ذكرها، مثل:

- مع الفطيم أبي عمير: يا أبَا عُمَيْرٍ، ما فَعَلَ النُّغَيْرُ[(٢)].
- ومع الصغيرة أم خالد: يا أُمَّ خالِدٍ هذا سَنا[(٣)].

هي إذن سنة تربوية لإكبار الصغار ذكرانا وإناثًا، وأرى فيها حفاظًا على الفطرة وترسيخا لها لاسيما في زماننا، حيث يظل يتردد على سمع الرضيع منذ صغره «أبو فلان» أو «أم فلانة»، ويكبرون وصدى معانيها يتردد في وجدانهم: أنتن أمهات المستقبل، أو أنتم آباء المستقبل، أو أنتِ أنثى، أو أنتَ ذَكَر، أو أنتما لكما شأن ورسالة، وغاية كبرى: الزواج والإنجاب إلخ.

وحتى لو كانت الكنية لشيء غير أسماء البشر أو الأبناء: مثل أبو تراب، أبو هريرة، أم أبيها ﷺ - فاطمة رضي الله عنها . وحتى لو كبرت الفتاة وكبر الصبي ولم ينجبا، فتلك السُنة تحفظ فطرتهما الطبيعية تجاه تكوين الأسرة الطبيعي المتألفة من «أب» و«أم» و«أولاد»، فلا يتأثروا بقولِ الملحدين هذه الأيام من أن الأسرة لم يعد شرطًا أن تظل «أب» و«أم» و«أولاد» بتلك الصورة النمطية فقط! بل ممكن - في نظرهم السقيم - أن تكون «أب» و«أب» و«أولاد»، أو «أم» و«أم» و«أولاد»، أو ثلاثة آباء وابن إلخ، والعياذ بالله من شذوذهم وانتكاس فطرتهم، فبالطبع هم ليسوا هنا آباء حقيقية لهؤلاء الأبناء أصلًا بل متبنون لهم وربما يمارسون معهم بيدوفيليا - ارتكاب

(١) من مقالة بعنوان «الكُنى والتكني»-إسلام ويب.
(٢) البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).
(٣) البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).

الفاحشة مع الأطفال - فملةُ الشذوذ الفطري واحدة ونسأل الله السلامة.

٢- ومن خلال عدم سبهم أو شتمهم أو لعنهم أو الدعاء عليهم:

لِما في ذلك من رسائل احتقار وإهانة وغل وكراهية تنافِي فطرة الأمومة وتسبب ندبات عميقة لا تندمل بسهولة، وربما عواقب تمتد مع الولد طول حياته. ولنا وقفة أوسع مع هذه المسألة بإذن الله في كتاب «قواعد وأدوات (وممنوعات) التربية بالوحيين»، نذكر منها فقط مؤقتًا قوله ﷺ: «لا تَدْعُوا علَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا علَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا علَى أَمْوَالِكُمْ، لا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ»[١]، و قوله ﷺ: «سِبابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ»[٢].

حادي عشر: حق الرضيع في التحاور معه، وبما يناسب نموه الإدراكي واللغوي

والمتأمل لأحاديثه ﷺ مع الصغار يُدرِكُ كيف أنها تتوافق مع معايير النمو اللغوي. وتفصيل ذلك في المحور السابع: حقوق واحتياجات الرضيع اللغوية والمعرفية.

ثاني عشر: حق الرضيع في الصدق معه، بخاصة الصدق في الوعد

هو من متطلبات المرحلة وكل مرحلة، لكن الأهمية هنا بالذات لشدة نقاء ترجمتهم للأفعال وتصديقهم لكل شيء وتعلقهم بالقدوات والكبار من حولهم واعتقادهم في كل ما يقولونه لهم كمصدر رئيسي لكل معارفهم في هذه المرحلة، وهذا الاحتياج يؤكده ويؤسسه نصوص نبوية عامة لا يجهلها مسلم، بجانب نصوص خاصة بالصغار خصيصًا:

- «لا يصلحُ الكذبُ في جدٍّ ولا هزلٍ، ولا أن يَعِدَ أحدُكم ولدَه شيئًا ثم لا يُنجزُ

---

(١) مسلم (٣٠٠٩).

(٢) البخاري (٦٠٤٤).

له»[١]، وفي رواية «وَلاَ يَعِدُ الرَّجُلُ صَبِيًّا ثم لا يُنجزُ له»[٢].

وقال عبد الله بن عامر يحكي عن نفسه حين كان صغيرًا: «دعتني أمي يومًا، ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ في بيتِنا، فقالت: ها، تعال أعطيك، فقال لها ﷺ: وما أردتِ أن تعطيه؟ قالت: أعطيه تمرًا، فقال ﷺ: أما إنكِ لو لم تُعطِهِ شيئًا كُتِبَتْ عليكِ كَذِبةٌ»[٣].

قال مؤلفُ عونِ المَعبودِ: «وفي الحديث، أن ما يتفوهُ به الناسُ للأطفالِ عند البكاءِ مثلًا بكلماتٍ هَزلًا أو كَذبًا بإعطاءِ شيءٍ أو بتخويفٍ من شيءٍ، حرامٌ داخلٌ في الكذِب»[٤].

ولذلك كان الإمامُ البخاري إذا رأى أحد رواة حديث النبي ﷺ ممن سافرَ إليهم لأخذِ الحديثِ عنهم، يَكذِبُ على دابتِه، بأن يشيرَ إليها بوعاءٍ فارغٍ من العلفِ لتأتيَ إليه ظنًا أن الوعاءَ ممتلئٌ، كان البخاريُ يتركُ التحديثَ عن ذلكَ الرجلِ بحديث النبي ﷺ، لأنه لا يأمَنُه على صِدقِ الحديثِ.

وفي قصص أخرى مماثلة، ترَكَ سماعَ الحديثِ من مُحَدثٍ كبيرٍ قبضَ يدَه أمامَ صبيٍ لديهِ ليوهِمَه أنه يريدُ أن يعطيَه شيئًا ولم يُعطِه، وتلك قصصٌ متكررةٌ في سِيَرِ الأئمةِ، يَرفُضونَ الأخذَ عمن يَعِدُ ويُوهِمُ الدوابَّ بشيء وهو يَعلَمُ أنه لا يَفِي به، واعتبروه كذبًا على الدوابِ سبحان الله.

فالوفاء بالوعد إذًا والصِدقُ: وَجهانِ لعُملَةٍ واحدةٍ هي عملةُ الأمانِ، لا غِنَى لأحدِهما عن الآخر، ولاعلاقة متينة بين المربي والمتربي بدونِ الأمان، ولو وُجِدَ الحب!

فلا تعدي صغيرك إلا بشيءٍ غَلَبَ على ظنكِ أنكِ ستحققينه

(١) صححه الألباني-صحيح الأدب المفرد(٢٩٩).
(٢) صححه أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر(٥/ ٣٤٣).
(٣) حسنه الألباني-صحيح أبي داود(٤٩٩١)| وحسنه ابن حجر العسقلاني-هداية الرواة(٤/ ٣٩٥).
(٤) من شرح حديث [ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم] على موفع المكتبة الشاملة.

واجتهدي بقوةٍ وعزمٍ في تحقيقِه، وقَدِّمي المشيئةَ دائمًا، وكرري عليه كلَ مرةٍ الآيةَ: ﴿إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ﴾ [الكهف:٢٤].

هذا فيما يخص الصدق في الوعد بشكل خاص، وللكذب على الصغار عمومًا صور أخرى ممنوعة شرعًا، نذكر منها أكثرها شيوعًا مع الرضع:

-فقد نكذبُ لإضحاكِهم:

مثال: القطة أخبرتني أن أضربك، أخوك يختبيء في جيبي.

-وقد نكذب لنتهرب من إلحاحهم على أمر ما:

مثال: ليس معي نقود لأشتري اللعبة، أو المحل به فأر سيعضنا لو دخلناه، أو سأضرب أخاك كما ضربك فاطمئن (ونمثّل ذلك أمامه ولا نفعله حقيقة ونظن أنه لا يفهم وهو يراقب ويسجل).

-وقد نكذب ليتناولوا شيئًا نريدهم أن يتناولوه ويتعنتون:

مثال: هذه بطاطا مهروسة وليست جزرًا، هذا تفاح أخضر وليس كوسة، الطعام يبكي لأنك ترفضه، الدواء حلو سيعجبك، الحقنة لا تؤلم.

ثم إن كذبتِ عليه في نوع الطعام فسيكتشف ذلك عاجلًا أو آجلًا فلديه حاسة تذوق مبهرة، وسيبصق الطعام في وجهك في النهاية بالإضافة لتسجيله في ذاكرته التي لا ترحم أنكِ تكذبين عليه وتخدعينه، رأيتم كمية الأخطاء التربوية اليومية المتصلة ببند الطعام فقط؟ والتي يكون الدافع فيها دوما هو نظرتنا - الخاطئة - لمصلحة الرضيع، بينما النية الصالحة لا تكفي، التربية علم ودين.

بالإضافة لبقية الأخطاء كما قرأنا، والأولاد يراقبون ويقلدون، ويفقدون الثقة في أية قيم يلقنها إياهم المربي الكاذب مهما كانت نواياه طيبة أو يبتغي من الكذب

خيرًا، فالصدق مع الصغار ليس رفاهية يمكننا الاستغناء عنها، فهو يندرج تحت مقاصد ضرورة حفظ الدين كذلك.

يقول ابن القيم: «ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج، الاعتناء بأمر خُلُقِه، فإنه ينشأ على ما عوده المربي في صغره، ويجنبه الكذب والخيانة أعظم ما يجنبه السم الناقع، فإنه متى ما سهل له سبيل الكذب والخيانة، أفسد عليه سبيل سعادة الدنيا والآخرة، وحرمه من كل خير»[1].

هذا إجمال لمسألة الصدق مع الصغار، نأمل أن نفصله لاحقًا في كتاب «قواعد وأدوات التربية من الوحيين»، بإذن الله.

ثالث عشر: احتياج الرضيع إلى تحمّله في مختلف المواقف اليومية

١ - إحتياجهم إلى تحملنا لتبولهم علينا وعلى أي شيء، وعدم إفزاعهم:

ورأينا أحاديث عدة تبرز كيف كان ﷺ يَحمِلُ الصغارَ في حجرِه ثم يبولون عليه فلا يرفع الصغير إلى أهله كي لا يظنوا أنه ﷺ ضاق ذرعًا بهم.

۞ منها ما قاله أبو ليلى الأنصاري: «كنتُ عندَ النبي ﷺ وعلى صدرِه أو بطنِه الحسنُ أو الحسينُ عليهما السلامُ فبال، فرأيتُ بولَه أساريعُ، فقمتُ إليه، فقال ﷺ: دعوا ابنِي لا تفزعوه حتى يقضِيَ بولَه، ثم أُتبعه الماءَ»[2].

۞ ورواية أخرى لحديث أم محصن المذكور سابقًا، ورد فيها أنها قالت: «ودَخَلْتُ علَى النبي ﷺ بابْنٍ لي لَمْ يَأْكُلِ الطَّعامَ، فَبالَ عليه، فَدَعا بماءٍ فَرَشَّ عليه»[3]، أي: دعا بماء فنضحه، هكذا ببساطة أيضًا، وغيرها الكثير.

وتأملوا رد فعل النبي ﷺ كل مرة، وكيف أنه ولا مرة فزِعَ ولا أفزَعَ، ولِمَ يَفزَعُ

(١) تحفة المودودي بأحكام المولود-لابن القيم.
(٢) قال الهيثمي: رجاله ثقات-مجمع الزوائد (١/ ٢٨٩).
(٣) البخاري (٥٦٩٢).

ﷺ وهو يعلم أن الأمر بسيط؟ وأن حفنات ماء قليلات تزيل كل شيء ببساطة وينتهي الأمر؟ قارنوا ذلك بتلك الفزعة التي تصدر منا مباشرة إذا حدث لنا نفس الأمر، بل منا من يضرب الرضيع حينها ثأرًا لكرامته وهيبته وطاقته المهدورة في تنظيف أثر البول في المكان! ومن الأمهات للأسف من تلسع ابنها عند ذلك بظهر ملعقة محماة على النار أو تطفئ شمعة في كفه.

٢. احتياجهم إلى تحملنا لكثرة حركتهم وفرط لعبهم وقوته أحيانًا:

والأحاديث التي تؤكد على هذا الاحتياج كثيرة وذكرنا حفنة منها سابقًا، مثلًا حديث «لكاع» الذي كان فيه: «فجاء الحسنُ فاشتد حتى (وثب) في حبوته ﷺ»[(١)]، وثَب: قفز، والحبوة: هي ملابسه ﷺ التي يلقيها على ظهره ويتلحف بها، كذلك سائر أحاديث تَحَمُّله ﷺ لِلَعِبِ وعبثِ الصغار سواء أثناء صلاته أو خارجها أو أثناء مشيه بهم في الطرقات، سواء عبثهم بلحيته تارة أو بخاتم النبوة تارة، وتحَمُّلِه لوزنهم على بطنِه أو عاتقه أو وركيه أو ذراعه، يُرجع إلى غالبيتها عند فقرات اللعب.

٣. احتياجهم إلى تحملنا لهم وقت الصلاة بشكل خاص:

فصلنا فيها في الاحتياجات والحقوق الدينية للرضيع، ونسجلها بعنوان خاص هنا كذلك لأهميتها بالفعل في النمو النفسي بشكل مستقل، لاحتياج الصغار نفسيًّا إلى المكث رويدًا في أحضان محاريب السكينةِ تلك. فيرجع إلى فقراتها ونصوصها التفصيلية هناك تفاديًّا للإطالة عليكم.

٤. احتياجهم إلى تحمُّلِنا لتَمَنُّعِهم أحيانًا وتدللِهم الطفولي البريء علينا:

أعرف جَدةً، كانت تخاصم حفيدها ذي العامين إذا دخل عليها البيت وانطلق تجاه صندوق اللعب مباشرة قبل أن يسلم عليها، فتناديه فلا يرد بسرعة بسبب انهماك

(١) حسنه شعيب الأرنؤوط-تخريج المسند لشعيب (١٠٨٩١) | أخرجه صحيح البخاري: (٢١٢٢) باختلاف يسير، ومسلم (٢٤٢١) مختصراً.

حواسه بين مختلف اللعب، وقد يكون يتمنَّعُ عليها متعمدًا أحيانًا. كانت تعتبر كل ذلك إهانة لها وعدم لهفة منه عليها كلهفتها عليه، وتتأثر بشدة وتصيح فيه وتعطيه درسًا في الأخلاق! والأمر حقيقةً أهون من ذلك، ولا بأس أن تعلمه أدب رد السلام بالطبع لكن دون كل هذا.

تأملوا رد فعل أعظم وأرحم مربٍّ أنعم الله به على العالمين، في حديث السكة الذي ذكرناه مرارًا: «فإذا حُسَيْنٌ يلعَبُ في السِّكَّةِ، فتقدَّمَ النَّبيُّ ﷺ، وبَسطَ يديهِ، فجعلَ الغلامُ يفِرُّ ها هُنا وَها هُنا، و(يضاحِكُهُ) النَّبيُّ ﷺ حتَّى أخذَهُ، فجعلَ إحدى يديهِ تحتَ ذقنِه، والأخرى في فأسِ رأسِهِ فقبَّلَهُ وقالَ: حُسَيْنٌ منِّي، وأَنا مِن حُسَيْنٍ»[1].

أرأيتم «**ويُضاحِكُه**»؟ قد تماهَي مباشرة مع لعب حفيده ومراوغته البريئة، ولم يأخذ ما يفعله بمحمل الجد، بل أشعره أنه داخل في سباق لطيف معه في الإفلات من قبضته، ثم قبَّلَه بعدها.

وقد جاء في شرح الحديث: «يفر ها هنا وها هنا، أي: مُلاعِبًا النبي ﷺ وسُرورًا بفعلِه يَجْري الغلام منه في جَنباتِ الطَّريقِ، ويَحْتَمِلُ أنَّه يهُربُ منه بهذا كَعادةِ الصِّغارِ إذا أراد أحدٌ أنْ يأخُذَهم»[2]، وهذا من الأمور العادية التي يجب أن نتأقلم معها أحيانًا دون تحسس، وأن نحولها لدعابة، طالما ليس فيها إهانة للمربي أو عناد واضح وتحدٍ غير مهذب، إذ يفعلها الصغار كثيرًا من باب التمنع والتدلل والملاعبة واختبار المهارات المتنامية.

وقبل أن نختم المحور،،،

طرحنا سؤالًا من قبل في فقرة إظهار الشفقة عليهم، مفادُه: هل نبادر إليهم دومًا لنُقِيل عثراتهم؟ ألا يعيق ذلك اعتمادهم على أنفسهم في حل مشكلاتهم ويجعلهم شخصيات اعتمادية على الآخرين ضعيفة المقاومة؟ وهذا السؤال يسبقه سؤال متصل

---

(١) حسنه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٨).
(٢) شرح الدرر السنية للحديث.

به لكي نجيب عليه: هل نؤثر في انفعالات الرضيع ونوجهها؟ أم نتركه يشعر كما يريد أولًا ثم نتفاعل معه على أساس انفعاله هو؟ وإجابة السؤالين تباعًا كالتالي:

التربية الغربية تقول في النمو الانفعالي:

«إن فهم الرضيع لانفعالاته يتأثر جزئيًّا بردود أفعال الناس من حوله، على سبيل المثال:

تخيلي أن رضيعك قد ارتطمت رأسه، فقد يكون رد فعلك واحدًا من ثلاثة: قد تَفزَعين وتجرين نحوه بفزع وتحملينه قائلة: يا لرضيعي المسكين!، أو تقومين بتجاهل الأمر وإخباره بأنه بخير وتبتعدين عنه، أو ربما يكون رد فعلك هادئًا وتراقبين رد فعل رضيعك أولًا، ثم تتدخلين إذا احتاج لمساعدتك، كل ما سبق هو أمثلة للاستجابات المختلفة، وأفضل طريقة هي أسلوب (الانتظار والترقب) لأنها تسمح لرضيعك بالاستجابة لمشاعره هو بدلًا من الاستجابة لمشاعرك أنت»(١).

أي أنهم يقولون إن الأفضل ترك الرضيع يستجيب لانفعالاته بنفسه دون أن أبدي انفعالاتي أنا أولًا، حتى لا أوجّهه لشعور معين، وأتدخل فقط لو احتاج مساعدة.

وهنا يحضرني حديث النبي ﷺ، والذي لا أمل من تكراره وتأمله لعدم انقضاء كنوزه التربوية والإنسانية في نظري، حين وجد الحسن والحسين في سن الرضاع يمشيان ويعثُران وهو يخطب الجمعة في جموع المسلمين، فلم يصبر - بأبي هو وأمي - ونزل وحملهما ووضعهما بجواره وقال: «صدق الله! إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ! رأيتُ هذينِ يعثرانِ في قميصَيهما - ملابسهما - فلم أصبِرْ حتَّى قَطعتُ كَلامي فحَملتُهُما»(٢)، **وأوردنا في شرحه**: «كمال المحبة الطبيعية الفطرية الجِبِلِّيَّة للأولاد، بما لا يتعارض مع المحبة الأصلية لله ﷻ، محمودٌ أن (تَظهر) و (لا تتأخر)»(٣).

---

(١) **نقلا عن أحد المواقع الأجنبية عن تطور نمو الرضيع.**
(٢) صححه الألباني-صحيح النسائي (١٤١٢).
(٣) من شرح الدرر السنية لحديث «فضمَّهما إليه وقال: إنَّ الولدَ مَبخلةٌ مَجبنة»، بتصرف يسير واختصار.

وهنا يأتي السؤال: هل ينبغي عليّ دومًا ألا أصبر حين أرى صغيري يتعثر أو يتأذى؟ أليس من الأفضل له أن أتركه يعتمد على نفسه ليقوم وحده من عثرته، ولا أبدي أي قلق؟

وهنا كلام مهم،،،

نبدأ بما قرأتُه يومًا في تغريدة لأحد الأفاضل[1]، جاء فيها:

"لا تنزع الشوك من طريق ولدك أو بنتك خوفًا عليه فهذه ليست وظيفتك كأب أو أم، الشوك لن ينتهي، وأنت لن تُخَلَّد، لكن وظيفتك أن تعلمه كيف يتجنب الشوك في طريق حياته وكيف يصبر على الألم ويصير قويًّا بعد كل إصابة".

الكلام بالفعل صحيح، لكن ينقصه الشق الآخر لتكتمل الصورة الصحيحة، فهو ليس على إطلاقه لأن وظيفة المربي بالفعل هي الأمران معًا: نزع الشوك من طريقهم، وتعليمهم كيفية اجتنابه.

فإلى أن يتعلم المتربي كيفية نزع الشوك واجتناب مواطن الخطر، فمن يُشفِقُ عليه وينزِعُها من طريقه، سوى المربي؟

كذلك على الجانب الآخر، مسألة نزع الشوك من طريقهم باستمرار وإنقاذهم دومًا من عثراتهم ليست صوابًا على إطلاقها، فهي تختلف من طفل لآخر ومن موقف لموقف؛ وهذا ما يُصَدِّقُه الواقع والتجربة:
١- فأحيانا نجد طفلًا يقوم بتمثيل تَعَرضِه للألم أو التعثر، ليحصل على نظرة عطف من والديه يحبها وتشبعه نفسيًّا، نوع من اختبار الشفقة والمحبة والتغنج الطفولي البريء، وربما يفعل ذلك قليلًا وليس بشكل دائم، لا بأس من جبر خاطره حينها، بخاصة لو كررها تدللًا وتضاحكتما عليها.

٢- وربما يفعلها مرارًا وتكرارًا فيما يشبه ابتزاز عواطف أهله واستدرار لهفتهم

(١) تغريدة كانت بقلم أستاذ فاضل، يُدعَى صالح محمد النهام، جاءت في طريقي.

عليه كل دقيقة، مما يُقلق بشأن اعتياد الطفل على مثل هذا الأسلوب الماكر المنافِي للصدق، فهنا يكون من التربية ألا تستجيب له الأم لئلا يتمادى، وليس شرطًا كما يزعم البعض أن هذا السلوك بالضرورة وراءه جوعٌ نفسي وعاطفي لدى الطفل يجب إشباعه، لكن لا بأس أن نبحث بجدية عن السبب لو كان كذلك ونعالجه ونراقب اختفاء هذا السلوك.

٣- وربما يكون الطفل من النوع المحُجِم عن التدافع مع الحياة، فتؤدي مسارعة الأم إليه بشفقة واضحة كل مرة يتعثر فيها مثلًا، إلى مزيد إحجام منه وتقوقُع ورهبة، فربما في مثل هذا الحال حين تتغافل الأم أحيانًا عن تعثر طفلها وما شابه - دون أن يراها ترقبه وهو يتعرض للتعثر وتتركه عامدة بلا إبداء أي تعاطف أو تشجيع ونحوه - وتكون بذلك ساعية لتحقيق مصلحة أكبر وأهم للرضيع كتعليمه مقاومة مخاوفه والاعتماد على نفسه فلا بأس، فالأمر إذن ليس على إطلاقه كما تؤسس لذلك التربية الغربية، وليس دومًا السبب هو تقصير الأهل في إشباع الطفل كما يزعمون كذلك، إنما الموقف يتبع معيار المصلحة المتحققة للطفل وحسن تربيتِه، كعادة التربية بالوحيين.

فبشكل عام، عند تعرض الرضيع عفويًا لشيء من الأذى ولو كان بسيطًا مثلما هو الحال في حديث التعثر فمن اتباع الهدي النبوي أن نهرع إلى الطفل ونُظهر شفقةً صادقةً ودعمًا حنونًا وإعلانًا واضحًا أننا لا نرضى أبدًا بأي مضرة تصيبه مهما قل شأنها، هذا هو الأصل والتصرف العفوي والفطري، ثم الاستثناء يكون بحسب الموقف وعمر الطفل وخبرة الأم به وبما يحقق مصلحته.

كذلك التربية الغربية تقول في معرض النمو الانفعالي:

"تحذير: حاولي تجنب إظهار التقزز من الأشياء التي تضايقك، مثل الحشرات، والحفاضات المتسخة، أو الطعام ذي الرائحة النفاذة. فقد يتعلم الرضيع تقليد انفعالاتك بدلاً من إظهار انفعالاته هو"(١).

(١) تغريدة كانت بقلم أستاذ فاضل، يُدعَى صالح محمد النهام، جاءت في طريقي.

فمرة أخرى المنهج الغربي وإن كان يبدو «منطقيًا» «مدهشًا» «أنيقًا» للبعض، إلا إنه يجعل الطفل يكتسب شعور اللامبالاة تجاه الأمور المُستَقذَرَة والمُستنكَرةِ مُجتمعيًّا بالفطرة. فيبدي الطفل عدم الاكتراث مع الوقت إذا رأى مثلًا أحدًا يتعرض لضر أو خلل أو تعثر ما، ويلتزم الصمت إلى أن تطلب الضحية المساعدة أو تتألم بوضوح! كما ربَّتْه أمُه في الفقرة السابقة!

أو يلتزم الصمتَ إذا لاحظَ طفلةً تلعب في روثِ الغنم والقطط أو رأى شابًا يجمع النجاسات لصُنعِ فخٍ لأحد المارة في الطريق مثلًا، سيلتزم الصمت فيها جميعًا فأمه ربته ألا يبدي تقززًا من شيء قد لا يكون مقززًا للآخرين بالضرورة كما رأينا في الفقرة الثانية!

يقنعوننا أن هذا تربية، وهو تشويه متعمَّد للفطرة بكل مكوناتها، بينما التربية النبوية تصون الفطرة وتنميها، كما سنرى في البناء الفطري، التربية الغربية تهتم أكثر شيء بالمشاعر الذاتية الفردية وكيفية تفادي العقبات أمامها، تهتم بإطلاق الحرية التامة للمشاعر وعدم التوجيه الخارجي لها أو القولبة بأي قالبٍ كان مهما بلغ من الرشد، بينما ديننا يعلمنا التوجيه الرشيد للطفل على بصيرة من منهج رباني جاء ليُخرِج النفس الإنسانية من داعية هواها ويُطَوّعَ تلك الأهواء للحق والحكمة والرشد على كل مستوى، ومنذ يومه الأول سبحان الله كما قرأنا معا في تربية الوليد، والفطرة مهيأة للتربية على ذلك، وترك استغلالها يخالف الملء الفطري السليم.

وينضم إلى كل ما سبق من الحقوق والاحتياجات النفسية، عناصرُ أخرى كثيرة، إلا أننا سنتناولها في كتاب المراحل العمرية الأكبر بإذن الله، لمناسبتها لها أكثر عادةً، فهذا غيض من فيض حقوق واحتياجات الرضيع النفسية في الإسلام، عشرات الصفحات، ولا أحسب أني قد أتممتُ عملي فيها و نهمتي منها، كسابقاتها كذلك أجمعين، ولكن نترك هذا المحور مؤقتًا واضطرارًا، لننتقل إلى محاور التربية النبوية التالية: حقوق واحتياجات الرضيع المالية.

المحور الرابع

حقوق واحتياجات الرضيع المالية

وهي أربعة عناصر، ذكرنا ثلاثة منها في الوليد كعناوين فقط لاشتراكها مع الرضيع، على أن نفصلها هنا، ويضاف إليها عنصر رابع خاص بالرضيع فقط، نذكره هنا.

أولًا: حق الرضيع في الميراث

ذكرناه في تربية الوليد وبيّنّا أن الطفل يرث بمجرد ولادته حيًّا، ويتم صَون هذا الإرث المقسوم للرضيع وعدم التصرف فيه إلا وفق ضوابط الولاية المالية الصارمة التي سيأتي تفصيلها في النقطة التالية للميراث، إلى أن يتم إعطاؤه إليه عندما يكبر بعد اختبارِ حسن إدارته للأموال بنفسه ونلمس منه رشدًا وحكمة في ذلك.

يقول الدكتور عبد المنعم الرفاعي، في مقالة عن «حقوق الطفل في الإسلام، في نقطة حقُّ الطفل في حفظِ مالِه منَ الضَّياع – سواء كان يتيمًا أو غيره –: «حَفِظَ الإسلامُ أموالَ الأطفالِ في حالِ مَوْتِ والدِهم، قالَ ﷻ: ﴿وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢]، وقال ﷻ: ﴿وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ [النساء:٦]، وقال ﷻ: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]»[١].

(١) المقالة على موقع طريق الإسلام.

ثانيًا: حق الرضيع في الولاية المالية عليه

فالرضيع بطبيعة الحال لو أن له مالًا خاصًا مودعًا له باسمه لا يملك التصرف فيه بعد، فيكون له حق «الولاية المالية» على وليٍّ من أوليائه، وتكون غالبًا للأب ما لم يوجد مانع من توليه الأمر، فالولاية المالية معنيةٌ بحفظ الوليّ لأموال الطفل بجانب استثماره لها وتنميته إياها، لذا قلنا من قبل أن هناك شروطًا[1] صارمة لاستحقاق هذا الوليّ للولاية المالية، وقد آن أوان التعرف عليها ومعاينة كيف صانت الشريعة أموال هذا الكائن الضعيف وهو أصلًا لا يعي شيئا من ذلك بعد.

الشرط الأول: عند تعذر ولاية الأب المالية على طفله، فلا ينبغي لأحدٍ غير الجدّ أن تكون له ولاية مالية تلقائيًا من بعد الأب، إلا بتوصية من الأب إلى (وصيٍّ ماليٍّ) من بعده، أو بتوصية من (القاضي) لوصيّ من بعد الأب حسب مصلحة الطفل إذا تعذرت توصية الأب، ومعلوم أن الأب هو أحرص الناس في ذلك وأعلمهم بمصلحة الرضيع المالية وحسن إدارة ماله، ومن بعده أبوه - جد الطفل، وأن هذا هو الغالب.

فعلى سبيل المثال: الولاية المالية للعمّ أو الأُمّ أو الأخ، لا تتم إلا بعد توصية من الوليّ الأصلي، أو القاضي، بخلاف ما ذكرناه من ترتيب في الولاية (الشخصية) من رعاية وتأديب وتعليم، والتي تحدّثنا عنها في الحقوق والاحتياجات النفسية، فالشريعة حرصت أشد الحرص على الحفاظ على هذا المال لأنه إذا أُهدَر في يد أحد غير هؤلاء المشهود لهم أكثر من غيرهم بالحرص على مصلحة الطفل المالية والكفاءة في حفظها عادةً، فلن يعود مجددًا ولا يُعَوَّض ببديل غيره - غالبًا - كما في حق الرضاعة أو حق الحضانة مثلًا، وقد يكون أحيانًا مرتبطًا بمصالح ضرورية للطفل.

الشرط الثاني: إمعانًا في التيقن أيضًا من أهلية هؤلاء الذين أثبتت لهم الشريعة الأحقية الأولى بتولي الإشراف على أموال الطفل، وضعت لهم **شروطًا للوليّ**.

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته-للدكتور وهبة الزحيلي.

١- أن يكون **كامل الأهلية**، وذلك بالبلوغ والعقل والحرية، لأن فاقد الأهلية أو ناقصها ليس أهلًا للولاية على مال نفسه، فلا يكون أهلًا للولاية على مال غيره من باب أولى.

٢- ألا يكون **سفيهًا مبذرًا محجورًا عليه**، لأنه لا يلي أمور نفسه أصلا، فلا يلي أمور غيره كذلك.

٣- أن يكون **مسلمًا** فلو كان الأب غير مسلم فلا يلي أمور ابنه المسلم المالية، إذ كيف يؤتمن عليها؟

۞ **الشرط الثالث**: أن يكون الأب مؤتَمَنًا على التوصية بولي ماليٍّ من بعده في حال كانت ولايته المالية على الطفل متعذرة أو ممنوعة لأي سبب، إذ كيف يُصان حق الرضيع هنا ونحن نعرف أن الأب غير المؤتمن قد يوصي من بعده مثلًا أن يتولى أخاه - أي: عمُّ الرضيع - أو أحد أحبابه عمومًا لغرض ما في نفسه يخدم مصلحته الشخصية ولا يخدم مصلحة الطفل، كما نسمع أحيانًا في الخصومات والنزاعات الأسرية في المحاكم؟

الجواب: حتى هذا الاحتمال لم تتركه الشريعة هملًا، بل عناية دقيقة ومفصلة في كل ما يتعلق بالحقوق، فأبدًا لن تجدوا تلك الأمور متروكة لعبث العابثين، فهذا الوصي الذي سيختاره الوليّ الأصلي - الأب - من بعده لإدارة مال الرضيع، له هو كذلك شروط صارمة بل أشد صرامة، **فشروط الوصي نفسها هي شروط الولي مع إضافة شرط رابع وهو (العدالة)**، أي ثبوت شهادات الناس عنه بحسن السير والسلوك والسمعة ونظافة اليد واجتناب الكبائر: كالزنا والقذف وشرب الخمر والسرقة، وعدم الإصرار على الصغائر وما إلى ذلك، لأن الإشراف على مصالح الغير يتطلب استقامة ونزاهة وورعًا وأمانة، فالوصاية ائتمان، وبعض الآراء الفقهية قد أوجبت هذا الشرط نفسه للوليّ الأصلي ولاية مالية من باب أنه لا ولاية لفاسق، ولا عجب!

كانت تلك شروط الولي والوصي الماليين.

فماذا عن ضوابط إدارة هذا المال نفسه بعدما صار في أيديهما؟

لا يجوز للولي الإضراربمال الرضيع أو التصرف فيه كما لو كان ماله الخاص! كأن يتصدق منه مثلًا كما يحلو له أو يقترض ويبيع ويشتري ويعطي المنح والهدايا ويتاجر بدون دراسة حقيقية للربح أو الخسارة كمن يراهن بمال غيره فلا يهمه أين يصير، كلا «فليس للأب أن يتبرع بشيء من مال الصغير ونحوه، وليس له أيضًا أن يُقرِض مالَ الصغير للغير، ولا أن يقترِضَ منه لنفسه، لما في ذلك كله من تعطيل استثمار المال للطفل، فوضعت الشريعة معيارًا عامًا لتصرف الولي في مال القاصر: ألا وهو تحقق مصلحة الطفل»[1].

فلا يَتصرف في أموال الطفل إلا وفق مصلحته ولا يقوم إلا:

- بالتصرفات النافعة نفعًا محضًا للطفل - كقبول الهبة والصدقة والوصية له.
- أو بالتصرفات المتأرجحة بين الضرر والنفع - كالبيع والشراء والإجارة والاستئجار والشركة ونحو ذلك من أمور التجارة في مال الطفل واستثماره طمعًا في تنميته له.

ودليل هذا كله قوله ﷻ: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، فالآية وإن كانت خاصة باليتيم إلا أنها عامة في غيره.

ومن أشهر الأمثلة المعاصرة التي يحدث فيها هدرٌ لبعض حقوق الطفل المالية من قِبَل الوالدين:

استحواذ الأهل على العيدية أو العطايا المالية الممنوحة للطفل في المناسبات كهدية خاصة مودعة باسمه، فهذا حقٌ ماليٌّ يَستَهينُ به كثيرٌ من الآباء، من أول يومِ

(١) الفقه الإسلامي وأدلته-للدكتور وهبة الزحيلي.

لـولادة الطفـل، لا يحـق للوالديـن الأخـذ مـن المـالِ الممنـوح لـه، إلا بشـروط:

- ألا يكون في أخذه ضررٌ على الابن.
- ألا تتعلق به حاجةٌ للابن تتعسَّرُ حياتُه بدونها.
- ألا يأخذَه مِن ابنِه ليُعطِيَه لابنه الآخَر.
- أن يكون الوالدان مُحتاجَين لهذا المال.

قـال ﷺ: «إن أولادكـم هبـةُ الله لكـم ﴿يَهَـبُ لِمَـنْ يَشَـاء إِنَاثًـا وَيَهَـبُ لِمَـن يَشَـاء الذُّكُـور﴾ [الشـورى:٤٩]، فهـم وأموالُهـم لكـم (إذا احتَجتُـم إليهـا)»[١].

وقـال الألبـاني: «في الحديـثِ فائـدةٌ فقهيَّـة هامَّـة: أنـه يبيِّـن أن الحديـث الآخـر المشـهور «أنـتَ ومالُـك لأبيـك» ليـس مطلقًـا، فـلا يأخـذُ الأبُ مـن مـالِ ولـدِه كمـا يشـاء، وإنمـا يأخـذُ مـا هـو بحاجـةٍ إليـه»[٢]. وقـال ﷺ: «يَأْخُـذُ الْأَبُ وَالْأُمُّ مِـنْ مَـالِ وَلَدِهِمَـا بِغَيْـرِ إِذْنِـهِ، وَلَا يَأْخُـذُ الِابْـنُ وَالِابْنَـةُ مِـنْ مَـالِ أَبَوَيْهِمَـا بِغَيْـرِ إِذْنِهِمَـا».

فالمقصود إذًا[٣]:

- حيـن يحتـاج الوالـدان سـحبَ شـيءٍ مـن مـالِ الرضيـع بمـا يوافـق الشـروط، فـلا يسـتأذِنان.
- ولهمـا أن يأخـذا مـن المـال الممنـوحِ جـزءً لـردِّ الهديـةِ التـي منحهـا النـاس للولـدِ بالمثـل: «مَـنْ أَتَـى إليكُـمْ معروفًـا فكافِئُـوهُ، فـإِنْ لَـمْ تَجِـدُوا فادعـوا لَـهُ»[٤].

---

(١) صححه الألباني-السلسلة الصحيحة (٢٥٦٤).
(٢) بالجمع بين فتاوى على «الإسلام سؤال وجواب»، بعنوان: هل للأم أن تأخذ من مال ولدها وحكم بيع الصبي.
(٣) بالجمع بين فتاوى على «الإسلام سؤال وجواب»، بعنوان: هل للأم أن تأخذ من مال ولدها وحكم بيع الصبي.
(٤) صححه الألباني-صحيح أبي داود (٥١٠٩).

بجانب بقية تفاصيل وأمثلة أخرى نتناولها في كتاب المراحل الأكبر بإذن الله لمناسبتها هناك أكثر.

ثالثًا: حق الرضيع في النفقة عليه

وهي النفقة اللازمة لطعام الطفل وملابسه وعلاجه وتعلمه وكل ما يتصل بنموه النفسي والديني والاجتماعي والصحي والتحصيني ويحتاج للمال، وتشمل كذلك النفقة على أمه التي سترضعه وترعاه، وقد حفظت الشريعة هذا الحق من خلال توصيات عديدة تبين مدى حرصها على هذه النفس بشكل لم يسبق له مثيل في أي دساتير إنسانية، فمثلًا:

من ناحية الأب

١- أوجبت الشريعة على الأب أن ينفق على أولاده حتى يبلغ الذكَر ويستغني عن أبيه، وتتزوج الأنثى، قال ﷻ: ﴿وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وقال ﷺ: «ابدأ بمن تعول»[١].

٢- وحذرت من التفريط في ذلك، قال ﷺ: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت»[٢]، والقوت: هو الطعام بشكل خاص.

٣- ورغّبت في السخاء معهم وعدم التقتير، قال ﷺ: «دِينارٌ أنْفَقْتَهُ في سَبيلِ اللهِ، ودِينارٌ أنْفَقْتَهُ في رَقَبَةٍ، ودِينارٌ تَصَدَّقْتَ به علَى مِسْكِينٍ، ودِينارٌ أنْفَقْتَهُ علَى أهْلِكَ؛ أعْظَمُها أجْرًا الذي أنْفَقْتَهُ علَى أهْلِكَ»[٣]، وكذلك قال: «أفضل دينار ينفقه الرجل: دينار ينفقه على عياله»، ثم أضاف أمورًا أخرى في سبيل الله،[٤] قال أبو قلابة: «وبدأ

(١) البخاري (٥٣٥٦).
(٢) صححه أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر (١١/ ٧٢) | صححه الألباني-إرواء الغليل (٨٩٤) | صححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٤٢٤٠).
(٣) مسلم (٩٩٥).
(٤) صحيح مسلم:(٩٩٤).

بالعيال، فأي رجل أعظم أجرًا من رجل ينفق على عياله الصغار، يعفهم، أو ينفعهم الله به، ويغنيهم؟».

٤- وعلمت الأب أن يراعي عياله إن أراد التصدق، فلا تُفقِرُهم صدقاتُه، قال ﷺ: «أفضلُ الصدَقةِ ما تَرَكَ غِنًى، واليَدُ العُلْيا خيرٌ من اليَدِ السُّفْلَى، وابدأْ بِمَنْ تَعولُ»[1].

«أي أنَّ أفضَلَ الصَّدقةِ ما أخرجَه الإنسانُ مِن مالِه بعْدَ أنْ يَستبقيَ منه قَدْرَ الكِفايةِ وما يُغنيهِ هو ومَن يَعولُه، بِحيثُ لا يَصِيرُ المُتصدِّقُ مُحتاجًا بعْدَ صَدَقتِه إلى أحدٍ، ثُمَّ أمَرَ ﷺ المتصدِّقَ أنْ يَبدَأَ بصَدقتِه على مَن يَعولُه، أي: بمن يجِبُ على الإنسانِ رعايتُهم والإنفاقُ عليهم؛ مِن النَّفْسِ والأهلِ والولَدِ ونحوِهم. خَشيةَ أنْ يَظُنَّ المتصدقون أنَّ النَّفقةَ على الأهلِ لا أجْرَ لهمْ فيها، فعرَّفَهم النبي ﷺ أنَّها لهم صَدقة حتَّى لا يُخرِجوها إلى غيْرِهم إلَّا بعْدَ أنْ يَضمَنوا كِفايةَ مَن يَعولونَهم، وهذا كلُّه مِن التَّربيةِ النَّبويَّةِ على العَفافِ والرِّضا، وتَرتيبِ الأولَويَّاتِ في النَّفقةِ؛ حتَّى يَكفِيَ المرءُ أهْلَه ومَن تَلزَمُه نفَقتُه، ثمَّ يتَصدَّقَ عن ظَهرِ غِنًى»[2].

فتأملوا معي مثلًا، حين يكبر هذا الطفل ويرى بعينيه أباه ينفق ها هنا وها هنا، تارة على العمات والأعمام وأولادهم وتارة على حارس العقار وأهله وتارة على جاره وصغاره، بينما هذا الطفل مثلًا يعيش بنعل مهترِيء أو جلباب قديم وملابس بالية وألعاب مُحَطمة، والأب لا يلتفت لذلك، أو ربما يراه ويظن أنه بفعله هذا هو أقرب إلى الله، فيستحِي الولد أن يقول لأبيه: «أبدأ بي يا أبي».

فيأتي نصٌ نبوي كهذا حاسمًا قاطعًا واضحًا، يضع الأمور في نصابها ويعلم الأب إعطاء كل ذي حق حقه ويعفي الأبناء من الحرج، ويشجع من يستحي من المطالبة بحقه ألا يستحي، فالله لا يستحيي من الحق.

(١) (صححه الألباني-صحيح الجامع (١١١٤)) وأخرجه صحيح البخاري: ٥٣٥٥).
(٢) شرح الدرر السنية للحديث-باختصار يسير.

٥- وجعلت نفقة الصغار لا تسقط بالإعسار، فيُفرَضُ على الأب القادر أن ينفق على أولاده، ويفرض عليه أن يعمل ليكتسب مالًا، ويُحبس إذا امتنع، ويُرغم على العمل لو يقدر: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق:٧]، فإن ثبت عجزه عن العمل والنفقة؛ فنفقته وأولاده واجبة على بيت المال.

٦- وجعلت للمرأة الحق في الأخذ من مال زوجها إذا كان بخيلًا لا ينفق عليها ولا على عياله، «قالَتْ هِنْدٌ أُمُّ مُعَاوِيَةَ لِرسول الله ﷺ: «إنَّ أبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، فَهلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أنْ آخُذَ مِن مَالِهِ سِرًّا؟ قالَ: خُذِي أنْتِ وبَنُوكِ ما يَكْفِيكِ بالمَعروفِ»[1]، أي أبيح لها الأخذ سرًا من مال زوجها دون علمه، وكلنا يعلم كم هذا ثقيل على النفسِ جدًا، ولكن هذا هو الإسلام، يبيح للمضطر ما لا يبيحه لغيره، ولا أعظم اضطرارًا من الافتقار لقوت وكساء وعلاج وقضاء حاجاتِ العيال.

فإن قيل هنا: «ولكن الإسلام هكذا يُعلم الإنسان خلقًا سيئًا»! فالجواب: ليس ذلك مطلقًا، فهناك قاعدة في الفقه الإسلامي تحث على قبول أخف الضررين، فهنا ضرر سيقع على الطفل لو لم يجد قوته، فقد يضعف ويمرض وربما يموت، فأين ضرورة حفظ النفس والتي منها الوقاية من الخطر؟ فيتم تقديم حياته ومقصد حفظ نفسه على مقصد حفظ الأخلاق مؤقتا هنا استثناءًا، فكما قلنا في مقدمة هذا الكتاب، أن ديننا رتب المصالح البشرية بشكل حكيم، وأينما كانت الشريعة كانت المصلحة، فالحمد لله على نعمة الاسلام.

٧- وأوجبت على الأب الإنفاق على الطفل حتى لو حدث طلاق، هذا بجانب حق المطلقة في أخذ أجرة للرضاع وأجرة للحضانة، قال ﷻ في سياق الطلاق في سورة البقرة: ﴿ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، المولود له هو الأب، وفي سورة الطلاق: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦].

---

(١) البخاري (٢٢١١).

ومن ناحية الأم

رغَّبت الشريعةُ الأمَ أيضًا في النفقة مع زوجها على العيال طواعيةً، سواء كان الأب معسرًا أم لا، رغم أن الأم ليست ملزمة بالنفقة، قالت أم سلمة: «يا رسول الله، أَلِيَ أجْرٌ أنْ أُنْفِقَ علَى بَنِي أبِي سَلَمَةَ، إنَّما هُمْ بَنِيَّ!؟ - أي أنها تخشى ألا تُحتَسَب لها صدقة لأنهم بنوها وأولادها الذين تسعد بإسعادِهم - فَقَالَ ﷺ: أنْفِقِي عليهم، فَلَكِ أجْرُ ما أنْفَقْتِ عليهم»[(١)].

باختصار: لا نجد في الشريعة «أطفال بدون نفقة»، فمن الأمور العجيبة بالفعل أن نتخيل أن هناك أبًا لا ينفق على عياله، أيا كانت الأسباب والمبررات، اللهم إلا تَعَسُّرِه ماليًا أو عجزه عن كسب المال وتقصير المجتمع الإسلامي في سد حاجتهم من بعده، وعدم وجود بيت مال للمسلمين.

وهناك قصة رائعة متصلة بهذا المعنى، من سيرة الخلفاء الراشدين المهديين الذين حثنا النبي ﷺ على العض عليها بالنواجذ، جاء فيها أن أبا بكرٍ في يوم من الأيامِ بعدما أصبح خليفة المسلمين، ذهب إلى السوق صباحًا ليعمل ويكسب قوته، فقال له الفاروق: أين تريد؟! - أي: أين تذهب - فأجاب: السوق! فقال عمر مندهشًا: وقد جاءك ما يشغلك عن السوق؟! فأجاب أبو بكر: سبحان الله! يشغلني عن عيالي! فقال الفاروق: تَفرِض بالمعروف، أي: ينبغي إذن أن يُفرَض لك مرتب من بيت المال يكفيك ويغنيك عن الانشغال عن الرعية بشُغلِك في السوق لقوت عيالك.

فأبو بكر هنا صار محاَصرًا بأكثر من ولايةٍ ومسئولية:

- مسئولية الولاية العامة لعموم المسلمين، ولاية السلطان على الرعية.
- ومسئولية الولاية الخاصة (بقسميها: الشخصية والمالية) على عياله. فكان لابد من حل، يصان فيه حقوق كل هؤلاء الرعية، عامتهم وخاصتهم، وهكذا

---

(١) البخاري (١٤٦٧).

هم الرجال والآباء بحق، فتأملوا حال أمتنا اليوم وما تعُج به من أطفال الشوارع بل وآبائِهم أيضًا، لتدركوا كم تعبنا وأتعبنا أنفسنا ببعدنا عن تطبيق الشريعة في حياتنا وبخاصة تطبيق حقوق الطفل في الإسلام.

وكما رأينا، تلبية النفقة ليست فقط متصلة بالحقوق المالية، إنما النفسية والاجتماعية والصحية أيضًا، لذلك تندرج تحت مقاصد حفظ النفس والمال والعقل، وثلاثتهم من الضرورات الخمس.

رابعًا: حق الرضيع في العدل بينه وبين إخوته في المِنَح والعطايا المالية

وسبق تفصيلها في حقوق واحتياجات الرضيع النفسية تحت مسألة العدل بينهم عامةً، فيُرجَع إلى أحاديثها وتفصيلها هناك، وهذا الأمر هنا له أثر على الطفل نفسه وعلى إخوته، فلو تذكرون في تربية الوليد ذكَرنا الشق الخاص بتأثر إخوته بالأمر فحسب، حيث أن الوليد لا يشعر بذلك مثلهم بعد، بينما هنا في تربية الرضيع: فإن الشق الأول والثاني متحققان، ألا وهما: تأثر إخوته بالتفرقة بينهم، وتأثره هو أيضًا، نظرًا لتطور نمو الرضيع الإدراكي والنفسي، فالعناية بها هنا آكد وأشد.

انتهت مؤقتًا حقوق واحتياجات الرضيع المالية، وهي بسيطة في الحجم عظيمة في التفاصيل والآثار، وننتقل الآن للمحور التالي: حقوق واحتياجات الرضيع الاجتماعية.



المحور الخامس

حقوق واحتياجات الرضيع الاجتماعية

جملة من الحقوق والاحتياجات التي تعزز النمو الاجتماعي بشكل صحي ومتزن في نفوس الصغار، دون إفراط أو تفريط، ستجدون هنا بعض العناوين مما ذكرناه في المحور النفسي بتفصيل لاتصالها بقوة بالمحور الاجتماعي، لكنها هنا كعناوين فقط تفاديًا للإطالة.

ونكرر: كل ما في المحور الاجتماعي هو بطبيعة الحال مما يعزز أيضًا نموًا نفسيًّا سليمًا، نظرًا لتداخل الزوايا النفسية والاجتماعية معًا غالبًا بشكل يَصعُب معه فصلُهما وفصلُ آثارِهما عن بعضهما البعض كما أشرنا من قبل وقلنا أنه لهذا السبب هناك «علم» إنساني خاص بهما معا اسمه Psychosociology ولا عجب!

من أبرز تلك الحقوق والاحتياجات لتنمية التوافق الاجتماعي للطفل مع محيطه الخارجي:

أولًا: حق الرضيع في توفير مساحات له من اللعب بأمان وحرية «خارج البيت»، وبشكل يتيح تواصلًا اجتماعيًّا صحيًّا «مع الأقران»

ذكرناه في الجانب النفسي عند سرد كل متعلقات اللعب، ونذكره هنا لبروز زاويته الاجتماعية بوضوح، فلا يكون كل لعب الرضيع في البيوت بين أربعة جدران ضيقة مع الأم والأب فقط أو أخيه الأكبر مثلًا فقط، ومن الأحاديث التي تشير إلى هذا الأمر:

حديث «السكة»، ونقتبس مقصودنا فقط منه منعًا للتكرار: «فإذا حُسَيْنٌ يلعَبُ في

السِّكَّةِ»[(١)]، وفي رواية: «فإذا حُسَيْنٌ مع الصِّبيانِ يلعَبُ»[(٢)].

وحديث «المشربة»، وجاء فيه: «فتوجَّه النبي ﷺ فوجدَهما يلعبان في مشربَةٍ، وبين أيديهما فضلٌ من تمرٍ»[(٣)]، أي وجد الحسنَ والحسين بصحبة أبيهما علي بن أبي طالب، يلعبان هناك وهما يأكلان تمرًا، وبينّا أحد معاني المَشْرُبَة وهي المكان الذي يُشرَبُ فيه والأرض الليّنة دائمةَ النبات، وفي روايات جاءت «شَرَبة» والتي معناها في معجم المعاني: الشَّرَبَةُ هي الحوضُ الصغير يُحْفَرُ حَوْلَ الشجرة ويُمْلأُ ماءً لتشربه، فالشَّاهدُ: أنَّ عليًّا أخرجَ الحسنَ والحسينَ للعب خارج البيت، خلية الطفل الاجتماعية المُصَغَّرة.

وحديث «الشهباء» الذي قال فيه سلمة بن الأكوع: «لقَدْ قُدْتُ بنَبِيِّ اللهِ ﷺ والحَسَنِ والحُسَيْنِ، بَغْلَتَه الشَّهْباءَ، حتَّى أدْخَلْتُهُمْ حُجْرَةَ النبي ﷺ؛ هذا قُدَّامَهُ، وهذا خَلْفَهُ»[(٤)]، الشاهد: يأخذهما ﷺ خارج البيت للتنزه وركوب الدابة ونحو ذلك.

ثانيًا: حق الرضيع في عدم إفراط الأهل في إجباره على أمور تخالف شروط الطاعة:

نعم كما قرأتم، فبجانب ذكرها في المحور النفسي، فإن لها زاوية اجتماعية هامة جدًا، حيث أن استغلال الوالدين لحقهم في الطاعة ليل نهار بإفراط، أو الإسراف في استعمال القوة والقهر لإرغام الطفل، هذا قد يورثه ضعفًا شخصيًا واجتماعيًّا ورضوخًا للآخرين بسهولة، نعم أحيانًا كثيرًا تستلزم المواقفُ إجبارًا على أمر ما، بخاصة مع الرضيع المُعانِد المتمرد صعب المراس الذي يُلزِم المربي كل مرة بإقناعه بكل شيء ليستجيب، وهذا خطأ بالفعل، لكن نجتهد في تحقيق التوازن، فلا إفراط ولا تفريط، لاسيما إذا كان الرضيع هش الشخصية أو لديه جبن وضعف وانكماش

---

(١) حسنه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٨)، والقصة في صحيح ابن حبان (٦٩٧١).

(٢) صححها ابن حبان-صحيح ابن حبان (٦٩٧١).

(٣) حسنه الهيثمي-مجمع الزوائد (١٠/ ٣١٩) | وحسنه المنذري-الترغيب والترهيب (٤/ ١٨١) | وأخرجه وصححه الحاكم في المستدرك على الصحيحين وقال «كلهم ثقات»(٤٨٣٨)، بينما خالفه الذهبي وغيره.

(٤) مسلم (٢٤٢٣).

تلقائي نوعًا ما، فيُخشى أن يُضاعِفَ هذا التعامل مِن كل ذلك بشكل سلبي يؤثر على تواصله الاجتماعي مع الناس، فالصواب ما قلناه: أن الطاعة تكون في إطار التربية والمصلحة المتحققة، دون إضرار بالولد وتسلط غير مبرر لا شرعًا ولا عقلًا، وتكلمنا عن تلك النقطة بوفرة هناك وبينَّا الفرق بين البر والطاعة وشروطها، فيرجع إليها لئلا نطيل هنا عليكم أكثر.

ثالثًا: حق الرضيع في مخاطبته بما يرسخ هويته الاجتماعية:

من خلال: الأسماء، أو الكنيات، أو ضمائر المخاطب المناسبة عند النداء والخطاب إلخ، لمسناها في الأحاديث التي كان فيها: يا أم خالد، يا أبا عمير، يا زوينب، يا صبيان، يا غلام، يا حميراء، ولا يخفى ما في هذا الجانب من عناية بالتربية الجنسية الشرعية للطفل كذلك، كما سنفصل.

رابعًا: إعطاء الرضيع كنية أو التكنية

نذكرها هنا أيضًا لامتداد أثرها الاجتماعي على الطفل لما فيها من احترامه وإكباره بين الناس، بالإضافة كذلك لما فيها من التعزيز للهوية الاجتماعية مرة أخرى والتأكيد على الغاية الاجتماعية المستقبلية في تكوين أسرة، نواةِ المجتمع: يا أبا فلان، يا أم فلان، ويرجع إلى تفصيل آثار الكنية في المحور النفسي.

خامسًا: حق الرضيع في إيثاره بالكنية لأبيه إن كان هو الطفل الأول أو الأكبر:

ذكرناها من قبل في الوليد وبينّا ثمرتَها على تعامل الناس مع الطفل وإن لم يدرك هو معناها بعد لأنه وليد، وإن كان يخزنها بكثرة ترددها على سمعه، فما أثر ذلك عليه تراكميا كلما كبُر؟

الجواب: كلما قيلت حوله لأبيه وأمه «كيفك أبا فلان، مرحب أم فلان، ناولني الكوب يا أبا فلان، كيف حالك أم فلان؟» وبدأ الطفل يدرك تكنية أبيه باسمه هو

كأكبرِ واحدٍ في إخوته وأول من جاء فيهم للدنيا، كل ذلك يُهَيِءُ وجدانه لأهمية وقيمة **الأخ الأكبر** ومسئولياته الاجتماعية وقيمة مفهوم الكبار عمومًا، وهذا من النمو السليم للتوافق الاجتماعي، وقد فعلها ﷺ مع أحد الصحابة في حديث «أبو شريح»، والذي نقتبس منه موضع الشاهد فقط، حين سأله ﷺ: «فما لك من الولد؟ فقال: شريح ومسلم وعبد الله، فقال ﷺ: مَن أكبرهم؟ قال الرجل: شريح، فقال ﷺ: «أنت أبو شريح»[1].

سادسًا: حق الرضيع في الترحيب والاحتفاء بقدومه للمجلس واستقباله بحفاوة أمام الناس

وتم تفصيلها في المحور النفسي تحت نفس العنوانين لشدة تشابكهما، فيرجع إليه هناك أفضل.

سابعًا: حق الرضيع في عدم إبداء التحرج منه أمام الناس في الطريق من ملاعبتِه أو من ملاقاتِه أو من التبسطِ والتنزل معه بأي أنواع المحبة الحسية أو المعنوية

ونجد الإشارة إلى هذا الأمر في جملة من الدرر النبوية المذكورة من قبل، ونقتبس الجزء المقصود فقط منها كالتالي:

- من حديث «السكة» الذي لا تنتهي درره: «فتقدَّمَ النبي ﷺ أمامَ القومِ وبَسطَ يديه»[2]، وفيها عدم التحرج من التبسط معهم والتنزل لهم أمام الناس.

- وحديث «صلاتَي العَشِيّ» الذي جاء فيه: «ولكن ابْني ارْتَحَلَني، فكرِهْتُ أنْ أُعْجِلَهُ حتَّى يَقضيَ حاجتَهُ»، فها هو ﷺ أمام الناس يتخذه أحفادُه كالراحلة ويصف ﷺ ذلك عن نفسه ببساطة.

- بل يعلنها صراحة أمام الناس في مرة متكلمًا عن نفسه (نعم المطية مطيتُكما)

---

(١) صححه الألباني-صحيح الأدب المفرد (٦٢٣).

(٢) حسنه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٨)، والقصة في صحيح ابن حبان (٦٩٧١).

يقول البراء بن عازب: «كانَ النبي ﷺ يصلِّي فجاءَ الحسنُ والحسينُ أو أحدُهما فركبَ على ظهرِهِ فكانَ إذا رفعَ رأسَهُ قالَ بيدِهِ فأمسَكَهما وقالَ «نِعمَ المطيَّةُ مطيَّتُكما».

۞ وحديث الزيارة المفاجئة من أسامة بن زيد، والمذكور في فقرة حمل الصغار، يقول: «طرقتُ النبي ﷺ ذاتَ ليلةٍ في بَعضِ الحاجةِ فخرجَ النبي ﷺ وَهوَ مشتملٌ على شيءٍ لا أدري ما هوَ، فلمَّا فَرغتُ من حاجَتي. قلتُ: ما هذا الَّذي أنتَ مشتملٌ عليهِ؟ فَكَشفَهُ فإذا حسنٌ وحُسَيْنٌ على ورِكَيهِ، فقالَ: هذانِ ابناايَ وابنا ابنتي، اللَّهمَّ إنِّي أحبُّهما فأحبَّهما وأحبَّ مَن يحبُّهما»[1]، فلم يتحرج ﷺ، ولم ينزلهما أو يواريهما مثلاً قبل أن يفتح الباب كما نفعل أحيانًا.

۞ وحديث «التعثر» حين أقبل حفيدا النبي ﷺ يمشيان ويعثران في ملابسهما: «فنزلَ النبي ﷺ، فقَطعَ كلامَهُ، فحملَهُما ثمَّ عادَ إلى المنبرِ، ثمَّ قالَ: «صدقَ اللهُ: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ! رأيتُ هذينِ يعثرانِ في قميصَيهما، فلم أصبِرْ حتَّى قَطعتُ كَلامي فحَملتُهُما»[2].

هكذا ببساطة دون أن أي تحرج: قطع الخطبة ثم حملهما ثم عبَّر عن شفقته لهما وأنها فتنة طبيعية لكل قلب رحيم لا حرج فيها ثم أكمل خطبته، ولم يمنعهما من حضور الخطبة أو يزجرهما ويأمرهما أن ينصرفا لئلا يحرجاه مثلًا ويربكاه ويشتتا استرساله الخطابي أمام الناس، ولا أي شيء من ذلك مما نفعله لو كنا مكانه ﷺ.

۞ وحديث «التلثيم المتتابع» أمام الناس، قال أبو هريرة: «خرَجَ علينا النبي ﷺ ومعه حَسَنٌ وحُسَينٌ، هذا على عاتِقِه، وهذا على عاتِقِه، وهو يَلثِمُ هذا مَرَّةً، وهذا مَرَّةً، (حتى انتَهى إلينا)»[3]، (يلثم أي: يُقبّل)، والناس يشاهدون ولا يتحرج من ذلك مطلقًا كما يتحرّج بعض الكبار.

---

(١) حسنه الألباني-صحيح الترمذي (٣٧٦٩) واللفظ له| واللفظ له، وأخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٥٢٤).
(٢) صححه الألباني-صحيح النسائي (١٤١٢).
(٣) حسنه شعيب الأرنؤوط-تخريج المسند لعشيب (٩٦٧٣) | صححه الحاكم-المستدرك على الصحيحين (٤٨٤١) | وقال الشوكاني: إسناده رجاله ثقات-در السحابة (٢٣٩).

ومثلها جميعًا: كل أحاديث تقبيله الصغار مرارًا وتكرارًا أمام الناس وتخويفه من قسوة القلب والحرمان من الرحمة مَن يستنكفون عن تقبيل الصغار، وأحاديث ملاعبته وممازحته إياهم - مثل حديث مج الماء في وجوه الصغار وارتحالهم ظهره ولعبهم في خاتم النبوة وإدخالهم يدهم في لحيته وغيرها، يمكنكم الرجوع إليها في فقرات اللعب.

كل ذلك ليعلم الناس أن التبسط والتنزل أمامهم مع الصغار ليس مما ينزع هيبة المربي في شيء ولا يلصق بذوي الشأن صَغارًا ولا مَهانةً ولا حرجًا بل على العكس يزيدهم رفعةً ومحبةً وشأنًا.

لكن ننبه فقط النساء، إلى أهمية عدم إبراز تلطفهن بالملاعبة والممازحة والتبسط مع الصغار أمام الرجال من غير المحارم، لئلا يدخل ضمن الخضوع بالقول.

ثامنًا: احتياج الرضيع لتحصينه ضد احتمالية الإيذاء المجتمعي

يتحقق بأمور متنوعة، منها: نشر محبتنا له بين الناس وحثهم على حبه والتحذير من بغضه وإيذائه، بدون حق ابتداءًا، ويظهر هذا الأمر بوضوح من خلال كل الأحاديث التي ذكرناها في المحور النفسي في مسألة التعبير للصغار عن حبنا صراحةً وحث الناس على حبهم، سواء كان التعبير عن ذلك في جمع من الناس أو غير ذلك، وهي كثيرة، فيرجع إليها اتقاءًا للتكرار.

نذكر منها هنا فقط ما كان ظاهر الوضوح أنه أمام الناس لاتصاله بالمحور الاجتماعي أكثر:

- أحد أحاديث صلاته ﷺ بحفيديه: «فلمَّا قَضى الصَّلاةَ وضعَهما في حجرِهِ وقالَ: «من أحبَّني فليُحبَّ هذينِ»[1].

---

(١) حسنه الألباني-صفة الصلاة (١٤٨) | وصحيح ابن خزيمة وقال: إسناده حسن رجاله ثقات رجال مسلم| أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨١٧٠)، وابن خزيمة (٨٨٧) باختلاف يسير، وأبو يعلى (٥٠١٧) واللفظ له.

۞ وحديث «التلثيم المتتابع»، والذي يحمل فيه ﷺ كلا حفيديه إلى أن وصل إلى القوم: «فقال له رَجُلٌ: يا رسول الله، إنَّكَ تُحِبُّهما؟ فقال ﷺ: «مَن أحَبَّهما فقد أحَبَّني، ومَن أبغَضَهما فقد أبغَضَني»[1].

۞ وقوله ﷺ للصحابة: «فإنَّما ابْنَتي بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُنِي ما رَابَهَا وَيُؤْذِينِي ما آذَاهَا»[2].

۞ وفي رواية: «فاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، فمَن أغْضَبَها أغْضَبَنِي»[3].

۞ بجانب قولة النبي ﷺ الجليلة والتي لا أمل من تكرارها، في حديث «التعثر»:

«رأيتُ هذينِ يعثرانِ في قميصَيهما، فلم أصبِرْ حتَّى قَطعتُ كَلامي فحَملتُهما»[4]، فلم يكتفِ بالنزول أمام الناس من على المنبر وحمل الصغيرين، بل أعلنها للناس صراحة وأكدها أنه لا يصبر على رؤيتهما بأقل أذى، قبل أن يستكمل خطبته، وهذا يدل بوضوح على أنه من لا يتحمّل فيهم مجرد عثرات خفيفات بسبب الملابس، لا يتحمل فيهم طلقات مؤذية من كلامٍ وفِعال الناس.

وكم نرى من أناس يتدرون بإيذاء الرضيع في شكله وهيئته أمام والديه، ويخجل الوالدان من الصد والرد، فيتمادَى المؤذي بلسانه جلدًا ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال: مال لرضيعكم دميم هكذا؟ أين رضيعكم أبو صلعة؟ ما لرضيعكم لا يشبهكم ولم يأخذ حلاوتكم! أين رأيت هذا «الضَب» العجيب من قبل؟؟! (وهو بروز الأسنان للأمام قليلًا) وما إلى ذلك، ويتلقّى الوالدان السخريةَ بضحكٍ وهميٍ يواريان خلفه حرجَهما بحيلةٍ نفسية، لعجزهما عن إيقاف هذا الجلد والسلق بالألسنة الحداد؛ بينما كان الواجب أن يتم ردع هؤلاء الناس وكف أذاهم من البداية، بل الاستباق بخطوات تحصين ووقاية اجتماعية كما فعل ﷺ بنشره لمحبته لحفيديه وبناته بين الناس

(١) صححه أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر (١٤/ ٢٦٠) | وحسنه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٧).
(٢) مسلم (٢٤٤٩).
(٣) البخاري (٣٧١٤).
(٤) صححه الألباني-صحيح النسائي (١٤١٢).

وإعلان ذلك بوضوح وإعلام الجميع أنه يؤذيه ما يؤذيهم وأنه يحب من يحبهم ومن أراد أن يبغضه ﷺ فليبغضهم، ونحو ذلك، حتى إذا كبر الصبي وواجه أحد هؤلاء المؤذيين مرة أخرى الذي لا يرعوي بأي شيء، يكون قد اكتسب حصانة اجتماعية وافرة تجعله يتجاوز تلك الإساءات بقوة نفسية ساهم في تكوينها حسن سقاية النفس بالحب سرًا وجهرًا، بحول الله وقوته.

تاسعًا: حق الرضيع في المخالطة الاجتماعية

ظهر ذلك من خلال زيارته ﷺ لحفيديه مرارًا في بيتهما خصيصا للمكث معهما، وسبق تفصيله.

عاشرًا: احتياج الرضيع إلى إظهار احترامنا له وعدم إهانته أو احتقاره

قلنا أن هناك موضعين لإظهار احترامنا للرضيع: في البيت حيث لا ترانا العيون، أو أمام الناس سواء خارج البيت أو داخله، وذكرنا في المحور النفسي مثالين من السُنة على النوع الأول مما يناسب مرحلة الرضيع، عناوينها كانت باختصار:

١-الكُنية　　　　　　　　٢-عدم سبهم ولا الدعاء عليهم.

ونفس تلك العناصر عند تفعيلها أمام الناس يكون لها آثار اجتماعية أيضًا، فيُرجع إلى تفصيلها هناك تفاديا للتكرار، وإنما نضيف إليها هنا ما يلي من العناصر الاجتماعية التي تكون غالبًا أمام الناس، ولا مانع من فعلها بعيدًا عن العيون أيضًا تعزيزًا للنمو النفسي السليم.

١- عدم إهمال النظر إليهم في وجود الناس أو الكبار:

جاء في حديث أن أبا بَكرةَ نُفيعَ بنَ الحارثِ الثَّقَفيَّ رَأى النَّبيَّ ﷺ عَلى المِنبَرِ والحُسَنُ بنُ عَليٍّ إلى جَنبِه - وكان صَغيرًا، وكان النَّبيُّ ﷺ يَنظُرُ إلى النَّاسِ مَرَّةً وإلى الحسَنِ مرَّةً»[1].

(١) البخاري (٢٧٠٤).

ولا يخفى ما في هذا من العدل المعنوي بينهم وبين الناس، والذي يغمرهم نفسيًا بالقيمة والاحترام.

٢- التسليم عليهم إذا مررنا بهم في الطرقات، أو إذا زارنا رضيع مثلًا أو زرناه:

سبق ذكرها في أنواع التعبير عن الحب والاهتمام، وفيها كذلك من إظهار الإكبار أو الاحترام بما يناسب مرحلته، قال أنس: «أتانا النبي ﷺ ونحن صبيان فسلم علينا»(١).

وفي رواية أخرى قال لهم «السلام عليكم يا صبيان»(٢)، فالأصل هو سلام الصغير على الكبير والمار على القاعد، ولكن هنا تعارض الأمران، فقدم النبي ﷺ [سلام المار على القاعد] على [سلام الصغير على الكبير]، ليُقَدِّم للصغار قدوة زكية في التواضع وفي البدء بالنفس أولًا، فسلام الكبير على الصغير أحيانًا يُعتَبَرُ من التربية بالقدوة فلا بأس وقد كان يفعله ﷺ.

٣- إبداء الإعجاب أمام الناس بهيئتهم والثناء على ملابسهم الجميلة:

حديث «أم خالد» الذي تحكي فيه عن نفسها حين كانت صغيرة قائلة: «أَتَيْتُ النبي ﷺ مع أَبِي وعَلَيَّ قَمِيصٌ أصْفَرُ، قَالَ ﷺ: سَنَهْ سَنَهْ - قَالَ عبدُ اللهِ بن المبارك أحد رواة الحديث: وهي بالحَبَشِيَّةِ (حَسَنَةٌ)»(٣)، وفي رواية أنه أخذ ﷺ يشير إلى ملابسها ويقول: «يا أم خالد هذا سناه سناه، أي حسنٌ وجميل»(٤).

٤- عدم التعدي أمام الناس على أي من حقوقه مهما كانت بسيطة، ولا هدرها لصالح الناس:

---

(١) صححه الألباني-صحيح ابن ماجه (٣٠٠٠) | وصححه الألباني-صحيح الأدب المفرد (٨٦٨) | أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٣٩)، وأصله في صحيح مسلم:٢٤٨٢) باختلاف يسير.

(٢) صححه الألباني-السلسلة الصحيحة (٢٩٥٠)| أخرجه صحيح البخاري: ٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨) بمعناه.

(٣) البخاري (٣٠٧١).

(٤) البخاري (٥٨٤٥).

ذكرنا في المحور النفسي جانبًا من تلك الحقوق مما يناسب الرضيع:

- حق الطفل في البدء به لو كان هو أول من طلب الشيء.
- حق الطفل في عدم إقامته من مجلسه الذي يجلس فيه بدون سبب معتبر شرعًا.
- حق الطفل في احترام أغراضه وعدم الأخذ منها لإعطائها لأحد دون طيب نفسِه، إلا لسبب معتبر نجتهد في أن يفهمه.

فكل ذلك وأمثاله قد يراعيه الأهل في البيوت تلقائيًّا، ثم أمام الناس يطرحونه جانبًا للأسف إكبارًا للناس على حساب طفلهم، وسبق ذكر أحاديثها وتفاصيلها فيرجع إليها هناك لئلا نطيل عليكم.

حادي عشر: حق الرضيع في عدم التفرقة بين الذكر والأنثى دون سبب معتبر شرعًا وتعزيز الحقوق الاجتماعية للرضيعة الأنثى بشكل خاص عند وجود دعوات جاهلية:

تكلمنا سابقًا عن نفس هذا العنوان في مرحلة الوليد وبينّا كيف أن النبي ﷺ عزز من حقوقهن وسط ظلمات الظلم الجاهلي في زمنه وكيف أَوْلاهنّ رعاية إضافية عند مجيئهن للدنيا، لوأدِ «جاهلية الوأد»، ثم تكلمنا بعدها في فصول متقدمة من الرضيع، عن تفعيل ذلك العنصر سواء داخل الأسرة بعيدا عن أعين الناس: (الخلية الاجتماعية الأولى)[1]، أو خارجها داخل المجتمع الكبير: (الخلية الاجتماعية الثانية)، لئلا يقوم الأهل بمراعاة ذلك الجانب داخل البيت فقط ثم حين يكونون خارجَه يسحَقون حقوقَ الإناث خوفًا من ألسنة الناس، وسردنا نصوصًا شرعية فيها مواقف حياتية تبرز هذا الأمر بوضوح وتوضح مدى تشابك المحور النفسي والاجتماعي معًا في هذا العنصر بما يُصَعِّبُ فصلَهما عن بعضهما البعض في محورين مختلفين، فيرجع إلى الفقرات المتممة له في المحور الاجتماعي في تربية الوليد، وفي المحور النفسي للرضيع، لئلا نطيل عليكم، وبقي لنا هنا أن نذكر أمثلة من أقواله ﷺ وأفعاله

(١) كما أسمتها د. هند شلبي رحمها الله.

المجتمعية تبين كيف عزز بها ﷺ هذين العنصرين في المجتمع.

❁ **الشق الأول**: بالنسبة لتوجيهه ﷺ المجتمع لعدم التفرقة بين النساء والرجال في التعامل الإنساني العام والحقوق والواجبات إلا بما أقرته الشريعة من فروق بينهم:

١. تربيته المستمرة للمجتمع على الآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨]، ومعروف أنها درجة القوامة اللازمة لحمايتهن ورعاية شؤونهن والنفقة عليهن ونحوه.

٢. تربيته المستمرة للمجتمع على الحديث: «النساء شقائق الرجال»[١].

٣. **دفاعه ﷺ** أمام الحضور عن حق الصبية الصغيرة التي قام والدها بتقبيل أخيها ولم يُقبّلها بالمثل عندما أقبلت إلى مجلس الأب، يقول أنس: «قال ﷺ: (فهلَّا عَدَلْتَ بينَهُمَا؟)»[٢].

٤. وما قلناه بالطبع في تربية الوليد من حثه ﷺ للمجتمع على ذبح شاة عن الفتاة عند مجيئها للدنيا وجمع الناس على طعامها احتفاءً وابتهاجًا وشكرًا لله على نعمتها، مثلما يذبحون لمجيء الولد.

❁ **الشق الثاني**: بالنسبة لمضاعفته ﷺ العناية الخاصة بالإناث في حال شيوع جاهلية ضدهم: (بخاصة صغار الإناث):

١- فضل خاص لمن يعيل الإناث:

❁ «مَن كانَ لَهُ ثلاثُ بَناتٍ فصبرَ عليهنَّ، وأطعمَهُنَّ، وسقاهنَّ، وَكَساهنَّ مِن جِدَتِهِ كنَّ لَهُ حجابًا منَ النَّارِ يومَ القيامَةِ»[٣].

❁ «مَن عالَ ابنتينِ أو ثلاثًا، أو أختينِ أو ثلاثًا حتَّى يَبِنَّ - ينفصلن عنه بموت

---

(١) صححه الألباني-السلسلة الصحيحة (٢٨٦٣) | وصححه ابن باز-مجموع فتاوى ابن باز (٢٥/ ٣٧٣).
(٢) حسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٣٠٩٨).
(٣) صححه الألباني-صححه (٢٩٧٤) | وصححه ابن باز-مجموع فتاوى ابن باز (٢٥/ ٣٦٥).

أو زواج - أو يَموتَ عنهنَّ؛ كنتُ أنا وهوَ في الجنَّةِ كَهاتينِ - وأشار بأُصْبُعيهِ السبَّابَةَ والتي تلِيهَا»[1].

۞ «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو - وضم أصابعه»[2]، قال ابن باز: «وهكذا من عال واحدة يرجى له الأجر العظيم والثواب الجزيل»[3].

٢- اختصاصه ﷺ للصبية الأنثى بالهدية أمام الجميع:

۞ حديث «الخميصة» الذي خص فيه ﷺ إحدى صغار الإناث - أم خالد - بهديته وألبسها إياها بيده أمام الحضور ودعا لها بالبركة: «مَن تَرَوْنَ أنْ نَكْسُوَ هذِه؟ - (الملابس، الخميصة) - فَسَكَتَ القَوْمُ، قالَ: ائْتُونِي بأُمِّ خالِدٍ فَأُتِيَ بها تُحْمَلُ، فأخَذَ الخَمِيصَةَ بيَدِهِ فألْبَسَها، وقالَ: أبْلِي وأَخْلِقِي»[4].

٣- إعلام عام للناس بمكانة الابنة الأنثى والتحذير من إيذائها بسوء:

۞ حين أعلن ﷺ للناس شدة محبته لابنته فاطمة ووقوفه بالمرصاد أمام أقل شيء قد يؤذيها وإعلامه للمؤذي أن إيذاءه لها هو إيذاءٌ له شخصيًا: «إنَّما ابْنَتي بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُنِي ما رَابَهَا وَيُؤْذِينِي ما آذَاهَا»[5].

٤- ذهابه مع الجارية حيث شاءت في طرقات المدينة أمام الناس ليقضي حاجتها التي قصدته فيها:

۞ «إنْ كَانَتِ الأمَةُ مِن إمَاءِ أهْلِ المَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بيَدِ النبي ﷺ فَتَنْطَلِقُ به حَيْثُ شَاءَتْ»[6].

۞ بالإضافة إلى مواقف لا تُحصى، ضاعف فيها النبي ﷺ عمليا سواء في بيته

(١) صححه الألباني-صحيح الترغيب (١٩٧٠).
(٢) مسلم (٢٦٣١).
(٣) فتوى لابن باز على موقعه- بعنوان: فضل الإحسان إلى البنات.
(٤) البخاري (٥٨٤٥).
(٥) مسلم (٢٤٤٩).
(٦) البخاري٦٠٧٢.

أو أمام الناس، مِن دعمه وترسيخه لفضل الإناث ومِن صبره وتحمُله وتغافله بشكل خاص عن بعض أخطاء النساء عمومًا من أهله، وأكد فيها على حقوق واحتياجات أساسية للنساء يتجاهلها الرجال والمجتمع عادةً، تأكيدًا منه ﷺ أكثر على ضرورة إيلاء البنات عناية خاصة وتكريمًا مضاعفًا مراعاةً لضعفهن ورقتهن وطبيعتهن، لأن الجاهلية القديمة لن تولّي ظهرها لنا تمامًا، فأحيانًا تعاود الظهور للأسف فالنفوس هي هي والبنات هنّ مَن هُنّ في الرقة والضعف على مر الزمان، مما يُغرِي بعضَ قساةِ القلوب بالاستهانة بحقهن وسحقهن وقهرهن، ونفرد لذلك مساحات لاحقة إن شاء الله في كتاب المراحل الأكبر لمناسبتها لهم أكثر.

ونعاود التذكير أنه ينبغي على الوالدين إذا أولَوْا البنات معاملة خاصة، أن يبينوا للذكور السبب، بل وحثهم على معاونتهم في ذلك، لجمع القلوب على الشفقة عليهن بلا حسد وغيرة وغِل وحقد.

ثاني عشر: حق الرضيع في اصطحابه لصلوات الجماعة

لما فيه من دمجه مع الناس يألفهم ويألفونه، بما يقلل من تعرضه للرهاب الاجتماعي بإذن الله ويزيد من روابطه الاجتماعية، بشرط تجنب الأوقات التي يغلب على ظننا أن الرضيع سيكون فيها بكّاءً، لمرضٍ أو قلة نوم ونحوه، وسبق تفصيل كافة أحاديثها، فيرجع إليها.

ثالث عشر: الذهاب به إلى أهل الصلاح يدعون له

وسبق ذكرها كذلك، ولكن أثرها هنا مختلف عن أثرها في الوليد، فالطفل هنا بدأ يستوعب المحيط الاجتماعي من حوله بشكل شامل، فكل ما يعين على ترسيخ مكانته بين الناس وإنشاء صلة بهم بشكل طيب، يعتبر من تعزيز التوافق الاجتماعي للطفل.

كان هذا مرورًا متواضعًا على الحقوق والاحتياجات الاجتماعية للرضيع، وننتقل للمحور التالي.

المحور السادس

حقوق واحتياجات الرضيع الصحية

أولًا: حق الرضيع في الحياة وحفظ نفسه

تناولناها في الوليد بما يناسب لحظاته الأولى في الدنيا، بينما هنا مع الرضيع نجد فيها تفاصيل أكثر بالطبع، حيث يندرج تحتها كل العناصر التي ستكون معنا في الفصل، بجانب كل ما سنذكره في فصول علاج مشكلات الرضيع ومتصل بتأمين البيئة حول الطفل من الأضرار على حياته، فكل ما ستقرءونه هنا أو هناك، نابع من حق الرضيع في حفظ نفسه وحياتها.

ثانيًا: حق الرضيع في الرضاع الطبيعي من أمه بما يحفظ صحته ونموه (وإلا فمن أي مرضعة)، وعدم استسهال الرضاع الصناعي

فصّلنا الجانب النفسي للرضاع، ونفصل هنا الجانب الصحي الغذائي، وتكلمنا سابقًا في فوائد الرضاع الصحية للوليد بشكل خاص، عن جانب صغير جدًّا منها ألا وهو: أهمية اللبأ، أو اللبن السرسوب، وأهميته ممتدة لمواليد الأسابيع الأولى معنا هنا أيضًا، ثم نضيف إلى ذلك فوائد صحية أخرى للبن الرضاع للرضيع بشكل عام إلى مرحلة الفطام، تُبرز أسباب عناية الشريعة بتمام الرضاع حولين كاملين.

فمن أهمية لبن الأم للرضيع

- لبن الأم هو الغذاء المثالي للطفل اللازم لنموه السليم، فيحتوي على جميع العناصر الغذائية التي يحتاجها بخاصة خلال الأشهر الستة الأولى ومزيج مثالي من الفيتامينات والدهون والبروتينات، لذلك لا ينصح خلال أول ستة أشهر بمزاحمة الرضاعة الطبيعية بأي طعام.

۞ مَعِدة الرضيع في أشهره الأولى لا تتحمّل كل أنواع الأطعمة، فالرضاع الطبيعي يكون أنسب شيء لخصوصياته المرحلية، ومعروف أن الرضيع الذي يتناول الرضاع الصناعي أو أي شيء آخر سوى الرضاع الطبيعي ليكون مصدر غذاء له، نجد أثر ذلك فورًا في حفاضاته بما يشير إلى اضطرابات في المعدة.

۞ لأن لبن الأم معقم سبحان الله، ويكسب الطفل المناعة والصحة لخلوه من الميكروبات المسببة للأمراض والجراثيم، وبالتالي يؤدي لخفض فرص إصابة الرضيع بالعديد من الأمراض بإذن الله، خاصة أمراض: تلف أنسجة الأمعاء، التهابات المجاري التنفسية، التهابات الأمعاء المختلفة، الزكام والإنفلونزا، متلازمة موت الرضيع المفاجئ، السكري، لوكيميا الأطفال، التهابات الأذن، داء الأمعاء الالتهابي.

۞ يساعد في الوقاية من الأمراض المعدية والحد من وفيات الرضع الناجمة عن أمراض الطفولة، كالإسهال والإمساك والنزلات المعوية، ومشاكل الجهاز الهضمي والالتهاب الرئوي، ويساعد على الشفاء من الأمراض سريعًا.

۞ معتدل الحرارة لا بارد ولا حار ومتوفر في جميع الأوقات بفضل الله وبرزق الله بما يتناسب مع احتياجات الطفل ومعدته الصغيرة.

۞ يحتوي على كميات مركزة من البروتينات المهضمة والمواد السكرية التي تناسب الرضيع، بخلاف لبن الأبقار والأغنام وغيره.

۞ يساعد في بناء الطفل ونموه أسرع وأكمل ممن يتناولون الحليب الصناعي، بعكس الشائع.

۞ تتغير مكوناته وعناصره الغذائية بحسب تطور عمر الرضيع سبحان الله، فيتكيف مع نموه لتلبية احتياجاته المتغيرة دوريًا.

۞ هو أحد المصادر المهمة للطاقة بالنسبة للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ أشهر و٢٤ شهرًا، ورأيتم في سمات الرضيع كيف أن تلك المرحلة العمرية هي بداية

الحركة والنشاط للرضيع، وكل ذلك يلزمه طاقة، وكلما كان نموه الحركي صحيًّا كلما تعززت بقية محاور نموه بالتبعية.

- يساعد الطفل على مقاومة العدوى والمرض، حتى في وقت لاحق من الحياة.
- يساعد على تطوير العينين والدماغ وأنظمة الجسم الأخرى.
- الأطفال الذين تمتعوا برضاعة طبيعية في طفولتهم يحققون نتائج أفضل في اختبارات الذكاء.
- البروتينات الموجودة في حليب الأم تكون فرص إثارتها للحساسية لدى الرضيع أقل بكثير من البروتينات المتواجدة في أنواع الحليب البديل.
- كلما اكتمل الرضاع الطبيعي كلما زادت الحماية والفوائد.
- تساعد الطفل على الحفاظ على وزن طبيعي واكتساب الوزن بشكل سليم في مراحل عمره الأولى، وتقلل من خطر السمنة على المدى البعيد.
- ومرة أخرى، لمن يحبون توصيات منظمة الصحة العالمية التي يعتبرها العالم منصة حماية الطفل الأولى! فمنذ سنوات عدة أوصت الأطباء بأمور كثيرة تخُصّ الرضاعة، ذكرنا جانبا منها في فصول الوليد، ونذكر جانبًا منها مما يخص الرضيع عامةً: «الاقتصار على الرضاعة الطبيعية فقط، فلا يتلقى الطفل سوى لبن الأم»(١)، بدون إدخال أطعمة أو مشروبات أخرى فهو مُستغنٍ بلبن أمه عن كل ذلك، ولا حتى يحتاج إلى الماء حيث ثبَتَ أن اللبن الطبيعي يغنيه حتى عن الماء، وإرضاع الطفل بناء على طلبه، فكلما جاع يتم إطعامه وإشباعه.

سبحان الله! ليس هناك مثل الغرب في سعيهم العلمي الحثيث، لإثبات صحة الدين الإسلامي وصلاحيته للبشر كمنهج متكامل، من حيثُ لا يشعرون! وإظهار

---

(١) أول ٦ أشهر فقط بالطبع.

كيف أن هذا الدين قد اعتنى بتلك المسألة وصان أدق تفاصيلها اللازمة لمصلحة الإنسان بشكل مدهش.

وصدق الله إذ يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾ [فصلت:٥٣].

وبالنسبة للأم

۞ الرضاع الطبيعي كذلك يَقي الأم نفسها من مجموعة من الأمراض، فهو يحد من الإصابة بسرطان المبيض والثدي، ويقي من أمراض الصدر ويحسن الدورة الدموية.

۞ يعتبر مانع حمل طبيعي فيساعد في التباعد بين الولادات ريثما تلتقط الأم أنفاسها قليلًا.

ثالثًا: حق الرضيع في النفقة بشكل خاص على طعامه بجانب الرضاعة، والنفقة على أمه لإتمام تغذيه من الرضاعة

غنية عن الشرح، وتكلمنا في تفاصيلها سابقًا.

رابعًا: حق الرضيع في الحرص على سلامته أثناء الملاعبة والتعامل معه برفق وعدم تعريضه للّعب الأهوج

١ - ففي حملهم بحرص

۞ حديث المطية المذكور سابقًا والذي يحكي فيه البراء بن عازب قائلًا: «كانَ النبي ﷺ يصلِّي، فجاءَ الحسنُ والحسينُ أو أحدُهما فركبَ على ظهرِهِ فكانَ إذا رفعَ رأسَهُ (قالَ بيدِهِ فأمسَكَهما) وقالَ: نِعمَ المطيَّةُ مطيَّتُكما»[1]، فيمسكهما وهو يرفع

(١) حسنه الشوكاني-در السحابة (٢٤٤) | وحسنه الهيثمي-مجمع الزوائد (٩/ ١٨٥) || وبقية الروايات التي فيها «نعم الجمل» أو «نعم الفرس». إلخ شديدة الضعف، لكنها صحيحة المعنى.

رأسه كيلا يسقطا من على ظهره، فهما يلعبان في أمان ولا يعلمان متى سيرفع رأسه ﷺ.

٢- وفي حملهم برفق

حديث أبي هريرة حين قال: «كُنَّا نُصَلِّي مع النبي ﷺ العشاءَ، فإذا سجدَ وثَبَ الحَسَنُ والحُسَيْنُ على ظهرِهِ، وإذا رفعَ رأسَهُ أَخَذَهُما بيدِهِ من خلفِهِ أخذًا رفيقًا، فوضعَهُما وضْعًا رَفيقًا، فإذا عادَ عادا»[1].

٣-وفي عدم تركهم يبتعدون عنا

يحكي «شداد بن الهاد الليثي» في حديث سابق: «خرج علينا النبي ﷺ في إحدى صلاتي العشي الظهر أو العصر- وهو حامل حسنًا أو حسينًا - فتقدم ﷺ فوضعه (عند قدمه اليمنى) ثم كبَّرَ للصلاة، فصلى»[2].

الشاهد: عند قدمه اليمنى، ملتصقًا به لا يتركه يبتعد عنه.



خامسًا: حق الرضيع في وقايته وعلاجه من المرض أو الضرر على حياته

(تتبع الولاية الشخصية على الرضيع - عنصر التطبيب والحماية)

ويندرج تحتها رعاية ومتابعة صحته بالإجراءات التي تقيه من الأمراض وسوء التغذية وتصون بدنه، وما إلى ذلك من الأمور التي تستلزم قيام الأب بها وإشرافه عليها ومتابعة الأم في تنفيذها والتيقن من عدم إهمالها للولد فيها أو عدم جهلها بها، أي متابعة إجراءات مثل:

(١) حسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٣١٢).

(٢) صححه الألباني-صحيح النسائي-أخرجه النسائي (١١٤١) واللفظ له، وأحمد (١٦٠٧٦) | وصححه الوادعي-الصحيح المسند (٤٧٥).

١ - تعريضهم لأشعة الشمس المفيدة في الأوقات الصحية

لأهمية الشمس بشكل عام في عدة جوانب من النمو الصحي، بالإضافة إلى توفير عنصر فيتامين د من مصدر طبيعي، واللازم لنمو سليم للطفل: فهو يساعد على امتصاص الكالسيوم الذي يقوي العظام والأسنان والجهاز المناعي، بجانب أن أشعة الشمس تزيد من إنتاج ما يسمى بـ «هرمون السعادة» والذي يضاعف الشعور بالأمان والسعادة النفسية وينظم الهضم والنوم، وتساعد في إدارة مستويات الإنسولين في الجسم مما يساهم مبكرًا أحيانًا في الوقاية من مرض السكري.

وعن التوقيت المناسب لذلك: جاءت التوصيات بعدم تعريض الرضيع لأشعة الشمس المباشرة في أول ستة أشهر، لأن جلد الرضيع لا يحتوى على عدد الخلايا الصبغية الكافي لتحمل أشعة الشمس المباشرة، ولذلك يتم تعويضه بإعطائه عقار فيتامين د الدوائي، بالجرعة التي يحددها الطبيب المختص.

ثم بعد أول ستة أشهر: يُرجَع للطبيب ليحدد المقدار والوقت المناسبَين لطفلك من الأشعة، نظرا لاختلافهما من شخص لآخر بحسب البلد والموقع الجغرافي والموسم من حيث صيف أم شتاء، ولون البشرة وصحته العامة ونحو ذلك.

فهناك دراسات قوية أن أفضل وقت هو من ١٠ صباحًا إلى ٣عصرًا، بخلاف الشائع بين الناس من أن الأنسب هو قبل العاشرة صباحًا وبعد الثالثة عصرًا.

وهناك دراسات أخرى تخالفها وتوصي بتجنب ذلك التوقيت لضرره على البشرة، وهناك دراسات أكدت أن الأمر يختلف تبعًا للعوامل التي ذكرناها غالبًا، لذا نحتاج للرجوع لطبيب في البلد التي نحن فيها ليخبرنا بالقدر والوقت الأنسب لطفلنا.

كذلك فيتامين (د) موجود في بعض الأطعمة مثل البيض والزبد والأسماك، ولكن هذا لا يمد الطفل إلا بـ ٢٥٪ فقط من احتياجه، أما البقية فيتم تصنيعها داخل

جسـمه عنـد تعرضـه للشـمس.

٢- كفهم عن الحر الشديد، وتوفير الكساء المناسب لذلك:

وقرأنـا في حديـث «المشـربة»: حيـن توجَّـه ﷺ إلـى مـكان لعـب حفيديـه في نزهتهـم خـارج البيـت مـع أبيهمـا علـيّ، فقـال ﷺ لـه: «يـا علـيُّ ألا تقلِـبُ ابنَـيَّ قبـلَ أن يشـتَدَّ الحـرُّ؟»(١).

٣- كذلك كفهم عن البرد الشديد، وتوفير الكساء المناسب لذلك:

فممـا قيـل في إحـدى دورات التربيـة الغربيـة المنتشـرة، أن الطفـل إذا عانـد وأراد ارتـداء ملابـس خفيفـة في وقـت الـبرد، فينبغـي أن نتركـه ولا نتصـادم معـه، ليتعلـم خطـأ ذلـك بالتجربـة وبمعاينـة عاقبـة الفعـل بنفسـه حيـن يمـرض ويتعلـم بنفسـه أنـه خطـأ، وهـذا بالطبـع مبـدأ تربـوي موجـود في السـنة أي نعـم، لكـن تطبيقـه مـع مـا يمـس صحـة الأطفـال خطـأ فـادح بـل خطيـر، فمـن الحكمـة أن نمـارس هـذا المبـدأ التربـوي في مواقـف لا تشـكل خطـرًا علـى أي مـن الضـرورات الخمـس للرضيـع: نفسـه أو دينـه أو عقلـه أو مالـه أو نسـله، والـذي ينبغـي علـى المربـي في مثـل تلـك المواقـف، هـو الإصـرار بحـزم علـى مـا يحقـق مصلحـة الرضيـع ويجنبـه الضـرر، فهـو لا يعقـل بعـد كيفيـة صيانـة نفسـه بينمـا هـذا واجـب ولـيّ أمـره، ممـا يجعـل الطفـل كذلـك يعـرف قيمـة الكبـار واحتياجـه لهـم وعـدم اسـتغنائه عنهـم وعـن رشـدهم.

٤- العنايـة بنوعيـة الأكل وتوفيـر الأغذيـة الصحيـة فقـط، وعـدم السـماح بتنـاول مأكـولات ضـارة أو غيـر صحيـة:

فكثيـر مـن الأغذيـة تتسـبب في اضطرابـات سـلوك، والأنيميـا تسـبب شـدة الغضـب والعنـف أحيانـًا، بجانـب أضـرار كل ذلـك علـى صحتـه وبالتالـي نمـوه.

---

(١) حسنه الهيثمي-مجمع الزوائد (١٠/ ٣١٩) | وحسنه المنذري-الترغيب والترهيب (٤/ ١٨١) | وأخرجه وصححه الحاكم في المستدرك على الصحيحين وقال «كلهم ثقات»(٤٨٣٨)، بينما خالفه الذهبي وغيره.

٥- تأميـن مكابـس الكهربـاء في البيـت والسـكاكين ونحوهـا، وتأميـن كافـة البيـت باحتياطـات السـلامة:

ولنا إطلالة تفصيلية عن سبل تأمين البيت في فصل المشكلات.

هـذه نمـاذج لأمـور مشـتركة بيـن كل الرضـع عامـةً، ولا مجـال لحصرهـا كلهـا، وهنـاك إجـراءات صحيـة ووقائيـة أخـرى تختلـف بحسـب الزمـان والمـكان، نجتهـد في متابعتهـا وصيانتهـا كذلـك.

سادسًا: حق الرضيع في أن يُنظَّف من النجس والقذر أولا بأول، وأن يعوّد على النظافة والروائح الزكية في ملبسه وبدنه:

دوريًّا وبشكل عـام دون الدخـول في هـوس نظافـة مثيـر للتوتـر، بخاصـة عنـد أوقـات ومواضـع مظنـة الاتسـاخ التـي فصلناهـا مـن قبـل، ونقيـس عليهـا بحسـب أحـوال معيشـتنا، وقـد تكلمنـا عـن تلـك النقطـة في المحـور التحصينـي وأوضحنـا كيـف أنهـا بالإضافـة إلـى كونهـا خِصلـة مـن خصـال الفطـرة والجمـال والنظافـة، فإنهـا تُنفـر الشـياطين عـن بـدن الرضيـع، فيرجـع لبقيـة التفاصيـل هنـاك تفاديـا للتكـرار.

هـذا كان مـرورًا سـريعًا علـى الكنـوز النبويـة في العنايـة بالاحتياجـات والحقـوق الصحيـة للرضيـع.

لازالـت بحاجـة لتثويـر وتفصيـل وتدبـر وإسـقاط علـى الواقـع لاسـتخراج سـبل المـلء الصحـي لـه.

لكـن نتركهـا كعادتنـا مؤقتـا للانتقـال للمحـارة التربويـة التاليـة المحـور السـابع والأخيـر: حقـوق واحتياجـات الرضيـع اللغويـة والمعرفيـة.

المحور السابع

حقوق واحتياجات الرضيع اللغوية والمعرفية

تذكرون ما رسخناه من حق الطفل في الولاية وما فيها من عنصر «التعليم»؟ فللطفل في الإسلام حق في تحصيل العلوم والمعارف، وبالتالي حق في تيسير سُبُل حصوله عليها، وعلى رأس تلك السبل: تعلم اللغة التي سيتلقى بها العلم، وهي هنا بشكل خاص: اللغة العربية، وكل خطوة نقطعها في هذا الطريق المعرفي تكون لأجل غاية كبرى: تكامُل بناء الطفل الديني السليم في النهاية.

وقبل أن نبدأ نقول

ربما قد تتعجب أمهات من بعض النقاط التي سنكتبها وتقول: الرضيع لازال صغيرًا! تلقينه هذا الكلام غير واقعي ويناسب المراحل الأكبر! وصغار السلف مختلفون عن زماننا!

والجواب: أتفق تمامًا مع فكرة أن هناك فرقٌ بيننا وبينهم، وأن الكلام قد يبدو صعبًا على التطبيق، لكن لا أتفق مع كون أنه صعب على تلك المرحلة العمرية، ومن يراها صعبة وغير واقعية فلعله يحتاج لمطالعة نماذج معاصرة ليتأكد بنفسه أن المسألة أليق ما تكون بالرضع بالفعل على مر العصور، فحولنا أطفال بعمر الثلاث سنوات وقد ختموا جزء عم وبعض الأحاديث النبوية ويتكلمون الفصحى بطلاقة وربما يحاورون الآخرين بها ويلقون الخطب الطفولية البسيطة، أما عن اختلاف زماننا عن زمانهم، بالفعل الفجوة عميقة، وهم الأصل، بمعنى: الأصل أن ينشأ المسلم في مجتمع يتكلم بالفصحى في يومياته؛ بينما العامية هي الدخيلة على المسلمين.

وهذا يضعنا في تحديات

١- لا نستطيع تجاهل هذا الواقع وفصل أطفالنا تمامًا عن لغتهم المجتمعية الدارجة، فهذا يضعف من توافقهم الاجتماعي.

٢- لا نستطيع كذلك المراهنة على أن ينشأ صغارنا على ذلك دون مضايقات من أقرانهم وتعرضهم لسخرية ونبذ، وهذا خطأ المجتمع بالطبع، لكنه يكون خطأ الكبار أيضًا إذا تجاهلوه.

٣- كذلك لا نستطيع بسبب كل ذلك أن ننسى أن الأصل هو نشأة الصغار على الفصحى، لئلا تزداد الفجوة بينهم وبين لغة القرآن وعلومه وأصول هويتهم.

ولأجل ذلك، من الجميل بالطبع أن ينشأ الطفل صغيرًا متحدثًا بالفصحى فقط[1]، ولكن بشرط أن يكون مجتمعه مهيأ لذلك ومتضامنًا معه فيه، فلا يؤدي ذلك لأضرار نفسية ولا اجتماعية لاحقة على الطفل، فمن التوازن إن لم يكن المجتمع حول الطفل مهيَّأ لتقبل تحاوره معهم بالفصحى فقط، أن نجعل الطفل متمرسًا بلغته الدارجة جنبًا إلى جنب مع اهتمامنا بتحبيبه في الفصحى وإتقانه لها ببراعة، حتى إذا احتاجها كانت طوع يده فهمًا وقراءةً ومحاورةً، وفي نفس الوقت غير منفصل تواصليًّا وانتمائيًّا مع من حوله.

وفي هذا الفصل، نتناول جانبًا من الحقوق والاحتياجات اللغوية التي تدعم وتحقق هذه الغايات المشتركة، ثم في فصل البناء اللغوي والمعرفي نتناول صور تطبيقاتها في يومياتنا وأسباب تحقيقها.

---

(١) ثم يتعلم اللغات واللهجات حين يكبر كما شاء بالطبع.

بالتالي نبدأ بتعريف حقوق واحتياجات الرضيع اللغوية والمعرفية:

أولًا: حق الرضيع في التعلم ابتداءً، (عنصر التعليم في حق الرضيع في الولاية عليه)

غنية عن التعريف، سبق تفصيل كل ما يخص الولاية باستفاضة.

ثانيًا: حق الرضيع في التحاور معه وحولَه

وكل أحاديث هذا المحور بالكامل هي أبلغ دليل على ذلك، لذا لن نضعها كلها هنا، إنما تقرؤونها متفرقة في بقية العناوين تباعًا.

ثالثًا: حق الرضيع في أن يكون التحاور معه بما يناسب نموه الإدراكي واللغوي

وهي عناصر باختصار: التكرار أو نطق الكلام ببطء أو تفريق الكلام وتقسيمه لمقاطع قصيرة أو التنزل للغة التي يفهمها الطفل رويدًا أو التحدث معه بمقاطع موزونة ذات قافية وسجع قدر الإمكان.

ظهر ذلك واضحًا في عدة مواقف نبوية كما يلي:

١ - ففي تكراره ﷺ للكلام:

ذكرنا من قبل أحاديث كثيرة عن تكراره ﷺ للكلمات أحيانًا على الصغار والكبار، ننتقي منها:

- حديث «زوينب»: «كان يُلاعِبُ زينبَ بنتَ أمِّ سلَمَةَ ويَقولُ: يا زُوَيْنِبُ يا زوينب مِرارًا»[١]، وتأملوا لفظة «مرارًا» في الحديث.

- وحديث «الخميصة» لأم خالد، قالت: «فألْبَسَنِيها بيَدِهِ، وقالَ: أبْلِي وأَخْلِقِي ((مَرَّتَيْنِ))، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إلى عَلَمِ الخَمِيصَةِ ويُشِيرُ بيَدِهِ إلَيَّ ويقولُ: يا أُمَّ خالِدٍ هذا

(١) صححه الألباني-صحيح الجامع (٥٠٢٥).

سَنا، يا أُمَّ خالِدٍ هذا سَنا»[1]، ففيه:

*تكرار للدعاء لها: «أبلي وأخلقي أبلي وأخلقي».

*وتكرار لاسمها: «يا أم خالد يا أم خالد».

*وتكرار لوصف الخميصة: «هذا سَنا هذا سَنا»[2].

*مع استعماله الإشارة باليد إلى الشيء الذي يتكلم عنه، كما سنرى في بقية عناصر التلقين تباعًا.

وحين كرر ﷺ ثلاث مرات مقاطع قصيرة بنفس الترتيب أمام حفيده الصغير: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه، اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»[3].

ونضيف إلى ما سبق من أحاديث، حديثًا عامًا لكافة الأعمار، قاله أنس: «كان النبي ﷺ يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه»[4]، في الشرح: أي: الكلمةَ المفرَدةَ أو الجُملةَ يُكرِّرُها ثلاثًا لتُفهَمَ، ويتَّضِحَ مَبْناها للمُستمِعِ، حسب الحاجة وبقدر حكيم، ليس كل كلامه هكذا بالطبع.

ولعل لهذا السبب أيضًا كان النبي ﷺ يأخذ الرضع للصلوات ولم يمنعهم منها، لما فيها من تَكرار لكلمات الأذان كثيرًا على مسامعهم وكلمات التسبيح والتكبير والتوحيد.

٢- وفي نطقه ﷺ الكلام بتأنّي دون عجلة:

في يوم جاء أبو هريرة وجلس بجوار حجرة عائشة وأخذ يروي أحاديث تعلمها عن النبي ﷺ، وربما حكى عددا كبيرا وربما حكاه بتعجل كذلك وهي تسمعه ثم

(١) صحيح البخاري: ٥٨٤٥).
(٢) البخاري (٥٨٤٥).
(٣) صححه أحمد شاكر (١٦/ ١٦٣).
(٤) صححه الألباني-صحيح الجامع (٤٩٩٠) | وأخرجه صحيح البخاري: ٩٥) باختلاف يسير مطولًا.

قام وانصرف، وتمنت لو أنها أدركته لتنبهه أن هذا ليس هدي النبي ﷺ في السرد، قالت: "لو أدْرَكْتُهُ لَرَدَدْتُ عليه إنَّ النبي ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ"[1].

وجاء في شرح الحديث: "لو أدْرَكتُه لأنْكَرتُ عليه سَرْدَه، وبيَّنْتُ له أنَّ التَّأنِّيَ في الحَديثِ أوْلى منَ السَّردِ؛ فإنَّ النبي ﷺ لم يكُنْ يُتابِعُ الحَديثَ بحَديثٍ استِعْجالًا؛ بل كان يَتكلَّمُ بكَلامٍ واضِحٍ مَفهومٍ على سَبيلِ التَّأنِّي خَوفَ التِباسِه على المُستمِعِ، وكان يُعيدُ الكَلمةَ ثَلاثًا لتُفهَمَ عنه. وفي الحَديثِ: إحْسانُ النبي ﷺ الإبانةِ للحَديثِ والإبلاغُ في إفْصاحٍ وأَناةٍ في التَّحدُّثِ، وأوْلى النَّاسِ بذلك مُدرِّسو العُلومِ ونَحوُهم"[2]، وهذا هو نهج خير مُعَلِّمٍ ﷺ في التحدث، التأني والتريث والبطء الحكيم المفصل.

٣- وفي تقسيمه ﷺ الكلام وتقطيعه لمقاطع قصيرة:

۞ "كانَ النبي ﷺ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لو عَدَّهُ العَادُّ لَأَحْصَاهُ"[3].

أي: كَلامًا واضِحًا بيِّنًا، مُفَصَّلًا لَفظًا لَفظًا، وكَلمةً كَلمةً، بحيثُ لو أرادَ المُستَمِعُ إليه أنْ يعُدَّ كَلماتِه كَلمةً كَلمةً، لَفعَل[4].

۞ "كانَ يتكلَّمُ بِكلامٍ (بيِّنَهُ)، (فَصْلٌ)، (يَحفَظُهُ من جلسَ إليْهِ)"[5].

واقشعر بدني حين قرأت كلمة (يحفظه من جلس إليه)، فسبحان من علمه أسرار التربية اللغوية والتلقين المثمر والتعليم الراسخ.

۞ "كان كلامُهُ كلامًا (فصلًا)، يفهمُهُ كلُّ مَنْ سَمِعَهُ"[6]، والمقصود بالفصل هو عدم الموالاة بين الجمل بل يفصل بعضها عن بعض.

---

(١) البخاري (٣٥٦٨) | صحيح مسلم:٢٤٩٣).
(٢) من شرح الدرر السنية للحديث.
(٣) البخاري (٣٥٦٧).
(٤) من شرح الدرر السنية للحديث.
(٥) حسنه الألباني-صحيح الترمذي (٣٦٣٩).
(٦) حسنه الألباني-صحيح الجامع (٤٨٢٦) | حسنه الألباني-صحيح أبي داود (٤٨٣٩).

- كذلك حكيهم عن قراءته للقرآن بشكل خاص.

فكل ما فيه تفكيك للحروف وبسط للكلمات جيدًا لتستقر المعاني رويدًا في القلب، تدعمه الشريعة.

وكل ذلك يخبرنا كيف أن القرآن وجوامع الكلم النبوي ودرر الشريعة، هو أعظم ما نلقيه على أسماع أطفالنا وأنسبه لنموهم اللغوي المتين السليم منذ كانوا أجنة في بطون أمهاتهم، لاسيما أجزاء قصار المُفَصَّل من القرآن، ولذلك أول ما نزل من القرآن كان سورة من (المُفَصَّل)، فهو اسمٌ على مسمى حقًّا، فالمفصّل هو سور القرآن القصيرة التي كَثُرَ الفصلُ بينها بالبسملة، فسُمِّي مُفَصَّلًا لكثرة فواصله مقاطع مقاطع، وليست سردًا طويلًا بدون فواصل كما في البقرة وآل عمران والنساء مثلًا[1]، بل بداخل المفصل أيضًا مراتبُ للطول، فهناك طِوال المفصل وهناك قِصار المفصل وهناك أوساط المفصل، وحين نتأملها نجدها موزونة كذلك، بنهايات نطق متشابهة، وينطبق على المفصل بقية العوامل التي تجعله من أنسب ما نلقيه على مسامع الصغار، كما سنبين.

وكذلك الأذان، فلا يخفى ما فيه هو أيضًا من تلك المواصفات اللغوية المناسبة للنمو اللغوي للرضيع، وهذا يُذكرنا باهتمام النبي ﷺ باصطحاب الرضع والصغار إلى المساجد وقت الصلوات.

٤- وفي تحدثه ﷺ مع الصغار بالمقاطع الموزونة بقافية:

حديث: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»[2].

وأدعية كان يقولها النبي ﷺ في وجوه حفيديه - وذكرناها من قبل: «اللهم إني

---

(١) يبدأ المفصل من سورة ق أو الحجرات، ورجَّح ابنُ حجر أن بدايته هي سورة ق.
(٢) البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).

أحبُهما فأحبَهما أو اللهم إني أحبُهما فأحبَهما أو اللهم إني أحبُهما فأحبَهما»[1] ولا يخفى ما فيها من وزن وجرس سهل.

جاء في إحدى وصايا المواقع الطبية الغربية لتطوير نمو الطفل اللغوي:

«أفضل الكتب هي الكتب المبسطة ذات الكلمات المسجوعة المقفاة[2] والرسوم الملونة».

مما يتوافق مع التعليم النبوي، ويؤكد مجددًا أن قصار السور في القرآن بشكل خاص هي من أنسب ما يمكننا ترديده على مسامع الرضيع ليل نهار، لما سردناه من صفاتها، بجانب أنها أيضًا ليست على نمط واحد بل متنوعة في التركيب اللغوي فيما بينها بما يساهم في تطوير مهارته اللغوية باستمرار.

٥- وفي تنزُّله ﷺ للغة أو لهجة الطفل البسيطة التي يفهمها:

وهنا ندرك مرة أخرى كيف راعى ﷺ هذا الاحتياج، حين خاطب أم خالد وهي صبية صغيرة باللغة التي اعتادت عليها. تذكرون حين قالت تحكي عن نفسها لما كانت صغيرة: «أَتَيْتُ النبي ﷺ مع أَبِي وعَلَيَّ قَمِيصٌ أَصْفَرُ، قَالَ ﷺ: سَنَهْ سَنَهْ - قَالَ عبدُ اللهِ: وهي بالحَبَشِيَّةِ: حَسَنَةٌ»[3].

الشاهد: فقال لها (سناه سناه) بالحبشية لغتها التي تعرفها، بدلًا من أن يقول لها: «حسنٌ، جميل»، فمن فوائد الحديث حين نتأمله: التنزُّل إلى لغة الطفل الأولى التي يفهمها، فلا أُفسِدُها عليه في هذه المرحلة، ويقاسُ عليها اللغة اليومية البسيطة، أخاطبه بها عند الحاجة مع الربط بينها وبين اللفظ العربي الأصلي ليفهم عنا دون أن نضاعف الفجوة بينه وبين لغته العربية، ولا يخفى ما في الحديث من تكرار كذلك وتقطيع للألفاظ.

---

(١) البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).
(٢) البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).
(٣) البخاري (٣٠٧١).

رابعًا: احتياجهم للتعلم باللعب

* وجدير بالذكر أن من أنواع اللعب التعليمي المتداولة في المواقع الغربية: اللعب باستخدام الحواس، بأن تجعلي رضيعك يختبر حواسه ومهاراته الحركية مع الماء في حوض الاستحمام وما ينتج عنه من رذاذ ونحوه، وكذلك في اللعب في الرمال، والتدحرج على الحشائش، وهكذا، فكل ذلك من صور التعلم باللعب، تذكرون ما قلناه عن تركه ﷺ الصغار يُدخِلون أناملهم في لحيته ويلعبون في خاتم النبوة وفي التراب، وفي حديث "المشرُبَة" المذكور كثيرًا من قبل، والتي أحد معانيها الأرض الليّنة دائمة النبات، أو «الشربة» التي هي الحوضُ الصغير يُحْفَرُ حَوْلَ الشجرة ويُمْلأُ ماءً لتشربه. إلى جانب أنواع أخرى كثيرة للتعلم باللعب وردت التوصية الغربية بها للأطفال، وجاء الكثير منها متوافقا مع المدرسة النبوية في لعب الصغار، نفرد لها صفحات في الكتب الأخرى بأمر الله.

خامسًا: احتياجهم للتواصل البصري معهم أثناء الكلام وملائمة لغة الوجه، واحتياجهم لتبسمك أثناء ذلك:

للحديث: «كان النبي ﷺ يدلَعُ لسانَه لِلحُسَيْنِ فيرى الصَّبيُّ حُمرةَ لسانِه فيهَشُّ إليه»[1]، أي: يُعجِبُه ويُسرِع إليه، واللون الأحمر الفاقع للسان مع صوت المُلاعبة نفسها القريبة من الحواس، يُخاطِبانها بقوة مما يُساهِم في تعزيز النمو الحسّي والإدراكي للطفل.

بل إن من سنته العامة وأدبه ﷺ في الحوار مع الصغير والكبير: (النظر إلى من يكلمه) حتى أنه حين يكلم جماعة من الناس، يظن كل واحد منهم أنه لا ينظر إلا إليه هو وحده دونًا عن البقية، من فرط حرصه ﷺ على التوجه بالنظر لمن يكلمه والتوجه إليه بكُليته لا مجرد التفاتة بالعنق.

---

(١) صححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (٦٩٧٥) | وحسنه الألباني-السلسلة الصحيحة (٧٠) (وفي رواية: فيبهش إليه).

بالإضافة إلى سنته ﷺ في التبسم وطلاقة الوجه وتشجيعه المسلمين عليها بجعلها من المعروف والخير والصدقات التي نؤجر عليها، حيث قال ﷺ: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ»[١]، وقال: «تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة»[٢]، وبينَا من قبل أهميتها هي وكل تعبيرات الوجه الأخرى، في النمو اللغوي والتواصلي السليم للطفل.

سادسًا: احتياجهم لتحفيز الإدراك السمعي واللغوي بالإشارة إلى الأشياء عند التحدث عنها

وظهر ذلك فيما نقلته لنا أم خالد من حديث «الخميصة» التي أهداها إياها النبي ﷺ وألبسها إياها بيده، قالت: «فَجَعَلَ يَنْظُرُ إلى عَلَمِ الخَمِيصَةِ **ويُشِيرُ** بيَدِهِ إلَيَّ **ويقولُ**: يا أُمَّ خالِدٍ هذا سَنا»[٣].

ومثل ذلك كثير في سيرته التعليمية العطرة، فالإشارة إلى الشيء أثناء التحدث عنه أداة تعليمية نبوية متكررة، والطفل الذي يكبر في بيئة غنية بالتعبير يكتسب الكلام طبيعيًا، فكل ذلك معًا يقوي شبكته اللغوية ووسائل تعبيره المختلفة، بخاصة عندما يجد الطفل التشجيع والحفاوة، فحينئذ سيتشجع على قول المزيد من الكلمات.

سابعًا: احتياجهم إلى التحدث إليهم وكأنهم يفهمون جيدًا

والحديث السابق أبسط مثال.



---

(١) مسلم (٢٦٢٦).
(٢) صححه الألباني-صحيح الترغيب (٢٦٨٥) | وصححه الألباني-صحيح الترمذي (١٩٥٦).
(٣) البخاري (٥٨٤٥).

ثامنًا: احتياجهم للاختلاط بغيرهم من الأطفال والكبار المتكلمين والخروج إلى العالم

وبينَّا في المحور النفسي جملة من أحاديث اصطحاب النبي ﷺ للصغار خارج البيت وركوبهم معه على الدواب ولعبهم في الطريق بأمان وفي البيت مع أقرانهم إلخ، فيرجع إليها منعًا للتكرار، وكل ذلك يصب في البناء المعرفي واللغوي بجانب النفسي والاجتماعي والمهاري والإدراكي.

تاسعًا: احتياجهم إلى استعمالنا للغة الجسد أو الجوارح أثناء التحدث معهم

(وتختلف عن الإشارة إلى الأشياء عند تعريفها)

كالتلويح باليدين لقول أهلًا أو مرحبًا أو السلام عليكم أو في أمان الله، أو تمثيل مسكة اليد للقلم عند سؤال «تريد قلمًا؟»، وغيرها من الأمثلة التي سنراها في البناء اللغوي والمعرفي، هذه توصيات العلوم الطبية الغربية التي لا يستغني عنها البعض سبحان الله، بينما هي أمور مبثوثة في سنة نبينا التعليمية منذ مئات السنين قبلهم خير مربٍ ومعلمٍ بأبي هو وأمي.

أمثلة وأدلة على ذلك:

- قوله ﷺ: "أنا وكافل اليتيم هكذا وأَشارَ بالسَّبَّابَةِ والوُسْطَى، وفَرَّجَ بيْنَهُما شيئًا"[1].

- ومثله: "من عالَ جاريتينِ دخلتُ أنا وَهوَ الجنَّةَ كَهاتين وأشارَ بأصبُعَيْهِ"[2].

- وقول سعد بن أبي وقاص: "مرَّ عليَّ النبي ﷺ وأنا أدعو بإِصْبَعيَّ - أي يرفع أصبعين من يده، فقالَ ﷺ: (أَحِّدْ أَحِّدْ) - أي يأمره أن يشير بإصبع واحد - وأشارَ

---

(١) البخاري (٥٣٠٤).

(٢) صححه الألباني-صحيح الترمذي (١٩١٤).

بالسَّـبَّابَةِ"[1]، فعلمـه ذلـك بلغـة الإشـارة واللفـظ معًـا، فصـلِّ اللهـم علـى نبينـا ومعلمنـا ومربينـا وسـلم تسـليمًا كثيـرًا.

كذلك أمثلة أخرى للبيان بلغة اللفظ والجسد معًا:

- قولـه ﷺ: "(الشَّـهْرُ هَكَـذا وهَكَـذا)، وأَشـارَ بأَصابِعِـهِ العَشْـرِ مَرَّتَيْـنِ - أي: فتـح كفيـه الاثنتيـن مرتيـن لـ ٢٠ يومًـا - (وهَكَـذا) في الثَّالِثَـةِ وأَشـارَ بأَصابِعِـهِ كُلِّها وحَبَـسَ - أوْ خَنَـسَ - إبْهامَـهُ"، أي: فتـح ٩ أصابـع فقـط[2]، أي باللفـظ والإشـارة يعد ٢٩ يومًـا أمامهـم علـى أصابعـه، فيعلمهـم عـدد أيـام الشـهور هكـذا، هـذا وهـم كبـار، فيكـف مـع الصغـار؟
- وقولـه ﷺ: "(أَمَّـا أنـا فَأُفِيـضُ علَـى رَأْسِـي ثَلاثًـا)، وأَشـارَ بيَدَيْـهِ كِلْتَيْهِمـا"[3]، أي: يريهـم بيـده كيـف يملَؤهمـا بالمـاء ثـم يصبـه فـوق رأسـه بكلتـا يديـه.

عاشرًا: احتياجهم إلى استعمال لغتهم الأم معهم وعدم خلطها بلغات أجنبية

وأعجـز عـن حصـر ذلـك مـن الأحاديـث، فـكل أحاديـث وحـوارات النبـي ﷺ مـع الصغـار خيـر شـاهد علـى ذلـك، رغـم وجـود لغـات ولهجـات في محيـط مكـة والمدينـة وداخلهـا.

حادي عشر: احتياجهم إلى استعمالنا لاسمهم عند التحدث معهم

وشـواهده في السـنة لا تحصـى كمـا ذكرنـا مـرارًا، «يـا زوينـب»، «يـا أم خالـد»، «يـا أبـا عميـر».

---

(١) صححه الألباني-صحيح أبي داود (١٤٩٩).
(٢) مسلم (١٠٨٠).
(٣) مسلم (٢٥٤).

ثاني عشر: احتياجهم لأن نطرح عليهم أسئلة التفكر، وتحفيزهم على صياغة ردود من الحصيلة اللغوية

۞ وأشهر مثال على ذلك، سؤاله لأبي عمير حين مات عصفوره: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»(١).

۞ وكذلك أسئلته ﷺ لعائشة عن ألعابها في مرحلة عمرية أكبر من أبي عمير: «ما هذا يا عائشةُ؟ - بناتي! - ما هذا الذي أرى وَسَطَهُنَّ؟- فَرَسٌ - وما هذا الذي عليه؟ -جَناحان - فرسٌ له جَناحانِ؟ - أما سَمِعْتَ أن لسليمانَ خيلًا لها أجنحة؟»(٢).

بجانب فائدة لغوية لطيفة(٣) في صياغة الحديث تؤكد لنا أكثر صدق قول الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤]: «[نلاحظ في الجملة فواصلها بمقدار مناسب للوقت الزمني الذي يردده الطفل، بداية الجملة: نداء - سكتة. ثم استراحة ثم بداية الجملة الأخرى: استفهام قصير ثم أغلقت الجملة: يا أبا عمير، ما فعل النغير؟!».

ثالث عشر: بناء على كل ما سبق: احتياجهم لتفرغ أمهم لفترة الحضانة

فلا يخفى على أحد، مدى الفقر اللغوي الذي يعاني منه الأولاد الذين انشغلت أمهاتهم عنهم بالوظيفة أو نحوها ويقضون معظم ساعات «استثمار الجواهر» تلك، في دور رعاية أو روضات في حالة أشبه بتفعيل وضعية «كتم الصوت»التي نختارها في المقاطع المرئية ليعم الصمت الأجواء، وأعان الله الأمهات اللاتي تضطر للعمل رغما عنها، وأثق أن الله سيجبرهن ويتولى ذريتهن بلطفه ورحمته. والولاية التعليمية

---

(١) صحيح البخاري: ٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).

(٢) صححه الألباني-صحيح أبي داود (٤٩٣٢) واللفظ له، والبيهقي (٢١٥١٠) | وروايات أخرى للقصة صححها أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر (١٤/ ٢٦٤).

(٣) مقالة على موقع الكلم الطيب، بعنوان: بعض أحوال النبي مع الأطفال وصغار السن.

مسؤولية الأب في الأساس، لكن للأم دور عميق جدًا فيها في فترة الحضانة، فكلكم راع وكلكم مسئولٌ عن رعيته.

رابع عشر: احتياجهم إلى تصويب أخطائهم خلال رحلة نموهم اللغوي والمعرفي

اضطررت لتسجيلها ضمن النقاط رغم بداهتها، والسبب: التوصيات الغربية تعتبر ذلك من الأخطاء التربوية والتعليمية ومما يقتل إبداع الطفل، وهذا كلام غير دقيق لأنه ليس على إطلاقه، وإنما المسألة في التوازن، لذا لنا هنا وقفة.

فمن النقاط الأساسية في فلسفات الغرب التعليمية (ومن بينها فلسفة مونتيسوري)، على سبيل المثال: «دور المعلم يتجلى في عدم التدخل أثناء التعلم، فينبغي احترام شخصية الطفل وإبعاده عن تأثير الكبار، والحرص على أن يتمتع بقدر كبير من الحرية، التي هي ركيزة هذا النظام»[1].

وبالطبع نحن لا نختلف معهم حول أهمية إفساح المجال الاستكشافي التعلمي للطفل في بيئة آمنة، إنما ليس من الصواب أن نفسد جوانب من تربيته لحساب جانب التعلم؛ **فبدون التقويم والتصويب ينشأ الطفل مستغنيًا عن الكبار وحِكمتهم وخبرتهم ويظن أنه سيصل دوما للصواب والخطأ بنفسه دون مساعدة خارجية**، ولا يخفى على أي مربي مبتدئ، خطأ تلك التربية على المدى البعيد.

فإذا رغب طفلك مثلًا في نطق كلمة بطريقة غير صحيحة أو استخدام لعبة بطريقة غير مألوفة، لا تمنعيه من ذلك أو تحاولي إجباره على نطقها وفعلها بالشكل الصحيح، بل امنحيه فرصة للتجربة والاستكشاف والتعرف على خواص الأشياء من كل الزوايا، في إطار آمن لا يضره ولا يفسده تربويًا، مع تذكيره كل مرة بالاستعمال الصحيح والنطق الصحيح وتوجيهه إليه كما قلنا.

والتعلم قد يكون بالنظر المباشر أو التلقين المباشر أو التجربة والخطأ أو بتقويم

---

(١) new-educ.com/ ماذا-تعرف-عن-منهج-مونتيسوري-التعليمي.

الآخرين للخطأ؛ فلا حرج على المربي مطلقًا في أي من هذا، بل إذا تركنا تذكير الولد بالصواب نكون قد قصّرنا في تعليمه وبنائه المعرفي والمهاري، وقد ينسَى مع الوقت كيف كان الصواب، وأعظم دور للكبار أصلًا هو تعليم الصغار الصواب من الخطأ، فالصغار لا يستغنون أبدًا عنهم في ذلك، بخلاف المبادئ **الغربية بالطبع**، ولا ننسى القصة المرعبة التي حكيناها عن عدم توجيه الطفل حتى للدين الإسلامي، تطبيقًا لنفس المبادئ التعليمية الغربية، وينطبق الكلام على البناء المعرفي والمهاري لشدة تداخلهما.

وقبل كل شيء: قد فعلها النبي ﷺ بالفعل وهو المربي والمعلم الأعظم وبوصلتنا الأولى للحكم على الأمور: قال أبو سعيد الخدري: "أنَّ النبي ﷺ مرَّ بغلامٍ يسلَخُ شاةً فقال له: (تنَحَّ حتَّى أُريَك فإنِّي لا أراك تُحسِنُ تسلَخُ)، أي تأخر جانبًا قليلًا حتى أعلمك كيفية السلخ الصحيحة لأني أراك -بكل وضوح وصراحة لا حرج فيها ودون مواربة - لا تحسن السلخ بالشكل الصحيح، فأدخَل النبي ﷺ يدَه بينَ الجِلْدِ واللَّحمِ فدحَس بها حتَّى توارَتْ إلى الإبْطِ، ثمَّ قال ﷺ: "هكذا يا غلامُ فاسلَخْ"[1].

إلى آخر الكنوز النبوية التي تظهر حجم عناية الشريعة بتأسيس أُولَى لَبِنات التلقي اللغوي والمعرفي في حياة الإنسان، والذي ينبني عليه الكثير من أنواع البناء الضرورية لفلاح الإنسان في الدارين، وتؤكد كيف أن محمدًا ﷺ هو خير مُعلم ومربٍ للنفوس الناشئة.

وبذلك نكون قد أنهينا فصل الحقوق والاحتياجات للرضيع بمحاوره السبعة، وننتقل الآن إلى العنصر الثالث من خطتنا التربوية السداسية للرضيع: مشكلات المرحلة.

---

(١) صححه ابن حبان-صحيح ابن حبان (١١٦٣) | وقال عنه شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

الفَصْلُ الثالث

مشكلات الرضيع وعلاجها

تبرز في هذا الفصل أمور ضِخام تُجيب عن السؤال الممتد عبر كل زمان: لماذا جعل الله الجنة عند أقدام الأمهات؟

يقول الصحابي معاوية السلمي للنبي ﷺ: «إنِّي كنتُ أردتُ الجِهادَ معَكَ أبتغي بذلِكَ وجْهَ اللهِ والدَّارَ الآخرةَ، قال ﷺ: «ويْحَك! أحيَّةٌ أُمُّك؟ قلتُ: نعم يا رسول الله، قال: ويْحَك، الْزَمْ رِجْلَها فثَمَّ الجنَّةُ»[١].

أي أن الجَنَّةُ هناك عِندَ رجلِها وأنَّ نَصيبَك من الجنَّةِ لا يصِلَ إليك إلَّا برِضاها؛ بحيثُ صارتِ الجنَّةُ كشَيءٍ مَملوكٍ لها، وهي قاعدةٌ عليه، تتصرَّفُ فيه كيف تشاء، فإنَّ الشَّيءَ إذا صار تحت رِجْلِ أحدٍ، فقد تمكَّنَ منه واستولى عليه، فلا يصِلُ شَيءٌ منه إلى غيرِه إلَّا برِضاه[٢].

فلو أن كل ما سبق من فصول لا يُبيّن بعد بوضوح السبب وراء ذلك الفضل المذهل للأمهات، فلا شك أن بقية ما في هذا الكتاب وبخاصة هذا الفصل، ستوضحه بشكل يجعل الحليم حيرانًا!



(١) الحديث: يا رسول الله ﷺ إنِّي كنتُ أردتُ الجِهادَ معَكَ أبتغي بذلِكَ وجْهَ اللهِ والدَّارَ الآخرةَ قالَ ويحَكَ أحيَّةٌ أمُّكَ قُلتُ نعَم قالَ ارجَع فبرَّها ثمَّ أتيتُهُ منَ الجانبِ الآخَرِ فقلتُ يا رسول الله ﷺ إنِّي كنتُ أردتُ الجِهادَ معَكَ أبتغي بذلِكَ وجهَ اللهِ والدَّارَ الآخرَةَ قالَ وَيحَكَ أحَيَّةٌ أمُّكَ قلتُ نعَم يا رسول الله ﷺ قالَ فارجِع إليْها فبرَّها ثمَّ أتيتُهُ من أمامِهِ فقُلتُ يا رسول الله ﷺ إنِّي كنتُ أردتُ الجِهادَ معَكَ أبتغي بذلِكَ وجْهَ اللهِ والدَّارَ الآخرةَ قالَ ويحَكَ أحيَّةٌ أمُّكَ قُلتُ نعَم يا رسول الله ﷺ قالَ ويحَكَ الزَم رِجلَها فثَمَّ الجنة صححه الألباني-صحيح ابن ماجه(٢٢٥٩).

(٢) شرح الدرر السنية للحديث.

مقدمة

من خلال ما درسناه في سمات واحتياجات وحقوق الرضيع، نجد أن العلاج لغالبية المشكلات التي تواجهنا مع أبنائنا تلقائيًّا يصير سهلًا، فأول خطوات أساسية لعلاج الأمراض والمشكلات أو الوقاية منها هو تشخيصها وفهم أسبابها لتفاديها سواء بالعلاج أو بالوقاية قبل أن تقع، وهذا كان دور الفصول السابقة، وهذا لا ينفي أن بعض المشكلات غير مرتبط بمدى فهم السمات والتأقلم معها أو بتلبية الحقوق والاحتياجات، بقدر ما أنها مسألة صحية خاصة وتحتاج لمتابعة مع مختص، إلا أن كل المشكلات تجتمع معًا في حل مشترك بينها جميعًا: الاستعانة بالله، الدعاء وكثرة الذكر بخاصة الحوقلة - قول لا حول ولا قوة إلا بالله - والاستغفار والتسبيح والصلاة على النبي ﷺ، ورقية الرضيع، والأخذ بأسباب العلاج الصحيحة بناءً على التشخيص الصحيح.

يمكننا تقسيم مشكلات مرحلة الرضيع حسب قسمين:

١. إما بحسب المراحل العمرية.

٢. وإما بحسب نوعية المشكلات بغض النظر عن المرحلة العمرية.

بالنسبة للتقسيم بحسب المراحل العمرية، فتنقسم غالبا إلى مرحلتين[1]:

١. المرحلة الأولى (الأشهر الأولى - إلى تمام العام تقريبًا):

حركتهم أقل واعتمادهم على الأهل أكثر وتعبيرهم عن ضيقهم أكثره يكون بالبكاء.

(١) هذا التقسيم الذي سردناه الآن بالطبع هو على سبيل الغالب، وبالتقريب لا التحديد -من ناحية الشهور- وبشكل إجمالي جدا غير تفصيلي.. والأمر يختلف حسب الفروق الفردية لدى كل رضيع..

٢. المرحلة الثانية (من عمر ١٢ إلى ٢٤ شهرًا)

حركتهم أكثر والمرحلة أشد ثراءًا في المُلهِيات وبالتالي اعتمادهم على الأهل أقل وتعبيرهم عن الضيق أكثره يكون بالتفاهم باللغة البسيطة - سواء لغة الجسد أو الجوارح، أو لغة الكلام - وليس البكاء فقط.

بالتالي تزداد مشكلة فرط البكاء في المرحلة الأولى عن الثانية، بينما مشكلات السلامة ومجهود الملاحقة للرضيع - والناجمَين عن كثرة الحركة وحب الاستكشاف الناشئ وتسارع النمو - فتزداد في المرحلة الثانية أكثر، وفي كلا القسمين فإن "الزن" يعتبر مشكلة مشتركة وحاضرة بقوة.

وأنا أختار لرحلتنا في الكتاب، تقسيم المشكلات بحسب نوعها بغض النظر عن المرحلة، نظرًا لتواجد الكثير منها بالفعل في كل الشهور.

بالتالي تقسيم المشكلات سيكون:

أولًا: مشكلات فردية (خاصة)

(تحدث لبعض الأطفال دون غيرهم، وبعضها مشكلات حقيقية وبعضها وهمي- مصطنع).

ثانيًا: مشكلات مرحلية (مرتبطة بمرحلة الرضيع عامةً)

وتلك الأخيرة تنقسم إلى:

- مشكلات مرحلية عامة (مرتبطة بمرحلة الرضيع على مر العصور)
- مشكلات مرحلية معاصرة (مرتبطة بمرحلة الرضيع في زماننا بالأخص)

والمشكلات المرحلية المعاصرة بدورها تنقسم إلى:

- معاصرة عادية.
- معاصرة غير عادية أو مقلقة.

أولًا: مشكلات فردية خاصة (بعضها مشكلات، وبعضها وهمي ومصطنَع)

قلنا إن لكل مرحلة سماتها المشتركة بين كل الأطفال أو غالبيتهم، وكذلك لكل طفل داخل نفس المرحلة سمات فردية خاصة به تختلف من طفل لآخر، بعض السمات الفردية الخاصة بالرضيع، تعتبرها كثير من الأمهات «مشكلات»، بينما هي ليست مشكلات بقدر ما أنها طباع أو سمات تحتاج لفهم وتفهم ومرونة وتأقلم وحسن توجيه لاغتنام الآثار الزكية منها، ولا ينفي ذلك أن بعضها بالفعل يسبب مشكلات سلوكية تحتاج للتهذيب والتقويم لا التأقلم.

أمثلة ليتضح الفرق:

أولًا: من المشكلات الوهمية التي هي فروق في الطباع ليس أكثر، وليست سوءًا محضًا بل لها جوانب طيبة وصحية:

- بعض الرضع يميلون إلى النشاط، ويحتاجون إلى الكثير من الفرص لتفريغ طاقتهم، والبعض الآخر أقل نشاطًا، ويحتاجون إلى التشجيع للاشتراك في اللعِب النشِط.

- بعضهم يتبعون جدولًا محددًا للأكل والنوم والتغوط منذ مولدهم، بينما بعضهم عشوائي في ذلك لا يتبع القوالب الثابتة مهما حاولنا التنظيم.

- بعضهم يتكيفون بسرعة مع التغيير، بينما البعض الآخر لا يكون سعيدًا لأي خرق لعاداتهم اليومية.

- بعضهم يفرح ويستمتع بالتجارب الجديدة بينما ينسحب البعض الآخر منها.

۞ بعضهم لديه حساسية شديدة للأشياء فيلاحظ فورًا أي منظر أو صوت أو لمسة مختلفة، بينما يبدو البعض الآخر وكأنهم لا يلاحظون الأضواء الساطعة، أو الضوضاء العالية، أو الحفاضات المتسخة، إلا عند مستوى أو درجة معينة.

۞ بالتالي تبعًا لدرجات الانتباه: بعض الرضع سهل إلهاؤه عن الجوع أو عن لعبة أُخِذَت منه، والبعض الآخر لا ينصرف انتباهه بسهولة عما أثار غضبه وانزعاجه.

۞ كذلك درجات الخِلطة الاجتماعية: فبعض الرضع لديهم خجل أكثر من غيرهم، وبعضهم اجتماعي من الطراز الأول بدرجة يُخشَى عليه فيها من الأغراب.

وحسن توجيه تلك الطباع أو المرونة معها والتأقلم نوعًا ما، يكون كالتالي:

۞ إذا كان رضيعك منظمًا جدًا، فهو يحتاج للشعور بالأمان باتباع جدول محدد، أما إذا كان غير منظم، فتحتاجين أنتِ للتحلي بالصبر لمساعدته على اعتياد انتظام العادات اليومية.

۞ إذا كان رضيعك يستمتع بالأمور الجديدة راقبيه ما أمكن لئلا يقع في مشاكل، أما إذا كان يميل للانسحاب من المواقف، فحاولي تسهيل مواجهته للمواقف الجديدة دون إجباره على المشاركة فيها إلا بالقوة الناعمة.

۞ إذا لم يكن رضيعك يتكيف بسهولة فستحتاجين إلى تشجيعه مثلًا عن طريق تركه يتحرك بإيقاع السرعة الخاص به ومنحه الفرص للاختيار دون إحداث توتر له ودون تعجل.

۞ إذا كان رضيعك حساسًا لمحفزات الحواس ويتوتر بسببها بشدة فسيحتاج لطمأنته بشكل متكرر لكي يهدأ ويدرك أن الأمر بسيط لا يستدعي قلقه، وإذا لم يكن حساسًا لمحفزات الحواس، ساعديه لكي يدرك المناظر والأصوات في بيئته بصورة أفضل عن طريق لفت النظر لها كل مرة برفق.

إذا كان رضيعك خجولًا يمكنك تعويده شيئًا فشيئًا على أن يكون اجتماعيًّا بدمجه مع مجتمعات آمنة خارج أسرته الصغيرة - زيارات الأهل مثلًا والمتنزهات - مع تعليمه حدود التعامل مع الآخرين من حيث الحقوق والواجبات، بقدر استيعابه، وإن كان اجتماعيًّا بشكل زائد عن الحد الآمن، فنعلمه أنواع العلاقات الآمنة وغير الآمنة ودرجات المقربين والمعارف. مع دعم كل ذلك بقصص تربوية وقصص من الواقع ليس فيها خطورة على نفسية الطفل.

وقد يستجيب بين يديك بمرونة، وقد تظل بعض السمات المزاجية الفردية للرضيع كما هي مدي الحياة ثم تتغير في ظروف بيئية أخرى أو بإرادة داخلية أكبر حين يكبر ويتزكى بنفسه أكثر.

كذلك من المشكلات المتوهمة:

حساسيات الصور الذهنية النمطية لدى المربي، والمتصلة بسلوكيات الطفل، سواءًا داخل الأسرة أو أمام أعين الناس، كظن المربي أن الطفل المؤدب هو الهادئ، أو هو الطفل الذي يسمع الكلام مباشرة دون تباطؤ أو معارضة، بالتالي يكون طفله في نظره غير مؤدب لأنه غير هادئ أو يبدي ممانعة أحيانًا. ومما يكون من الحساسيات خارج البيت: ما يشعر به المربي من حرج أمام الناس بسبب سلوكيات المرحلة الطفولية الطبيعية، فإما يُبدِي غضبًا وعنفًا مع الطفل ليرَى الحُضورُ أنه يؤدبه، وإما يتجاهل الطفل ويُبدِي للناس تأسفًا على سلوكيات ابنه والتي لا تستدعي اعتذارًا من الأساس فهو لم يُخرّب شيئًا مثلًا إنما قد يكون يلعب لعبًا عاديًّا فحسب! وهنا قد يلجأ الطفلُ المُراقِب لتلك المَشاهِد لأحد البدائل: إما يتعمد كل مرة إحراج أهله أمام الناس بإزعاج متواصل ليعطوه ما يريد في سبيل أن يزيلوا سلوكه المُحرِج، وإما يستجيب للتعنيف فينكمش في نفسه ويظل دومًا مُتحَسسًا ومترقبًا لنظر الناس مثلما لقَنَه المربي لا شعوريًّا[1].

(١) إضافة هذا العنصر للكتاب مستفاد من النصائح الثمينة للأخت الحبيبة تسنيم راجح.

والتوازن هنا يكون بالفصل بين:

۞ السلوكيات الخطأ بالفعل التي تستلزم كبح زمام وتهذيب وتأديب، مما يتصل عادةً بحقوق الآخرين، وعلى الآخرين أيضًا أن يستوعبوا أنه لازال طفلاً صغيرًا، وإلا كانوا غير راشدين.

۞ والسلوكيات العادية المتصلة بطبيعة المرحلة، فلا نطاردها ونحاصرها ونتصادم معها طوال الوقت ونستفز دفاع الطفل عنها بعناده وتمرده.

فلا نخلُق مشكلة وهمية ثم نبحث عن حل لها! الوقاية خير من العلاج.

ثانيًا: ومن المشكلات السلوكية الحقيقية غير المتوهمة، والمترتبة على بعض الطباع الفردية وتحتاج لتهذيب وتزكية وتقويم:

۞ **حدة رد الفعل**: فبعض الرضع يزمجرون ويصرخون ويعبَسون للتعبير عن ضيقهم ويسهل استثارة غضبهم بأقل شيء، والبعض الآخر يكون رد فعله أبسط وأسهل من ذلك فنعرف عندما يبكي أن هناك خطبًا ما.

۞ **سوء الحالة المزاجية**: قد نجد بعض الرضع دائمي الاعتراض والتذمر والتمرد و"التلبس بروح الكآبة" والإعراض بالوجه ممتعضًا، بينما البعض الآخر هادئون ويبتسمون لكل شيء وكل أحد تقريبًا بلطف.

۞ **سرعة التململ**: فبعض الرضع يمل بسرعة من لعبة واحدة ويرفضها، بينما غيرهم يلعب بسعادة بلعبة واحدة لفترة طويلة وربما يكررها يوميًّا دون ملل، وربما يتصل ذلك بدرجة الانتباه والحساسية للمحفزات والذَين ذكرناهما في الفقرة السابقة.

۞ **الاستحواذية**: أحيانًا نجد الطفل الاستحواذي سواء على الأشخاص أو الأشياء، لا يفلت يده منهم بسهولة، يحب كنز الأشياء ولا يحب تفويت أي منها،

يظل متعلقًا فوق أذن من يكلمه بالطلبات والحوارات ويغضب حين يزاحمه أحد في شيء من تلك المساحات.

۞ **صعوبة المراس**: فبعض الرضع لديه جملة من تلك الأمور أو الطباع الصعبة التي تجعله صعبَ المراس والتربية إجمالًا، وهي صفة تتسم بها نسبة قليلة من الأطفال - يُقال ١٠٪ تقريبًا من الرضع - وهؤلاء يتسمون بعدم الانتظام في عاداتهم وردود فعلهم الحادة والانفعالية، وبحالة مزاجية غير سعيدة غالبًا، ومن الصعب إلهاؤهم بأشياء جديدة، وربما يتسمون أيضًا بالحساسية المفرطة تجاه بعض الأشياء رغم ذلك، فمعاشرتُهم وتربيتُهم تعتبر نوع من التحدي التربوي بلا شك، وتلزمُهم عناية تربوية مضاعفة وصبر أكثر على حسن توجيه الطباع وتقويم السلوكيات السيئة المترتبة عليها، ضاعف الله أجر والديهم كما ضاعف لهم مسئوليات المهمة.

وتقويم بعض السلوكيات الفردية المزعجة التي ذكرناها، يكون كالتالي:

۞ إذا كان رضيعك من النوع المزمجر الذي يبدي سلوكيات عنيفة عند رفضه للشيء، فتقويمه يكون بتعويده التعبير عن نفسه بهدوء وبساطة، مع ربط حسن الخلق وسوء الخلق بنصوص الوحيين والتربية الأخلاقية والإيمانية، كما سنفصل في فصول بناء الرضيع واغتنام كنوزه، بجانب إجراءات تأديب مناسبة بحسب الموقف، نستعرضها في تفاصيل المشكلات.

۞ إذا كان مدى انتباه الطفل قصيرًا بما يجعله يمل سريعًا غالبًا، فستضطرين لتوفير الكثير من وسائل الترفيه والألعاب المحفزة للحواس بقوة لتقليل كثافة فترات شعوره بالملل والضجر، لكن لا تفعليها بإسراف وإنما يمكنك تغييرها كل فترة ريثما ينساها قليلًا ثم تعاودين إظهارها والتبديل بينها، مع تعويده على التأقلم أحيانًا على الموجود بعدم استجابتك لتململه وتضجره كل مرة، فلا مفر من تحمل بعض "الزن" أحيانًا لنرغمه على إيجاد حل بنفسه من محيطِه، وفي هذا تحفيزٌ للانتباه والتركيز أكثر، بجانب ما في ذلك من التزكية لسلوكه بالطبع، لئلا نفسده بالتدليل الزائد.

۞ إذا كان الطفل استحواذيًا، فهذا ناتج عن تقدير زائد عن الحد للأشياء والأغراض، فالمشكلة هي في إفراطه إذًا، فنعلمه "**من خلال الممارسة**" أنه جميل أن نتعلق بالأشياء والأغراض ونكون أوفياء لها ولا نحب أن نفارقها بسهولة، ولكن دون أن يخنق ذلك مساحات الآخرين ودون أن يجعلنا نستحوذ على كل شيء يقع تحت أيدينا، وأن لكل أحد غيره مساحةً من الحقوق لا يحب هو أيضًا إهدارها ولا استحواذ الآخرين عليها، وأن هذا السلوك ينفر الناس من الشخص وربما لا يصبح لديه أصدقاء، وربما يحرمه أيضًا من شراء أشياء جديدة، فلن نشتري الجديد إلا حين نستغني عن أمثاله من القديم، لأن الله لا يحب المسرفين ولأننا لن نجد مكانًا لتخزين كل الأشياء، وأنه لا بأس إن أفلت شيءٌ من يدنا فكل ما نريده سنجده في الجنة وأجمل منه بإذن الله وأن المؤدب الكريم يدخل الجنة .. إلخ.

كيف "من خلال الممارسة" نعلمه تلك النظريات المعقدة والصعبة على استيعابه بعد[1]؟

الجواب: عن طريق القدوة والإجراءات العملية المباشرة في مواقف الطفل اليومية، بجانب التلقين الكلامي كما كتبنا.

مثلًا:

-لانستجيب لما يطلبه من أمور ليست من حقه بالفعل.

-لا نعطيه كل ما يطلبه من الأساس، سواء داخل البيت أو خارجه.

-لا نسمح له بأخذ ألعاب الأطفال الآخرين الذين يزورهم، عند انصرافه من بيتهم، إلا لو أعطاها له الطفلُ الآخَر طواعية، وحينها نجعل ابننا يعطيه بدوره هو الآخر هدية مقابلة، فيصبح الأمر من باب تبادل الهدايا والمَسرات، لا من باب الاستحواذ والأخذ دون رد.

(١) العديد من تلك العناصر العملية مستفادة من نصائح الحبيبة تسنيم راجح لكتابي، بتصرف يسير ودمج بينها وبين إضافات أخرى من عندي.

- وفي ذات الوقت نعطيه مساحات مناسبة من إشباع حب الامتلاك الخاص، فإن أراد مثلًا أن يكون له طبقٌ خاصٌ أو ملعقةٌ خاصةٌ فلا نمنعه، ولا نجبره على مشاركة أغراضه الخاصة تلك وألعابه مع الآخرين، ولكن نحببه في ذلك ونحمِّسه له كثيرًا ونمدحه إذا استجاب ونربط له الأمر بحب الله ورضاه والجنة (ولا نلتفت لقول البعض أنه من الخطأ تعليم الأطفال الكرم قبل سن ٧ سنوات!).

- ونُبدي فرحة بكرمه النابع من نفسه تلقائيًّا مع غيره، فلا ننهره حين يريد إعطاء لُعَبَه وحلواه للآخرين لكيلا ننمي حس الأثرة والاستحواذ لديه، ونحتسب الأجر من الله.

- ونكون قدوة له في تَشارُك الأغراض وتطبيقنا للآية: ﴿.. وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ..﴾ [الحشر:٩]، كل ذلك من باب الغرس والتعويد المتدرج بما يناسب مرحلته، ولا بأس إن لم يستوعب التفاصيل في حينها.. فلا زال في طور التخزين المبكر والتعلم.

۞ إذا كان الطفل **صلب الشخصية غير مرن**، قد ينتج ذلك فيه عنادًا وتمردًا وربما سوء أدب مع الكبار وسرعة غضب واستثارة، وسنتناول ذلك في القسم الثالث من المشكلات المعاصرة، لاعتقادي الشخصي أن أطفال خير القرون لم يكونوا كذلك، وأن تلك سلوكيات مستحدثة لأسباب عدة، نفصلها وعلاجها في موضعها هناك.

۞ كذلك إذا كان الطفل من النوع "**الزنان**" الذي لا يكاد يهدأ تبرمه وتململه، فلنا مع طرق علاجه وقفة مستقلة ومفصلة، في نفس القِسم الثالث آنِف الذِكر، بإذن الله.



ثانيًا: مشكلات مرحلية

القسم الأول: مشكلات مرحلية عامة (مرتبطة بالمرحلة على مر العصور)

١. البكاء والصراخ بكافة طبقاته الصوتية ولمختلف الأسباب

ما يسمى أحيانًا بنوبات البكاء لدى الرضع والتي قد تصل إلى مدد طويلة متواصلة بتقطع بسيط لا يُذكَر، فكما رأينا في فصول الوليد: تبدأ حياتنا جميعًا بصرخة الميلاد، يستهل الوليد صارخًا كما في الحديث، ثم لا ينقطع صراخه منذئذ كما يبدو، وطوال الأسبوعين التاليين للولادة يصرف الطفل ما يقارب الساعتين يوميًّا في البكاء، ولا يبكى الطفل في تلك المرحلة بدون سبب كما قلنا، فيبكي على سبيل محاولة الإخبار بشيء ما، ومهمتك هي معرفة لماذا يبكي، وما يمكنك فعله لكي لا يبكي، وكلما تطور نمو الرضيع وتعلمت الأم كيفية تلبية احتياجاته كلما تناقصت نوبات البكاء المزعجة تلك، وبكاؤه وصراخه في العام الأول أكثر من مرحلة الوليد وما بعدها بقليل، نظرًا لتناقُص عدد ساعات النوم عن ذي قبل وتطور نمو الطفل بشكل أكبر وبالتالي ازدياد أسباب بكائه نتيجة لتفاعله مع العالم الجديد من حوله وتلاحُق احتياجاتِه التي يريد أن يلبيها منه، ثم يعود البكاء يقلّ بالتدريج كُلما اقترب الرضيع من مرحلة الفِطام والاعتماد على النفس أكثر والتواصل المُباشِر مع الحياة والناس والانغماس فيهم، فيكون لديه شريحة أوسع للأشياء التي تُلهيه عن البُكاء.

الحل:

- أول خطوة: معرفة أن هذا البكاء نعمة تستحق الشكر، فحدة بكاء الطفل تساعد في تمييز مَن يعانون من خلل في حاسة السمع في أول شهرين من عمر الرضيع سبحان الله، بجانب أن البكاء علامة نمو صحي بشكل عام.

- الخطوة الثانية: رقية الطفل، ولو بأسرع صيغة نبوية، وهي التي كان يرقي بها ﷺ الحسن والحسين ومن قبله كان يرقي بها إبراهيم عليه السلام ابنيه إسماعيل

وإسحاق، ألا وهي: «أعيذك بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة»، أعرف أن البعض منا يستثقل الرقية كل فترة للأسف، فإن كان هذا حالك أحيانًا فيُجزِؤكِ أن تذكري اسم الله على طفلك وتُحَصِّنيه بتلك الرقية القصيرة، أو غيرها من الرقى القصيرة الأخرى، مثل:

* أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

* بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء.

* بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِن كُلِّ شيءٍ يُؤْذِيكَ، مِن شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ - وهي رقية الروحُ الأمينُ جِبريل لمحمد ﷺ.

*الفاتحة، والناس، والفلق.

تخيري ما يناسبك منها وكلها قصيرة وسريعة وتُجزيء بإذن الله، المهم ألا تكسلي عن رقية طفلك عند البكاء، ففي ذلك حديث ذكرناه سابقًا في فصول التحصين: قال ﷺ حين سمع بكاء أحد الصغار: «ما لصبيكم هَذَا يَبْكِي؟ هَلَّا استرقيتُم لَهُ مِنَ العينِ»[(١)].

۞ الاجتهاد في معرفة السبب، وإزالته إن أمكن، وتلبية الاحتياجات الجدية منها بالصورة المناسبة كما سنوضح، و لهذا السبب كان ﷺ يتجوز في الصلاة حين يسمع بكاء الطفل في الصفوف، قائلًا «لأفرغ له أمه».

۞ وإذا عجَزنا عن إزالة سبب البكاء نحاول التهوين على الرضيع ما استطعنا، وربما التجاهل أو الإلهاء فحسب يكون الحل أحيانًا، بخاصة بعد عمر الثلاثة أشهر الأولى وبحسب الموقف بالطبع ودرجة بكاء الطفل كما سنبين، وستجدين في نقاط لاحقة، جانبًا من ألاعيب (الإلهاء) التي قد تعينك في ذلك، فأحيانًا يكون هناك نوع من البكاء على هيئة دلع أو «زن» بلا سبب وجيه ويكون خفيفًا ليس عصبيًّا ولا

(١) حسنه الألباني-صحيح الجامع (٥٦٦٢).

تشنجيًّا بشكل يقلق على صحة الرضيع، فيمكن للأم حينها الدندنة والتحدث مع طفلها عن بُعد في نفس الغرفة مثلًا دون الحاجة للذهاب إليه مباشرة ولا حَمله على ذراعها، فليست كل استجابة للبكاء نعني بها «حمل الرضيع» بالضرورة.

وإذا صارت الأم حساسة كفايةً لاحتياجات طفلها الأساسية ستتمكن بإذن الله من الاستجابة لإشاراته بشكل أفضل تراكميًّا وعلاج سبب البكاء مباشرة سواء كان واضحًا كالجوع مثلًا، أو خفيًا كالملل وغيره، فعلاوة على الأكل والدفء والحفاضات النظيفة والفراش الهانئ، يحتاج رضيعك للاهتمام والعطف والاتصال الجسدي.

وبشكل عام نكرر مجددًا [1]:

أن التهيؤ مبكرًا لتقبل فكرة أن هذا الأمر سيكون جزءًا أساسيًّا من يومك غالبًا لأسباب متصلة مباشرة بنمو سليم لطفلك، يساعدك على التعايش مع كل ذلك أكثر وتَقَبُّلِه أكثر، فأقلمي نفسَك على أنه لا داعٍ للتوتر مع كل بكاء ولا للشعور بالحرج والفضيحة من صراخه وبكائه أمام الناس ولا الشعور كذلك بضرورة إسكاتِ «زنِّه المُتباكي» دومًا أو تسليته وإلهائه عنه، بل من الواقعية أن تهيئي نفسَكِ لأداء صلاتك وورِدك القرآني ومهامك اليومية وفي الخلفية ربما صوت«زن» أو بكاء بسيط، طالما أنكِ مُطمئنةٌ أن صغيرك بخير ولا يحتاج لمساعدة الكبار أو أي تدخل عاجل.

هذه كانت روشتة عامة، وإليك بعض الأمور التي قد تكون سببًا محتملًا في البكاء، وعلاجها:

(١) الجوع

غني عن التعريف به.

الحل: جرعة رضاعة لا تقل عن عشرة دقائق أو إلى أن يظهر على الرضيع

(١) هذا الحل مستفاد من نصائح الحبيبة تسنيم راجح لكتابي.

أمارات الشبع، كفيلة بتحويل تلك اللحظات العصيبة للأفضل بحول الله.. فإن كان جوعه هو بسبب أن لبن أمه لا يكفيه أو لا يصل به لحد الشبع، فمسألة تنظيم وتذليل معوقات الرضاعة الطبيعية وحل مشاكلها، قد أصبح لها تخصص مستقل في زمننا، فأنصح الأمهات باللجوء لإحدى المختصات فيه، للعناية بمشاكل الرضاعة منذ أول يوم، تفاديًا لفطام مبكر للرضيع لا سمح الله، وتحقيقًا لتمام الرضاع اللازم للنمو النفسي والصحي السليم بإذن الله، وتقليلًا من بكاء الرضيع بسبب الجوع المستمر.

(٢) التسنين.. وتوابعه

تكلمنا عنه في سمات الرضيع بالتفصيل ضمن مراحل تطور نمو الأسنان، هذا النمو يسبب آلامًا أحيانًا لبعض الرضع، ويمكن أن يبدأ من عمر ٤ إلى ٧ أشهر، وبالإضافة إلى ما قد يسببه من فرط البكاء و«الزن» وسوء المزاج، تعاني الأمهات هنا أيضًا من عضة دامية تُسَمى بالعامية المصرية «عضة الفار»، تظنها بعض الأمهات سوء أدب من الرضيع وعدوانية متعمَّدة منه، بينما هو يلعب ويجرب سلاحه الفتاك الجديد وفكه المفترس ليس أكثر، وحسب رد فعلنا يقرر ما إذا كان سيكررها أم لا!

الحل:

* إعطاء الرضيع "لهاية" أو "عضاضة" مناسبة، بالإضافة إلى رقيتنا له كلما ألمّ به الوجع، يُذهِبُ الله بهما بحوله وقوته كثيرًا من الأعراض، مع مراجعة طبيب أسنان في ذلك لئلا يتم استعمال "لهاية" غير مناسبة حجمًا أو نوعًا أو لمدد طويلة مما قد يضر بتطور نمو أسنان الرضيع وربما أمور أخرى، يأتي تفصيلها في مشكلة "مص الأصابع".

* ويمكن كذلك استشارة الأطباء في استعمال مراهم موضعية للرضيع لها مفعول المخدر تكون مناسبة للرضع في هذه المرحلة ولا تسبب أي أعراض جانبية مضرة لهم كذلك، لكن يُفَضَّل قبل الجزم بأنه ألم التسنين، أن يتم عرض الرضيع على الطبيب، لأن هذه الأعراض لها أسباب أخرى غير التسنين، وزيارة الطبيب تزيل الاشتباه.

* التنبه في تلك الفترة لأسنانه والتأهب عند اقترابها من أصابعنا أو جسمنا.. إلخ، ثم إذا قام بالعضّ نضغط بكف واحدة على خديه من الجانبين للداخل لنتمكن من فتح فكيه وتحرير الرهينة بسلام، ونُبدِي للطفل وجهًا غاضبًا متألمًا من هذا السلوك، ولو كان على ذراعنا مثلًا ننزله، ونحو ذلك، بجانب حلول تفصيلية أخرى، نذكرها في نقطة مستقلة لاحقة عن مثل تلك السلوكيات.

(٣) المغص

كما قلنا من قبل في مشكلات الوليد: المغص عادةً هو من أبرز أسباب البكاء الفجائية التي لا تستطيع الأم تفاديها مسبقًا، وهو مشكلة مرحلية على مر العصور لكن بشكل جزئي ونسبي، فهو طبيعي في أول ٣ أشهر للطفل لأن أنزيماته لم يكتمل تصنيعها بعد في جسمه، وتقل وتزيد مشكلة المغص بعد ذلك تبعًا لنوعيات أكل الأم - لأنه ينزل للطفل في حليبها - وتبعًا كذلك لطريقة الإرضاع من حيث إدخال الأم للهواء أثناء إرضاع طفلها بما يسبب انتفاخات للطفل تؤدي للمغص والألم أم لا، فيتحسن عادة عند بلوغ عمر الـ ٣ أشهُر، بحسب انتباه الأم للأسباب المؤدية للمغص من عدمه.

والحل:

۞ اجتناب الأم للأطعمة المهيجة للمغص عامة، مثل البصل والطعام الحار ونحوه.

۞ اجتنابها لإدخال هواء إلى فم الطفل أثناء إرضاعه.

۞ تجنيب الطفل الأطعمة المسببة للمغص لديه، حين يبدأ في أكل الطعام.

۞ تدليك البطن بزيت الزيتون أو كاسات الحجامة الجافة، مع ترتيل الرقية مجددًا و«ذِكر الله» على موضع الألم - وصيغته: «بسم الله»، ثلاث مرات، ثم «أعيذك بعزة الله وقدرته من شر ما تجد وتحاذر» سبع مرات، والتدليك في حد ذاته يساعد في

إرخـاء التقلصـات، ويمكـن كذلـك أن نحـرك سـاقيه برفـق بحركـة العجلـة ونحوهـا.

ولـو لـم يفلـح معه شـيء يُرجَع إلـى الطبيـب، بخاصـة إذا تكـرر المغـص بشـكل مريـب، فربمـا يحتـاج طفلـك لاسـتبعاد بعـض الأطعمـة التـي لا تنتبهيـن إليهـا، وربمـا يحتـاج لـدواء أنسـب لتطـور نمـوه.

ومهـم متابعـة الحفـاض دوريًّا للاطمئنـان إلـى خلـو المعـدة مـن أي عـدوى مسـببة للمغـص، أو عـدم ابتـلاع الرضيـع لأشـياء أو أغـراض هـي التـي تسـبب الألـم في أمعائـه. لا أنسـى بعـض الألعـاب الصغيـرة ودبابيـس الدباسـة أحيانًـا ونشـارة الخشـب التـي كانـت بعـض الأمهـات تحكـي أنهـا تفاجـأ بهـا في الحفـاض وقـت تغييـره! ولكـن اطمئنـي فمرحلـة جـز الحشـائش تلـك توشـك أن تنتهـي، فقـط تربصـي لملاقِيطِـه النهمـة، واصبـري وأبشـري.

بجانـب الاهتمـام بجعـل الطفـل يتجشـأ (يسـمى بالمصريـة: التكريـع)، فعمليـة التجشـؤ هـي خـروج الهـواء مـن المعـدة، بالتالـي تقليـل حـدوث عسـر هضـم بـإذن الله، وتتـم عـن طريـق التربيـت علـى ظهـر الطفـل في المنتصـف بشـكل متتابـع وبرفـق.

(٤) تنظيم نوم الرضيع وتقليل اضطرابه

عـدم انتظـام نـوم الرضيـع يؤثـر قطعًـا علـى نـوم أمـه، فالرضيـع ربمـا يسـتمر فتـرة علـى قلـب أوقـات النـوم كمـا كـان الأمـر في مرحلـة الوليـد، فينـام نهـارًا ويفيـق ليـلًا، أو ربمـا ينـام نومًـا متقطعًـا نهـارًا أو ليـلًا غيـر عميـق، أو ربمـا لا ينـام عـدد سـاعاته الطبيعيـة يوميًّـا، وكلمـا كانـت الأم حازمـة ومنتظمـة في تطبيـق توصيـات تنظيـم النـوم، كلمـا أسسـت – بحـول الله وقوتـه – لنظـام يومـي مريـح لهـا ولرضيعهـا، يجنبهمـا الأرق واضطرابـات النـوم والتوتـر، وبالتالـي يحفـز تطـور نمـو الرضيـع بشـكل أفضـل ويسـاعد الأم نفسـيًا وبدنيًـا وعصبيًـا علـى التحمـل أكثـر، حيـث تقـول دراسـات أن الأمهـات الـلاتي حصلـن علـى قسـط نـوم أقـل مـن ٤ سـاعات كـن أكثـر عرضـة لاكتئـاب مـا بعـد الـولادة – وسـيأتي تفصيلـه. وللتذكيـر: يمكـن تنظيـم نـوم الرضيـع منـذ الشـهر الأول بعـون الله.

الحل: بحسب حسب سمات الرضيع، فإنه يبدأ التأثر بالأضواء والأصوات مِن حوله من عمر شهر إلى ثلاثة أشهر، فهنا يمكننا أن نبدأ في ضبط ساعته البيولوجية الطبيعية تبعا لليل والنهار وسنة الله الكونية فيهما، فنساعده على النوم ليلًا بعمق، واليقظة والنشاط بالنهار، وكلمة السر لتحقيق ذلك:

(القيلولة).. أي أن الحل نجده في السنة النبوية كالعادة، فالثابت عن النبي ﷺ محافظته على نومة القيلولة، هو وصحابته الكرام، تجدها مبثوثة في يومياتهم كالماء والهواء:

- قال سهل بن سعد الساعدي: «ما كنا نقيل ولا نتغدى إلا بعد الجمعة»(١).
- وقال أنس بن مالك: «كنا نبكر بالجمعة، ونقيل بعد الجمعة»(٢).
- وجاء ﷺ يومًا إلى بيت فاطمة فلم يجد عليًّا في البيت، فقال: «أين ابن عمك؟ - زوجها - قالت: (كان بيني وبينه شيء، فغاضبَني، فخرج، فلم يَقل عندي - أي: لم ينم القيلولة عندي)، فقال النبي ﷺ لإنسان: انظر أين هو، فجاء فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقد»(٣).

هذا منذ أكثر من ١٤٠٠ عام.. قبل أن يتم اكتشاف بعض فوائدها العلمية حديثًا كالتالي:

- «أكَّدت دراسة أجريت في اليونان، ونشرتها المجلة الأمريكية «أركايفز أوف إنترنل ميديسين» The Archives of Internal Medicine، وشاع خبرها في وكالات الأنباء العالمية، أن أخْذ القيلولة ثلاث مرات في الأسبوع مفيد للقلب، ويحد بشكل كبير من الوفَيات الناجمة عن الأمراض القلبية، وأن الأشخاص الذين يأخذون القيلولة بانتظام - أي: بمعدل

---

(١) البخاري (٥٤٠٣).
(٢) البخاري (٩٠٥).
(٣) البخاري (٤٤١).

٣٠ دقيقة على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع - هم أقل تعرضًا لوفاة مرتبطة بأمراض قلبية، من الذين لا يتبعون هذه العادة.

۞ وأكد الباحثون في دراسة أخرى نُشِرَت في مجلة «العلوم النفسية» عام ٢٠٠٢ تحت إشراف الباحث الإسباني د. إيسكالانتي: «إن القيلولة تعزز الذاكرة والتركيز، وتفسح المجال أمام دورات جديدة من النشاط الدماغي في نمط أكثر ارتياحًا»، وأشار الدكتور إلى أن الدول الغربية بدأت تُدرِج القيلولة في أنظمتها اليومية.

۞ وأثبتت الأبحاث الطبية الغربية الحديثة أن نوم القيلولة يقلل كذلك من أمراض الشرايين بنسبة ٣٠٪، وأنها تعيد للجسم حيويَّته من ٤ إلى ٥ مرات، وتساعد على تقوية العضلات وتنشيط المخ[(١)].

۞ فالقيلولة إذن ليست ضرورية للطفل فحسب، وإنما لأمه كذلك فينبغِي ألا تَفُوتكِ بالنهار ولو نصف ساعة يوميًا.. ولتعلمي كذلك أنها من أقوى الأسباب المعينة على قيام الليل عند السلف.

مدتها؟

بالنسبة للراشدين:

۞ «شدد الباحثون في دراسة مجلة «العلوم النفسية» آنفة الذكر، على عدم الإطالة في القيلولة؛ لأن الراحة المفرطة قد تؤثر على نمط النوم العادي، وأوصى فيها د. إيسكالانتي بقيلولة تتراوح بين ١٠ - ٤٠ دقيقة، يحظى فيها الإنسان بنوم خفيفٍ لكن هادئ، ويستفيد جسمه منها استفادة كاملة.

۞ وأكد العلماء في مؤسسة «النوم الوطنية الأمريكية» أن فترات القيلولة القصيرة في منتصف النهار لمدة نصف ساعة - (٣٠ دقيقة) - تلغي تأثير التعب، وتعيد الاستقرار والحيوية والنشاط للذهن والجسم مهما كانت نوعية المهمة التي يقوم بها الإنسان.

---

(١) من مقالة على شبكة الألوكة، بعنوان: «القيلولة سنة نبوية وفوائد صحية ونفسية».

كذلك فقد اكتشف الباحثون أن ساعة واحدة من القيلولة العميقة أثناء النهار قد تكون مفيدة كالنوم طوال الليل، إذا تمكن الشخص من رؤية الأحلام فيها، كما أن النوم في فترات ما بعد الظهر يساعد في زيادة إنتاجية الفرد إلى الأفضل، ويُحسِّن قدرته على التفاعل، ويُكسِب الجسم الراحة الكافية، ويقضي على هرمونات القلق والتوتر المرتفعة في الدم نتيجة النشاط البدني والذهني الذي بذله الإنسان في بداية اليوم»[1].

تشير الفقرة الأخيرة إلى عدة لقطات:

فترة قيلولة عميقة فيها أحلام، يصحو بعدها النائم خاليًا من التوتر والقلق مفعمًا بالتفاعل والحيوية منشرح الصدر مستبشرًا.

ذكَّرَني ذلك كله بحديث أم سليم، حين نام عندها النبي ﷺ قيلولة فيها تلك اللقطات مجتمعةً سبحان الله، تحكي تقول: «أن النبي ﷺ قال عندهم - أي قضى قيلولته هناك - فاستيقظ وهو يضحك، قالت: يا رسول الله، ما أضحكك؟ قال: رأيت قومًا ممن يركب ظهر هذا البحر كالملوك على الأَسِرَّة، قالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: فإنك منهم، قالت: ثم نام، فاستيقظ وهو يضحك، فقلت: يا رسول الله، ما أضحكك؟ فقال مثل مقالته، قالت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين، فتزوَّجها عبادة بن الصامت، فغزا في البحرِ، فحمَلها معه، فلما رجَع، قرِّبت لها بغلةً لتركبها فصَرَعتها، فاندقَّت عُنُقُها، فماتت»[2].

هذا بخصوص المدة المناسبة للراشدين، أما الأطفال وبخاصة الرضع، فالأمر يرجع إلى سمات نوم كل مرحلة فيهم وعدد ساعاته فيها والفروق الفردية، فبشكل عام: يحتاج الرضيع إلى عدد ساعات نوم ليلية - غالبًا - لا تقل عن ٨ ولا تزيد عن ١٤ ساعة، فمن الرضع من ينام ١٢ ساعة ليلًا متواصلة، ومنهم من تكفيه ١٠ ومنهم

(١) من مقالة على شبكة الألوكة، بعنوان: «القيلولة سنة نبوية وفوائد صحية ونفسية».
(٢) البخاري (٢٨٩٤).

من لا يصحو إلا بعد ١٤ ساعة، يفضل للأم حينها أن تغير حفاضه في وسط النوم لئلا يصحو بسبب شعور البلل المفرط، وبناء على أن ساعات نوم الليل منتظمة، فإن الرضيع يحتاج إلى أن تكون مدة قيلولة النهار لا تقل عن ساعتين ولا تزيد عن ٦ ساعات، متقطعة، فقد يحتاج الطفل لأكثر من قيلولة نهارية، بحسب المرحلة الشهرية، فمثلًا: رضيع الشهور الأولى قد يقيل ثلاثة مرات، كل مرة ساعة أو ساعة ونصف مثلًا، بينما رضيع السنة فما فوق ربما يقيل مرة أو مرتان نهارًا كل مرة فيهما ساعة أو ساعة ونصف، وربما قيلولة واحدة وتكون ساعتين مثلًا بعمق، بينما مرحلة الفطيم وما بعد العامين فقد لا يقيلون سوى مرة واحدة نهارًا لمدة ساعتين مثلًا، هذا بالطبع لمن تنظم مواعيد النوم، أما من تترك الحبل على الغارب وتدع طفلها ينام نهارًا قيلولات بلا عدد ولا حد، فلا تلومن ليلًا إلا نفسها.

أما عن اغتنام القيلولة لتنظيم أوقات النوم الليلية: فما العلاقة بينهما؟ وما كيفية ذلك؟

اضطرابات القيلولة وانعدامها بالكلية أو الإفراط فيها وفي تأخير مواعيدها، يؤدي إلى سهر الطفل ليلًا أو كثرة أرقِه، فعلى الأم أن تبدأ أولا بالقيلولة لتستطيع تنظيم نوم الليل، بأن تحدد كم مرة سينام الطفل وكم عدد الساعات، بالتقريب دون حسابات دقيقة مرهقة، فالأمر واسع ويتحدد بشكل كبير تبعًا للفروق الفردية والمرحلية للطفل والظروف المحيطة، فسددوا وقاربوا وأبشروا.

على أن تكون آخر قيلولة يأخذها الطفل قبل الموعد المطلوب لنومه ليلًا على الأقل بـ ٣ أو ٤ ساعات، ويفضل أن تكون قبلَه على الأقل بـ ٦ ساعات، ولا مانع من أن نهيئ الطفل لها برضعة مشبعة إن لم يكن يُغالِبه النعاس.

نضرب هنا نماذج تطبيقية عامة، على أن تقيس عليها الأم وتتخذ منها ما يناسبها:

- رضيع عمره شهر، ينام ٣ قيلولات نهارًا، كل منها ساعة أو ساعتين، يصحو

من آخر قيلولة الساعة ٧ مساءً، على أن نجهزه لنومة الليل قرب الساعة ١٠.

۞ رضيع عمره ٦ أشهر، ينام قيلولتين نهارًا، كل منها ساعة ونصف أو ساعتين، يصحو من آخر قيلولة الساعة ٦ مساءً، على أن نجهزه لنومة الليل قرب الساعة ١٠.

۞ رضيع عمره سنة وشهران، ينام قيلولة واحدة نهارًا مدة ساعتين أو ثلاث، أو قيلولتين كل منها ساعة، يصحو من آخر قيلولة الساعة ٥ أو ٦ مساءً، على أن نجهزه لنومة الليل قرب الساعة ١٠.

فكيف نجهز الرضيع لنومة الليل بعمق؟

نعتمد هنا بشكل كبير على الذاكرة، تذكرون في سمات الرضيع، حين تكلمنا عن الذاكرة وحجم تخزينها للأمور المتكررة، بما يمَكِنُنا من استغلالها في تعويد الطفل على **عادات يومية تنظم اليوم؟ فمن ذلك: عادات يومية للنوم، عادات يومية للرضاعة، وغيرها.**

عادات النوم اليومية (ما يسميه البعض «روتين النوم»):

۞ يأخذ حمامًا دافئًا قبل موعد نومه بنصف ساعة مثلًا، والدماغ حين تتلقى دفعات الماء الدافئة تسترخي وتتهيأ للنوم.

۞ نهيئ إضاءة الغرفة وأجواءها بالخفوت، لتنعم بهدوء في المحفزات البصرية المتنوعة، مع تشغيل القرآن بصوت خافت لتلاوة هادئة في الغرفة - كالشيخ المنشاوي أو خليفة الطنيجي مثلًا - إن لم تكوني بطاقتك الكافية للترتيل له بنفسك.

۞ نجتهد أن تكون الرضعة الأخيرة قبل نوم الليل العميق مشبعة كفاية، إما عن طريق مدرات الحليب الطبيعية في حالة أن إدرار الحليب ضعيف، أو عن طريق سحب الحليب من الأم وإعطاء جرعة كاملة مشبعة منه للطفل قبل أن يغرق في نوم عميق ويوقِف الرضاع، وإما عن طريق رضعة الحليب الصناعية إن كان هذا هو غذاؤه لأي

سبب معتبر، أو غيرها من رضعات الحليب الأخرى - كالرضعات المُحلاة بالتمر أو العسل إذا كان الرضيع قد تجاوز عمره العام، لنتفادى استيقاظه ليلًا قدر الإمكان، مع التذكير بأن رضاع الليل به من الفوائد ما لا يتوفر في رضعات النهار سبحان الله، فلا نغفلها بالكلية ولا نستبدلها إلا لسبب معتبر، ولا نبقى طوال الليل متيقظين لأجلها كذلك، وإنما إذا استيقظ بعد ٦ ساعات مثلًا من نومه العميق وبعد رضعته الليلية المشبعة، نعطيه رضعة مشبعة أخرى بنفس الطريقة، أما أن نلقمه الطعام كلما استيقظ ليلًا أو نهارًا فلا ننصح به، فليس كل استيقاظ أو بكاء للرضيع يكون عن جوع.

- نخاطب الرضيع عند اقتراب تلك الطقوس، بأنه «قد حان موعد النوم»، مرارًا وتكرارًا كل مرة، مهما كان عمره، بلهجة ثابتة وتبعث على الفرح والحبور، سيخزنها وتكون لديه على سبيل الارتباط الشَّرطِي المُهَيِّءِ له نفسيًا وعصبيًا لأجواء النوم.

- نلتزم بهذا النظام اليومي قدر الإمكان مع الاستعانة بالله والإكثار من الحوقلة والدعاء ونحوهما.

وعند ظهور اضطرابات في النوم مجددًا، نتأكد أولًا أن الأسباب المعتادة مستبعَدة: الجوع أو الملابس الضيقة، أو الشعور بالحر أو البرد أو البلل، أو شرب الأم لمنبهات قوية تصل للرضيع من خلال الرضاعة.. إلخ، ثم بعدها نستشير الأطباء إذا لزم الأمر، فربما السبب عضوي كوجود اللحمية مثلًا التي تعيق التنفس بشكل منتظم فتؤدي لاضطرابات نوم، أو غيرها من الأسباب.

ومؤخرا أيضًا قد صار هناك تخصص طبي مهتم فقط بمسألة النوم وتنظيمه وعلاج أسباب اضطراباته، تمامًا كاختصاص طب الآلام واختصاص الرضاعة، فالحمد لله على نعمته.



(٥) افتقاد الرضيع للأم أو لحضنها أو للاحتضان عمومًا

هي احتياجات حقيقية للحنان والعطف والشفقة والقرب والطمأنة، بخاصة الأشهر الأولى، فالأم في هذه المرحلة هي أمانُ الطفل وملاذُه وغوثُه والترجمة الأوضح لعافيتِه من الألم والضيق والخوف، بفضل الله ﷻ بالطبع وحوله وقوته، لأنه لازال في مرحلة ضعفٍ لا يجيد فيها سوى لغة البكاء للتعبير عن احتياجاته الحسية والمعنوية وليس لديه بعد ما يلهيه عن حاله كالمراحل اللاحقة.

الحل:

۞ مثلما عاملنا الوليد سنعامل الرضيع؛ فإلى اكتمال أول ثلاثة أشهر على الأقل لا نتركه يبكي طويلًا بحجة عدم تعويده على الحَمل، فلا نقول «لا تحملوه! هذا خطأ لأنه سيعتاد على الحمل»، أو «ده بيتدلع!»، كلا.. فهذه المرحلة ليس فيها «ده بيتدلع»، فنحمل الطفل قليلًا ونحتضنه ونهدئه بالقرآن أو الغناء له بحنان أو التسكين له بصوت «ششش ششش» الذي قلنا أنه يشبه صوت الأوعية الدموية التي اعتاد على سماعها في الرحم، وندعو له ونُهَدّيء من روعه حتى يسكن.

۞ ثم كلما تطور نمو الرضيع تقل تلك المشكلة، وتتضاعف قدرتُه على إلهاء نفسه بنفسه وقدرتُنا على احتواء تلك الحالة بأمور متنوعة أخرى، فليس شرطًا كل مرة أن نهديء الطفل بحمله.

۞ وأحيانًا يقترح بعض الخبراء، وضع الأم لقطعة من ملابسها فيها رائحتها التي يحفظها الرضيع عن ظهر قلب، ليسكن ويهدأ وكأنها بجواره، وقد يعتبر بعض الناس هذا كذبًا أو خداعًا، ولعلهم يقصدون أنه كذب وخداع مثل خداع الراعي للدواب بدلو الشعير الفارغ لتأتي إليه كما أورد الإمام البخاري في حديثه عن بعض الرواة الذين رد أحاديثهم، أو مثل خداعنا للرضيع ذاته بعد عمر العام بلهاية عليها عسل فيظل يمصها ظنا أنها ستدر طعامًا.

وفي رأيي المتواضع: هناك فرق، فالخداع هنا في مسألة الملابس يتحقق إذا تم وضع ملابس الأم على وسادة منفوخة كالبدن تمامًا بشكل يجعل الرضيع يعتقد أنها أمه حقيقةً، أما مجرد إشباع حاسة الشم برائحتها لأنها هي بذاتها من المسكنات الحسية لحزنه وضيقه ومن المسببات لشعوره بالألفة والهدوء لأنها تُذكره دوما بالروائح التي كان يشمها وهو في بطنها، فلا أراه خداعًا بل هو مثلما نلبي حاجة الطفل إلى المص فقط عن طريق إعطائه اللهاية فقط - (دون طلائها بالعسل وبالضوابط التي سنذكرها في مشكلة "مص الأصابع") - بغض النظر عن شبعه أو جوعه، فهي تعوضه عن جزء من شعور الرضاع الذي يحبه ويَسكن معه، فلا تعد كذبًا ما دمنا لم نضع عليها طعامًا يخدعه فترة طويلة، كالعسل مثلًا، فلا أرى مانعًا من مثل ذلك هنا أيضًا عند الحاجة، بهذه النية والكيفية، فالأمر واسع هنا والله أعلم لأنها لا تخدعه إنما هي تضع له الشيء الذي تهفو نفسه إليه في اليقظة والمنام: رائحتها، بخاصة لو كانت الأم في حالة من الإنهاك والتعب الشديد وتحتاج لتنام قليلًا لتتمكن من خدمة رضيعها بشكل أفضل.

ويمكن الاكتفاء بمجرد لف الرضيع في وشاح عريض بإحكام، فأحيانًا يكون ذلك هو كل ما يحتاجه: الشعور باجتماع بدنه تحت رداء مُحكَم.. ما أسميناه بالعامية "الاحتياج للكلفتة" وكأنه عاد إلى رحم أمه.. وذكرنا أحاديث عديدة جاء فيها شَمل النبي ﷺ لأحفاده الصغار داخل ردائه أو أسفله، فيلفهم معه ﷺ بالرداء نفسه بما يشبه "الكلفتة" التي نعنيها.

(٦) تململ ورغبة في التحرك فقط

وهذا مما تعلمناه ضمن النمو الانفعالي للرضيع، وهو يحدث بالذات في الأشهر الأولى التي يعجز فيها الرضيع عن التدحرج بنفسه من بطنه إلى ظهره أو العكس، أو القيام والوقوف، أو الانتقال من مكانه بشكل عام بنفسه لاقتناص المزيد من كنوز

الحواس من حوله، فيبدأ في التململ وإصدار همهمات استياء عشوائية، ثم ما تلبث أن تتصاعد وتيرتها عند تجاهلها وقد تصل إلى البكاء.

الحل:

۞ في بعض الأحيان، قد تُساعِد أيضًا هَدهَدَة الأم لرضيعها على تهدئته، أو المشي به في أرجاء المنزل، أو قلبه على بطنه أو ظهره، أو إجلاسه وتغيير وضعيته، وربما التحدث معه أيضًا -سواء عن قرب أو عن بعد - يلهيه عن الشعور بالملل دون أن نضطر لحمله كما قلنا.

۞ ويمكن أيضًا محاولة وضع الرضيع في أرجوحة أطفال أو حمله على ذراعنا أو عاتقنا بحسب عمره.. أو اصطحابه للتنزه بالسيارة ولو بدون وجهة محددة، ولا أحسب أن هناك مَن يُخالف الإجماع على «أعجوبة الخروج من المنزل!» و«أعجوبة ركوب السيارة!»، فما إن يركب الرضيع السيارة وإن لم تتحرك بعد، حتى تجده قد سكت بكاؤه تمامًا! وهذا يؤكد نعمة السكن في أماكن واسعة رحيبة مطلة على السماء من أي جانب واضح، ومطلة على المساحات الخضراء والأفق الرحيب، انطلاق بصرهم وسمعهم ومداركهم في فضاء الله الواسع بعيدًا عن الجدران الضيقة، ربما يكون افتقادهم له فقط هو ما يبكيهم.

۞ وعلى الأسر التي لا تملك المسكن الواسع - وسع الله على عباده آمين - أن تكثر من اصطحاب أطفالها خارج الأماكن الضيقة ولو إلى متنزهات عامة بسيطة، أو التمشية بهم في طرق آمنة رحيبة، ولو مجرد حتى أن يصعدوا بهم إلى سطح البيت الآمن، أمور بسيطة لن تكلفهم شيئًا، لكن تنشرح بها صدور الصغار ويتنفسون منها نسمات سكينة بإذن الله، حقهم أن يرتعوا بحواسهم خارج علب الكبريت التي ابتلينا بها في تصميمات البيوت العصرية، وأن نحاول تعويضهم عن ذلك بالمستطاع، ولنا إطلالة ثانية على تلك الأمور، في مشكلة «الزن».

(٧) ضيق من شدة المحفزات البصرية أو السمعية من مصدر ما

فقد تسبب الضوضاء الشديدة أو الحركة المتلاحقة أو المحفزات البصرية القوية توترًا أو قلقًا ما، يجعل الرضيع يبكي.

الحل: الانتقال إلى مكان أهدأ أو وضع الطفل في مهده الخاص، وقد تعمل ما يسمى بـ «الضوضاء البيضاء» - كالتسجيلات الصوتية لأمواج المحيط أو النسيم أو الصوت الرتيب للمروحة - على مساعدة طفلك الباكي على الاسترخاء والاطمئنان.

(٨) عجز الرضيع عن التقاط لعبة، أو سقوطها من يده كلما التقطها

أحيانًا قد تظلم الدنيا في وجه الرضيع وتضيق عليه الأرض بما رحبت وربما تشنّج وأرعد وأبرق، إذا استعصت بين أنامله لعبةٌ على الإمساك بها أو فتحها أو إدخالها في مكانها الصحيح بالنسبة له، وما إلى ذلك، هي نهاية الكون بالنسبة له كما أن قطرة مطر على ظهر نملة قد تكون كذلك بالنسبة لها، فلا تقيسي الأمر بميزانك أنتِ مما يترتب عليه تعنيفك لطفلك على صراخه وبكائه هنا وعدم تفهمك لمثل هذه المواقف.

الحل: نحاول مساعدته فبالتأكيد يحتاج لمساعدة الراشدين، ولكن تكون المساعدة بشكل يمثل له إنجازًا ذاتيًا في نفس الوقت، أي: لا تكون كاملة ١٠٠٪ حتى لا نخدش بداخله حِسّ معاودة المحاولة لإنجاز الهدف، مثلًا: نحاول فقط أن نقربه من اللعبة أكثر ونتركه يكمل، أو نرفعها له قليلًا ونقول له هيا أمسك أنت قوي بإذن الله، أو نجلسه في مكانه بشكل أفضل يُمَكِّنُه من حُسنِ الإمساك بها بحيث إن سقطت تسقط في حجره لا بعيدًا عنه، أو نضع اللعبة في مكانها الصحيح بأنفسنا ثم نخرجها ونتركها له ليضعها بنفسه مجددًا مثلما فعلنا بأنفسنا مثلًا.

(٩) الآثار الجانبية للتطعيمات

(١٠) والاحتياج لتغيير الحفاض

ونتكلم عنهما وعن سبل علاجهما في قسم المشكلات المرحلية - المعاصرة - العادية.

(١١) رغبة الرضيع في المص فحسب

وهذا لا مشكلة فيه بذاته، إنما في أمور متصلة به، لذا نتناوله في نقطة مستقلة ضمن بقية المشكلات المرحلية العامة، بعدما ننتهي من سرد أسباب البكاء.

(١٢) الضيق من الملابس والفُرُش

أحيانًا تكون الملابس ضيقة على أحد أطراف الطفل كالجورب مثلًا وربما به خيط يلف حول أنامله، وربما كثرة الملابس تشعره بالثقل، وربما هناك نملة تقرصه أو ناموسة تنهل من خيرات بدنه في صمت.

الحل: نتفقد ملابسه ونغير من أحوالها ونحن نحاوره عن ذلك بقدر ما يفهم، ونسأله بحثًا عن سبب ضيقه منها إن وُجِد، ونتفقد بدنه للتأكد من عدم وجود آثار لدغ أو ما شابه، وإذا استمر بكاؤه ربما من الأفضل تجربة ملابس جديدة، فربما في نسيج ثيابه ما يسوءه ويؤذي بشرته وغاب عن أعيننا وأحاط الله به علمًا.

ورويدًا رويدًا، ستتعرف الأم على لغة بكاء رضيعها كما قلنا وتفك شفرتها بإذن الله وتكون أقدر الناس على فهم سببه بحول الله وقوته، مما يقلل هذه النوبات وكثافتها بالوقاية المسبقة، لاسيما مع تطور نمو الرضيع وتمكنه من تلبية جملة من احتياجاته بنفسه والإشارة إلى موضع الألم كما ذكرنا في سمات الرضيع، بجانب تنامي نعمة التهائه بمحيطه الجديد عن تململه وتبرمه وكل مسببات«الزن»، أكثر من السابق.

(١٣) اعتماد الرضيع - بخاصة الأكبر سنًّا - أسلوب البكاء للحصول على الأشياء التي يريدها

هذا السلوك المزعج يبدأ منذ بدايات النمو الحسي والإدراكي للرضيع، فلننتبه ومنذ الأشهر الأولى لا نجعله يعتاد عليه، فكلما اعتاد عليه، صعب فطامه وزاد بكاؤه.. فاستجابتنا لبكائه هنا يعد من الأخطاء التربوية الشائعة ومن السلوكيات التي تحتاج لتقويم، إلا إذا كان بكاؤه بالطبع على أمر من احتياجاته الحيوية بالفعل: جوع أو عطش أو رغبة في تغيير الحفاض.. إلخ.

والحل: لا نعطيه أي شيء يبكي لأجل الحصول عليه، إلا بعدما يهدأ، وعندما يتطور نموه الإدراكي أكثر نبين له السبب وأننا كافأناه بما يريد بعدما هدأ لأنه غيَّر من سلوكه السيء، حتى لو كان لايزال لا يُحسن الكلام بعد، لكنه يحسن التلقي والتخزين بلا شك. وسبل التعامل مع الانفعالات التي قد تترتب على هذا السلوك. نتناولها في «المشكلات المرحلية المعاصرة».

باختصار في ختام البكاء:

نجرب كل شيء يمكن أن يكون الدافع للبكاء في مرحلة الوليد، حتى نتمكن من معرفة السبب، ومع الوقت سنفك شفرة بكائه بإذن الله دون الحاجة كل مرة لتفقد كل ذلك، خاصة كلما تطور نموه العصبي واستجاباته الانفعالية وسبل تعبيره عن نفسه.

لا شيء مما سبق يجدي معه ولازال يبكي؟

الحل: إذا لم نعلم لبكائه سببًا بعد بذل كل الوسع لذلك، يمكننا أن نعاود رقيته مجددًا ونهدهده ونحن نرتل عليه آيات السكينة، ومنها: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ..﴾ [التوبة:٢٦]، ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

[الفتح:٤]، وغيرها، وندعو بالفرج والعافية بيقين إلى أن يهدأ ويسكن بإذن الله محتسبين عظيم الأجر من فضل الله، ولكِ بكل هَدهَدةٍ بكفٍ ودندَنةٍ بحرفٍ، من كلمات الله المنبعثةِ من فمك بالعافيةِ على بدن وديعةِ الرحمن لديكِ، أجرٌ يقر عينك في صحيفتك بإذن الله، وإن لم يهدأ أبدًا بعد كل ذلك وطال بكاؤه لا سمح الله، فزيارة الطبيب مطلوبة.

بعدما فرغنا من إطلالة سريعة وعامة على مشكلة البكاء والصراخ والأسباب المحتملة وطرق علاجها، نُكمل بقية مشكلات الرضيع المرحلية العامة.

٢. تنامي شدة ارتباط وتعلق الرضيع بأمه واعتماده عليها في كل شيء، مما يجعل الأم لا تكاد تلتقط أنفاسها أو تنعم بنوم هانئ أو صفاء ذهن

كثرة المهام المتصلة بحضانته ورعايته منذ ولادته، من إطعام وتحميم وتغيير حفاض وتهيئة للنوم وجمع للألعاب المتناثرة ومتابعة علاجه حين يمرض وما يتضمنه كل ذلك من حملها إياه كثيرًا لاسيما مع تزايد وزنه وقوة مدافعتِه لها ومحاولاتِه التملص من قبضتها أحيانًا، وربما صاحب ذلك اضطرابات في النوم ليلًا ونهارًا للأم ورضيعها، كل ذلك وغيره يُشعِرُ الأم بتلاحق الإنهاك على بدنها وروحها، وهنًا على وهن، أعانَ الله قلوب وأبدان الأمهات وثقَّل بالأجرِ موازينَهن والذي يستحقنه من رب بر شكور كريم.

الحل: لا علاج لهذا كما ذكرنا مرارًا سوى باحتساب الأجر واستحضار عظمة الغاية وشرف المهمة وقدرها عند الله، وتذكر أن هذه المشكلة هي في حد ذاتها كنز ينبغي حسن استغلاله في البناء الشامل، كي لا تغرق الأم في نوبة اكتئاب ما بعد الولادة، كما سيأتي بيانه، ولهذا كان من استعداد الأم الحامل لمرحلة الوليد: التزكية الإيمانية لنفسها ووضوح مقاصد الإنجاب من البداية.

إلا أنه هناك حلٌ عمليٌّ ذكرناه من قبل إجمالًا في مسألة ضرورة تفريغ الأم نفسَها

للأمومة في مراحلها كلها؛ ونعيدُ ذكره هنا تفصيليًّا لمناسبته للفقرة، فتُفَرِّغ الأم نفسَها للأمومة بعد الولادة عن طريق تخفيفها عن نفسها الأمور التي ليست واجبًا فعليًّا في هذه المرحلة، كالتالي[1]:

- فليس شرطًا مثلًا تنظيف البيت كاملًا وبشكلٍ تفصيلي وعميق يوميًّا.
- ولا استقبال الضيوف الذين تستلزم استضافتهم إعداد ولائم أو ضيافةٍ مرهقة.
- ولا الانشغال بتحضير الأطباق الصعبة.
- ولا حتى بتحضير الأطباق الجديدة التي تحتمل نجاحًا وإخفاقًا، فهذا ليس وقت تجارب وخيبات مطبخية محتملة وإحباطات إضافية، وقد قال ﷺ: «بحسبِ ابنِ آدمَ أكلاتٍ يُقمنَ صُلبَهُ»[2].
- بل تجهز كل مرة طعامًا سهلًا وفيرًا يكفيها وأسرتَها بضعة أيام، كي تتفرغ للرضيع الذي تحتاج رعايته وتربيته على كل مستوى بالفعل إلى الكثير من الطاقة والوقت وصفاءَ الذهن.

٣. تزايد شدة شغف الرضيع بتجربة كل شيء والتقاط كل شيء على فمه للتعرف عليه، واقتحام كل الأماكن لاستكشاف الحياة

مما قد يعرضه أحيانًا لخطر الاختناق بسبب ابتلاع الألعاب الصغيرة الملتقطة، أو يعرضه لأوجاع في بطنه بسبب أمراض معوية وغيرها، مشكلةٌ بالفعل.. بالتالي فيها إنهاك للأم متصاعد ومستمر بسبب كثرة الملاحقة للكائن الحلزوني الذي بدأ أولى تحركاته وصار يعيث فسادًا في كل أرجاء البيت وقلبَه رأسًا على عقب ولا يدرك مخاطر أي شيء، مما يضطر الأم لكثرة حمله كذلك بسبب قلقها من عدم أمان المساحات التي بدأ يتحرك فيها.

---

(١) تلك العناصر العملية ذكَّرتني بها الأخت الحبيبة تسنيم راجح.
(٢) صححه الألباني-صحيح الترمذي (٢٣٨٠).

الحـل: لا عـلاج جـذري لذلـك كلـه جملـة واحـدة، بـل إن اختفـاء جميـع ذلـك مـن يومياتكـم علامـة علـى حاجـة الرضيـع ذاتـه للعـلاج عافانـا الله، فـلا حـل هنـا سـوى الحلـول الوقائيـة لتفـادي وتقليـل الآثـار النفسـية الناجمـة عـن كل ذلـك علـى الأم، ولـن تنفـع الحلـول الوقائيـة وحدهـا، دون أن يدعمهـا أيضًـا الإيمـان والاحتسـاب واسـتحضار نوايـا الإنجـاب وشـكر نعمـة العافيـة بصـدق حقيقـي. وبعـض تلـك الحلـول الوقائيـة العمليـة التـي تسـاهم في تقليـل مسـاحة تلـك المشـكلة وبالتالـي تقليـل أثرهـا علـى الأم، هـي كالتالـي:

أولًا: تأمين البيت

لا أنسـى المتاريـس الخشـبية في بيتِنـا والمسـامير المدقوقـة في أعلاهـا(بشـكل لا يجـرح الأولاد بالطبـع لكـن يمنـع تخطيهـم للحـدود)، والتـي كانـت تثيـر تسـاؤلات كل مـن يزورنـا ويـرى المـكان وكأنـه سـاحة حـرب! ولا أنسـى كـم مـرة غيّرنـا فيهـا موضـعَ قفـل بـاب الشـقة، حيـث كنـا نقـوم بتعليـة مقبـض فتـح البـاب كل فـترة بعدمـا اكتشـفنا قـدرة محاربِنـا الصغيـرِ علـى فتـح بـاب الشـقة بنفسـه عنـد غيـاب نظـر الرقيـب مـدة فيمتـو ثانيـة، مرحلـة أسـتحضِرُ معهـا بوضـوح الجملـةَ النبويـةَ المشـهورةَ "مَضَـى زمـنُ النـومِ يـا خديجـة"، نعـم يمضـى زمـن النـوم كلمـا حـان زمَـنُ الجهـاد، وكلٌّ لـه ميـدانُ جهـادِه كمـا قلنـا، ومجاهـدة الأمهـات يوميًّـا في هـذه المرحلـة في سـاحاتِ صيانـة أبنائهـم مـن الكـوارث التـي يندفعـون إليهـا كل لحظـة، لهُـوَ مِـن أعظـم جهادهـن، إنـه إنهـاك مسـتمر للبـدن والعقـل وكافـة الحـواس، كلهـم قـد انتفضـوا لـدى الأم طـوال اليـوم كجنـود مرابطـة علـى الثغـور، لأجـل ضـرورة حفـظ نفـسِ طفلِهـا مـن نفسـه كل لحظـة سـبحان الله! ذكَّـرَني ذلـك بروايـةٍ لإحـدى صديقـاتي العزيـزات، عـن يومياتهـا مـع توأمِهـا الثلاثـي بـارك الله فيهـم، بعنـوان: "وحـوش في منزلـي!"، هـي الحـرب إذن، فكـوني مسـتعدة بِدرعِـك ولأَمَتِـك!

ولكن ...

كـوني كذلـك مسـتعدة بيقينـك وحسـن توكلـك، مـن أنهـا مجـرد أسـباب لأداء الأمانـة علـى وجههـا فحسـب، وأن الله خيـرٌ حافظًـا وهـو أرحـم الراحميـن بـك وبولـدك، لـه

معقباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، وكم لله من لطف خفي طوته عن المشاهدة الغيوب، وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون، فإن حدث مكروه رغم احتياطاتك التي سنوصيكِ بها، فلا تقولي سوى قدر الله وما شاء فعل وإنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله على كل حال رضينا يا رب فأرضِنا، أما إن كان الحادث هو نتيجة لإهمال منك، فاستغفري لذنبكِ وتعلمي من خطئك واستوعبي الدرس لئلا يتكرر الألم "فلا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِن جُحْرٍ واحِدٍ مَرَّتَيْنِ"(١).

والآن نتعلم سويًّا كيف نتأكد من أن المنزل مكانٌ آمنٍ للحرب، أقصد لحركة الطفل:

- التأكد من أنه لا توجد أية أسلاك كهربائية مكشوفة دون عوازل، ولا مفتاح كهربائي غير مغطىً.
- التأكد من صعوبة وصول الرضيع إلى سلة القمامة، وسلة البطاطس والبصل، وحوض الزرع الطبيعي وما فيه من طين وأحجار صغيرة، بل وحوض الزرع الصناعي كذلك وما فيه من أوراق شجر وزهور بلاستيكية صغيرة.
- التأكد من وجود مساحيق الغسيل وغيرها من الكيماويات والمواد الخطرة بعيدا عن متناوله.

فبعض الأطفال يفاجئون أهليهم بتسارع النمو الحركي بشكل غير متوقع، فقد تجدين رضيعك ذي التسعة أشهر جالسًا فجأة في حوض المطبخ وتكتشفين أنه تمكن من ذلك وحده بمساعدة كرسي صغير فحسب! وربما تسلل إليه عن طريق مقابض الأدراج المصفوفة على التوالي فوق بعضها البعض، فمن الرضع من يقف مبكرًا مستندًا على الأشياء كما تكلمنا في السمات.

والمقاطع المرئية عن ذلك على شبكة الانترنت أكثر من أن تحصى.

---

(١) متفق عليه.

۞ فحص الأشياء التي ستكون في طريق الطفل ومنطقة تواجده، إذ أنه غالبًا يضع أي شيء في فمه.

۞ تأمين بعض الأماكن في البيت بعيدًا عن وصول الطفل إليها، عن طريق حواجز - متاريس - أو بوابات قصيرة، كالتي قصصنا عليكم في البداية.

۞ ويفضل وضع وسائد أو أغطية طرية كثيفة في محيط حركة الطفل، بخاصة عند الزوايا الإسمنتية الحادة من الجدار، أو فرش أرضية حجرته بالمطاط غير المكلف، والتأكد من أن الألعاب المتاحة أمامه طرية وكبيرة وليست دقيقة يسهل ابتلاعها، ولا فيها بروزات حادة ولا ثقيلة مؤذية لو ارتطمت بالطفل أو ارتطم هو بها والعياذ بالله.

۞ نتأكد من إبعاد الكراسي عن أسفل النوافذ والمرتفعات الخطرة.

۞ لو أنه سيصاحبك في المطبخ فأعيدي ترتيب الخزانات، فتضعين الأواني البلاستيكية والصواني المعدنية الآمنة وأغطية الأواني غير الزجاجية في الأسفل، وتضعين الزجاج والأجهزة الكهربائية والآلات الحادة والدقيقة - حتى الشوك والملاعق - في الأعلى، مع إغلاق الدواليب التي تشكل خطرًا عليه أو ضررًا على نفسيتك وقواك العقلية واتزانك الانفعالي كأمٍّ لو فتحها وأفرغ ما فيها في الأرجاء، كأكياس الدقيق - الطحين - والأرز والحبوب وزجاجة الزيت ونحو ذلك.

۞ التأكد من صعوبة فتح باب المنزل، على طفل عمره خمس سنوات، بل لا مانع لو أكبر من خمس، من باب الاحتياط من تطور نمو مرحلي مفاجئ غير مدروس!

۞ لا تصغي لمن تقول لك: أنا أضع المزهرية في متناول يد طفلي ليتعلم ألا يقربها، تلك مرحلة عمرية لا مِزهريات فيها حبيبتي، ولا كريستالات، ولا أطباق زجاج ولا غير زجاج حتى! بل اعتبريها مرحلة لطيفة جدا لتعتادي على الزهد في متاع الدنيا الزائل والاكتفاء بما خفَّ حملُه وقلَّتْ كلفتُه المالية والنفسية إذا تحطم، لأنه سيتحطم.

۞ إغلاق أبواب المراحيض جيدًا، لئلا تفاجئين بهاتفك أو أغراضك بداخله، وربما رأس رضيعك نفسه، ونكتفي بهذا القدر في تلك النقطة فالبقية متروكة لخيال القارئ.

۞ عدم التكاسل عن ربط حزام عربة الطفل جيدًا وهو معنا في أي مكان غير مؤمَّنٍ كفاية لحركته، معتقدين أنه لا يتحرك وحده بعد، وأعيذكم بالله أن تدركوا أنه قد طوَّر مهاراته الحركية بالفعل حين تفاجأون يومًا بصوت ارتطام ثم بكاء فتلتفتون إليه وتجدونه على الأرض، حفظهم الله.

۞ حاولي التمتع بكوب الشاي أو القهوة في إحدى حالتين لا ثالث لهما: إما وأنت تقفين ممسكة بالكوب عاليًا، أو أثناء نوم طفلك، ولو أحببتِ اغتنام تلك المرحلة في بدء التخلص من إدمانهما: فبها ونعمت! المهم: قللي طموحك في هذه المرحلة في الاحتفاظ بكوب ساخن في يدك وأنت جالسة وهو يزحف في الجوار، حبيبتي: كوب + ساخن + جلوس + طفلك - في هذه المرحلة لا يجتمعون.
يا أخية قد نصحتك وتذكري: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة.

باختصار

التأكد من أن الأشياء التي ستقع في متناول يد الطفل في هذه المرحلة، هي أشياء لن تسبب له ضررًا ولا لغيره ممن يسكنون معه في الجوار وفي مرمى طلقات تطور نموه الحركي والحسي والإداركي. وهذه كانت أمثلة لكيفية تأمين المكان لحركة الرضيع، وتطبق حسب تطور مراحل نموه الحركي وبيئة كل بيت، مما يقلل كثيرًا من الملاحقات والشعور بالإنهاك، بجانب الاطمئنان على حياة الطفل، وهو الأهم، وكلما أدركنا أن هذا كله من العلامات الصحية لتطور نمو سليم للرضيع، كلما حمدنا الله واحتسبنا أجر رعايته وتنميته وحراسته من كل سوء، والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين كما قلنا، نستودعه أبناءنا كل يوم بالأذكار والرقى، ونأخذ بأسباب الوقاية،

ثم بعدها نردد على قلوبنا بيقين: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١]، ولا ننسى رقية أنفسنا كذلك!

ثانيًا: طلب المساعدة من الأهل بدون حرج، من داخل البيت أو خارجه

فلو أنه هناك أخ أو أخت أكبر للرضيع، نجتهد في إشراكهم في إدارة شئون الرضيع، وتمرينهم على ذلك بحب وإكبار ومرحمة، ولو يمكن الاستعانة بأخت الأم أو أمها ونحو ذلك فخيرٌ أيضًا، ولتعلم الأم أنها مهما حاولت تقليل الجهد المبذول منها لطفلها، يظل ما تفعله عملًا ضخمًا وعظيمًا لا يمكن تلاشي صعابه بالكامل، عمل تنوء به العصبة أولي القوة مهما قللنا من صعوباته، فعظمة أجرِه أصلًا تكمن في صعوباته، فلها في ذلك أجر عظيم يليق بعظمة الكريم ﷻ ويليق بكرمه للذين يجاهدون لمرضاته ورعاية النفس المسلمة التي خلقها، بحب ومرحمة وطول بذل، لتربو في يمين الرحمن نبتةً زكية فشجرةً عليةً مُعَبَّدةً للتوحيد، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

٤. إرباك الرضيع لنا غالبية الوقت وحصارنا (في عباداتنا) بخاصة الصلاة

نكاد في هذه المرحلة لا نصلي صلاةً بتركيز خالية من التعب واللهاث، وربما حملُهم أثناء الصلاة يخفف من مشاغباتهم وصياحهم، لكنه يفاقم من تعبنا البدني بلا شك، ثم إن الرضيع يظل هادئًا إلى أن نبدأ في الصلاة! فيبدأ في البكاء يريد أن نحمله، فهل نحمِلُه؟ أم نتركه؟ ثم هل نحمِله وربما الحفّاضة أو ملابسه بها نجاسة؟ أم لا يصح هذا أثناء الصلاة؟ تساؤلات ومشكلات إضافية تواجهنا وتُسبب لنا توترًا وتشتتًا، خصوصًا مع عدم وجود أشخاص في الجوار تساعدنا.

بعض العلماء قال: لا يجوز حمل الطفل في الصلاة بحفاضٍ نجسٍ طالما علمنا بهذا النجس، وبعضهم قال يجوز طالما الأمر فيه مشقة ويصعب التحرز منه، مثل من تكون في الطواف أو في البيت وحدها ولا أحد يحمل الطفل عنها، فطالما الحفاض محكم جيدًا على الطفل ولا شيء منها يمس ملابسنا أو بدننا فلا حرج، وبعضهم

قال: لا حرج فقط لو الأم أو من يحمل الطفل أثناء الصلاة يجهل بوجود نجاسة، فالأصل هو الطهارة، أو أن يكون الشخص ناسيًا بمعنى أنه كان ينوى أن يغير للطفل قبل الصلاة ثم نسي وحمله وصلى، فلا حرج ولا يعيد صلاته.

واستدلوا على الجواز في الحالتين بحديث النبي ﷺ:

۞ «بينما النبي ﷺ يصلى إذا به خلع نعليه ووضعهما على يساره وأكمل صلاته فلما رأى ذلكَ القومُ خلعوا نعالَهم أيضًا - ظنوا أنها سُنة في الصلاة - ولما قضَى النبي صلاته قال: ما حملكم على أن تلقوا نعالكم؟ قالوا: رأيناك ألقيتَ نعليك فألقينا نعالنا، وفي رواية: «رأيناك خلعت فخلعنا» - وهذا يبين شدة اقتفائهم لفعله ﷺ - فقال لهم: إن جبريل قد أتانى وقال إن فيهما قذر - أي نجاسة، فخلعهم وأكمل الصلاة ولم يبدأها من الأول، على الرغم من أن في الركعات الأولى كان النعل به قذر، لكن لأنه لم يكن يعلم فلم تبطل صلاته وأكملها بعد خلعه.

۞ واستدلوا كذلك بأنه ﷺ خرج بأمامة بنت زينب وهي على كتفه وذهب بها إلى المسجد دون أن يفتش في ملابسها ما إذا كان فيها نجس أم لا، ومعروف أن ملابس الأطفال الصغيرة لا تخلو من نجس قل أو كثر، وأن هذا أمر مما عمت به البلوى بين الناس فلو كان يجب التنبيه إليه لنبهنا ﷺ، لكنه حملها وصلى بها غير متيقن من وجود نجاسة أم لا.

الحل: الأحوط والأفضل: أن نأخذ حذرنا قبل الصلاة ونتأكد من أن الحفاض ليس فيه نجس، ونغلقه بإحكام ثم نحمل الرضيع بلا حرج ولا نفكر ونوسوس «هل أصابه النجس وأنا في الصلاة بعد ما غيرت الحفاض؟»؛ فالأصل هو الطهارة.. وإن كنا في مكان يشق علينا فيه ترك الولد وحده، كالطواف مثلًا أو سوق مزدحمة بالناس ونحو ذلك وسأصلي في مكان ليس معي فيه أحد يحمل الطفل عني وليس لي حل سوى أن أحمله في صلاتي بحفاضه، فأحمله اضطرارًا أخذا برأي من أباح ذلك للضرورة.

فإن حمله الشخص جاهلًا أو ناسيًا بالحكم أو غافلًا عن تفقد الحفاض قبل الصلاة ثم تبين له أثناء الصلاة أن به نجس، فيترك الطفل جانبًا ويتمم صلاته دون إعادة، وكذلك إذا تبين له ذلك بعد الصلاة فلا يعيد صلاته، وأيضًا إذا تفقد الحفاض قبل الصلاة فكانت نظيفة، ثم بعد الصلاة صارت ممتلئة ولم يدرك ذلك أثناء الصلاة، فلا حرج عليه كذلك ولا إعادة.

هذا فيما يخص الحيرة والتوتر من حملهم أثناء الصلاة بالحفاض.

أما بالنسبة لمشكلة التشويش عليّ أثناء صلاتي وعجزي عن الخشوع فيها

فالحل: يا حبيبتي أن تهوني على نفسك، فالسنة النبوية فيها أن نحمل الصغار في الصلاة أحيانًا طوعًا ليس فقط اضطرارًا، وبدون حرج علينا في ذلك، فنحملهم ونجتهد في الخشوع وهم على ذراعنا أثناء الصلاة، ونستحضر أنها سنة نبوية متكررة في الصلاة مرات عديدة سواء فردية أو جماعية، ونستحضر أن ذلك يدعم نمو الأطفال الديني بشكل عميق، فنؤجر أضعافًا.

فالحل هو في كثرة استحضار أنكِ جندي حيث استعملك مولاكِ، لترضَي بتدبير الله لحياتك ومهامك، وأن كل ما تفعلينه يصير عبادةً باحتسابك الأجر عند الله، وأنك كلما عدَّدتِ النوايا سبقتِ بالأجر، وتذكري أن هناك ميادين للجهاد تتمنينها وتعجزين وهاهو ميدانك كما قلنا مرارًا، فشمري واجتهدي واحتسبي.

واعلمي أن الذي كلفك سيعينك ويَجبرك ويرفع عنك الحرج فيما لا تطيقين.

-قد رفع عنك حرج الصلاة والصيام بسبب تعب بدنك في التجهز لقدوم الولد كل شهر - الحيض.

- ثم رفع عنك حرج الصيام بعدما بدأ الولد في التخلق في رحمك - الحمل.

- ثم رفع عنك حرج الصلاة والصيام بعد قدوم الولد أربعين يومًا حتى تلتقطي

أنفاسك - النفـاس.

- ثـم رفـع عنـك حـرج الصيـام وأنـت ترضعينـه وتطعمينـه مـن خيـرات بدنـك - الرضـاع.

ورفـع عنك مثـل ذلـك ممـا لا تتحملينه في ظـل جبـال مهامك للعنايـة بتلك النفس الضعيفـة، أفـلا يعـذرك ويجـبرك وأنـت تلهثيـن كل يـوم مجاهـدةً نفسَـكِ للتركيـز والخشـوع في الصـلاة مع كل هـذا الإنهـاك والاسـتنزاف؟ الله لطيـف بعبـاده حبيبتـي هـوني على نفسـك.

اجتهـدي أنـتِ فقـط في شـكر النعمـة بصـدقٍ وعبوديـةٍ حـق، ولا تهملـي فرائضـك بسـبب قـدوم الولـد بحجة أنـك منهكـة، فربـك لا يحملـك مـا لا تطيقيـن كمـا رأيـتِ، فخـذ مـا آتيتـك وكـن مـن الشـاكرين.

بجانـب جملـة مـن الحلـول العمليـة الأخـرى لتفـادي تلـك المشـكلة نوعًـا مـا واسـتجلاب التركيـز ومحاولـة التغلـب علـى الإحبـاط هـا هنـا مـا أمكـن:

١- احمليـه قـدر الإمـكان وتجـوزي في صلاتـك، لئـلا يكرههـا ويكـره وجـودك فيهـا، ويمكنـك أن تضعـي إصبعـك في فمـه بـدلًا مـن اللهايـة - بشـرط أن يكـون إصبعـك نظيفًـا ويكـون رضيعـك قـد تخطـى فـترة الحساسـية المفرطـة للمـواد غيـر المعقمـة، لكـن في غيـر أوقـات السـجود، فالسـجود ينبغـي أن يكـون علـى سـبعة أعظـم والتـي مـن ضمنهـا يديـكِ الاثنتيـن، مـا لـم يكـن هنـاك اضطـرار.

٢- فـإن عجـزتِ عـن حملـه أثنـاء الصـلاة ليهـدأ قليـلًا، تأكـدي قبـل الصـلاة مـن أنـك أعطيتِـه لعبـةً أو لهايـةً يتلهـى بهـا - وراجعـي كلامنـا عـن اللهايـة لاحقًـا للأهميـة - أو مـن أنـكِ أطعمتِـه وغيـرتِ لـه الحفـاض ومحـوتِ كل أسـباب البـكاء والضيـق والتبـرم الممكنـة والمذكـورة سـابقًا، ثـم صلـي وهـو عنـد قدمـك أو بجانبـك في أمـان أو في كرسـي الأطفـال، وأمـر طيـب أن ترقيـه قبـل الصـلاة وتدعيـن الله أن يعينـك فيهـا علـى الخشـوع، فـإذا بكـى هُزيـه قليـلًا بيـدك لـو كان في كرسـيِّه ولا حـرج.

٣- وعوضي ما يفوتك من عباداتك التي رُفع عنكِ فيها الحرج بسبب وضعك الجديد، بالذكر لله كثيرًا كثيرًا، تلك عبادة المفردين، وقد سبق المفردون! فكوني من أولئك السابقين إن فاتك سباق المصلين، كان ﷺ سائرًا يومًا مع أصحابه، فقال لهم: «سَبَقَ المُفَرِّدُونَ، قالوا: وَما المُفَرِّدُونَ؟ يا رسول الله، قالَ: الذَّاكِرُونَ اللهَ كثيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ»(١).

جاء في شرحها: «سَبَقَ المُفرِّدون، أي: المُفَرِّدونَ أَنفُسَهم عن أَقرانِهم، المُميِّزونَ أَحوالَهم عن إِخوانِهم لأَنَّهم أُفرِدُوا بذِكرِ اللهِ عمَّن لم يَذكُرِ اللهَ، فأَجابَ بأنَّ التَّفريدَ الحقيقيَّ هُو تَفريدُ النَّفسِ بذِكرِ اللهِ ﷻ في أَكثرِ الأَوقاتِ ذِكرًا كثيرًا في أكثرِ أَحوالِهم»(٢).

فسددي وقاربي.. وتفرَّدي بذكر الله كثيرًا.. واصبري.. ثم أبشري.

٤- واغتنمي أوقات نوم طفلك، في أداء صلوات السنن بخشوع، فربك الكريم يجبر نقص فرائضنا من نوافلنا، وقد قال سبحانه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح:٧].

٥- وإذا استطعتِ تنظيم أوقات نومه بحيث تكون في أوقات الصلاة، فأبشري بأجر المحسنين.

ولطيف أن تتمكني من هذا الأمر في مواسم الطاعات بالتعاون مع جاراتك أو قريباتك مثلًا، وتخصيص ما يشبه الروضة المصغرة في البيت أو مصلى المسجد حتى، لتتناوب الأمهات المؤتمنات فيما بينهن، على الصلاة ومتابعة الأطفال معا حسب الوسع والطاقة والعدد، وقد قال الله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢]، وكلما جاهدتِ في شيء لله وفق مراده ومرضاته، ضاعف أجرك.. ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، والأهم من كل ذلك: لا تفعلي مثل الأمهات التي تقرص أولادها في الصلاة لأجل أن تنعم

(١) مسلم (٢٦٧٦).
(٢) شرح الدرر السنية للحديث، باختصار كبير مني.

بصلاتها في هدوء، وتكلمنا عنهن من قبل في المحور الديني.

وعلى جانب آخر

كلمة للأمهات اللاتي تفرط في الفرائض بحجة هذه المشاكل، هداهن الله وأصلحهن، **فبعض الأمهات للأسف يتركن الصلاة بسبب رعاية الطفل**، قد ظللن سنواتٍ يدعين بالولد، ثم بعدما استجاب ربها ورزقها به تترك الصلاة لأجل رعاية هبة الله! **فنُذَكّرها بما قلنا في أول فصول في هذا الكتاب:** ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُون﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠]، **وقوله كذلك** ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِين * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُون * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُون﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧] **والعياذ بالله.**

ولا عجب مِن ذكر النفاق والمنافقين هنا، أنسينا أن آية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون﴾ [المنافقون:٩] جاءت في سورة "المنافقون"؟ ثم نحن يا أمة الله نطلب الذرية تعبدًا بها لله في الأرض في المقام الأول لنُعَبِّدَها له في المقام الثاني، فكيف نغفل بها عنه سبحانه؟

أنسيتِ ما فعله سيدنا سليمان، حين شغله استعراض وتأمل جمال خيل الجهاد عن صلاة العصر الخاصة بشريعته حتى غربت الشمس، وكيف لام نفسه وقرر أن يذبح تلك الخيل كفارة عن غفلته بالنعمة عن ذكر ربه، وتأديبًا لنفسه وتعويدًا لها على عدم الغفلة بالنعم عن شكر المُنعِم: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَاد * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ

بِالْحِجَابِ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣١-٣٣].
أين أنتِ من تلك العبودية الحق يا أمةَ الحق ﷺ؟

أنسيتِ أيضًا أن الصلاة تظل على المؤمنين كتابًا موقوتًا حتى في أصعب المواقف: في الحرب والخوف ومجاهدة العدو بالسيوف!

وحين تتدبرين آية الزينة في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧]، تدركين أن زينة الدنيا هي للاختبار فقط، كل ما يقع تحت أيدينا من (زينة) الدنيا: مال، ومتاع، وأزواج، وأصدقاء، وأبناء، وأهل هو: (زِينة) - (لنبلوهم)، وعلى رأسهم جميعا: المال والأولاد: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[الكهف:٤٦].

أنسيتِ أن مهمتنا الأولى هنا هي عبادة الله بكل ذلك حبيبتي؟ فأنى تُصرَفُون؟



٥. التبول والتبرز اللا إرادي، وبخاصة لو كان على ملابسنا وبَدننا وفُرُشِنا

أشرنا إليها في مرحلة الوليد بشكل سطحي لأنها هناك أهوَن، بينما في مرحلة الرضيع فنظرًا لتزايد عدد رضعاته وكمياتها تراكميًّا صار الحفاض يمتلىء سريعًا بمختلف الإخراجات من السبيلين - بول وبراز - ولا ننتبه، ونظرًا لحملنا الطفل كثيرًا في تلك المرحلة وإجلاسه في حجورنا، نفاجأ بتسرُّب النجاسات من الحفاض على ملابسنا أو الفرُش، بالإضافة أيضًا إلى كثرة حركة الطفل في هذه المرحلة ونحن نغير له الحفاض وربما قام من مكانه يجري في أنحاء البيت كبطريق هاربٍ من قبضة الصياد، فتُفاجئُنا بعض النجاسات هنا وهناك قبل أن نتمكن من إكمال ملابسه بإحكام.
كل ذلك منبعه: التبول والتبرز اللا إراديان في هذه المرحلة بطبيعة الحال.

والحل:

۞ ليس لها حل جذري سريعًا في الأشهر الأولى، فالحل حينها يكون في التأقلم مع الأمر بواقعية؛ فتلك طبيعة المرحلة أكثر من كونها مشكلة تنتظر حلًّا فوريًّا.

۞ معرفة كذلك أن الشرع رفع عنا الحرج في ذلك، فمن المفترض ألا يكون الشق الخاص بتنجيس الطفل أحيانًا لملابسنا وبدننا والمكان عمومًا، مصدرَ قلق أو مشكلة ذات وزن كبير بالنسبة للأم، لأن الشرع يسّر علينا إزالة النجس بإجراءات بسيطة متوفرة، ورفع عنا الحرج عند وقوعه ابتداءًا، فلم يلزمنا فيه سوى بغسل موضع النجاسة أو رشه حسب الرضيع ذكر أم أنثى وما إن كان أكل الطعام أم ليس بعد، وتأملوا كلام ابن القيم في بيان الفرق بينهما وسببه: «أن بول الغلام يتطاير، ينتشر ها هنا وها هنا، فيشق على حامله غسله، وبول الجارية يقع في موضع واحد فلا يشق غسله»، نتبين من ذلك أن الشريعة سهلت على الحاضنين للرضيع، مسألة حَمله وذللت معوقاتها تشجيعًا لهم لكيلا يحرم الرضيع في هذه المرحلة من كثرة حمله واحتضانه مخافة أن ينجس ملابس الآخرين.

۞ وبالنسبة لفجائية التبول والتبرز اللا إراديين، فالحفاضات اليوم قد قللت من وطأة وفجائية ظهور النجس عن ذي قبل، فبالأمس كان عنصر المفاجأة حاضر ١٠٠٪، أما اليوم فتكاد لا تفاجئنا إلا عند أوقات تغيير الحفاض بسبب كثرة حركة الرضيع أو هروبه أثناء تلك المعركة، ويمكننا تقليل ذلك عن طريق إعطائه لهاية - بالضوابط التي سنذكرها لاحقًا - أو لعبة في يده أو مِرآة صغيرة إلى أن ننتهي، مع وضع قماشة أو فوطة أو مناديل على منافذ خروج النجاسات إلى أن نحكم غلق الحفاض، كما قلنا من قبل.

۞ ولتفادي مشكلة التسريب، نتفقد الحفاض كل ساعتين مثلًا بخاصة لو أنه خلالهما قد رضع أكثر من مرة وكان المَوسمُ شتاءًا، فتمتليء بالسوائل كثيرًا وسريعًا، ونتخير مقاس الحفاض المناسب لعمر الطفل وحجمه معا - ولا نعتمد فقط على

العمر المكتوب على العبوة – لكي نتفادى تسرب أية نجاسات أخرى قدر الإمكان.

وبالنسبة لتنظيف النجاسات:

* فإذا طالتنا نجاسةُ براز: نغسلها جيدًا كما نغسل أي ملابس نجسة، وينتهي الأمر.

* أما إذا كان النجَس بولًا:

– **فإن كان الرضيع ذكرًا:** يتم رش موضع البول عندنا ببساطة، بنضحات ماء تشبه الرش العشوائي، أي نأخذ الماء في أيدينا وننضح في الأماكن التي نظن أنه جاء فيها بول.

– **وإن كان أنثى:** فلأن بولها لا ينتشر في كل مكان مثل بول الصبي حيث أن بولها يكون محصورًا في مكانه، فمشقة إزالته إذن أخف، بالتالي نغسل موضع البول بالماء وينتهي الأمر ببساطة أيضًا.

هذا إن كانا لم يطعَما بعد كما قلنا، فإذا استقل الصبي بأكل الطعام حتى يستغنِي به ولا يكون طعامه الأساسي هو الحليب: حينها يتم غسل الملابس من بول الصبي مثلما نغسلها من بول الصبية.

أما إذا كان يأخذ طعامًا يسيرًا بجانب رضاعه: فلا يُعتبر قد طَعِمَ الطعامَ بعد ونرش الملابس فقط بالماء ولا حرج[1].

ومنها ما روته أم كرز الخزاعية قائلة: «أُتِيَ النبي ﷺ بغلام فبال عليه، فأمر به فنضح، وأتي بجارية فبالت عليه فأمر به فغسل»[2].

---

(١) هذا التفصيل في معنى «لم يطعما بعد» نصًا من فم الشيخ الدكتور منصور الصقعوب حفظه الله، التعريف بالشيخ الفاضل كاملا موجود على موقع مداد، وموقعه الرسمي.

(٢) صححه ابن القيم–إعلام الموقعين (٢/ ٢٧١).

وقال علي بن أبي طالب: أنَّ النبي ﷺ قالَ في بولِ الغلامِ الرَّضيعِ: «يُنضَحُ بولُ الغلامِ، ويُغسَلُ بولُ الجاريةِ»[1].

۞ مع توفير ملابس كافية للطفل للتبديل بينها.

۞ مع عدم الانفعال عندما تداهمنا النجاسات، لعلمنا أن الله قد رفع عنا فيها الحرج ويسر علينا سبيل إزالتها كما فصّلنا، ولأن سنة النبي ﷺ في ذلك هي عدم إفزاع الطفل ولا تعنيفه، بل الهدوء والرحمة وتركه يكمل بولته ثم نزيل النجس، وذكرنا أحاديث لذلك في المحور النفسي، يرجع إليها تفاديًا للتكرار.

فتلك طبيعة المرحلة أكثر من كونها مشكلة تنتظر الحل كما قلنا، فحلها الجذري يكون بعد تطور النمو أكثر في مراحل عمرية أكبر، ربما ليس قبل مرور ١٨ شهرًا من عمره - على أصح التجارب العملية - لكن قبل ذلك تظل من سمات المرحلة التي يجب أن نحسن التعامل معها وتفادي آثارها وحسب، إلى أن يحين أوان بدء حلها الجذري، ألا وهو التعويد على خلع الحفاض.

ونصيحة هامة: يُرجَى وضع الحفاض المتسخ بعد نزعه، في كيس محكم الإغلاق وغير مثقوب، قبل إلقائه في سلة القمامة، لمنع انتشار الرائحة الكريهة في المكان أو في حاويات القمامة في الشارع، مع الحرص على التخلص منهم من البيت أولًا بأول دون تراكم.

وإليك تفاصيل هذا الحل الجذري، والذي قد يتأخر بسبب تأخر أوان توقيته الناجح في مرحلة الرضيع، والذي يكون بعد العام الأول غالبًا كما سنرى.

ليكن معلوما لدى الأم أولًا، أن أفضل توقيت ليس عليه اتفاق، لا بين الأطباء ولا بين الأمهات، بل بعض الأطباء يجزمون أن عضلة التحكم في التبرز لا تعمل أصلًا قبل عمر سنة ونصف.

---

(١) صححه الألباني-صحيح النسائي (٣٠٣) -وفي رواية «ويُرَشّ».

تقول دكتورة نادية العوضي المحررة العلمية والصحية بموقع إسلام أون لاين:

من أجل تحديد السن المناسبة لبداية التمرين يجب أن يكون الطفل مستعدًّا لذلك من الناحية الفسيولوجية - أي وظائف الأعضاء - والسيكولوجية - أي النفسية، فمن الناحية الفسيولوجية، حين يبلغ الطفل ثمانية عشر شهرًا من عمره يكون التناسق العصبي أو العضلي على العضلات العاصرة التي تمنع نزول البول والبراز قد تم نضجه بحيث يستطيع الطفل بداية التمرن على السيطرة على تلك العضلات، ويكون قد تم أيضًا اكتمال نمو الأعصاب المتحكمة في ذلك، إذن فمحاولة تدريب الطفل على التبول والتبرز الإرادي قبل سن الثمانية عشر شهرًا يكون هباء منثورا؛ حيث إن الطفل قبلها لم يكتمل جهازه العصبي بعد.

وهنا قد تُبادر بعض الأمهات بالقول بأن ابنها قد تم تدريبه قبل هذه السن بكثير ونجح مع بعض التعثر بالطبع، إلا أن الرد عليها يكون أن معيار النجاح (الحقيقي) هو في اكتمال قدرة الطفل (الحقيقية) على التحكم في عملية التبرز والتبول، وتظهر في:

- قدرته على معرفة احتياجه لدخول الحمام.
- وإبلاغه لأمه بذلك.
- ثم في قدرته على التحكم في العملية بأسرها.

(أقول: والذي تدرب قبل ذلك التوقيت، يكون غالبًا فاقدًا لواحدة من الثلاثة، فكيف يقال أنه تَمَكَّن؟)

تكمل الطبيبة بعض النصائح لضمان بناء صحي سليم في هذه المسألة:

ومن الأمور التي ينبغي مراعاتها وملاحظتها لتقييم استعداد الطفل النفسي للتمرين هي:

- أن يكون في مرحلة استقرار نفسي داخل أسرته، ولا تبدأ الأم التدريب في

مراحل ضغط من حياة الطفل كأن تكون الأسرة في فترة انتقال من مكان إلى آخر، أو أن تكون الأسرة قد استقبلت مولودًا جديدًا، وهكذا.

- أن يكون قادرًا على استيعاب ما تطلبه منه الأم.
- قادرًا أيضًا على التعبير عن رغبته للقيام بالتبول أو التبرز.
- أن تتوافر لدى الطفل الرغبة في إسعاد والديه عن طريق تلبية مطالبهما.
- بالإضافة إلى رغبته في اعتماده على نفسه في أموره الشخصية، وإظهاره أيضًا لضيقه من الكوافيل غير النظيفة الملامسة لجسمه ورغبته في أن تنظفه والدته.
- قدرة الطفل على التحرك نحو الحمام منفردًا وجلوسه على المرحاض بثبات.

ولا بد من توفير جو مريح ومشجع للطفل في هذه المرحلة، وينصح أطباء الأطفال الأمهات أن يتراجعن عن عملية التدريب لمدة قد تتراوح بين الشهر والثلاثة الأشهر إذا اتضح عدم استعداد الطفل بعد أسبوع كامل من المحاولة معه.

أما عن الخطوات العملية التي يمر بها التدريب فتقول الأستاذة منى يونس:

- يحتاج الطفل فسيولوجيًّا إلى القيام بعملية الإخراج بعد الاستيقاظ من النوم، وقبل النوم وهو ما يمثل طبيعة الإخراج عند الأطفال، وبالتالي لا بد من إجلاسه لقضاء حاجته عقب استيقاظه مباشرة، وكذلك قبل نومه، والصبر عليه حتى يتم قضاء الحاجة بنجاح حتى وإن أظهر تمنعًا ورفضًا.
- يجب ملاحظة كمية السوائل التي يتناولها الطفل أثناء النهار؛ لأنها تتناسب طرديًّا مع عملية الإخراج، وبالتالي تنتبه إلى إجلاسه للتبول على مرات منتظمة أثناء اليوم، والصبر عليه حتى يُتَمَّ عملية الإخراج، فإذا قام بها تعطيه مكافأة غير معتادة، وتمدح سلوكه بفرحة عارمة.

۞ في اليوم التالي تضع مقعد قضاء الحاجة أمامه (مقعد التبرز والتبول – النونية أو البوتي– أو إطار مقعد المرحاض الخاص بالأطفال تضعه على المرحاض)، فيشتاق إلى المكافأة، وتجلسه عليها بملاطفته ومحايلته، وتصرُّ عليه حتى يتمّ هذه العملية بنجاح، وتشرح للطفل بلغة بسيطة مناسِبة لسنِّه أن المكافأة مرتبطة بقيامه بعملية الإخراج، بمعنى أن يكون لديه ارتباط شرطي بينهما بحيث تمثل المكافأة عنصر تنبيه للجهاز العصبي، وبالتالي تمتنع الأم عن تقديم المكافأة له إذا جلس مرة دون أن يقوم بعملية الإخراج. (انتهى كلامهم)[1].

وأقول مؤيدة هذا الكلام، وعن تجربة مع ثلاثة من الأولاد:

أكثر التوقيتات تحصيلًا للنجاح في تحقيق تلك الثمرة معي، كان بالفعل بعد عمر ١٨ شهرًا، وتحديدًا بعد تمام حولين كاملين – وكان من خلال خلع الحفاض بالكامل أثناء النهار والتعويد على العمليتين معًا: التبرز والتبول، في آن واحد، مع ترك الطفل يرتدي الحفاض ليلًا في بداية الأمر –أي أنني بعدما ينام ألبسه إياه لكيلا يشعر أنه يرتديه – وكنت أوقظه ليلًا مرة مثلًا ليفرغ بوله في المرحاض وهو نائم ثم أعيده، وقبل الصباح أخلع الحفاض قبل أن يفيق من نومه ويدرك وجودَه.

وكنت ألبسه فوق الحفاض الليلي هذا ملابسه الداخلية القطنية، حتى يسهل عليَّ مجرد فك لاصق الحفاض من تحت ابني فحسب ونزعه من داخل ملابسه الداخلية دون أن يستيقظ بتغيير مفرط للملابس، وأثمر الأمر سريعًا، فعلى نهاية الأسبوع تقريبًا كان الأمر محسومًا بفضل الله، بخاصة مع التشجيع والإصرار مع الطفل أنه لا مفر من ذلك، هذا ما فعلتُه مع أحد أولادي، بعكس بقية إخوته في التجارب الأخرى المختلفة عن ذلك التوقيت والتي بدأت عند سن ٦ أشهر بحسب وصايا بعض الأمهات، وباءت بفشل وامتداد للمعاناة دون داعٍ، فكلما تطور النمو الشامل للطفل كلما سهل عليه أمور أكثر، فأوصي كل أم باستشارة الطبيب في التوقيت المناسب، ثم الاستخارة،

(١) من مقالة على موقعهم، بعنوان: ضبط الإخراج خطوة بخطوة.

مع الحرص على تجنب بدء التدريب في فصل الشتاء وبقية وصايا الأطباء المذكورة.

٦. ظهور بعض مظاهر السلوك العدواني لدى الرضيع بشكل عام

كالتخريب أو الهدم للشيء المقام أو صفع الوجه أو لفظ الطعام في وجهنا أو العض أو الخربشة أو التخميش أو الضرب.. إلخ، وبعضها عابر لا يقلق بل يعتبر من التدافع الصحي الطبيعي للطفل مع الحياة واختباره لكل ما حوله، وربما بسبب التسنين كما ذكرنا من قبل، وبعضها قد يدخل ضمن اضطرابات سلوكية فيما بعد كما سنبين.

والحل: استحضار إيماني مستمر من الأم: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة.

بجانب حل عملي كالتالي:

* بينما الرضيع بين أيدينا نكون متأهبين لغدراته المفترسة الفجائية، فمثلًا: لا نقترب بذراعنا أو كفنا من فمه إلا بحذر، ونمسكه بذراع ونحرر ذراعنا الأخرى حتى نتمكن من الإمساك بيده فورًا إذا شعرنا أنه يتجهز لصفعنا على وجهنا، فنمسك بيده ونوقفها، وهذا الفعل له مثيل في السنة النبوية حين يُقبِلُ طفلٌ على سلوك خطأ، فمن أدوات منعه هي أن أمسك يده لئلا يرتكب الخطأ.

* كما حدث في حديث استحلال الشيطان للطعام الذي لم يذكر اسم الله عليه، فيَدفع إلى الطعام الصغارَ والجهلةَ أو الغافلين عن الذكر، ليستحل بذلك الطعام ويطعمه معهم، قال حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ: «وإِنَّا حَضَرْنَا معهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا في الطَّعَامِ، فأَخَذَ النبي ﷺ بيَدِهَا»[١]، الشاهد: فأخذ ﷺ بيدها ليمنعها عن مس الطعام.

وبالطبع فإن رد فعلنا يختلف من مرحلة لأخرى وحسب الموقف، فرضيع

(١) مسلم (٢٠١٧).

الأربعة أشهر حين يصفع الوجه لا يكون صفعًا عادةً إنما تربيتًا رقيقًا محببًا للكبار ولا ألم فيه ولا حرج فلا يقصد منه الرضيع أي عنف بل مجرد استكشاف باللمس وإن كان أحيانًا بقوة، لكن ربما رضيع التسعة أشهر قد يفعلها بتحفز وقوة وتحدي أكثر، بخاصة حين يرى ردَ فعل مدهشًا بالنسبة له من قِبَل المربي.

فيفَضَّل هنا التجاهل أو لفت نظره إلى شيء آخر ومحاولة ملاعبة يديه ونحن نحمله لنشغلها وحسب، حتى لا يتعلق بهذا الأمر بسبب رد فعلنا المبالغ فيه، مع التأهب ليده إذا كرر الأمر ولم يفلح معه التجاهل، أما رضيع السنة ونصف مثلًا أو أكبر أو أقل قليلًا فلا شك أنه يحتاج لحزم أكثر إذا تبين أنه يفعلها عنفًا وعدوانية وإيلامًا ويدرك ولو جزئيًّا ردود الفعل ويميزها من بعضها، فنعلمه كل مرة خطأ ذلك بأن نمسك يده ونمنعها من الصفع ونغضب وتتغير ملامح وجهنا وتزول ابتسامتنا حين يفعلها، وربما ننزله من على كتفنا إذا عاودها. بالتكرار وتطور نموه الإدراكي يترسخ في ذهنه أن هذا السلوك سيء وغير مرحب به.

ومهم أن نتابع كثافة هذه السلوكيات لنتبين بوضوح هل هي اضطرابات عابرة من سمات المرحلة المؤقتة أم اضطرابات سلوكية تحتاج لعلاج مختص كما سنبين الفرق في قسم المشكلات المعاصرة غير العادية، وفحص نمو الطفل بعد ثلاثة أسابيع من الولادة ومدى استجابة الطفل للأصوات والضجيج وما إذا كان يحافظ على الاتصال البصري بشكل طبيعي، كلها إجراءات وقائية استباقية للاطمئنان مبكرًا على سلامة تطور نمو الطفل العصبي والإدراكي.

بالإضافة إلى عدم إعطاء الطفل لعبة جديدة فورًا كلما أفسد أو خرب أو هشم لعبته، وعلينا أن نوفر له الألعاب والأغراض غير المكلفة لئلا نحزن حين تتهشم، فإنها ستتهشم غالبًا عاجلًا أو آجلًا، فهو سيمارس عليها - ولابد - مهاراته المتطورة كل يوم، فلا نعيق ذلك بإحاطة الطفل بألعاب وأغراض ثمينة، فقد تكون حفنة مشابك خشبية رخيصة أو زجاجة بلاستيكية محكمة الغلق بها حفنة حبيبات من الخرز تصدر

صوتًا عند رجِّها، خير له وأحب من لعبة تتجاوز المائتي جنيها تنكسر بمجرد ضربها في الحائط أو إلقائها في المرحاض أو رميها من الشرفة أو هرسها تحت أقدامه الحنونة .. والوقاية خير من العلاج.

٧. ظهور اضطرابات انفعالية أحيانا، وعشوائية في المزاج

كالخوف والقلق عندما يتعرض لأحداث غير مألوفة، والرهبة من الأغراب، والتمسك بقوة برغباته، أو الضيق بسبب عدم تمكنه من المشي أو الوقوف أو بسبب أي مصدر بسيط للإحباط، فالمشاعر والانفعالات وليدة وعشوائية ولم تنضج بعد، والرضيع لديه حساسية مفرطة في هذه المرحلة للبيئة الخارجية بكل مدخلاتها المتزاحمة والمتصلة بحاسة الصوت واللمس والرؤية والضوء والشم والتذوق والحرارة والخشونة.. إلخ، فلا زال جهازهم العصبي في حالة نمو ولازال يتكيف يوميًّا مع كمية ضخمة من تلك المدخلات.

والحل:

لإذابة الخوف من الغرباء المسبب لنوبات الغضب

نكثر من اختلاطه بالناس ليعتاد الوجوه أكثر وننشر بين الناس حبنا له ونحث الناس على ذلك كما كان يفعل ﷺ وفصلناه في الاحتياجات الاجتماعية، فتنكسر لدى الرضيع رهبة الأغراب شيئًا فشيئًا بإذن الله، هذا فيما يخص الوقاية، أما علاج الموقف: فلا نجبر الرضيع على المكث مع من يخافه؛ نهديء من روعه ونرقيه ونجلس معه ليطمئن ويرانا بنفسه نتعامل مع الشخص بمودة وأخوة، فيزول خوفه تلقائيًّا.

وبالنسبة لتهوين ألم إحباطاته الصغيرة

نحتضنه ونرقيه ونربت عليه بحنان ونفهمه ببساطة أنه مجتهد وسينجح قريبًا

بإذن الله، أو أن الأمر بسيط لا يستدعي حزن قلبه الجميل، أو تعال نصلح الأمر معًا، أو هيا جرب مرة أخرى واستعن بالله.. إلخ.

وبالنسبة لكل ذلك عمومًا

فمن الحكمة أن نتغافل كثيرًا عن بعض اضطرابات المزاج المتضاربة أحيانًا؛ فغالبية الرضع يمرون بحالات مزاجية مختلطة لعدم وجود ثبات انفعالي لديهم بعد كما قلنا، ولكن من المهم كذلك أن نتابع هذه السلوكيات كما قلنا مرارًا، بخاصة الانفعالية والاجتماعية والتواصلية بشكل عام، لنتبين بوضوح هل هي اضطرابات عابرة من سمات المرحلة أم اضطرابات سلوكية تحتاج لعلاج مختص كما سنبين الفرق في قسم المشكلات المعاصرة غير العادية، أم هي سلوكيات تحتاج لتوجيه وتأديب، كما سنفصل في نقطة مستقلة في المشكلات بعنوان «نوبات الغضب».

٨. مص الأصابع، أو اعتياد اللهاية

رغبة الرضيع في المص بشكل عام أمرٌ غير مقلقٍ بذاته، فهذا أمر فطري وهو من الأنشطة التي تمنح الرضّع شعورًا بالراحة والأمان كما قلنا سابقًا، فقد يبكي لاحتياجه إلى مجرد المصَّ دون أن يكون جوعانًا وحتى مع كونه يرضع رضاعًا طبيعيًّا وهذا شائع، فيضع إصبعه في فمه أو يتناول اللهاية أو إصبع أمه الصغير (الخنصر)، ويهدأ، وربما نام على ذلك، وقد يكون الأمر بالنسبة له بديلًا عن الأم عند غيابها، مما يريح الأم والطفل معًا بلا ضرر مباشر عليه، بجانب أنها تعزز من مهارة المص لديه وتطور نموه الإدراكي والحسي بشكل عام .. وقد تبدأ في نهاية الشهر الأول.

ولكنها على أية حال تصبح مشكلة:

- إذا استمر الطفل في مص أصابعه أكثر من ٦ ساعات يوميًّا.
- أو إذا تواصلت إلى سن ٤ سنوات.

لأضرار ذلك المعروفة على نمو الفكين، بخاصة لو كانت اللهاية ذات نوعٍ وحجم غير مناسب، فقد تتسبب في بعض الحالات في بروز للأسنان الأمامية بسبب شدة المص وأحيانًا بسبب وضع الرضيع لأصابعه الأربعة في فمه ومصها دفعة واحدة، فبالإضافة إلى أن مص اللهاية قد يضر بتطور نموأسنان الرضيع، فهو قد يضر بمهاراته اللغوية كذلك لأن من ضمن أسماء «اللهاية»: «السكَّاتة»، فقد يتأثر ويتأخر التطور اللغوي للرضيع إذا صارت اللهاية «سكاتة» مع الوقت! ونفس الأمر بالنسبة لمصه أصابعه باستمرار، بجانب أن الإفراط في الأمر قد يجعل الرضيع يستغني عن الرضاع الطبيعي بعد فترة، حيث أنها تشبع لديه جزئيًّا جانبًا محببًا لديه من الرضاع ألا وهو إشباع رغبة المص، مما قد يجعل فترات رضاعه الطبيعي تقل كثافتها وربما تدريجيًّا يستغني عنه بخاصة إذا لم يكن الرضاع الطبيعي هو المصدر الغذائي الوحيد للطفل.

۞ وربما يزيد من المشكلة تربويًّا وسلوكيًّا: ضرب الرضيع ليكف عن تلك العادة، أو وضع شطة على أصابعه أو اللهاية والعياذ بالله.

الحل:

۞ في الأشهر الأولى للرضيع: إذا لم يكن طفلك جائعًا، نتركه يمص إصبعه دون محاولة إعاقته عن ذلك، فلا قلق من تلك العملية إلى الآن بعد كما قلنا، أو نجرب إعطاءه اللهاية بدلًا من أصابعه، فالمطلوب **هو أن يكون استعمال اللهاية عند الحاجة وبالقدر الذي لا يسبب ضررًا**، أو نجرب وضع طرف إصبعنا الخنصر الصغير في فمه ليمصه، كما قلنا من قبل، فقط: ننظف يدنا واللهاية وأصابعه جيدًا قبلها.

۞ مع الانتباه لعدم تعويده على ذلك مدد طويلة - سواء اللهاية أو الأصابع - كما قلنا.

۞ إلى أن يقترب من عمر الستة أشهر، فنجتهد حينها في فطامه عن تلك العادة

بطرق آمنة بعيدة عن استعمال دهانات موضعية فيها شطة أو أطعمة مضرة بالرضيع بذريعة تنفيره من مص أصابعه، أو بعيدًا عن تقييد أصابع الرضيع كاملة – أي الكف بالكامل – بحبال أو شريط لاصق بشكل يجعله عاجزًا عن حمل الأشياء بيده مما يعيق نموه الحركي والحسي والإدراكي.

وإذا استمر يتم عرضه على أخصائي تقويم أسنان لوضع جهاز يمنع تلك العادة، إذا أخفقنا في تقويمه فيها بالأساليب التربوية المتنوعة التي ذكرنا جانبًا منها طيلة الفصل.

ويمكن تجربة حل قد جربته مع أحد أبنائي حين كان رضيعًا يتجاوز عمره العام تقريبًا، وكان قد بدأ عادة مص إصبعه منذ أن كان عمره ٣ أسابيع ، وظل يصنعه حتى تجاوز عمره السنة، حاولت خلال تلك المدة مرارًا إيقاف تلك العادة بوصفات طبية وُصِفَت لنا كزيت اللوز المُر مثلًا أو خيوط الصوف المربوطة بخفة حول إصبعه، ولم ينفع شيءٌ من ذلك، فألهمني ربي بعلاج وأثمر نتيجة منذ أول ليلة بحمد الله، ثم خلال أسبوعين أو ثلاثة أوقفتُ العلاج تمامًا بعدما توقف طفلي عن الرغبة في مص أصابعه تمامًا.

والحل كان: أني وضعت شريطًا قماشيًّا لاصقا حول إبهام ولدي – يسمى شريط الجراحة اللاصق وظهره قماشي وبطنه المادةُ اللاصقة ويباع بوفرة في الصيدليات، وضعته بشكل آمن دون إحكامٍ يضغط على عروقه، وبشكل متقن في نفس الوقت حتى لا يفكه ويبتلعه وأنا في غفلة عنه لا سمح الله، ثم راقبتُ رد فعله: نظر لإصبعه بتعجب فلم يفهم كيف سيضعه في فمه هكذا! ثم مباشرة تحول من مص الإبهام الأيمن إلى مص الإبهام الأيسر! فوضعتُ لاصقًا عليه كذلك! فصار يتأملهما كل مرة بشرود ولا يرفعهما لفمه، ثم يمضي في حبوِه ولعِبِه، مع بعض ”الزن“ من وقتٍ لآخر، وهكذا طوال اليوم، فعلمت أن الأمر قد نجح وأنه في مرحلة الفطام عن تلك العادة، فأحببت تدريج الأمر له نفسيًّا لتقليل أعراض انسحاب الإدمان قليلًا كما تعلمون، فصرت

أفك اللاصقَ عند النوم، وبالفعل فور فك اللاصق كان تلقائيًّا يلتقط إصبعه بفمه مباشرة قبل حتى أن أضعه في الفراش، وينام عليه، ظللنا هكذا مدة أسبوعين ثلاثة مثلًا: أضع اللاصق أثناء النهار على الإبهامين، ثم أفكه قبل النوم، وبعدها توقف حتى عند وقت النوم من تلقاء نفسه، فما عاد يلتقط إصبعه فور فك اللاصق سبحان الله، فصرت أفك اللاصق في النهار كذلك وأرقبه، فما عاد يمص أصابعه لا نهارًا ولا ليلًا بفضل الله، بالطبع صاحبَت تلك الفترة تقلبات مزاجية قليلة تشبه فترة الفطام عن الرضاعة، نتحملها ونشغله ونلاعبه ونرقيه وندعو الله أن يتم الأمر على خير.

والحمد لله المستعان على كل خير.

القسم الثاني: مشكلات مرحلية معاصرة (مرتبطة بزماننا بشكل خاص)

وتلك لها فرعان كما قلنا:

١- مشكلات معاصرة عادية.

٢- مشكلات معاصرة غير عادية أو مقلقة.

أولًا: مشكلات معاصرة عادية

١. التطعيمات الدورية وآثارها الجانبية

لم تعد بسيطة كما تكلمنا عنها في مرحلة الوليد، تصل أحيانًا لدرجات حرارة عالية وربما لأيام متتالية، وبعضها يسبب انتفاخًا أو تورمًا شديدًا أحمر اللون في موضع التطعيم، أو ألمًا في موضع التطعيم يدوم أيامًا، وكل ذلك يسبب بكاءً وتململًا من الرضيع، ويكون مصدر إزعاج حقيقي للأم.

والحل: استخارة الله قبل كل تطعيم، ثم استشارة أطباء ثقات قبل موعد التطعيم كل مرة وتفادي التطعيمات التي يمكن تجنبها دون إضرار بصحة الطفل، وتطبيق

التوصيات الطبية لعلاج الأعراض بدقة، بخاصة الحرارة ونحوها، والرقية بعد التطعيم أمر حتمي.

٢. رفض الرضيع للرضاعة

قلنا في مشكلات الوليد، أنه ربما يرفض الرضاعة بسبب نقص منسوب السكر في الدم أو ولادته مبكرًا مما يجعل منعكساته غير قادرة بعد على سحب الحليب، وهنا نفصل بقية الأسباب التي قد تؤدي إلى ذلك. يُستخدم مصطلح «سوء التغذية عند الرضع»، لوصف الرضيع الذي لا يبدي إقبالًا كثيرًا على التغذية، أو لوصف الرضيع الذي لا يتغذى بالشكل اللازم لنموه السليم، فيما يسمى أحيانًا بـ «الإضراب عن الرضاعة» بخاصة إذا حدث فجأة.. وسوء التغذية بشكل عام قد يؤدي إلى فشل النمو السليم.

أبرز أسباب رفض الطفل للرضاعة:

۞ آلام في أحد أجزاء بدنه لأي سبب محتمل، كالتسنين، أو التهاب الأذن، أو التطعيم.

۞ مرض الطفل بداء يسد شهيته عن الرضاع أو يعيقه عن الرضاعة بأمان، مثل الأمراض التي فيها ارتفاع درجات حرارة، أو قرح الفم والتسنين ونقص السكر، أو مرض الزكام والاحتقان الذي يسبب انسداد في أنف الطفل مما يعيقه عن النفس أثناء الرضاعة فيرغب عنها، أو غيرها.

۞ تغير طعم لبن الأم – تبعًا لما تأكله – إلى طعم ينفر منه الطفل.

۞ ظهور رد فعل شديد من الأم عند إصابتها بألم في موضع الرضاعة بسبب رضاع طفلها منها، كصراخها مثلًا فجأة أو نزع الطفل بقوة بعيدًا عنها، مما قد يخيف بعض الأطفال ذوي الحساسية من بعض المواقف المماثلة، فينفر من الرضاع.

۞ شعور الطفل بالحر الشديد مما يجعله ينفر من فكرة الالتصاق بجسد أمه فترة طويلة.

۞ تعوّد الطفل على زجاجة الرضاع، واستسهاله إياها بدلًا من الرضاع الطبيعي (كما أشرنا في الوليد)، فإدرار اللبن منها يكون أسهل عليه؛ مما يجعله يشعر أن عملية الرضاعة الطبيعية مُجهِدةً فيرفضها.

۞ الإسراف في استعمال اللهايات، حيث تلبي رغبة الطفل في المص، مما يشبع احتياجه للرضاع جزئيًّا فيضاعف من فترات استغنائه عن الرضاع الطبيعي وربما بالتدريج تركه، ويرجى مراجعة كلامنا عن اللهاية سابقًا.

۞ قلة إدرار لبن الأم، لضعف في تغذيها أو عدم انتظامها في الرضاع أو اعتمادها على الرضاع الصناعي والطعام الخارجي أغلب الوقت وما إلى ذلك، مما يؤثر على كثافة إدرار الحليب، ويجعل الطفل يترك الرضاع.

۞ شعوره بعدم الراحة أثناء الرضاعة، بسبب خطأ في طريقه حمله أو أي شيء آخر.

۞ شدة حساسيته لمشتتات وملهيات الحواس من حوله.

الحل:

۞ تجنب المسببات التي تعيق الرضاعة مما سبق، مما يمكن تجنبه: كعدم الإفراط في استعمال اللهاية، أو في استعمال زجاجات الرضاع، أو تعديل طرق حمل الرضيع أثناء الرضاع إلى وضع مريح له، أو تلطيف جو الغرفة بمروحة أو مكيف، أو تناول مدرات الحليب الطبيعية، أو مراقبة نوعية الأطعمة التي تتناولها الأم وتلاحظ نفورًا من طفلها عن الرضاع بسببها وتجنبها، وتهدئة أجواء الغرفة لتقليل المشتتات التي تصرف انتباه الطفل عن الرضاعة، أو شفط مخاط أنف الطفل قبل الرضاع أو إعطاؤه قطرة أنف مناسبة بعد استشارة الأطباء.. إلخ.

- محاولـة الأم التحكـم في رد فعلهـا إذا أصيبـت بألـم مفاجـئ أثنـاء الرضاعـة، قـدر الإمكان، وإن لـم تستطع فتجتهـد مباشـرة بعدهـا في تهدئة الطفـل واحتضانـه بحنـان حتى يطمئـن.

- إعـادة محاولـة إرضـاع الطفـل مهمـا أبـدى نفـورًا أو انصرافًـا عـن الرضاعـة، ولـو بعـد قليـل أو في وقـت لاحـق، والصبر علـى ذلـك، مـا دام الحليـب لـم يعـد هـو السـبب، وتسـتعين بـالله علـى ذلـك بالدعـاء والاسـتغفار والحوقلـة –قـول لا حـول ولا قـوة إلا بـالله.. مـع الرقيـة لصغيرهـا.

- محاولة إرضاعه وهو نائم بعمق.

- الاستعانة بأخصائية رضاع طبيعي.

متى نقلق؟

إذا استمر إعـراض الرضيـع عـن الرضاعـة لعـدة أيـام ربمـا تتجـاوز العشـرة – لا يرضـع لكـن يـأكل الأطعمـة الأخـرى – أو لاحظنـا أن عمليـات الإخـراج لديـه صـارت أقـل مـن المعتـاد، فالأفضـل مراجعـة طبيبـة مختصـة لعـلاج الأمـر حتـى لا ينقطـع الرضـاع الطبيعي بـإذن الله.. أمـا إذا اسـتمر إعراضـه عـن الرضـاع وهـو لا يـأكل الطعـام بعـد بـل لازال كل اعتمـاده علـى الرضاعـة، فـلا يُـترك كل هـذه المـدة أبـدًا بـل لابـد مـن عرضـه مباشـرة علـى الطبيـب لئـلا يصـاب بالجفـاف ونقـص السـكر في دمـه، وهـي أمـور خطيـرة.

٣. احتياج لتغيير الحفاض كثيرًا، ووجود التهابات أحيانًا

الحفاضـات كمـا قلنـا ربمـا سـهلت علـى الأمهـات إحـدى مهـام الأمومـة، إلا أنهـا ضاعفـت مـن مشـكلات أخـرى، فبسـبب الحفاضـات صـارت الأمهـات لا تتابـع مواقيـت الإخـراج للطفـل، فطالـت المـدد التـي ربمـا يكـون الطفـل فيهـا ملطخـا بالنجـس ومَـن حولـه لا يشـعرون لعـدم نفـاذ الرائحـة الكريهـة بشـكل كبيـر أو ربمـا لعـدم حساسـية الطفـل لأي

من هذا، ثم فجأة ينتبهون على أعراض مزعجة مثل: «زن» شديد أو احمرار طفيف عند فتح الحفاض، وهذا الاحمرار إذا لم يتم التعامل معه في بدايته يتحول مع بعض الرضع إلى جروح مدممة تتطور بالرضيع من مرحلة ''الزن'' إلى مرحلة الصراخ، مما يجعل عملية تغيير الحفاض من المهام الشاقة جدًا حينئذ.

الحل:

تفقدي حفاض طفلك دوريًّا للتأكد من نظافته وجفافه، وينصح الأطباء باستعمال مواد طبية موضعية - كريم أو مرهم أو زيوت - بخاصة كريم الزنك، فكلها تقي من مثل ذلك غالبًا، وإن لم تعالج الالتهابات بعد حدوثها، فهي وقاية أكثر منها علاج، مع الحرص على تعليمه الاستغناء عن الحفاض بمجرد تطور نموه اللازم لذلك، وسبق تفصيله.

وتجربتي الخاصة مع ثلاثة أطفال كانت تصل الالتهابات لدى بعضهم إلى مراحلها الشديدة أحيانًا:

لم يفلح معهم **كوقاية وعلاج**[1] في آن واحد إلا دهن زيت الزيتون دوريًّا كل مرة نغير فيها الحفاض، حتى عند بدء ظهور الجروح المدممة فجأة بسبب تقصيرنا في تفقد الحفاض أو إصابة طفلي بنوع إسهال يسبب تقرحات في الجلد بسرعة، فكان زيت الزيتون هو العلاج السحري الوحيد، بعد تجارب غير مجدية مع كل العلاجات المشهورة طبيًّا في مثل تلك الحالات، وكيف لا وشجرة الزيتون شجرة مباركة وأقسم الله بثمرتها في القرآن قائلًا: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ**﴾ [**التين:١**]، كنت أفاجأ مثلًا في الصباح بجروح مدممة، فأبدأ الدهان حوالي ثلاث مرات في اليوم، فأفاجأ في المساء بتلك الجروح وقد انطفأ دمها ولمعانها كأنما التأمت قشرتها، ثم يوم أو يومان ويزول أثر الجروح ولونها تمامًا، فالحمد لله على نعمة زيت الزيتون المبارك، وقايةً وعلاجًا.

---

(١) صاحبة تلك النصيحة الثمينة لنا منذ سنوات، كانت د. كريمة عبد الخالق، الرئيس الأسبق لقسم طب الأطفال بجامعة عين شمس، جمهورية مصر العربية، أكرمها الله.

٤. رفضه للنوم، سواء توقيت النوم أو مكانه

قد نجد الرضيع يبكي عند ذكر كلمة النوم، إما بسبب رفضه لتوقيت النوم، حيث يريد اللعب أكثر أو يريد السهر للصباح فيظل متيقظًا في فراشه يلعب وينادي و«يزن» للخروج، أو بسبب رفضه لمكان النوم، حيث يريد أن يظل في غرفة الوالدين بجوار فراشهما أو بداخله، حسبما اعتاد.

الحل:

بالنسبة لرفضه النوم في توقيته:

۞ فلو كان السبب هو عشوائية الأم في تنظيم أوقات النوم ليلًا ونهارًا:

فلا لوم هنا على الرضيع بل على الأم، فعليها البدء في تطبيق نصائح تنظيم النوم التي ذكرناها في قسم المشكلات المرحلية العامة، وكلما كان عمر الطفل أكبر للأسف فستحتاج لصبر أكثر - غالبًا - لطول اعتياده على النقيض، فلتصبر وتكن حازمة في التطبيق وتستعن بالله، وسيعينها ربها.

۞ أما لو كان السبب خارج عن ذلك مع استنفاد كل الوسائل الممكنة لتنظيم نومه:

أولًا: إما أن تلجأ لمختصي تنظيم النوم أو المخ والأعصاب أو الأطفال، فربما هناك سبب عضوي.

ثانيًا: وإما لو تيقنت عدم وجود سبب عضوي فليس أمامها سوى أن تضع طفلها في الفراش في موعده بعد كل إجراءات النوم المعتادة، وتتركه، وتخرج من الغرفة، حتى لو ظل مستيقظًا في فراشه فترة قبل أن ينام، فلا مشكلة، ومهما أبدى من تباكٍ و«زن» بقدرٍ مُحتمَل، فلا مشكلة أيضًا، أما إن بدأ في نوبة بكاء بالفعل والصراخ بشكل يقلق:
١- فيمكنها أن تذهب إليه وتُسمّي الله وتربت عليه في فراشه وتكرر عليه أن ينام، إلى

أن ينـام، مـع ذِكـر الله كثيـرًا، وسـيهدأ بـإذن الله، أي: تجتنـب الرضـوخ لأمـره في تأجيـل موعـد نومـه، ببديـل آخـر أخـف وطـأة في عواقبـه منـه.

٢- فـإن أبَى وبـدأ في البكاء العنيـف مجددًا فلهـا أن تجلس في الجـوار بهـدوء وتفتح مصحفهـا مثـلًا وتبـدأ القـراءة وكأنـه ليس هنـاك مشـكلة، مـع رقيـة طفلهـا وتفعيـل صـوت القـرآن في الغرفـة بخفـوت إن لـم تكـن سـترتل بنفسـها، فـإذا هـدأ بذلـك ونـام فبهـا ونعمت ثـم بالتدريـج كلمـا كـبر تنسـحب مـن هـذا الجلـوس قبـل أن ينـام تمامًـا، إلـى أن تـترك الأمـر بالكليـة بعدمـا يكـون الطفـل اعتـاد علـى الأمـر واستسـلم، وتُكـرر ذلـك كل مـرة وبالثبـات والحـزم يعتـاد الأمـر ولـو بعـد حيـن بحـول الله وقوتـه.

٣- أمـا إن لـم يهـدأ مـع أي مـن ذلـك، فـلا منـاص هنـا مـن أن تحملـه وتحتضنـه وتعيد رقيتـه وتهدئتـه وهدهدتـه حتـى يخفـت بـكاؤه وصراخـه وينـام وتضعـه في فراشـه بهـدوء.

بجانـب: تـرك بـاب غرفتـه مفتوحًـا، وجعـل غرفتـه قريبـة مـن غرفتكمـا، وتشـجيعه بحكايـة قصـة عليـه في الليلـة التاليـة إذا نـام دون مشـاكل، مـع الاهتمـام بالقصـص التـي تركـز على أهميـة النـوم ليـلًا بعمـق للعقـل والجسـم والنشـاط مثـل قصـص النمـل النشـيط ونحوهـا وكيـف كان النبـي ﷺ ينـام مبكـرًا ويصحـو مبكـرًا، وكيـف أن الله ﷻ يحـب البكـور وحثنـا علـى التجهـز لـه، ورويـدًا رويـدًا تنتهـي المشـكلة بـإذن الله، ولا أظـن أنـه سـيظل علـى هـذه الحـال طويـلًا، فتنظيـم النـوم سـيطغى في النهايـة فسـيولوجيًّا بـإذن الله عاجـلًا أو آجـلًا، بعـض الأمـور فقـط علاجهـا في الوقـت والصـبر.

وهذا فيما يخص رفض النوم في توقيته.

وبالنسبة لرفضه للنوم في مكانه:

ففـي الحقيقـة، هـذه مشـكلة تنشـأ أصـلًا بسـبب تعويـد الأهـل للطفـل ابتـداءً علـى النوم بجوارهـم لفـترة تطـول ربمـا حتـى إلـى مـا بعـد الفطـام، سـواء في غرفتهـم أو في فراشـهم..

وتكلمنا عن خطورة نوم الطفل في نفس فراش الكبار في الشهور الأولى.

وبشكل عام، فإن تعويد الطفل على النوم في نفس غرفة الوالدين – أو حتى في فراشهم بعدما يتطور نموه بشكل يُمَكِّنه من الاستغاثة إذا تعرض لمشاكل النوم بجوار الكبار – فلا حرج فيه عادةً حتى سن معينة، مثلًا: تسعة أشهر أو عام، أما بعد تلك المرحلة، فمن الأفضل فصل فراشه عن والديه، وجعله في غرفة مستقلة، بخاصة لو كان معه أخ آخر وكان الزوج يعجز عن النوم مع وجود الطفل في نفس الغرفة، مع تأمين غرفة الأطفال للحظات استيقاظهم ووضع جهاز اتصال صوتي فيها إن أردنا لنتنبه عند حدوث أصوات حركة في غرفتهم – وهو جهاز سلكي أو لاسلكي يشبه الراديو مخصص لاستقبال الأصوات القادمة من غرفة الأطفال – وهو جهاز معروف باسم «ووكي توكي» يباع في محلات مستلزمات الأطفال ومكون من قطعتين قطعة توضع واحدة في غرفة الأطفال لإرسال الصوت والأخرى توضع في غرفة الوالدين لاستقباله.

أما عند بلوغ العامين: فينبغي فصل فراش الطفل عن غرفة والديه إن لم يكونا قد بدءاًا بعد، إلا لظروف اضطرارية تحول دون ذلك، ولينتبها مع ذلك إلى عدم إبداء أي من أمور المعاشرة الزوجية أمامه متوهمَينِ أنه نائم بعمق بينما هو مستيقظٌ ولكن بلا حراك.

وبالطبع يمكن للرضيع أن ينام بجوار الوالدين من وقت لآخر من باب إيناسه بالعطف والرحمة، لا من باب التعويد.

ويمكن للأم فصل رضيعها عن غرفتها بمجرد بلوغه مرحلة القفز من أعلى سور فراشه إلى خارجه، فبهذا يمكنه المجيء إلى غرفتها عند الحاجة، فلا قلق عليه كالسابق إذا نام في غرفته وحده، مع احترازات الأمان التي ذكرناها.

وإذا اضطر الأهل لإبقاء أطفالهم في نفس الغرفة معهم حتى سن كبيرة، فلا حرج

ما دامت الاحترازات قائمة فيما يخص العورات وأمور المعاشرة الزوجية ونحو ذلك، لكن هذا ليس الأفضل، إنما للاضطرار والضرورة، والضرورة لها أحكام وتقدر بقدرها، وإذا ضاق الأمر اتسع، وإذا اتسع ضاق، كما تقول قواعد الفقه والشريعة.

والسؤال: فكيف إذا عاند الرضيع رفضًا لمكان نومه كما عاند رفضًا لتوقيت نومه؟

والجواب: اتباع نفس الخطوات المذكورة في فقرة رفضه للتوقيت، بالإضافة إلى: البقاء معه في غرفته في بداية تدريج الأمر، ومحاورته بكلام لطيف محبب إليه، عن خطط الغد من أنشطة وألعاب وتناول حلوى وما إلى ذلك، وكيف أنه صار ولدًا شجاعًا ينام بغرفته بمفرده وأن الله يحب الشجعان وكذلك «ماما» و «بابا»، مع إبقاء نور الغرفة مضاءًا إذا كانت تلك رغبته وكان لا يعيقه عن النوم، حتى ينام ثم نطفئه، ولا مانع من النوم معه في غرفته مرة أو مرتين مع إطفاء النور، تحبيبًا له في غرفته أكثر وزرعًا للطمأنينة تجاه هذا الأمر في قلبه أكثر.

أما أن يُترك في الحالتين - أو في أي حال - يبكي بُكاءًا مريرًا وحيدًا في غرفته أو فراشه دون محاولة تسكينه أو محاورته أو تقديم أي دعم جزئي أوإبداء أي أمارات تعاطف، فهذا مخالف لما تعلمناه من رياض السنة التربوية للصغار في تلك المرحلة.. أقل شيء نربت عليه في فراشه وهو يبكي ليتأكد أننا لسنا ننبذه للبكاء دون رحمة أو شفقة. تذكرون الصحابة ماذا كانوا يفعلون مع صغارهم الأكبر عند تعويدهم على الصيام؟ ما كانوا يتركونهم يبكون أبدًا دون محاولات تهدئة، بل كانوا يُصَبِّرونهم ويُلهونهم عن البكاء والجوع بالألعاب إلى أذان المغرب. وهم أطفال صغار ربما في مرحلة ٦ أو ٧ سنوات أو أكثر قليلًا، فما بالنا بالرضع؟

٥. التهابات وآلام موضع الرضاعة

حديث ذو شجون غنيٌ عن التعريف، ضاعف الله أجور الأمهات، ذكرناها إجمالًا

في فصول الوليد.. وقد تبلغ ذروة الآلام في أول شهر وقد تخفت وتعود.

الحل:

إن لم ينفع معها العلاجات الموضعية الشائعة طبيًّا فالأفضل أن نلجأ لاستشارة أخصائية رضاعة طبيعية سريعًا، ولا مانع من إعطاء الطفل حليب الأم دون تعريضه لموضع الرضاع مباشرة مؤقتًا، عن طريق سحب الحليب ثم سقايته له - إذا لم يكن هناك ضررٌ مترتبٌ على الطفل من ذلك بأن يكون موضع الالتهاب مثلًا فيه دم أو صديد - على أن تسقيه الحليب المسحوب، من خلال زجاجة الرضاع أو بملعقة مناسبة أو بحقنة وسرنجة منزوعة الإبرة، أي طريقة مناسبة وتضمن استمرار الرضاع الطبيعي بإذن الله.

٦. عدم انتظام الرضاعة

قلنا في فصول الوليد، أن هناك مدرستين للإرضاع: إما إرضاع الطفل حسب الطلب، وإما إرضاعه بجدول منتظم يناسب الجرعات المطلوبة لنموه يوميًّا، وقلنا أن كلًّا منهما له وجاهته وفوائده ومصاعبه، فمن التربويين والأطباء من يوصون بجعل الطفل يرضع وقتما جاع، دون تنظيم، ومنهم من يوصي بتنظيم المسألة (وسنرد على الزاوية التربوية للمسألة في نهاية المشكلة)، لكن ترك الابن يرضع وقتما شاء، يجعل مواعيد الرضعات غير منتظمة مما قد يؤثر على تنظيم الأم لنوم الطفل أيضًا، بالتالي نومها هي أيضًا، وفي نفس الوقت: تنظيم الرضاع قد يكون صعبًا في البداية بطبيعة الحال، فالطفل لا يزال ينام غالبية اليوم وقد لا تستطيعُ الأم بعدُ إيقاظَه خصيصًا لإطعامه في وقت معين وبكمية معينة حسب جدولٍ ما، مثل المراحل الأكبر، فربما تطول مسألة تنظيم الرضاع معها، وهناك أمهات قد لا تفلح أبدًا في تنظيم الرضاعة إلا عند الفطام، لجهلها بالأساليب المناسبة لذلك، أو أي أسباب أخرى، المهم: هي كمشكلة، تكون متزايدة أكثر في الأشهر الثلاثة الأولى فقط على الأكثر والأغلب - للجادين في حلها بحول الله وقته.

الحل:

متابعة تطور نمو الطفل وأنماط نومه وجوعه ما إلى ذلك، مع أخصائية رضاعة، للتوصل إلى أنسب طريقة مع الطفل ونموه السليم، مع تأكيدنا مجددًا على عدم إعطاء أعشاب للطفل أول ستة أشهر لضررها عليه ولبقية الأسباب التي ذكرناها سابقًا.

وفيما يخص الزاوية التربوية لمسألة تنظيم الرضاع من عدمها:

يقول بعض التربويين أنه لا ينبغي تلبية طلب الرضاع للطفل كل مرة يجوع فيها بل ننظم الرضاع حتى لا يشب الطفل على الحصولِ على رغباته بالبكاء، وتلك الرؤية لها وجاهتها، ولكني لا أتفق معها بالكامل فأراها ليست صوابًا مُطلقًا ولا مطردة طوال المرحلة، فرأيي المتواضع أن ذلك أمر تابع للفروق الفردية من طفل لآخر وبحسب بكاء الطفل بسبب الجوع حقًّا أم غير ذلك، وليس شرطًا أن يكون الأمر مرتبطًا بـ «الرضاعة تحت الطلب»، بالتالي لا نقول أن «تلبية حاجة الطفل للرضاع كل مرة» هي التي تسبب نشوء ذلك الطبع فيه، وقمتُ بمحاورة عدة أمهات حول تلك النقطة وأثرها على طباع أبنائهن، وقد خضن التجربة بشكل متنوع حيث بعضهن قد نظمن الرضاع والأخريات لم ينظمنه بل قمن بتلبية النداء كلما طُلِب.

كان سؤال الذي طرحته عليهن:

(هل شب ابنك على أنه كلما طلب شيئًا فإنه حتما ولابد يجب أن يحصل عليه وإلا أوسع الكون بكاءًا وصراخًا إلى أن يحصل عليه؟ أم أنه لم ينشأ بهذا الطبع أصلًا؟ وهل نظمتِ الرضاع أم لا؟)، ووجدتُ أن خلاصة تجاربهن تؤكد ما قلته بفضل الله، من أنه لا ارتباط ولا علاقة مطردة بالضرورة بين تلبية نداء الطفل للرضاع وبين ترعرعه بطبع الإلحاح و«الزن» والبكاء على الشيء حتى يحصل عليه.

بالتالي لا بأس بتنظيم الرضاع، فتنظيمه بعون الله - وبالتبعية تنظيم النوم - هما من أعظم أسباب حصول الأم على أوقات من الراحة المنتظمة الصافية معلومة

التوقيت – نوعًا ما – مما يهيئُها للعطاء أكثر وأكثر، بشرط ألا يؤثر ذلك على جرعات التغذية المطلوبة للطفل ولا مواعيدها ولا على إشباع رغبته النفسية في تلبية الأم لطلبه للرضاع أحيانًا، فحينئذ يكون الأمر فيه سِعة وراجعًا لكل أم، وكما تكلمنا من قبل في سمات الرضيع عن ذاكرة الرضيع وقوتها في الاحتفاظ بالأحداث المتكررة مما يتيح استغلالها في تعويد الطفل على عادات يومية تنظم النوم، فيمكن استغلالها هنا في تنظيم الرضاع بشكل صحي لا يتعارض مع نموه السليم.

٧. تحدي الرضاعة حولين كاملين رغم المعوقات

تجربة إتمام الرضاع عامين كاملين رغم كل المشاكل المعاصرة، هي بلا شك مشكلة صعبة وتحدٍ كبير في زماننا، والتي من أبرز أسبابها:

۞ جهل كثير من الأمهات بمقومات إنجاح تلك التجربة، وكيفية التعامل مع تحدياتها، فتيأس وتحبط وتترك المثابرة وتلجأ للحليب الصناعي، تحديات مثل:

* ضعف إدرار الحليب.

* آلام والالتهابات موضع الرضاعة.

* رفض الطفل للرضاعة.

* تنظيم أوقات الرضاع.

۞ استسهال بعض أطباء الأطفال للتوصية بالحليب الصناعي فورًا عند أقل إخفاق في الرضاع الطبيعي، بسبب ضعف تطور وزن الطفل بشكل سليم بعد رضاعه من أمه أحيانًا، فيوصونها بإدخال الصناعي بجانب الطبيعي، ومع الوقت يصبح الصناعي هو الأصل ويُفطَمُ الرضيع مبكرًا.

۞ ضعف بدني عام في الأمهات جيلًا بعد جيل.

۞ انتشار الجهل بقدر الرضاعة الطبيعية ووزنها في الإسلام وفوائدها الشاملة للأم والطفل.

۞ انسلاخ كثير من المسلمين من هويتهم الإسلامية وتأثرهم بالدعاوى الغربية المتفلتة من عبودية الإنسان لرب العالمين، مثل: تحرير المرأة، وإبداع المرأة، وعمل المرأة، وتمكين المرأة، وعدم التمييز ضد المرأة.. إلخ، مما أغرى كثيرًا من النساء باعتبار الرضاعة عامين كاملين عائقًا كئيبًا أمام تحقيق «ذاتها» التي قام بإعادة تعريفِها الغربُ!

۞ بالإضافة لتغول دعاوَى النسوية الخبيثة أكثر وأكثر في المجتمعات المسلمة، مما أقنع كثيرًا من الأمهات بالنفور من الرضاعة بل من كل مهام الأمومة العظيمة.

۞ والرجال غير معفيين من هذه العوامل، فبسبب ظلم الرجال للنساء وطغيانهم في هذا الجانب، شاع في المجتمعات الإسلامية تمرد وجموح النساء عن الأسرة أكثر وتلبسهن بروح الأثرة والأنانية. واستيلاء بعض الإخوة والآباء والأعمام على ميراث الإناث جعل من الضرورة لجوء عددٍ كبيرٍ جدًا من النساء للعمل لتوفير مصدر دخل تعيش منه وربما تُعَيِّشُ منه أولادها، فتضطر لفطام ولدها مبكرًا، بخاصة في الدول التي يغيب فيها نظام كفالة بيت المال ونحوه لأمثالهن، مع اندثار ثقافة المُرضِعات المستأجَرات أو حتى المتطوعات، للأسف، مما أدي إلى إخفاق كثير من الأمهات في تحدي الرضاعة فلا تتمكن من إكمال طريق بث الخيرات إلى نهايته.

۞ تراجع أولويات الأمهات بسبب ضغوط الحياة واختلال ميزان الأسرة، أو بسبب كل ما سبق.

الخلاصة: إذا بحثنا عن السبب، فغالبًا سيكون في البعد عن الشريعة، حتى جهل الأمهات بسبل إنجاح الرضاع لنهايته لا أستبعد أن يكون لعدم البركة التي بُلينا بها في كل شيء بشؤم بعدنا عن مقاصد الشريعة وأولوياتها، فلم نكن نسمع عن «تحدي الرضاعة» أيام السلف ولا حتى أيام أمهاتنا القريبة، ولكن بغياب عبودية الله الحقة من قلوب كثير من المسلمين، ظهر الفساد في البر والبحر.

الحل:

* العودة إلى الشريعة، هذا إجمال، وتفصيله لا يتسع له المقام، إنما نتبين مواضعه في مسألتنا، من خلال إعادة قراءة الفقرة السابقة وتفادي ما فيها من عوامل هجر الشريعة وعودة اعتدال ميزان الأسرة، بجانب تفعيل خطوات الاستعداد للتربية التي ذكرناها في الباب الأول من الكتاب.

* سؤال أهل الخبرة ممن سبقونا ومن المختصات بإنجاح الرضاعة، عن أصح الطرق لتمكين الطفل من الرضاع من أمه بسهولة دون ألم وجراحات وهزال وانقطاع، وأفضل الطرق للمحافظة على كثافة إدرار اللبن وعناصره المغذية، وأنسب الجرعات المشبعة وكيفية تنظيم المسألة بما يحافظ على صحة الأم والطفل واستمرار الرضاع.

* تنظيم الرضاع، وسبق بيانه.. فتنظيمه - نوعًا ما - أوقاتًا ومددًا محددةً تتوافق مع توقيتات جوع الطفل بعد اكتساب الأم خبرة كبيرة في ذلك مع الوقت، هو مما يعين على إنجاح تحدي الرضاعة.

٨. الزن

وردت في فقرات الكتاب الماضية أكثر من عشر مرات تقريبًا كلمةُ "الزن" كما نقول بالمصرية العامية.. فما الزن؟

وهنا حديث ذو شجون.

هو هذا التململ الصوتي المتتابع والطنين الحاد والمزعج جدًّا، الذي يبدو وكأن الطفل يصدره من المخارج الصوتية الخمسة في جهازه الصوتي في آن واحدٍ وبموجة واحدة رغم استحالة اتحادهم صوتيا لدينا؛ يؤدي هذا الصوت غالبًا إلى تشوش جزئي في حواس الأم، وشللٍ لحظيٍّ تامٍ في التفكير المنطقي تحت وقع مطارق الصوت القاسية، مما قد ينتج عنه خروج مفاجئ للأم عن وقارها بصرخة مدوية

لاإرادية، نحاول في كتابنا هذا قدر الإمكان مساعدتها على عدم الوقوع فيها أو إصابة أحد من أهل بيتها بها، حرصًا على سلامتها بالطبع، وطردًا للجزع المذموم من قلبها، بجانب الحرص على حواس الرضيع الخمس أيضًا.

وهذا تعريفي المتواضع للـ «الزن» حيث لم أجد له تعريفًا في المعجم للأسف، في حين أنه قد صار كلمة يومية في قاموس الحياة ينبغي أن يعتني بها اللغويون وضم تعريفها إلى المعاجم الحديثة تكريمًا للأمهات البطلات، فلا يُعقَل ألا يكون له تعريفٌ رسمي حتى الآن في القواميس المعتبرة.

وكما صاحبَنا ''الزن'' كثيرًا فيما فات فلازال سيَصحَبُنا في كتابنا، وربما كتب أخرى، وجدير بالذكر أنه في مرحلة الوليد كان ''الزن'' ضيفًا (خفيفًا)، فلا مجال لاعتباره مشكلة هناك مقارنةً بالمراحل اللاحقة هنا أعاذنا الله وإياكم، وقد كثُر «زن العيال» في زماننا بما يجعله سمة مرحلية معاصرة لم تكن موجودة من قبل غالبًا أو بهذه الكثافة ربما، بسبب عوامل كثيرة اجتمعت على الرضيع حاليًا.

منها:

۞ ضيق البيوت وتكدسها بأشياء ثمينة يَعتبر بعضُ الأهل الحفاظَ عليها أغلى من الرضيع نفسه.

۞ كثرة التعليمات والمساحات الممنوع لمسها أو تخطيها حول الرضيع.

۞ قلة احتكاكه بالطبيعة وشمسها وهوائها ومساحاتها الشاسعة الخضراء والصفراء والزرقاء وكائناتها اللطيفة الملبية لاحتياجات النمو النفسي والحسي والعقلي والانفعالي المطمئن.

۞ قلة مساحات اللعب الممنوحة سواء زمانيًّا أو مكانيًّا.

۞ كثرة تناول الحلوى والأطعمة غير الصحية مما يجعل بعض الأطفال لديهم

فائض طاقة وفرط حركة مع عدم وجود ظروف نشاط مناسبة تستوعب ذلك أيضًا وتمتصه.

۞ وجود الحفاضات التي ربما سهلت على الأم مهمتها لكنها ساهمت في غفلة بعضهن عن مواقيت الإخراج إلى أن يصاب الطفل بمشاكل جلدية كما ذكرنا من قبل في نقطة مستقلة.

۞ فرط قلق بعض الأمهات من إصابة طفلها بالأمراض الشتوية كنزلات البرد والالتهاب الرئوي، مما يجعلها تضاعف من تكديس الملابس فوق بدنه، ويتضاعف "الزن" إذا ما كان تكديس الملابس هذا في الصيف لنفس الغرض!

۞ تجاهل الأهل عمدًا لاحتياجات مهمة بالفعل للطفل لسبب أو لآخر.

۞ غفلة الأهل وانشغالهم عن حقوق واحتياجات أبنائهم، وانكبابهم على الشاشات، مما زاحم مساحات الملء النفسية والاجتماعية والحسية وغيرها، فتركت فراغًا وخواءًا لم يجد الطفل ما يعبر به عنه إلا "الزن".

۞ أو كل ذلك معًا، ونسأل الله الهداية لنا جميعًا.

بجانب عوامل مرحلية معتادة مثل:

۞ التسنين أو الملل والرغبة في التحرك أو الجوع والعطش أو الرغبة في شيء ممنوع عنه أو عدم الشعور بالراحة أو الرغبة في النوم مع عدم توفر الظروف المناسبة المحببة للرضيع أو الرغبة في أن يُحمَل أو في الملاعبة والمحاورة.. إلخ.

الحل:

۞ يتشابه "الزن" مع البكاء في أمور، فلا مشكلة من تسكين الطفل الباكي أو «الزنان» عن طريق دفع سبب "الزن" أو البكاء أو تقليل أثره، إذا كان الرضيع بالفعل يفعل ذلك تعبيرًا عن حق أو احتياج حقيقي له وليس لدينا مانع من تلبية هذا الحق.

أما إذا فشلت كل محاولات إسكات "الزن" - سواء كنا نعرف السبب ولا نملك دفعَه أو لا نعرفه أو ليس هناك سبب منطقي من الأساس والله المستعان - فهذا أوان اللجوء للخطة البديلة:

(الإلهاء)، والتي قد تفلح أيضًا مع مشكلة البكاء.

ترتكز خطة الإلهاء على إحاطة الرضيع بهالة من السكّاتات الحسية القوية، وتتضاعف درجة قوة تلك السكاتات الملهيات طرديًا مع درجة اعتياد الطفل عليها، فكلما اعتاد إحداها انتقلنا لأختها، فلا مجال لليأس هنا أو اعتقاد فشل الطريقة، لأن رضيعك لن ييأس من "الزن" ولن تُعدَمِي وسيلةً تلهينه بها بإذن الله.

۞ فقومي بإلهاء رضيعك بإحدى الأمور المحببة إليه المعتاد عليها؛ مثلا: طعام أو عصير يحبه أو حتى شربة ماء بعسل لو تجاوز العام أو بغير عسل أو لعبة محببة مثلما كان يفعل الصحابة أو تشغيل الألعاب المتحركة أو تشغيل الأناشيد المتميزة بإيقاع حماسي لافت دون موسيقى بالطبع أو وضع الكتب الملونة في طريقه أو القيام بهزه في كرسي الأطفال أو الأرجوحة المنزلية الصغيرة أو التمشية به بعربته في البيت أو تأمُل للعالم بالخارج من خلال النافذة أو الشرفة أو نزهة قصيرة في الهواء الطلق أو اصطحابٌ للسوق وتأمل الخضروات والفاكهة المصفوفة والطيور المغردة أو جلب أطفال في مثل عمره يلعبون معه في البيت إن تعذر ذهابه إليهم، المهم أن نستنفد تركيزه وطاقته في اللعب الصحي وما يحب، فكثير من "الزن" وأمثاله يكون بسبب «الفراغ القاتل».

۞ وربما يتطلب الوضع أحيانًا منكِ بعض الحركات البهلوانية فقط، والتي تتطلب إلهاءه بأمور مفاجئة تستحوذ على حواسه بقوة، وتلك من أنجح الوسائل في تلك المرحلة، فالطفل لازالت حواسه بعد في حالة من البكارة التي تجعلها تلتفت لكل مدخلاتٍ جديدة بقوة وتركيز وحماس شديد يُشَتتها عن أي مُدخَلاتٍ أخرى حالية.. مع تجنب الكذب بالطبع وأي سلوك منافٍ للأخلاق الإسلامية.

فمثلًا:

۞ احمليـه علـى ذراعيـكِ بسـرعة ورفـق وقومـي بالـدوران بضـع لفـات بأمـان وأنشـدي لـه أنشـودة جديـدة ومضحكـة بهـا أصـوات متنوعـة بيـن الغلظـة والرقـة، مـع قليل مـن الدغدغـة أو الزغاريـغ هنـا وهنـاك.

۞ احمليـه بيـن يديـك وتوجهـي ناحيـة مفاتيـح الإضـاءة في الغرفـة وقومـي بإطفـاء النـور وفتحـه مـرة بعـد مـرة مـع تعابيـر وجـه متغيـرة ومندهشـة ومضحكـة كل مـرة تفتحيـن فيهـا النـور.

۞ افتحـي صنبـور المـاء ودعيـه يضـع يـده تحـت المـاء مثلـك، وقومـا بمـج المـاء في وجـه بعضكمـا البعـض (رشـات خفيفـة).

۞ أشـيري فجـأة إلـى السـيارات في الطريـق وقولـي: «انظـر إلـى السـيارة المسـرعة! سـلم يـا رب».

۞ اركضـي بخفـة نحـو بـاب الشـقة وقولـي بدهشـة: «أنصِـتْ إلـى الـدَرج! هـل تسـمع وقـع خطـوات قادمـة! مَـن يـا تـرى؟ هـل «بابـا» قـادم؟

۞ تتبعـي بشـغف وحيـرةٍ شـديدة نملـةً قـد تصـادف مرورهـا بجواركـم أثنـاء تلـك الأزمـة، مـع ترديـد جمـل مثـل: «نملـة يـا حبيبـي! تعـالَ انظـر! كـم أنـتِ صغيـرة وضعيفـة جـدًا يـا نملـة! لابـد أنـكِ لا تأكليـن جيـدًا مثـل ابنـي القـوي الحبيـب».

۞ أخرجـي قـارورة مـاء مثلجـة مـن البـراد، والمسـيها بيـدك ثـم أبعـدي يـدك فجـأة، افعلـي ذلـك مـرارًا وتكـرارًا بشـكل سـريع ومتتابـع مـع إظهـار تعبيـرات وجـه مندهشـة وأصـوات ارتجافيـة وكلمـات معبـرة عـن شـعور اللمـس للشـيء البـارد، ودعيـه يقلـدك مـع إثـارة ضحكاتـه.

۞ لـو لديـكِ أحـواض زهـور في البيـت بعيـدًا عـن متنـاول يـده، اهرعـي لأحدهـا وتسـاءلي أمـام طفلـك بصـوت عـالٍ وفي حماسـة: «تـرى كـم ورقـة لـدى هـذه الزهـرات

الجميلة! سأعدها كلها.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة».

وإن خفتِ إن ينعتك أهل بيتك بالجنون، فلا تبالي وانظري للجانب المشرق: اكتشافكِ لمواهب ومهارات بهلوانية فريدة من نفسك ما كنتِ تشعرين بها من قبل! وتلك منحة من قلب المِحنة، فاصبري وأبشري وتذكري الجنة و(بيتٌ بلا صَخَب)، كتب الله أجرك أيتها المحاربة، ونسأله السلامة لك من كل «**زن**».

متى نتوقف ونتجاهل "الزن" ؟

نتجاهل "زن" الطفل دون أدنى حرج أو وخز ضمير، عند المواقف التربوية، فمثلًا: لو كان "الزن" على لعبة معينة يصر على أخذها وهي خطر أو ممنوع أن يأخذها لأي سبب معتبر، أو يريد شيئًا آخر لا ينبغي له أن يناله، بل قد نضطر لنتركه يبكي قليلًا بعد فشل كل محاولات إلهائه عنها ليتعلم ويتأدب، إن كنا نلمس منه أن نموه الإدراكي قد بدأ يستوعب ذلك، وإذا اجتهدت الأم أكثر في إلهائه ابتداءً لكي لا يفتح في بكاء شديد، فهذا أفضل، وكل ذلك نتكلم عن مرحلة ما قبل السنتين، أي ما قبل الفطام عمومًا، لأن ما بعد السنتين الأمر يختلف بسبب تطور النمو الإدراكي.

الخلاصة: ليس دومًا "الزن" أمرٌ خطأ، وليس دومًا "الزن" أمرٌ ينبغي تجاهله، وليس دومًا «عدم تجاهله» هو الصواب، حسب الموقف وخبرة الأم بطفلها، فسددوا وقاربوا واصبروا وأبشروا.

٩. العناد .. التمرد

سواء في أي من المشكلات السابقة أو غيرها.

بالنسبة للعناد أو التمرد فيكون:

- **إما عنادًا عابرًا غير متكرر.**

۞ وإما مزمنًا معتادًا بسبب طباع الطفل وصعوبة المراس ورفضه للسيطرة عليه من الكبار مثلًا.

الحل:

النوع الأول طبيعي نوعًا ما في هذه المرحلة فهو ناتج عن اختبار خبراته الحياتية وتطورات نموه مع كل ما حوله، فالحل يكون في الإلهاء بأي من الطرق التي ذكرناها سابقًا أو التجاهل أحيانًا، بجانب الحلول المقترحة في علاج «انفعالات الغضب العابرة» والتي سنبينها بعد قليل.

والنوع الثاني يحتاج من المربي وقفة تهذيب وتأديب، لا كما تقول التربية الغربية، لكن بعد التأكد أولًا من عدم وجود الآتي:

- أن المربي غير عنيد بالفعل والطفل يحاكيه.

- أن الطفل لا يعاند في حق من حقوقه واحتياجاته.

- أننا لا نتصادم معه بدون داعٍ ولا نحاصره بالأوامر والممنوعات الكثيرة دون حكمة.

- أن الطفل يفرغ طاقته يوميًّا في أنشطة مفيدة وأن العناد ليس بسبب فراغ قاتل.

فإذا كان السبب هو أي مما سبق، نقوم بعلاجه أولًا، ثم يصر المربي على إنفاذ القرار بعدها مهما واجه من تعنت وعناد و "الزن" وتباكي.. إلخ، والطفل رويدًا يعتاد على حدوده ويفهم بالتكرار والإصرار، فإذا تطور العناد لنوبات غضب وسوء أدب، فهذا موضوع النقطة التالية.

١٠. مشكلة نوبات الغضب أو سوء الأدب، تنقسم إلى قسمين:

١- انفعالات غاضبة عابرة متباعدة خالية من التطاول وليست من طباع الرضيع:

فلا يُبدِي فيها الطفل إساءة أدب أو تجاوز في حق الكبار أو الوالدين، أو صدود لهما، ما يشبه التهيجات الجلدية الموسمية مثلًا.

الحل:

نأخذه في حضننا عُنوةً وبغتةً بلطف ومداعبة ونرقيه ونربت على شعره وبدنه بحنان مع «زغزغة» وملاطفة، حتى لو لزم الأمرَ شيءٌ من التقييد الخفيف المُختلِط بروح الملاعبة والمداعبة،لتحجيم ذراعيه عن (التملص أو التطاول المحتمل أو الضرب أو الصفع) لئلا يتحول الموقف إلى مرحلة عناد أشد، ولن يقاوِمَ طفلٌ طبيعيٌ قد تربى تربيةً فطريةً سويةً مثل هذه الإجراءات بطبيعة الحال مادامت نوبة غضب سطحية وعابرة، فذلك النوع من الانفعالات لا يستلزم منا غالبًا سوى شيء من: التجاهل أو الاحتواء أو الإلهاء، ليذوب الموقف سريعًا بالفعل.

وتلك علامة على هذا النوع نتأكد بها أكثر، وإلا كان النوع الثاني.

٢- والنوع الثاني نوبات انفعالية مستمرة نوعًا ما، ويصاحبها سوء أدب وتطاول وصدود للوالدين:

مثل السبِّ لهما، وربما ضرب أو تكسير لأغراضهما، وربما التلفظ بجمل فيها تعبير عن الكره أو الإهانة لهما.. إلخ؛ أمور لم نسمع بها في أي من الأجيال السابقة بهذا الشكل، ولا يخفى أن غالبيتها ترجع إلى سوء التربية وشيوع التطاول على المعلمين والمربين في المجتمع وغياب يد المربي المؤدِب وجعلها مغلولة إلى عُنُقِه.. ولا أستبعد أن منبعهم جميعًا هو سلطة الثقافة الغالبة فيما يخص التربية الغربية.

ونستعرض نماذج من الأسباب التفصيلية المحتملة، التي ينبغي فهمها قبل اتخاذ الإجراء المناسب:

سبب١ : تقليد الرضيع للكبار في نوبات غضبهم.

سبب٢ : سلوكٌ عابر مَسكوتٌ عنه متهاوَن في تقويمه، حتى تحول إلى سلوك متجذر.

سبب٣: اعتراض الرضيع على توجيهات الوالدين والكبار.

سبب٤ : وجود خلل عضوي قابل للعلاج، مثل الأنيميا الحادة، أو خلل في الغدد، أو غير ذلك.

الحل فيما يخص الأسباب من ١ إلى ٣ وما شابهها:

۞ بعد تأكد فشل الطريقة التي ذكرناها في النوع الأول واستمرار الطفل في العناد وبدئه في السب والضرب مثلًا أو قول (ابتعدي أنا لا أحبك) لأمه، فالواجب هنا تغيير الخطة: تقوم الأم بإنزاله من حجرها أو من بين ذراعيها فورًا دون تباطؤ، وتُظهِر له بوضوح أنها غضبى من سلوكه.

۞ وتنصرف مبتعدةً عنه وتوليه ظهرها، لا أن تستجدي منه حضنًا رغم صدوده لها كما توصِي كتب التربية الغربية - كما ستقرءون بعد قليل - فلابد أن يعتاد الطفل من صغره أنه هو المحتاج لوالديه طيلة أيامه، لا العكس، لابد أن يعتاد أن حضن أمه كنزٌ ثمين لا يستغني عنه أبدًا ولا يصده مطلقًا لا العكس، أي طغيان هذا يربون عليه صغارهم! وقد صدق ربي حين قال: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق:٦]، وكذلك الإنسان في علاقته مع والديه.. ولله المثل الأعلى.

۞ فإن لم يرعوِ الطفل واستمر في عِناده وتدابره مع أمه، نعود إليه بالتذكير والنصح مجددًا - دون تذلل له! - بأن يتعقل ويستعيذ من الشيطان الرجيم ولا يهدر

أوقات اللعب الجميلة في الغضب والحزن، وإن قال آسف سيكون قويًّا وسينتهي الأمر ويُحزِنُ الشيطان والله يحب من يحزن الشيطان بقوته وأخلاقه الطيبة.. إلخ. ومن الجيد هنا أن تفوض الأم شخصًا غيرها ليقوم بذلك ويحثه على الاعتذار لها، ولا نيأس إن لم يتحقق تعديل السلوك مباشرة، فالتربية الحقُ تحتاج للتكرار والإصرار والاصطبار، والاستعانة بالواحد القهار.

ولا ننسى تذكير الآباء ضرورة أن يكونوا قدوة لئلا يقلدهم الصغار فيكونوا السبب في سوء سلوكهم كما في رقم١.

أما الحل فيما يخص السبب رقم ٤:

فبالفعل سوء التغذية أحيانًا يؤدي إلى أنيميا ونقص حاد في الحديد قد يترتب عليه انفعال الطفل بالغضب وتصرفه بثورة عارمة على غير العادة.. فالحل هنا يستلزم زيارة طبيب.

بجانب الحرص على إبعاد كل مثيرات الغضب وانتشار الشياطين في المنزل عن طريق تطبيق كل ما تعلمناه في الكتاب من إجراءات التربية التحصينية من الشيطان.

مع مناجاتك لربك بعجزك وفقرك وضعفك وإقرارك باحتياجك لعونه وتوفيقه؛ وقد كان الفضيل قدوة في ذلك إذ يقول: «اللهم إني عجزت عن تأديب ولدي فأدبه لي»، فقولي: «اللهم إني عجزت عن تهدئة ولدي وتسكينه فهدئه لي وسكنه لي أنت تهدي من تشاء يا هادي بيدك الخير إنك عل كل شيء قدير»، أو ما يشبه ذلك.

وستعلمن أيتها الأمهات المباركات كيف أن غالبية تلك المشكلات هي في حد ذاتها نعمة، لأن اختفاءها يدل على خلل عصبي لدى الرضيع أو خلل في الوظائف الفسيولوجية والتواصل، وربما اضطرابات عصبية كما سنرى في بقية عرض المشكلات، فالحمد لله على التطور الطبيعي للكائن الحلزوني وإن كان مؤلمًا ومسببًا أحيانًا لندبات وجراح، ونسأل الله العافية لكل مريض، والأجر العظيم لكل من يرعاه.

ولا يسعني هنا أن أفوِّتَ الفرصة، دون أن أحكي لكم قصة حدثت بالفعل بهذه المناسبة!

يومًا ما منذ سنوات، نشرتُ مقالةً تنتقدُ تعامُلَ كتب التربية الغربية المترجمة للعربية مع مسألةِ نوبات غضب الأطفال، يقول بعضهم مثلًا: «عندما يصيب طفلَك نوبةُ غَضَب، اطلب منه أن يعانقك، فإذا رفض طفلُك، فكرر طلبك قائلًا له أنك تحتاج لهذا العناق منه، فإذا رفض الطفل مجددًا فكرر طلبك مجددًا وأبلغه أن يأتي إليك لعناقك عندما يكون مستعدًّا، ثم ابقَ بعيدًا عنه وستندهش بالنتيجة التي ستحدث»!

وكان تعقيبي على هذا الكلام

كيف تطلبون منا أن نربي أبناء المسلمين بهذا السفه؟ كيف يستجدي والدٌ أو والدةٌ طفلَهما ليعانقهما في نوبة غضبه! ثم هو يرفض ويتقبلا ذلك منه بكل بساطة! ثم يعاودان استجداءه بكل خنوع وينتظران عفوه وإذنه السامي! ثم يتلقيان الضربة الموجعة للمرة الثانية بكل هدوء وبساطة كذلك! ثم يعاودان استجداءه من جديد وإعلامه أنهما سيظلان ينتظران موافقته في الوقت الذي يراه هو مناسبًا! أي تربية تلك التي يزعمون أنها «انضباط» و«تهذيب»! هذه كتب ينبغي أن يكون عنوانها «كيف تصنع طفلًا عاقًّا يملؤه الصلف والجحود»، أو «وسائل تحقيق حديث (أن تلد الأمةُ ربتَها)[1]»، أو «كيفية ترويض الأبناء للآباء»!

أما أن تكون تلك كتب «تربية» و«انضباط» و«تهذيب» فكلا وكل مرادفات كلا وبكل اللغات الحية والميتة! كيف تتوقعون أن ينشأ هذا الطفل المسلم على معانٍ وقيم مثل: برِّ الوالدين، والزم رجلها فثم الجنة، وبالوالدين إحسانًا، واخفض لهما جناح الذل، وصاحبهما في الدنيا معروفًا؟

---

(١) من حديث في صحيح مسلم٨-وهي من علامات الساعة، وفيه إشارةٌ إلى كَثرةِ العُقوقِ، بحيثُ يُعامِلُ الولدُ أُمَّه مُعاملةَ السيِّدِ أمَتَه.

وقلت للناس حينها أن العلاج هنا يكون بالهجوم عُنوَةً وبغتة على هذا الصغير واحتضانه و«زغزغته» وإخراجه من هذا المزاج الطفولي الكئيب العابر بإلهائه عنه مباشرة، وأننا لن نجد طفلًا لا يرضخ سريعًا لمثل هذه الملاطفاتِ وتتناثر ضحكاته رغمًا عنه يمينًا ويسارًا من بين دموعِه، وينتهي الأمر ببساطة لصالحهما معًا دون جراحات تربوية عميقة قد لا تُحمَد عقباها في الدارين - ولا أبالغ!

فجاءتني ردود فيها من صدمة أصحابها ما صدمني أنا بدوري! كان أحدها لإحدى الأمهات قالت فيه: «ما هذا الكلام!! كيف تقولون أن أهجم على ابني وأحتضنه عنوة بالغصب لأخرجه من تلك النوبة الكئيبة! هذا جسمه ملكه هو فقط هو حر إذا أحب أن يحتضنني أم لا!! أكتفه بذراعي و«أزغزغه» بالغصب وهو في نوبة غضب!! بالتأكيد أنتم تمزحون! مستحيل أن يكون هذا الكلام جد لا هزل!!»، ولم يكن ردها هو الرد الوحيد هكذا، وتأكدت يومها من حجم تأثر كثيرين من جيل الأمهات الحالي للأسف بدورات «التربية الغربية» في بلاد المسلمين، والله المستعان على نسف هذه البدع التربوية الموبِقَة، والتي بيانها بتفصيل أكبر يكون في كتاب آخر كما قلنا بإذن الله.



١١. محاكاة الأطفال للسلوكيات السيئة

قاموا بضرب أو سب بعضهم البعض مثلًا، أو بخلوا بحلواهم عن الآخرين، أو خلعوا بعض ملابسهم في حضور الناس دون حياء، أو قطعوا الكتب، أو سكبوا الطعام على الأرض.. إلخ.

الحل:

بشكل عام وإجمالي، نفصص السلوكيات إلى حسن وقبيح، وبرفق وعطف وتشجيع نحرص على تعريف كل سلوك في حينه للطفل بوضوح لكن ببساطة، ونحثه على ترك السلوك السيء وعدم محاكاته بل ونصح من يفعله بتركه، ونشجعه على

فعل السلوك الطيب ومحاكاته.. كيف؟، هذا ما ستتعرف عليه في فصل البناء الديني والأخلاقي للرضيع.

١٢. مشكلة تقبيل الكبار للرضيع من فمه

أشرنا إليها سريعًا في مشكلات الوليد، وآن أوان تفصيلها.

في يوم من الأيام، وردتني استشارة من أم تشكو فيها من عدم استجابة أقاربها لطلبها بعدم تقبيل صغيرها من فمه، وتسأل كيف تمنعهم من ذلك؟ وفي الحقيقة، أعلم أن هناك فتاوى قديمة غير حديثة، لبعض العلماء الشرعيين توضح أنه لا بأس من ذلك ولا حرج شرعي فيه طالما أن سن الطفل صغيرة جدًا، ويدللون على جواز ذلك بفعل النبي ﷺ له مع حفيديه - في حادثة السفر - ومع ذلك يقولون أن الأولَى أن نترك نحن ذلك وإن لم يروا فيه حرجًا أو حرمةً.

ولكني أوقن أن هؤلاء العلماء الأجلاء لو كان تكشف لهم ما في هذه العادة من ضرر صحي بالغ على حديثي الولادة والرضع، لأفتوا بمنعها وباختصاص النبي ﷺ وحده بها لشرف ريقه وطهارته واختلافه عن بقية البشر وبخاصة أن الحادثة التي تروى في ذلك كانت لإظهار معجزة جديدة تدل على نبوته ولم يرد في سيرته ما يؤكد أنه فعلٌ يعتاده مع أحفاده بما يجعلنا نحاكيه فيه مثلًا ﷺ.

فتقبيل الرضيع من الفم يُعَرِّضُه للعدوى بميكروبات وفيروسات فتاكة لا يتحملها بدنه وجهازه المناعي الناشئ، منها فيروس «هيربس»، فالشخص الكبير قد يكون حاملًا لهذا الفيروس دون أن تبدو عليه أية أعراض ولا يسبب له أذى أو مرضًا، لكنه ينتقل إلى الرضيع عن طريق اللعاب، وليس له علاج وأحيانًا يسبب الوفاة للأطفال بعد فترة مرض وألم ومعاناة شديدة نظرًا لضعف مناعتهم بعد، ولا تنسوا كلامنا عن ضوابط تقبيل حديثي الولادة نظرا لضعف مناعتهم، والقاعدة الفقهية تقول «الضرر

يُزال»، مصداقًا لكلام النبي ﷺ: «لا ضررَ ولا ضِرارَ»[(١)]، ومن حقوق الطفل أن نراعي مصلحته أينما كانت وندفع عنه المفاسد متى تحققت، لاسيما إذا ارتبطت بحفظ نفسه.

الحل:

تجتهد الأم في إيصال تلك المعلومات لهؤلاء الأقارب، وتعلمهم بحكمها الشرعي بعد تقدم الطب وظهور خطورتها على حياة الصغار، والتوضيح لهم أنها مسألة مختصة بالنبي ﷺ وحده وحدثت كمعجزة على نبوته، وتكلمهم عن الضرورات الخمس وأهمية حفظها، وتريهم بعض الصور من على الشبكة العنكبوتية، مع إلانة الكلام لهم بلطف وحكمة والدعاء كثيرًا أن يرزقها الله قلوبهم ليقتنعوا بكلامها، وتجنيب الطفل ذلك إلى أن يهديهم الله، وظني أنهم سيلينون بين يديها إن شاء الله، فلا يرجو أحد ممن يحب الطفل بصدق أن يضره، وإن لم يستجيبوا رغم كل ذلك، تفوض في الأمر أحدًا من أوليائها وتسأل عالمًا شرعيًّا ليفتيها في الإجراءات الشرعية المتاحة لها عند هذه المرحلة.

١٣. عراك الأطفال واشتباكهم مع بعضهم البعض

غني عن التعريف، ولا يخلو منه بيت، إلا بيوت الجنة!

الحل:

يقترح بعض المنتسبين للتربية الغربية الحديثة في مجتمعاتنا المسلمة للأسف، في معرض توصياتهم للأمهات لحل المشكلات التربوية اليومية والتي من بينها العراك، أن نترك الصغار يتعاركون سويًّا دون تدخل إلا في حالة وجود «دماء» أو خطر «متحقق»، وإذا أتوا يشتكون إلينا نقول لهم أن يتعلموا حل مشاكلهم بأنفسهم!

(١) من حديث صححه الألباني-صحيح ابن ماجه (١٩٠٩) | وجملة من المحدثين قالوا: حسن/ قوي بمجموع طرقه.

في الحقيقـة، أنـا لـم أسـمع تلـك المقولـة بنفسـي، وإنمـا نقلتهـا إلـيّ صديقتـي التـي حضـرت دورة في «التربيـة» منـذ سـنوات لإحـدى الأخـوات العامـلات في مجـال التربيـة، مـن المتأثـرات بالتربيـة الغربيـة.

ولكـن هنـاك صديقـة أخـرى أكـدت لـي مؤخـرًا شـيوع تلـك الفلسـفةِ التربويـة الغربيـةِ بالفعـل بيـن بعـض المحاضـن التربويـة والأمهـات، وهـي بالفعـل تتماشـى مـع توجيهـات الغـرب التربويـة، حكـت صديقتـي تقـول: في الروضـة التـي بهـا طفلتـي ذات العاميـن والنصـف - وهـي روضـة ذات طابـع غربـي واضـح في المنهجيـة التربويـة - يُعلمـون الصغـار أن يقولـوا لمـن يعضهـم أو يضربهـم مـن أقرانهـم «ستـوب» -أي توقـف - وحسـب! وطفلتهـا ذات العاميـن تعـود مـن الروضـة معضوضـة، وقـد تكـرر ذلـك السـلوك مـن زميلهـا «العضـاض» هـداه الله، وكلمـا تشـتكيه صديقتـي يُقـالُ لهـا: نحـن نجعـل الطفـل الـذي يعضهـا كل مـرة يتمضمـضُ ويغسـلُ فمـه - وحسـب! زاعميـن أن هـذا سيجعله يمـل العـض مـع الوقـت!

أمـا شـرعًا.. فإنـه لا يجـوز للوالديـن تـرك الصغـار الذيـن في ولايتهـم، يتعرضـون للعـراك المـؤذي مـع إخوتهـم أو أقرانهـم أو مـن أي إنسـانٍ مهمـا كانـت مرحلتـه العمريـة، وهـم يعلمـون، دون تدخـل لحمايتهـم بمـا ينـاسـب الموقـف والطـرف المعتـدي وموقعـه مـن التكليـف والمحاسـبة وغيرهـا، لأن تـرك الوالديـن لهـذا الواجـب يخالـف حقـوق الولايـة الشـخصية علـى الطفـل، بشـكل أوضـح: يخالـف بنـد الحمايـة فيهـا.

ثـم فيمـا يخـص قصـة الروضـة، فمـن قـال أن هـذا الإجـراء سيجعل الطفـل يتعلـم مـن خطئـه ويتوقـف عنـه؟؟!! ألـم يبلـغ هـؤلاء أن بعـض الأطفـال يكـررون الخطـأ لاسـتصعابهم الإقـرار والاعـتـراف بـه بالرجـوع عنـه؟؟ ثـم وإن ضربهـا وإن شـد شـعرها؟ وإن ركلهـا في بطنهـا؟ وإن باغتهـا بحجـر في رأسـها أو قلـم رصـاص في عينهـا؟ هـل سـتجعلونه يغسـل يـده ورجلـه كذلـك والقلـم الرصـاص ربمـا؟

ما أسهل هذا العقاب منزوع التأديب! والأولاد أصلًا يحبون الماء! ثم هل مثلًا سيربطون له هذا الفعل بكون أن الكبار كذلك يتمضمضون بعد ذنوب اللسان لأن الذنوب تنزل مع ماء الوضوء؟

كلا.. فأنتم تفعلون مع الطفل ذلك (ليمل من الخطأ) وتتفادوا تعنيفه أو إشعاره بالألم النفسي الناجم عن ردعكم له بشكل أقوى من هذا؛ ولا تفعلون ذلك ليندم على خطئه ويشعر بالوخز المناسب للتزكي تربويًّا! وهذا مثال جديد يبين بوضوح الفرق بين التربية والترويض، الذي تكلمنا عنه في فصول مقدمة الكتاب، والله المستعان على ما يصفون.

وبشكل عام، عند حدوث شجار أو عراك أو اشتباك بين الصغار من نفس مرحلة الرضيع أو قريب منها، فلنا هنا ٣ حالات:

١- اشتباك بغير عنف، مثال: لقد أخذ دوري في اللعب، أو لا أريد أن ألعب معك، أو لقد أخفى أغراضي، أو أريد أن أبدأ أنا أولًا، أو يريد أن يأخذ لعبتي معه.. إلخ، والرضع الصغار يعبرون عن ذلك بأفعال لا أقوال بالطبع: يغضب أو يبكي أو يضرب أو يشد اللعبة.. إلخ، ونفهم بطريقتنا لمراقبتنا للموقف.

الحل:

- مع الرضع الصغار: رد الحق لصاحبه فيهم، فمثلا صاحب الحق في الدور أو الأغراض هو الأحق بهم - وراجعوا فقرات «العدل بينهم في الحقوق» لمزيد أمثلة، ثم إلهاؤهم بشيء لئلا يحتدم الموقف أكثر، والتجاهل أحيانًا إذا لمسنا أن الأمر بسيط ويحسنون التعامل معه ببراءة وتفاعل صحي.

- مع الرضع الكبار: بالإضافة إلى ما سبق: نعلمهم حل المشكلات البسيطة دون تشاحن وغضب وأنانية ونصبر على الثمرة فلازلنا في أول الطريق، ونغرس فيهم قيم التعاون والإيثار والتغافل: لا نتشاجر لئلا يظفر بنا الشيطان يا أولاد ويضيع علينا

أوقاتنا السعيدة، أو المسلم يحب الخير للغير يا حلوين.. إلخ، دون إجبار للطفل بالطبع على بذل أي من حقوقه لأقرانه كما قلنا سابقًا، مجرد تشجيع وحث وغرس للقيم والفضائل بتكرار - وسنقرأ التفاصيل في البناء الأخلاقي للرضيع - ونتغافل عن رد فعلهم قليلًا بعدها.

وإن لم يكن بين الصغار صاحب حق: نعلمهم الاقتراع وتقبّل النتيجة[1]، ولقد عودت صغاري على هذا منذ نعومة أظفارهم، حتى صارت إحدى وسائلهم التلقائية لحل المشكلات المناسبة لها.

ويترتب عليها المزيد من التدافعات الاجتماعية الصحية بينهم والتي تؤسس فيهم القيم أكثر وأكثر، كتقبل رزق الله والحب لغيري ما أحبه لنفسي وأننا لن نكسب على الدوام.. إلخ.

فاغرسوا وانتظروا أوان الحصاد وأبشروا.

٢- اشتباك بعنف، وارد من الرضع الصغار والكبار، مظاهره قد تتسم بالقسوة والشراسة، كالعض أو القذف بأداة صلبة أو شد الشعر أو خربشة البشرة أو القفز فوق البطن أو دفعه لأخيه بقوة فيرتطم بالأرض.. إلخ، قد يحدث لكن هذا ليس السمة الغالبة لهذه المرحلة - غالبًا.

الحل:

- مع الرضع الصغار: إبعادهم عن بعض مؤقتًا (فصل القوات) هو الحل الوحيد، فنتدخل فورًا دون تباطؤ ونحجز بينهما ولا ننتظر وقوع ضحايا! بجانب الإلهاء، مفيد جدًا في تلك المرحلة.

- مع الرضع الكبار: بالإضافة إلى ما سبق: ننبه الطرف العنيف لخطورة أفعاله

(١) والقرعة من المسائل الشرعية التي لها أحكامها ولا حرج فيها بشروطها.

وأنه لن يحب أن يتعرض لمثلها، وإن كررها يُحرم من اللعب مع أقرانه، وإن كررها عنوة يؤدب بما يناسب تطور نموه الإدراكي والنفسي كما فصلنا من قبل.

وفي كلا الموقفين - بعنف أو بغير عنف - لا ننتظر أن يشتكوا ويطلبوا منا التحكيم بينهم، فإن شهد الوالدان أو أحدهما ظلمًا أو خطئًا أو منكرًا واضح النكارة وسكوته عنه يؤدي إلى تمادي المخطئ، فلا يسعه إلا تغييره بأدوات تغيير الخطأ، بحسب الموقف ومتطلباته وإدراك الصغار.

قال النبي ﷺ: «مَن رَأَى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضْعَفُ الإيمانِ»(١)، وقال أيضًا: «لا أشْهَدُ علَى جَوْرٍ»(٢).

والأمر أشد إذا لجأ إليَّ الصغير لأنصفه وأعطيه حقه، فكيف بربكم أقول له «اذهب من هنا» أو «حل مشاكلك معه بنفسك»، فأين قولة أبي بكر حين تولى الخلافة مباشرة: «الضعيفُ فيكم قويٌّ عندي حتى أُرجِعَ عليه حقَّه إن شاء اللهُ، والقويُّ فيكم ضعيفٌ حتى آخذَ الحقَّ منه إن شاء اللهُ»؟

ولماذا يزعمون أن هذا يتعارض مع أسس تعليم الأطفال حل المشاكل ذاتيًّا؟ بل متى سيتعلمونها إن لم نبدأ ذلك نحن أولًا عند المواقف الأولَى؟ أم أن المطلوب أن يكتشفوا ذلك الرشد أيضًا بأنفسهم بالتجربة وحدهم دون تدخل من الكبار بأي توجيه - كما توصي فلسفات الغرب التعليمية (ومن بينها فلسفة مونتيسوري)؟ - وأين دور المربي المعلم سبحان الله؟ متى يتدخل يومًا ما؟

أنا كمربية حين أحكم بين الصغار بالعدل أعلمهم بشكل نظري وعملي كيفية حل مشاكلهم بأنفسهم بالفعل، وأعلمهم قيمة العدل وأهميته لحياتنا وعلاقاتنا، وأعلمهم أني لن أخذل لجوءهم إليّ ما حييت وسيجدون عندي العدل دوما بإذن

---

(١) مسلم٤٩.
(٢) البخاري (٢٦٥٠).

الله، بالتالي أربطهم بي نفسيًّا أكثر وأغرس فيهم مزيدًا من الثقة تجاهي وتجاه معايير دينهم، ثم إن هذا من الخذلان لابني حين أرده خائب الرجاء، وقد قال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله»(١).

فلنُجِبْ نداءهم حين يفزعون إلينا يريدون الإنصافَ وتفعيلَ ذراع القانون في البيت، بل فلنتدخل من تلقاء أنفسنا إذا شهِدنا ظلمًا واقعًا على أحد منهم كما قلنا، حتى لو لم يكن ابنك هو المظلوم، نحكم بالعدل بينه وبين أقرانه: ﴿.. فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ..﴾ [المائدة:٤٨]، ونحببهم في الصفح والتغافل أكثر، إلا في المواقف التي ليس فيها هدر للحقوق، فلا حرج ألا نتدخل مطلقًا، بل نراقب في صمت ونضحك، وهي التي تعتبر من الشجار العابر البريء كما في النقطة التالية.

٣- الشجار العابر، هو الطبيعي نوعًا ما في مرحلتهم ويعتبر سمة من سمات التدافع الاجتماعي الصحي بين الأقران ليختبر كل واحد مهاراته الاجتماعية مع الآخر ويتعلم حدوده ومواضع الحقوق والواجبات تجاه الآخرين وما إلى ذلك بما يطور توافقه الاجتماعي.

مثلما قد نرى مثلًا الرضع الأصغر يتنازعون على تبادل اللهاية، أو يتجاذبون لعبة ما أو زجاجات رضاع أو شيئًا ما سقط في أيديهم كالكنز الثمين.. إلخ.

أو مثلما نرى بين الرضع الأكبر: ماماااا محمد ينظر إليّ، أو ماماااا محمد لا ينظر إليّ، أو ماماااا عُمَر سبقني!، أو ماماااا أسمع صوت أنفاسه، أو ماماااا سلمى تقلدني.. إلخ، مأجورة حبيبتي بإذن الله وبشر الصابرين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الحل:

لا بأس هنا بالطبع أن نتركهم دون تدخل إلا عند اللزوم كما ذكرنا من قبل، فنراقبهم بحواسنا دون إشعارهم باقتحامنا المباشر لعالمهم لأجل مراقبتهم، ونتدخل

(١) مسلم٢٥٦٤.

مباشرة فقط عند أي من الموضعين السابقين، ولا مانع أن نوصيهم مرة بحسن السلوك وعدم الشجار، ومرات نتغافل.

وربما حتى نهاية مرحلة الرضيع لا يكون بعض الأطفال قد جعلونا نعاني من تلك المشكلة بعد، فتبدأ في الظهور ربما بعد مرحلة الفطيم.. وقد يكون العراك عند بعضهم أظهر في مرحلة الطفولة الثانية (كتابنا اللاحق بإذن الله)، فالأمر تابع للفروق الفردية وتطور النمو.

١٤. غيرة الرضيعة الأنثى من أمها على أبيها كغيرة الضرة من ضرتها

نعم.. كما قرأتم، وربما البعض منكم شاهد مقاطع مرئية مضحكة عن هذا الأمر، وهي مسألة بشكل عام ليست ذات شأن كبير إن كانت عابرة وعفوية وتم تقويمها سريعًا، أما تعامل الأهل حاليًا معها للأسف فقد فاقَم من آثارها مما جعلها تحتل مكانًا ضمن المشكلات، وتناوُلِها بالتفصيل سيكون في فصل «ملء الرضيع»، عند فقرات التربية الجنسية الشرعية للرضيع.



ثانيًا: مشكلات معاصرة غير عادية، فيها قلق بالغ على نمو الطفل بشكل سليم:

(١) مشكلة ظهور بعض الحول في النظر

هو مصطلح يشير إلى اختلال محاذاة العينين، ومن المهم أن يتم اكتشافه وعلاجه مبكرًا حتى يتطور الإبصار في كلتا العينين بشكل صحيح، إذا تُرك الحَوَل دون علاج، فقد يؤدي إلى «كسل العين» أو «العين الكسولة».

الحل:

الاهتمام بمتابعة جودة عمل عيون رضيعك معًا كفريق واحد ومحاذاة العينين

معًا، وعلى الرغم من أن تطور مهارات العمل الجماعي بين عيني الرضيع يستغرق بضعة أشهر إلا أنه يمكننا ملاحظة الخلل مبكرًا، فإذا شعرت الأم أن إحدى العينين غير متوازية مع الأخرى باستمرار أو لا تتحرك بالتزامن مع العين الأخرى، فهنا ينبغي أن تستشير أطباء العيون سريعًا.

(٢) مشكلة تأخر النطق واللغة

قلنا في سمات التطور اللغوي للرضيع في فصل سمات المرحلة أن الرضيع يبدأ في النطق بناءًا على حاسة السمع، فيستمع إلى كل ما يحيط به ويتعلم منه، وكرد فعل طبيعي يبدأ في التحدث بكلمات غير مفهومة ويتدرج حتى يستطيع قول بعض الجمل البسيطة.

وأن السن المعتادة لبدء نطق الطفل ببعض الكلمات هو نهاية العام الأول من عمره، ويتحسن مع بداية السنة الثانية، ويختلف هذا من طفل لآخر وفقًا للعوامل المحيطة ووفقًا لقدراتهم.

وأن في بعض الحالات قد يظهر تأخر نطق الأطفال وهذا الأمر لا يدعو للقلق إلا إذا زادت مدة هذا التأخر أو اقترن بأمارات تأخر نمو أخرى.

وأسباب تأخر نطق الأطفال حين نتأمل جانبًا منها، نوقن أكثر وأكثر كيف أن دين الإسلام هو دين الحق وأن رسوله هو رسول الحق الذي أرسله رب العالمين الذي خلق النفس وسواها وقدر فهدى وعلم نبيه سبل العناية بها وتربيتها على أكمل وجه حتى تنمو وتربو بسواءٍ يُعينها على أداء رسالتها المطلوبة منها في الحياة وتدخل جنته بسلام.

أسباب تأخر النطق واللغة

١-وجود مشكلة في السمع:

حاسة السمع هي العامل الأساسي والمحرك لعملية النطق، فقد يشير تأخر نطق الأطفال لفترة طويلة إلى إصابة الطفل بمشكلة في السمع، مثل: التهاب الأذن الوسطى المتكرر.

٢- عدم تحدث الوالدين مع الطفل:

فمن الطبيعي أن يتأخر نطق الطفل إذا كانت الأجواء من حوله صامتة كصمت القبور ولا يتحاور معه أحد إلا قليلًا وبخاصة الوالدين، وتذكروا كيف استعرضنا مرارًا وتكرارًا حوارات النبي ﷺ مع الوليد ثم الرضيع وبأنماط الجمل والكلمات التي تناسب المرحلة العمرية وعنايته ببقية أسباب النمو اللغوي السليم.

٣- تأخر التطور العقلي لدى الطفل:

ويحدث هذا بسبب وجود مشكلة في النمو الطبيعي لعقل الطفل وقد يتعلق الأمر بالعوامل الوراثية.

٤- الإصابة ببعض الأمراض التي تؤثر على تطور الطفل:

مثل: مرض التهاب السحايا، وضمور العضلات، وكذلك مرض التوحد، والذي سيأتي تفصيله.

٥- الإصابة ببعض الأمراض التي تؤثر على منطقة النطق:

مثل إصابة الطفل «باللسان المربوط» حيث يولد الطفل وهو مصاب بهذا المرض فيكون اللسان مربوطًا لأسفل من الأمام عبر حزام نسيجي وتتطلب هذه المشكلة إجراء عملية بسيطة لجعل اللسان يتحرك بشكل طبيعي، كما أن هناك مشكلات أخرى يمكن أن تصيب فم الطفل وتؤثر على النطق، مثل: **الشفة المشقوقة والحلق المشقوق.**

وعلاج تأخر النطق واللغة يكون حسب سبب المشكلة بطبيعة الحال:

١- فلو المشكلة نتيجة لعوامل لخارجية، مثل: قلة تحدث الأهل مع الطفل؛ يكون العلاج من خلال استخدام أساليب التخاطب المناسبة.

٢- ولو المشكلة نتيجة لأمراض عصبية ونفسية، مثل: التأخر العقلي، أو التوحد وغيرها؛ يكون العلاج من خلال التأهيل النفسي للطفل وعلاجات خاصة أخرى.

٣- ولو المشكلة بسبب الأمراض العضوية، فنحتاج لتشخيص المرض أولًا ثم معالجته ليتمكن الطفل من التحدث بشكل طبيعي.

(٣) مشكلة ظهور بعض الاضطرابات السلوكية العصبية

أحيانا تكون لدى الرضيع شدة حساسية وتأثر نفسي وانفعالي بعوامل خارجية سلبية - كظروف حضانة الرضيع الصعبة وسوء معاملة الأهل - أو عوامل داخلية - كالجينات والاستعداد الوراثي - بشكل قد يؤدي لظهور أمارات اضطرابات السلوك التي قد تشير لوجود خلل عصبي.

من ذلك: اضطرابات طيف التوحد AUTISM واضطرابات فرط الحركة والتشتت ونقص الانتباه والتركيز ADHD.. ولنا كلام عنهما بشكل مستقل في فقرات تالية، فنظرًا لجهل بعض الأهل بحقيقتهما، أو عدم اقتناعهم بكونهما اضطرابات عصبية، أو جهلهم بحقوق واحتياجات المرحلة، يتم التعامل مع اضطرابات السلوك تلك إما بسطحية وعدم اكتراث، وإما بعنف يفاقم من آثارها السلبية، ظنا منهم أنها ربما تكون أمارات دلع وخجل وسوء أدب من الرضيع مع أهله والمجتمع، تستلزم منهم شدة!

فمثلا: بعض الأهل يضربون الطفل عند البكاء المستمر دون محاولة معرفة السبب أو عند رفض النوم أو عند رفض التبسم لخالو وخالتو حين يسلمون عليه، وقد يصفون الأهل الطفل بـ «العيل النمرود عديم الأدب»، وبعض الأهل يعاقبون

الطفل بسبب كثرة حركته وعدم تركيزه واندفاعيته الحركية، فيتخذون ردَ فعل تأديبيًا قبل أن يتحققوا أولًا من عدم وجود خلل عضوي يعيق الطفل عن السلوك الصائب، بينما الأمر قد يكون بحاجة للعرض على مختص لعلاجه، لا للتأديب.

فكثيرا ما نسمع عن مشكلات سلوكية مثل فرط الحركة والتشتت ونقص الانتباه والتركيز والاندفاعية السلوكية - أي ارتكاب الفعل قبل التفكير - وسوء تواصل اجتماعي ورفض الطفل للمسه أو احتضانه وانسحابه لعالمه الخاص وغياب تعبيرات الوجه والابتسامة والتبلد والعنف والتخريب وصعوبات التعلم والتواصل مع الآخرين.. إلخ، فنصف الطفل بسوء الأدب دون تمهل.وربما نفعل النقيض من ذلك، حين يختلط علينا الأمر ونتخيل أن ظهور بعض تلك الأعراض يعني أن الطفل مصاب بالتوحد أو باضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه والتركيز ADHD. وربما غيرهما من الأمراض النفسية أو العصبية، بينما الحقيقة أنه أحيانًا قد يكون الأمر مجرد عَرَض عابر بحاجة لعلاج جزئية معينة فقط ويزول، أو مظهر سلوكي معين بسبب الفروق الفردية في النمو بين الأطفال أو ظروف البيئة حول الطفل وحسب، وليس شرطًا أنه دليل على وجود اضطراب سلوكي حقيقي من أي نوع، وحسم ذلك الأمر يحتاج لمراجعة مختص بلا شك، فسوء التشخيص والتعجل فيه يتسبب في سوء علاج المشكلة وربما ضاعف من أعراضها.

فينبغي على الأهل:

- معرفة أن هناك فروق فردية في النمو من طفل لآخر ومن مرحلة عمرية شهرية لأخرى.
- دراسة السمات الاعتيادية لكل مرحلة، بشكل عام، لا لأجل التشخيص إنما لأجل معرفة متى نقلق ومتى نتريث دون قلق.
- معرفة احتياجات وحقوق كل مرحلة عامةً وطفلي خاصةً، لأن تلبيتها

وإشباعها غالبًا يحصِّن الرضيع من كثير من اضطرابات السلوك وصعوبات التعلم وغيرها بحول الله وقوته.

ولكي نتبين الحق من الباطل في هذه الاضطرابات السلوكية وعلامات تأخر النمو، نتناول مشكلة الخلل أو التأخر في تطور النمو بشكل عام أولًا وبعض أماراته، ثم بعدها نتناول نماذج معاصرة من اضطرابات تطور النمو العصبية: طيف التوحد AUTISM/ واضطراب ADHD.

(٤) الخلل أو التأخر في تطور النمو

بعضها هواجس وهمية وبعضها أعراض لخلل موجود بالفعل ويحتاج مراجعة أهل اختصاص لتداركه مبكرًا.

فمن الهواجس الوهمية الشائعة: «طفلي لم يتدحرج بعد على جانبيه»، أو «طفلتي تجاوزت السنة ولم تمشِ»، أو «طفلي لا يتجاوب معي كابن أختي»، أو «عمر طفلتي سنة لم تنطق كلمة واحدة سليمة بعد».

ومن الأعراض المقلقة: «طفلي تجاوز السنة ولا يلتقط الألعاب بيديه بعد»، أو «طفلي بلغ العشرة أشهر ولا يبتسم لنا»، أو «طفلي بلغ السنة ونصف ولا ينطق بأي حرف ولا يلتفت إلى الصوت».

ونظرا لجهل بعض الأهل بسمات المرحلة وتطور النمو الطبيعي كما قلنا، يتعاملون أحيانًا مع هذا التأخر بشيء من القسوة ظنا منهم أن الرضيع يتكاسل أو يتمرد على التعليمات وحسب.

فمثلًا: بعضهم يجبر الطفل بقسوة على الوقوف أو المشي لو تأخر قليلًا، أو يضربه لإجباره على الإمساك باللعبة في كفه مدة أطول وعدم إلقائها مرارًا وتكرارًا، أو يصرخ في وجهه معنفًا عندما لا يلتفت لمصدر الصوت كلما نادى عليه، بينما الأمر

قد يكون تأخر نموٍ طبيعي لا قلق من ورائه لأن الأطفال ينمون بوتيرة خاصة بهم كما ذكرنا، وليس شرطًا أن يتبعوا السمات المرحلية الدقيقة المبثوية في كتب مراحل النمو التقليدية، وقد يكون تأخر نمو مقلق غير طبيعي يحتاج لمراجعة طبيب مختص.

الحل:

لن يضر الطفل ولا الأهل شيئًا، الكشف الطبي لدى المختصين، عند ظهور أي أمارات مقلقة عن النمو، للاطمئنان مبكرًا.

أولًا: أمارات خلل تطور النمو عند الرضيع بشكل عام:

في الشهر الأول

عدم قدرة الرضيع على النوم على بطنه، ميل يديه إلى الجنب والخلف مثل وضعية الطائرة بشكل دائم عند نومه على بطن، ارتخاء أو تصلب جسمه مما قد يشير إلى اضطرابات في العضلات، بكاؤه لساعات طويلة دون سبب أو مبرر، عدم قدرته على رفع رأسه أو تحريكه من جانب لآخر، تعبه سريعًا من أي نشاط بسيط، عدم قدرته على إغماض عينيه عند التعرض للضوء الساطع، ميل رأسه وجسمه إلى جانب واحد، عدم وضع الطفل رأسه على الأرض عندما يكون مستلقيًا على بطنه، عدم ازدياد وزنه بشكل سليم.

من الشهر الأول إلى الثالث

عدم وجود تواصل بصري للرضيع مع الأهل، وجود تشوهات في الجمجمة، نوم الرضيع لساعات طويلة كما في مرحلة الوليد والأسابيع الأولى من حياته، وجود كدمات بلون أزرق في أجزاء مختلفة من جسمه، عدم إصداره لأي ضجيج، عدم تفاعله مع الضوضاء المختلفة التي تدور حوله، تعصبه ورفضه لتناول الطعام.

من الشهر الثالث إلى السادس

عدم قدرة الرضيع على رفع رأسه بعد، لا يحاول الإمساك بالأشياء أو تفشل محاولاته في الإمساك بها، لا يتواصل مع البيئة المحيطة به، لا يصدر أصواتًا ولا يلفظ المقاطع الصوتية السهلة، لا يحاول التدحرج من البطن إلى الظهر والعكس.

من الشهر السادس إلى التاسع

لا يستطيع الجلوس بشكل مريح حتى عند دعمه، لا يصدر أصواتًا أو يحاول التواصل مع البيئة، لا يركز على الأشياء أو الصور، لا يزال غير قادر على التدحرج من البطن الى الظهر والعكس.

من الشهر التاسع إلى الثاني عشر

يفقد الرضيع التوازن بسهولة وبشكل متكرر، لا يزال غير قادر على لفظ المقاطع، لا يحافظ على التواصل البصري مع المحيطين به، لا يحبو أو لا يحاول الوقوف، لا يهتم باللعب.

من الشهر ١٢ إلى ١٨

عدم قدرة الرضيع على السير خطوة واحدة حتى سن سنة ونصف، أو عدم الاهتمام بالألعاب المختلفة، أو البكاء لفترات طويلة، أو عدم التركيز أثناء قراءة كتاب أو تصفح الصور، أو استخدام جهة واحدة من الجسم دون الأخرى.

من الشهر١٨ إلى ٢٤

لا يهتم بالألعاب الجديدة ولا يستخدمها بشكل صحيح، ولا ينجح في ربط كلمتين لتكوين جملة أو يكون قليل الكلام، ولا يتواصل من خلال اللغة حيث لا يسأل ولا يطلب أي شيء، ولا يستجيب عند التحدث معه ولا يحاول إجراء محادثة.

وبالطبع عدم التبسم يعتبر من أبرز العلامات.

ثانيًا: نماذج شائعة من اضطرابات تطور النمو العصبية - السلوكية:

(١) اضطراب طيف التوحد

ما وصفه؟

هو من أبرز أمارات التطور غير الطبيعي للنمو العصبي عند الرضع أو من هم أكبر، فبعض الأطفال يتطورون بشكل سليم حتى سن عام ونصف إلى عامين، ثم يتوقف التطور الطبيعي أو يبطئ، فيفقدون جزءًا من المهارات المكتسبة، مما يسبب مشاكل اجتماعية وسلوكية وتواصلية.

متى تظهر علامات التوحد؟

التوحد يؤثر على أجزاء من المخ تتحكم في العواطف وحركات الجسم، لهذا تظهر حركات غير متناسقة من الطفل بيديه وقدميه، وبعض أطفال التوحد يمتلكون رأسًا أكبر من المعتاد ربما بسبب مشكلة نمو الدماغ، وتظهر تلك العلامات مبكرًا.

ورغم صعوبة تشخيص التوحد بشكل قاطع قبل عمر السنتين، إلا أنه تظهر أعراضه غالبًا بين عمر السنة والسنة والنصف، وبعض علاماته قد تظهر بشكل رئيسي أول ٣ سنوات من العمر وبعض الأطفال قد تظهر عليهم منذ الولادة.

ويعد تشخيص المرض بعد بلوغ السنتين ونصف من العمر موثوقًا جدًا، ولا احتمال للخطأ فيه، ومع ذلك، لا يتم تشخيص معظم الحالات في هذه المرحلة، وقد يصل الطفل للمراهقة دون تشخيص للأسف، بسبب عدم معرفة الآباء موعد ظهور علاماته وكيفية ملاحظتها، وهناك عدة اختبارات لقياس نسبة التوحد منها (كارز CARS وجيليام)، يتم تطبيقه على الطفل في مراكز الطب النفسي والتخاطب، لكن الاعتماد الأساسي يكون على الأعراض الظاهرة.

ويساعد الكشف المبكر في إجراء العلاجات المكثفة اللازمة والاستفادة من مرونة

الدماغ في مرحلة الرضيع والطفولة واستجابتها بشكل أفضل من المراحل الأكبر؛ للتخفيف من الأعراض والمشاكل المتعلقة بالتوحد.

فيوصي الأطباء بدء العلاج في أقرب وقت حتى لو كان الوقت متأخرًا عن المطلوب.

لو ظهرت الأعراض في مرحلة الرضيع، فعلى الأغلب يكون السبب الوراثي هو المسئول، فيكون ناتجًا عن خلل في جين يجعل الطفل أكثر عرضة للإصابة بالتوحد.

قلة من الأطفال في السنة الأولى يظل تطور نموهم ومهاراتهم في البداية طبيعيًّا فيما يبدو للناس ثم تظهر الأعراض بشكل فجائي - فترة ارتداد - بين الشهرين الثامن عشر والرابع والعشرين (عام ونصف إلى عامين) حيث تتراجع تلك المهارات، فيصبحون فجأة انطوائيين أو عدوانين أو يفقدون المهارات اللغوية التي اكتسبوها بالفعل، وقد تصل إلى مراحل المراهقة أو أكثر.

وبالنسبة لما فوق عمر الـ٣ سنوات، تلعب عوامل بيئية أخرى في ظهوره، كالتعرض للمواد الكيميائية أو الأدوية والتعرض للشاشات لفترات طويلة والأغاني ذات الإيقاع المتكرر وغيرها.

وهذا يعلمنا تعاهُد الرضيع بالرقية ليل نهار، والاهتمام بأمر إتمام الرضاع لما فيه من مناعات طبيعية ضد كثير من الأمراض، بجانب ما يوفره من نمو نفسي عميق يعزز من مهارات التواصل النفسية واللغوية والاجتماعية والسلوكية، فربما يكون الرضيع متوحدًا لأسباب جينية والأم لا تدرك ذلك، ثم ينجبر تلقائيًّا بحول الله وقوته بفضل الرقية وتمام الرضاع، وما ذلك على الله بعزيز.

فبشكل عام أسباب الإصابة باضطراب طيف التوحد:

(مزيج من العوامل الجينية والبيئية)

- الجينات والعوامل الوراثية، ويمكن أن تضاعف من الإصابة.

- عمر الوالدين، ويمكن لكبر سنهما أن يضاعف الإصابة.

- العوامل المؤثرة خلال الحمل، وتتضمن بعض الأدوية، والكحول، والمواد الكيميائية، وإصابة المرأة الحامل بعدوى فيروسية مثل الحصبة الألمانية، أو تعرضها للنقص الحاد في فيتامين د والزنك والميلاتونين، أو إصابتها بالحمل السُكرى، أو تعرضها للضغوطات والإجهاد الذين تتعرض لهم الأم الحامل.

الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية الخامس DSM - 5، يوضح أن اضطراب طيف التوحد ليس أنواعًا كما كان معروفًا من قبل، وإنما كله كيان واحد لابد أن يحتوي على معايير اجتماعية ثلاثة:

١ - العجز عن تبادل المعاملة الاجتماعية والعاطفية.

٢- العجز في السلوكيات التواصلية غير اللفظية.

٣- العجز في تطوير العلاقات الاجتماعية وفهمها والحفاظ عليها.

بالإضافة إلى عدد من ٢ إلى ٤ من المعايير السلوكية الآتية:

١ - الكلام المتكرر والحركات المتكررة:

- كالقيام ببعض الأشياء بشكل مكرر، ما يسمى بالسلوك النمطي Stereotypic behavior، مثل: تكرار بعض الكلمات أكثر من مرة، والمشي السريع ذهابًا وإيابًا بتكرار، وحركات متكررة من التأرجح أو الدوران في نفس المكان ولف الأصابع، والصراخ، والمشي على أصابع القدم لفترات طويلة، ورفرفة اليدين.

- لفظ صدوي أي ترديد صوت الآخرين وكلامهم دون فهم معناه Echolalia. كتكرار الأسئلة بدلًا من الإجابة عنها.

٢- الإصرار على نفس الشيء فيما يسمى الجمود، كالإصرار على ارتداء ملابس معينة أو طعام معين أو لعبة معينة.

٣- الاهتمامات المقيدة، يصب الطفل كامل تركيزه على أمر معين، أو يتعمق في الاهتمام بتفاصيل شيء معين ولا يلقى بالًا للأمور المحيطة (يفتقد النظرة الشمولية)، مثال: الاهتمام بنوع حيوان معين.

٤- الاستجابة غير العادية للمدخلات الحسية، وجود حساسية شديدة للروائح، وبعض المشاهد العادية، والأصوات العالية.

وقد تظهر أعراض ومشكلات أخرى، منها:

- ضعف التواصل البصري وتجنب التواصل بالعين أو الجسد.
- التأخر في اكتساب اللغة وتطورها، مثل: عدم القدرة على بدء أو إكمال المحادثة.
- توقف عن استخدام كلمات محددة للتواصل مع والديه، مثل ماما أو بابا.
- مشاكل في استخدام الضمائر، مثل: قول أنا بدلًا من أنت.
- عدم الاستجابة لابتسامة الوالدين أو تعابير وجوههم.
- عدم الإشارة أو التقاط الأشياء من الوالدين.
- عدم الاستجابة لأسمائهم عند المناداة عليهم أو الاستجابة للأصوات.
- التحديق ورؤية الأشياء من زوايا غير عادية.
- التوقف عن الاستجابة لأمور كان الطفل يتفاعل معها كتلويح اليدين وغيرها.
- يُفضِل الطفل البقاء وحيدًا، وعدم الانخراط في البيئة المحيطة.
- وجود مشكلات في فهم الكلام والإيماءات.

- عدم استخدام الإيماءات من تلقاء نفسه.
- القيام بأنشطة قد تسبب له الأذى، مثل العض أو ضرب الرأس.
- مشكلات وصعوبة في التكيف مع تغييرات الروتين أو الروتين الجديد أو الانتقال إلى نشاط جديد، فيضع إجراءاتٍ أو طقوسًا معينة، وينزعج ويحزن بشدة عندما يطرأ عليها أدنى تغيير.

قد تظهر بعض هذه الأعراض على الطفل ولكن دون اكتمال المعايير السابق ذكرها في الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية وهنا يمكننا أن نطلق عليها سمات التوحد؛ أي: بعض الأعراض التي تظهر على الطفل والتي قد تزول وتختفي تمامًا مع الوقت بإدماج الطفل في المجتمع وتشجيعه على التواصل والتعبير وبتشتييته وإلهائه عن أي سلوك نمطي يقوم به.

أعراض التوحد بتقسيم مرحلي – بالشهور:

٦ أشهر: لا يبتسم، ولا تظهر علية تعبيرات دافئة أو مبهجة.

٩ أشهر: عدم الاستجابة للأصوات من الأمام أو الخلف أو تعابير الوجه أو الابتسامة.

١٢ شهرًا:

- لا يستجيب لصوت والدته.
- لا يستجيب عند مناداته باسمه حتى لو كررنا، ولكن قد يستجيب للأصوات الأخرى.
- عدم وجود الإيماءات، مثل: التلويح أو الإشارة لشيء ما.
- عادة يكونون غير اجتماعيين في هذا العمر، ولذلك يمكن اكتشاف علامات

التوحد أحيانًا من خلال تواصل الأطفال مع العالم الخارجي.

۞ لا ينظر للناس في أعينهم، ولا ينتج فقاعات لعاب في فمه.

۞ لا يبتسم ولا يستجيب للإشارات الاجتماعية من البيئة.

١٦ شهرًا: لا ينطق بأي كلمات مفردة أو غيرها.

١٨ شهرًا:

۞ لا يستطيع نطق عبارات ذات معنى من كلمتين، غير التقليد أو التكرار. ولا يلعب ألعاب التخمين.

۞ لا يشير إلى ما يحتاجه بيده بل يمسك بيد الأم ويشير بها أو يسحب الأم للمكان الذي يريد منه الشيء.

٢٤ شهرًا:

۞ لا يبذل أي جهد للتعويض عن تأخر الكلام، على عكس الطفل الطبيعي الذي يعاني من تأخر في الكلام ويقوم بمحاولة الإشارة أو الإيماءات وتعابير الوجه لتعويض عدم قدرته على الكلام.

۞ يبقى منعزلًا.. ولا يكوّن جملًا من كلمتين، ويفقد المهارات اللغوية.

۞ لا يبدي اهتمامًا عندما يشير شخص إلى شيء مثل طائرة تحلق فوق رأسه.

۞ بعض الأعراض الجسدية: مشاكل في الجهاز الهضمي، كالإمساك أو الإسهال أو مشاكل في النوم.

۞ فقدان اللغة والمعالم الاجتماعية بين عمر ١٥ و٢٤ شهرًا، ما يسمى: الانحدار Regression.

يفضل زيارة الطبيب المختص «الطبيب النفسي أو طبيب التخاطب» عند ملاحظة

أي من الأعراض السابقة، فكما قلنا: التدخل المبكر يؤدى لنتائج أفضل وأسرع ويعمل على تقليل المضاعفات المترتبة على إهمال المرض.

علاج أعراض التوحد؟

سمي علاج اضطراب طيف التوحد بـ «علاج أعراض التوحد» لأنه لا يوجد علاج للمرض إلى يومنا هذا، فعلاجه قائم على أساس الحد من أعراضه وتحسين الحالة العامة للمصاب، إلا أنه لو تم اكتشافه مبكرًا قد يتم منع أعراضه تمامًا، فيما عدا ذلك، يتم تقويم أعراضه، وفق العلاجات الآتية:

١ - العلاج السلوكي

يساعد الطفل على التواصل والتطور جسديًّا والتعامل مع الآخرين بسهولة أكبر، ويشجع النشاطات الإيجابية ويستبعد السلوكيات السلبية، وهناك نهج آخر يعمل على العواطف والمهارات الاجتماعية من خلال اللعب ببطاقات الصور والوسائل البصرية الأخرى.

٢ - العلاج الدوائي

أدوية يمكن أن تساعد في معالجة بعض الأعراض، مثل: الأدوية التي تحد من مشاكل سلوكية خطيرة كالعدوانية، وإيذاء الذات ونوبات الغضب، وقد توصف مضادات للاكتئاب للأطفال لتخفيف بعض الأعراض النفسية.

٣- العلاج الحسي

الأطفال المصابون بالتوحد قد يكونون حساسين جدًا للروائح، والأصوات، واللمس، والذوق ومشاهد معينة، مثلًا: قد يشعرون بشعور سيئ نتيجة لتعرضهم للأضواء اللامعة جدًا أو عدم الارتياح من سماع قرع جرس الفسحة في المدرسة، ومساعدتهم بالعلاج الحسي يتم من خلال مواجهة هذه المحفزات الحسية، مما يحسن سلوكهم بشكل ملحوظ.

٤- العلاج اللغوي

عن طريق تدريبات لغوية يقوم بها طبيب أو أخصائي التخاطب تهدف لزيادة حصيلة الطفل اللغوية وزيادة قدرته على التعبير.

(٢) اضطراب فرط الحركة والتشتت ونقص الانتباه والتركيز ADHD

ما يزال السبب الحقيقي لهذا الاضطراب غير واضح، ولكن العوامل التي قد تكون مؤثرة: الجينات، البيئةَ، المُشكلات المُتعلقة بالجهاز العصبي المركزي في لحظات أساسية خلال التطور.

والاضطراب هنا له محوران أساسيان:

١. تشتت الانتباه.

٢. فرط الحركة والاندفاعية.

أولًا: محور تشتت الانتباه:

- الطفل سهل التشتت، يفتقد التفاصيل، ينسى ويفقد الأشياء، يتنقل من نشاط لآخر بشكل متكرر قبل إتمامه.
- صعوبة في الحفاظ على التركيز على مهمة واحدة أو تعلم شيء جديد.
- ملل بعد دقائق إلا لو كانت مهمة ممتعة.
- صعوبة إتمام الواجب المنزلي.
- لا يبدو أنه يستمع عند التحدث إليه.
- يتحرك ببطء، لديه صعوبة في معالجة أو فهم المعلومات بشكل سريع

ثانيًا: محور فرط الحركة والاندفاعية

۞ متململ في مكانه يصعب جلوسه أثناء الطعام أو أداء الواجب المنزلي أو وقت القصة.

۞ يتحدث بلا توقف.

۞ كثير ودائم الحركة في المكان ولمس الاشياء والعبث في كل شيء حوله أو على مرأى بصره.

۞ ينفد صبره سريعًا.

۞ صعوبة أداء المهام الهادئة.

۞ تعليقات غير لائقة، إظهار العواطف دون قيود، يتصرف بغض النظر عن العواقب.

۞ يقاطع حديث الآخرين وأنشطتهم.

۞ يندفع في الإجابة على السؤال قبل إتمام السؤال.

۞ لا ينتظر دوره.

والطفل الذي لديه معظم أو كل النقاط في كل محور يتم تشخيصه بالمرض.

وكلما انتبهنا لأعراضه وشخصناها بدقة وتفادينا أسبابه وعالجنا مشكلاته أو قللناها ما أمكن، كلما تفادينا تحَوَّل هذا السلوك لشكل مؤذ للنفس مستقبلًا في فترة المراهقة والبلوغ والتكليف، حيث نجد الشخص يلجأ لمضاعفة السلوك السيء - الذي كان يُعاقَبُ عليه وهو طفل بينما هو ليس سوء أدب إنما هو اضطراب سلوك يحتاج لعلاج لا عقاب - فيضاعِفُه لأجل أن يُعَوِّض نقص القبول الاجتماعي الذي تعرض له بسببه في الطفولة، فقد نجد الفتى يسرق أو يؤذي غيره أو يجعل من نفسه أضحوكة أصدقائه، كل ذلك للفت النظر والحصول على اهتمام الآخرين أو قبولهم.

إلا أنه لا يتم تشخيصه بدقة قبل سن ٥ – ٦ سنوات (باستمرار الأعراض لأكثر من ٦ أشهر وظهورها في مكانين مختلفين، كالمنزل والمدرسة، أي أن الأهل والمدرسة يشتكون منها لا أحدهم فقط) – بعكس اضطراب التوحد– لأنه مرتبط أكثر بمرحلة التعلم المدرسي والمهارات الاجتماعية الأكبر وتظهر أعراضه أكثر ضمن تلك المرحلة وممارساتها، فينتظر المختصون قليلًا ريثما يتابعون أكثر تطور مهاراته وسلوكياته في إطارها الاجتماعي المدرسي والأسري ونحوها، وهل هي طبيعية أم لا، فربما من سمات هذا الطفل المرحلية كثرة نشاطه وحركته واندفاعيته حسب طبيعته الفردية وتكون بنسبة طبيعية لا تصل لمرحلة الاضطراب السلوكي.

وعلى أية حال: تظهر أعراض هذا الاضطراب في محاوره الثلاث، قبل سن ٧ سنوات إذا ظهرت، فإن لم تظهر قبل هذه السن وظهرت فجأة عند سن ١٠، فهنا الأمر مختلف، لكن إذا ظهرت قبل سن ٧ سنوات ولم تعالج فغالبًا تمتد لسن المراهقة والشباب، ويمكن علاجها وتحسين أعراضها بإذن الله، فقط نادر والله لطيف بعباده.

إلا أننا نحتاج إلى الكلام عنه في تربية الرضيع، لنفرّق بينه وبين السلوكيات العابرة.

أولًا: الأسباب المؤدية للإصابة بالمرض.

ثانيًا: الأسباب التي تُظهِرُ أعراضًا مشابهة فتوقعنا في حيرة.

ثالثًا: الأعراض التي تظهر لمدة قليلة أو طارئة وليست دائمة.



أولًا: الأسباب المؤدية للإصابة بالمرض

١ – ٧٥٪ من أسبابه وراثية.

٢ – أي أضرار تصيب المخ في فترة الحمل أو أثناء الولادة أو في مرحلة الوليد كالعدوى والإصابات.

٣ – أسباب ترجع لخلل في الموصلات العصبية الكيميائية: زيادة نشاط الدوبامين مثلًا.

٤ – أسباب ترجع للخلل في التشريح العصبي: صغر حجم جميع مناطق الدماغ مقارنة بالأطفال الطبيعيين.

٥ – أسباب ترجع لخلل في الأنسجة العصبية: انخفاض في نشاط الفص الأمامي والمسئول عن الطلاقة اللفظية، والحفظ، والتسلسل الحركي، والتخطيط، والذاكرة العاملة المسئولة عن ربط مفهوم جديد بالأفكار السابقة والتي تسمح لنا بالتعلم، وانخفاض تدفق الدم إلى الفص الجبهي من المخ والأجزاء الخلفية من المخ وأيضًا المخيخ.

٦ – أسباب ترجع لخلل في النظام الغذائي كنقص أوميجا ٣ والإفراط في تناول الألوان الصناعية والمواد الحافظة.

٧ – أسباب بيئية: عوامل اجتماعية، الحرمان العاطفي لفترات طويلة، والأحداث النفسية المجهدة، والضغوطات العائلية، والانهيار العائلي، والفقر، واضطراب القلق العام لدى الطفل، (ويرجع لعدة أسباب منها: الأمراض المزمنة، والانفصال عن الأم، وإساءة معاملة الطفل).

بالتالي نؤكد مرة أخرى على ما قلناه في تربية الجنين، من ضرورة تجنب كل ما

قد يسبب أمراض عصبية له في فترة الحمل، من تلوث أو سموم أو مواد بها رصاص، كالتدخين والمخدرات والمواد الكيميائية التي تحتوي على المواد المضرة ويمتصها الجلد وتصل عبر الدم للجنين وتؤثر في نموه العصبي.

ثانيًا: الأسباب التي تُظهِرُ أعراضًا مشابهة فتوقعنا في حيرة

١- مثل مشاكل في التنفس واضطرابات النوم ومستويات الأنيميا قد تؤدي لأعراض تشبه أعراض اضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه والتركيز وسلوكيات اندفاعية وربما عنيفة، لذلك عند ظهور سلوكيات غريبة مستمرة وليست عارضة فالواجب استشارة طبيب مختص للتأكد من عدم وجود مشكلة، مثل اللحمية التي تسبب ضيق تنفس أثناء النوم وقلة نسبة الأكسجين المطلوبة للطفل مما يؤثر بشدة على الرضع دون أن نشعر ويسبب اضطرابات سلوكية.

٢- التعرض للشاشات بصورة مستمرة وفترات طويلة يؤدى لحدوث أعراض شبيهة تبدأ في الذهاب بعد الإقلاع عن الشاشات لمدة تتراوح بين ٢-٣ أشهر.

قال د/ يوسف صحيح مسلم[1] في محاضرته مع د/ إياد قنيبي: «أن حوالي ٢٠ ٪ تم تشخيصهم من أطفال الوطن العربي بهذا الاضطراب، وهذا رقم غير دقيق، فعلى مستواه الشخصي جاءه في العيادة مثلًا حالات مشخصة به، ثم بعد الفحوصات والكشف تبين أن ٥٠٪ منهم سوء تشخيص، ولديهم فقط عرض من أعراضه تتشابه معه وتحتاج لعلاج طبي، وبالفعل عولجت وزالت وزال الاضطراب الطارئ، وربما لوجود فروق فردية بين الطفل وأقرانه وحسب كما قلنا».

لذلك، ينبغي عدم تشخيص السلوكيات الغريبة الطارئة بأنها سوء أدب، قبل التأكد أولًا من انعدام الأسباب العضوية المحتملة فأحيانًا بالفعل يتم تشخيص

(١) د. يوسف مسلم، استشاري العلاج النفسي، واختصاصي العلاجات السلوكية والمعرفية، والعلاج المرتكز على المَنَعة النفسية.

اضطرابات الطفولة العابرة، والتهيج الانفعالي، والعنف والتخريب، ونوبات الغضب، والقلق، واضطرابات النوم والمزاج، وفرط النشاط لدى الرضيع، وصعوبة تركيزه أو بطء تعلمه، واكتئابه.. إلخ، على أنها اضطراب من هذا النوع، بناءً على موقف أو حادثة أو اثنتين أو تحليل لمدة ١٠ دقائق مثلًا لبعض سلوكيات الطفل من خلال اختبارات النت السلوكية التنبؤية التقليدية وهي غير كافية أبدًا!

بينما التشخيص الصحيح الدقيق لا يكون إلا بعد ٣-٤ جلسات مع أخصائي نفسي يقوم بتشخيص سريري للطفل، بجانب معايير قياسية يقيس عليها، بجانب تشخيص سياقي لدراسة سياق الحالة وتاريخها الأسري والمَرَضي والوراثي، واختبارات قدرات ذهنية وعقلية للتفكير والقدرة على التحليل المنطقي واختبار اتساع الذاكرة - حيث إن المصابين بهذا الاضطراب تتسم ذاكرتهم بأنها أقل اتساعًا رغم شدة ذكائهم - واختبارات قياس مهارات وأنشطة متنوعة والميل للأنشطة الخطرة، ودراسة وتحليل للروتين اليومي للطفل وسلوكه في البيت وخارج البيت ومع الأقارب ومع الأغراب ومع الألعاب بمختلف أنواعها، كل ذلك يكون أوضح وقابل للقياس بدقة أكبر في مرحلة ما قبل المدرسة، ولكن للأسف يلجأ كثير من الناس إلى سرعة تشخيص الرضيع بالاضطراب؛ فبالرغم من أن علامات اضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط يمكن أن تظهر في الأطفال في عمر ما قبل المدرسة أو الأطفال الأصغر سنًا، فإن تشخيص الاضطراب في الأطفال الصغار صعب جدًا لأنهم بطبيعتهم حركيون محبون للاستكشاف لديهم مخزون من الطاقة يجب تفريغه وإذا لم نقم بتوفير أنشطة حركية مناسبة فإننا قد نتوهم إصابتهم بمرض «فرط الحركة» نتيجة لحركتهم الدائمة حولنا.

وللتشخيص: يتم تطبيق اختبار «كونرز» مِن قِبَل المختصين، ويحتوى على نقاط من ضمنها تشتت الانتباه، أو فرط الحركة، أو الاندفاعية، أو الخجل، أو مشاكل اجتماعية، أو العناد، أو مشاكل معرفية، أو المثالية أو غيرها، وإذا أخذ الطفل درجة

عالية تتخطى ٧٠ في أحد بنود الاختبار فبالتأكيد لديه المرض، لو أقل من ذلك لا نأخذ بنتيجة الاختبار ويتم التعامل مع الأعراض لمحاولة تقليلها وتخفيفها دون وصم الطفل بتشخيص المرض، لذلك فإن الأطفال في سن ما قبل المدرسة أو الأصغر سنًّا من الذين يشتبه في إصابتهم باضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط، من المرجح أن يحتاجوا إلى التقييم من قبل اختصاصي، مثل اختصاصي علم النفس أو طبيب نفسي أو اختصاصي أمراض التخاطب أو اختصاصي في نمو الأطفال.

باختصار.. ما يعنينا هنا من ذلك في مرحلة الرضيع ومشكلاتها:

۞ استقبال أي سلوك من الرضيع فيه عنف، أو تخريب، أو نقص انتباه بحكمة وتأمل، مع محاولة فهم مصدر وسبب السلوك وعلاجه وملاحظة ومتابعة ما إذا كان العلاج فعال أم لا، ولا نبني أبدًا على موقف عابر ولا مواقف تحت ظروف ضغط ومشاكل لا تزول.

۞ وحين نشك في الأمر لأمارات واضحة، فلا يضر أبدًا أن نستشير مبكرًا أحد المختصين فربما يوجهنا لأمور وقائية من ذلك الاضطراب قد نكون غافلين عنها، أو ربما يكون هناك اضطراب سلوكي بسبب أمر عضوي كما قلنا، فنذهب بالطفل لأخصائيين مختلفين، وتشخيصهم معا يجعل الرؤية أوضح بإذن الله.

۞ والعلاج – في حالة التشخيص الدقيق – يكون دوائيًّا، أو معرفيًّا – سلوكيًّا، أو كليهما، والعلاج المعرفي – السلوكي يكون بغرس قناعات وطرق تحليل منطقي ومهارات تفكير ومهارات صبر وتحمل ومهارات أخرى متنوعة، تقلل من أعراضه وتعزز من السلوك السليم للطفل بعيدًا عن تلك الاضطرابات، وبما أن التشخيص الأدق لا يتم قبل سن ٥ أو ٦ سنوات، فنجتهد أن نجتنب العلاج الدوائي ونكتفي بالعلاج المعرفي السلوكي، إذا قال المختص أن حالة الطفل تحتمل تجنب الدواء.

وجدير بالذكر أن هناك توصيات غربية بأمور، لتحسين سلوك الطفل وتقليل

الأعـراض عنـد المصابيـن، حيـن نتأملهـا نكتشـف كيـف أن ديننـا هـو ديـن الحـق وأن نبينـا هـو نبـي الرحمـة والفـلاح الحـق مـن رب العالميـن.

كتبوا من ذلك:

۞ قـدم لطفلـكَ قـدرًا كبيـرًا مـن الحـب والعطـف، يحتـاج الأطفـال إلـى سـماع أنهـم محبوبـون ومُقَدّرون، إذا كان طفلـكَ يعـاني مـن صعوبـة في تقبـل الإشـارات اللفظيـة للحـب والعطـف، فيمكـن أن تقـدم لـه ابتسـامة أو تُربـت علـى كتفـه أو تُعانقـه، ابحـث عـن السـلوكيات التـي يمكنـكَ مـن خلالهـا الإطـراء علـى طفلـكَ.

۞ استخدم كلمـات وتوضيحـات بسيطة عنـد إعطائـكَ توجيهـات لطفلـكَ، تَحدث ببطء وبهـدوء وكـن محـددًا للغايـة. أعطِ توجيهًـا واحـدًا في المـرة الواحـدة.

۞ علمه النظام وترتيب المهام والأغراض من حوله.

۞ شجعه على التفاعل الاجتماعي وتعلم المهارات الاجتماعية.

۞ ابـق هادئًـا وكـن مثـالًا جيـدًا يُحتـذى بـه، تصـرف بالطريقـة التـي تريـد أن يتصـرف بهـا طفلـك، كـن صبـورًا ومسـيطرًا، حتـى عندمـا يكـون طفلـك في حالـة يصعـب السـيطرة عليهـا.

۞ إذا كنت تتحدث بتروٍ وهدوء، فمن المرجح أن يهدأ طفلك أيضًا.

۞ استمتع بقضاء وقت مع طفلك.

۞ ابذل ما في وسعك لإقامة علاقات أسرية صحية.

ولا شـك أنـه إذا كانـت تلـك أمـور تقلـل مـن الأعـراض وتحسـن مـن أداء الطفـل المصـاب، فـلا شـك أن غرسـها مـن الصغـر يحصّـن منهـا أكثـر وأكثـر، كمـا درسـنا في السـنة المطهـرة علـى يـد خيـر المربيـن وأعظمهـم رحمـة وحكمـة في تعديـل السـلوك وسياسـته نحـو الأكمـل والأجمـل والأصلـح والأقـوم فصلـى الله عليـه عـدد مـا خلـق وذرأ وبـرأ.

ختامًا نكرر ونؤكد: بما أن من متطلبات المرحلة وحقوقها النفسية حسب المدرسة النبوية بالفعل:

كثرة تعريض الرضيع للحياة الحركية والاجتماعية والنفسية الصحية، فمن ذلك تجنيب الرضيع قبل سن سنتين الشاشات الإلكترونية، فهناك أبحاث تثبت وأبحاث تنفي علاقتها بظهور أعراض هذا الاضطراب لدى الأطفال فيما بعد، إلا أن المؤكد أنه لو موجود كاضطراب لدى الطفل فإن التعرض لتلك الأجهزة يفاقم من المشكلات والأعراض.

تبقت لنا مشكلة أخيرة من المشكلات المعاصرة لمرحلة الرضيع، والمقلقة:

(٥) ما يسمى باكتئاب ما بعد الولادة أو مقدماته

قد تشعر الأم بالإنهاك والاكتئاب وعدم الكفاءة نتيجة لضغوط المرحلة، لكن بعض الأمهات الجدد يعانين من درجات مختلفة مما يسمى بـ «اكتئاب ما بعد الولادة» الذي قد يعوق الارتباط بينها وبين رضيعها، بجانب خطورته أحيانًا على الأم نفسها، بحسب درجته[١].

درجاته؟

جاء في مقالة على موقع «الباحثون المسلمون»:

١ - الدرجة الأخف: وهو ما يعرف بـ «Baby blue» أو اضطراب نفسي عابر أو كآبة نفاسِية بعد الولادة:

أعراضه: تقلبات المزاج أو حزن أو قلق أو نوبات بكاء أو إرهاق وانخفاض التركيز أو صعوبة في النوم أو مشاكل في الشهية، عادةً تبدأ خلال يومين أو ثلاثة بعد

---

(١) تم الاستفادة في كتابة هذه الصفحات، بمقالة علمية قيمة لفريق «الباحثون المسلمون» على صفحتهم بعنوان «اكتئاب ما بعد الولادة»، بتصرف واختصار وإعادة ترتيب للنقاط قليلا وإضافة فقرات إيمانية بقلمي إليها، وقد زكاهم د. إياد قنيبي وأشار بالأخذ عنهم..

الـولادة، وقـد تصـل إلـى أسـبوعين ثـم تتلاشـى.

٢- الدرجة التي تليها: اكتئاب ما بعد الولادة:

حيث قد تتطور الكآبة النفاسية السابقة لتصبح الأعراض أكثر حدة ومدة أطول، الأعـراض: اكتئـاب أو تقلبـات مزاجيـة حـادة أو الإفـراط في البـكاء أو صعوبـة التعلـق بالطفـل أو الابتعـاد عـن العائلـة والأصدقـاء أو فقـدان الشـهية أو فرطهـا أو الأرق أو النـوم لفـترات طويلـة أو الشـعور بالتعـب الشـديد أو انخفـاض الطاقـة أو قلـة الاهتمـام بالأنشـطة التي كانـت ممتعـة سابقًا أو التهيـج الشـديد والغضـب أو الخـوف من ألا تكـون أمًّا جيـدة أو الشـعور باليـأس أو الذنـب أو عـدم القيمـة أو انخفـاض القـدرة علـى التفكيـر بوضـوح أو التركيـز أو اتخـاذ القـرارات أو التململ أو نوبـات الهلـع أو القلـق الشـديد أو خواطـر وأفكار لإيـذاء النفـس أو الطفـل أو أفـكار متكـررة عـن المـوت أو الانتحـار والعيـاذ بـالله.. تتطـور الأعـراض عـادة خـلال الأسـابيع القليلـة الأولـى بعـد الـولادة، ولكنهـا قـد تبـدأ في وقـت مبكـر - أثنـاء الحمـل - أو حتـى بعـد مـرور عـام علـى الـولادة.

٣- الدرجة الأشد على الإطلاق:

مـا يعـرف بـ «ذُهـان مـا بعـد الـولادة»، ونـادرًا مـا تتطـور الدرجتـان السـابقتان إلـى هـذه الدرجـة.

وتـزداد درجـة الخطـورة في حـال وجـود تاريـخ مرضـي سـابق مـن الاكتئـاب أو اضطـراب ثنائـي القطـب أو إصابـة سـابقة باكتئـاب مـا بعـد الـولادة أو وجـود أفـراد مـن العائلـة مصابيـن باكتئـاب أو اضطرابـات مزاجيـة أخـرى أو معانـاة الطفـل مـن مشـاكل صحيـة أو احتياجـات خاصـة أو ولادة التوائـم أو أحـداث مرهقـة خـلال العـام السـابق: (مضاعفـات حمـل، أو مـرض، أو فقـدان عمـل.. إلـخ)، أو صعوبـة في الرضاعـة الطبيعيـة، أو مشـاكل عاطفيـة مع الـزوج، أو مشـاكل ماليـة، أو كـون الحمـل غير مرغـوب فيـه.. إلـخ، وحتـى الآبـاء الجـدد معرضـون لاكتئـاب مـا بعـد ولادة الزوجـة للطفـل.

ما أسباب اكتئاب ما بعد الولادة؟

ربما أسباب جسدية وعاطفية معًا:

١) التغيرات البدنية بعد الولادة: بسبب انخفاض كبير في الهرمونات (هرمونَي الاستروجين والبروجسترون)، وهرمونات أخرى تنتجها الغدة الدرقية؛ يسبب تعبًا وكسلًا واكتئابًا.

٢) المشاكل العاطفية والنفسية: الإرهاق، والأرق، والقلق حول القدرة على رعاية الطفل، والشعور بقلة الجاذبية وفقدان التحكم في مجريات الحياة.. إلخ.

٣)-مشكلة يعاني منها الطفل صحيًّا أو خِلقيًّا: حتى مجرد وحمة قد تسبب ضيقًا للأم وربما حرج من تعليقات البعض عليها، مع عدم تحصنها نفسيّا وإيمانيًّا بالشكل الكافي الذي يصون نفسيتها.

متى نلجأ للطبيبة؟

ما إن تظهر علامات الاكتئاب ويصحبها أي من الآتي:

الأعراض لا تخف بعد أسبوعين، أو الأعراض تزداد سوءًا، أو صعوبة الرعاية والاعتناء بالطفل، أو صعوبة إتمام المهام اليومية، أو ورود أفكار لإيذاء النفس أو الطفل.

ليتم تشخيص الحالة واتخاذ الإجراءات العلاجية اللازمة، وقد تطلب الطبيبة بعض التحاليل الخاصة بالغدد، وقد تصف بعض مضادات الاكتئاب، فلا نقلق فليست كلها مضرة مع الرضاع، فهناك ما يمكن تناوله دون أن يصل للحليب.

ما علاج اكتئاب ما بعد الولادة أو مقدماته المزاجية العابرة؟

أولًا الوقاية

القناعات الإيمانية والمعرفية المسبقة عن تلك المرحلة أساس الوقاية من كل ذلك بإذن الله، فهي تقدم لها قوة نفسية تحث على الصبر على الصعاب إيمانًا واحتسابًا، والرضا برزق الله على كل حال حتى لو كان بالولد بعض المشكلات الخلقية أو الصحية، بجانب تأسيها بأمهات السلف المربيات العظيمات منارات الهدى على مر الزمان، لكن لا يمنع ذلك من ضرورة توفير خطوات علاج عملية أيضًا.

ولكن قبل سردها، وعلى ذكر أمهات السلف: أين كانت هذه المشكلة في سيرتهنّ؟

والذى آراه حقيقةً أن هذه المسألة هي ضمن الآلام والمشكلات التي أُجمِلَت في قول النبي ﷺ: «الأوجاعُ التي لم تَكُنْ مَضَتْ في أسلافِهِم الذين مَضَوْا»[1]، والتي سُلِّطت علينا نتيجة لكثرة الذنوب وظهور الفساد في الأرض وشيوع الفواحش والبعد عن التزكية الإيمانية الحقيقية؛ لأنها مرضٌ لم نسمع عنه من قبل في خير القرون، وقد مرت أمهاتنا الأوائل بمثل ما مررنا به من مشقة الحمل والولادة والرضاعة وغيرها، بل منهن من تعرضت لابتلاءات شديدة وهي حامل أو مرضع، مثل التنكيل أو التهجير أو الفقر أو الضرب؛ ولم تدخل أي منهن في الاكتئاب الذي نسمع عنه ذا، بينما في زماننا نجد أثر الضغوطات النفسية العادية على بعض الأمهات فيه جزعٌ وانهيارٌ إيماني بشكل صادم غير مسبوق، (ولا أتكلم هنا عن ذوات المرض العضوي المتسبب في زوايا نفسية وعصبية تحتاج لعلاج دوائي لتزول، عافى الله كل مبتلى).

---

(١) الحديث: «يا مَعْشَرَ المهاجرينَ! خِصالٌ خَمْسٌ إذا ابتُلِيتُمْ بهنَّ، وأعوذُ باللهِ أن تُدْرِكُوهُنَّ: لم تَظْهَرِ الفاحشةُ في قوم قَطُّ حتى يُعْلِنُوا بها؛ إلا فَشَا فيهِمُ الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تَكُنْ مَضَتْ في أسلافِهِم الذين مَضَوْا... ولم يَنْقُصُوا المِكْيالَ والميزانَ إلَّا أُخِذُوا بالسِّنِينَ وشِدَّةِ المُؤْنَةِ وجَوْرِ السلطانِ عليهم... ولم يَمْنَعُوا زكاةَ أموالِهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السماءِ، ولولا البهائمُ لم يُمْطَرُوا... ولم يَنْقُضُوا عهدَ اللهِ وعهدَ رسولِه إلا سَلَّطَ اللهُ عليهم عَدُوَّهم من غيرِهم فأَخَذوا بعضَ ما كان في أَيْدِيهِم... وما لم تَحْكُمْ أئمتُهم بكتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ويَتَخَيَّرُوا فيما أَنْزَلَ اللهُ إلا جعل اللهُ بأسَهم بينَهم» | صححه الألباني-صحيح الجامع (٧٩٧٨).

فمن قال أن الضغوطات النفسية لم يكن لها وجود لدى أمهات السلف؟ إن مهمة الأمهات على مر العصور هي مما تنوء به الجبال وفصّلنا جوانب قليلة جدًّا منها، حتى أن رب العالمين أفرد لها في كتابه العزيز صفحاتٍ فيها من التربيت والرحمة واللطف ما فيها، وأضعافها في السنة النبوية.

إنما الفرق هو في حجم وطبيعة آثار تلك المشكلة على النفس، والذي يعود إلى فرق كبير في جملة من الأمور:

- في زمن السلف، ربما كانت النساء يتمتعن أكثر بحقوقهن في الشريعة الإسلامية، حيث كانت تلد فتجد الخادم والنفقة فلا تضطر للعمل خارج المنزل، وتجد حقوق الرضيع من ولاية ونفقة وربما مرضعة وغيرهم، بلا نزاع حولهم إلا النذر اليسير في بعض القصص النادرة، وتجد زوجًا تتكيء عليه دون أن تسقط، بجانب بساطة متطلبات المعيشة في ذاتها، إنما في زماننا، فحظوظ النساء من ذلك تتسم بالندرة.. وصدق من قال: كثير من البيوت قائمة حاليا على صبر الأمهات.

- وربما كانت أمومة الأمهات بالأمس أكثر تلقائية وتدفقا وفطرية من أيامنا هذه وأقل عرضة للمزاحمة من قِبل شواغِل وأولويات مصطنعة أخرى، حيث أن الأمومة اليوم مطبوعة بطابع العولمة والقولبة والمادية والفلسفة الإنسانية الغربية، بينما كان الكل في الماضي يعرف أولوياته، سواء آباء أو أمهات، وتطلعاتهم للدنيا كانت أقل لاستحواذ تطلعاتهم للآخرة على سمعهم وبصرهم وأفئدتهم، فكانوا أبعد عن التكلف والهشاشة النفسية والتمحور حول الذات.

كانت الأم من أولئك السلف، طبيعية فطرية، تتزوج وتترقب حملَها على سبيل «الكاريير» الوحيد[1] الذي ينتظرها وتنتظره بكل شغف وترقّب، "كاريير" واحد لا ثاني له ولا يشغلها غيره عنه، إلا إذا قَدَّر الله لها شأنًا آخر من الفضل، أما اليوم فصار

(١) كلمة غربية صار يستعملها بعض المسلمون كثيرًا للإشارة إلى المستقبل وتحقيق الذات career.

"الكاريير الدنيوي" ضمن معوقات الزواج والإنجاب وبناء الأسر أصلًا، وصار الزوج في كثير من البيوت آخر من تتكيء الزوجة عليه.

تأملوا حديث الأوزاعي عن فاطمة وهي حامل، قال: حدثنا عطاء بن رباح فقال: "كانت فاطمة بنت النبي ﷺ تعجن، وإن قصبها ليكاد يضرب الجفنة"، قصبها: بطنها وهي حامل، الجفنة: حافة الإناء.. أي أنها تعجن وتخبز وبطنها أمامها"[1].

وتأملوا كذلك حديث عليّ و"المشربة" الذي شرحناه من قبل:

أنَّ النبي ﷺ أتى فاطمة يومًا فقال: أين ابناي؟ - يعني حسنًا وحسينًا - قالت: «أصبحنا وليس في بيتِنا شيءٌ يذوقُه ذائقٌ فقال عليٌّ: «أذهب بهما، فإنِّي أتخوَّفُ أن يبكيا عليك، وليس عندك شيءٌ»[2]، فتأملوا كيف أن سيدنا عليّ أخذ الصبيين معه ليتلهيا عن الجوع بعيدًا عن أمهما لعلمه أنها لا تملك ما تسكتهما به في البيت، فأخذهما يلعبان خارج البيت بينما يُحضِر الطعام لهما.

ذلك بيت كريم متخرج من المدرسة النبوية الربانية، فكيف لمثل هؤلاء أن يصابوا باكتئاب وأفكار سوداوية عن الانتحار وما شابه؟ نعم يصابون بالهم والغم والحزن، ويغضب عليّ فلا يقيل في بيت فاطمة، وتغضب فاطمة وتشتكي للنبي صعوبة المعيشة وكدحها في مهام البيت، فيردهما كل مرة إلى جداول الغايات الكبرى التي تقينا من مثل تلك الوساوس النفسية الممرضة، فينصحهما تارة بالتسبيح والتكبير والتهليل لتهون عليهما الحياة ومعيشتها، ويذهب تارة مع عليّ ليطمئن عليه وربما يعينه فيما خرج لأجله، ثم يحمل معه الصغيرين عند تمام المهمة، تكافُل أسري مثالي، يحقق التوازن الواقعي المطلوب لأجل توازن نفسي مرغوب.



(١) كتاب الزهد- للمعافَى بن عمران الموصلي، وهو أحد محدثي تابعي التابعين.
(٢) حسنه الهيثمي-مجمع الزوائد (١٠/ ٣١٩) | وحسنه المنذري-الترغيب والترهيب (٤/ ١٨١) | وأخرجه وصححه الحاكم في المستدرك على الصحيحين وقال «كلهم ثقات»(٤٨٣٨)، بينما خالفه الذهبي وغيره.

ومن القناعات الإيمانية المسبقة المطلوبة كذلك:

* تذكر حديث النبي ﷺ: «إنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»، وفي روايات أخرى: إنَّ لأهلِكَ عليْكَ حقًّا، وإنَّ لِضيفِكَ عليْكَ حقًّا، وإنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا».

هرم متدرج من الحقوق، حتى عينك لها حق عليكِ في النوم ونحوه، فتتذكر أن المسلم يحقق اتزانه النفسي بينها لا في طغيان أحدها على الآخر، فلا نترك أنفسنا دون ترتيب أولوياتنا[1].

* وتذكُر أن الولد نعمة يبكي الكثيرون لتحصيلها، وهِبةٌ من الوهاب ﷻ على أي حالٍ أتت فأمر المؤمن كله خير، فينبغي استقبالها بحفاوة والتعامل مع الأمر برضا ومسئولية، وتقبل الطفل وإظهار الحب له، فكلنا من جَميلِ صُنعِ الجميل ﷻ والله يحكم لا مُعَقِّبَ لحُكمِه واللهُ يعلم وأنتم لا تعلمون، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين.

ثانيًا العلاج: خطوات عملية إضافية

ماذا يمكن للأم أن تفعل للخروج من دوامة الاكتئاب عموما سوى اتباع العلاج الطبي؟

الجواب:

* ممارسة الرياضة (بضوابطها الشرعية بالطبع).

* تناول وجبات صحية، فهو يحسن الحالة العامة بخاصة الأطعمة التي بها أوميغا ٣.

(١) كلها روايات صحيحة: جسدك/ زوجك/ عينك: صحيح البخاري: ٥١٩٩) | ربك/ أهلك/ نفسك: صحيح البخاري: ٦١٣٩) | ضيفك: صححه الألباني-صحيح أبي داود (١٣٦٩) | ولدك: صحيح مسلم:١١٥٩).

* إيجاد وقت لنفسها بالاستعانة بالزوج أو الأصدقاء أو المعارف والأهل ليرعوا الطفل قليلًا فتلتقط أنفاسها وتفعل شيئا يُسَرّي عنها ويشحن قوتها النفسية من جديد، ويمكنكِ التشاركِ مع أمهات مثلك في هذا الأمر بالتبادل، عملا بقول الله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ..﴾ [المائدة:٢]، وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا»(١).

* توعية المحيطين بعدم إطلاق التعليقات الساخرة على ابنها أو التلميح إليكِ حتى، (وراجعي كلامنا في البناء النفسي والاجتماعي للطفل وما كان يفعله النبي ﷺ لدعمه).

* الحصول على فترة نوم كافية: فكما قلنا سابقًا، الأمهات اللاتي ينمن أقل من ٤ ساعات أكثر عرضة لهذا الاكتئاب، فنجتهد في إنجاح أسباب النوم ما أمكن: مثلًا تنظيم نوم الطفل أو تجهيز رضعات حليب طبيعي لمن يعاونون الأم ليعطوها للطفل إن نامت.. إلخ.

* وضع توقُّعات عملية وخطط واقعية ومعقولة لا مثالية، ولا تنسي حديث النبي ﷺ مرة أخرى أن "لكل شيء حقًا"، فأعيدي ترتيب أولوياتك كأم وزوجة وابنة حسب الترتيب الشرعي والواقعي.

* تحدثي عن مشاعرك مع أهل ثقتك واطلبي الدعم فهذا حقك، بخاصة التحدث مع من تعرضن سابقًا لاكتئاب ما بعد الولادة وشفين منه.

* ولمن حول الأم: يجب تقديم المساعدة لها بالكلمة الطيبة والتشجيع والتربيت، وأنها لازالت جميلة ومثابرة بحول الله وستكون أمًّا راشدة بإذن الله، ومساعدتها في الأعمال المنزلية سيعطيها مساحات أكبر للراحة والاعتناء بالطفل بسلام.

باختصار حبيبتي،

هي مرحلة توشك أن تنتهي وتقطفين ثمارها بإذن رب كريم، وستشتاقين إلى كنوزها. فأنت الآن فيما ستشتاقين إليه يومًا بالفعل!

فكوني كما تقول الحكمة: "ما دمت مُلزَمًا: فاستمتع!".

(١) البخاري (٢٤٤٦).

ونقول إجمالًا في ختام فصل مشكلات الرضيع بكل أقسامها:

* ما إن تظهر العلامات المقلقة بشكل مستمر لا يجدي معه أي تفاعل خارجي، لا يوجد حل سوى اللجوء لمختص، مع تعهد الرضيع بالرقية خلال أطوار نموه، والاجتهاد في تجنيبه الأسباب المضاعِفة لتلك الاضطرابات، مع مزاحمتها من البداية بكل ما يكفل تواصلًا اجتماعيًّا وحسيًّا سويًّا مع المحيط من حوله، حتى إذا كان لديه استعدادات لتلك الاضطرابات - سواء جينيًّا أو غيره لا سمح الله - ونحن لا نشعر، تكون تلك التحصينات النفسية والاجتماعية والدينية والصحية كالتطعيمات الوقائية له بحول الله وقوته .. وحسن متابعة ومراقبة لسلوكيات الرضيع، يكفل التدخل المبكر إن كان ثمة مشكلة تحتاج لتدخل، وكلما كان التدخل مبكرًا كلما كان العلاج أقرب بإذن الله.

* ونستخلص قاعدتين من الوحيين عامتين أصليتين في حل مشكلات المرحلة عمومًا بتوازن دون إفراط أو تفريط، متصلتين مباشرة بمصلحة الرضيع العامة:

«**من لم يَرْحَمْ صغيرَنا**» + **ويعرِفْ حقَّ كبيرِنا**» =« **فليس منَّا**»[١].

١ - فعلينا عدم إفساد طفولتهم باستجابات انفعالية منا غير مناسبة لطبيعة وسمات المرحلة وتطور نموها، فهم غير مكلفين بعد، مرفوع عنهم العمل والقلم، ذكري نفسك بها دومًا لتهدئي، هؤلاء أنفس من أهل الجنة، على الفطرة النقية.

٢ - ثم إن حدث وارتكبوا أمرًا يستوجب التأديب والمؤاخذة فيكون ذلك من باب التعويد والغرس والتربية على خصال الخير والقيم وإجلال الكبار والتعريف بحقهم، وليس من باب العقوبة الجنائية أو المحاسبة بعد، نظرًا لأهمية دور الكبار الراشدين في صلاح وفلاح الصغار في الدارين بإذن الله، بالتالي اتصال تلك القاعدتين معا اتصالًا وثيقًا بمصالح الرضيع كافة.

---

(١) صححه الألباني-صحيح الأدب المفرد (٢٧١).

ولعلنا وجدنا أن حلول غالبية المشكلات السلوكية الحقيقية لتلك المرحلة، يكون في: التذكير بالتوجيهات المطلوبة دون كلل، والثبات على الموقف، والتجاهل للسلوكيات التي نُحَمّلها فوق ما تحتمل، واتخاذ الإجراء الرادع المناسب حسب الموقف، والله المستعان على كل حال.

أنهينا فصل المشكلات وعلاجها، ولعلنا أدركنا الآن بعض أسباب جعلِ الله الجنة عند أقدام الأمهات كما ذكرنا في بداية الفصل، قد صدق فيهن قول القائل: «أنتنّ بطلات العالم الحقيقيات!»[1].

ولا تَحضُرنا هنا كلمات كافيات وافيات نعبر بها عن امتناننا لهن ورغبتنا في تعويضهن، سوى التذكير بوصية رب العالمين: ﴿.. **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ [**الإسراء: ٢٤**]، وسوى أن نكون أمهات بحق مثلما كُنَّ.

ونتنقل الآن للعنصر الرابع من خطتنا التربوية السداسية للرضيع: كنوز المرحلة.



(١) أهدتها إليّ إحدى الأخوات، من أحد دروس الشيخ الفاضل محمد خيري والتي نقلها بدوره عن الأستاذ الكريم أدهم الشرقاوي.

الفصل الرابع

كنوز الرضيع

كثير منها هو في ذاته مشكلات المرحلة حين تتأملونها، وكما قلنا ليست المشكلة في ذاتها هي الكنز، إنما ما يترتب عليها من إجراءات لعلاجها هو الكنز، لأن به يترسخ في وجدان الرضيع ارتباطه النفسي بنا وتعلقه بوجودنا وبالتالي تترعرع شجرة المحبة داخله طوال فترة الطفولة واحتياجاتها النفسية العميقة، حتى إذا آن أوان التأديب المنتظم على الجادة والسعي الدؤوب في معالي الأمور ومعتركات الحياة، كان لنا تأثير إيجابي عليه لما في قلبه من نبتة محبة وإكبار وإجلال أصلها ثابت وفرعها في السماء.

من كنوز المرحلة بحق

۞ شدة تعلق الرضيع بوجودنا واحتياجه وافتقاره إلينا طوال الوقت، بالذات في الأشهر الأولى.

۞ ومن كنوز المرحلة التي سرعان ما ستنفد ولن تعود مرة أخرى: الرضاعة الطبيعية.

۞ كذلك الحضانة من أعظم مكامن كنوز المرحلة، وهي ممتدة فوق مدة الرضاع، يستمر فيها غرس كل معاني الاتصال النفسي والعاطفي بين المتربي والمربي بشتى أنواعها وصورها، قبل أن يشب عن الطوق ويستغني ويبدأ في التطلع للعالم الخارجي والأشخاص الآخرين.

۞ بكارة الحواس والقلب، صفحة بيضاء، وتذكَروا قول الغزالي: «وقلبه الطاهر جوهرة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل

ما يمال به إليه».

۞ براءته وعفويته، لأنهما يعكسان بصدقٍ كثير من سماته الشخصية، مما يساعد المربي على اكتشاف مهاراته ومكامن كنوزه الفردية وطباعه المختلفة، أسهل من المراحل الأكبر حين تبدأ المراوغة والتخفي.

۞ تصديقه لكل شيء يقوله المربي والآخرون، وهذا سلاح ذو حدين.

۞ عدم جداله كثيرًا وتمرده على الأوامر بعد، بسبب عدم قدرته بعد على الاعتماد على نفسه تمامًا، فيظل تحت جناحنا مفتقرًا إلينا غير مستغنٍ عن توجيهاتنا، بعكس المراحل الأكبر.

۞ ذاكرة ودماغ ينمو كل لحظة، كنز ثمين يمكن استغلاله في تخزين متراكم لأكبر قدر ممكن من المدخلات المعرفية والحسية المناسبة التي تحسن من تطور نموه الشامل، كما سنرى في الملء.

۞ حماسه وشغفه للتعلم وسرعة تعلمه، وحبه للعب، وتقبله لأي معلومة يتم تلقينها بلعبة أو قصة أو أنشودة، مما يُمَكن للمربي تعديل سلوك الرضيع وتنمية مهاراته من خلالها.

۞ رغبته الحثيثة في نيل رضى المربي ومحيطه الاجتماعي وتشجيعهم له والثناء عليه، يدفعه لفعل السلوك الحسن أو على الأقل لحسن التلقي عن المربي.

۞ خفة وزنه في الشهور الأولى، فنستغلها جيدًا في الحمل، قبل صعوبة الأمر بعد العام الأول.

۞ المحاكاة الدقيقة لما يرونه ويسمعونه، يجعلها فرصة سانحة لتقديم سلوكيات حسنة وقدوة طيبة.

۞ سهولة طعامه وشرابه في أي وقت وأي مكان: كنز من كنوز الرضاعة الطبيعية مرة أخرى.

۞ احتياجه لفترات نوم عميقة لا تقل عن ١٢-١٤ ساعة يوميًّا مفرقة بين الليل والنهار، مما يتيح للمربي فرصة للراحة أكبر، بعكس المراحل الأكبر.

۞ ضحكاتهم، رائحتهم، طهارة أنفاسهم، نعومة ملمسهم، حضنهم، كل ذلك من أبرز كنوزهم ليكون سببًا جاذبًا بقوة للمربي لا يقاومه، لإشباعهم عطفًا وتربيتًا وشمًّا وتقبيلًا وحملًا واحتضانًا.

۞ أسنانهم لبنية مؤقتة ليست دائمة بعد، مما يجعل لعبهم أكثر أمانًا من المراحل الأكبر حين تبدأ الأسنان الدائمة في الخروج، وليس معنى ذلك تسويغ تعريضها للكسر، لأن لها أدوارًا هامة في هذه المرحلة.

۞ تمكنهم في بعض مراحلهم من الحركة والتفاعل مع المحيط حولهم يلهيهم قليلًا عن مسببات النكد والبكاء.

۞ تَمَكنهم في بعض مراحلهم من أداء بعض المهام بأنفسهم دون الاعتماد الكامل على الأهل.

۞ رغم ذاكرتهم القوية، إلا أنها بفضل الله لا تحتفظ بالانفعالات الشعورية السيئة وقتًا طويلًا، ينسى الرضيع غالبية أحداث اليوم العابرة غير المتكررة، ويتعافَى سريعًا بحسن المعاملة من المربي بتكرار، وهذا يَذكره جيدًا وطويلًا، وتلك فرصة جيدة للمربي الذي قد يتجاوز تربويًّا ويفقد أعصابه أحيانًا، كي يتدارك خطأه ويبدل حُسنًا بعد سوءٍ باستمرار ويمحو أولًا بأول ما قد يعلق في ذاكرة الطفل من أمور سيئة.

هذا مرور سريع على بعض الكنوز، ولا شك أن لكل رضيع بذاته كنوز فردية مستقلة به، تسعى كل أم لاكتشافها واغتنامها بجانب منظومة كنوز المرحلة العامة، وسنرى في فصل «ملء الرضيع» وتعزيز البناء المهاري، كيفية استغلال تلك الكنوز، وهو الفصل التالي.

الفصل الخامس

ملء الرضيع

أحد التعريفات الاصطلاحية الرائعة للتربية، والذي ادَّخرتُه وأخرتُه خصيصًا لهذا الباب لأنه بمثابة الملخص الإجمالي لما فيه:

«تنمية قدرات الإنسان ومهاراته، وما له من كفاءات واستعدادات مختلفة - (وسمات) - تؤهله للرقي بشكلٍ متنامٍ في مدارج الكمال البشري، بحيث يصبح عنصرًا نافعًا لنفسه ولغيره، فالتربية هي ذلك (الجهد) الذي يُبذَلُ في سبيل مساعدة الكائن البشري على كشف وتفتيح وتنمية استعداداته وميوله ومواهبه وقدراته، و(توجيهه) والأخذ بيده إلى ما فيه خيره وخير مجتمعه وإحداثِ التغيرات المرغوبة اجتماعيًّا وروحيًّا في سلوكه، وإعداده للحياة الاجتماعية الناجحة»[1].

كان هذا الموجز، وإليكم التفاصيل.



من عادة قريش قديمًا إرسال المواليد للبادية، يقضون هناك مرحلة الرضيع كاملة، ثم يعودون بعدها لمكة، ولم يكن ذلك في الجاهلية فقط ولا هو من عاداتها المذمومة، فقد كان لإبراهيم ابن النبي ﷺ كما قلنا من قبل مرضعة يذهب إليها في عوالي المدينة، وكان النبي ﷺ كثيرًا ما يذهب إليه هناك يُقَبِّله ويُعانقه ثم يتركه، وهذا قبل وفاته رضيعًا، كان هذا من عادة بعض العرب - وليس كلهم - لاسيما قريش حينئذ.

---

(١) كتاب المقاصد التربوية العامة، نقلا عن كتاب فلسفة التربية الإسلامية، لد. محمد التومي الشيباني، بتصرف يسير ودمج بين التعريف في كتاب المقاصد وتعريف د. التومي.. ص ٢٩، ٣٠.

لأسباب، اجتهد فيها كُتاب السيرة:

* **منها**، الخوف عليهم من العدوى، فمكة مكان اجتماع الشعوب والقوافل التجارية من مختلف البلدان، للحج والتجارة، فربما أدى ذلك لانتشار الأمراض، بعكس البادية وبيئتها الصحراوية وهوائها النقي البعيد عن الزحام، لاسيما بادية بني سعد التي تربى فيها ﷺ في مرحلة الرضيع، إذ يقال أنها كانت بين جبال مرتفعة يصل ارتفاع بعضها ٢٠٠٠ مترا، فيصعب على الناس بلوغها فتعتبر كالمحمية الطبيعية البعيدة عن الأوبئة والأمراض والضجيج والتلوث.

* **ومنها**، الرغبة في صيانة لغة أولادهم وتنميتها بفصاحة بعيدًا عن العجمة واللغات الدخيلة في مكة بسبب مجيء مختلف القبائل والقوافل إليها من شتى البقاع.

* **ومنها**، الرغبة في تنشئة الأبناء منذ أول يوم على بعض أخلاق وصفات البدو الحميدة، كالخشونة والجلد والتحمل والقوة والشجاعة والمرونة والنشاط والحيوية وتحمل المسئولية وكرم الأخلاق واحترام العهود، لا على الترف والخوف والإحجام التي ربما ينشأ عليها الولد حين يتربى في المدن. تأملوا الصفات المكتوبة! يتكلمون عن الرضيع يا قوم!

حين نتأمل ذلك، ندرك كيف أن تلك المرحلة بالفعل غنية بالكنوز ويُستَحب اقتناصها لأبعد حد يمَكِّنُنا من استغلالها بشكل يهيئ الطفل لحياة أصلح وأقوى وأجمل، بعيدًا عن مسلسل هدر الكنوز الذي نرزح تحت وطأته بسبب دوراننا القسري في الساقية العالمية النظامية لتدجين[1] أطفال المسلمين!

وبتأمل كل ما سبق من فصول، نستطيع صياغة جملة من التطبيقات العملية التي يمكننا من خلالها إنبات خيرات لا تُحصَى بإذن الله.

(١) تدجين: من الدواجن.

لكن لدينا هنا لفتات هامة أولًا:

١- **بشكل عام**: أكثر اعتمادنا في البناء والملء هذه المرحلة، كما قلنا في مراتب التلقين وأقسام المراحل العمرية هو على (التلقين بالقدوة المحببة)، أي: استخراج محاكاة الرضيع سلوكيًّا لما يتم تخزينه بالحواس في العقل والقلب والمشاعر.

قال عمرو بن عتبةَ ينبِّهُ معلِّمَ ولدِه: «ليَكُن أوَّلَ إصلاحِك لولدي إصلاحُك لنفسِك، فإنَّ عيونَهم معقودةٌ بعينِك، فالحَسَنُ عندَهم ما صنعتَ، والقبيحُ عندَهم ما تركتَ»(١).

وأعظم ما نقدمه لهم من قدوة محببة هو القدوة الأخلاقية والعقدية والفطرية، العادلة والصادقة غير المتناقضة في أقوالها وأفعالها، فيشب الرضيع وهو يرى بصدق أن مرجعية والديه في كل شيء هي الله وأوامره ووصايا رسوله، تطبيقًا صادقًا وعمليًّا للعبودية التي نسعى لغرسها فيه وتطويعه لها، لينجو في الدارين بإذن الله.. فمما ذكرناه في كنوز الرضيع «تصديقه لكل ما يقوله المربي والآخرون» وأنه سلاح ذو حدين، فينبغي أن ننتبه لكل ما نقوله له في تلك المرحلة، ونحرص على أن يكون: صادقًا + بسيطًا + واضحًا + غير مؤذٍ.

٢- سنذكر جملة من أنواع البناء، ويراعَى في كل نوعٍ المرحلة العمرية للرضيع المعنية من الفقرة وإن لم نذكرها بوضوح أحيانًا، فليست كل النقاط تناسب كل الرضع بالطبع، إنما نعود هناك لفصل «سمات الرضيع» بالتفصيل لنتعرف على ما يناسب الرضيع من تفاصيل أنواع البناء المذكورة هنا، فمثلا: حين نتكلم عن البناء الاجتماعي «السماح له باللعب مع أقرانه» هذا بالطبع مقصود به رضيع مرحلة ما بعد الجلوس والحبو والتواصل مع الأقران، وليس رضيع الثلاثة أشهر.

٣- سنذكر عناوين محددة في ملء المرحلة، دون سرد النصوص الشرعية التي

(١) من مقالة لد. إبراهيم الدويش بعنوان: توجيهات وأفكار في تربية الصغار، على موقع صيد الفوائد.

تدل عليها مرة أخرى، لذكرها سابقًا بالتفصيل في فصل احتياجات وحقوق الرضيع ومشكلاته، فيرجع إليها تحاشيًا للتكرار، وإيثارًا كذلك لجعل مرحلة الملء كالتغريدات الموجزة والمركزة، ماعدا البناء الفطري فقط تجدونها فيه مجتمعة، لضرورة ترابط عناصر الكلام عنه في مكان واحد لئلا نشتت القارئ بخاصة أنه عنوان جديد على البعض نوعًا ما.

وقبل أن نبدأ تفاصيل ملء الرضيع، لدينا سؤال مهم قد يتبادر لذهن القارئ، بمناسبة إرسال العرب الرضع إلى البادية، بما فيهم إرسال النبي ﷺ لابنه إبراهيم:

أليس تخليهم عن حضانة الرضع وإرسالهم للبادية، يتعارض مع تأكيد الشريعة مرارًا وتكرارًا على أهمية تلك المرحلة نفسيًّا وضرورة تمتع الطفل فيها بحنان والديه؟ ثم إن تلك المرحلة من أمتع المراحل العمرية! كيف يتخلون عن القرب من لطفها بهذه السهولة؟

والجواب – في رأيي المتواضع:

١– المتأمل لحديث "خَيْرُ نِساءٍ رَكِبْنَ الإبِلَ صالِحُ نِساءِ قُرَيْشٍ: أحْناهُ علَى ولَدٍ في صِغَرِهِ، وأَرْعاهُ علَى زَوْجٍ في ذاتِ يَدِهِ"[١]، يدرك كيف أن الحنان والعطف في نسائهم كان من سماتهن الأصيلة كلهن، بما يجعل الأمهات لا يترددن كثيرًا في ترك الابن عند غيرهن؛ فكأنها تتركه عند أم حانية مثلها أيضًا.

٢– المتأمل كذلك للأسباب التي سردناها في فقرة البادية، يجد أن الذي كان يدفع بعضهم لذلك هو الخوف على الولد في تلك المرحلة الحرجة من أمراض وأوبئة محتملة بسبب التقاء مختلف الشعوب والقوافل في مكة من مختلف الوجهات.

٣– أولويات العرب كانت مختلفة، فساعد في دفع بعضهم إلى اتخاذ هذا القرار أيضًا رغبتهم في نشأة الطفل قويًّا مفعمًا بالخشونة والجلَد والقوة، وفصيحًا مُبينًا منذ

(١) **البخاري (٥٠٨٢).**

نعومة أظافره، ولو تلاحظون، لم نسمع – غالبًا – إلا عن إرسال بعضهم لصبيانهم إلى **البادية – لا الفتيات، والله أعلم.**

٤– بالإضافة إلى أنهم لم يكونوا ينفصلون تمامًا عن رؤية صغارهم ومجالستهم، بل كان منهم من يذهب إليهم يُقبلهم ويشمهم بين الفينة والفينة كما كان يفعل ﷺ مع رضيعه إبراهيم، ومنهم من كانت المرضعات تأتي لهم بصغارهم بضعة أيام ثم يأخذنهم مجددًا للبادية لاستكمال الفترة، كما كانت تفعل حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ فكانت تذهب به أحيانًا إلى أمه آمنة، تراه وتجلس معه ثم ترسله معها مجددًا.

والآن نبدأ خطوات الملء والبناء للرضيع

أولًا: البناء الديني

ستتكلم عنه بالتفصيل بعد انتهاء كلامنا عن أنواع البناء كلها، لضخامته في مرحلة الرضيع، ولشدة اعتماده عليهم جميعًا، فكلهم معًا بالنسبة لنا: وسائل مُعِينة مهمة كالأساس المتين الذي ينبغي غرسه أولًا في الرضيع لكي نتمكن من ملئه بالإيمان والأخلاق ملئًا عذبًا زلالًا سائغًا للشاربين، ولم أستطع جعل عنوان البناء الديني في «ذيل القائمة» تأدبًا، فحجزتُ له مكانه اللائق به دومًا في المقدمة، ثم نعود لتفصيله مرة أخرى بعد تفصيل سائر أنواع البناء المُهَيِّئة له.

ثانيًا: البناء التحصيني

١– الدعاء للرضيع أن يحفظه الله من شياطين الإنس والجن، وطلب الدعاء له من الصالحين.

٢– التخلص من كل ما يحول بيننا وبين إجابة دعائنا له، ومن موانع إجابة الدعاء و سبق تفصيلها وعلى رأسها المال الحرام، والذنوب بشكل عام[١].

(١) بالجمع بين كلام لابن القيم في تفسيره لآية «ادعوني أستجب لكم»، وكلام لابن باز على موقعه؛ عن موانع الدعاء.

٣- تحصينهم بالرقية النبوية التي رقى بها الحسن والحسين، أو أي صورة من الرقى الشرعية، وسبق بيانها.

٤- الرقية بالذات عند بُكائهم أو مرضهم.

٥- تحصينهم من الشياطين في مواضعها: كالتسمية عند خلع ملابسه بخاصة الحفاض، وعند النوم، وعند دخول الخلاء، وعند إطعامه، والتسمية عند كل عمل متصلٍ بالطفل، وإغلاق فمه أثناء التثاؤب، وتنظيف أنفه عند الاستيقاظ، إلى آخر العناصر المناسبة ليوميات الرضيع وفصلناها سابقًا؛ ونفعل له ذلك بأنفسنا إلى أن يتعلمه.

٦- تجنيبه اللعب خارج المنزل وقت انتشار الشياطين (من المغرب للعشاء).

٧- حجزه عن الطعام إن لم يسم الله وتعليمه التسمية (عندما يبدأ الكلام).

٨- غلق أبواب البيت جيدًا والتسمية، وغلق أبواب الخلاء جيدًا والتسمية، وغلق أوعية الرضاع والتسمية.

٩- تنظيفه دوريًّا من النجس والقذر وتعطيره.

١٠- عدم وضع أثاث زائد عن الحاجة في المنزل، فالزائد يكون للشيطان.

١١- ترديد أورادنا من أذكار اليوم والليلة على مسامعه، ليعتادها ويحفظها مبكرًا.

١٢- ملء أرجاء البيت دوريًا بسورة البقرة وأذكار الصباح والمساء: «إن الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ».

١٣- تجريد البيت من كل ما يجلب الشياطين أو يمنع من دخول الملائكة.

١٤- بشكل خاص تجنيب البيت أمور مثل: الموسيقى وما في حكمها من مزامير الشيطان، والمُنكرات، والتماثيل والصور المحرمة، والكلاب، والأجراس، والتمائم ومظاهر الشِرك، والمواد المسموعة والمرئية التي تحوي تعاويذ شركية وشيطانية أو

أيٍ من الشركيات سواء القديمة أو المعاصرة فأغلبها يستجلب الشياطين، نطفئ كل ذلك الرجس وننفثه من بيوتنا ونتقي الله في حواس ذريتنا.

ثالثًا: البناء النفسي

رأينا كيف كان الرحمة المهداة ﷺ يعامل الصغار بشلالات منهمرة ومتنوعة من أصناف الود والعطف والشفقة والتواصل الودود والتحمل والرفق.

بالتالي من أهم أعمدة البناء النفسي في المدرسة النبوية:

- منح الطفل الاهتمام والرعاية والحنان، والتعبير عن حبه بشتى صوره الحسية وغير الحسية: كحمل الطفل (على الكتف – العاتق، أو الورك – الجنب، أو الذراع) أو عناق الطفل وتقبيله، أو إجلاسه في الحجر، أو السؤال عنه إذا غاب، أو ضمه داخل ردائنا معنا، أو التعبير عن حبنا له صراحةً.. إلخ.
- إتاحة مساحات آمنة للعب لإشباع حاجته إليه وإلى استكشاف الحياة من حوله.
- عدم تضييق اللعب على الرضيع مخافة اهتراء ملابسه من كثرة اللعب.
- الصبر عليه حتى يقضي حاجته من اللعب كلما تيسر.
- تشجيعه على إنجازاته الصغيرة، مع كثرة التبسم في وجهه.
- إظهار الاهتمام بأغراضه وقصصه البسيطة وحواراته المتلعثمة والأمور التي تهمه.
- ممازحته وإضحاكه بضوابط وآداب الممازحة المذكورة سابقًا، كعدم الكذب عليه أو تخويفه لغرض الممازحة، وما إلى ذلك.
- اللعب معه بأنفسنا بضوابط وآداب الملاعبة المذكورة سابقًا، كعدم ترويعه بغرض الملاعبة، وما إلى ذلك.

- اللعب بكافة أنواع اللعب المذكورة في فصول الرضيع وأوضحناها بأحاديث.
- ترخيم اسمه وإعطاؤه ألقاب لطيفة تنم عن لطف وتودد.
- الصدق معه دومًا في الكلمة والوعد، وعدم الكذب عليه مطلقًا.
- إظهار الشفقة به وإظهار السعي الصادق لإزالة ما يضره.
- عدم نبذه للبكاء كمن لا أهل له، وفي نفس الوقت لكل مرحلة في الرضيع أساليب للتعامل مع البكاء بما لا يفسد تربيته.
- التجاوب مع احتياجاته وتلبيتها والتفرغ له قدر الإمكان حين يبكي، خاصة في المراحل التي لا يملك فيها بعد تلبية احتياجات نفسه بنفسه ولا يجيد التعبير إلا بالبكاء.
- عدم تعريضه لأنواع علاج شاقة ومؤلمة في وجود البدائل الأخف.
- إيثاره بأكلنا وشربنا أحيانًا.
- الدعاء له في وجهه بكل خير.
- إعلان محبته لكل الناس وأن من يؤذيه أويبغضه فكأنه يؤذينا نحن ويبغضنا.
- الجهر أمامه بالدعاء له بالخير كله وأن يحبه الله ويحفظه ويسعده.
- الترحيب به والاحتفاء بقدومه أو استيقاظه من النوم واستقباله بحفاوة.
- عدم التحرج من التبسط له أمام الناس.
- التسليم عليه في جنبات البيت عندما ألتقيه فيها.
- مهاداته بالهدايا المفرحة والتفاعل معه بخصوصها.
- الثناء على ملابسه الجديدة والجميلة.
- محاورته والاستماع إلى ثرثرته بسعادة ودون ملل.

۞ مخاطبته كأنه يفهم ويعقل، ولكن بما يناسب نموه الإدراكي واللغوي لئلا يصاب بتشتت وإحباط.

۞ النفقة عليه وتلبية احتياجاته المعيشية.

۞ عدم حرمانه من حضانة أمه ولا التفريق بينهما، إلا لو ترجحت مصلحته في ذلك.

۞ إتمام رضاعه حولين كاملين رضاعًا طبيعيًا قدر المستطاع.

۞ إحاطته بالولاية الصحيحة، من حماية وتعليم وتأديب وتربية وتنمية مهارات.

۞ العدل بينه وبين إخوته في الحقوق ومظاهر التعبير عن الحب والاهتمام، سواء الحسية أو المادية أو المعنوية.

۞ العدل في المعاملة بين الذكر والأنثى بما لا يتجاوز الفروق الشرعية بينهما.

۞ مع توضيح أسباب التفرقة أحيانًا إن وُجدت: مثل إيثار الصغير بباكورة الثمار، وإيثار الكبير بتكنِّية أبيه باسمه هو دون الصغير، وسبق الكلام عنهما، أو بسبب الفروق الطبيعية بين الذكر والأنثى.

۞ عدم الاستهانة بحقوقهم لصغر شأنهم، فمثلًا: لا أقيمه من مكانه الذي يجلس فيه لأجلس أنا أو لا أتجاهل دوره لحساب غيره بينما هو الأحق قبلهم أو لا آخذ من أغراضه الثمينة البسيطة دون طيب نفس منه أو سبب معتبر شرعًا، أو تشميته إذا عطس، أو مواساته إذا حزن، أو الابتهاج معه لفرحته.. إلخ.

۞ إعطاء البنات بشكل خاص رعاية واهتمامًا لرقة طبعهن وضعفهن، خاصة في البيئات والتجمعات التي تحتقر شأنهن.

۞ عدم إجباره على أكل طعام معين لا يستسيغه ولا إجباره على إكمال طعامه دون سبب معتبر.

۞ عدم احتقاره ولا لعنه ولا الدعاء عليه ولا شتمه.

۞ إعطاؤه قدرًا من الاحترام يناسب مرحلته، مثل: إعطاؤه كنية، أو عدم إهمال النظر إليه في وجود الناس أو الكبار، أو إشعاره دومًا أنه مرئي ووجوده مثار اهتمام.. إلخ.

۞ تحمل تقلباته المزاجية والتغافل عنها كثيرًا واحتواؤها قدر الإمكان وإلهاؤه عنها بأمور محببة، ما لم يكن فيها تطاول وإساءة أدب.

۞ تحمل صعوبات رعايتهم بنفسٍ مُحتسِبةٍ مُحبةٍ راضية غير نافرةٍ مُتسَخِطةٍ ليل نهار من مهام رعايته: كتحمل الرضاع، وتغيير الحفاضات، ومشقة التطبيب عند المرض، ومعاناة جمع أغراض اللعب، وتنظيف بقايا الطعام، وتحمل تبولهم علينا أحيانًا ونشرهم للفوضى، وتحملهم أوقات الصلاة، وأوقات اللعب بقوة ونشاط وحماس وفرط حركة، وتحمل ضوضائهم وبكائهم، وتحمل تمنعهم أحيانًا وتدللهم الطفولي البريء علينا دون شد وجذب وغضب.. إلخ.

۞ زيارتهم خصيصًا إن لم يكونوا معي لفترة ما لسبب أو لآخر.

۞ وغيرها مما يتصل بمعانيها النفسية في كل زمان.. وكلها أوردنا أحاديثها وتفاصيلها في الفصول السابقة.

باختصار.. مازحوا صغاركم كما تضاحكون وتمازحون أصدقاءكم، مضاحكتهم لا تقلل من وقاركم ولا هيبتكم في قلوبهم مطلقا مادامت دون سفه أو إلغاء لحدود الاحترام، تقطيب الحاجبين طوال الوقت أمامهم يورثهم كآبة وجمودًا وربما نفورًا من المربي، اجتهدوا ألا يمر عليكم يومٌ إلا وقد جعلتموهم يضحكون، وانووا بذلك إدخال السرور على قلب مسلم نقي يحبه الله تنمو شجرة الإيمان في قلبه بغرسكم رويدًا رويدًا، اجتهدوا ألا يمر عليكم يومٌ إلا وقد مارستم مظهرًا من مظاهر الاقتداء بالهدى النبوي مع الأطفال وقد زرعتم صورة مبهجة عن الإسلام في قلوبهم، فقد

كان ﷺ يحمل صغاره كثيرًا ويجالسهم ويخالطهم ويقبلهم ويعانقهم ويشمهم ويلفهم تحت ردائه ويتركهم يرتعون فوق ظهره أو يجلسون على بطنه ويتحمل فرط حركتهم داخل أو خارج الصلاة ويتحمل نجسهم على ملابسه ولعابهم ولا يبدي منهم تقززًا أبدًا، ويناديهم بالألقاب اللطيفة ويلاعبهم ويضاحكهم ويسأل عن شئونهم التي تهمهم ويواسيهم إذا حزنوا ويثني على مظهرهم ويظهر الشفقة عليهم لو مسهم ضر ويسلم عليهم في الطرقات ويمسح على رؤوسهم ويوصي الناس بحقوقهم ويوصي الآباء عليهم ويبكّت ويهدد من لا يُقَبّلهم ويرميه بقسوة القلب، ويحذر من يمسهم بسوء أو يؤذيهم، ويراعي حقوقهم ويحاورهم بما يناسب نموهم وفهمهم ويهاديهم ويدعو لهم سرًا وجهرًا في وجوههم ويخفف الصلاة لبكائهم لتفريغ أمهاتهم لهم .. ﷺ.

إلى آخر ما تزعم المنظمات العالمية المعنية بحقوق الطفل أنه من توصياتها الداعمة للصحة النفسية السوية للطفل.



رابعًا: البناء الانفعالي

(١) توجيه انفعالات الرضيع لما يحقق مصلحته وسلامة نموه النفسي والديني وغيرهم.

عن طريق:

١- تعليمه التعبير عن مشاعره وانفعالاته بوضوح.

٢- تعليمه التعامل معها وإدارة رد فعله تجاهها.

٣- تعليمه استبعاد الوهمي منها أو المبالغ فيه وعدم التشبث أو الانصياع بعمق وراء كل شعور سلبي كل مرة، فلا نساعده في الانسياق وراء كل شعور منها بزعم

"تحرير المشاعر السلبية بالكامل واحترامها" كما يشاع ضمن التربويات الغربية.

٤- تعليمه عدم اصطناع انفعالات وهمية لاستدرار عطف الآخرين، وعندما يبدو منه ذلك السلوك، نبحث عن أسبابه ونتفاداها لكيلا نساهم في تطوره لديه.

٥- محاورته في أسباب انفعالاته.

٦- ربط كل شعور من انفعالاته بسنة النبي فيه كما تعلمنا منه ﷺ.

معادلة سداسية قد تبدو معقدة مع رضيع، لكننا نؤسس بها قاعدة تنطبق على كل المراحل العمرية حتى مع الرضيع، ويبقى فقط أن نشرح كيفية تطبيقها مع الرضيع بما يتناسب مع تطور نموه اللغوي والإدراكي، من خلال ضرب أمثلة يومية لتلك النقاط لتتضح الصورة، وليس شرطًا تطبيق كل عناصر الخطة كل مرة، العناصر تكون بحسب الموقف:

أنت سعيد؟ حزين؟ غاضب من كذا؟ تشعر بالألم هنا؟ تحب فلان؟ تحب كذا؟ تكره كذا؟ لا تحب كذا؟ خائف؟ متعب؟ لماذا حزين؟ ماذا حدث؟ مم تخاف؟ لماذا تصرخ وأنا أسمعك جيدا؟ معك حق أن تخاف من صوتها لكن تعال نكنس بها معا لترى بنفسك أنها لا تخيف، أعرف أنك حزين لضياع دميتك لكن لا ينبغي أن نحطم الأشياء الأخرى بسبب حزننا، كل هذا البكاء لأن ورقة الشجر طارت من يدك؟ هناك الآلاف غيرها تعال نلتقط ما شئت، لا تتباكى لتحصل على ما تريد، لا تغضب هكذا، قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اطلب ما تريد بهدوء، سعيد بنزهة اليوم؟ الحمد لله. أعجبتك لعبة عمار؟ قل اللهم بارك. مندهش من جمال الزهور؟ قل سبحان الله. لماذا "مكسوف" من الخروج للسلام على أنس؟ لماذا تبكي مِن قطتِك؟ أو على قطتِك؟ إلخ.

(٢) تقديم قدوة حسنة من أنفسنا في الانفعالات الطيبة التي زكتها الشريعة، وفي اجتناب الانفعالات السيئة التي ذمتها الشريعة.

(٣) حث الرضيع على الابتسامة، عنصر مستقل بذاته دومًا؛ قرأنا في المشكلات كيف أنها معيار حيوي من معايير النمو العصبي السليم وانتفاء اضطرابات السلوك؛ ورأينا في السمات أنواع الابتسامات، والآن نتناول في الملء كيف نحث الرضيع على الابتسامة ونعزز نموها لديه بشكل سليم.

عن طريق:

* التواصل معه بالأعين وتعبيرات الوجه المناسبة للحالة الانفعالية، بغير تكلف أو مبالغة.

* التحدث معه ونحن نبتسم، حتى إن كان لم يتجاوز شهره الأول.

* صناعة وجوه مضحكة وإصدار أصوات الطبيعة بشكل يحفز تبسمه.

* اللعب معه لعبة إخفاء الوجه المحببة للرضع على مر العصور: تخبئة الوجه باليدين ثم كشفه فجأة مع الضحك، أو لعبة إرخاء اللسان خارج الفم كما كان يفعل ﷺ.

خامسًا: البناء الاجتماعي

منذ بلوغ الرضيع ستة أشهر تقريبًا، تبدأ إحدى أهم الفترات الاجتماعية جدًا بالنسبة لمعظم الأطفال فكما رأينا في السمات قد بدأوا الآن يبتسمون، ويضحكون، ويصرخون في حماسة وسرور، ويُبدُون إقبالًا على التواصل مع الآخرين بمرحٍ وأمانٍ حيث لا يكونون قد أصيبوا بـ «القلق من الغرباء» بعد، لذلك تعتبر هي الفترة المثالية لتكثيف التشجيع على المخالطة الاجتماعية بالآخرين من مختلف الأعمار والأشخاص، سواء داخل البيت أو خارجه.

ويمكنك القيام بذلك عن طريق:

١- صنع العقيقة وجمع الناس عليها ابتهاجًا بقدومه ونشرًا لمحبته في قلوبهم لو

كانت فاتتنا مع الوليد، حتى لو بلغ الرضيع العامين أو أكثر.

٢- إشاعة محبته في المجتمع وحث المعارف والناس عليها كما كان يفعل ﷺ: «إني أحب فلانـًا وأحب من يحبه فأحبوه».

٣- تحصينهم ضد الإيذاء المجتمعي، بنشر حبنا لهم بين الناس وتحذير الناس من بغضهم، كما كان يفعل ﷺ أيضًا مع حفيديه: «مَن أحَبَّهما فقد أحَبَّني، ومَن أبغَضَهما فقد أبغَضَني»[1]، فكل ذلك يسهم في تحصينه اجتماعيًّا من استسهال الآخرين لإيذائه بشتى صور «الإيذاء الشخصي»، فيما يعرف بلغة الغرب «تحصينه ضد التنمر».

(وبالمناسبة: حريٌّ بالمسلمين الاستغناء عن تلك الكلمة الغربية الباردة "التنمر" واستعمال ألفاظنا الشرعية الثرية الرصينة المعبرة عن كل أفعال وأصناف الإيذاء بدقة وبلاغة وتفرد، كالسخرية، الهمز، السب.. إلخ).

٤- توفير مساحات من اللعب خارج البيت بشكل يتيح تواصلًا اجتماعيًّا صحيًّا مع الأقران.. لكن نجنب الأطفال الخروج للعب وقت انتشار الشياطين، بين المغرب والعشاء.

٥- الرضع الكبار نجعلهم يشاركون معنا في مهام اجتماعية بسيطة تناسبهم، داخل وخارج الأسرة، إذ يستمتع الطفل بفهم الطلب والشعور بأنه شخص مفيد منتج ذو أثر.

على سبيل المثال:

* يساعد في توزيع أكياس حبوب زكاة الفطر معنا على حراس العمارات أو الفقراء، وربما تعبئتها في أكياس بجاروف من ألعابه كما يفعل مع رمال الشاطئ.

* إيصال طبق طعام للجارة ونحن معه.

---

(١) صححه أحمد شاكر-تخريج المسند لشاكر (١٤/ ٢٦٠) | وحسنه الألباني-صحيح ابن ماجه (١١٧).

* جلب أغراض من أمام باب البيت أو أعطاء البائع نقوده ونحن معه.

* ترتيب أحذية أهل بيته في خزانتها.

* تجميع الجوارب المتماثلة معًا وترتيبها في أدراجها لدى أفراد أسرته، (وتفصيل أكثر في البناء المهاري).

٦- احترامهم بين الناس وعدم إهانتهم ولا شتمهم ولا الدعاء عليهم ولا ضربهم أمام الحضور.

٧- مخاطبتهم بما يرسخ هويتهم الاجتماعية: الأسماء، والكنيات، والأجناس، والألقاب اللطيفة: يا أم خالد، يا أبا عمير، يا زوينب، يا صبيان، يا فتياتي، يا جميلة، يا كتكوتة، يا عسول، يا بطل، يا «ست البنات» .. إلخ.

٨- إبداء عدم تحرج من ملاعبتهم أو التبسط معهم أمام الناس بأي أنواع المحبة الحسية أو المعنوية.

٩- الحرص على تلقي الرضيع للتعليم المناسب لمرحلته، بما يكفل له نموًّا معرفيًّا سليمًا وغنيًّا ويصونه من عواقب الجهل الاجتماعية.

١٠- حث الأهل على السؤال عنه إذا غاب أو مرض.

١١- المخالطة في البيت سواء في الطعام أو المجالس أو نحوها، فلا نجنبه مجالسنا باستمرار بحجة مشاغبته وكثرة عبثه وحركته، إلا عند الحاجة والضرورة بالطبع وفق مصلحته .

١٢- تشجيع اختلاطهم الآمن بالناس عامةً خارج البيت، من خلال اصطحابهم للمسجد وحلقات الدروس واجتماعات الأهل والمعارف، فيألفون ويؤلفون ونقلل من رهابهم الاجتماعي.

١٣- عدم إهمال النظر إليهم في وجود الكبار أو الآخرين عمومًا.

١٤- عدم تجاهل الإناث لحساب الذكور والعدل بينهما في المعاملة بما لا يخالف الفروق بينهما.

١٥- عدم الإفراط في إجباره على طاعة الوالدين وبما يخالف شروط طاعتهما.

١٦- إعطاؤهم كنية: أبو الخير، أبو علي، أم الحلوين، أم أبيها.

١٧- إيثاره بالكنية لأبيه لو كان هو الطفل الأول.

١٨- تلبية الأم لاحتياجاته كلما عبر عن طلبها بطريقة أو بأخرى دعمًا لنمو توافقه الاجتماعي الأسري.

١٩- عدم هدر حقوقه أمام الناس ولا لصالح الناس: فلا نقيمه من مجلسه لأجلسهم، ولا نتجاوز أحقيته في الدور، ولا نأخذ من طعامه المفضل ونعطيه لغيره ونضع عنده طعامًا لا يحبه، ولا نقيد لعبه لمجرد استياء البعض بدون حق.. إلخ.

٢٠- استقباله بحفاوة أمام الناس عند دخوله علينا المجلس.

٢١- إلقاء التحية والتسليم عليه في الطرقات، وعند زيارته، وتوديعه بتحية عند الانصراف، وعدم تجاهله في زحام الناس.

٢٢- تعليمه كذلك إلقاء التحية ولو بالجوارح إن لم يكن ينطق الكلام بعد، كالتلويح بيديه لتوديع الآخرين، والتقبيل في الهواء.. إلخ.

٢٣- عدم التفرقة في المعاملة بين الذكر والأنثى.

٢٤- إعطاء البنات - بشكل خاص أمام الناس - رعايةً واهتمامًا مميزين، بخاصة في بيئة تحتقر شأنهن.

٢٥- زيارة الأقارب والمعارف للصغار في بيوتهم والسؤال عنهم خصيصًا، كما كان الحسن والحسين يفعل معهما جدهما ﷺ.

وغيرها من التفاعلات الاجتماعية الأخرى عبر كل زمان مما يؤسس لتوافقٍ اجتماعيٍّ سليمٍ.

وكما رأيتم: بعض العناوين هي من البناء النفسي، لشدة تداخلهما أحيانًا كما قلنا.

باختصار.. قد كان ﷺ يراعي احتياج الرضيع للاختلاط بالناس والحاجة لاحترامه بينهم والشعور بأنه محبوب وأن وجوده مرئي وله أثر مبهج على الجميع، وأنه جدير بالتواصل بينه وبين من حوله ليس منبوذًا وليس منعزلًا وليس قنبلة موقوتة يخشاها الجميع وليس صفرًا على الشمال لقلة شأنه، يسلم عليهم إذا مر بهم ويسأل عليهم إن غابوا ويكنيهم ويحترمهم ويريهم العالم الخارجي ويوصي الناس بهم ويشيع محبتهم وعدم بغضهم ويشجع كل ما ينمي توافقهم الاجتماعي السليم، إلى آخر ما تزعم كذلك المنظمات العالمية المعنية بحقوق الطفل أنه من توصياتها، وكأنهم أتوا بجديد، وفصلنا سابقًا كل أحاديثها.

سادسًا: البناء الصحي

١- إتمام السنن التي لم نتمكن منها مع الوليد ولازالت ممكنة، ومتصلة بصحته: كالختان، مهما بلغ عمر الطفل.

٢- تطبيق سنن الفطرة التي تناسبه وتنظيفه من النجس والقذر أولا بأول وتعويده على النظافة، فيجد روتينًا معتادًا تجاه: غسل اليدين وداخلة الأنف عند الاستيقاظ من النوم، ولو بأعواد قطنية رطبة وبرفق، وغسل اليدين قبل الإمساك بالأطعمة، والعناية بثنايا الجلد، وتنظيف أسنانه وفمه وتعليمه المضمضة، وقص أظافره وعدم تركها أكثر من أربعين يومًا، وغسل اللعب المتسخة، ومسح الأرض التي سيحبو عليها ويلتقط منها الألعاب إلى فمه، وتفقد الحفاض أولًا بأول وتنظيفه، وغسل اليدين إذا كان يكثر من وضعهما في فمه حينما يبدأ الحركة في البيت، وتعطيره بعطور طبيعية خفيفة على جهازه التنفسي كعطور الأزهار وتعليق أعواد الفل والياسمين حول عنقه كما كانت تعلق فاطمة عود السخاب - أخلاط الطيب - حول عنق ابنها حفيد النبي

ﷺ بعد تنظيفه كما قلنا في حديث «السخاب»؛ ليحب الرضيع ويعتاد روائح النظافة وتباعاتها الزكية.

وفي كيفية تنظيف أسنان الرضيع وفمه: بعد كل رضعة تمسح الأم أسنانه بقطنة مبللة، بخاصة الرضعة التي يتبعها نوم للرضيع فهي أشدهم أهمية، ثم بعدما يكبر الطفل ويمسك بفرشاة الأسنان يغسلها لكن بحركات دائرية بسيطة لا بطريقة الكبار المعقدة.

٣- الحرص على سلامته أثناء الملاعبة والتعامل معه برفق وعدم تعريضه للعب الأهوج ولا قذفه لأعلى قبل أن يشتد عوده مع مراعاة جدران المكان وبروزاته وشروط الأمان والسلامة للرضيع.

٤- تلبية حق الرضاع الطبيعي من أمه، وإلا فمن أي مرضعة، وعدم استسهال الصناعي، وعدم استسهال فطامه قبل تمام العامين، بل الصبر الدءوب على تحدي الرضاعة، قدر الإمكان.

٥- علاج الرضيع إذا مرض، بالعلاج المناسب.

٦- تجنيبه الأكل غير الصحي سواء من حيث المواد الضارة أو الكميات المتناولة، بخاصة المواد المسرطنة والمسببة للسمنة والبدانة وتسوس الأسنان، وعدم الانصياع لـ «"الزن" القاتل» الذي يمارسه الطفل لأخذ ما يريد منها، هل المربي العاقل يلبي إلحاح ولده على إيذاء نفسه؟

٧- تجنيبه الحر الشديد، والبرد الشديد، وكل ما في حكمهما ويضر بصحته.

٨- التدريب على عمليات الإخراج في وقتها المناسب، وبدون غلظة وعنف يؤدي إلى نتائج ضارة بصحته، بجانب الأضرار النفسية بالطبع، وسبق بيانه في «مشكلات الرضيع».

٩- الحرص على أوقات قيلولته وكفايتها لنموه السليم.

١٠- الحرص على إعطائه العسل بعد بلوغه العام، أو شراب العسل فهو مفيد جدًا له كغذاء ومناعة (وممنوع العسل قبل سن السَنة، فبعض أنواع العسل صعبة الهضم عليهم وبها بكتيريا ضارة وتنتج بعض حالات التسمم).

١١- الحرص على تعرضه للشمس في الأوقات الصحية والهواء النقي وسائر مقومات البناء الصحي السليم.

١٢- تحقيق كل ما ينطبق عليه عناصر وقاية صحية، حسب الزمان والمكان.

وسبق تفصيل كل ذلك.

سابعًا: البناء اللغوي والمعرفي والحسي معا، وتفادي مشكلات تأخر النطق واللغة:

الاهتمام بلغة الرضيع ومعارفه الحسية وغيرها ليس ترفًا اجتماعيًّا، تأملوا كيف تكلمنا عن اهتمام قريش بلغة أبنائها واتساع مداركهم المعرفية، وقيامهم لتحقيق ذلك بإرسالهم وهم في أجمل سِنِي عمرهم إلى البادية ليخالطوا البدو ويعتادوا بينهم على اللسان الفصيح الصحيح أولًا ثم يعودون إلى مكة، لأن قريشًا كانت مرتعًا لمختلف اللغات واللهجات بسبب وفود التجارة، وربما الأولاد حين يختلطون بهؤلاء يختل نطقهم ولغتهم وفصاحتها، والعرب يهتمون لأمر اللغة وتفرعاتها كما يهتمون لأمر الطعام والشراب وضرورات الحياة، وترتبط في حياتهم بشكل وجداني عميق، فهم يؤلفون الشعر حين يفرحون أو يحزنون أو يهجون أو يتعاركون، هي أداة نشر سيرتهم بين الأمم والتباهي بمناقبهم وأخبارهم بفصاحة واقتدار، ويريدون لأولادهم التمكن من العربية الفصيحة حتى يكونوا هم كذلك من نبغائها عند الكبر فيصبحون موسوعة معارف عربية متنقلة، هذا وقريش أصلًا لغتها هي الفصحى وليست العامية، فأي عناية لغوية معرفية هذه بالصغار في مراحل بدء النطق؟ وجاء الإسلام ولم يعارض تلك الخطط ووسائلها، بل كان ﷺ هو نفسه ممن قضى سنواته الأولى بعيدًا في ديار حليمة السعدية، وكان له بعد النبوة رضيع يتخذ له مرضعةً في عوالي المدينة كما قلنا،

ثم ألا ترون الأطفال العربية التي تنشأ أول عامين من عمرها في بلاد أجنبية، كيف يصعب عليهم تعلم العربية وكيف ينطلق لسانهم باللغة الأجنبية تلقائيا؟ فكيف بنا في بلاد العرب ونحن نفسد لغة صغارنا بلغات أجنبية لا عامية فحسب؟

فإن كان صعبًا فصلُ العامية عن حياتنا اليوم ونحتاج وقتًا لإعادة المجتمع للأصل وتهيئته لذلك، فعلى الأقل لا نزيد الطين بلة بإضافة الأعجمية أيضًا جنبًا إلى جنب مع هجر التحدث بالفصحى وهجر عرضها على الصغار، فبناء على ذلك وما جاء في الحقوق والاحتياجات اللغوية والمعرفية للرضيع، يتبين لنا أهمية البناء اللغوي والمعرفي للصغار.

وقبل أن نسرد عناصره، نتناول نموذجًا من هؤلاء الصغار المعاصرين حولنا، الذين نشأوا متقنين للفصحى - محاورة وفهما وخطابة وحفظًا - وهم بعد لا يزالون بعمر الثلاث والأربع سنوات، وأسوق إليكم محاورة تلفازية كانت مع والد أحد هؤلاء الصغار كالتالي: سأله المذيع عن خطوات الوصول لتلك النتيجة المباركة مع ابنه وهو لازال في الثالثة من عمره، فذَكَر عدة نقاط حين تتأملونها تجدونها تعبر عن مركزيات عناصر البناء اللغوي والمعرفي التي سنتكلم عنها، وهي أمور من صميم التعليم النبوي للطفل، قال أبوه:

١ - «**الأهل في البيت يحاورونه بالفصحى في المواقف اليومية**»، وهذا فيه عنصر القدوة في التلقين وعنصر الممارسة، وعدم جعل لهجة البلد العامية هي التي تطغى على الحوارات.

٢- «**تعليم القرآن مبكرًا**»، وهذا فيه عنصر: اختيار مصادر لغوية مناسبة لتحفيز النطق واللغة للصغار، ولا أنسب ولا أكثر بركة من كلام الله.

٣- «**انتقاء برامج أطفال قيِّمة لغتُها الفصحى**»، وهذا فيه عنصر اقتداء الطفل بأقران مثله يحاكيهم ويشجع بعضهم بعضًا فتنمو اللغة أكثر.

٤- «**تفـرغ الأم.. الأم.. الأم**»، وظـل يكررهـا، وحـق لـه ذلـك، وقـال أن أم الطفـل المبـارك استقالت مـن وظيفـة في مركـز مرمـوق في الدولـة يتمنـاه كل أحـد، لأجـل التفـرغ لثمـرة كهـذه بـارك الله فيهـا.

وتكلمنـا عـن مثـل ذلـك ضمـن فقـرات الحضانـة وأهميتهـا للطفـل وضـرورة تفـرغ الأم لهـا، وبالطبـع مشـاركة الأب ومتابعتـه دوريًّـا لا يَسـقط مـن العناصـر فهـذا دور ولايـة التعليـم التـي تكلمنـا عـن أهميتهـا كذلـك، والتـي هـي مسـئولية الأب في الأسـاس ولـلأم فيهـا نصيـب، مـع تفعيـل التعـاون بينهمـا.

فإمـا ينزغنكـم مـن الشـيطان نـزغ باسـتصعاب هـذا الطريـق فاسـتعذ بـالله، وتذكـروا كيـف بـدأ هـذا الصغيـر وغيـره مـن الصغـار وهـم كثيـرون بفضـل الله وعددهـم يتزايـد بـارك الله، ثـم كيـف صـاروا عنـد عمـر الـ٣ سـنوات بنهايـة مرحلـة الفطيـم في حدهـا الأقصـى، وأن مـن فعـل مثلهـم فـلا نسـتبعد أن يصبـح ولـده مثلهـم، متقنـا للفصحـى ومحـاورًا بالإسـلام وعـن الإسـلام مـن صغـره بيـن أقرانـه بـإذن الله.

ونؤكـد علـى ضـرورة مراعـاة الظـروف العامـة حـول الطفـل قبـل اتخـاذ قـرار اكتفائـه تمامًـا بالفصحـى فقـط، دعمـا لتكامـل عناصـر نمـوه معًـا: النفسـي والاجتماعـي واللغـوي والدينـي.

بالتالي من طرق ملء الرضيع في الجانب اللغوي والمعرفي والحسي

١- التحاور مع الرضيع ابتداءًا.. فاللغة ممارسة بالأساس.

٢- التحـاور معـه بالفصحـى، وعـدم إهمالهـا، بـدءًا مـن أبسـط تراكيبهـا، وتطويـر المسـتوى بحسـب تطـور نمـو الطفـل. وعـدم جعـل لهجـة البلـد العاميـة هـي التـي تطغـى علـى الحـوارات.

٣- التحـاور معـه بمـا يناسـب نمـوه الإدراكـي واللغـوي، والـذي ذكرنـا أنـه يتمثـل في: التكـرار، والنطـق ببطء، وتفريـق الـكلام وتقسـيمه لمقاطـع قصيـرة ذات معنـى، واختيـار

مقاطع موزونة بقافية سهلة، واختيار فصحى سهلة قريبة من لغة الحوار اليومية.

٤- ومما يناسب النمو اللغوي للطفل أيضًا: التنزل للغته البسيطة التي يفهمها حتى لو كانت عامية أو لهجة أهل بلده العربية وليست الفصحى المطلقة، ليكون على اطلاع باللفظ في بيئته اللغوية الشائعة بالفصحى والعامية، حتى نحقق بناءًا لغويًّا متينًا، بجانب تحقيق توافق نفسي واجتماعي لغوي سليم، ففي النهاية ولنكون واقعيين كما قلنا في الحقوق والاحتياجات اللغوية: سينمو الطفل حاليا بلهجتين عربيتين شئنا أم أبينا: عامية دارجة، وفصحى، العامية هي لهجة التخاطب والتواصل اليومي مع مجتمعه وبقية معارفه فينبغي أن يفهمها ويجيد التحاور بها وتكون قريبة من الفصحى ما استطعنا، والفصحى هي لغة دينه، ونجتنب العاميةَ السوقيةَ الشعبية ولغة الرعاع من الخلق، مراعاةً للجانب الاجتماعي والأخلاقي في اللغة والذي لا يجب إغفاله بالطبع.

٥- بالتالي من نماذج المصادر اللغوية المناسبة والمقاطع المطلوب إلقاؤها تكرارًا على مسامع الرضيع لتعزيز النمو اللغوي في هذه المرحلة بما يلائم سماته واحتياجاته ومقاصد التربية:

❋ المصحف المعلم لقصار سور جزء عم وقصار المفصل، بصوت قارئ متقِنٍ مرتِلٍ على مُكث، مثل: خليفة الطنيجي، أو المنشاوي، أو الحصري، مرارًا وتكرارًا.

❋ الأناشيد ومتون الأطفال السهلة الموزونة التي لغتها سهلة وجرسُها محبب للأطفال، خاصة لو كان فيها كلمات التوحيد والتسبيح والأخلاق والنبوة.. إلخ، مثل: نشيد «بني الإسلام على خمس»، ونشيد «أن تدخلني ربي الجنة».. إلخ.

❋ كلمات الأذان.. وهي تتكرر يوميًّا بالفعل لو أننا نسكن بجوار مسجد.

❋ القصص التي تتصف بتلك المواصفات اللغوية.

❋ الدعاء المتوافق مع تلك المعايير اللغوية، فتكون أنسب أدعية هي التي كان

يقولها ﷺ في وجوه حفيديه مرارًا: «اللهم إني أحبهما، فأحبهما، وأحب من يحبهما».

* الرقية الشرعية القصيرة الموزونة، مثل: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة.. ولا عجب فتلك كانت الرقية التي كان يرقي بها النبي ﷺ حفيديه وهم صغار، تأسيًا بخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي كان يرقي بهما ولديه إسماعيل وإسحاق، فسبحان من أرسل محمدًا رسولًا للعالمين بوحي حكيم لا ينطق عن الهوى.

ولا يمنع ذلك من تلقين أسماعهم السور الطوال كالبقرة مثلًا، إنما المطلوب لتطوير البناء اللغوي بشكل متدرج سليم، أن نركز عند التكرار على السور التي ينطبق عليها معايير النمو اللغوي المذكورة.

٦- تفعيل الكلمات التي تعبر عن أمور الرضيع اليومية، «هيا نأكل، أو هيا ننام، أو هيا ننظف أنفسنا، أو هذا ماء، أو هذا أخوك، أو هذا أبي، أو هذا أبوك، أو هيا نلعب، أو أنت حبيبي، أو أنت جميل، أو اللهم أحب فلانًا، أو يارب احفظ ابني، أو لعبتك لطيفة، أو طعامك جاهز، مع تفصيص ماذا يفعل وماذا نفعل له، بنفس الطريقة المناسبة للصغار.

٧- تجنب إدخال أناشيد بلغات أجنبية أو بلهجات غريبة منحرفة عن العربية قدر الإمكان، ولو تم فلا يكون على سبيل التكرار والتكثيف، فمثلًا لا نضع الرضيع أمام أناشيد بلهجة شامية أو نحوها بينما هو لهجته مصرية.. بل نحرص أن نكرر على مسامعه كل ما هو متصل بلغته الأم ولهجته التواصلية مع محيطه - العامية القريبة من الفصحى - أكثر شيء، مع تغليب الفصحى كما قلنا سابقًا.

٨- كذلك تجنب إسماعه أناشيد عربية ذات إيقاع نطق سريع متداخل متزاحم، فهذا مما يعيق اللغة ويسبب صعوبات تعلم (كما رأينا في مشكلات التوحد وتشتت الانتباه وفرط الحركة).

٩- حماية الطفل من الأصوات والمشاهد المخيفة، فقد تؤخر اللغة، وقد تؤدي إلى تلعثم الطفل وعدم طلاقته في كلامه، كتكرار مقطع من الكلمة مثل «أأأأأنا أأأأريييد»، وقد حذر النبي ﷺ تحذيرًا عامًا من ترويع المؤمنين لما فيه من إضرار بهم وتعدي على حقهم، فما بالنا بأثر ذلك على نمو الأطفال الناشيء؟

١٠- عدم مجاراته في نطقه الخطأ أو اعتماده نطقا رسميًّا، بل إعادة نطق الكلمات التي ينطقها خطأ، بشكل صحيح أمامه مرة أخرى، دون ملاحقته بشكل يورثه التلعثم والتأتأة وعدم الثقة، وليس شرطا أن نقول له كل مرة «هذا خطأ»، حتى لا يشعر بالإحباط؛ يكفي نطقها صحيحة ليتعلم الفرق بنفسه، وأن نجعل هذا هو الغالب، مع تشجيعه وتحفيزه بالاحتضان أو التصفيق له مثلًا سواء نطقها خطأ أو سليمة.

١١- التعلم باللعب وسيلة مثالية للتنمية اللغوية، تذكري دائمًا أن تعلم الصغار يكون غالبًا أكثر وأعمق أثرًا حين يكون عن طريق تفاعله معه واستمتاعه به، مع أهمية تلقين الرضيع حب التعلم بشكل مستقل لتفادي الترسيخ الدائم لديه أن التعليم لا يكون سوى بالمتعة، ودون أن نعاند شدة حب الطفل للعب.

١٢- الإنشاد له والتحدث إليه، وتوجيه الكلام إليه مهما كان صغيرًا.

١٣- الاهتمام بتعابير الوجه ومراعاة ملائمتها للكلمات الملفوظة، مع التواصل البصري أثناء الكلام والاهتمام بالتبسم أثناء محاورتهم.

١٤- تحفيز الإدراك السمعي واللغوي للطفل بالإشارة للأشياء عند التحدث عنها، مثلًا: حين تمر طائرة في السماء، أو تنطلق عربة إطفاء مسرعة عبر الشارع، أو تنطلق صفارات إنذار، أشيري لطفلك نحوها: «هذه طائرة» أو «هل تسمع سيارة الإطفاء؟»، إذ يساعد ذلك على دمجه في عالم الأصوات، بالإضافة لتعزيزه للكلمات الأساسية وتكرارها، افعلي نفس الشيء عند تشغيل المكنسة الكهربائية أو فتح الماء في حوض الاستحمام أو مع صفير الغلاية، أو رنين جرس الباب أو الهاتف، ولا

تتغاضي عن تلك الأصوات المفضلة لديه.. فأصوات الرذاذ على بطن الطفل أو ذراعه، والطقطقة بلسانك والتصفير كلها أصوات تعليمية أيضًا، وتشجع التقليد مما يعمل بدوره على تحفيز تطور النطق واللغة.

١٥- التحدث معه وكأنه يفهم جيدًا.

١٦- منع الشاشات عن الرضيع إلى تمام السنتين، ثم بعدها إن وجدت الشاشات تكون مقننة، إلا لو كانت بشروط صارمة كالتالي: مرئيات عن مظاهر الطبيعة والمخلوقات دون المشاهد الخطرة والشرسة والعنيفة، ويكون ذلك من خلال شاشة كبيرة، ويكون الطفل بجانبنا وليس ملتصقًا بالشاشة، وتكون حركة الصورة كما في الواقع: عادية غير متسارعة ولا متلاحقة ولا معقدة، ولمدة ليست طويلة، وليس روتينًا ثابتًا، ونكلمه أثناءها ونشرح له ببساطة، وغالبًا يكون هذا ما بعد عمر السنة، والأحوَط: **المنع**.

١٧- استخدام اسم الطفل عند التحدث معه.

١٨- ترجمة الطلب إلى كلمات، إذ يشجع ذلك الطفل على استخدام اللغة لتحقيق احتياجاته، مثال:

أغلق الباب، أو أمسك الكوب أو ادخل العربة.. إلخ.

١٩- طرح أسئلة التفكّر على الطفل المحفزة لصياغة إجابات من الحصيلة اللغوية بحسب الموقف، مثلًا عندما تتصفحون الكتب معًا: «هل يمكنك أن ترى الكلب؟»، «ماذا يوجد هنا؟»، «ماذا فعلت سمكتُك؟»؛ أو من مشاهد حولكم في البيت أو خارجه، ونستفيض في ذلك، ومن المشجع أن نسأل السؤال ونجيب على أنفسنا فهذا يعلم الطفل أدوات الاستفهام وكيفية الرد عليها ويعلمه المعلومات بطريقة «السؤال - والإجابة» التي لا يشوبها الملل وتثبت في الذهن.

٢٠- اختلاط الطفل بغيره من الأطفال والكبار المتكلمين والخروج إلى العالم،

لاسيما المتحدثين منهم بالفصحى، حيث أن عزل الطفل من أبرز أسباب تأخر النمو اللغوي، ففي أخذ الطفل في رحلات خارجية، ووجوده وسط مجتمعات وأجواء مختلفة يشجعه على التعلم والتواصل مع الآخرين، وخلال هذه الرحلات نتحدث معه ونشرح له ما هذا المكان ومميزاته وكافة الأمور حوله ما استطعنا، ولعل ذلك من ضمن أسباب اصطحاب النبي ﷺ للرضع إلى الصلوات وزيارته لهم.

٢١- أداء الأصوات المختلفة له ليجربها: صوت المنبه مثلا، أو قرع خطوات الأقدام، أو قطرات المطر، أو الرياح.. إلخ، وتقليد الأصوات التي يصدرها.

٢٢- تشجيع حب الاستطلاع والإبداع لديه، دون إفراط أو تفريط، فإذا كان طفلك يرغب في استخدام لعبة بطريقة غير مألوفة، لا تمنعيه عن ذلك، أو تحاولي إعادة إجباره على استعمالها بالشكل الصحيح، امنحيه فرصة للتجربة والاستكشاف والتعرف على خواص الأشياء من كل الزوايا، في إطار آمن لا يضره ولا يفسده تربويًّا، مع تذكيره كل مرة بالاستعمال الصحيح وتوجيهه إليه، فهذا هو الهدي النبوي، (وهذا متصل بالبناء المعرفي أكثر من اللغوي).

٢٣- ولا تبالغي في حماية طفلك بصورة مفرطة تحول دون استكشافه للعالم من حوله، الرضع الذين لا تتوافر لهم الفرصة للتفاعل مع بيئتهم قد يعانون من تأخر في النمو، فتأكدي من أن بيئته آمنة ثم دعيه يستكشفها، واستودعيه الحفيظ اللطيف.

٢٤- استخدام لغة الجسد، أو الجوارح مع الرضع عند التحدث: كالتلويح باليدين لقول أهلًا، مرحبًا، السلام عليكم، في أمان الله، وحركي يدك يمينًا ويسارًا، أو عندما تقولين له «تريد أن تشرب؟» قلدي بيديك حركة الإمساك بالكوب وصب المشروب في الفم، ومثلها: «تريد أن تنام؟»، وضمي راحتي يدك معًا كالوسادة تحت خدك، كذلك: «سأذهب وأعود»، وأشيري إلى الاتجاه الذي تريدين الذهاب إليه بإصبع السبابة ذهابًا وإيابًا، أيضًا: «نقرأ كتابًا؟»، وضمي يديك المبسوطتين

معًا وافتحيهما كدفتي الكتاب، ومثلهم: «تشرب مرة أخرى؟»، وأشيري بإصبعك بحركة دائرية بمعنى «مرة أخرى»، وبيدك علامة «الشرب».

٢٥- إعطاؤه مسميات للأشياء وللمفاهيم المتصلة بها عندما يلمسها، وسرعان ما سيتفهم معناها.

ونستعمل فيها الإشارة إلى الشيء، مثلما ذكرنا سابقًا، مثال: هذه الوسادة ناعمة، أو تلك القهوة ساخنة، أو السيارة مسرعة، أو لقد استيقظتَ مبكرًا، أو الكرة تحت الطاولة. وعند استخدام الأشياء، عرفي المهمة المخصصة لها: هذه المقشة للكنس، هذا الماء للغسيل والشرب، هذه المنشفة للتجفيف، هذه الصابونة للغسيل.

٢٦- الاهتمام بتجنب مخاطبة الطفل بأي لغة أجنبية بجانب لغته الأم، والكلام هنا موجه للجميع، سواءًا من اضطرتهم الظروف للعيش في بلاد بلغات أجنبية عن الفصحى، أو من يعيشون في بلاد العرب بالفعل لكنهم متأثرون بما نسميه بـ «عقدة الخواجة» التي تجعلهم يتخاطبون مع الأطفال أو في حياتهم اليومية بلغة أجنبية، ويتخذ البعض ذلك نوعًا من التفاخر والمباهاة المجتمعية للأسف، ولا يدركون خطورة ذلك ليس فقط على البناء اللغوي للطفل وإنما على بناء الهوية ككل: العربية والإسلامية، ناهيك عن اتصال الأمر بأمراض القلوب ابتداءًا.

٢٧- القراءة للرضيع من كتاب جاهز، أو من تصميمك منزليًّا - كما ستقرءون في نهاية النقاط، أو تشغيل مواد قصصية أو شعرية مقروءة بتأني بجواره، تناسب معايير النمو اللغوي السليم للرضيع.

٢٨- بدء تهيئته لتعلم الحروف بطرق تناسب مرحلة ما قبل الكتابة، مثل رسمها على الرمال مثلًا أو بأدوات اللعب.

٢٩- بدء تهيئته لتعلم الأرقام والعد البسيط أيضًا، بشكل منتظم أكثر، فيعد من ١

إلى ٥ أو إلى ١٠.. أذكر رضيعي في عمر الأشهر حين كنت أصنع له رضعة الحليب الصناعي في مرة (لأسباب صحية)، كان يقول ورائي حرفًا من كل رقم تقريبًا حتى إذا وصلتُ للمكيال رقم ٦ سمعتُه يقول معي بوضوح: تِتة! (أي: ستة)، وذلك لأني كل مرة كنت أعد المعالق أمامه بصوت واضح، صدقًا لا تستهينوا.

٣٠- تهيئته لإجابة سؤال: ما اسمك؟ ما عمرك؟ ما لونك المفضل؟ بماذا تشعر؟ وحكاية الأحداث كما يراها ويشعر بها.

٣١- تعليمه الاتجاهات، فوق، تحت، يمين، يسار، داخل، خارج.. إلخ، وأي معلومات من الحياة الطبيعية أو اليومية، تناسب نموه اللغوي والمعرفي وتعزز منه.

٣٢- تكرار كل ما سبق دوريًّا على حواسه: القصص، وأدعية القرآن، والأحاديث للكلمات اليومية، واسمه ، وأسماء الأشياء.

باختصار.. لا تهملوا البناء المعرفي واللغوي لهؤلاء الصغار فهو من حفظ العقل، اقتدوا في ذلك بخير مربٍ ومعلمٍ، فقد كان ﷺ يدلع لسانه لهم ويبتسم لهم ويتكلم أمامهم ويقترب من وجوههم ويبطئ كلماته ويجعلها مقاطع سهلة موزونة ويكررها ويناديهم باسمهم ويشير إلى الأشياء يسميها أو يصفها ويستعمل لغة اللفظ ولغة الإشارة معًا وهو يتكلم ويحرص على التواصل البصري مع من يكلمه وينصت ولا يقاطع ويستعمل لغة الجسد (لغة الجوارح) مع الكلام دون تكلف أو تصنُع أو مساس بهيبته، ويصطحب الرضع للمساجد وصلوات الجماعة لتقرع آذانهم أصوات الأذان المفصلة السهلة مرارًا وتكرارًا ويتفاعلوا مع الناس بالحوار والتواصل اللغوي بشتى أنواعه، فيتركهم يتواصلون مع محيطهم الخارجي تحت رقابة الكبار، ويستكشفون الحياة بأمان وشغف تحت رعايتهم، ويفسح لهم مجالات اللعب الحسية وغيرها حتى لو كان العبث في لحيته وخاتم نبوته وحتى لو كان اللعب في صلاته، وغيرها الكثير مما يسميه الغرب اليوم «حق المعرفة» زاعمين أنهم من أسسوه، بينما قد

أوحاه إليه العليم الخبير منذ قرون ضمن فنون تنشئة البراعم وأصول التربية اللغوية لتلك النفس، علمه فأحسن تعليمه، وأحسن ﷺ بدوره البلاغ.

ولكن نضع نصب أعيننا طوال فترة البناء اللغوي أمرًا هامًّا، ألا وهو أن نجتهد في نفس الوقت ألا تكون مسألة التحاور مع الرضيع، مجاوِزة للحد، فلا تتحول لثرثرة مستمرة بتكلف قد تجعل الرضيع ذا طبيعة ثرثارة على المدى البعيد، فخير الأمور الوسط، قال ﷺ: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»[1]، الثرثار: كثير الكلام تكلفًا، لكن نراعي في نفس الوقت أن الطفل لازال في طور التعلم.

ومن المحزن أن نجد بعض المربيات المحجبات - والحجاب عنوان الإسلام - يرشحن للأمهات أغانٍ موسيقية عربية، وأحيانًا أغانٍ موسيقية أجنبية بلغات شتى، تحت عنوان «تحسين لغة الطفل» و«مضاعفة مهارات الطفل»، فبالإضافة إلى حضهم للأم على معصية وأمر يتنافى مع مقاصد التربية الدينية والتحصينية، يقدمن نصائح هي أصلًا مما يضر بالنمو اللغوي السليم للطفل، أعني بدقة: تعريضه في هذه السن المبكرة بكثافة للغات غير لغته الأم وأناشيد إيقاعها اللغوي سريع.

عفا الله عنا وعنهن.

وتطبيقًا لكثير مما سبق في حياتنا اليومية في المنزل، أنقل لكم تجربتي:

كنت أكرر على ولدي منذ صغره المصحف المعلم جزء عم والفاتحة، فنطق بها حين بلغ عامه الأول - أو قريبًا منه على ما أذكر - ودخل الروضة وهو يحفظ وحده نصف الجزء تقريبًا. كذلك يوميًّا في وقت الطعام - وكان عمره حوالي من ٦ إلى ٨ أشهر - كنت أفتح له كتابه المعتاد بصوره المعتادة، وهو مجلد للصور صنعته بنفسي من قصاصات الكتب المدرسية القديمة الملونة، حيث اشتريت من المكتبة «ألبوم

(١) صححه الألباني-صحيح الترمذي (٢٠١٨).

صور» – مجلد بصفحات داخلية من الورق المقوى المغطى بأغلفة بلاستيكية شفافة لاصقة نضع الصور تحتها فلا تتحرك من مكانها – واشتريته قويًّا ليتحمل تعاملهم العنيف مع الكتب، ثم وضعتُ فيه صورًا، مثل: بطة، قطة، فمّ، لسان، بقرة، أم، أب، طفل، مسجد، صلاة، سيارة، واجتهدت أن أضع الصور في تصنيفات ومجموعات:

الحواس، المواصلات، الأغراض، الحيوانات، الطيور.. إلخ، وأن تكون الصور قريبة من الحقيقة وليست كرتونية غير دقيقة، وظللت أستخدمه لأولادي الثلاثة، سنوات وسنوات لمتانته.

فكنت أضعهم في عربة الأطفال أو كرسي الأكل وأضع الكتاب أمامهم، ومع المداومة أصبح ابني يُحاول نطق بعض الكلمات مثلي، وبدأ في الإشارة إلى الصور بأنامله وهو يأكل وأنطقها له.

وصرت أحيانًا أنطق الكلمة خطأ وأراقبه، فأراه ينتظر ولا يشير للكلمة التي تليها وينظر إليّ ويعيد الإشارة إلى الكلمة التي نطقتُها خطأ مرة أخرى مترقبًا، فلا يتجاوزُها إلى أن أنطقها بالشكل السليم الذي اعتادَه وخزنَه في عقله، فسبحان الله لا تستهينوا، فكل هذا وهم في مرحلة الأشهر كما قلت، فأنصحك بتلك الفكرة، مع تثبيت الصور فترة معقولة حتى يعتاد عليها قبل الإضافة إليها، واستمري في وضع الكتاب أمامه في أوقات الأكل كارتباط شرطي للأكل.

ثامنًا: البناء الحسي الإدراكي وتطوير الذاكرة:

(متشابك بقوة مع البناء المعرفي)

قلنا في السمات أن ذاكرة الرضيع أمر محوري ومهم للنمو المعرفي، وأنها في حالة رائعة في تلك المرحلة بتفاوت بين الشهور، فالرضع الصغار يمكنهم تذكر الأشياء لبضع ثوان أو دقائق.

وعند بلوغ الرضيع الشهر السادس تمتد قدرته على التذكر إلى أسبوع أو أسبوعين، وكلما كبر كلما زادت مدد التذكر وحجم الأشياء التي يتم تذكرها، كذلك قلنا في سمات المرحلة أن الطفل يبدأ يكتشف قانون السبب والنتيجة، فيستطيع إدراك أنه إذا ضرب اللعبة ستتحرك قليلًا، وإذا رماها من يده ستقع، وإذا ألقاها بقوة ربما ترتد لأنفه وتؤلمه وربما تنكسر وتصبح أكثر من جزء كلهم أصغر من اللعبة الأصلية، وأنه لو أغمض عينه لن يرى شيئًا.. إلخ، (وبعض الصغار يظن أنه هكذا أصبح غير مرئيٍّ أو غير موجود ومع تطور إدراكه يفهم أنه لا يختفي بمجرد إغماض عينه).

إذن.. من المساعدة في البناء الحسي الإدراكي وتطوير نمو الذاكرة:

١- نكرر: منح الفرصة للرضيع للتفاعل مع الأشياء باستمرار وحرية وأمان بما لا يفسد الطفل أو يضره أو يتعارض مع الشرع.

٢- تزيين غرفته بألوان مشرقة ومبهجة ومتباينة، لكن بكلفة بسيطة ومظهر غير متكلف، فلم يكن على عهد النبي ﷺ أي من ذلك، لكن بيئة الرضع حينئذ كانت معرضة للطبيعة بألوانها المختلفة أكثر منها في يومنا هذا، لا سيما بيئة رضع البادية: نخيل، أو أشجار، أو حيوانات المزرعة، أو رمال، أو أطيار في السماء، أو أسواق بمختلف الخضروات والفاكهة والأطعمة والروائح الطبيعية.. إلخ، فنحاول تعويض ذلك في زماننا بأمور من الطبيعة بالألوان الربانية الزاهية: نبتة مثلًا في غرفته حبذا لو نبتة عِطرية كليمون أو برتقال أو زهر القرنفل أو الفل وبعيدة عن متناول يده، وإن لم يوجد فلا مانع من تعويض ذلك في مفارش الرضيع وأغراض غرفته مثلًا وألوانها ورسوماتها الزاهية - بعيدا عن رسومات ذوات الأرواح على الحوائط، فتوضع فقط على الأشياء التي تهان بلَعِب الأطفال وتوطأ بالقدم ونحو ذلك (وسبق تفصيلها) - وخاماتها المتنوعة المحفزة للحواس، من باب حتى أن المرء يحب ثوبه جميل ونعله جميل وأن ذلك من السنة، فلا حرج في نقل حس الجمال لبقية الأغراض بل في ذلك

تعويد للرضيع على خصال الجمال أكثر، أو تعويض ذلك بما يراه الأهل مناسبًا ولا يخالف الشرع ولا يوقعنا في الإسراف في زينة الدنيا ولا يرهق كاهل الأهل ماليًّا ولا يضر الرضيع أو يسبب له ضوضاء بصرية شديدة، فمن المهم عدم تعريضه لتحفيز حسي زائد، مثل إحاطته بعدد كبير جدًا من ألعاب الأطفال والألوان والرسومات، أو وضعه أمام شاشة التلفاز، فقط: بيئة طبيعية غنية بالمحفزات دون تكلف أو مبالغة تُشَوِش على الحواس وتعيق الاستجابات الصحية المطلوبة.

٣- ممارسة ألعابٍ تحفز الفكر وتساعد الطفل على ملاحظة السبب والنتيجة وتنمي قدرات الذاكرة والقدرة على التصنيف، مثل إظهار لعبة معينة له ثم إخفاؤها ثم إظهارها مرة أخرى بعد بضع ساعات مع مراقبة رد فعله في كل ظهور، ثم نخفيها وننتظر يومًا ونظهرها مرة أخرى.

منها نمرنه على استدعاء الأشياء من الذاكرة، ومنها نختبر ذاكرته ونرى تطورها لنعلم ما يناسبها من ألعاب أو وسائل تعليمية تنميها شيئًا فشيئًا، أيضًا: مثل تعريض الرضيع لأنواع مختلفة من الضوء، كالضوء الساطع أو الخافت والضوء الأبيض والضوء الملون والضوء المتلألئ، والأصوات المختلفة مثل الصوت العالي أو المنخفض أو المتغير، ومراقبة رد فعله واستجاباته، مع تعليمه مسمياتها كما قلنا في البناء اللغوي.

٤- إتاحة الفرصة للطفل باللعب بألعاب تشبه الأشياء الحقيقية، مثل: هاتف أرضي حقيقي بدون الخط، خُبز حقيقي مثلًا يوضع في لعبة المطبخ خاصتهم ويحاكون به عملية الطبخ والتهام الخبز بعدها (دون عبث بالنعمة أو هدر لها أو إهانة، وإلا فليأخذ قشور الفاكهة - كقشر البرتقال مثلًا - إن كان لا يُحسِنُ إكرامَ أصلِ الطعامِ بعد)، دمية قطة أو خروف ذات فراء، أطباق وملاعق حقيقية، المشابك الخشبية الخاصة بنشر الملابس، اللعب في الماء بالطبع على رأس كل ذلك، حفنة حبيبات خرز داخل وعاء شفاف بغطاء محكم تُحدِثُ صوتًا كلما رجها، أو عقد من الخرز

يحدث صخبًا عند مشي الطفل، كما جاء في حديث «السخاب» المذكور مرارًا، حيث أن من ضمن معانيه أنها أشياء صلبة كالخرز مثلًا تُحدث صوتًا باحتكاكها معًا، وكانوا يلبسونها للصغار ذكرانًا وإناثًا على عهد النبي ﷺ وكانت من أخلاط الطيب كالقرنفل والعود والمسك.

❊ فيتعامل مع الخامات المختلفة مما يعزز حاسة اللمس.

❊ ويتعرض لروائح متنوعة، كروائح التوابل والأزهار والعطور الخفيفة والأطعمة، مما يعزز حاسة الشم.

❊ ويتعرض لمذاقات متنوعة، مما يعزز حاسة التذوق.

❊ ويتعرض لأصوات متنوعة مما يعزز حاسة السمع.

❊ بجانب ما ذكرناه من تعرضه لمحفزات بصرية متنوعة الألوان والإضاءة، مما يحفز حاسة البصر لديه.

وكل ذلك يتكامل معًا ويكوِّن شبكة معرفية متنامية بتدرج مع الوقت، مما يساهم في تعزيز بنائه المعرفي والعقلي والمهاري أيضًا بوضوح.

٥- ممارسة ألعاب تحتوي على أزرار قابلة للضغط أو التي تصدر أصواتًا مختلفة ردًا على كل عملية ضغط عليها، وبهذه الطريقة يتعلم الطفل أن كل شيء يؤدي إلى شيء آخر، تلك القدرة على إدراك رد الفعل تؤدي في النهاية إلى مهارة إدراكية أكثر تعقيدًا وهي: **مهارة حل المشكلات.**

٦- استغلال هذه الذاكرة الناشئة في تعويد الرضيع على الالتزام بإجراءات روتينية في أوقات معينة كما أشرنا من قبل: مثل النوم، والرضاع، والأكل، وقراءة القصة، مثال: الربط في ذاكرة الرضيع بين تحميمه ليلًا ثم قراءة كتاب ثم النوم، فينشأ ارتباط شرطي لديه - معرفيًّا ونفسيًّا - عندما يعرف أنه سيتم تحميمه ليلًا، فيدرك أن النوم اقترب ويتهيأ.

٧- تخصيص زاوية ألعاب للطفل حيث يمكنه اللعب فيها بهدوء، ويفضل تقسيم الألعاب ضمن أصناف ومجموعات معينة في العلب إن أمكن، **عن تجربة**: هذا الأمر ينمي لدى الأطفال حس الترتيب والتنظيم وتذكُّر مواضع الأشياء والمحافظة على النعمة، منذ نعومة أظافرهم.

٨- توفير كائن حي في المنزل مناسب للعب الرضيع معه، قد تتعجبون لو قلت لكم إني كنت أضع أولادي في حوض الاستحمام - البانيو - بمستوى ماء مناسب للأمان، ومعهم اللعب المناسبة، ثم أضع معهم سمكة الزينة، ولن تتخيلوا مقدار سعادتهم ومرحهم باللعب معها وهي تزوغ منهم وراء ظهورهم وربما «زغزغتهم، أو دغدغتهم» في بشرتهم وأصابع أقدامهم، وربما حاولوا اصطيادها بشبكة حوض السمك الصغيرة ثم إعادتها إلى الماء مباشرة، اللعب مع كائن حي، من أجمل وسائل البناء الحسي الإدراكي وأمتع طرق البناء المعرفي وتطوير الذاكرة، مع تعليمهم الرحمة والرفق به بالطبع، فلا يخفى ما في تلك الخطوة من تعزيز لجوانب هامة من التوافق الاجتماعي والبيئي في نفس الوقت.

ويحضرنا هنا عصفور النغير مرة أخرى الذي كان في صحبة الصحابي أبي عمير في بيته وهو صبي فطيم، حتى مات وواساه فيه النبي ﷺ، ومنها استخلص العلماء جواز تربية الصغار لحيوانات منزلية أليفة مناسبة طالما الطفل يستوعب إرشادات السلامة وحقوق الحيوان في الإسلام ويطبقها.

أمثلة لكائنات منزلية أليفة: سمك الزينة، قطط، سلاحف، أرانب، شاة رضيعة، كتكوت، ببغاء، عصفور، ونجتنب تربية الكلب في البيت لئلا نحرم الطفل من حقه في وجود ملائكة بمنزله فهذا من حقوقه واحتياجاته التحصينية والدينية كما قلنا، بجانب أنه معصية لأوامر النبي ﷺ، مع مراجعة الطبيب فيما يصلح تربيته منزليًا لاستبعاد ما قد يضر بالأطفال صحيًا والتأكد من عدم وجود حساسية من بعضها.

تاسعًا: البناء الحركي

١- الاهتمام بالرضاع الطبيعي وتمامه حولين كاملين قدر الإمكان وتجنب الأطعمة الضارة.

فالتطور الحركي لدى الطفل واكتسابه من ثَم المهارات، لا يرتبطان فحسب بنمو الدماغ والجهاز العصبي، بل بعوامل أخرى كالنظام الغذائي السليم.

٢- توفير بيئة محيطة عامرة بالعاطفة والأمان، فالتطور الحركي السليم كذلك مرتبط بتلك الأمور، ويحضرنا هنا حجم عناية الإسلام كذلك بمسألة الحضانة والولاية لضمان تحقق تلك العناصر للرضيع.

٣- توفير مقومات الاستثارة الضرورية لتفتحه على المحيط من حوله وتحركه تجاهه، كما فصلنا كثيرًا في فقرات اللعب، في محاور البناء النفسي والاجتماعي واللغوي.

٤- رعاية حقه في نمو حركته بدون قيود، فمثلًا: لا نقيد حركته حرصًا على ملابسه الجديدة.

٥- توفير النشاطات المرتبطة بتدرج مراحل نموه الحركي السليم، بإتاحة الفرصة للطفل الحركة في مساحات واسعة معينة على الحركة، إذ يساعد ذلك على تطوير التوازن لديه، ويزيد من قدرته على التقلب والتدحرج والحبو والمشي. مع تقديم الألعاب المناسبة لمهارات الطفل الحركية المكتسبة وتنميتها.

٦- بجانب كل ما قلناه عن اللعب في البناء النفسي والاجتماعي، وتعلمناه من تربية النبي ﷺ، فهو من أقوى الدعامات في عملية البناء الحركي.

٧- إتاحة المجال أمامه لنمو مهاراته تبعًا لتطور نموه الحركي وسائر أنواع النمو، وتفصيل ذلك في البناء المهاري كما يلي.

عاشرًا: البناء المهاري

بناء على كل ما سبق ندرك قابلية الرضيع لتعلم مهارات متنوعة، تحفز نموه الحسي والإدراكي والمعرفي والحركي والاجتماعي أكثر، وتنمي لديه بذرة الاعتماد على نفسه في كثير من الأمور حسب مرحلته العمرية الشهرية، بخلاف ما قد يظن الكثير من الأمهات، ولدينا مهارات حياتية، ولدينا مهارات عامة، ولدينا مهارات فردية حسب ميول الطفل وشغفه.

وفي كل منها، نحتاج فقط لكي نعزز البناء المهاري لدى الطفل بشكل سليم، أن نقوم بالآتي:

١- نمنح الطفل فرص جيدة لاستعمال يديه واللعب بالأشياء المختلفة والخامات المتنوعة كما قلنا سابقًا في البناء المعرفي، فنمو البناء المهاري مرتبط بالنمو المعرفي أيضًا، لكن مع تفعيل الرقابة.

٢- نعطي الطفل تعليمات بسيطة واضحة تناسب تطور نموه العام، ونموه اللغوي بشكل خاص، وسبق تفصيل أركانه.

٣- نوفر الأدوات الملائمة للعمل والمناسبة لاستعمال الطفل.

٤- نعطي الطفل مهام تناسب نموه أيضًا، فليس كل ما يَطلب أداءَه من مهام يتم تلبيته، وفي نفس الوقت نستجيب للطفل أحيانًا في مهام صعبة عليه، بما يساعده على تطوير مهاراته، لكن بشكل واقعي حكيم، فليس منطقيًّا مثلًا أن يطلب أن يقود السيارة أو يصب الماء المغلي ونسمح له، قد نقوم بجعله يمسك المقود أثناء توقف السيارة أو نجعله يضع يده فوق يدنا ونحن نصب مثلًا، لكن هذا لعب وليس تعلم مهارات، لكن قد يكون منطقيًّا أن نجلعه يجرب بنفسه غسل وجهه وارتداء جوربه واغتراف الطعام، ولو كان لا يجيدها تمامًا بعد، فالمطلوب: إتاحة مساحة معقولة وواقعية للطفل للتجربة وتكرار الخطأ.

٥- تفعيل توجيه الكبار ومساعدتهم للطفل عند اللزوم، فالتدخل أحيانًا لتصحيح خطأ الصغار مطلوب ومهم جدًا لبنائهم القِيَمِي السليم، سواء طلبوا أم لا - كما قلنا من قبل - بخلاف ما توصي به الفلسفات التعليمية الغربية (ومن بينها مونتيسوري)، من ترك الطفل دون تدخل أو توجيه أو تصويب، وذكرنا حديث "سلخ الغلام للشاة".. فيرجع إليه، فننوع بين هذا وذاك، ولا بأس أن نترك الطفل يجرب كثيرًا حتى ينجح مادامت هذه رغبته والموقف يسمح بذلك وليس هناك مشكلة مترتبة على ذلك من ضيق الوقت مثلًا أو نحوه.

٦- التشجيع والثناء وإبداء الفرحة بما ينجزه من مهارات مهما كانت بسيطة، لكن دون مبالغة تغرس فيه الغرور، ونحرص على نسبة الفضل دومًا لله في كل نجاح وتوفيق كما سنبين في البناء الديني، مع الإشارة إلى مواطن الخطأ برفق وحنان، لتصحيح وإتقان المهارة أكثر.

٧- الصبر على تعثره وعدم إتقانه للمهام بطبيعة الحال، فلا نقارنها بأداء الراشدين ونُحمله ما لا يطيق ونضغط عليه بحجة تنمية مهاراته وقدراته، كما يحدث في دولة اليابان مثلًا من شدةٍ وقسوةٍ على الصغار أثناء تعليمهم تمارين رياضة قاسية، ونرى صراخ الأطفال من ذلك والمدربون حولهم لا يُبالون ومستمرون في الضغط على أجسادهم الضعيفة لتحقيق الهدف!

فالمطلوب: تنمية بنائهم المهاري، دون إفراط ولا تفريط، بتوازن التربية الإسلامية الحكيمة الراشدة المنطلقة من مقاصد وضرورات لا غنى عنها، والتي من بينها حفظ النفس.

فمثلًا لتنمية مهارات الاعتماد على النفس في تنظيف وجهه في الصباح

١- نقول له ببساطة: نظف وجهك بالماء والصابون، أو جفف بالمنشفة، أو قف على الكرسي لتصل للصنبور، (إعطاء الطفل تعليمات واضحة وقليلة).

٢- نوفر له صابونا سائلا بدلًا من الصابونة المنزلقة، وكرسيًّا خشبيًّا قصيرًا أو مصنوعًا من مادة لا تنزلق به على الأرض الملساء، ونجعل له منشفة صغيرة في مستوى مناسب لتناول يده وليست عالية، (توفير الأدوات المناسبة للمهمة ولتطور نمو الطفل).

٣- وحين يأتينا وقد بلل ملابسه قليلا نقول لا بأس سنبدلها، أو المهم أنك بفضل الله نجحت بشكل رائع، أو المرة القادمة ستكون أفضل بإذن الله لو أدخلت وجهك قليلًا إلى داخل الحوض، أو لا تملأ يدك بالماء.. إلخ، وإن تكرر الأمر فلا بأس أن نساعده، (الثناء والتشجيع على الإنجاز + مع ربط الأمر بتوفيق الله + والصبر على تعثر الطفل في إتقان المهارة + مع الإشارة لموضع الخطأ لتصويب الأداء وتحسينه + ومساعدته عند الحاجة).

٤- وإذا أراد أن يجرب الصابونة المنزلقة فلا بأس نعطيه الفرصة، فإن أخفق كثيرًا وتسبب في فوضى متكررة نعلمه أن لكل شيء أوان وسيأتي أوان الصابونة المنزلقة حين يكبر أكثر ويتغذى بشكل أفضل ويصبح أقوى بإذن الله، (إتاحة مساحات معقولة وواقعية للتجربة وتكرار الخطأ).

ونقيس على ذلك كافة المهام والمهارات التي نهدف لتعزيز البناء المهاري بها لدى الطفل.

أمثلة واقعية للمهام الممكنة لمرحلة الرضيع لتعزيز بنائه المهاري:

(وذكرنا جانبا منها في سمات الرضيع):

أولًا: مهارات حياتية

١- في العناية الشخصية: ينظف نفسه بعد الطعام، ويغسل وجهه وأسنانه الوليدة، ويمشط شعره، ويضع العطر على ظهر كفوفه أو ملابسه.. إلخ.

٢- في احتياجاته اليومية: يُطعم نفسه، ويسكب الحليب بنفسه أو الماء أو العصير، ويأتي بالكتاب من المكتبة بنفسه بمساعدة كرسي صغير إن لم تكن قريبة، ويُلبِس نفسه النعل البسيط، السروال السهل، الطاقية، الجلباب الواسع، الحذاء ذي اللاصق القماشي، الخمار على سبيل اللعب.. إلخ، لكن غير قادر بعد ربما على التعامل جيدًا مع الأزرار والحزام والحذاء ذي الأربطة، وربما السحَّاب (السوستة).

٣- في العناية بأغراضه الخاصة: جمع لعبه الكبيرة في الصندوق المخصص، وجمع لعبه الصغيرة لو كان في مرحلة أكبر، وتلميع حذائه بإسفنجة الأحذية، وتعليق ملابسه على مشجب (شماعة) ملابس في مستوى طوله، ووضع ملابسه المتسخة في سلة الغسيل، وجمع أغراضه في علب، وتسوية غطاء السرير.. إلخ.

(وقلنا من قبل: بعضها يمكن للرضيع قبل سن السنة أن يمارسه، لكن يكون غالبًا بشكل عشوائي فليس منتظما كما بعد سن السنة).

ثانيًا: مهارات عامة

۞ **حل مشكلات يومية بسيطة داخل عالمه الصغير**: مثال: يحاول بناء برجٍ عالٍ من المكعبات وينهار كل مرة، أو إذا مال بجسده على الوسائد الداعمة لجلوسه ويريد أن يعود جالسًا باستقامة من جديد.

جميل أن نتركه يحاول بمفرده أولا فالموقف لا يستدعي "إظهار الشفقة عند التعثر" التي تكلمنا عنها سابقًا، وجميل أيضًا أن نساعده إذا أخفق، سواء طلب أم لا، وننوع كل مرة، فلا نتركه كل مرة لنفسه دون دعم يحتاجه، ولا ندعمه كل مرة دون أن نتركه يحاول؛ فكلمة السر دومًا في التربية الإسلامية: التوازن.

۞ **مشاركته في بقية المهام المنزلية ومعاونة أهل بيته**: مثال: يلمع الأثاث، ويرتب الأواني من الكبير للصغير، ويَرُص الأحذية في خزانتها، ويرتب الملاعق في الدرج، وينسق أزواج الجوارب مع بعضها أو ينشرها مع الأم ولو عشوائيًّا على المنشر

الداخلي، وينظم ألوانه في علبتها، ومحاولة الكنس بالمكنسة اليدوية أو الكهربائية، وتلميع التراب بعصا الريش أو فوطة صغيرة، وغسل الأرز في وعاء عميق ذي غربال (مصفاة)، ويقطف أوراق النعناع لتجفيفه، ويفصص حبات البازلاء.. إلخ.

مهارات فردية

يحب الترتيب: نوفر له علبا مناسبة لتقسيم الألعاب خاصته وجواربه وأغراضه الصغيرة.

يحب التلوين: نوفر له ألوان بخامات مختلفة ومناسبة لاستعماله.

يحب التركيب: نوفر له المكعبات والأحجيات البسيطة والمناسبة لتطور نموه، (مثال: كان لدى طفلي أحجية من ٦ قطع كبيرة كل قطعة منها واضحة التفاصيل ومميزة عن أختها، كان يقوم بحلها وهو بعمر الأشهر الأولى أو حوالي السنة، بالتكرار بالطبع تمكّن من ذلك بجانب أن الأحجية كانت مناسبة لمرحلته العمرية بفضل الله).

يحب التصنيع: نوفر له عجينة صحية يقوم بتشكيلها ثم نخبزها ويأكلها (فلا نعلمه هدر الطعام في العبث واللعب)، أو صلصال آمن على الأطفال.

يحب التسلق والحركة: نوفر له نطاطة في البيت، أو حبال معقودة بطريقة آمنة ليتسلقها، أو أرجوحة منزلية بسيطة ورخيصة يتم تركيبها على حديدة العُقلة الجدارية بأمان، أو ألعاب حركية في المنزل وخارجه.. إلخ.

يحب القيادة: نوفر له الألعاب التي تسمح للطفل بأن يكون مسئولًا عن عالمه، مثل: إدخال وإخراج الدُمَى الصغيرة من الحافلة، وضع الدمى في عربة الأطفال وتحريكها، تغيير ملابس الدُمَى وإطعامها.. إلخ، وكلها تساعد الطفل أيضًا على فهم كيفية سير العالم من حوله.

فبشكل عام: أي من مهام البيت سواء المتصلة بعالمه الخاص ليتعلم ويحب تحمل المسئولية عنه رويدًا، أو المتصلة بعالم أهل بيته من باب تعلم خيركم خيركم لأهله رويدًا، أو المتصلة بكنوزه الفردية وميوله المهارية، لتتكامل منظومة اغتنام الكنوز في الملء والبناء المهاري بإذن الله.

بالإضافة إلى المهام الاجتماعية المذكورة في فصل البناء الاجتماعي، سواء المذكورة فيما يتصل بأسرته الصغيرة أيضًا أو بالآخرين خارج البيت.

حادي عشر: البناء الجنسي الشرعي للرضيع.. التربية الجنسية الشرعية

يقول أحد علماء الغرب «بيتر شون بيرمان» (وهو عالم اجتماع أمريكي، معروف بأطروحاته في مجالات صحة المراهقين):

«إن ضعف التربية الجنسية [gender socializing] يكون في مراحل الطفولة الأولى، ويُقصد بالتربية الجنسية تربية كل طفلٍ بما يتناسب مع جنسه، واستشهد (بيتر) على رأيه كدليلٍ واضحٍ عندما يكون لدى الأبوين توأمان مختلفان في الجنس فيربيانهما معًا بالطريقة نفسها، فوجد أن ذلك يؤدي إلى مشاكل نفسية وسلوكية في الكِبَر، ومنها ازدواج شخصية الذكر وشخصية الأنثى»[1].

هذا عالم أمريكي غير مسلم، فما بال المسلمون اليوم؟ ولماذا هذا القدر من استهانتنا بذلك مبكرًا؟ أيعقل أن يكون الغرب أعلى وعيًا بمخاطر ذلك منا، ولنا شرع حكيم لم يترك شيئا للفوضى؟ ولم آتِ بكلامه لأستشهد به، إنما لأثير غيرتكم أن يكون هؤلاء أحرص على هذا الحق منا.

---

(١)من مقالة بعنوان: تعليم المعلمات الأطفال الذكور- لصادق بن محمد الهادي، على شبكة الألوكة.



فمـن البنـاء الجنسـي الشـرعي للرضيـع.. والـذي يغفـل عنـه كثيـر مـن الآبـاء ولا يفيقـون إلا عنـد مصائبـه للأسـف:

١ – عـدم تعويـد الرضيـع علـى التسـكع عُريانًـا في البيـت، وعـدم تصويـرِه هكـذا وعـرض صـوره علـى الآخريـن مـع التضاحـك معهـم أمامـه علـى ذلـك، بخاصـة حيـن يبـدأ في إدراك الفـرق بيـن التعـري والتسـتر ونجـده إذا كشـفنا جـزءًا مـن ملابسـه مثـلًا يُرخِيهـا تلقائيًّـا، أفنـأتِ نحـن ونَطمـس هـذا النـور؟ بخاصـة البنـات، حيـث انتشـر حاليًـا خروجهـن وتصويرهـن بملابـس لا تليـق إلا بالعرائـس في خدورهـن ولله الأمـر! فينبغـي أن يُعَـوَّدن ويُنَشَّأن علـى العفـة والحيـاء، دون التشـديد عليهـن في تلـك المرحلـة بمـا يخالـف طبيعتهـا غيـر المُكلَّفَـةِ بعـد، يقـول العثيميـن عـن الملابـس الكاشـفة للطفلـة دون السـابعة وإن لـم يكـن لهـا عـورة: «نـرى ألا تُعَـوَّدَ لبـس الثـوب القصيـر لأنهـا إذا لبسَـتْه خَـفَّ حياؤهـا إذا كَبُرَت، لا ينبغـي للإنسـان أن يُلبِسَ ابنتـه هـذا اللبـاس وهـي صغيـرة لأنهـا إذا اعتادتـه بقيـت عليـه، وهـان عليهـا أمـره، أمـا لـو تعـوّدت الحشـمةَ مـن صغرهـا بقيـت علـى تلـك الحـال في كبرهـا – بـإذن الله».

بالتالـي حيـن يتفلـت منـا الرضيـع أثنـاء تغييـر الحفـاض مثـلًا ويجـري في البيـت أمـام الجميـع عاريًـا، رغبـة في اللعـب وفرحـةً بتحـرره مـن ضيـق الحفـاض بـلا ريـب، نُبـدي خجـلا مـن منظـرِه ونُـردد بلطـف عبـارات تفيـد أننـا يجـب أن نُخفـي السـوءاتِ عـن العيـون، ونسـارع في إكمـال ملابسـه ثـم نتركـه يلعـب.

٢ – عـدم تعويـده كذلـك علـى استسـاغة رؤيـة أهـل بيتـه يتسـكعون أمامـه كاشـفي العـورات.

فـلا نفعـل هاتيـن النقطتيـن بحجـة أن الرضيـع (لا عـورة لـه ولا عـورة لنـا أمامـه) بعـد، وهـذا إن كـان – شـرعًا – صحيحًـا مـن جهـة حُكـم العـورات في هـذه المرحلـة، إلا أن هـذا ليـس مـن فقـه العـورات، فالحكـم ليـس علـى إطلاقـه وليـس لتسـويغ مثـل هـذه الأمـور،

فهذا الحُكم هو للحاجة والضرورة، لا ليكون أسلوب حياة، بل لرفع الحرج عن الأهل عند بعض المواقف اليومية التي تتطلب ذلك: مثل تغيير أي شخص من أهل البيت الحفاض للرضيع أو تحميمه بدلًا من أمه، أو إرضاع أمه له أو غيرها، أو دخول الرضع مثلًا للمرحاض مع الشخص لعدم وجود غيره في البيت يرعاهم، أما تعويد الطفل على العُري فخادشٌ لفطرة الحياء لديه تراكميًّا بلا شك، بخاصة مع تطور النمو الإدراكي للرضيع وبدء استيعابه لمفهوم العُري وإدراكه الفرق بين الأعضاء الخاصة والأعضاء العادية وبعض الاختلافات بين الذكر والأنثى، بل ومع تنامي قدراته على التعبير عما يراه وحكايته للآخرين، فلو عودناه على ذلك قبل عمر السنة ولم ننتبه، فعلى الأقل ننتبه ونتوقف عند بلوغه عامه الأول الذي يبدأ فيه المحاكاة، ولن يحاكِي شيئًا ليس في ذاكرته من قبل.

ويختلف الأمر تبعًا لإدراك الطفل ووعيه بأجزاء الجسم، والذي ربما يبدأ مبكرًا عند البعض، فكيف نعرف أن إدراك الطفل لتلك الأمور قد بدأ؟

يقول سلطان بن عثمان البصري: «وبالإشارة إلى الهوية الجنسية للطفل gender Identity نقول: إن (إدراك الطفل لهويته) بداية للسلوك المعبر عن جنسه؛ لتجدهُ يحاكي سلوك أبيه إن كان ذكراً (أو عكس ذلك)؛ ويُسمَى الدور الجنسي gender role»[1].

ونذكر أمارات أخرى لهذا الإدراك لننتبه.. عندما:

* يبدأ في الإشارة بيديه وتدقيق النظر بعينيه إلى مناطق العورات، سواء الشخص أمامه بملابس أم بدون.

* يطرح أسئلة متكررة عن تلك المناطق.

* يبدي الدهشة أو التحديق عندما يرى أحدًا دون ملابس، من الأهل أو غيرهم.

---

(١) من مقالة بعنوان: تعليم المعلمات الأطفال الذكور- لصادق بن محمد الهادي، على شبكة الألوكة.

* يطلب منكم أن ترتدوا ملابسكم أو يطلب عدم إظهار جسمكم أمامه دون ملابس.

* الضحك أو الانفعالات المختلفة عند رؤية أعضاء الجسم الخاصة.

* محاولته لمس الأعضاء الخاصة بمن يراه عاريًا.

* طلب الخصوصية لنفسه عند الاستحمام، أو عند تغيير ملابسه الداخلية.

عند أي محطة من هذه، نتوقف عن خلع ملابسنا أمامه أو الاستحمام معه، أو تعريضه للتعري بدون سبب معتبر أو ضرورة.

٣- يفضل فصل فراش الرضيع عن فراش الوالدين وغرفتيهما، بعد عمر العام على الأكثر، ويرجع لتفاصيل ذلك في صفحات مشكلات الرضيع وعلاجها.

٤- الحرص على عدم ظهور أمور المعاشرة الزوجية بين الزوجين ولا مقدماتها أمام الرضيع -إلا مظاهر المودة الوقورة المعتادة والمشتركة بين جميع أهل البيت - بخاصة بعد عمر ٦ أشهر، فبالإضافة إلى احتمال نمو إدراكه لتلك الأمور مبكرًا، فهو عند عمر العام تقريبا يبدأ في المحاكاة، وهذه المسألة من أشد مكامن الخطر.

٥- عدم تركه يعبث بمناطق عورته دون محاولة إلهائه، بشرط: يكون الإلهاء بأسلوب لا يفاقم من المشكلة أكثر ويؤجج العناد.

٦- عدم السماح بالتضاحك على أي أمور تخص العورات، وتعويده سترها، وإذا حاول أحد أقرانه المزاح في العورات أو كشفها، ننبهه أن يجري بعيدا عنه ويقوم بإبلاغنا.

٧- عدم تعويده وضع يده في موضع الرضاعة من أمه، بخاصة أثناء رضاعه منها، فلتأخذ الأم كل مرة يده وتضعها على خدها أو أنفها مثلًا لتلهيه، حتى لا تصبح عادة لديه مثل الطفل ذي الأربع سنوات الذي سنحكي عنه في تربية الفطيم.

٨- كلما تطور نمو الطفل الإدراكي، نحرص على الاستغناء عن التحاميل (اللبوس) - ذكرناه من قبل في المحور الصحي، وهو دواء يؤخذ في الدبر لعلاج الإمساك والحرارة وما شابه، بخاصة إذا كان الطفل شديد الحساسية له وينزعج منه ويتعالى صراخه وتشنجه أثناء تقييده لإدخاله كما قلنا من قبل، فتلك فطرة طبيعية من المهم المحافظة عليها لديه، وهو بالفعل أمر مؤذٍ نفسيًّا جدًا للبعض، إلا لو كانت الأم بالمهارة الكافية لإعطائه إياه في طرفة عين لا يشعر به معها فلا بأس.

٩- عدم إبداء تفاوتٍ بين مظاهر الاحتفاء بالرضيع الذكر وتلك الموجهة للأنثى، ولا في أي شيء ليس له أصل من الشرع، وذكرنا من ذلك أمثلة حياتية شائعة كثيرة في حقوق الرضيع النفسية والاجتماعية، فهذا الأمر متداخل بين المحاور الثلاثة.

١٠- إعطاء الرضيع ألقابًا وترخيمًا لاسمه بما يناسب جنسه، فلا نناديه بصيغ مؤنثة محض لو كان ذكرًا.. ولا العكس، وبخاصة فيما يخالف العُرف ويعتبر غير مشترَك بين الجنسين، فمثلًا: لو أنه ذَكَر، نستعمل «يا كتكوت» بدلًا من «يا كتكوتة»، و«يا عسل» بدلًا من «يا عسولة»، و«يا حبيبي» بدلًا من «يا حبيبتي»، و«يا بطوط» بدلًا من «يا بطتي»، و«يا سكر، أو «مسكر» بدلًا من «يا سكرة»، و«يا قمر» بدلًا من «يا قمرة».. إلخ، بينما لو قلنا مثلًا «يا جميل» أو «مين حبيبي» فهذا - عُرفًا - مقبول أنه للجنسين ومشترك بينهما، أعلم أن بعضكم ربما يشعر بمبالغة في هذه الفقرة، لكن لكل زمان تحدياته التي ربما تضطر أهلَه لاستحداث إجراءات وقائية إضافية لأمور لم تكن ملفتة من قبل، لاسيما وما شاع في زماننا من فتنة اضطرابات الهوية الجنسية، بما يجعلنا نجتهد في غلق كل منفذ لها ولو محتمل.

١١- عدم تشجيع الرضيع الذّكر على التراقص كالنساء، إلا لو كان تمايلًا طفوليًّا عشوائيًّا بريئًا، والفرق معروف.

١٢- عدم تعويد الرضيعة الأنثى على أن مكانتها لدى أبيها تشبه مكانة الزوجة للزوج، كما نوّهنا في مشكلات الرضيع، وآن أوان تفصيله. تعَجَّبَ بعضكم من تلك

النقطة؟ إن من الأطفال البنات من تنشأ لديها حبة خردل من الغيرة من أمها على أبيها كغيرة النساء على أزواجهن، فيبدأ الأهل في التضاحك على هذا الأمر والتحدث مع الطفلة عنه مرارًا وتكرارًا بطريقة ترسخه بداخلها أكثر وتجعل حبة الخردل جبلًا ضخمًا، ورأيت بنفسي مقاطع مرئية ومشاهد حياتية لذلك.

* **منها**.. زوج يجر عربة تسوق بداخلها طفلته، وبجواره زوجته تَشْبُك ذراعها في ذراعه، فإذا بالطفلة تنزع تشابُك ذراعيهما، والأم تصور تلك الغيرة بكاميرتها ويتضاحك الوالدان ويكرران المشهد مرارًا ليريا الجمهور حجم اشتعال الغيرة في قلب الطفلة وكيف أنها تعتبر أمها ضرتَها، وأباها زوجَها، وربما غيرتُها الأصلية غيرةٌ عادية، لكن تناوُل الأهل لها يضعها في خانة خطأ.

* **مشهد آخر**.. أم تسأل رضيعتها وهي على ذراع أبيها، والتي تبدو في عمر الـ ٢٠ شهرًا مثلًا: سأقول لوالدك ماذا قلتِ عنه أمس! فتسأل الطفلة وهي متعلقة بعنق أبيها بدلال مريب: ماذا قلتُ؟ فتجيب الأم: أنك لن تحبيه مجددًا! فتندهش الطفلة أن الأم تخبره بذلك! فتراوغ وتتدلل على أبيها أكثر في أسلوب نسائي لا يمت للطفولة بصلة تتعامل فيه كالضرة لأمها، وهي تنكر الأمر وتقول: لا لم أقل ذلك، لماذا تكذبين يا أمي؟ فيجيب الأب مبتسمًا: فعلًا ماما تكذب، هي تغار منا فحسب، أخبريها ألا تغار منا، فتخرج الطفلة لسانها للأم وتوجه إليها كلمات تخدم نفس الغرض، وتحتضن أباها أكثر كأنما تريد أن تستأثر به لنفسها وتُشعل غيرة أمها، ويتضاحك الوالدان على «سلوك الضرائر» ذاك.

ولا يدرك هؤلاء وأولئكم ما في هذا من سوء تنشئة جنسية شرعية للطفلة بل وخدش لفطرتها.

١٣- عدم تعويد الرضيع على تصنُّع أدوار تُخالف جِنسَه، سواء بغرض المزاح أو أداء المشاهد المسرحية التمثيلية أو لرغبة الأهل في تعويض وإشباع شعورهم بالنقص والحرمان من كونه وُلِدَ على خلاف الجِنس الذي كانوا يريدونه، والقصص عن ذلك

كثيرة، من أشهرها قصة غربية معاصرة ذَكَرَتْها الأخت الغالية «تسنيم راجح» في مقالة لها، لشخص يُدعى «والت» عانى من اضطرابات الهوية الجنسية والعبور الجنسي المزعوم، قام خلالها بالتحول إلى أنثى وسمى نفسه «لورا»، رغم أنه كان متزوجًا وله أولاد! إلى أن استقر نفسيًّا بعد ثمان سنواتٍ أخيرًا، بعدما حسم تلك الاضطرابات بعودته إلى جنسه الأصلي إثر اكتشافه أن اضطراباته النفسية لازالت قائمة وأنه لازال يشعر بأنه «ذَكَر» من داخله مهما تلاعب خارجيًّا أو وهميًّا في ذلك، والسبب في اضطراب الهوية الجنسية لديه كان أن جدته كانت تلبسه وهو صغير ملابس البنات وتلتقط له الصور بذلك، بجانب تعرضه لاعتداء جنسي من أحد المقربين(١).

١٤- الاهتمام بتعليمه خلع الحفاض والاستنجاء وحده متى أصبح الوقت مناسبًا، لتقليل تعرضه لكشف عوراته أمام أشخاص سوى الوالدين، ما أمكن.

١٥- عند بدء تعليمه خلع الحفاض وكيفية إتقان عمليات الإخراج، نسمي له بوضوح منطقتي الإخراج «عورة» - إن لم نكن قد بدأنا ذلك بعد - وإن أردنا التفرقة بين السبيلين، فلا نطلق عليهما أسماء غير شرعية، مثال: توتة، بوبو، دودا، توتو.. إلخ، إنما نقول «عورة أمامية، وعورة خلفية» أو بالعامية: «عورة ورا، وعورة قدام»، فذلك ربما أنسب من استعمال اسميهما الشرعيين في هذه المرحلة للرضيع - ذكر، فرج، دُبر.. إلخ، لماذا نستعمل اللفظة الشرعية «عورة» مع الطفل؟ لأن إطلاق اسم «عورة» بتكرار على تلك المنطقة، له أثر تربوي عميق، لما فيه من ترسيخ كون أنها سوءة نريد سترها ونستحي من إبدائها، فكلمة عورة عربية فصيحة معبرة عن المراد منها بكل بساطة وسهولة ويسر وفقه.

١٦- لا نضحك عندما يُخرِج ريحًا، بل نعوده على أنها عورة (معنوية) كذلك يُستحى منها وغير مثيرة للضحك، وهذه النقطة فيها زوايا بناء أخلاقي وفطري أيضًا، وتفصيلها أكثر في التربية الجنسية الشرعية للمراحل الأكبر بإذن الله.

(١) من مقالة على موقع السبيل بعنوان: «إجرام الليبرالية وضحايا التغيّر الأبدي»، بقلم تسنيم راجح، بتصرف واختصار يسير.

١٧- خمار الأم الواسع وإسدال صلاتها الطويل الفضفاض وعقدها الخرزي الصخاب، وأساورها الزجاجية الرنانة، وحذاؤها بكعبه ذي النقرات عالية الصوت، ورابطات شعرها المطاطية التي تجعل خصلات الشعر كذيل الحصان أو نافورة الحديقة.. إلخ، كل ذلك بالنسبة للرضيع مسرحًا للعب الاستكشافي البريء المحض، فمادام يفعله على فترات متباعدة وضمن بقية الألعاب العامة ومادام ليس في الملابس أو الأغراض ذهب أو حرير ولا زينة محضة من خواص زينة النساء كخضاب الحنة وطلاء الأظافر وأحمر الشفاه، ولا يبدو من الطفل أمارات ميول أنثوية، فلا قلق بإذن الله، فالذهب والحرير محرم على الصبيان الذكور - في رأي جمهور العلماء - فلا نلبسه إياهما حتى لو كان الصغار أقل من عامين، وعن جابر رضي الله عنه قال: «كنا ننزعه عن الغلمان ونتركه على الجواري»، وغيره من الصحابة كانوا يمزقونه على الصبيان ويتركونه على الفتيات الصغيرات، فالخوف هنا بشكل خاص هو مِن أن يعتاد الطفلُ الأمر المحرمَ وما يختص بالنساء، فإن رأيناه يلعب بارتداء ما سواهما بشكل عفوي فلا مشكلة، مع التكرار عليه كل مرة ما استطعنا، أن هذه أغراض خاصة فقط بـ«ماما» أو «البنات»، العب بها فقط إلى أن تكبر، أما أن يتخذ الطفل تلك الألعاب عادة له دون غيرها ونلمس منه ميلًا للظهور بمظهر أنثوي في ملبسه وزينته، فمن المهم أن نقوم بتوجيه ذلك مبكرًا بحكمة لئلا يعتاده ويألفه بما يؤثر على سوائه الجنسي، كذلك الطفلة الصغيرة ننتبه لذلك كله معها أيضًا، فمثلًا: لا ترتدي ملابس إخوتها الذكور التي صغرت عليهم، إذا كان واضحًا عليها أنها ملابس ذكور محضة، والرضيع الذكر بالمثل(١).

١٨- يفضل شراء الألعاب المناسبة لكل من الجنسين غالبًا، فنشتري للبنات العرائس وأدوات الطبخ والزينة ونحوها، ونشتري للصبيان ألعاب السيارات والحرف المهنية «الرجالية» والدمى الصبيانية، ونشتري لكليهما الألعاب المشتركة بين الجنسين

(١) من فتوى على «إسلام ويب بعنوان: حكم الشرع في إلباس الصبي ملابس الأنثى والعكس، باختصار وتصرف.

غالبًا، مثل أدوات الطبيب، والتلوين، والمكعبات، والخرز المستعمل في صنع الحُلِي للبنات ومِسبَحة الذِكْر.. إلخ، وليس شرطًا التزام كل منهما بألعابه، فقد يحب الصبي اللعب بأدوات الطبخ وقد تحب الأنثى اللعب بالسيارات وأدوات النجارة ولا حرج، فلا زالوا يختبرون الحياة ويتعرفون على كافة عناصرها، إنما هي خطوة في طريق التفرقة النفسية بين مجالات الإناث والذكور ولو بشكل غالب غير كامل، والأمر واسع في المجالات المشتركة.

١٩- عدم معاملة الذكر معاملة الأنثى ولا العكس، بل معاملة كل منهما بما يتسق مع تكوينه الجنسي الفطري والشرعي.

٢٠- عدم ترك الأولاد وحدهم في غرفة يلعبون دون رقيب، ومنعهم من محاكاة لعبة «الكشف عند الطبيب» إلا بضوابط فقه العورات المذكورة فيما سبق، ومنعهم من اللعب بالنوم فوق بعضهم وما شابه.

٢١- بجانب تطبيق إجراءات بسيطة لصيانتهم ضد الانتهاك الجسدي (التحرش):

* لا يغيب الطفل في هذه المرحلة عن عيون الأهل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

* عدم ذهاب الطفل للروضات أو أي أماكن بعيدًا عن رقابة الأهل، إلا روضات موثوقة وللضرورة، مع اتخاذ كافة إجراءات وقايته من أي شكل من أشكال الانتهاك الجسدي.. إلخ، والأفضل منع الروضة للرضع، فلا روضات قبل تَمَكُن الطفل من التعبير عن نفسه بوضوح وحكي الأحداث.

* تجنب انفراد أحد البالغين بالطفل، فترات طويلة، ولا في مواعيد منتظمة ثابتة، بخاصة مع غير الراشدين، أو مَن لا تَظهر تقواهم بوضوح؛ إلا مع تيقننا من تقوى الشخص ١٠٠٪

* عدم تركه إلا عند الأقارب أو المعارف الثقات، وفي صحبة جماعية قدر الإمكان.

❊ انتقاء من يخالطون الطفل عامةً، سواء في وجود الأهل أو في غيابهم، واستبعاد الأشخاص أصحاب أي سلوكيات غير سوية أو تتسم بالخلاعة والميوعة والاستهتار بالعورات ونحوها.

❊ تعليم الطفل أن يحكي الأحداث ويعبر عن مشاعره ومن يحبهم ومن لا يحبهم ويخافهم.

❊ تحديد أشخاص محددة ذات خلق وأمانة، هي من تقوم بتغيير الحفاض للطفل في حال غيابنا.

❊ بجانب التكرار على الطفل دوريًّا كل ما قلناه من تعليم الطفل أسس حماية العورات وصيانتها عن العبث.

❊ مع استخارة بالطبع قبل أي إجراء يخص اختلاط الطفل بالعالم الخارجي بعيدًا عنا، ثم نستودعهم الله أولًا وأخيرًا.

نعود لنحكي عن أولًا.. البناء الديني

❊ جاء في أحد تعريفات التربية أنها: «تنشئة الإنسان بـ(صِغار العِلم) قبل (كِباره)، حتى يصل إلى ما تيسر له منها.. وتلك هي مهمة المعلم الرباني الراسخ في العلم»[(١)].

❊ وذكرَ ابنُ سعدٍ في الطَّبقاتِ: أنَّ أمَّ سُليمٍ كانَت تلقِّنُ أنسًا ولدَها الشَّهادتين قبلَ أن يبلغَ سنتين[(٢)].

❊ وقال ابن عاصم: ذهبت بابني إلى ابن جريح، وهو ابن أقل من ثلاث سنين، يحدثه بهذا الحديث والقرآن.

❊ وقال أبو عاصم: لا بأس أن يتعلم الصبي الحديث والقرآن وهو في هذه السن[(٣)].

---

(١) من دليل المقاصد التربوية العامة، نقلا عن لسان العرب.
(٢) من مقالة لد. إبراهيم الدويش بعنوان: توجيهات وأفكار في تربية الصغار، على موقع صيد الفوائد.
(٣) من مقالة على مداد بعنوان: علموا أولادكم حفظ القرآن.

* وحين أتقن حماد بن أبي حنيفة سورة الفاتحة وهب أبو حنيفة المعلمَ خمسمائة درهم.. واستكثر المعلمُ هذا السخاء إذ لم يُعَلمه إلا الفاتحة! فقال أبو حنيفة: «لا تستحقر ما علَّمْتَ ولدي، ولو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيماً للقرآن».

قارنوا تلك الدراري المتلألئة، بالقصةِ المرعبة التي ذكرناها في فصل حقوق واحتياجات الرضيع والتي جاء فيها أن إحدى الأمهات المسلمات المتأثرات بدورات التربية الغربية، تترك صغيرها دون توجيه لأي دين حتى يكبر ويقرر بنفسه دون تدخل من الكبار لأن هذا هو الصواب تربويًّا! بل وقارنوا تلك الدراري بالموجة المتنامية الآن بعدم تعديل سلوك الصغار الخطأ بالآية والحديث!

وتعالوا نتعلم كيفية ملء الرضيع دينيا ودعم وتوجيه بنائه الإيماني والفطري والأخلاقي بما يجعله من المفلحين في الدارين بإذن الله.

لكن قبل البدء، وجب التذكير:

١- بما قلناه في سمات الرضيع في شهره الأول، من أنه يستطيع (معرفة جزء من الرسالة المراد نقلها إليه).

٢- بمركزية القدوة بشكل خاص في تلك المرحلة، واستحضار وصية عمرو بن عتبةَ إلى معلِّمَ ولدِه[1]: «ليَكُن أوَّلَ إصلاحِك لولدي إصلاحُك لنفسِك، فإنَّ عيونَهم معقودةٌ بعينِك، فالحَسَنُ عندَهم ما صنعتَ، والقبيحُ عندَهم ما تركتَ».

٣- بما فعله الإمام سهل التستري[2] ولم نتناوله بعد من قبل، هذا المربي الحكيم، أحد أعلام الأئمة في القرن الثالث الهجري - أي أنه من خير القرون التي زكاها ﷺ لنقتفي أثرها إن أردنا الخير حقًا.

حكى يقول: كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي

(١) من مقالة لد. إبراهيم الدويش بعنوان: توجيهات وأفكار في تربية الصغار، على موقع صيد الفوائد.
(٢) قصة سهل بن عبد الله التستري، على موقع «قصة الإسلام» للدكتور راغب السرجاني.

محمد بن سوار، وكان يقوم بالليل، وكان يقول: يا سهل، اذهب ونم، فقد شغلتَ قلبي، وقال لي يومًا خالي: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: (الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي)، فقلت ذلك ليالي ثم أعلَمتُه، فقال: قلها في كل ليلة سبع مرات[1]، فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوة، فلما كان بعد سنة - أي صار عمره ٤ سنوات - قال لي خالي: احفظ ما علَّمتُك ودُم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدتُ لها حلاوة في سِرّي، ثم قال لي خالي يومًا: يا سهل، من كان الله معه وهو ناظرٌ إليه وشاهدُه، لا يعصِيه، إياك والمعصية.

لو وقفنا لنستعرض فوائد هذه القصة لطالت بنا السطور وجفت دونها المحبرة.

لكن دعونا نجمع منها تغريدات سريعة:

* يخاطب طفلًا ٣ سنوات بمقاطع لغوية مناسبة لمرحلته، قصيرة، فيها تكرار لكلمة الله، سهلة الألفاظ ومعاني التوحيد فيها، مما يفهمه الطفل عامةً وبدأ يمارسه في حياته ويُفيد معنى النظر والتواجد الدائم:« ناظر إليَّ.. معي».

* يستعمل أسلوب الإثارة والتشويق للفت نظر الطفل إلى لغزٍ لا يعرفه: ألا تذكر الذي خلقك؟

* يلفت نظر طفل ٣ سنوات إلى أهمية عدم انشغال قلب المسلم بمن نحبهم عن العبادة وذكر الله، ومعنى أن «الله» أهمّ.

* يكلم طفل عن ذكر الله بالقلب أولا وأهمية ممارسته، من خلال تمرين عملي قابل للتطبيق.

---

(١) العدد اجتهاد منه فقط للتمرين ولا إلزام فيه للمسلمين بالطبع.

* يـدرّج للطفـل التمريـن عدديـا كلمـا أتقـن مرحلـة والتـزم بهـا: «ثـلاث مـرات ثـم سـبع مـرات» كمثـال.

* يعلـم الطفـل الثبـات والجديـة والمواظبـة وأهميـة «التكـرار» للحفـظ (لأن الثبـات هـو وقـود العمـل)، يعلمـه ذلـك وهـو بعـد لا يـزال في مرحلـة الميـل الشـديد للعب، وتـرك الجديـة، والتفلـت مـن تطويـع السـلوك: «احفـظ ذلـك و(دُم) عليـه».

* يكلـم طفـلًا ٤ سـنوات عـن المـوت والقـبر ونزولـه فيـه وعـن يـوم القيامـة بـكل بسـاطة، ممـا يـدل على أن ذكـر ذلـك موجـود عندهـم بشـكل طبيعـي منـذ ولادة الطفـل دون أي تحـسس مزعـوم مـن خطـورة ذلـك عـلى الطفـل: «إلـى أن تدخـل القـبر».

* يخاطـب فطـرة الطفـل المائلـة تلقائيًّـا لـكل مـا ينفـع النفـس، فيرغّبـه في ذلـك عـن طريـق تقريـر نفعـه لـه ليـس فقـط في الآخـرة الآجلـة وإنمـا في الدنيـا العاجلـة أيضًـا: «فإنـه ينفعـك في الدنيـا والآخـرة».

* يبيـن للطفـل بعدمـا كـبر أكثـر واعتـاد عـلى مراقبـة ربـه، الثمـرة النافعـة مـن وراء كل ذلـك: «مـن يوقـن بذلـك يـا بنـي لا يعصـى الله.. » ثـم يوصيـه «إيـاك والمعصيـة».

فصار لدينا: الإمام التستُّريّ رحمة الله عليه!

فـإن سـألتم: لكنـه لازال طفـلًا؟! فأقـول: بـل ربمـا في زماننـا نحتـاج للبـدء مبكـرًا أكثـر عـن تلـك السـن وعـن مرحلـة الحسـن والحسـين عندمـا كانـا في السـابعة، لشـدة الفتـن التـي صـارت تقتحـم عنـوةً عقـول وحـواس وأفئـدة أطفالنـا وتتخطفهـم في أهـم مراحـل نموهـم المعـرفي والإدراكـي والحِسـي: الطفولـة.

فعلينـا أن نتلمـس أي موطـن اسـتيعاب مبكـر لديهـم لنغـرس مـا أمكننـا مـن بـذور الخيـر حتـى ترسـخ لديهـم جـذور أشـجار توحيـدٍ قويـة يواجهـون بهـا هـذا التوحـش والاسـتذئاب المتصاعـد مـن حولنـا.

وقال الماورديُّ مؤكِّدًا على هذا المعنى: «فأمَّا التأديبُ اللازمُ للأبِ فهو أن يأخذَ ولدَه بمبادئ الآدابِ ليأنسَ بها وينشأَ عليها فيسهل عليه قبولُها عندَ الكبرِ لاستئناسِه بمبادئها في الصِّغَرِ، لأنَّ نشأةَ الصَّغيرِ على شيءٍ تجعلُه متطبِّعًا به، ومن أُغفِلَ في الصِّغَرِ كان تأديبُه في الكِبَرِ عسيرًا»[1].

البناء الديني للرضيع

هذا النوع من البناء بالذات، الكلام عنه له فرعان بارزان:

١- الوسائل المساعدة في الغرس.

٢- والتفاصيل الدينية التي سنغرسها.

وليس هذا التقسيم لأي نوع بناء آخر في هذه المرحلة، إلا بشكل نادر وسطحي.

أولًا: الوسائل المساعدة على الملء الديني بسلام في الرضيع

كل ما قلناه في الملء أو البناء:

١- التحصيني.

٢- النفسي.

٣- الانفعالي.

٤- الاجتماعي.

٥- اللغوي والمعرفي.

٦- الحسي والإدراكي وتطوير الذاكرة.

٧- الحركي والمهاري.

---

(١) من مقالة لد.إبراهيم الدويش بعنوان: توجيهات وأفكار في تربية الصغار، على موقع صيد الفوائد.

٨- حتى كل ما قلناه في المحور الصحي، وسيتضح ذلك بقوة عندما نتكلم عن البناء الفطري.

فكلها وسائل لضمان نجاح البناء الديني في الأصل لأن الدين أهم ضرورات الحياة ولأجله خُلِقت هذه النطفة وترعرعت سوية، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

ثانيًا: تفاصيل الملء والبناء الديني للرضيع

وتنقسم تلك التفاصيل التي نريد غرسها كما قلنا، إلى:

١-تفاصيل البناء الفطري.

٢-تفاصيل البناء الإيماني أو العقدي.

٣-تفاصيل البناء الأخلاقي أو القيمي.

والمغزى المشترك بين تلك التفاصيل، هو تحقيق المعارف الثلاثة الآتية:

١-معرفة مَن يتوجه إليه الإنسانُ.. [وهو الله خالقه ومعبوده وحاكمه].
٢-معرفة كيف يتوجه إليه الإنسانُ.. [كيف يعبده].
٣-معرفة أين سيتوجه الإنسانُ، وعاقبتُه.. [الجنة والنار.. ليخاف الله به ويرجوه].

قال الشاطبي بعدما أوردهم: «وهذه الثلاثة داخلة تحت جنس (أصل) واحد، عبّر عنه قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]»(١).

أولًا: البناء الفطري للرضيع

خارج فصول هذا الكتاب، كنا قد فصلنا من قبل في حوالي عشرة مقالات، كل ما يخص الفطرة ومعناها ومكوناتها وكيفية صيانتها وتوجيهها واستغلالها لتؤدي

(١) من دليل المقاصد التربوية العامة، ص٨٧و٨٨، نقلا عن كتاب «الموافقات» للشاطبي، بتصرف واختصار وتبسيط للعبارة.

دورها الذي أودِعَت هي فينا لأجله، ويعنينا هنا أن نبين ببساطة واختصار ما يتصل منها بالبناء الفطري للرضيع فقط، لأنها أول ركن في البناء الديني.

قال النبي ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1]، وفي رواية: «أو يشرِّكانِهِ - (من الشرك)»[2].

فالفطرة هي الجوهر والهيئة الأولية السوية التي خلق الله عليها الإنسان، والتي تظهر آثارها على سلوكياته تلقائيًّا طوال مراحله العمرية، بدون أي تلقين خارجي، وشبهناها مِن قبل بالجهاز الذي «بكرتونته» لتقريب المعنى، فلو افترضنا أن هناك طفلًا ولد في جزيرة ومات والداه بعد الولادة وترعرع وحده هناك إلى أن كبر وصدرت منه سلوكيات تلقائية تجاه المخلوقات التي حوله في الجزيرة، ولم يتلقَّ أي تلقين تعليمي أو تربوي، فهذه السلوكيات التلقائية هي بسبب الفطرة الأولية دون نقص أو زيادة، والتي يتصرف على أساسها الإنسان، تمامًا كنظام التشغيل -OPERATING SYSTEM - الذي يكون على الحواسيب الجديدة قبل بدء استعمالها وإدخال أية بيانات إليها.

وبالتالي:

* لحسن استعمال الجهاز في الغرض الذي صُنع لأجله والتمكن من إدخال بيانات إليه والإفادة منه، عليك استخدامه وفق نظام التشغيل المُودَع فيه.

* ولحماية نظام التشغيل من الخلل في تنفيذ الأوامر التي تعطيها له، عليك توفير حماية له من المُدخَلات الضارة، حتى لا يكون بينها فيروس مما يفتك بنظام التشغيل مباشرة ويجعله يفعل عكس الأوامر التي يعطيها المُستخدِم، فتصبح حالة الجهاز أشبه بالجنون لخروج استجاباته عن المسار الطبيعي، فلا يعود في إمكاننا الإفادة منه حينها سوى بإعادة تحميل نظام التشغيل من جديد وإعادة ضبط المصنع كما كان أول مرة وصل إلينا.

(١) البخاري (١٣٨٥).
(٢) صححها الألباني-صحيح الترمذي (٢١٣٨).

وهكـذا فطـرة الإنسـان، ولهـا مكونـات وعناصـر، وكل إنسـان يولـد علـى الفطـرة النقيـة، ثـم نضيف عليهـا أو نسـلب منهـا، فمـن حقـوقِ الطفـل الحِفـاظ علـى فِطرتِـه وعـدم تعريضِهـا للخَـدش والتشـوش والسـلب، بـل هـي أعظـم أمانـة لاعتمـاد البنـاء الدينـي عليهـا كامـلًا، بالتالـي ارتباطِهـا بمصيرِ الإنسـان في الآخـرة: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا قُـوا أَنفُسَـكُمْ وَأَهْلِيكُـمْ نَـارًا وَقُودُهَـا النَّـاسُ وَالْحِجَـارَةُ..﴾ [التحريـم:٦].

فهـذا الإنسـان المولـود علـى الجزيـرة النائيـة وحـده، يعلـم بفطرتـه طـوال مراحـل عمـره، أن هنـاك مـن خلقـه وخلـق كل هـذا مِـن حولـه، وأنـه عظيـم وكبيـر وقـوي وقديـر وحكيـم وغنـي جـدًا لكـي يخلـق كل هـذا وبـكل تلـك الدقـة المدهشـة وبـلا عـدد، وأنـه أحاطـه بعنايـة ورحمـة ولطـف ونِعَـم ورزق وفيـر يعجـز عـن إحصائـه، وأنـه يحفظـه وهـو نائـم لأنـه حيـن ينـام ويصحـو كل مـرة لا يجـد الكـون قـد خـرب مـن حولـه بسـبب نومـه ولا السـماء سـقطت علـى الأرض، فحيـن تهـب ريـاح عاتيـة مثـلًا بأصـوات شـديدة، يصيبـه الخـوف وينظـر تلقائيًـا عاليًـا إلـى السـماء متضرعًـا إلـى هـذا الـذي خلقـه ولابـد أنـه يـراه ويسـمعه، أن ينقـذه، يعلـم كل ذلـك تلقائيًّـا بالفطـرة، ويتسـاءل أيضًـا بالفطـرة: لمـاذا خلقنـي وأوجدنـي في هـذا المـكان؟ وأيـن هـو؟ ومـاذا يريـد منـي؟ ولا يعلـم الجـواب بعـد.. ولأجـل ذلـك يرسـل الله الرسـل.

ثـم هـذا الإنسـان كذلـك حيـن يجـوع يبحـث بالفطـرة عـن طعـام، وحيـن يختطـفُ ثعلـبٌ طعامَـه يغضـبُ ويحـزن ويتعلـم أنـه حيـوان ماكـر لأنـه يعلـم بالفطـرة أن هـذا سـلوك سـيء ومكـروه، وحيـن يأتيـه كلـب بقطعـة لحـم ليشـاركها معـه يفـرح ويتعلـم أنـه حيـوان طيـب لأنـه يعلـم بالفطـرة أن كـرم الآخريـن معنـا سـلوك جميـل ومحبـوب، وحيـن تلسـعه النـار يحذرهـا لأنـه يعلـم بالفطـرة العقليـة أنهـا ستسـبب لـه ألمًـا مـرة أخـرى، ويعلـم بالفطـرة الغريزيـة أن يجتنـب مـا يسـبب لـه ألمًـا، وحيـن يجـد كوخًـا أكبـر مـن الكـوخ الـذي يعيـش فيـه يفـرح ويذهـب إليـه، أو شـجرة بهـا طعـام وفيـر أكثـر يذهـب إليهـا لأنـه يعلـم بالفطـرة العقليـة أن الأكبـر أعظـم مـن الأصغـر وأن الأكثـر أزيـد مـن الأقـل وبفطرتـه الغريزيـة يعشـق الزيـادة.

وحين يباغته أحد الوحوش يريد أن ينقض عليه فإنه لا يظل واقفًا أمامه مبتسمًا في وجهه بل بفطرته الغزيزية يركض بأقصى سرعته بعيدًا عنه ويختبيء منه في مكان لا يراه فيه، وحين يجد آثار أقدام أرنب على الأرض يعرف بفطرته العقلية أن هناك أرنب قد مر من هنا، وحين وجده أصبح متحيرًا: هل يصطاده ويحفظه ليأكله غدًا أم يتركه لأنه متعب اليوم؟ يفكر لأنه بفطرته لن يتوجه لفعل شيء لا يريده من الأصل، ثم حين يُقرر بإرادته أن يمسك به يفلت منه، فيحزن لأن شعور الإخفاق مؤلم بالفطرة وشعور النجاح مفرح بالفطرة، لكنه لا يندهش لأنه يعلم بالفطرة أنه ليس كل ما (لا يريده) أن يحدث - (لا يحدث)، وحين يرى حيوانًا مسكينًا يعاني من قسوة حيوان مفترس فإنه يحاول مساعدته وإنقاذه ويفرح بعدها بامتنان الحيوان الضعيف له موقنًا أنه قد عمل عملًا جميلًا، وحين يتعثر في مشيته مثلًا وتنكشف عورته من أسفل ورق التوت الذي جمعه معًا حول خصره بأعواد وخيوط نباتات رطبة، فإن أول شيء يفعله تلقائيًّا هو إسدال تلك الأوراق على عورته مرة أخرى ليسترها رغم أنه ليس ثمة أحد في الجوار، ثم يقوم وينفض عن بدنه أي وَسَخٍ أو وحلٍ أو قطرات دماء لأنه بفطرته يميل للتنظف والتجمل والتخلص من كل قبح يمس بدنه، ثم حين تضربه يد فجأة من خلف سيقان الأشجار فيلتفت ولا يرى شيئًا! يرفض بفطرته العقلية أن يقتنع أنه ليس هناك أحد، فمادام شعر بالضربة فلابد وأن هناك من قام بها، فيفتش بين سيقان الأشجار وبالفعل يفاجأ بقردٍ صغيرٍ قد تهيأ ليضربه مرة أخرى وحين انكشف مكانه فر هاربًا.

وحين يتتبعه ليشبع فطرة البحث عن الإجابات، ويصل إلى مكانه ويرى عائلات الحيوانات يغمُرُها الود والألفة والأنس ومنها الصغير والكبير والأنثى والذكر فيسكن بجوارهم ويراهم يتكاثرون ويلدون كلَ حين أنفُسَ جديدة صغيرة مدهشة ومحببة للنفس، يتمنى أن لو كان رأى والداه الذَين أنجباه مثل هؤلاء، ويشعر بفطرته الغريزية تلقائيًّا برغبة في أن تكون له أسرة طبيعية بدوره هو أيضًا مثلهم، أب وأم وأولاد.

هذه هي الفطرة ببساطة، بكل مكوناتها الستة، والأطفال مثلهم مثل أي نفسٍ قد خلقها اللهُ، وُلِدُوا حنفاءَ على الفِطرةِ، الفرق فقط هو في توقيت بدء ظهور آثارها على السلوكيات، فغالبيتها كامنة في الصغار لحين استثارتها في أوانها المناسب، بحسب تطور النمو الحسي والعقلي والعضوي، والأصل في هذا الجوهر الفطري هو الصلاح، فلا يوجد إنسان قد خلقَه الله شريرًا محبًّا للشر بالفطرة مثلًا، كما فصلنا في مقدمة الكتاب.

وتأملوا معي ما جاء في إحدى المقالات العلمية، نقلًا عن صفحة كهنة الإلحاد (وهي تجربة أكد عليها كذلك وأمثالها: د/ عبد الله العجيري وشاهدتها بنفسي في مقطع مرئي للتجربة أشار إليه، فهي من العلم التجريبي):

«النتائج التي قدمها علم النفس الغربي من خلال الكثير من الدراسات المستجدة سمحت بحسم في القضية وأظهرت أنّ الأصل في الإنسان هو الصلاح، وأنه يمتلك بالفعل جوهرًا أخلاقيًّا فطريًّا Innate moral core منذ الولادة قبل التعرض لأيّ تلقين، ويأتي أحد أقوى الأدلّة على ذلك:

الملاحظات المتكررة للميل الشديد إلى حب الخير لدى الأطفال الصغار واندفاعهم بمحض إرادتهم لتقديم المساعدة دون انتظار أية مكافأة، وأظهر العالمان وارنيكن وتوماسيلو في سنة ٢٠٠٦ من خلال عدة تجارب أنّ الرضع بعمر سنة ونصف ميالون بشدة لفعل الخير ومساعدة الآخرين بدون مقابل، وفي سنة ٢٠٠٧ قام فريق باحثين بتقييم سلوك الرضع البالغين من العمر ٦ و ١٠ أشهر لمعرفة هل يفرقون بين الخير والشر، بخاصة أنهم صغار وليست لديهم خبرة اجتماعية بعد، وتم التقييم عبر بروتوكول بسيط نسبيًّا حيث يشاهد الرضع شاشة فيها شخصية كرتونية على شكل دائرة حمراء تحاول تسلق جبل، ثم يعرض شريط ثان فيه شخصية كرتونية بشكل مثلث أصفر يلعب دور المساعد Helper (سلوك الخير) يساعد الدائرة الحمراء على التسلق، ثم شريطًا ثالثًا فيه شخصية كرتونية على شكل مربع أزرق يلعب دور المُعِيق Hinderer (سلوك الشر) يمنع الدائرة الحمراء من الصعود ويدفعها لأسفل.

بعـد انتهـاء العـرض قـام الباحثـون بتخييـر الرضـع بيـن الشـخصية المسـاعِدة والمعِيقـة فاختـاروا الشـخصية المسـاعِدة (المثلـث الأصفـر) مـا يعنـي أنهـم يمتلكـون دافعًـا فِطريًّـا لحب الخيـر والمسـاعدة ورفـض الشـر، دون الحاجـة لمـن يخبرهـم أنّ هـذا خيـر وذاك شـر.

وُنشِـرت النتائـج في ورقـة بحثيـة بمجلّـة نايتشر Nature، ورد في خلاصتهـا أنّ الرضـع يُفَضّلـون فـردًا يسـاعد شـخصًا آخـر أكثـر مـن شـخص يُعِيق الآخـر، ويُفضلـون فردًا مُسـاعِدًا علـى فـرد محايـد، ويُفَضلـون الفـرد المحايـد علـى الفـرد المُعِيـق، ولاسـتبعاد احتمـال أن يكـون اختيـار الأطفـال مبنيًّـا علـى عوامـل أخـرى متعلّقـة بلـون الدمـى أو شـكلها مثـلًا، قـام الباحثـون في جامعـة ييـل بتكـرار التجربـة سـنة ٢٠١٠ (أي بعدهـا بثـلاث سـنوات)، لكـن هـذه المـرة بتغييـر الألـوان وشـكل الدُمَـى، والنتيجـة مثلمـا كان متوقعًـا – وبمـا يتفـق مـع وجـود جوهـر أخلاقـي فطـري – أنّ الأطفـال كانـوا يختـارون الدُميـة المسـاعِدة في كل مـرة ولا يهتمـون بلونهـا أو شـكلها أو أي متغيـرات هامشـية أخـرى[1].

كل تلـك السـلوكيات أو النزعـات الشـعورية التلقائيـة، التـي ذكرناهـا في فقـرة إنسـان الجزيـرة أو في فقـرة تجربـة الأطفـال، هـي نمـاذج قليلـة جـدًا لآثـار الفطـرة الأوليـة المودَعـة بداخلنـا بشـتى صـور التعامـل الأوّلـي منـا مـع كل مـا حولنـا، ويتشـابه فيهـا كل البشـر أسـوياء الفطـرة، سـواء كانـوا مسـلمين أو غيـر مسـلمين، سـواء كانـوا يعيشـون وحدهـم أو في جماعـات.

ومـن خـلال تتبـع الأمثلـة المذكـورة في الفقـرات السـابقة، نفهـم مكونـات الفطـرة السـتة.. وهـي كالتالـي:

١-الفطرة الإيمانية.. (معرفة وجود خالق تلقائيًّا، وبصفات كمال معينة).

٢-الفطرة الأخلاقية والقيمية.. (معرفة أساسيات الخير والشر تلقائيًّا)

---

(١) من مقالة «فطرية الأخلاق»، بقلم حسان بن عابد، النظرية التركيبية الحديثة: دراسة نقدية في ضوء المستجدات العلمية. دار الدليل الأمين للنشر والترجمة ٢٠٢٢. نقلا عن صفحة كهنة الإلحاد، بتصرف لفظي يسير جدا تسهيلا للفهم، واختصار.

٣-الفطرة الغريزية.. (الميل تجاه إشباع احتياجات محددة).

٤-الفطرة الغائية.. (التساؤل عن الغاية من الوجود).

٥-فطرة الإرادة الحرة.. (حرية الاختيار بإرادتنا أحيانًا وصعوبة ذلك أحيانًا أخرى).

٦-الفطرة العقلية.. (المبادئ الحسابية والمنطقية الأولية التي ينبني عليها كل تفكير منطقي).

بجانب سنن الفطرة وخصال النظافة والجمال (تهذيب وتنظيف وتجميل البدن).

وقد أودع الله فينا الفطرة لتُهَيِّئَنا لقبول رسالتِه وتعاليمه حين يرسل الرسل إلى البشر، ولكي نحافظ بها على حياتنا لأجل استمرارية عمارة الأرض برسالة الله إلى يوم القيامة، فالفطرة هي كالأساسات للبناء، بينما التلقين المُكتَسَب هو كالأدوار للبناء، وهذا أكثر اختصار وتبسيط نستطيع أن نُجمل لكم به مؤقتًا صورة عامة عن الفطرة لنتمكن على أساسها من شرح كيفية دعم البناء الفطري للرضيع.

قلنا منذ قليل: «ويتشابه فيها كل البشر أسوياء الفطرة»، فكيف تتحول الفطرة السوية إلى فطرة مشوهة غير سوية؟ وكيف نصونها ونوجهها لأداء دورها المطلوب، بكل مكوناتها؟ **الجواب**: الداعم المشترك العام بين صيانة كل مكونات الفطرة: هو القرآن، كثرة إلقاء بيِّناتِه على حواس الطفل وتلقينه إياه ليل نهار، ثم تعليمه معانيه كلما تطور نموه اللغوي والمعرفي رويدًا.

قال السيوطي: «تعليم الصبيان القرآن أصلٌ من أصول الإسلام، فينشأون على (الفطرة)، ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة، قبل تمكن الأهواء منها وسوادها بأكدار المعصية والضلال».

ثـم لـكل مكـون مـن مكونـات الفطـرة، وصايـا خاصـة للعنايـة بهـا بشـكل مسـتقل، نبينهـا كمـا يلـي.

١-الفطرة الإيمانية للرضيع

كيف نصونها من التشوش ونستغلها وننميها؟

١- بالتكـرار علـى الرضيـع بألفـاظ تناسـب تطـور نمـوه اللغـوي والإدراكـي، أن الله هـو الخالـق الـرازق العظيـم القديـر القـوي الحفيـظ الـذي لا نستغني عنـه. وفطرتـه مهيأة لقبـول ذلـك.

٢- إظهـار الدعـاء لهـم ولأنفسـنا، وإظهـار اللجـوء إلـى الله عنـد الشـدائد أمامهـم، وبينّـا بأحاديـث كثيـرة كيـف أن السـنة عامـرة بذلـك، حيـث كان ﷺ يضـع الصغـار في حجـره ويدعـو في وجوههـم بـكل خيـر، مؤكـدًا دومًـا أمامهـم افتقـارَه كمخلـوق لـرب الخلائـق في كل مـا يرجـوه ويحـاذر منه.

٣- بالإكثـار مـن تعريـض الرضيـع لكتـاب الله المنظـور، أي احتكاكـه المباشـر بالطبيعـة مـن حولـه ومـا فيهـا مـن مخلوقـات مثلـه قـد خلقهـا الله، فيترسـخ تعظيـم الله أكثـر، شـمس وهـواء وسـماء وجـداول مائيـة ومسـاحات واسـعة ونباتـات وحشـرات وحدائـق بهـا حيوانـات أليفـة تلعـب مـن حولـه ويراقـب بديـع صنـع الله فيهـا. تأملـوا حولكـم داخـل جـدران البيـوت وعـدوا كـم فيهـا مـن مظاهـر طبيعيـة تعـزز الفطـرة الإيمانيـة؟ غالبًـا لـن يكتمـل العـد علـى أصابـع اليـد الواحـدة، وهـذه مشـكلة، وكلمـا غابـت مظاهـر قـدرة الله الواضحـة عـن الحـواس، كلمـا خَفَـتَ صـوت الفطـرة الإيمانيـة، لذلـك ربمـا أنصـح الأمهـات الـلاتي يعجـزن عـن الخـروج بأولادهـن إلـى الطبيعـة، أن يَعرضـن لصغارهـن مرئيـات علـى الشاشـات أحيانًـا عـن مثـل مـا ذكرنـا مـن مخلوقـات الله، بمـا ينـاسـب الرضيـع، مـع مراعـاة عـدم مكثـه طويـلًا أمامهـا وأن تكـون الشاشـة كبيـرة كفايـة حتـى نتمكـن مـن المشـاهدة عـن بعـد دون الحاجـة للالتصـاق بالشاشـة إلـى آخـر مـا ذكرنـاه عـن الشاشـات

للرضع، مع تأكيدي أن هذا إجراء استثنائي لتحقيق مصلحة إيمانية هامة لنمو الفطرة الإيمانية لدى الطفل، في حالة غياب الوسائل الأخرى، خاصة أن أثرالطبيعية الحقيقية ليس كالمرئيات المتحركة ثلاثية الأبعاد.

٤- بتعليم الطفل بقية صفات الله وأفعاله التي قد لا تكون معلومة بالفطرة بعد، من خلال المواقف اليومية والأمثلة السهلة، تجدونها بالتفصيل ضمن البناء الإيماني العقدي للرضيع في المحور التالي، بما يناسب الرضيع.

٥- بمحاوطة الرضيع بالقدوات الطيبة المستقيمة على الفطرة الإيمانية السوية، والشريعة اهتمت كثيرًا بتوفر شروط دينية وأخلاقية في الحاضن الذي سيتولى حضانة الرضيع، وكان من بينها:

اشتراط بعض الفقهاء شرط «الإسلام» للحاضنة، تقديما لضرورة حفظ دين الطفل على حاجته لحاضنته الأم، من باب أنه لا ولاية لكافر على مسلم، وخالفهم فقهاء آخرون فلم يشترطوا إسلامها بل قدموا حق الحضانة عليه، مستدلين في ذلك بحديث من أعذب ما يكون لما فيه من كنوز لا تحصى: «عن رافع بن سنان يقول: «أنَّهُ أسلمَ وأبَتِ امرأتُه أن تسلمَ، فأتتِ النبي ﷺ فقالت ابنتي! وَهيَ فطيمٌ أو شبَهُهُ - أي فطمت عن الرضاعة أو نحو هذه السن - وقالَ رافعٌ: ابنتي! قالَ لَه النبي ﷺ: اقعد ناحيةً، وقالَ لَها: اقعدي ناحيةً.. وأقعَدَ الصَّبيَّةَ بينَهما، ثمَّ قالَ: ادعواها.. فمالتِ الصَّبيَّةُ إلى أمِّها، فقالَ النبي ﷺ: اللَّهمَّ اهدِها.. فمالتِ الصَّبيَّةُ إلى أبيها فأخذَها»[1].

ويتبين لنا من الحديث - رغم اختلاف الفقهاء في شرط الإسلام - حجم اهتمامه ﷺ بأمر القدوة التي سيترعرع في حضنها الطفل ويراقبها يوميًّا مرارًا وتكرارًا.

(١) صححه الألباني-صحيح أبي داود (٢٢٤٤) .... | (١) من كتاب الفقه الإسلامي وأدلته، لدكتور وهبة الزحيلي، باختصار وتصرف يسير.

٦- وبتجنب ما يخدشها، فمثلًا:

* لا نترك الطفل يطالع مَشاهِدَ فيها سجود وطقوس عبودية لأصنام أو لمخلوقات أخرى، وهذا مبثوث في مرئيات وكرتونات غربية كثيرة.

* لا نسرف في الترسيخ لدى الطفل أننا الحفظة الأقوياء الذين سيجدهم في كل وقت ولا يغفلون عنه لحظة، بل ينبغي أقلمة الرضيع على ضعفنا البشري وتقصيرنا، وصيانة فطرته المهيأة بالفعل لحقيقة أن الخالق غير المخلوق، ففي دراسات للإلحاد النفسي تم تسجيل حالات إلحاد بسبب وفاة الأب مثلًا، والإلحاد هو نكوص تام عن الفطرة الإيمانية، ولا يكون ذلك إلا لشدة اعتقاد الطفل أن أباه خارق لقوانين البشرية والمخلوقية (سوبر مان)، فلما مات حصلت له صدمة نفسية أدت للإلحاد، فمن صيانة فطرة الأبناء تعويدهم ليل نهار على معاني الألوهية والمخلوقية وتبعات كل منها، لتحقيق توازن نفسي وإيماني راسخ بإذن الله، ولا يتعارض هذا مع المسارعة إلى نجدتهم عند الحاجة وإشعارهم بالأمان في وجودنا معهم، كما فعل ﷺ حين «فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ لَيْلَةً، فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النبي ﷺ وَقَدِ اسْتَبْرَأَ الخَبَرَ - أي سبقهم لكشف الخبر ومعرفة سر الصوت المفزع - وَهو علَى فَرَسٍ لأبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ - أي: راكب على فرس لأبي طلحة بدون سرج وهذا من شجاعته ﷺ ومن فَورَةِ هَبَّتِهِ لطمأنةِ أهلِه وأصحابه عند الفزع - وفي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهو يقولُ: (لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا) - أي لا تخافوا ولا تفزعوا اطمئنوا»[1]، فالمطلوب كالعادة: التوازن.

* تجنب تربيته بفسلفات الغرب الإنسانية عامة، ورأيتم في فصول متقدمة كيف أنها تشوه الفطرة مع الوقت بالفعل.

٢-الفطرة الأخلاقية والقيمية للرضيع

كيف نصونها من التشوش ونستغلها وننميها؟

---

(١) البخاري (٣٠٤٠)، ومسلم (٢٣٠٧).

١- بالتأكيد والتشجيع بالقول والفعل على الأخلاق الفطرية التي تصدر عفويًا من الرضيع، والتنبيه عليه حين يصدر منه - بسبب المحاكاة لأخطاء الآخرين مثلًا - سلوكًا سيئًا يُخالفها، كالثناء عليه برفق حين يساعد رضيعًا آخر على تسلق الأريكة بنجاح أو قيامه من تعثره، وتنبيهه إذا حاول إعاقة طفلٍ آخر عن ذلك دون سبب وجيه، أو الثناء عليه حين يشفق على طفل قد تعثر أمامه وبكى فيربت عليه، والتنبيه عليه إذا تركه يبكي دون محاولة التخفيف عنه، بسبب غَيرَتِه منه مثلًا، (وغيرها من الأخلاق الفطرية التلقائية غير المكتسبة، وعكسها).

٢- وبممارسة تفاصيل الملء الأخلاقي النابع من الوحيين وبمنهجية الوحيين، عن طريق التلقين والقدوة، (تفصيله كذلك بأمثلة يومية تجدونه في البناء الأخلاقي للرضيع).

٣- وبتجنب ما يخدشها، فمثلًا:

* لا نضحك حين يَضرِبُ الرضيعُ أقرانه المتفوقين عليه في اللعب مثلًا أو بأي دافع للغَيرة.

* ولا حين يعَذِّبُ حيوانه الأليف ويُخيفُه ويؤلمُه، أو طفلا غيره، ولا نتركه يتمادى دون توجِيه.

* ولا عندما ينصِب الفخاخ المؤذية لأهله أو جيرانه من باب التسلي والمزاح بـ «المقالب»، دون إبداء أي رفض لذلك السلوك أو تهذيب. إلا ما كان منها خفيفا لطيفا لا أذى فيه ولا كذب فلا حرج.

* ولا نترك أفراد الأسرة يتمادون في مضايقته لأجل الضحك متجاهلين بكاءه ورفضه لذلك.

* ولا نجعله يشاهد الرسوم المتحركة أو القصص أو المواقف التي تُبرِز مثل تلك المَشاهد بين الحيوانات أو البشر في إطار مضحك، ضرب وحرق وطعن وصفع وجرح

وإيذاء، في قالب مضحك (كوميدي) أو حتى غير مضحك (مثل أفلام توم وجيري، وميكي وبطوط، وإنمي، وسبونج بوب.. إلخ)، ولا يخفى على أحد أثر انتشار العنف والإيذاء بين الأطفال وبعضهم البعض من بعد تنامي انتشار تلك الأفلام..

* ولا نطلق العنان لمشاعره دون توجيه لها كما توصي التربية الغربية، كلا (ويُرجَعُ للفقرات في نهاية المحور النفسي لقراءة بعض تلك التوصيات الشوهاء)، بل نوجهها على ضوء الوحيين.

فمثلا: لا نتركه يَبصُقُ ما شاء من طعام في وجهنا أو يقلب الطبق تعبيرًا عن الغضب أو عن إصراره على أن يأكله وحده دون مساعدة، ولا نتركه يصد حضن من شاء من أهله المؤتمنين حين يتوددون إليه ويتلطفون معه، ولا نتركه يصرخ ويدخل في نوبة غضب وسب وربما ضرب لأهله كيفما شاء وفي أي مكان.. إلخ، فلا نتركه يفعل أيًا من ذلك دون أن يرى منا أي مقاومة أو تأديب - بما يناسب نموه الإدراكي بالطبع - بزعم أنه من الخطأ كبت مشاعر الطفل عند فورانها أو تأنيبه عليها وعدم إبداء التفهم لها وأهمية إعطائه مساحة للتعبير عن غضبه وتقبل مزاجيته دائمًا والتعايش معها دون صدام، كل ذلك يخدش الفطرة الأخلاقية والقيمية، فلو صارت المشاعر هي الحاكمة للأخلاق والسلوكيات لدى الرضيع - وليس العكس - فسيشب على ذلك وتحيد فطرته الأخلاقية والقِيمية عن أصلها، مما سيُصَعِّب تقويمَه وتأديبَه أكثر وأكثر بعد ذلك وبالتالي يتهشم البناء الأخلاقي بين أيدينا لأننا أفسدنا أساساته الفطرية.

* كذلك لا نظلمه ونُغَلِّف ذلك بحجج زائفة غير منطقية، فنبرر ونزين ما فعلناه من ظلم في حقه لنتفلت من الحرج والملامة، فتتشوش بذلك لديه المفاهيم الفطرية عن قُبحِ الظلم.

* وننشئه على مفاهيم التربية الجنسية الشرعية المناسبة لمرحلته والمتصلة بتعزيز فطرة العفة والحياء، وفصلناها في التربية الجنسية الشرعية للرضيع.

* ولا نجلسه مع القدوات السيئة. لو تذكرون كلامنا سابقًا عن حق الرضيع في الولاية الشخصية عليه وما ذكره الفقهاء فيها أيضًا من شروط، وكيف كان من بينها خلو الوليّ من الفسق وانحراف الأخلاق: «ولا ولاية لفاسق ماجن ساقط العدالة لا يبالي بما يفعل، لأنه يضر بأخلاق القاصر وبماله، وتنتقل الولاية حينئذ إلى الأصلح على وفق الترتيب المتقدم»[1]، مما يؤكد خطورة تعريض الرضيع والصغار عمومًا لكثرة المكث مع هؤلاء، على فطرتهم الأخلاقية وبنائهم الأخلاقي عمومًا.

فحين نُشوّش على الفطرة الأخلاقية تراكميًّا نعَرِّضُها للانتكاس، وبالتالي نَعجَزُ حينها عن إكساب الطفل السلوكيات الحسنة أو تعديل سلوكياته السيئة، وكل ما نسعى إليه في البناء الأخلاقي.

٣-الفطرة الغريزية للرضيع

كيف نصونها من التشوش ونستغلها ونهذبها ونوجهها؟[2]

١- بمخاطبة ومعاملة الرضيع بلغة خطاب تناسب جِنسَه: ضمير مخاطب مذكر لو كان ذكرًا، ومؤنث لو كانت أنثى، وإن لم يكن قد نما لدى الرضيع بعد إدراكه للفروق بين الجنسين وربما نادى الكبار بضمائر مختلطة تخالف جِنسَهم، ولكن بالممارسة التراكمية يتطور نموه الإدراكي كما قلنا مرارًا فتنمو فطرته الغريزية بسواء، فلا ننادي الرضيع بألقاب مؤنثة لو كان ذكرًا، أو ألقاب مذكرة لو كانت أنثى، بخاصة عند بدء استجابتهم للنداء واختلاطهم ذكرانًا وإناثًا بأقرانٍ واقترابهم أكثر من نهاية مرحلة الرضيع. أعرف أن كثيرًا منا ربما يلاطف الرضيع الذَكّر أحيانًا بخطاب أنثوي دون قصد، مثل: كيفك يا حلوة، أو خذي يا قمرة، أو إنتي حبيبة ماما .. إلخ، والأَولَى كما قلنا مسبقًا مخاطبته بما يصون هوية فطرته الغرائزية الكامنة.

---

(١) دكتور وهبة الزحيلي في كتابه الفقه الإسلامي وأدلته.
(٢) الغرائز لا تتطلب تنمية، بل تتطلب صيانة وتوجيه وتهذيب.

٢- بتعليمه قدر الإمكان، التحكم في دوافعه ونزعاته الغرائزية المتنامية والمطلوقة بلا أدنى مكابح.

وليس لدى الرضيع من ذلك بعد إلا مثلًا دوافع شهوة الطعام، وحب التملك، والتعلق بأمه، فحين يبدأ الأكل بجانب الرضاع ونعطيه كل ما يطلبه من أصناف الطعام دون تقنين أو توجيه، أو حين يظل متعلقًا بجلباب أمه طيلة الليل والنهار دون توجيه وتقنين لذلك عن طريق إلهائه بأمور مهارية أخرى مهمة لسلامة نموه الشامل، أو حين نتركه يأخذ أي لعبة يجدها في يد إخوته أو غيرهم دون تقنين وتوجيه كذلك، فنحن حينئذ نساعد غرائزه على التعملق بدلا من توجيهها واستعمالها فيما يتوافق مع البناء الأخلاقي عمومًا.

٣- فيما يخص غريزة الخوف الطبيعية، نشجعه على التغلب على مخاوفه العفوية البسيطة، بالتدريج والرفق والحكمة، مثلًا: حين يرى المكنسة أو البالونة الكبيرة فيفر خائفًا، هذا أمر غريزي طبيعي يدل على سلامة فطرته الغريزية اللازمة لحفظ نفسه من الأخطار، فلا ينبغي أن نقتل هذا الشعور الفطري بداخله، بل نهذبه ونوجهه، فنمسك يده أو نحمله مثلًا، ونحن بالقرب من ذلك الشيء المخيف بالنسبة له، ونثبت له كيف أنه آمن ومفيد، ونصبر عليه حتى يطمئن أنه ليس خوفًا في محله.

٤- وبتجنب ما يخدشها.. فمثلًا:

* لا نجعله يشاهد سلوكيات - منا أو من غيرنا - تشوش على فطرتِه الطبيعية من كونه ذكرًا أو أنثى، فهنا تنشأ بذرة الانحرافات السلوكية الأخلاقية الشاذة عن الفطرة.

* ولا ننهَى الرضيعة الأنثى عن حب التزين المناسب لمرحلتها العمرية أو نمنعها منه بذريعة أنها لازالت صغيرة على ذلك، بل ربما أمعن البعض في جعلها تظهر بهيئة الصبيان مَلبسًا وشعرًا بذريعة منع الحسد، والله ﷻ أكد على تلك الفطرة الأنثوية الغريزية الطبيعية، فقال: ﴿**أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾ [**الزخرف:١٨**].

* ولا ننهَى الطفل بشكل مطلق عن استعمال يده بالضرب دفاعًا عن نفسه إذا اعتدى عليه طفل آخر مثلًا، ولا نجبره دومًا على العفو عنه ونتجاهل تأديب الطفل الآخر بشكل مناسب أمامه، مرددين عبارات مثل: «يدي ليست للضرب، يدي للأكل والرسم والتربيت فقط! (أو نحو ذلك من مظاهر الدعة والسلام فقط)» - (تلك عبارات قرأتُها منذ سنوات في إحدى قصص الأطفال الغربية المُترجَمة إلى عربية) - فنحن بذلك نخدش بداخله غريزة الدفاع عن النفس وصيانتها، بخاصة لو كان ذكرًا مطلوب منا تنشئته على معاني القوة والحماية والقوامة.

* ولا نعذب الرضيع مطلقًا لأي سبب - من الأمهات من تلسع كف صغيرها لتعاقبه أو تعضه والعياذ بالله - ولا نقسو عليه أو نظهر الضيق بوجوده، لئلا نشوش بداخله على الفطرة الغريزية المائلة تلقائيًّا لمحبة الوالدين والفزع إليهم والأخذ عنهم، وما يترتب على ذلك من فقد أهم زمام في تربيته: شعور الأمان والمحبة.

٤ -الفطرة الغائية للرضيع

الرضيع بالطبع لا يهتم بعد بطرح الأسئلة الوجودية الكبرى كالكبار: «لماذا أنا هنا، وأين أنا ذاهب، وماذا يريد مني الله»! فهي تبدأ في الظهور في المراحل الأكبر نوعًا ما مع تطور النمو وزيادة تعرض الطفل للمدخلات، لكن كل مولود يولد على الفطرة كما قلنا، ودورنا أن نقوم بحسن تحفيزها تراكميًّا بحكمة وتؤدة كما نحفز الحواس بالضبط، لكي نهيئها لأداء دورها بسهولة ويسر في المراحل المتقدمة.

فكيف نصون الفطرة الغائية من التشوش ونستغلها ونوجهها؟

١ - بتقديم إجابات عن الأسئلة التي تنتهي إجاباتها عند الإيمان بالله، مثال: (لماذا أمي تصلي؟ لماذا لا نلقي الطعام في القمامة؟ لماذا يغضب الكبار عند عبثي بالمصحف؟ لماذا لم أعد أرى جدي؟) وقد تبدو تلك أسئلة عقلية أكثر منها غائية، لكن إجابتها النهائية تبرز جانب من الغاية من وجودِنا: السبب والغاية من خلقِنا..

فلا نتجاهلها إذا بدأت في الظهور، ونحرص أن تكون الإجابات بسيطة وشيقة ومتسقة مع الفطرة الإيمانية والأخلاقية ودون ترويع أو تهويل أو مبالغات، (أمك تصلي لتذهب للجنة.. لا نلقي الطعام في القمامة ليدخلنا الله الجنة.. نغضب عند عبثك بالمصحف لأنه كلام الله الذي يعلمنا الخير لندخل الجنة، لم تعد ترى جدك لأنه مات مثل عصفورك الصغير - وإن شاء الله نراه في الجنة.. إلخ)، ولعل تلك النقطة تكون موجودة أكثر لدى الفطيم والمراحل الأكبر، ولا ننسى كلام التستري حين كان بعمر ٣ سنوات.

٢- بمبادرة الأهل بتحفيزها في الرضيع إن لم تظهر بعد لديه، وعدم تخوف الأهلِ من الكلام ابتداءً عن الغايةِ من وجودِنا في الدنيا بزعم الخوف على مشاعر الطفل من الكلامِ عن الغيبياتِ والموت، بينما المطلوب أن نخاف عليهم من تبعاتِ تأخير الكلامِ عن ذلك، والمتمثلة في رِهابِ الموتِ وكراهيةِ الآخرةِ والاضطراب النفسي من ذِكرِ الجنة والنار ونحوها، فلا ينبغي الخوف عليهم فهم مُهَيَّؤُون بالفطرة لذلك كله، فعلام القلق؟ فإن لم يسأل الطفل، نُبادِر نحن بتحفيز فطرته الغائية على الظهور بحكمة وحلم وأناة وبكلمات بسيطة يفهمها، (نماذج حوارية لذلك في المواقف اليومية وبما يناسب الرضيع، تجدونها في تفاصيل البناء الإيماني العقدي).

٣- وبتجنب التشويش عليها، فمثلًا:

* لا نتلاعب بالإجابات بعيدًا عن الحق، فمثلًا الأسئلة السابقة: (لماذا أمي تصلي؟ لماذا لا نلقي الطعام في القمامة؟ لماذا يغضب الكبار عند عبثي بالمصحف؟ لماذا لم أعد أر جدي فلان؟)، فلا نجيب قائلين: (أمك تصلي لكي تهرب من زنّك وثرثرتك قليلًا أو لا نلقي الطعام في القمامة لكيلا يطاردك في نومك، أو لن ترَى جدَك مجددًا لأنه طار مع العصافير)، ومع تكرار تلك المنهجية كل فترة بما يناسب نموه اللغوي والإدراكي والمعرفي، يتراكم لديه أننا (خَلَقَنا الله/ لنعبد الله/ إلى أن نعود إلى الله)، وتلك ببساطة هي الغاية من وجودنا، المركوز بداخلنا البحث عنها عاجلًا أو آجلًا.

٥-فطرة الإرادة الحرة للرضيع:

من أهم أدوار فطرة الإرادة الحرة في صلاح حياة الإنسان عمومًا وحسن أداء رسالته الربانية، هو الترسيخ داخل وجدانه حقيقة تحمله للمسئولية عن أفعاله حين يرتكبها بإرادته الحرة، خيرًا أو شرًّا، وبالتالي ضرورة تعلُمه حسن إدارة سلوكياته، بجانب ترسيخ الفارق الواضح بين الأفعال الإرادية التي يندفع إليها بكامل وعي أنه مخير في فعلها، وبين تلك التي هو مسير فيها لا يملك معها إرادة، وهذا كله يبدأ مبكرًا جدًّا، فالوقاية خير من العلاج، ولا بناء دون أساسات.

كيف نصون فطرة الإرادة الحرة من التشوش ونستغلها ونوجهها؟

١- بتمييز عواقب الأفعال عن بعضها عند ارتكاب الرضيع للخطأ، فنؤاخِذ كلَ فعل بما يناسبه:

** فنعفو عن الفعل غير المتعمد الذي ليس للإرادة الحرة فيه دور فالله رفع عن الإنسان الخطأ والسهو والنسيان، فما بالنا بالصغار؟ مع التوعية بالخطأ برفق.

** ونزجر برفق أيضًا على الفعل المُتَعَمَد الذي فيه سوء استعمال للإرادة الحرة بالعناد والغضب ونحوه، ومؤاخذة الابن عليها عند اللزوم، بشكل يناسب تطور نموه الإدراكي والعقلي واللغوي والنفسي ولا يضره من حيث نريد إصلاحه، (غالبًا يكون ذلك مع الرضيع ما بعد مرحلة العام أو العام والنصف).

٢- بسؤالنا إياه عن سبب السلوك الخطأ الذي فعله، كل مرة، قبل اتخاذ إجراء معه مما سبق.

٣- بالثناء عليه حين يفعل بإرادته الحرة الأفعال الجميلة ويترك القبيحة.

٤- بتحملنا لمسئوليتنا عن أفعالنا أمام الرضيع، وعدم التهرب من ذلك، (القدوة).

٥- بتنمية ذلك بالمثل عند الرضيع.. فيُعَوّد على تحمل مسؤولية أفعاله ولو

جزئيًّـا، وتدريجيًّـا وبرفـق وحكمـة، ومـن أبـرز الأمثلـة لذلـك: تعليمـه كلمـة «**آسـف**» بالـذات عند ارتكاب خطأ عمدًا، وعدم تأخير ذلك لسن ٧ سنوات كما يزعم بعض المتكلمين بالتربية الغربية، بزعمهم أن الطفل ليس مسئولًا بعد عن أفعاله، وسؤال لهم بنفس المنطق: وهل بعد ٧ سنوات قد صار الطفل مسئولًا؟ شرعًا هو غير مسئول عن أفعاله قبل البلوغ كله أصلًا، وإنما نعلمه قبل البلوغ لا من باب التكليف وإنما من باب التعويد والغرس، ولا يخفَى ما في هذا من تناقض لديهم وتخبط كعادة الفلسفات الغربية فلا عجب، وبفضل الله قد ربيت أطفالي الثلاثة على تلك الكلمة منذ نعومة أظفارهم، فشبوا على سرعة وسهولة الاعتذار دون كِبر ولله الحمد أولًا وأخيرًا، فمثلًا: إذا سكب العصير على الأرض، أو إذا أطاح بألعابه غاضبًا مثلًا، أو ضرب أخاه، نقوِّم هذا السلوك ونبين له خطأه، ثم نعلمه أن يساهم في تنظيف المكان أو يجمع الأشياء مثلما بعثرها، بالإضافة إلى تلقينه قول كلمة «آسف» كل مرة ونثني عليه بعدها وندعو له بالخير.

٦- بطرح الأسئلة المحفزة لتفعيل الإرادة، مثل: ماذا تريد أن تأكل اليوم؟ ماذا تريد أن تلعب الآن؟ ما القصة التي تريدين أن أقرأها معكِ؟ نقرأ أم نلعب؟

٧- بتشجيع الألعاب التي فيها تحفيز لفطرة الإرادة.. مثل ما ذكرناه في البناء المهاري من الألعاب التي تجعله مسئولًا عن عالمه كإدخال وإخراج الناس من لعبة الحافلة، وضع الدُمَى في عربته ودفعها، أو الرضيعة تعتني بدميتها وتقرر متى تنام ومتى تأكل وما إذا كانت ستغير لها ملابسها أم لا، فذلك ينمي لديه الشعور بالمسئولية واتخاذ القرارات وتحليل عواقبها والتبديل بين الخيارات.

٨- وإذا لمسنا سلبية من الطفل وعزوفًا متكررًا عن اختيار الأشياء بإرادته أو الاندفاع الطبيعي نحو السلوكيات الخاصة بتلك المرحلة، وتفويضه الكبار دومًا للاختيار نيابة عنه، أو التملص دومًا من عواقب أفعاله، فعلينا أن نكشف من توليته المسئولية عن قرارات واختيارات أكثر في حياته اليومية البسيطة - لعب، أو أكل، أو

ثياب، أو تنزه - داخل المساحة المسموح بها للرضيع دون إفراط وبما لا يحوله إلى طفل متمرد متفلت من توجيهات الكبار، ونشجعه على الإقدام دون خوف من تبِعات فعله فنحن بجواره ونساعده، وبدون أخطاء لن يتعلم، ونقلل من محاسبته الدقيقة، ونراقب تحسنه، فإن ظل هكذا فلا مفر هنا من استشارة أخصائي اضطرابات سلوك.

٩- وبتجنب ما يخدشها.. فمثلًا:

* لا نشطب دور الإرادة الحرة من حياة الرضيع بشكل تام، بزعم أنه لا يعرف مصلحته بعد، فنحوِّله - بالترهيب أو حتى بالترغيب - إلى آلة صماء لتنفيذ الأوامر، بينما من مصلحته أن يمارس جوانب طبيعية من إرادته الحرة بأمان تحت رقابتنا وسلطتنا الأبوية، ويخطئ ويُصيب ويتعلم من ذلك بجانب توجيهاتنا له وتَدافُعِنا الصحي مع أخطائه، فتجد بعض الأهل لا يجعل رضيعه مثلًا يختار لعبته أبدًا ولا طعامه نهائيًّا ولا ملابسه إلا نادرًا، وربما سخروا من اختياراته كل مرة أو وبخوه عليها أو على كل سلوك يندفع إليه تلقائيًّا بطبيعة المرحلة، وقد تصاب إرادته الحرة بشلل مبكر ويصبح كمسلوب الإرادة، أو على النقيض: قد تتوحش إرادته الحرة ويصبح لدينا طفلًا عنيدًا متمردًا على أي توجيه وإن كان فيه مصلحته، والتوازن هو الحل لتجنب هذا التشويش على تلك الفطرة؛ فلا يُترك الطفل بلا توجيه خارجي، ولا يُحرَم من أبسط حقوقه المتصلة بممارسة آمنة لإرادته الحرة، وغير المتصلة بقرارات مصيرية أو اختيارات حيوية تحتاج لرشد الكبار بالطبع، وفصلنا ذلك وشروط طاعة الوالدين وعدم إسرافهما في إجبار الطفل، في الحقوق والاحتياجات.

* ولا نسوِّي بين رد فعلنا على السلوكيات المتعمدة وغير المتعمدة من حيث المؤاخذة والتأديب.

* وحين نخطئ أمام الرضيع، لا نزعم له كل مرة أننا معذورون ومقهورون في ذلك ولم نختره بإرادتنا.. إلخ، مثلًا: انسكب كوب الماء من أيدينا ونحن نتلاعب به وهو قد رآنا، فبدلا من أن نقول «هذا خطأ مني»، نزعم القول: «فلان هو السبب

لأنه حين تكلم سقط الكوب من يدي»! هذا زوغان من تحمل مسئولية أفعالنا أمام الرضيع، وحين يتكرر مرارًا يشوش على فطرة الإرادة الحرة وتصبح عدَوى، فلا تظنوا أن رضيعكم لا يحلل ذلك بعناية ويخزنه ليحاكيه.

٦-الفطرة العقلية للرضيع

ولعل ذلك المكون من مكونات الفطرة الأكثر ظهورًا على الإطلاق في مرحلة الرضيع - هو والفطرة الأخلاقية - نلمسه بوضوح عندما يبدأ الصغير في تناول الألعاب والتفاعل مع بيئته.

وكلما تمت صيانة ذلك المكون من التشوش وتنميته بعناية، كلما ارتفع البناء المنطقي لدى الرضيع في شتى نواحي حياته فيما بعد، مما يصونه - بإذن الله - من كثير من فتن الشبهات بل والشهوات، فالعقلُ زمامُ الهوى، والتفكيرُ المنطقي بوابةُ كل رشدٍ وحكمةٍ وحَزمِ نَفْس، ولا ننسى قِصة «الشعرات البيضاء» المدهشة التي ذكرناها في فقرات التحذير من الكذب على الصغار.

لهذا كان للعقل أهمية كبرى في الإسلام، لأنه أعظمُ بوابات الإيمان والتصديق بيقين راسخ، ولذلك احتاجت منا الفطرةُ العقليةُ لتشريحٍ وتفصيلٍ مُستَقل ومختلف، فهي تحتوي بدورها على جملة من المبادئ العقلية، سنتكلم فقط عن تلك التي تناسب مرحلة الرضيع - فهي أكثر من ذلك بكثير - على أن تجدوا تفصيلًا أكثر في كتاب قواعد وأدوات التربية من الوحيين بإذن الله.

تتكونُ الفطرة العقلية من قسمين:

(١) مبادئ ومُسَلمات منطقية، أو بَدَهِية، أو أولية.. تمتازُ بأنها

* كل الناس تُدرِكها بدَهيًا وتُسَلمُ لها تلقائيًا ولا يَشُكُّ فيها إنسانٌ عاقل.

* نعرفها دون حاجةٍ إلى نظر وتجربة وتفكير.

نُثبِتُ بها الحقائق، ولا نثبتها هي نفسَها.. (هي الدليل الأول الذي لا يحتاج لدليل!).

أمثلة:

* مبدأُ عدمِ اجتماعِ النقيضين معًا (فالعقل لا يقبل ذلك).

* مبدأ السببية أو العِلة (كل نتيجة لها مقدمات وأسباب، وكل حادث له مُحدِث، ولو وجدت طعامًا على الطاولة فلابد أن أحدًا قد وضعه).

* مبادئ الرياضيات البديهة للأعداد والكميات (الجزء أصغر من الكل، والقليل أقل من الكثير، وكلما أضفنا عددًا لشيء تضاعَف، والعكس صحيح.. إلخ).

(٢) وحقائقُ عقليةٌ نكتسبها تلقائيًا وتراكميًّا بالحِسّ (المشاهدات) والتجربة

أمثلة: إدراك الطفل أن الكهرباء موجودة ومؤلمة، وأن كل ما نضعه في النار يحترق، وأن وضع الماء على النار يُطفِؤها، وأن مجاورةَ التفاحة الفاسدةِ للسليمةِ يُفسدُها، وأن الصوتَ الشديدَ له قوةٌ ترجُّ نوافذ المكان.. إلخ.

كيف نصون الفطرة العقلية للرضيع من التشوش ونستغلها وننميها؟

* بالإكثار من تواصل وتفاعل الطفل بحواسه مع البيئة الطبيعية من حوله والأشخاص الأسوياء وتقليل مكثه بين الجدران، ومنع الشاشات والأجهزة لتأسيس مبادئ عقلية تراكمية سليمة بإذن الله في السنوات الأولى، بعيدًا عن وهم العالم الرقمي الخيالي بمبادئه المشوشة غير المنطقية.

* بتعليم الرضيع مراقبة نتيجة تصرفاته والاستفادة منها في توقع العواقب المترتبة على كل فعل، فهو بالفعل أصبح لديه مهارة تحليل السبب والنتيجة، تمكنه من إدراك رد الفعل و تؤدي في النهاية إلى مهارة إدراكية أكثر تعقيدًا وهي حل المشكلات بشكل منطقي، وهو ما يصون وينمي بشكل قوي جدًا فطرته العقلية.

* بتوفير الألعاب والأنشطة المعرفية التي تنمي الفطرة العقلية ومبادئها: الأحجيات، وألعاب الأحجام المختلفة، وألعاب التركيب.. إلخ.

* ومثلها: تشجيع الرضيع على التفاعل مع أغراض البيت المتنوعة التي تنمي المبادئ العقلية تحت رعايتنا الآمنة، مثال: أواني الطهي المتدرجة في الأحجام، أدوات الطهي ذات الخامات المختلفة كالخشبية والبلاستيكية والمعدنية والمطاطية.. إلخ، فيمارس من خلالهم المبادئ العقلية الضرورية للتفكير المنطقي: هذا أكبر، هذا أثقل، هذا أكثر، هذا سقط في الطبق بعدما تركتُه في الهواء.. إلخ، فالتدريب العملي المتنامي للمبادي العقلية الفطرية يراكم المنطق السليم.

بتجنب ما يخدشها.. فمثلًا:

۞ لا نتجاهل أسئلة الطفل السببية التي عنوانها «لماذا» لأنه موقن بفطرته العقلية أن لكل شيء سببًا ولا بد، فنقوم ببيان السبب وراء حدوث الشيء، والتأكيد على أن الله هو الذي أذن لهذا السبب في الحدوث، مع الحرص على البدء بالرد الإيماني أولًا.

أمثلة:

*لماذا لا أطير مثل العصفور؟

– لأن الله خلق له جناحين يطير بهما، وسنطير ونَسبَح في الجنة كما نحب بإذن الله.

*لماذا الفرخة لا تطير؟

– لأن الله لم يجعل جناحها قويًّا مثل العصفور، ولو طارت لما استطعنا أن نجمع البيض اللذيذ بسهولة ونأكله فالحمد لله.

*لماذا نذبح البقرة؟

– لنأكل لحمها ونكبر ونقوى على عبادة الله والأعمال الجميلة.

ولا نحبط أسئلة الرضيع العامة كذلك، لأنه موقن بفطرته أن هناك حقائق وماهية

للأشياء، نجيبه بصدق وبساطة مع ربط كل شيء بالخالق المدبر:

*كيف أتيتُ؟

- تزوجت أنا و«بابا» فرزقنا الله بك.

*مِن أين يأتي ماء الصنبور؟

- الله أنزل المطر من السماء إلى الأرض، ثم دخل بيوتنا من الأرض عبر أنابيب، ونشير إليها ليتعلم، وحبذا نضيف آية أو حديث: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ..﴾ [الزمر: ٢١]، بألفاظ بسيطة قليلة سهلة، مناسبة لنموه اللغوي والمعرفي.

ولا نكرر كل مرة للطفل الجوابَ المشهور: (ليس هناك أسباب! نفذ الأوامر وأنت ساكت!)، حين يسألنا عن السبب، ونحبط فطرته العقلية الباحثة عن حقائق الأشياء وربما نُطفِؤها مع الوقت.

فلنتجنب مثل تلك الردود قدر الإمكان، إلا لداعٍ تربوي معتبر شرعًا: كأن نخشى أن يصبح طفلًا لا يستجيب للتعليمات إلا إذا اقتنع مثلاً، والتوازن والتكامل بين كل مكونات البناء الفطري، يحُول دون ذلك بإذن الله، بخاصة إذا لمسنا أمارات تمرد من الطفل بالفعل وصعوبة مِراس، فهذا الجواب يُنَفّره من الحق أكثر لأنه يناقض فطرته.

وأمثلة لبعض تلك الأسئلة اليومية التي يَضيق بها ذرعا بعض الآباء:

*لماذا يجب أن أنام مبكرًا؟

- فبدلًا من قول: نفذ وأنت ساكت، نقول: «ليرتاح بدنك جيدًا ولا يضيع النهار في النوم»، ثم إذا عانَد، نلْزِمه ليتعلم وجوب طاعة الوالدين هنا.

*لماذا هذا الدواء؟

- فبدلًا من قول: لأني آمرك بذلك، نقول: «لأن الله جعل فيه شفاؤك بإذن الله لتقوم

وتلعب من جديد»، ثم إن عاند، نلزمه ليتعلم وجوب طاعة الوالدين هنا كذلك.

*لماذا لا أمرّ أمام الصلاة؟

- فبدلا من قول: كفى جدالًا، أو توقف عن «اللماضة»، نقول: «لأن المصلي في لقاء مع الله يا صغيري»، ثم إن عانَد، نلزمه بعدم المرور كذلك، ونحن مأمورون شرعا بتنبيه أي شخص يمر أمام سترة صلاتنا، ولو كانوا صغارًا يَحبون ولا يفقهون بعد. بالتعويد والتكرار والصبر والرفق والحكمة، نسقي نبتتنا يوما بعد يوم مترقبين خروج الثمرات من أكمامها مستويةً على سوقها يومًا منها بإذن ربها.

وأخيرًا،،،

سنن الفطرة للرضيع وخصال النظافة والجمال التي سبق تفصيلها

كيف نصونها وننميها؟

* بالتنشئة الإيمانية التي تجعل من تلك الخصال الجميلة عبادة وطاعة لله مطلوبة واتباعًا لرسولنا، وتفصيل التنشئة الإيمانية: في البناء الإيماني.

* بتطبيق ما يناسب الرضيع منها منذ البداية كما فعلنا مع الوليد بما يناسبه منها:

- فلا يمر أربعون يومًا دون قصّ أظافره.
- ونهتم بثنايا الجلد وخفاياه كما في أحاديث سنن الفطرة (البراجم).
- وننظفه من الحفاض أولا بأول (الاستنجاء).
- ونقوم بغسيل أسنانه والمضمضة والاستنشاق والاستنثار في الصباح (أي تنظيف أنفه بالماء من الداخل قدر الإمكان ولو بعود قطن مرطب، وفصلنا الأسباب مرارًا).

* بتقديم القدوة الحسنة فيها، واستقباح كل ما يخالفها، والثناء على كل ما يوافقها، كلاهما جهرًا على مرآى ومسمع من الرضيع.

* بتدريبه على خلع الحفاض (الإخراج) في أقرب فرصة يكتمل فيها استعداده لتلك الخطوة -وفصّلناها سابقًا.

* تطبيق بقية مظاهر النظافة والتجمل غير الموجودة في سنن الفطرة، مثل: -تحميمه وتهذيب شعره وتطييبه بالروائح الزكية المناسبة لصحته وتحبيبه في ذلك والعناية به أكثر عند قدوم ضيوف إلى البيت ليتعلم أهمية الظهور بمظهر نظيف بين المسلمين وأن ذلك من حسن استقبال الضيف، وراجعوا حديث السخاب في فصول متقدمة، وكيف كانت فاطمة تجعل الحسن يستقبل جده ﷺ، بالنظافة ولبس عقد من أخلاط الطيب، مثل فكرة عقد الفل والياسمين في زماننا.

– تنظيف القيء والأوساخ جيدًا من على بدن الرضيع وملابسه والمكان، وعدم تعويد الطفل على المكث بالرائحة السيئة طويلًا.

– تدريبه عمليًّا على مظاهر النظافة، فنشجعه مثلًا أن يمسك قطعة قماش صغيرة وينظف معنا ونثني على ذلك مهما كان بسيطًا أو عبثيًّا وعشوائيًّا، ونعلمه غسل وجهه ويديه وأسنانه ونتغزل في جمال رائحته بعدها، ونسد أنوفنا ونحن نجمع كيس القمامة لنغلقه أو نبدل الحفاض، ونبدي تأففًا من سوء الرائحة، ونشم كسوة الوسائد قبل خلعها لغسلها ونمتعض من رائحتها، ونعلم الطفل الفرق بين الوسادة النظيفة وغير النظيفة، وما إلى ذلك من مشاهد يومية لا تنتهي.

– كنس البيوت وتنظيفها وأخذ الزينة عند كل صلاة والثناء أمام الرضيع على سلوك تنظيف السيارات والعمارات والروائح الزكية، وغيرها.

– تنظيف الطفل أثناء الأكل قدر الإمكان دون وسوسة أو إسراف في المناديل، فيشب على الأكل بنظافة دون فوضى بالضرورة.

وبتجنب ما يخدشها.. فمثلًا:

* لا نعود الطفل على القذَر والشعث وتثوير شعر الرأس والروائح المنفرة.

* نبدي تأففًا من الروائح السيئة والمناظر المقززة غير النظيفة ونحو ذلك، وليس كما توصينا التربية الغربية من ترك توجيه انفعالات الطفل تجاه المستقذَرات، ويُرجِعُ

للفقرات في نهاية المحور النفسي للتفاصيل وأصل القصة.

* لا نتركه يلطخ وجهه وملابسه بالطعام كما يشاء، أعلم أنه مطلوب أن نعطيه مساحة من الحرية للتفاعل مع العالم من حوله ولمس الطعام بنفسه واختباره بيده وما إلى ذلك دون صراخ منا أو تخويف، ولكن علينا كذلك أن نعلمه أن ذلك يكون في إطار معقول من النظافة وصيانة النعمة.

ومثلها: لا نتركه يكتب على الحوائط كما يشاء، والأرائك والستائر، دون إبداء أي نفور من ذلك أو رفض أو محاولة لتقويم ذلك وتقديم بديل مناسب يرسخ بداخله أن قيمة الجمال والنظافة في البيئة من حوله ليست فقط لبدنه.

ونكتفي بهذا القدر للبناء الفطري الشامل للرضيع، والذي حين نطبقه نصون الفطرة الربانية التي أودعها الله في النفس لتساعدنا كأساسات لبقية تفاصيل البناء الديني (الإيماني/ العقدي)، والبناء الأخلاقي (السلوكي). وننتقل الآن إلى بقية تفاصيل البناء الديني: المحور الثاني: البناء الإيماني للرضيع.

ثانيًا: البناء الإيماني - العقدي للرضيع

قبل أن نبدأ، لابد أن نؤكد على أن هناك مُحكماتٍ للعقيدة، أو للإيمان، أو للتوحيد[1]، ينبغي لكل مسلم ألا يكون جاهلاً بها، أن الله هو الخالق الرازق المدبر المالك ذي الكمال في الأسماء والصفات والأفعال منزه عن كل نقص وليس كمثله شيء، وأن الكعبة قبلة المسلمين ونصلي إليها، وأن أركان الإسلام خمسة ومن هدم إحداها فقد هدم الدين وكذلك أركان الإيمان الستة، وأن الصلاة من أهم مظاهر العبودية اليومية لله، وأن القرآن هو كتاب المسلمين وكلام الله المعظم المصان عن طعن أو تغيير أو إهانة، وسيدنا محمد هو رسول الإسلام وخير البشر ومصان عن كل مذمة، والصحابة هم خيرة أعوانه من البشر وخير البشر بعد الأنبياء وهم درجات

(١) هي مرادفات متقاربة مع فوارق بسيطة لا يحتاج كتابُنا الآن لتحريرها.

وأفضلهم مطلقًا: الصديق والفاروق وعثمان وعليّ، وأن هناك جنة نطلبها ونار نهرب منها، وأن الشيطان شرير وعدونا وعدو الله، وأن من مات على غير الإسلام لا يدخل الجنة، وأن السنة الصحيحة وحي وثاني مصادر التشريع كما أن القرآن وحي وأول مصادر التشريع، إلى آخر العناوين الكبرى لمنظومة الإسلام المحكمة، وتفاصيلها الفرعية. ولكي نغرس تلك المعاني في أي إنسان، يكون بوسائل وكثافة وتفاصِيل معينة، تختلف تبعا للمرحلة العمرية.

وفي مرحلة الرضيع، يكون أكثر اعتمادنا في غرس الإيمان على «القدوة» أكثر من أي شيء آخر.. بمعنى: الإرسال إلى الطفل أكثر من الاستقبال منه، على اعتبار أن الطفل غالبًا: لن يتمكن من النطق والتحاور قبل عمر السنة أو السنة والنصف، ولن يبدأ بمحاكاة الأفعال قبل عمر السنة مثلًا، بمعنى: أننا منذ أول يوم نكون للرضيع مثل التمثيلية العملية اليومية لما نريده أن يقوم به هُو حين يأتي أوانُ نطقِه وبدء محاكاته.

باختصار: تقديم قدوة عبودية صوت وصورة، لتعظيم وحب: الله، وكلامه، ورسوله، وشعائره.

على أننا نؤكد أنه لا يوجد أي إلزام هاهنا بتوقيت البدء ولا بالكثافة، إنما نقول: كلما عوَّدتِ حواسَّهم وعقولَهم ونفوسهم على ذلك مبكرًا بشكل مناسب لهم، كلما كان بإذن الله أعمق أثرًا، فإن فاتتك الشهور الأولى، فعلى الأقل لا تتأخري عن عمر العام ما أمكن، وما لا يُدرَكُ كله لا يُترَكُ كله، وأن تأتيَ متأخرا خير من ألا تأتي.

ثم حين يبدأون في النطق والتقليد للغة وحروفها نضيف إلى ذلك: محاولة استنطاقهم بما أمكن من كل ما اختزنوه سابقًا، ومحاولة تبسيط معانيه بما لا يتعدى الثلاث أو الأربع كلمات، دون أدنى ضغط أو إلزام للطفل.

يقول ابن القيم: «أول ما نفتحُ به على المولود إذا كان وقت نُطقه – أي إذا أوشك على بدء مهارة الكلام – هو: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وليكن أول ما يقرع

مسامعهم معرفة الله ﷻ وتوحيده وأنه ﷻ فوق عرشه ينظر إليهم ويسمع كلامهم وهو معهم أينما كانوا، وكان بنو إسرائيل كثيرًا ما يسمون أولادهم بـ «عمانويل» ومعنى هذه الكلمة: (إلهنا معنا)، وهذا كان أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن، بحيث إذا وعى الطفل وعقل علم أنه عبد الله وأن الله هو سيده ومولاه»(١).

وسبق أن تعلمنا في فصول الوليد، أهمية اختيار الاسم وأفضل الأسماء بالفعل ما كانت متصلة بالتوحيد والإيمان، وتعلمنا كذلك في فصول الرضيع أن من سمات المرحلة ابتداء النطق فيها، وأن توقيته وكيفيته وكثافته تختلف من طفل لآخر، وأن علينا تحفيز النطق واللغة بتكرار الكلام على حاسة السمع بالشكل الذي يناسب الطفل، طوال مرحلة الجنين والوليد والرضيع، وبيّنّا تطبيق ذلك في كل مرحلة بما يناسبها.

وبالتالي تفاصيل تطبيق ذلك كله لغرس الإيمان في الرضيع يكون كالتالي:

قبل أن ينطق الرضيع (ونراعي النقاط حسب تطور النمو اللغوي والمعرفي):

١- نستفتح بلا إله إلا الله قبل أي كلام.. بمعنى البدء بها وتكرارها أكثر من أي كلام آخر.. وهي أسهل كلمة على اللسان والسمع والتلقي ومن أسهل الحروف، يكاد اللسان يرتفع بهذه الكلمة ارتفاعه واحدة فقط، وكأنها حرف فقط واحد متتابع أربع مرات: حرف الـ (لام)، (انطقها الآن بلسان طفل وسترى!)، ولا ننسى ما جاء في طبقات ابن سعد، من أن أمَّ سُليمٍ كانَت تلقِّنُ أنسًا ولدَها الشَّهادتين قبلَ أن يبلغَ سنتين.

٢- وبجانب كلمة التوحيد، نكرر أمامهم بقية كلمات التوحيد: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، وأعوذ بالله، وبسم الله، وكما ترون هي أيضًا سهلة الإيقاع ومناسبة للنمو اللغوي لتلك المرحلة، مقاطع قصيرة بحروف قليلة وسهلة، واشتملت على أصول التوحيد، ولا يخفى أثرها على القلوب.

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود-لابن القيم.

٣- تشغيل القرآن يوميًّا في البيت، سواء نتلوه نحن لهم وهم في حضننا أو بجوارنا، أو من خلال تطبيقات القرآن المسموعة بصوت هادئ متأنٍ خاشع واضح المخارج والكلمات.

٤- التسمية أمامهم ما أمكن على كل شيء نفعله، مثال: عند إطعامه أو إرضاعه، أو خلع ملابسه والحفاض، عند حَملِه، عند وضعه في فراشه، أو تعثره أو محاولته للإمساك بشيء، أو عند سقوط شيء من يدنا.. إلخ، ماشطة فرعون، حين سقط المشط من يدها وهي تمشط شعر ابنته، قالت تلقائيًّا «بسم الله»، رغم أنها حريصة أن تُخفِي عنهم إيمانَها، وما هذا إلا لاعتيادها على ذكر اسم الله على كل شيءٍ، وهذا من شدة الإيمان.

٥- حمد الله أمامهم بفرحة عارمة واضحة عند كل شيء يفرحنا وتعويدهم على نسبة كل شيء جميل لله سبحانه، فلا نقول «هيييييه» ونصفق ونقفز وحسب ونغفل عن قول «الحمد لله»، مثال: الحمد لله على النوم جعله الله راحةً لأبداننا أو الحمد لله على العيون لولاها ما رأيتك يا صغيري الحبيب ولا قرأتُ القرآن أو الحمد لله صندوق ألعابنا كبير.

* بل حمد الله أمامهم حتى عند حزننا بسبب شيء، والاسترجاع عند كل كرب أو مصيبة، فحين ينقطع الماء أو الكهرباء مثلًا نقول أمام الطفل: الحمد لله على كل حال، لله الأمر، وحين يعود نقول الحمد لله الذي عافانا.

٦- التسبيح أمامهم عند كل شيء يُدهشنا، وقول ما شاء الله أو اللهم بارك أمامهم عند رؤية كل جميل، سواء منهم أو من غيرهم.

٧- التكبير أمامهم عند كل شيء نظن أنه يقهرنا أو يفزعنا، قال ﷺ: «إذا أتيت سلطانًا مهيبًا تخاف أن يسطو بك، فقل: الله أكبر، الله أعز من خلقه جميعًا، الله أعز مما أخاف وأحذر»[1]، فلا نقول عند الفزع «يا ماما.. يامّا»، بخاصة لو كانت الجدة

---

(١) صححه الألباني-الأدب ال مفرد٥٤٦.

ميتة فهذا من الاستغاثة بالأموات دون أن نشعر، وحتى لو كانت الجدة حية فلا نُعلم ولدنا أن أول من يفزع إليهم هم البشر كذلك لا نقول عند الفزع «يا خراشي» فهو أيضًا من الأموات، ولا «يا لهوي» ولا غيرها، بل نقول «الله أكبر» ونجعله يعتاد على فزعنا إلى الله وحده عند الخوف.. ولا مانع بعدها من الاستعانة بأحد بالطبع.

* كذلك التكبير أمامهم عند الفرح أو حصول موقف عظيم الوقع على النفس، النبي ﷺ: لما أخبر أصحابه أنهم ربع أهل الجنة، ثم ثلث أهل الجنة، ثم شطر أهل الجنة، كانوا يكبرون في كل مرة، وحرام بن ملحان عندما طعن، قال: «الله أكبر! فزت ورب الكعبة»[(١)].

٨- التعوذ بالله أمامهم من السوء والضر والشيطان الرجيم وحر الموقد وحرارة الجو وخربشة القطة لذراعنا والصوت المزعج والموسيقى والمنكرات، فيعتادون أن كل ضر وقُبح لا ملجأ منه إلا إلى الله.

٩- تقريبهم من النافذة التي يُسمَع منها الأذان بوضوح، كلما نُودِي للصلاة من المسجد بصوت واضح، وعند سماع الأذان نتوقف عن أي كلام أو انشغال، ونردد بصوت مسموع أمامهم، كلماته.

١٠- دعاء الله لهم في وجوههم بكل خير، فيعتادون أن كل خير نريده لهم نطلبه من الله، وعدم الدعاء عليهم لا في وجوههم ولا من خلفهم، بخاصة الأدعية التي فيها مثل «الله يهدَّك».

١١- بخاصة: إظهار الدعاء لهم في وجوههم أن يحبهم الله ويحفظهم ويبارك فيهم ويتقرب إليهم ويجعلهم من المقربين إليه، فيعتادون أن خالقهم حميد، ومجيد، وجميل، ولطيف، وطيب، ونتمنى حبه لنا، وتقرّبه ﷻ منا[(٢)]، ولا نستغني عنه أبدًا».

١٢- كلما حزن طفلك لفوات لعبة مثلًا أو متعة معينة يصعب تعويضها، نقول له:

(١) البخاري (٢٨٠١).
(٢) من الحديث القدسي: مَن تقرب إليَّ شبرا تقربتُ إليه باعا-مسلم٢٦٧٥.

بإذن الله نجدها في الجنة عند الله يا صغيري.

١٣- كلما تألم أو مرض أو جُرِح أو بكى أو خاف، نرقيه بالتعوذات النبوية والآيات والسور بصوت مسموع ونطمئنه أنه بعدها سيكون بخير بإذن ربه، ونفعل كل ذلك قبل إعطائه الدواء.

١٤- كلما أراد شيئا صعبًا أو شاقًّا عليكِ، قولي له أحيانًا: «اطلبها من الله الكريم يا بني فأنا لا أستطيع».. وحاولي بعدها أحيانًا - وأحيانًا فقط - أن تلبيها له قائلة: قد أعانني الله لأجلك، والحمد لله.. واحتسبي بذلك أجر تحبيبه في الدعاء، ولكن افعليها دون إفراط ولا تفريط، حتى لا يسيء فهم إجابة الدعاء، فاحذري أن يظن أن إجابة الدعاء معناها أن يأخذ كل مرة ما أراده بالضبط، وقولي له أحيانًا أخرى: دعني أصلي أولا ثم بعد الصلاة أقول لك فأنا بعد الصلاة أكون في حالةٍ أفضل (كما علمتنا إحدى الأمهات الرائعات)، وحاولي أن تلبيها له أيضًا أحيانًا، واحتسبي بذلك أجر تحبيبه في الصلاة، وحين يتحقق مراده قولي له: «الحمد لله الذي أجاب دعاءك وأسعد قلبك».

١٥- كلما صعدنا معه الدرج، أو السلم نقول الله أكبر، وعند الهبوط نقول سبحان الله، «كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا»(١).

١٦- نُسمعه الأناشيد الدينية البسيطة الخالية من الموسيقى والمناسبة لتطور نموهم اللغوي، مثل نشيد «بُني الإسلام على خمسٍ»، و«أن تدخلني ربي الجنة هذا أقصى ما أتمنى»، و«قرآني قرآني ربيع قلبي قرآني»، و«من هو ربك - الله، ورسولك - محمد»، و«بسم الله أحلى كلام تعلمناه».

والله لا تستهينوا أو تتعجبوا، لازلت أحتفظ بشريط كاسيت عليه جملة من أمثال تلك الأناشيد مسجلة بصوت طفلي الأول حمزة - أي منذ ١٥ عام تقريبًا - ولا أظنه كان قد تخطى العامين حينئذ فنطقه للحروف فيها يشي بالكثير.

---

(١) البخاري (٢٩٩٣)، والمسألة على خلاف بين العلماء فمنهم من يراها خاصة بالسفر فقط، ومنهم من يعممها، وقال العثيمين عن ذلك: طيب ولا بأس.

١٧- نستعيد معهم كلما أمكن بعض الكلمات الأساسية في تلك الأناشيد أو غيرها، بتكرار فيه نوع مرح ولعب، مثل: الله ربي، أحب ربي، ديني الإسلام، أحب الرسول، قرآني، الله خالقي، الله رازقي، من ربك.. إلخ، ويمكن كتابتها بخط كبير وعرضها ضمن مجلد الصور الذي تكلمنا عنه مسبقًا، بذلك يحفظ شكلها رسمًا ويشير عليها كلما نطقناها له.

١٨- نلقنهم جانبًا من أسماء الله الحسنى السهلة المتصلة بحياتهم اليومية.. ونتكلم عنها وبها دومًا بإجلال وتوقير وهيبة، مثال: الله الكريم فعل لنا كذا، الله الخالق وهبنا أخًا جديدًا لك، الله الرزاق أعطانا ملابس عيد إضافية، الله الرحيم أنقذ هذه القطة من عجلات الشاحنة، الله اللطيف شفاك، الله العدل[١] أعاد لهذا الضعيف حقه، الله الحفيظ يحفظك أثناء نومك، الله القدير يخلق مثل الدنيا مرة أخرى لو أراد، الله القوي لا يهرب منه أحد، الله شديد العقاب يعاقب الشرير، الله واسع الرحمة يعفو عمن يقول «آسف»، وهكذا.

١٩- ولأجل غرس حب وتعظيم **الصلاة** في قلوبهم أكثر:

* نحملهم أثناء الصلاة طوعًا أحيانًا دون سبب من بكاء أو غيره، ما استطعنا، ونطلب من الزوج أو أي من الرجال المحارم اصطحابهم للجماعات كذلك، بالضوابط المذكورة سابقًا، قدر الإمكان ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فلم يفعله النبي ﷺ كل مرة، ونستحضر كل مرة تغذية القلوب الناشئة على الإيمان لما في ذلك من تكرار لغرس التوحيد وأصوات الأذان وترتيلات القرآن والأذكار وسائر شعائر الصلاة السمعية، وانسكابها في آذان الطفل مرات ومرات صباح مساء.

* ونحرص على التخفيف في الصلاة إذا كان بهم بكاء أو جوع أو تململ ونحوه، سواء كانوا على ذراعنا في الصلاة أو بجوارنا.

---

(١) ممن قال أن العدل اسم من أسماء الله الحسنى: الشيخ عبد الرحمن السعدي وغيره.

* ونجتهد أن نصنع سُترة أمامنا قريبة منا قدر الإمكان، فإذا مر الرضيع داخلها نحمله خارجها برفق ونربت عليه حتى لا يبكي أو يظن أننا نبعده لكرهنا له مثلًا، فيعتاد تدريجيًّا أن موضع الصلاة لا نمر فيه بين يدي المصلي، وأن وقوفنا بين يدي الله بالصلاة له هيبةً وحُرمة ووضع خاص، فيكتسب من ذلك تعظيم شأن الصلاة أكثر وأكثر، فإن أبى حينئذ إلا المرور ولم أتمكن من دفعه فلا بأس ولا حرج، لكن نحاول كل مرة بلطف وحكمة حتى يعتاد.

* ونجتنب تمامًا أن ندفعه بعنف أو نضربه أو نقرصه أثناء الصلاة، وتكلمنا في مشكلات الرضيع عن سبل تجاوز المشكلات المتعلقة بوقت الصلاة، يُرجَع إليها، فكل الحلول هناك الغرض منها تعويد الطفل على تعظيم شأن الصلاة وحبها وعدم النفور منها وربطهم بأجوائها، مع ما يستمعون فيها من آيات القرآن وكلمات التوحيد أيضًا.

* وإذا أحبوا الجلوس في حجرنا على فخذنا في جلسة التشهد بالذات - يعشقها الصغار - نقبل ونضمهم لحضننا حتى نسلم.

* ثم بعد الصلاة نتركهم في حضننا ونتودد إليهم بأي من مظاهر العطف التي فصلناها في الحقوق والاحتياجات، كما فعل ﷺ مع حفيديه: «فلمَّا قَضى الصَّلاةَ وضعَهما في حجرِهِ وقالَ: «من أحبَّني فليُحبَّ هذينِ»[1]، تخيلوا حجم ارتباط الصلاة في وجدانهم حينها بالمشاعر المحببة والفرحة؟

* بجانب جعلهم يرون اهتمامنا بالأذان ودخول أوان الصلاة ثم بالصلاة على وقتها بوقار وخشية وطمأنينة وسكينة والتستر أثناءها والتبسم بعدها مع التسبيح بخشوع وسعادة وراحة.

---

(١) حسنه الألباني-صفة الصلاة (١٤٨) | وصحيح ابن خزيمة وقال: إسناده حسن رجاله ثقات رجال مسلم| أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨١٧٠)، وابن خزيمة (٨٨٧) باختلاف يسير، وأبو يعلى (٥٠١٧) واللفظ له.

* وحين يبدأون مرحلة المحاكاة الحركية للصلاة بحركاتهم اللطيفة، لا نسخر منهم، بل نبدي لهم فرحة بعد الصلاة مع حضن وابتسامة حنونة وضحك من لطفهم وجمل مثل: «أنت تصلي معنا! أحسنت! بارك الله فيك يا صغيري وجعلك من المصلين».

٢٠- نحمل المصحف باحترام وإجلال ولا نستدبره أو نقلل من شأنه أمامهم، فلا نضعه خلف قافية رأسنا على ظهر الأريكة التي نجلس عليها مثلًا ولا نتكئ عليه ولا نمد رجلنا تجاهه ولا نضع فوقه كتبًا أخرى ولا نمسكه بأيادٍ متسخة، ونصونه عن أماكن الألعاب والأطعمة ونتلو منه مباشرة أمامهم - وليس من الهاتف - ببهجة وشغف وتعظيم، وإذا حاول الطفل الإمساك به نعطيه إياه بين أيدينا بتوقير، لكن مع الانتباه كلما حاول تقطيع الصفحة أو الإساءة للمصحف نأخذه منه ونرفعه في مكان مَصون بعيدًا عن عبث يديه بصفحاته، فيفهم قدسيته.

٢١- تنقية البيت وسلوكيات أهله من الشركيات وما يفضي إليها وكل ما فيه سوء أدب مع الله:

* فنلتزم بعدم وضع تماثيل ذوات أرواح في رفوف عالية مصونة مثل المصحف، هذه لا توضع إلا في صندوق اللعب حيث تُهان وتُركَلُ بالأقدام وربما تتهشم منها أجزاء ولا نبالي، فيعتاد على أن تلك المجسمات لا يليق بها التعظيم، لا تنسوا! لديكم ماكينة ذاكرة جبارة في البيت تقتنص المشاهد وتقارن وتحلل بذكاء ودون رحمة.

* ونغلق كل القنوات التلفازية التي تبث صور الشرك من خلال أفلام أو أغاني أو مسلسلات أو رسوم متحركة أو أناشيد.

* ولا نحلف أمامه بغير الله، فلا نقول «وحياتي»، «وحياتك»، «والنبي»، «ورأس جدي»، «وتُربة أمي»، «والأيام المفترجة دي».. إلخ.

* لا نستغيث بأموات - وضربنا أمثلة لذلك في فقرة سابقة - ولا نوجه أي شكل

من مظاهر العبادات لأي أحد أو أي شيء سوى الله، ولا نخاطب صور ذوات أرواح وكأنها تسمعنا وترانا، بخاصة المتوفين منها.. ولا نتذلل أمامهم لأحد إلا لله.

* لا نُعلمه: ربنا عاوز، ربنا حنين، ربنا بيطبطب عليك، ربنا واقف جنبك، ربنا «عمره» ما كذا.. إلخ، كلها مما فيه تسوية لأسلوب الخطاب الموجه لله ﷻ بأسلوب الخطاب الموجهة للبشر، بجانب ما في معانيها من نقص لا يليق بالله سبحانه.

٢٢- كلما حاول فعل شيء خطأ في الخفاء أقول له «الله يراك»، «الله يسمعك»، أذكر أني ظللت أرددها لأولادي في مثل تلك المواقف، حتى كبروا وصار بعضهم يقولها لبعض تلقائيًّا والحمد لله وهم بعد صغار، وكنت أحاكي فيها الإمام التستري الذي ذكرنا قصته في بداية الفصل.

٢٣- كذلك كلما أساء أقول له - حسب موضع السلوك في الوحيين بصدق وأمانة: «الله لا يحب هذا الفعل ومن يفعله»، وكلما أحسن أقول له «الله يحب هذا الفعل ومن يفعله»، وبالمثل نقول حسب الموقف: «لا! النبي ﷺ لا يحب ذلك»، أو «أحسنت! النبي ﷺ يحب ذلك ومن يفعل ذلك».

* مثلًا: يسرف في الماء وهو يلعب في مسبحه الصغير ولا يريد غلق الصنبور فبدلًا من قول: «هذا خطأ أو عيب» فقط، أقول له «لا تسرف في الماء، الله لا يحب المسرفين»، أو إذا ضرب أخته أو أخاه فبدلًا من أن أكتفي بالقول «العبوا سويًّا دون عراك»، أقول «الله لا يحب الظلم ولا الظالمين»، مثلًا.

٢٤- وكلما جاء ذكر النبي ﷺ أمامنا نصلي عليه بحب ونُظهِر اشتياقنا لصحبته وتعظيمنا لسيرته وغضبنا ممن يسيء الأدب مع سيرته.

٢٥- وبشكل عام: ربط الأوامر والنواهي والمعلومات العامة والمواقف اليومية بكلام الله ورسوله.

فمثلًا إذا سب أخاه، فبدلًا من قول «كخ» فقط، أقول: قال الرسول ﷺ: «ليس

المؤمن باللعان»[1]. (وكِخ: هي كلمة عربية تَقولُها العرَبُ عندَ تَحقيرِ الشَّيءِ والتَّنفيرِ منه، ويَغلِبُ استعمالُها مع الصِّغارِ ولا حرج منها[2]، وقد استعملها ﷺ مع أحفاده عند ردعهم عن أكل تمر الصدقة فقال: «كِخ كِخ»[3].

أو إذا تكلم بغضب أقول له «النبي قال لا تغضب».. أو إذا سار بنعل واحدة وخلع الأخرى أو جلس ونصف بدنه في الظل والنصف الآخر في الشمس أقول له «النبي ﷺ قال لا نفعل هذا»، أو إذا جمع ألعابه من طريق أهل البيت بعدما أنهى اللعب أقول له «أحسنت»، الرسول قال: «إماطة الأذى عن الطريق صدقة»[4]، أو إذا تعجل أمرا لا يصبر عنه وألَحَّ عليه أقول: «اصبر الله يحب الصابرين».

وهكذا.. وكل ذلك نأخذ منه بحسب استيعاب الطفل وتطور نموه اللغوي والإدراكي.

٢٦- اصطحابه كثيرًا خارج البيت أو في الشرفة المطلة على مساحة واسعة من السماء والأرض والأشجار والعصافير ودواب الطريق، لنعلمه التأمل في ملكوت الله وبديع صنعه منذ صغره، لأن كثرة مكثه في البيت تحول بينه وبين التعرف على مخلوقات الله في الخارج والتي بتأملها وتدبرها يزداد تعظيمه ﷻ وحبه، فآثار قدرة الله وتنوع مخلوقاته وعظمة ربوبيته خارج البيوت تكون أكثر ثراءًا ووضوحًا في حواس الرضيع، من البيوت العامرة بالجمادات أكثر، ونسمي له الأشياء ونشير إليها ونقول: «هذا القط اللطيف خلقه الله وخلقك، ويرزقه ويرزقك، ويحفظه ويحفظك، فتبارك الله أحسن الخالقين، وخير الرازقين، وخيرٌ حافظًا»، ونكلمه عن تنوعها وتنوع وظائفها وأنها كلها تسبح لله هي والسماء والأرض لكن لا نفقه تسبيحهم.

٢٧- كلما شعرتِ بتعبٍ أو إرهاق مثلًا، جميل أن تقولي أمامه: «أنا متعبة، أحتاج

---

(١) صححه الألباني-الجامع الصغير (٧٥٦٦).
(٢) شرح الدرر السنية.
(٣) البخاري (٣٠٧٢).
(٤) صححه الألباني-صحيح الجامع (٤٢).

لقراءة أو سماع بعضا من القرآن»، أو «أين قرآني صاحبي حبيبي؟ أريد أن أهدأ قليلًا».. إلخ.

٢٨- ترديد الأذكار اليومية وأذكار الأحوال العامة جهرًا أمامهم حسب الحال، فيعتادون أن خالقهم أحاطَ بكل شيء، وأننا لا نستغني عن مَعِيته ليل نهار.

أعرف أمًا فوجئتْ برضيعها بعد عمر العام والنصف قد بدأ يردد مقاطع من بعض الأذكار تلقائيًّا لكثرة سماعها، وأخرى فوجئَتْ برضيعها وقد بدأ يردد الفاتحة بحروف متعثرة، قبل أن ينطق كلمات سليمة بعد.

اليوم عامر بالمغامرات والمواقف التي لا تحصى، فإن تعودنا على اغتنامها، ربينا طفلًا واعيًا بها، يقول الله ﷻ: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾ **[آل عمران:٤١]**، ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**﴾ **[الأحزاب:٣٥]**، ولا شيء يُظهِرُ بوضوح تعظيم الله أمام الطفل مثل أن يظل لساننا رطبًا بذكره.

* فها هو الرضيع يستيقظ من نومه فنُسمِعُه أول شيء: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» ثم لا مانع بعدها من «صباح النور على البنور».

* وها هو يدخل الخلاء لنحممه أو ننظفَه فنُسمِعُه «بسم الله اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث».

* ثم ها هو موعد وجبته سواء من الرضاع أو غيرها فنُسمعه «بسم الله» قبل أن نقول «هَمّ المَم يا جمل».

* ثم حين يُنهِي طعامه نقول: الحمد لله، رزق الله جميل، ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ **[إبراهيم:٧]**، الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين.

* ثم بعد الطعام ها هو يذهب لغرفته ليجرب ملابسه الجديدة فنقول له «الْبَسْ جديدًا وعِشْ حَميدًا ومُتْ شهيدًا»[1]، فيعتاد منذ صغره على كلمة «موت» و «شهادة

(١) صححه الألباني-صحيح ابن ماجه (٢٨٧٩).

في سبيل الله» دون تحسس منهما أو رهاب، وكلاهما من ضرورات البناء العقدي، لاتصالها بأحد أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر.

* ثم ها هو يلعب بلعبه وفجأة كُسِرَت لعبته، فنقول «يخلفُ الله عليك بُنَي»، أو ربما ضاعت لعبته فنقول: «ردها الله عليك».

* ثم يعطش فيمسك الكوب ليشرب عصيره فينسكب منه على الفراش، فنقول: قدر الله وما شاء فعل، تعال نصلحه معًا والله يعيننا.

* ثم حان وقت الخروج للتنزه فنُسمِعه دعاء الخروج «بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي»، ولا يخفى ما فيها من جَرس وتكرار وتقطيع.

* وها هو يركب معنا المصعد ثم السيارة فنسُمِعه فيهما «دعاء الركوب»، أو ينزل معنا الدرج ونحن نقول سبحان الله، وإذا نسينا شيئًا وصعدنا من جديد نقول الله أكبر، (سبق ذكرها في نقطة مستقلة).

* وها نحن نصل لوجهتنا بعد ركوب السيارة وترديد دعاء الركوب أيضًا، فنتلو أمامه المعوذات قبل الجلوس في المكان.

* ثم ها هو يركب الأرجوحة فنقول بسم الله، ثم ينجو من سقوطٍ منها فنقول: الحمد لله.

* ثم ها هو تقرصه ناموسة أو يتعثر أثناء لعبه فتجرح ركبته، فنقول أول ما نقول: لا بأس بُني، طهور بإذن الله، واللهُ يحب الصابرين، ونرقيه ونقول: «بسم الله» ثلاث مرات ثم «أعيذك بعزة الله وقدرته من شر ما تجد وتحاذر» سبع مرات ونحن نمسك بموضع الألم، وندعو له «شفاك الله يا بطل».

* ثم ها هو والده يحضر له هدية من الجوار ليواسيه: فنقول له: الحمد لله الكريم اللطيف الودود الرزاق.. إلخ، أو يضاحكه لينسيه ألمه فيضحك مسرورًا فنقول: الحمد لله أضحك سنك مجددًا.

* ثـم هـا هـي ريـح هبـت ربمـا فيسـمعنا نقـول «دعـاء الريـح» ويشـاهد كيـف نلجـأ إلـى الله منـه، وربمـا أمطـرت فيرانـا نقـول «دعـاء المطـر» ونحمـد الله بعـده فيعلـم أنـه خيـر ورزق وبركـة مـن ربـه.

* ثـم هـا نحـن أخيـرًا نعـود إلـى المنـزل فنسـمِعُه دعـاء الدخـول إلـى المنـزل «اللهـم إني أسـألك خيـر المولـج وخيـر المخـرج، بسـم الله ولجنـا وبسـم الله خرجنـا وعلـى الله ربنـا توكلنـا».

* ثـم هـا هـو يدخـل فراشـه للنـوم فأنفضـه أولًا بطـرف غطـاء النـوم أو الثـوب، ثـم أضعـه فيـه وأنـا أقـول:

«الحَمْـدُ لِلَّـهِ الـذي أَطْعَمَنَـا وَسَـقَانَا وَكَفَانَـا وَآوَانَـا»، ثـم أنـام في فراشـي إلـى جـوار فراشـه – في حـال أن فراشـه لـم يغـادر غرفـة الوالديـن بعـد – وأنـا أقـول بصـوت مسـموع ثـلاث مـرات: «اللهـم قِنِـي عذابَـك يـوم تبعـثُ عبـادَك»، أو «باسـمك ربـي وضعـتُ جنبـي وبـك أرفعـه فـإن أمسـكتَ نفسـي فارحمهـا وإن أرسـلتها فاحفظهـا بمـا تحفـظ بـه عبـادك الصالحيـن».

وقـد حفِظَـتْ ابنـة صديقتـي في عمـر العاميـن أو الثلاثـة، هـذا الدعـاءَ الأخيـرَ رغـم طولـه، لكثـرةِ ترديدهمـا إيـاه معـا عنـد وقـت النـوم كل ليلـة، لتقسـيمه لمقاطـع كمـا وضحـت لكـم.

يـوم حافـل بالحُسـنيَيْن: ذِكـرُ الله بنفسـي وتلقيـنُ ذكـرِ الله لقطعـةٍ مـن نفسـي، تلـك الغنائـم البـاردة، وصـدق النبـي ﷺ إذ قـال: سـبق المُفـرِّدون!

٢٩- في مجلـد الصـور الـذي ذكرنـاه مـرارًا، والـذي يصحبهـم أحيانًـا وقـت الطعـام كمـا قلنـا بمثابـة وجبـة لغويـة أثنـاء وجبتهـم الغذائيـة، نحـرص أن نضيـف صـورة للكعبـة كذلـك ومسـجد، وحيـن نشـير إليهـا نقـول: «كعبـة.. الله أكبـر»، ونرفـع يدينـا بالتكبيـر مثلمـا

نرفعهما أمامهم في الصلاة، فالأطفال في هذه المرحلة يفهمون بذلك أن المقصود هو ارتباطها بالصلاة.

٣٠- يمكن للأم التي تلمس من ولدها تطورًا لغويًّا ومعرفيًّا ملحوظًا أن تضيف بطاقات ورقية لكلمات أركان الإسلام وأركان الإيمان - على هيئة كلمة واحدة فقط وبخط واضح وكبير بدون صور: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر، والجنة، والنار، والشيطان.. (وعندما نشير إلى لفظة الجنة نبتسم ونبتهج بسعادة، وعندما نشير إلى لفظة النارأو الشيطان ننقبض ونكشر ونقلب شفتنا للأسفل ونشير بكفنا علامة الرغبة في البعد عنها)، ولا نضع صور مرئية للشيطان أو النار أو الملائكة وما إلى ذلك فهذا مخالف لعقيدتنا فيهم - كما سنبين في نقطة مستقلة - مجرد بطاقات نصية للألفاظ بحروفها فقط.

٣١- ربط كل فعل سنقوم به أو سيحدث بشكل شبه مؤكد في المستقبل القريب، بكلمة «إن شاء الله»، ونحرص على عدم التلفظ بها عند الغضب للتخلص من إزعاج الطفل مثلًا أو إلحاحه على شيء ما، ولا نتلفظ بها للتسويف كذلك، لئلا يكره الطفل تلك الكلمة الجليلة، قال الدكتور سلمان العودة: «قولوا «إن شاء الله» تحقيقًا لا تعليقًا»، وعندما نخفق في تحقيقها، نعتذر للطفل ونعوضه.

٣٢- لا مانع أحيانًا، أن تقومي بالحلف بالله على أمر ما يهُمُّ الطفل، وتقولين له: طالما أنا أقسمتُ إذن اطمئن بإذن الله.. ونتخير القَسَم الذي فيه تعظيم لله بوضوح وحروف سهلة: والله العظيم، أقسم بالله، واللهِ. وبالطبع نحرص أن يكون الأمر جدٌّ لا هزل فيه ولا تهاون في صِدقه أو تنفيذه حتى لا نضطر فيه إلى الحنث في الأيمان وأداء كفارته، وإذا حدث ذلك رغمًا عنا، نُفهم الطفل بطريقة بسيطة أننا أخطأنا وأننا سنعطي الفقير طعامًا أو ملابسَ لنعتذر إلى الله حتى يمحو عنا هذا الخطأ برحمته - تبسيطًا لمفهوم كفارة حنث اليمين، إذا لمسنا من الطفل استيعابًا بالطبع - وبذلك

يترسخ لدى طفلك أكثر مدى شدة مسألة الأيمان وتعظيم الله.

٣٣- نواظب أمامه قدر الإمكان على سجود الشكر عند فرحنا بحدوث نعمة أو اندفاع نقمة.

٣٤- نحرص على تكرار قول «الله أعلم» ودون أية حرج، فهذا يُعلّم الرضيع: عدم إحاطتنا بكل الأجوبة، وأن الله هو العليم تمام العلم.

٣٥- وقد ذكرنا في حقوق واحتياجات الرضيع التحصينية، أن نقوم بإغلاق فمهم بكفنا عندما يتثاءبون، لئلا يدخل الشيطان، وحجزهم عن الطعام حتى يُسَمُّوا (إذا بدأوا في النطق)، وهنا.. فإن من البناء العقدي وبخاصة عندما يبدأ الرضيع في فهم الكلام، أن نخبره بالسبب ونحن نفعله له، فنقول عند غلق التثاؤب: «حتى لا يدخل الشيطان الرجيم فمك الجميل» أو عند حجزهم عن الطعام إلى أن يسموا: «حتى لا يأكل الشيطان معنا»، **على سبيل تبغيضهم في الشيطان عدو الله وأنه مؤذي لا نحب أن يقترب منا، فتلك عقيدة.**

٣٦- نردد كلمات يومية خلال المواقف اليومية كذلك، فيها نماذج مما يلي: المؤمن حبيب الله، المؤمن جميل وطيب، المسلم نظيف، المؤمن حبيب الرسول.

٣٧- تعليمه تحية الإسلام «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» كاملةً حتى يسمع كلمة (الله) التي فيها كل مرة ما استطعنا.. فنسلم بها عليه عندما نستقبله أو نودعه، ونتبادلها فيما بيننا جميعًا صغارًا وكبارًا أمامه، فمع تكرارها وبخاصة مع التبسم عند تلفظها، يرتبط وجدان الطفل بمحبتها مما يزيد من تعظيم الله وشعائر الإسلام في قلبه.

٣٨- إذا عطسنا أمامه بشكل خاص لا ننسى أن نقول «الحمد لله»، ونجتهد حين يعطس أن نعينه على قولها، وإن قالها نبتهج بسعادة ونحن نقول له «يرحمك الله»، فـ «الحمد لله» هي أول كلمة جعل الله الملائكة تعلمها لسيدنا آدم بمجرد أن وصلت الروح لأنفه وعطس، وأول كلمة سمعها آدم من ربه بعدها كانت: «يرحمك ربك»،

حين أطاع آدم الكلام وقال بعد عطسته «الحمد لله»، وهذا يذكرنا بما قلناه في بداية النقاط، من أن أول ما نستفتح به معهم بعد كلمة التوحيد، هو بقية كلمات التوحيد والعبودية، ككلمة «الحمد لله» وغيرها.

٣٩- اصطحابه لصلاة العيدين، بجلباب أبيض وطاقية بيضاء - إن أمكن من باب تحبيبه في الشعيرة - وحلوى وبالونات، مع ترديد التكبيرات في الطريق وإشاعة أجواء البهجة بالعيد والسعادة بتحقيق عبادة الله وأركان الإسلام وشعائره، وإخباره أن الله يحب لنا الفرح والسرور.

٤٠- حين يحاكي هيئة دعائنا وأي من شعائر العبودية ببراءته اللطيفة المحببة، نبتسم له بفرحة ونثني عليه ونحتفي به.

٤١- الامتناع عن العيش بين ظهراني الكافرين، فلا ينشأ الصغار بعيدًا عن معالم الهوية الإسلامية وقريبًا من كل ما يخالفها.

٤٢- عدم إعطائه القصص الدينية المصورة التي تحوي صورًا مجسِمةً لمشاهد الجنة والنار الغيبية، فإن ذلك قد منعه أهل العلم من الناحية الشرعية، وحق لهم ذلك، فبالإضافة للأسباب التي ذكروها للنهي عن ذلك، فإن في هذا الأمر تضييقًا للأفق التخيلي للجنة لدى الطفل وتضييقًا لقدر تعظيم حقيقتها في قلبه وتعويدًا له على المادية في إيمانه، بينما الأصل الذي نوصي دومًا بتنميته هو «الإيمان الغيبي»، حتى لو كانت الصور مجرد تعكس «تخيل الطفل بطل القصة عن الجنة أو النار»، فلا ننصح بها، لأن فيها نفس التخوف، ألا وهو: تثبيت لخيال الطفل عند حد معين من الصور وتعميم نشر ذلك بين كل الأطفال التي ستقرأ قصته وتحفظ ذلك التصوير بلا ريب وتحاكيه، هذا بالإضافة إلى التعمق في إفزاع الأطفال بصور مقبضة - عن عذاب الله - بدون داعٍ لذلك القَدر الآن، بينما يكفي سردها بشكل عام على الطفل ضمن التربية الإيمانية كما ذكرنا، دون مبالغات تصويرية ومشاهد تهويلية.

كل تلك النقاط هي قبل أن ينطق.

ثم ما إن ينطق الرضيع، نضيف التالي إلى ما سبق:

١- تعليمه الترديد لكل ما سبق بنفسه قدر الإمكان، مما فيه أذكار وقرآن ونحوهما، مع كثير من التشجيع والصبر على تلعثم حروفه الوليدة دون ملل أو تعجل، والله يحب الصابرين؛ ودون محاصرة للطفل وإملال له، فنتحين أوقات حماسته ونشاطه لذلك ونغتنمها، وعلينا إعادة نطق اللفظة بشكل سليم أمامه عندما ينطقها بشكل خاطئ، بخاصة ما كان منها قرآنًا.

٢- تلقينه الدعاء لنفسه بصلاح القلب والإيمان بالله بألفاظ بسيطة ولو حروف متقطعة متعثرة: اللهم احفظني، اللهم ارض عني، اللهم الجنة، يا رب أعطني لعبة كذا، يارب «أخف» أُشفى، يارب نخرج نلعب، يارب النور يرجع.. إلخ.

ثالثًا: البناء الأخلاقي للرضيع

- من المهم أن نعرف أن الاهتمام بالبناء الفطري والإيماني خطوة لا غِنى عنها قبل خطوة البناء الأخلاقي.. فنرجو عدم قراءة هذا الملف بمعزل عما سبق، بالإضافة إلى ضرورة عدم إهمال الجانب الأخلاقي في الرضيع بزعم أنه لازال صغيرًا أو بزعم أن نمط شخصيته أو سماته الشخصية لا يجدي معهم تقويم، فالبناء الأخلاقي ومقاصده يندرجون تحت مقصد حفظ الأخلاق، التي هي من حفظ الدين.

وبالنسبة للسمات الشخصية

❁ فالشخصية تعريفها البسيط هو أنها مجموع الانفعالات والحالات المزاجية والسلوكيات والتوجهات والطباع والمهارات التي تجعل من كل شخص فردًا مستقلًا، وسبق وتكلمنا عن غالبية تلك العناصر في الباب الأول، وفي «علم نفس الشخصية» الغربي، نظريّة عناصر الشخصية الخمسة - أو سمات الشخصيّة الخمسة - هي ما يُعتقد أنّها الأبعاد التي تكوّن وتصف شخصيّة الإنسان، واعتقادي الشخصي أن أمر

السمات الشخصية أعمق من ذلك الحصر العجيب، لأن البشر متفاوتون بقدر عددهم وتفاوت ظروفهم الخارجية وتَدافُع كل منهم مع الحياة.. فكيف نستطيع بربكم حصر ذلك كله وتصنيفه في قوالب خمسة؟! بالإضافة إلى أن الأمريكي المقترِح لتلك النظرية «جوردون ألبورت» في منهج السمات في علم نفس الشخصية، من ضمن نظرياته أن من الضروري دراسة حاضر كل فرد، وليس ماضيه، لفهم شخصية ذلك الفرد! ولا تعليق!

فنصيحتي لكم.. لا تتقيدوا بتلك الأنماط الغربية في شيء من تحليلكم لشخصية وسمات ابنكم، وكل أم أدرى بطفلها، فكل طفل له سمات مرحلية وله أيضًا سمات خاصة به يتم اكتشافها بالممارسة والتواصل والتجربة، وهي التي بتكاملها معه تؤثر في استجابة الطفل.

تفاصيل البناء الأخلاقي للرضع:

أولًا: أقسام الأخلاق لدى الرضيع

بعضها أخلاق حسنة نريد إكسابها وتنميتها في الرضيع، وبعضها أخلاق سيئة (شائعة في زماننا بالأخص) نريد تعديلها في الرضيع، وبعضها سلوكيات طبيعية ويظن البعض أنها سلوكيات سيئة.

١- من الأخلاق والآداب الحسنة المطلوب إكسابها للرضيع، بنسبة معقولة:

❋ احترام والديه والكبار عمومًا.

❋ احترام تعليمات والديه والالتزام بها طوعا أو كرها، بالضوابط الشرعية.

❋ احترام نعمة الطعام وعدم إلقائها في القمامة.

❋ النظام والنظافة وإصلاح ما أفسده.

* معاونة الآخرين، وحبه لهم ما يحبه لنفسه.

* ضبط النشاط المخرب وتعليم الطفل قيمة الأشياء والحفاظ عليها.

* رد التحية لمن يسلم عليه.

* التدريب المبدئي على الاستئذان (ما بعد عمر السنة غالبًا): الصبي دون الحلم يستأذن في مواقيت العورات الثلاث فقط وإن لم تتحرك غريزته بعد: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاء ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:٥٨]، والطفل هنا قد لا يدرك المواقيت جيدًا بعد، فنربط له الاستئذان برؤية الباب مغلقًا.

٢- من الأخلاق السيئة - الشائعة في زماننا بالأخص - المطلوب تعديلها في الرضيع:

* الاعتداء بالضرب على أقرانه أو الكبار، خاصة الصفع على الوجه وشد الشعر والبصق.

* نوبات الغضب ومظاهرها المبالغ فيها، كالصراخ وقذف اللعب.

* صد الوالدين بجفاء ورفض أحضانهم ومحاولاتهم لتهدئته.

* استعمال العض سواء في المزاح أو الغضب.

* النهم للطعام والطمع في كل شيء من المتع.

* آثار التدليل الزائد عن الحد.. وهي خطأ من الأهل قبل أن يكون المُلامَ هو الطفل.

* «الزن».. (وسبق تعريفه وتفصيل أسبابه المحتملة وعلاجها، فلا داعي لفتح جراحه مجددًا).

قال ابن القيم: «ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج، الاعتناء بأمرِ خُلقه، فإنَّهُ ينشأُ على ما عوّده المربي في صغره، من غضبٍ ولجاجٍ وعجلة وخفةٍ وطيش وحدةٍ وجشع، فيصعبُ عليه في كبرهِ تلافي ذلك، وتصيرُ هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة»[1].

وقال الغزالي: «ومهما كان الأبُ يصونه عن نار الدنيا، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته: بأن يؤدِّبهُ ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قُرناء السوء، ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية، فيُضَيع عمره في طلبها إذا كبر، فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبهُ من أولِّ أمره، وأول ما يغلب عليه من الصفات: شره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه، ثُمَّ مهما ظهر من الصبي خلقٌ جميل، وفعلٌ محمود، فينبغي أن يكرَّمَ عليه، ويجازَى عليه بما يفرحُ به، ويمدحُ بين أظهُرِ الناس – أمامهم.. فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرةً واحدة فينبغي أن يتغافل عنه»[2].

٣- من السلوكيات الطبيعية التي يظن البعض أنها «أخلاق سيئة واجبة التعديل»:

* الفضول وكثرة الأسئلة والاستكشاف.

* كثرة الثرثرة اللغوية المتجددة – تختلف عن ''الزن'' في كونها طلاقة لسان الرضيع بالكلمات الجديدة واستعراض ما تعلمه لغويًّا، وليست مرتبطة بسوء المزاج أو الرغبة في النوم أو الحصول على شيء ممنوع.

* كثرة النشاط والحركة واللعب في كل شيء طوال وقت، وبعض الأمهات يعدون ذلك من فرط الحركة، بينما كما قلنا في فصل مشكلات الرضيع، أن فرط الحركة أصلا اضطراب لا يتم تشخيصه قبل سن ٦ سنوات.

* رفض الرضيع للتوجيهات: النوم مبكرًا، والنوم في فراشه، وعدم العبث بعورته، وعدم خلع ملابسه.

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود-لابن القيم.

(٢) محمد بن محمد الغزالي أبو حامد-إحياء علوم الدين-مع الأخذ في الاعتبار مآخذ علماء العقيدة على بعض ما ورد في الكتاب، عفا الله عن الشيخ الكريم.

* رفضه للتقيد بالمحاذير والخطوط الحمراء المحافظة على سلامته: عدم تسلق الدَرَج، وعدم وضع لعبة معينة في فمه، وعدم الوقوف أمام المروحة.. إلخ.

* إصراره على الاعتماد على نفسه في أمر أو توقيت غير مناسب.

* الخوف الجبلي الطبيعي من أشياء غير مخيفة، ورفض الانصياع لأمر ما بسبب ذلك.

* شدة البكاء عند الحزن أو الخوف أو الغضب.

وتكلمنا في فصل علاج المشكلات، عن كيفية التعامل مع تلك الأمور لئلا تكون مصدر توتر بين الأم وطفلها، فيرجع إليه، بجانب تناول الفصل لكثير من السلوكيات والأخلاق اليومية وتمييز السمات الطبيعية المزعجة من المشكلات الحقيقية، مما يساعد الأم أكثر في الجانب الأخلاقي.

الخلاصة.. لا يولد رضيع سيء الخلق كما قلنا في مقدمة هذا الكتاب، إنما لديه مجموعة من الطباع والأخلاق الجِبِلِّيَّة والمهارات، التي تتطور إمَّا إلى سلوك حسن وإما إلى سلوك سيء، بحسب التربية والبيئة الحاضنة وتفاعل الرضيع معها بإرادته، وما إلى ذلك.

ثانيًا: كيفية إكساب الرضيع الأخلاق والآداب الحسنة، وتعديل سلوكه في الأخلاق السيئة:

الجواب: **القدوة** كما قلنا مرارًا هي الأساس، فيراقب الرضيع تصرفاتنا اليومية ويحاكيها بعد مرور أول عام من المرحلة غالبًا، فعلينا التأهب لذلك مبكرًا، ونعزز القدوة أيضًا **بالتلقين** اللفظي المتكرر، بمقاطع لغوية مناسبة للنمو الإدراكي واللغوي للرضيع.

وعلى الوجه الآخر من عُملة «القدوة»: إبعاد الرضيع عن القدوات السلوكية

السيئة، فننتبه لمن يختلط بهم، وكذلك ننتبه لما يتعرض له من مُدخلات، بخاصة المرئيات التي فيها عراك وضرب وعدوانية وسوء أدب وتصرفات غير بريئة، ومرة أخرى: لا مثال على ذلك أقرب من «توم وجيري» وأمثاله من رسوم ديزني وقريناتها، هذا بالإضافة لأضرار الشاشات على الرضيع من الأصل كما بيّنّا وأوصينا بمنعها.

أمثلة تطبيقية للقدوة الأخلاقية من الحياة اليومية:

فنجعل الطفل مثلًا يرانا:

* نحترم والدينا ونوقرهم ونهرع إلى الرد عليهم والحمل عنهم وإجلاسهم مكاننا والعطف عليهم وما إلى ذلك.

* ونحترم الآخرين لاسيما من هم أكبر منا وننصت لنصح من هو أعلم منا.

* ونأكل بأدب، ونتكلم بأدب، ونمشي بأدب، ونرفض بأدب.

* ونصون النعم عن الإسراف والتخريب.

* ومحبين للخير ومسارعين في تقديم العون لمن حولنا، ودودين مع الناس، نرحم ونكرم ونساعد ونربت ونسامح.

* وحريصين على ترك المكان نظيفا مرتبًا.

* ولا نسب ولا نشتم ولا نفحش في القول ولا نطلع على عورات أحد ولا نبدي عوراتنا ولا نتجسس ولا نؤذي أو نعتدي، فلا يرانا قدوة في: التعري، والتدخين، والبذاءة، ومشاهدة المنكرات، والإسراف في تحصيل النعم أو في هدرها، والفوضى والتخريب والإهمال، وعدم النظافة، والبخل، والكذب والغش، والإيذاء، والتحدث عن الآخرين بهمز ولمز.. إلخ.

* و نلقي التحية على من نقابلهم.

* ونطرق الأبواب المغلقة وننتظر قبل الإذن لنا بدخولها.

* ونلقي الفضلات في القمامة، ونلقي فضلات الطعام للحيوانات.

* ونسد آذاننا عند مرور موسيقى أو سباب بالجوار، ونغض بصرنا عند مرور مشهد فيه عورات أو مجون وسوء أخلاق.

* ويرانا نقوم في الحافلات للضعفاء وكبار السن ليجلسوا مكاننا، ونساعد الكفيف على عبور الطريق، ونتصدق على المسكين بإحسان، ونكرم الضيف بسخاء وتلطف، ونصون الجار عن أذانا أو إلقاء القمامة في طريقه أو إزعاجه وقت نومه ونهديه من طعامنا الشهي.. وإلخ.

* ونشرب على مهل ونأكل على مهل، دون نهم أو فجع أو شراهة أو جمع بين اللُقَم فهذا منهيٌ عنه.

* ونمتنع عن الولع بالزينة وفضول المعيشة والملبس ونحوه، إلا ما كان فيه مصالح تخدم النمو الصحي للطفل بالتأكيد، ولنا فيه مصالح معتبرة.

وما إلى ذلك من الأخلاق والمعاملات والآداب اليومية في حياة المسلم، التي نحرص أن يرانا فيها.

وحين نراه يفعل ما يخالف الخير منها نوجهه بالآية والحديث (أو ما في معنى الحديث بكلمات بسيطة قريبة من فهم الطفل)، كما تكلمنا في البناء الإيماني، لينشأ مرتبطًا إيمانيًّا بالسلوك المطلوب منه فيترسخ بداخله أكثر أنه لا خيار له في فعله وأنه (دين).

أمثلة:

* لا تخرب الأريكة بالأقلام، الله لا يحب المخربين، والله لا يحب المفسدين، والله يحب الجمال.

* كن مؤدبًا، النبي يحب الخلق الجميل، أو لتأخذ حسنات الجنة الجميلة، والله يحب الصالحين.

* ساعد أخاك في جمع ألعابه، الله يحب الطيبين، والله يحب المحسنين، والطيب حبيب المسلمين.

* وبالوالدين إحسانا يا جميل فتأدب.

* أغلق الصنبور الله لا يحب المسرفين، أو حافظ على الماء وكن من الشاكرين، ولا تسب الطعام الله يحب الشاكرين.

* رد السلام على فلان يا كتكوت، الرسول ﷺ قال أفشوا السلام.

* اشرب على ثلاث مرات، وتنفس خارج الكوب، النبي ﷺ «يشربُ في ثلاثةِ أنفاس»[1].

* اشرب وكل باليمين يا بطل، النبي ﷺ قال كل بيمينك.

* ابدأ بالقدم اليمنى يا فتى (حين يرتدي حذاءه أو سرواله مثلًا) أو ابدأ بأسنانك اليمنى يا جميل (حين يستاك أو يفرّش أسنانه).. «النبي كان يعجبه التيمن»[2].

إلى غير ذلك من مواقف يومية لا تعد ولا تحصى من الأخلاق والمعاملات والآداب اليومية، وضربنا أمثلة كثيرة لمثلها في فصل مشكلات الرضيع وكيفية تقويمها، يرجع إليها هناك لإكمال الصورة السلوكية، تفاديًا للتكرار، وكلها ليس متوقعًا بعد أن يلتزم بها الرضيع بنسبة كبيرة، بل قد لا يلتزم بها أصلًا، ويظل يراقب ويستمع ويخزن وحسب، إلى أن يصير فطيمًا مثلًا، فلا تظني حينها أن كل ذلك كان هدرًا وسدىً، ولا تنسي كلمة السر خاصتنا دومًا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ونؤكد مجددًا: ألا نؤدي تفاصيل عناصر البناء تلك كلها بشكل فيه محاصرة للطفل بالمدخلات ولا نعرضه لمدخلات متزاحمة غير مناسبة لنموه الناشئ بما يشوش عليه البناء السليم، إنما نعرضه لمحفزات بمعدل طبيعي ونكرر منها ما

---

(١) صححه الألباني-الصحيحة للألباني (١٢٧٧).
(٢) مع دعم خطابنا له بالإشارة باليد ولغة الجوارح بالطبع كما قلنا في البناء اللغوي.

يناسب تحفيز حواسه ونموه الشامل بخطوات هادئة مطمئنة بسيطة دون توتر أو تعجل، ويتكامل غرسك ويترابط معا بإحكام ومتانة بإذن الله، حين يستجمع الرضيع كل مكونات البناء الديني معًا: الفطري والإيماني والأخلاقي، فتلتحم فروعها وتتشابك رويدًا في وجدانه فتنبت شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

مثلًا: سيلتقط ما قلتِه له في البناء الإيماني يومًا عن قول بسم الله قبل الشرب والأكل وحمد الله بعدهما، بجانب ما قلتِه له يومًا آخر في البناء الأخلاقي عن الأكل والشرب بروية، بجانب ما عززتِه مرارًا في بنائه الفطري الأخلاقي والإيماني، فيجتمع لديه رويدًا أدب السلوك من كل جانب بتدرج هرمي متأنٍ لا دفعة واحدة، فالرضيع كما قلنا يناسبه أكثر التلقين على هيئة مقاطع مُفَصَّلة وتعليمات قصيرة مكررة، فلا يناسب مرحلته تلقين الشيء في مقطع واحد دفعة واحدة.

وبذلك نكون أنهينا ما تتيحه لنا مساحة الكتاب من الكلام عن البناء الديني الشامل للنفس في أول عامين من عمر الإنسان، وقد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها.



الفصل السادس

الاستعداد للرضيع

۞ بالمعلومات التي ذكرناها في كل ما سبق إجمالًا، وتحتاج لتجهيز قبل المرحلة.

۞ ببيت تدخله الشمس ويتمتع بالتهوية الصحية والهواء النظيف، ومن اللطيف هنا، إخباركم أنه حتى تلك المعلومة الصحية عن الحرص على بيت تدخله الشمس، وجدت لها أثرًا في السنة! قال عروة بن الزبير: «لَقَدْ حَدَّثَتْنِي عَائِشَةُ: أَنَّ النبي ﷺ كانَ يُصَلِّي العَصْرَ والشَّمْسُ في حُجْرَتِهَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ - أي قبل أن تعلو، أي في أول وقت صلاة العصر»[١].

۞ ببيت واسع وأثاثه قليل، سهل التنظيف والترتيب، كما جاء في الحديث: أربع من السعادة -وذكر منها «المسكن الواسع»، وأربع من الشقاء - وذكر منها «المسكن الضيق»[٢].

۞ ببيت بجوار الأهل لو ظروفك الصحية كحاضنة صعبة وتحتاجين لمساعدة دورية بسبب غياب الأب طويلا مثلًا أو وجودك في منطقة سكنية غير مأهولة بالجيران أو الخدمات ونحو ذلك، هذا في حالة أن سكنكم بجوارهم لن يسبب مشاكل أكبر.

۞ تجهيز غرفة مستقلة للأطفال في البيت.

۞ تجهيز مكان للعب آمن للطفل في البيت، ومجهزًا بمحفزات النمو الحسي واللغوي دون إسراف.

---

(١) صحيح البخاري: ٥٢١.
(٢) صححه الألباني-صحيح الترغيب (٢٥٧٦).

۞ بتوبـة ومراجعـة للمنكـرات والشـركيات في البيـت وحذفهـا وتطهيـره مـن كل رجـس وبـدء صحفـة جديـدة كصفحـة الرضيـع، فنعـود مثلـه كمـن ولدتـه أمـه.

۞ بالتنبيـه على الأسـرة الصغيـرة والكبيـرة على حقـوق هـذا الكائـن، كلهـا، خاصـة الدينيـة والنفسـية، ورغبتكـم في تنشـئته بعيـدًا عـن كل منكـر ومفسـد ومـا يغضـب الله، وتوعيتهـم بكافـة حقوقـه واحتياجاتـه.

۞ بمال العقيقة إن لم تتمكنوا من صنعها في مرحلة الوليد.

۞ بالملابـس الكافيـة والمناسـبة لبدنـه لمـدة كافيـة لأول ثلاثـة أشـهر علـى الأقـل، لأن الرضيـع ينمـو سـريعًا ومهامُـكِ معـه تتضاعـف، تقليـلًا لأسـباب الاكتئـاب والشـعور بالضغـوط.

۞ توفيـر أغـراض البيـت وأغـراض الأم مـن ملبـس وكسـوة وإلـخ، أول مرحلـة في الرضيـع، لصعوبـة نـزول الأم غالبًـا أول أشـهر بعـد الـولادة وقلـة حركتهـا وحركتـه بعـد، إبعـادا للحـزن والاكتئـاب والشـعور بالضغـط والقلـق.

۞ بفـراش منفصـل عـن فراشـنا لا يعيـق الأم عـن الرضـاع الليلـي بسـهولة ويكـون آمنـا في نفـس الوقـت علـى حركـة الطفـل وتطورهـا، وفصلنـا ذلـك في مشـكلات الرضيـع.

۞ بتوفيـر ميزانيـة جانبيـة معقولـة لشـراء ألعـاب وكتـب مناسـبة لمراحلـه العمريـة، تنمـي مهاراتـه العقليـة والحركيـة والإدراكيـة والحسـية واللغويـة وحصيلتـه الدينيـة.

۞ بالدعـاء للذريـة وأنفسـنا بشـكل عـام بالصـلاح في الديـن وبشـكل خـاص أن يجعلنـا الله وإياهـم مـن المقيميـن للصـلاة الثابتيـن عليهـا، لأنـه كمـا رأينـا مـن ضمـن مشـكلات المرحلـة: انشـغالنا بهـم عـن الفرائـض، فهـذا إفسـاد لتربيـة الأولاد في قدوتهـم، وإهـلاك لأنفسـنا قبلهـم.

۞ أسـتعد بالحجـج التـي سـأنافح بهـا عـن حقـوق واحتياجـات ولـدي، بالـذات الدينيـة، في زمـن الغربـة الـذي نعيشـه، ربمـا تواجهيـن الأصحـاب، المعـارف، وربمـا

الأهل، في الموسيقى، والمنكرات، والرسوم المتحركة، والشتائم، والشاشات والأجهزة، والأكل غير الصحي، وتحديات التربية والفطرة، والصور المحرمة.. إلخ، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا.

❁ تأمين البيت بسبل حماية شاملة، مناسبة لحركة الطفل في المنزل بأمان، وفصلنا ذلك سابقًا.

❁ بمحاولة السكن بجوار مسجد كبير تقام فيه الصلوات والشعائر بصوت واضح يصل للبيوت.

❁ محاولة اختيار جيران المكان في المدينة أو القرية، والسُكنى في مكان يتسم الناس فيه بالطيبة والاحترام والتمسك بالآداب العامة والأخلاق والقيم وليست مناطق سكنية بجوار أصحاب الحفلات والمهرجانات والانحلال والمولات الصاخبة والأندية الماجنة ونحوها، فنسأل في المنطقة قدر الإمكان قبل أن نسكن، إذا كان هذا سهلًا بالطبع أو إذا كانت الشقة بالإيجار ولازال بإمكاننا اختيار موقعها بسهولة، وليست شقة تمليك جاهزة للسكن يصعب علينا بيعها أو تبديلها.

❁ لو متاح: الاستعداد للمرحلة بالسؤال عن المدارس، والروضات في المنطقة السكنية قبل السكن فيها.. هذا لمن ينتوي أن يُدخِل أولاده الروضات أو التعليم النظامي المعتاد وليس التعليم المنزلي.

لأن أول ثلاث سنوات من حياة الطفل تمضي سريعًا دون أن نشعر بها وفجأة نجد أنفسنا أمام اختيار المدارس والروضات لأولادنا، ويضطر الأهل للقبول بالمدرسة الأقرب فقط رغم عدم مناسبتها للتربية السليمة للطفل، لصعوبة اختيار الأبعد وصعوبة الانتقال لسكن آخر أيضًا، فكلما أمكن الوقاية من ذلك بالاستعداد له مبكرًا، كلما تفادى الوالدان الكثير من المشكلات بإذن الله، والتخطيط للتعليم المنزلي كبديل من الآن أنصح به بقوة.

- بتزكية للقلب إيمانية عميقة توفر لي الطمأنينة عند المحن بحول الله وقوته وتزجرني إن قصرت في حقوق واحتياجات رضيعي وتذكرني دوما بالغاية الكبرى من كل ذلك وتحول دومًا بيني وبين الفتنة بالأولاد كلما كبروا يوما بعد يوم أمامي واشتدت صعوبات التربية وصراعاتها، كذلك تزكية إيمانية قلبية تعينني على تكوين قدوة لرضيعي في البناء الإيماني والأخلاقي والفطري وسائر مجالات القدوة.

- بالاستزادة من علم التربية بشكل خاص، ولا يمنعك من ذلك أنك حديثة الإنجاب قد صارت يمينك وشمالك منهمكتين طوال الوقت في تغيير حفاضات وإرضاع رضعات وتطبيب وعكات، بل تلمّسي دومًا قول الشاعر:

** بشمالِها غرسٌ ينمو صالحًا   بيمينها علمٌ ستسقي به الغرسَا.**



ثم أما بعد،

ها قد وصلنا إلى نهاية مرحلة الرضاع، عامان من الغرس الدءوب على بصيرة ومُكثٍ وبحول الله وقوته، أحسب أن تنبت لنا بذرتُها نبتةً خضراء زاهية تسر الناظرين، ولا أحسب أني نفضت يدي بعد من لآليء تلك المرحلة في الوحيين، لكن يدفعنا للتوقف مؤقتًا، الشوق لبدء التعريف بلآليء المرحلة التالية، فها قد أتم صغيرنا العامين بحمد الله وبدأ عامه الثالث أو أوشك، ولا يعرفُ الذي ينتظره بعد أيام من أعظم دروس الحياة للإنسان، فهلم معنا لنتعلمه ونعلمه إياه.



القسم الرابع

تربية الفطيم

* * والنفس كالطفل، إن تَهمِلْه شَبَّ على حبِّ الرضاعِ وإن تَفطِمْه يَنفَطِمِ**



الفِطام.. أدبٌ ربانِيٌ بليغ، للطفل الذي لم يكتمل بعد نموه الإدراكي والنفسي!

الفطام.. أول دروس الحياة المؤلمة للرضيع، عن أهم حقائق الدنيا.

الفطامُ.. مضرب المثل في التهذيب وكبح جماح النفس في أولى خطوات شهواتِها في الحياة.

الفطامُ.. أداة تربوية معنية بتلقين الرضيع عمليًّا:

- أنه قد نال ما يكفي من نعمةٍ كانت حقًا له زمنًا طويلًا، ثم لم تعد كذلك.
- وأن بعض الألم المعنوي مهم للبناءِ النفسي السوي الضروري لحياة سوية.
- وأن لكل شيء نهاية، سواء نعمة أو ألم.
- وأن هناك دوما بدائل ربانية لِما حُرِمنا منه، تكون أنسبَ لكل مرحلة نخوضها، فالرزاق لا يَمنَعُ إلا ليُعطِي ولحكمة وبحكمة.
- وأن البكاء ليس دومًا وسيلة ناجحة للحصول على ما نريد، مهما بكينا.
- وأننا لا نتعلق بعالمنا الصغير الحنون مدى الحياة، فلنا رسالة شريفة للعالم الكبير علينا التجهز لها بالفطام أولًا!

مرحلة الفطيم، مرحلة تأقلم الطفل مع حقيقة كبرى، ألا وهي انتهاء التصاقه غذائيًّا بجسد أمه، الانفصال عن ثاني أطول حضن غذائي في حياته، فأول أطول حضن في حياته كانت مدته تسعة أشهر وهو جنين، حضن متصل غير منفصل، وثاني أطول حضن كانت مدته عامين وكان منقطعا غير متصل كسابقه.. يولد ملتصقًا بحبلها السري ثم ينفصل، ثم ملتصقًا بالرضاعة ثم ينفصل. يتدرج إذن

منذ ولادته على الانفصال عن بدنها رويدًا، حتى تمام الرضاع وبدء الفطام. عامان، هما تمام هذا الاحتضان والالتصاق، غِذاءًا بدنيًا ونفسيًا للرضيع، ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ..**﴾ [**البقرة:٢٣٣**]. فما الفطام؟ وأين ذُكِر في القرآن والسنة؟ وما مدته وبدء توقيته؟ وما تربيته؟ هذا ما ستتعرف عليه في الورقات التاليات.

أولًا: تعريف الفطيم، أو الفطام

هو فصل الرضيع عن الرضاع وكفه عنه، سواءٌ كان رضاعًا طبيعيًّا أو صناعيًا، وقلنا في تعريفات المراحل العمرية في المقدمة أن «فصيل» في معنى «فطيم»، وأنه قد ورد الفطيم في القرآن بلفظ الفصال في موضعين: ﴿ **وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ**﴾ [**لقمان:١٤**]، ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا**﴾ [**الأحقاف:١٥**].

وورد في السنة بلفظ الفطيم في مواضع، ذكرنا منها: حديث «وكان لي أخٌ يُقالُ لهُ عُمير أحسبُهُ فطيم»، وحديث: «ابنتي وَهيَ فطيمٌ أو شبَهُ -أي ما يشبه الفطيم ويقارب سنه»».

مرحلته العمرية:

۞ مرحلة الفطيم تشبه طور نفخ الروح في المرحلة الجنينية، وطور بلوغ الحُلُم، من حيث أنها مثلهما عبارة عن لحظة فاصلة بين ما قبلها وما بعدها، بين ما سبق وما هو آت.

۞ ولا حرج على الأم أن تَقِل مدةُ الرضاع عن عامين كاملين لسبب أو لآخر، ولكن التمام عامان، والله يحب المحسنين، فإذا فُطِم الطفل مبكرًا يظل رضيعًا باعتبار سن ومرحلة الرضاع وطبيعتها، وإن كان يوصف فطيمًا باعتبار انفصاله عن الرضاع.

۞ وفي نفس الوقت قد يمتد وصف وتسمية «مرحلة الفطيم» بهذا الاسم معنا بعد العامين بقليل أو كثير، فبعض الأمهات تفطم ولدها بعد إتمامه الحولين الكاملين

ببضعة أشهر، وهذا لا حرج فيه شرعًا وفقا لكلام الفقهاء، وكلٌ له أدلته الشرعية بالطبع لأن الطفل قد يحتاج إلى مدة أكبر للتدرج من اللبن إلى الطعام المعتاد، فيجوز أحيانًا وصف الطفل ذي الثلاث سنوات بالـ «فطيم».

* فقد أضاف الإمام مالك مدة شهرين على الحولين.

* وأضاف الإمام أبو حنيفة مدة نصف سنة على الحولين.

* وقال غيره: مدة الرضاع ثلاث سنين.

* وقال ابن تيمية: «قَوْله ﷻ ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ**..﴾ [**البقرة:٢٣٣**]، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا تَمَامُ الرَّضَاعَةِ، وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غِذَاءٌ مِنْ الْأَغْذِيَةِ.

* وقال أحد فقهاء الحنفية: «جاء في الذخيرة، أن مُدَّتُهُ – أي: الرضاع – ثَلَاثَةُ أَوْقَاتٍ: أَدْنَى وَوَسَطٌ وَأَقْصَى.. فَالْأَدْنَى: حَوْلٌ وَنِصْفٌ، وَالْوَسَطُ: حَوْلَانِ، وَالْأَقْصَى: حَوْلَانِ وَنِصْفٌ، حَتَّى لَوْ نَقَصَ عَنْ الْحَوْلَيْنِ لَا يَكُونُ شَطَطًا.. وَإِنْ زَادَ عَلَى الْحَوْلَيْنِ لَا يَكُونُ تَعَدِّيًا».

* وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة: «إذا عُلِمَ أن الرضاعة حق للرضيع ومصلحته، وأنه لا يجوز فطامه قبل السنتين إذا أضر به فإنه يجوز للأم أن تستمر على إرضاع ولدها بعد السنتين إذا كان لمصلحته ودفع الضرر عنه، قال ابن القيم: «ويجوز أن تستمر الأم في إرضاعه بعد الحولين إلى نصف الحول الثالث أو أكثره»[1].

* وقال ابن باز في تقصير مدة الرضاع عن عامين، ردًا على سؤال أم تريد فطام ولدها عند عمر سنة: «المرأة تشاور زوجها في ذلك، فإن تراضيا على فطامه فلا بأس ولا حرج، وإن تراضيا على بقائه يبقى ولا يضره. لقوله ﷻ: ﴿**فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا**..﴾ [**البقرة:٢٣٣**]، يعني: فطامًا، ﴿**عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا**..﴾ [**البقرة:٢٣٣**]، فيجب إرضاعه حولين إلا إذا تراضى أبواه على فطمه عن الرضاع قبل ذلك لأسباب تقتضي ذلك.

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود–لابن القيم.

*وقال أيضًا في تطويل مدة الرضاع أكثر من عامين: «يجوز الزيادة على الحولين، إذا دعت الحاجة، كأن يكون لا يشتهي الطعام أو لأسباب أخرى، فالواجب إرضاعه حولين، كما قال الله ﷻ: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ**..﴾ [**البقرة:٢٣٣**]، فإذا كان يحتاج إلى رضاعة بعد الحولين فلا بأس، ترضعه حتى يستغني بالأكل[١].

فلو أحببنا توقيت مرحلة الفطيم بمدة عمرية معينة، نقول: الأصل أنها تبدأ من انتهاء العامَين، وربما تصبح أقل قليلًا، أو أكثر قليلًا إلى عامين ونصف أو ثلاثة أعوام على الأكثر، لذا رصدنا لها عامًا كاملًا، تمتد تحت مظلته، ويتم تحديد ذلك كله حسب مصلحة الطفل وبالتشاور.

ثانيًا: تربية الفطيم

نبدأ خطتنا السداسية المعتادة، وبما أن مرحلة الرضيع والفطيم متشابهتان في كثير من تربيتهما، ومرحلة الفطيم عام أو أقل ليس فيه تطور نمو كبير عن الرضيع، فستجدون فصول هذا الباب قصيرة جدًا.

* الفصل الأول: سمات الفطيم *

لا تختلف كثيرًا عن سمات الرضيع، باستثناء التطور المتنامي في النمو الإدراكي والمعرفي واللغوي والحركي والمهاري، بالإضافة إلى التصاعد الملحوظ في النمو الاجتماعي حيث يكون الطفل مهيأً للانفصال عن أمه والاندماج أكثر في العالم حوله.

* الفصل الثاني: حقوق واحتياجات الفطيم *

- هي نفسها حقوق واحتياجات الرضيع كافة، باستثناء فقط: حق الرضاع فإنه سيفُطم عنه.. فيُرجَعُ إليها كاملة في فصل الرضيع لئلا نكرر عليكم.

---

(١) من فتاوى عدة على موقعه تحت تلك العناوين.

-ونضيف إلى تلك الحقوق والاحتياجات:

* مَن حُرِم من أطفالنا من تمام الرضاع قبل سن الفطام، فعلينا أن نجتهد في تعويضه ما أمكن، فلا نعطيه مثلًا قارورة اللبن ليمسك بها بنفسه دائمًا بل نجتهد في إرضاعه بها في حضننا جَبرًا له ومحاولةً لإتمام نقصِه، فالرضاعةُ لم تكن مصدرًا للغذاء فقط كما قلنا من قبل.

*التحمل لتقلباتهم المزاجية وانفعالاتهم الكئيبة المحتملة بسبب الفطام.

* الفصل الثالث: مشكلات الفطيم وعلاجُها *

أولًا: مشكلة الفطام وتبعاته

الفطام ذاته هو المشكلة والكنز في نفس الوقت، فهو يسبب مزاجًا سيئًا جدًا للرضيع لا يتحمل أعراضه كثير من الناس، وفي نفس الوقت بدون الفطام سيظل الطفل متعلقًا بأمه بشكل يجعل اندماجه مع الحياة من حوله وقوانينها أمرًا صعبًا، ولا يخفى على أحد فداحة تلك المشكلة أيضًا.

فعلينا تحمل مشكلة "الزن" وسوء المزاجية لدى الطفل قليلًا تفاديًا لمشكلة أكبر، بجانب أننا بالفعل يمكننا تقليله بحول الله.

ولو استقرأنا حلول الأمهات في مسألة الفطام، لوجدنا تجارب شتى مختلفٌ ألوانها

-**تقول إحداهن**: الفطام يَسهُل كثيرًا لو كانت الأم أتقنت تنظيم الرضاع. أنظم مواعيده بعد الشهر الأول، كل نصف ساعة يرضع ثم كل ساعة ثم كل ساعة ونصف، وهكذا، ثم بعد عدة أشهر أفطم طفلي جزئيًا عن رضاع الليل – من منتصف الليل إلى الفجر فقط- كنت أعطيه فيها رضعة أعشاب (**تنبيه**: قد تم التنبيه على أن هذا كان شائعًا من قبل لكن ثبت علميًّا مؤخرًا ضرره على الرضع، ويمكن استبدال تلك الرضعة برضعة حليب طبيعي من الأم تكون مجهزةً من قبل، لئلا يفطم ولا حتى جزئيًّا عن

رضاع الليل لأهميته)، مع تربيت حفيف حتى يهدأ طفلي ويسكن، يومان من ''الزن'' الخفيف أو ثلاثة على الأكثر وانفطم، ويكون أيسر من فطامه عنه وهو كبير، ثم بالنسبة لرضاع النهار: أدرج الأمر إلى أن يصل إلى ٧ رضعات في اليوم، كل ٣ ساعات رضعة، من ٦ صباحًا إلى ١٢ ليلًا، ومن ١٢ ليلًا إلى ٦ صباحًا نوم عميق بفضل الله، تلك الطريقة أراحتني كثيرًا في الفطام وانتظام مواعيد نومنا أنا وطفلي، بجانب ضبط شهيته وشراهته للرضاعة. ثم عند الفطام التام: صرت بالتدريج ألغي رضعةً بين رضعتين وأقلل في العدد حتى نسوا الأمر، وهكذا فطمتُ أطفالي دون تعب بفضل الله في فطامهم. تعبت في فطام أخوهم الأصغر فقط بسبب فطامه القَسري مبكرًا لضرورة رجوعي لأخذ علاجات سريعا بعد ولادته والتي لا يجوز تعاطيها فترة الرضاع.

-**وتقول أخرى**: فطمت ابنتي بالتدريج قبل أن تكمل العامين بحوالي ١٢ يومًا، منعت الرضاعة نهارًا تمامًا بما أنها بدأت تنزل الروضة وتغيب فترة كبيرة من اليوم عن الرضاع، ورغم أنها كانت مرتبطة بشدة بالرضاع إلا أنها عند عودتها كنت أطعمها مباشرة الخضروات والفاكهة والمهلبية التي تحبهم، لأزاحم الرضعات المتبقية في اليوم، ثم في يوم فطمتها عن رضاع الليل تمامًا، أخذتها في حضني وحاورتها قائلة: «أنتِ بنوتة جميلة قد كبرتِ وما عدتِ نونو صغيرة، بنوتتي القمرة لن نستطيع إرضاعها مجددًا وسنأكل كذا وكذا.. إلخ»، كلام من هذا القبيل وما كنتُ أدري هل هي تفهمه تمامًا أم لا، ثم أسمعتُها أنشودة أطفال بدون موسيقى عن عدم الرضاعة اسمها «أنا بطلت، أوقفت رضاعة» وصرتُ أشرح لها وهي في حضني تستمع: «هذا الطفل الجميل يقول أنه توقف عن الرضاعة وصار يأكل بأسنانه القوية كل شيء فقد كبر.. إلخ»، مع تربيت وتقبيل وتحنان إلى أن نامت وبدون بكاء الحمد لله، وهكذا يومان أو ثلاثة آخران بنفس الطريقة ولم تطلب مني رضاع الليل إلا مرة واحدة ثم عادت عنها قائلة «لا يا أمي أنا قد صرت كبيرة!»، وكل ذلك لم يكن ليتم بسهولة ويسر إلا بعد دعائي الله ﷻ كثيرًا أن ييسره علي، فقد كنت خائفة جدًّا لشدة تعلقها بالرضاعة بالفعل.

-**وثالثة تحكي**: الفطام في أول طفل لم أشعر به فقد جاء بقدر الله عجيب، كان طفلي يبلغ عامًا وشهرين، جُرِحتُ في موضع الرضاعة والجرح كوّنَ قشرةً فأصيب طفلي بالنفور ولم يرضَ أن يرضع. كان «يزنّ» قليلًا في الليل، فكنت أعطيه شربة ماء فينام بعدها دون «زنّ» أو مشاكل.

كان فطامًا سهلًا ويسيرًا ولله الحمد دون حول مني ولا قوة، فالله قريب مجيب الدعاء، وبالنسبة لطفلي الآخر لم يرضع إلا بضعة أسابيع بسبب دخولي لإجراء عمليات عديدة في فترة رضاعه فتناول الصناعي مدة عام ونصف ثم تركه ببساطة دون أية مشاكل وصار يأكل معنا تلقائيًّا، وهكذا عافاني الله من مشاكل الفطام بحوله وقوته.

-**ورابعة تقول**: تقليل الرضعات التدريجي وتنظيمها لم يفلح مع ولديَّ الاثنين الأكبر والأصغر، فاعتادا على الحصول على الرضاع كلما طلبا، ففطمتُهما بالصبار للأسف - هي مادة طبيعية مستخلصة من نبات الصبار طعمها مر يلتقطها الطفل من موضع الرضاعة فينفر من الرضاع.

(**تنويه**: هي تقول «للأسف»، لأن كثيرًا من المختصين يقولون بأن هذه الطريقة خاطئة وربما تضر بالطفل، فالرضاع كما قلنا هو رابطة جميلة للأم مع طفلها، بالتالي فطامه عنها ينبغي أن يكون بطريقة حانية لا قسوة فيها ولا ذكريات مريرة، فالطرق القاسية للفطام قد تؤدي لكره الطفل لأمه أو إصابته بصدمة نفسية لو كانت سماته الشخصية تساعد على ذلك، بالإضافة إلى أن الصبار قد يؤدي لتهيج في معدته، ولكن نقول: بالنسبة لضرر «الذكريات المريرة» للفطام، فقد رأينا سبحان الله كيف أن الأم الثالثة قد جُرِحت في موضع الرضاع بما جعل طفلها يشعر «بالقرف» والنفور من الرضاع، ولم يؤثر ذلك على حبه لأمه ولم يسبب له صدمة نفسية، فالأمر ليس على إطلاقه على الدوام فيما يخص التنفير الحسي للطفل من الرضاع، سواء بصريًّا - (قشرةُ جُرحٍ .. بُن قهوة أسوَد)، أو تذوقيًّا (صبار أو ليمون) أو غيرهما، والله أعلم.. نستخير ونستشير».)

تكمل فتقول: كذلك لم تفلح معي بعض طرق الفطام المشهورة مثل أن أرتدي ملابس مغلقة جيدًا من أعلى مما يُعجِزُ الطفل عن الوصول إلى موضع الرضاع. لكن مع ابني الآخر كنت أعطيه حلوى - غير مضرة - حين كان يطلب الرضاعة فكان يمصها وينشغل، فكان فطامه أسهل كثيرًا من أخيه الأول[1].

-**وخامسة تضيف**: الفطام الحمد لله كان ميسرًا، ابنتي فُطمَت جزئيًّا وتلقائيًّا عند عمر سنة و٤ أشهر، فبطبيعة الحال حين نبدأ بإدخال أكل للرضيع فإن عدد مرات الرضاعة يقل، وهذا يسهل فطامه بشدة، ثم لما قررت الفطام التام، قمت بتقليل عدد رضعات النهار أكثر ومنعها ليلًا، وتيسر ذلك بمجموعة أسباب، فمعظم اليوم كنا نصطحبها لحدائق تجري وتلعب وتأكل طعامًا عاديًّا، وعندما نعود للبيت ليلا كانت تنام من التعب فلا تصحو إلا نادرًا، وكذلك كانت في هذا الوقت تنام مع والدها في غرفتها وليس معي في غرفتي، فحتى حين كانت تستيقظ بالليل لترضع لا تجدني فتنام تلقائيًّا، وإذا طلبَت أن ترضع ألهيها في أي شيء آخر قليلا حتى تنسى الأمر، ونفس الطريقة اتبعتها مع ابني الأصغر منها بحول الله وقوته.

وأقول ،،،

من جملة تلك العينة العشوائية لتجارب هؤلاء الأمهات، نستطيع أن نصيغَ حلًّا عامًا نافعًا لكل أم بإذن الله، أيا كانت تفاصيل الطريقة التي ستتبعها الأم بشكل خاص بحسب خبرتها بولدها، وهذا الحل العام لكل أم يكون قسمين كالتالي.

١ - حلول إيمانية

۞ الدعاء.. الدعاء.. الدعاء، فلا سهل إلا ما جعله الله سهلًا، والحوقلة (قول لا حول ولا قوة إلا بالله)، فلا حول لنا من حال إلى حال ولا قوة لنا على أية حال، إلا بالله.

۞ اليقين في أن لكل إنسان رزقه الذي قدره الله له والذي هو خير له، فلا نجزع

(١) وهناك حلوى/ بنونبوني صحي يتم تصنيعها منزليا بسهولة، يمكنك إيجاد شرح للطريقة على الإنترنت.

إذا فُطِمَ طفل قبل موعده رغم محاولاتنا ألا ينفطم مبكرًا، فكما أن الله ﷻ قد حرم سيدنا موسى من حقه في الرضاع رغم محاولات كل من حوله في إرضاعه وظل يبكي طويلا من الجوع وما كان هذا الألم والحرمان إلا ليكون رضاعه من أمه هو سبيله الوحيد للبقاء بجوارها؛ فكذلك كل رضيع يُحرَمُ من تمام رضاعِه بقدَر الله فعلينا أن نوقن أنه ﷻ سيجبره ويعوضه ويجعل في قدره هذا خيرا له، فنرضى ونطمئن.

۞ اليقين أن كل ما نعانيه في ذلك الأمر هو ضمن بقية مهام الأمومة التي نؤجر عليها بحمد الله.

۞ الصبر.. الصبر.. الصبر، بخاصة عندما نلمس نتائج ولو قليلة، تُنبؤنا أننا في الطريق الصحيح.

٢- حلول عملية

الرضاع كما قلنا ليس فقط فقرة طعام بالنسبة للرضيع، فهو يمثل له غذاءً بدنيًّا ونفسيًّا، فكلما عوضنا كليهما ببدائل محببة أخرى، كلما سهل انتقال الطفل منه إليها، فالحلول إذن ستتركز في جانبين:

(١) جانب الإلهاء: شَغل وقته وتزهيده في الرضاع لإلهائه عن ألم افتقاده لجلسات الرضاع.

(٢) وجانب الاحتواء: تعويضه نفسيا وغذائيا عما سيفتقده من جلسات الرضاع.

مع مراعاة اختيار التوقيت المناسب لظروف الطفل واستعداده النفسي والإدراكي لتطبيق ذلك، واستشارة أخصائية رضاعة إذا لزم الأمر.

بالتالي ،،

****قبل بدء الفطام بجدية****

۞ الاستخارة على توقيت بدء الفطام وطريقته، بخاصة إذا اضطررنا للطرق التي

فيها تنفير للطفل نفسيًّا من الرضاع، فكما رأينا هي ليست دومًا مُضرة مع كل طفل، وأكرر: إذا اضطررنا، فالأصل دفع الضرر مهما قَلّ ما استطعنا.

۞ التمهيد للفطام بخطوات روتينية متدرجة مبكرة، فليس شرطًا أن ننتظر لحين اقتراب موعد الفطام وتمام الرضاع، خطوات اعتيادية مثل: استبدال وجبة رضاعة بوجبة طعام، تقصير مدة جلسة الرضاع عامةً، استبدال رضعات الليل أحيانًا بقارورة للحليب أو كوب بدلًا من الرضاع المباشر من الأم، كلها بحسب تقدم الطفل في السن ومناسبة ذلك معه.

۞ إذا واجهتِ ردود فعلٍ عنيفة ومستمرة بسبب التمهيد للفطام وكنتِ لازلتِ في بداية تجربة التعويد ولم تقطعي شوطًا كبيرًا فيه، فربما تحتاجين لتأجيله قليلًا ريثما يتطور نمو الطفل الإدراكي والنفسي والاجتماعي أكثر، فمثلًا: كلما مال الطفل لصحبة أقرانه واللعب معهم أكثر كلما ساهم ذلك في انفصاله عن أمه أكثر وساعد على التهيئة لبدء الفطام أكثر، فاستخيري على التأجيل، واتّبعي ما ييسره الله، حتى لو اضطررتِ لتجاوز مدة تمام الرضاع ببضعة أشهر فلا حرج ولا مشكلة بإذن الله.

وبعد بدء الفطام بجدية وانتظام

۞ تدريج الفطام بثبات وانتظام.

۞ عدم تحفيز إدرار اللبن، سواء بجهاز سحب الحليب ولا الأعشاب المدرة له.

۞ ارتداء ملابس مغلقة عند موضع الرضاع، لنساعد الطفل على استصعاب الرضاع والالتهاء عنه.

۞ جعل أوقات أكل الطعام العادي محببة، بأن نجعله يطالع كتابًا للصور أو القصص المناسبة لنموه اللغوي والمعرفي وننطقها له وهو يأكل ويقلب بين صفحاته بفضول وشغف فتصبح فقرة الطعام البديلة عن الرضاع ممتعة، فيعوضه ذلك نفسيًّا عن فقرة الرضاع، وإن لم يتوفر الكتاب، نقوم بربط فقرة الطعام تلك بأي شيء آخر

محبب إليه، كأن نقوم بإسماعه الأناشيد المبهجة والتفاعل معه بمرح على إيقاعها وهو يأكل، أو حكاية قصة له، أو جعله هو يتناول الطعام بنفسه، أو إحضار أدوات طعام بألوان ملفتة للنظر جاذبة للانتباه محببة للأطفال أو أطعمة جديدة .. إلخ.

۞ الإكثار من احتضانه والتربيت والعطف عليه وحَمله، لئلا يظن الطفل أن الرضاع هو مصدر الحنان واللطف الوحيد في حياته، فيعوضه ذلك نفسيًّا عن وقت الرضاع المحبب كذلك.

۞ عند البكاء أو طلب الحصول على الرضاع، قومي برقيته، وإلهائه بإحدى وسائل وألاعيب (الإلهاء) البهلوانية التي ذكرناها من قبل في فصول معاركنا مع الرضيع وعلاجها.

۞ التحاور معه بلغة بسيطة يفهمها، عن أهمية الفطام بالنسبة له. (كنموذج الحوار الجميل الذي نقلناه لكم من خبرات الأمهات منذ بضع صفحات).

۞ مكافأته والثناء عليه عند عدم صراخه وإلحاحه للحصول على الرضاع.

۞ سماع أناشيد مبهجة كلماتها تحبب في أصناف الطعام المختلفة والفطامِ والفرحِ بأننا قد كبرنا وصرنا أقوى من ذي قبل، مع شرحها له.

۞ عدم اليأس من تطبيق وسائل الإلهاء أو الاحتواء، فإذا فشلت وسيلة أجرب أخرى وأزاحم حواسه ونفسيته لأشتته سريعًا قدر الإمكان قبل أن تتطاول الأزمة ويتطور سلوك الطفل لسوء أدب -ضرب أو سب للأم أو نوبات غضب عنيفة، فإن حدث ذلك، فينبغي عدم تجاهل تأديبه بحجة أنه نفسيًّا ومزاجيًّا متقلب، ولكن يؤدب بما يناسب نموه النفسي والإدراكي ويضع حالته في الاعتبار، كما فصلنا في فصل مشكلات الرضيع وعلاجها بالتفصيل، ونتغافل كلما أمكن.

۞ التحاور مع الزوج ليتفهم طبيعة تلك المرحلة وتقلباتها النفسية الانتقالية، حتى لا يقسو على الطفل حين يراه باكيًا أو سيء المزاج، ويكون معاونًا لك في تطبيق خطة العلاج.

۞ التجاهل أحيانًا إذا شعرتِ أن الطفل يعاند ولا يصلح معه أي شيء، ولم

يتطور سلوكه بعد لسوء أدب، إنما فقط بكاء و(زنّ) ليختبر صبرك وحزمك وثباتك على المبدأ، ويعينك هنا معاودة الحوقلة والدعاء أكثر بإذن الله، مع التذكر دومًا أن كل تلك المعاناة عاقبتها وثمرتها بناء علاقة قوية بطفلك، وأنه عاجلًا أو آجلًا سينفطم ويخسر تلك المعركة التي لا تعدو أن تكون «زوبعة في فنجان» بإذن الله، فلا يوجد طفل في العالم إلا وقد فُطِم، فاصبري ورابطي وأبشري، فالله غالب على أمره وفطرته التي فطر الناس عليها غالبة مهما تباطأت أماراتُها، والحمد لله.

۞ وقد يساعدك في فطام ابنك تجفيف لبنك بأعشاب طبيعية لا تؤثر على صحتك، مثل (الينسون/ القرفة/ النعناع/ المرمرية/ البردقوش).

ولا يفوتنا هنا أن نُذَكّرَ بمقولة بعض التربويين: «لا ينبغي تلبية طلب الرضاع للطفل كل مرة بل ننظم الرضاع حتى لا نعوِّدَ الطفلَ على الحصولِ على رغباته بالبكاء»، وإن كانت تلك المقولة لها وعليها وليست صوابًا مُطلقًا ولا مطردة طوال المرحلة - كما فصلنا في أمرها في فصول مشكلات الرضيع - إلا أنه لا خلاف على أن الرضيع بالفعل في نهاية مرحلة الرضاع يتم فطامه تمامًا عن مرحلة تعلقه بأمه غذاءً والتصاقًا، ولا شك أن ذلك يحتاج إلى أن يسبقه تدريجًا منتظمًا بالفعل بشكل أو بآخر يكون فيه تهذيبٌ غريزي تلقائِيٌّ للطفل بالفعل، وذلك حين نتأمله نجده من صيانة وتهذيب وحسن توجيه الفطرة الغريزية للرضيع.

ثانيًا: مشكلة استمرار تعلق الفطيم ببدن أمه

من مشكلات المرحلة كذلك، أن تغفل الأم عن فطام ولدها عن جسدها نفسِه. جاءتني رسالة يومًا لأم تقول: «ابني ٤ سنوات، وإلى الآن يظل يضع يده داخل ملابسي في موضع الرضاع إلى أن ينام، ولا أستطيع منعه.. تركته في البداية عند الفطام حتى لا أضاعِفَ من حُزنِه، لكنه اعتاد على ذلك بشكل يصعُب معه فطامُه عنه، ويحزن بشدة حين أمنعه، فما العمل!».

تلك أم لم تغتنم أعظم كنوز تلك المرحلة: «استقلال الطفل عن بدن أمه بسلام وفطامه عن التعلق بها»، فحرمَتْ نفسَها وحَرَمَتْه، وصارتْ معاناتُها أشد وأعمق، ولا حل معها حاليًا سوى الفطام القسري لهذا الطفل بالطبع مهما فشلت محاولات إلهائه وتدريج المنع كلها، مع تعويضٍ نفسي وتحاورٍ حاني قدر الإمكان ليلتئم حزنه سريعًا ويعتاد بفطرته على الأمر عاجلًا أو آجلًا بإذن الله، تمهيدًا للطفل كذلك لتعلم فقه العورات وغض البصر وما إلى ذلك.

وليس بعد تلك المشكلتين - غالبًا - مشكلة إضافية عن مشكلات الرضيع، لكن نلاحظ في مرحلة الفطيم أن غالبية مشكلات الرضيع العضوية «تسنين/ تطعيم/ تبول وتبرز لا إرادي/ كثرة البكاء/ المغص/ كل ما يخص تحدي الرضاعة.. إلخ»، قد خفتَ صوتُها، وأسباب البكاء غالبيتها قد تلاشى، ويستمر معنا فقط ربما بعض المشكلات السلوكية، و«الزن» على رأسها بالطبع! فيرجع إلى تفاصيلها هناك، (التسنين تختفي مشاكله مؤقتًا إلى حين بداية ظهور الأسنان الدائمة عند سن ٦ سنوات، أي أنه يرافقنا مجددًا في الطفولة الثانية).

* الفصل الرابع: كنوز الفطيم *

۞ هي نفسها كنوز الرضيع، بالإضافة إلى ثمرات التطور المتنامي في النمو الإدراكي والمعرفي وازدياد توقد حواسه وشغفه بالحياة من حوله، بخاصة النمو الاجتماعي، مما يجعل الطفل مهيأً بقوة للانفصال عن أمه والاندماج أكثر في المجتمع من حوله.

۞ تطور لغوي ومهاري ملحوظ، يجعلنا نتوسع في صيغ الجُمل وعدد الكلمات في خطابنا معه، وأنواع المهام التي يشارك فيها، سواء داخل البيت أو خارجه.

۞ نجاح الطفل في الانفصال عن الرضاع من أمه بشكل كامل وبسلام، ومكمن الكنز في ذلك هو:

* أنـه يوسـع مـن مسـاحات إقـدام الطفـل علـى العالـم الأكـبر مـن حولـه وبالتالـي يتطـور نمـوه المعـرفي والإدراكـي والنفسـي والاجتماعـي بشـكل أسـرع وأفضـل.

* ويضاعـف مـن مسـاحات اسـتقلال الأم بنفسـها أكثـر، ممـا يخفـف عنهـا جـزءًا كبيرًا أساسيًا من أعباء الأمومة، وهـذا الـذي يدفعهـا إلـى التفكير في تكرار التجربة مرة أخـرى، ويـا للعجَـب!

* الفصل الخامس: ملء الفطيم *

- هو نفسه الملء والبناء لمرحلة الرضيع بكافة عناصر البناء، لكن بتكثيف نَوعِي وكَمِّي أكثر تماشيًا مع تطور نمو الفطيم أكثر من الرضيع بالطبع، لاسيما إذا امتدت فترة الفطيم إلى ما بعد عمر العامين بأشهر كما قلنا مما يجعله يقترب من عمر الثلاثة أعوام أو يتمها، فإن لم يكن قد ناسبه من قبل بعضا مما قلناه في فصول البناء، فيكون مناسبا جدا له الآن، بخاصة ما حكاه الإمام التستري عن نفسه حين كان بعمر الـ ٣ سنوات، وذكرناه في بداية البناء الديني للرضيع، فيرجع إليه منعًا للتكرار.

وفيما يخص التربية الجنسية الشرعية للفطيم، فنضيف إلى ما سبق في تربية الرضيع:

١- بعد الفطام لا ينبغي أن يرى الطفل عورات أمه ولا غيرها، تهيئة له أكثر على انفصاله التام عن رؤية عورات الكبار، ذكرانًا وإناثًا، ويعوَّد أكثر على أدب الاستئذان عند الأبواب المغلقة في البيوت، وذكرنا تفاصيل حكم العورات وكل ذلك سابقًا في تربية الرضيع، فإن لم نكن بدأنا ذلك من قبل، فلنبادر ولا نستهين.

يقول صادق بن محمد الهادي: «عدد من علماء النفس والتربية - حتى من غير المسلمين - يؤكدون أن الهوية الجنسية لدى الطفل - ويدعونها بقولهم: [gender Identity] ويُريدون بها:

إدراك الطفل لجنسه أهو ولد أم بنت - تكون من السن الثانية إلى الثالثة، وهذا الأمر تتحكم فيه عوامل بيولوجية مثل الهرمونات، وعوامل بيئية كالأسرة، وما تقرر

من المنطق السابق يُصدّقه الواقع من جنوح بعض طلاب المراحل الأولية لبعض التصرفات العاطفية مع بعضهم كما يَعرف معلموهم ذلك تمامًا، ولا سيما عند غياب الرقيب، إذاً فالعاطفة التي تقود الطفل للتأثر موجودة لديه»[1].

٢- تعزيز مفهوم «هذا ولد»، أو «هذه بنت» الذي بدأ يتنامى لديه أكثر، عن طريق كل ما ذكرناه سابقًا من تفرقة طبيعية في المعاملة والسلوكيات، في التربية الجنسية الشرعية.

٣- ينبغي أن يكون قد أتقن تعلم الإخراج وخلع الحفاض، قبل نهاية المرحلة وبلوغ ٣ سنوات.

٤- وتماشيًا مع بدء انفصاله عن أمه نوعًا ما وربما اختلاطه أكثر بالمجتمع الخارجي من خلال الروضات ونحوه، ينبغي بدء تكثيف الإرشادات التعليمية للفطيم الخاصة بوقايته من الانتهاك الجسدي (التحرش)، ومن ذلك:

۞ عدم تركه في أماكن خالية من إجراءات الرقابة على الأطفال ومن يرعونهم.

۞ وعدم تركه في أي مكان أو مع أشخاص بشكل عام قبل أن يتعلم كيفية التعبير عن نفسه بكلمات وحكاية الأحداث السعيدة والمؤلمة بشكل واضح.

۞ نتكلم معه عند عودته حول أحداث يومه ونسأله ما أجمل شيء حدث له اليوم وما أسوأ شيء ولماذا، ونتفقد ملابسه وجسده، دون أن نثير قلقه وتوتره.

۞ تعليم الطفل الاعتماد على نفسه في قضاء الحاجة قبل نزول الروضة، لئلا يضطر لطلب المساعدة من أغراب مما يؤدي لاطلاع الآخرين على عورته، في حين أننا نحاول تقنين ذلك لمواجهة فتن زماننا، وإن كان الأمر لايزال صعبًا، فنطلب من أصحاب الروضة تحديد شخص واحد مسئول أمامنا عن الطفل في ذلك.

---

(١) من مقالة بعنوان: تعليم المعلمات الأطفال الذكور- لصادق بن محمد الهادي، على شبكة الألوكة.

۞ تعليـم الطفـل مـن هـم الأشـخاص المسـموح لهـم فقـط بمسـاعدته في تبديـل ملابسـه أو قضـاء الحاجـة.

۞ تعليـم الطفـل عـدم أخـذ حلـوى مـن الغربـاء مطلقـا ولا الذهـاب معهـم في أي مـكان، وأننـا لـن نرسـل أحـدًا غريبًـا إليهـم في الروضـة ونحوهـا.

۞ نوفر لهم الحلوى الصحية في البيت، لئلا يقوم أحد باستغلال تلهفهم عليها.

وفيما يخص البناء المهاري واللغوي للفطيم، نضيف إلى ما ذكرناه في تربية الرضيع:

* تدريبه على إنشاد بعض الأناشيد وترديد بعض قصار السور بشكل أوضح.

* تدريبه على إرجاع الأغراض إلى مكانها الذي أحضرها منها.

* بـدء تعليمـه تشـكيل قطـع واضحـة بالصلصـال المنزلـي وحفـظ أسـمائها: كـرة/ حبـل/ شـمس/ وجـه.. إلـخ.

* بـدء تعليمـه غلـق وفتـح السـحاب - السوسـتة، أو الأزرار أو الأوعيـة ذات الغطـاء الـدوار، أو تمييـز اليسـرى مـن اليمنـى بدقـة أكثـر.

* بعـض الأطفـال في هـذه المرحلـة يمكنـه بـدء المعاونـة في العجـن والخبـز ومهـام الطعـام البسـيطة.

* نشـجعه علـى ركـوب الدراجـة الثلاثيـة/ واسـتعمال مقـص الـورق/ وصعـود الـدرج وحـده/ وصنـع شـطيرة الإفطـار بنفسـه أحيانـا/ وتقشـير المـوزة أو البيضـة أو الفـول السـوداني وحـده.. إلـخ.

* الفصل السادس: الاستعداد لمرحلة الفطيم *

١- بمـا نسـتعد بـه لمرحلـة الرضيـع بشـكل عـام، حتـى نؤسـس علاقـةً طيبـة مـع الطفـل ونضمـن بنـاءً تربويًـا سـليمًا، ييسـر تخطـي تلـك المرحلـة بسـلام بـإذن الله، فيرجـع إلـى

كامل نقاط الاستعداد للرضيع هناك تفاديًا للتكرار.

بالإضافة إلى:

٢- التمهيد للزوج بها، وتثقيفه عن سماتها ومشاكلها وحقوقها، وطلب دعمه فيها وتنبيهه إلى أهمية مراعاة نفسية الطفل أثناءها بشكل استثنائي - كأنه مريض بحاجة لتحملنا لتقلباته النفسية - حتى تمر بسلام ونغترف كنوزها وثمراتها زكيةً طيبةً بحمد الله.

٣- بوضع خطة تدريج فطام مبنية على حسن مراقبة وتتبع وتفهم لطبيعة وسمات الرضيع الفردية بجانب سمات المرحلة العمرية والظروف المحيطة التي سيتعرض للفطام فيها، والاستعانة بخبرة من سبقونا في ذلك بنجاح لصياغة تلك الخطة، ووضع خطط بديلة، ثم الاستخارة قبل البدء.

٤- بعدم تعويد الطفل في مرحلة الرضيع على تلبية كل رغباته، وحسن توجيه غرائزه بحكمة.

٥- بالبحث عن روضة مناسبة بها كافة عناصر الأمان المطلوبة للحفاظ على الطفل استعدادا للمرحلة، فإن لم نجد فعلينا أن نجتهد في توفير صحبة أطفال للفطيم في المنزل أو المتنزهات، ينتظم معها في أنشطة تلهيه عن آلام التجربة إن وجدت، قدر الإمكان.

٦- فإن لم نجد، فنجتهد في توفير قصص وكتب ملونة وألعاب حسية ومهارية جديدة مثيرة للانتباه، تعزز تسهيل انتقال الطفل من عالم أمه الجميل إلى عالم آخر جميل كذلك.

٧- القراءة عن المرحلة وسبل تخطيها بسلام بحول الله وقوته، سواء الحلول الإيمانية أو العملية كما فصلنا في فصل المشكلات والعلاج.

٨- وأولًا وأخيرًا: بالدعاء والاستعانة بالقوي المتين ﷻ.

خاتمة الرحلة

أعلم كم أنهكتِ في رحلتك الأولى مع الكائن الحلزوني وأكاد أراكِ تَجُرّين أقدامك في نهاية اليوم بصعوبة لترتمي على فراشك مثقلة بخواطر متزاحمة عن كل تلك الملاحَقات التي تمرين بها يوميًّا وكأنك ماكينة آلية تعمل بالطاقة المتجددة، ما بين زجاجات رضاع تحتاج لتعقيم وحفاضات تحتاج لتغيير ونوبات عناد أو غضب تصم الآذان والكثير الكثير من "الزن" والبكاء والفوضى، وربما بعض الندوب في بطن قدمك تذكرك بجراح المشي فوق المكعبات المتناثرة هنا وهناك، لا شيء في مكانه، لا وقت للنوم، ولا فرصة لكوب الشاي أو القهوة، ولا لالتقاط أنفاسك، وربما ساعة فقط من التحديق الصامت في سقف الغرفة في هدوء تكون أقصى أمانيكِ، أعلم ذلك وأدركه فكم مررت به مثلك. أدركتِ حجمَ جبالِ الحسناتِ المتراكم بإذن الله؟ أدركتِ قدرَ كنوزِك أنتِ من كل ذلك؟ رأيت كيف أن تعظيمك لتلك المهمات وإن بدت في نظرك قليلة الشأن ثقيلة الوزن، هو بقدرِ تعظيمِك لمهمة ملء صفحات بيضاء بأنوار التوحيد الراسخ وإطلاقها تطير وتحلق خفاقة دفاقة في مشارق الأرض ومغاربها؟ لن أطيل عليكِ فقد تكلمنا عن كثير من ذلك في رحلتنا، فلن أزيد على ما قلناه من كلمات تصبير ودعم وتشجيع.

إنما سأقول لك: ستشتاقين لتلك الأيام، بعدما يكبرون، فتلك المرحلة - على ما فيها من آلام! - هي التي تجعل الأمهات تنسى الآلام! وتتمنى الحمل مجددًا بكائن حلزوني مُخرّب جديد، بأنامله الناعمة ونظراته البريئة المتعلقة بظل أمه أينما ذهبت، وكفوفه الرقيقة المتشبثة بملابسها وهي تحمله على ذراعها، ستشتاقين لتلك اللحظات التي يتكئ فيها برأسه على كتفك وينام فاغرًا فاه مطمئنًّا في رحاب أجمل حضن له في الوجود، ستشتاقين لنعومته المخملية ورائحة النقاء فيه والبراءة والطهر،

ستشـتاقين لانبهـاره بـكل مـا تفعلينـه وضحكاتـه المدهشـة لأقـل حـرف منـك وفرحتـه العامـرة عندمـا تتفتـح عينيـه علـى وجهـك وصوتـك في الصبـاح وتنتفـض كل أطرافـه في حمـاس وحـب شـديد وتتذكريـن «يَنْهَـش إليـه»، ستشـتاقين لحضنـه الصغيـر الكبيـر، وثِقتـه المذهلـة في كل مـا تقوليـن لـه، وشـغفِه الجميـل بـكل طعـام جديـد تقدمينـه لـه، ومحاولاتـه المتعثـرة في حروفـه الأولـى وخطواتـه الأولـى، وضحكاتـه الأولـى، ومراوغاتـه الأولـى.

فأقـول مجـددًا وصيـة الحكمـاء: «مـا دمـتَ مُلزَمـا فاسـتمتع!» أنـتِ الآن في الأمنيـة التـي توشـك أن تصبـح ذكريـات، فاحمـدي الله حمـدًا يمـلأ الميـزان، وهـذا حـال الدنيـا، لا ألـم كامـل يـدوم، وكذلـك لا فرحـة كاملـة تـدوم، فتدبـري لطـف الله وبديـع صنعتـه في هـذه الأنفـس الناشـئة، وتأملـي حجـم نعمائـه فيمـا وهبـك وأن كلهـا علامـات صحيـة لطفـل سـليم سـوي، وأن كلمـة «مامـا» التـي تسـمعينها عشـرات المـرات يوميًّـا هـي علامـة صحـة وحـب واحتيـاج لـك واعتبـار أنـكِ عالَـمٌ بأسـره، وعلامـة نمـوٍ سـليم لطفلـك يبشـر بحسـن بنـاء ومـلء بـإذن الله، فشُـمِّيهم وضميهـم واحتضنيهـم وقبليهـم واحمليهـم وحاوريهـم ورافقيهـم في صحوهـم ونومهـم ولعبهـم وجـددي طفولتـك فيهـم، واسـقي البـذور مـن سـحائب عطفـك وحنانـك ورأفتـك، وتذكّـري مـع كل قطـرةٍ: في كل كبـدٍ رطبـةٍ أجـر.

لفتة تربوية هامة ،،،،

بعـد كل مـا سبق، قـد تتحيـر الأم حيـن يطـرأ عليهـا مواقـف يوميـة ربمـا لـم يتضمنهـا الكتـاب، فكيـف تتصـرف؟

الجـواب: سعيُها الجـاد في طلـب العلـم الشـرعي التربـوي وغيـره، بمـا لا يسَـعُ المسـلمُ أو الأمُ المربيـةُ جهلَـه كربـةِ أسـرة مسـلمة عاملة،وأنصحهـا بمـا قالـه العلامـة النسـفي شـارحًا عبـارة الفـاروق التـي جـاء فيهـا (اعـرف الأمثـال والأشـباه ثـم قِـس الأمـور عنـد ذلـك)، فقـال في شـرحها: «أي: إذا وقعـت واقعـة لا تعـرف جوابهـا، فردهـا إلـى أشـباهها مـن الحـوادث، تعـرف جوابهـا»[1].

(١) مقرر قواعد الفقه الكلية–الجامعة الإسلامية «مشكاة».

على أننا نؤكد، أن هناك جملة من الممنوعات العامة في كل المراحل، لا ينبغي للمربي مطلقًا ارتكابها، كالشتم والدعاء عليهم والسخرية والضرب المحرم والشماتة عند تعرض الطفل للضر بسبب عدم سماع كلامنا، والإفراط في أدوات الترهيب والتعنيف والتأديب، وغير ذلك مما سنؤسس له بشكل مستقل في كتاب «قواعد وأدوات التربية من الوحيين» بإذن الله، لاشتراك جميع المراحل العمرية فيه.

وكلمة على استحياء لأمهات التوأم،،،،

لعل القراء الكرام ظنوا أننا نسينا أن نضم للكتاب مسئولية التوأم؟ واللهِ ما نسيتها، إنما لضيق مقام الكتاب بالفعل اضطررت لتناسيها، ولولا ذلك لأفردت لهؤلاء البطلات مساحةً خاصة، فالكلام عنهن لا يكفيه كتاب واحد، بل مجلدات! حيث كل شيء مما ذكرناه طيلة رحلتنا يصير حياتيًّا مضروبًا في العدد اثنين، وربما ثلاثة وأربعة! بينما الأم الحاضنة لازالت كما هي «واحد»، فلم تصبح «اثنين» بل على العكس! انشطرت إلى نصفين أمام جبال مضاعَفة من المسئوليات الجديدة بنفس القوة والأهمية والإلحاح! وقد كانت الأم العادية أصلا تبلغ ذروة التعب والإنهاك والاستنزاف، فكيف بعدما صارت إنسانًا تتنازعه أذرعٌ أكثر وقد تناقصَتْ فرصُها الشخصية للراحة والتقاط الأنفاس؟ أدرك تماما شعورهن وحجم حالتهن فلا أخفيكم سرًا: أنا لي أخ توأم، خرجنا إلى الدنيا معا في نفس اليوم، فتعرَّفتُ عن كثب على تلك المعاناة من حكايات أمي وصور ذكريات الطفولة، رحمها الله وضاعف لها الأجر كما تضاعفت عليها المهام والأحمال، هي ومن كتب الله عليها أن تكون مثلها، ولا أجد ما يُربت عليهن في تلك «المحنة المنحة» إلا القولة المشهورة: «إن الله يعطي أعظم معاركه لأقوى جنوده»، فهنيئًا لكِ أجر معارك مُضاعَف، تُعَبِّدين فيهما للهِ عدةَ أنفس في آن واحد لا نفسًا واحدة، ولعل الأنسب لكِ من قراءة كتاب إضافي عن تربية التوأم، هو أن تستعيني بخبرات مثيلاتك في الكفاح، ولكن بعد أن تهضمي محتوى كتابنا أولًا بإذن الله.

وهنا نكون قد أنهينا رحلتنا مؤقتًا، ويمكنكم الآن فقط فك حزام الأمان إذ آن أوان إنزال عجلات الطائرة. ونؤكد أن كل ما حَلَّقنا معه بين السحاب كان حفنة صغيرة فقط من كنوز الوحيين، فما بالنا لو فتشنا بمسح شامل في كل كتب الصحاح؟ وما بالنا لو أضفنا إليهم كنوز القرون الثلاثة الأولى كلها والتي زكاها النبي ﷺ، صحابة وخلفاء وتابعين وتابعي تابعين وأئمة؟ والله لولا ضيق الوقت والمقام، وضرورة عرض صورة مبدئية فقط من هذا المنهج، لأجلت خروج الكتاب كما أرجو عامرًا بكل الكنوز، إنما صنعت مؤقتًا عقدًا واحدًا فقط يجمع بعض المتناثر من الجواهر، ولعلنا في طبعات لاحقة نضيف زيادات متلألِئات بإذن الله.

وأعيد نصح القارئ الكريم، بمعاودة قراءة فصل **المقاصد التربوية**، ليقارن ويرى بنفسه كيف كانت أهمية ذلك الفصل لسائر البناء التربوي الذي شيدناه معًا.

وأعيد تجديد الوصية بالدعاء، من قبل ومن بعد، «فمهما زرعنا فلن تنبتَ الحقول ونحصد ثمارها إلا بإذن الله، فصدق الله إذ يقول: ﴿**أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾ [**الواقعة: ٦٤**]؟»(١).

وبعد كل ما كتبناه، استحضرتُ مرة أخرى «**السؤالَ الذي أنجب كتابًا**»، والذي تكلمنا عنه في أولى صفحات هذا الكتاب، ثم لازلتُ أتعجب كيف يَترُكُ البعضُ تلك الجداول الرقراقة ويلهثون وراء الحلول المستوردة؟ وما أراه إلا - مرة أخرى - مصداقًا لقول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما   والماء فوق ظهورها محمول

وكأني الآن في ختام كلماتي أطالع هذا النور الذي خرج مع خروجه ﷺ وليدًا من بطن أمه إلى الدنيا، فانتشر في الآفاق، ولم ينطفيء أو يخفت ضوؤه وبريقه إلى الآن.

تأبى الحُروفُ وتسْتعصي معانيها   حتّى ذكَرْتُك فانْهالتْ قوافيها

---

(١) تلك عبرة قرآنية مستفادة من خاطرة تدبر وجدتها على مواقع التواصل في مواضع عدة ولا أعلم يقينا من قائلها، فجزاه الله خيرا.

(محمّدٌ) قُلْتُ، فاخْضرّت رُبَى لُغتي   وسالَ نَهْرٌ فُراتٌ في بوادِيها

فكيفَ يجْدِبُ حَرْفٌ أنْتَ مُلهِمُهُ   وكيفَ تظمأ روحٌ أنتَ ساقيها[1].

وبهذا الفصل نكون قد انتهينا من روايتِنا الأولى في تربية البذور الأولى لأول ثلاثة أعوام للإنسان بالوحيين، أول جزء من حقبة الكائن الحلزوني، هذا الكائن الذي اجتمع كل من في البيت على السؤال عنه باهتمام بالغ وقلق حقيقي كل دقيقة: (متى سينام؟).

أعان الله الجميع وحفظ نشاط الصغار وحماسهم في الخير والعافية آمين.

على أن يكون لنا إقلاع مع الحقبة الثانية لهذا الكائن: (مرحلة الطفولة الثانية)، في كتاب آخر بإذن الله، فما كان صوابًا ورشدًا وحكمة فمن توفيق اللطيف الكريم ﷻ، وما كان خطئًا فأعوذ بالله من شر ما صنعتُ وأبوء بذنبي عساه يغفره لي بإقراري ويعفو عني، وأسأله ﷻ أن يرضى عمن يهدي إلينا أيًا من أخطائنا فيه، وأن يعصمني من الزلل في دينه، آمين آمين آمين.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ

وصلِّ اللهم على الرحمةِ المهداة، أرحمِ الناسِ بالعيال.

والحمد لله رب العالمين، خَير مُربٍ لهم أجمعين.

كتبته الفقيرة إلى عفو ربها وتوفيقه وقبوله، أمة الله - **أسماء محمد لبيب** | أم حمزة - بدأتُه منذ عام، في تاريخ: ١٨ جمادى الأول ١٤٤٣هـ| ٢٢ ديسمبر ٢٠٢١م وأتممته في تاريخ: ٣ جمادى الآخر ١٤٤٤هـ| ٢٧ ديسمبر ٢٠٢٢م

(١) دكتور عباس الجنابي في قصيدته التي بعنوان «إمام الهدى».



كلام الله: القرآن الكريم.

تفسير كلام الله:

* تفسير الجزائري – أيسر التفاسير – للشيخ أبي بكر الجزائري.
* تفسير السعدي – تيسير الكريم الرحمن – للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي.
* المختصر في تفسير القرآن الكريم – جماعة من علماء التفسير.

كلام رسول الله:

السنة بفروعها – كتب السنة الستة:

* صحيح الإمام البخاري.
* صحيح الإمام مسلم.
* سنن الترمذي - بتحقيق الألباني.
* سنن ابن ماجه - بتحقيق الألباني.
* سنن أبي داوود - بتحقيق الألباني.
* سنن النسائي - بتحقيق الألباني.
* جامع الصحيحين – وليد بن عبد الرحمن الحمدان.

مراجع شروح الحديث:

* فتح الباري شرح صحيح البخاري – الحافظ بن حجر العسقلاني.
* موسوعة الدرر السَّنية الحديثية – المشرف العام د/ علوي بن عبد القادر السقاف.
* بالإضافة لمراجع متفرقة من مواقع الفتاوى ومرئياتها (سيأتي بيانها).

مراجع الفقه:

* الفقه الإسلامي وأدلته – للدكتور وهبة الزحيلي.

* فقه الأسرة – مقرر بالجامعة الإسلامية بأمريكا الشمالية (مشكاة) ورئيسها د/ صلاح الصاوي.

* قواعد الفقه الكلية – مقرر بالجامعة الإسلامية بأمريكا الشمالية (مشكاة) ورئيسها د/ صلاح الصاوي.

* أصول الفقه (١) - مقرر بالجامعة الإسلامية بأمريكا الشمالية (مشكاة) ورئيسها د/ صلاح الصاوي.

* أصول الفقه – لد. محمد سليمان عبد الله الأشقر.

* الموافقات - للحافظ إبراهيم بن موسى الشاطبي.

* الاعتصام - للحافظ إبراهيم بن موسى الشاطبي.

* الشاطبي ومقاصد الشريعة – للد/ حمّادي العبيدي.

* الفوائد في اختصار المقاصد - للعز بن عبد السلام.

* شفاء الغليل – أبو حامد الغزالي.

مراجع التربية:

* مدخل الأدلة المقاصدية التربوية حسب المراحل العمرية - سلسلة ضخمة تأليف كوكبة من العلماء والمختصين.

* دليل المقاصد التربوية العامة – سلسلة ضخمة تأليف كوكبة من العلماء والمختصين.

* دليل المقاصد التربوية | لمرحلة الجنينية - سلسلة ضخمة تأليف كوكبة من العلماء والمختصين.

* دليل المقاصد التربوية | لمرحلة الطفولة - سلسلة ضخمة تأليف كوكبة من العلماء والمختصين.

* تحفة المودود بأحكام المولود – ابن قيم الجوزية.

* نحو تفعيل مقاصد الشريعة- لجمال الدين عطية.

فروع شرعية أخرى:

* التبيان في أقسام القرآن – ابن القيم.

* إحياء علوم الدين – أبي حامد الغزالي.

* بحث (البلاء موكل بالمنطق) | دراسة عقدية - للدكتورة هيفاء الرشيد.

* إغاثة اللهفان – ابن القيم.

المعاجم:

* الجمهرة | الموسوعة الشاملة لمفردات المحتوى الإسلامي - معجم المصطلحات الشرعية.

* المعاني - (معجم معاني متعدد اللغات).

وثائقيات مرئية:

* سلسلة رحلة اليقين – د/ إياد قنيبي حلقة ١١.

* اضطرابات السلوك -حلقة د/ يوسف مسلم ود/ إياد قُنيبي.

* محاضرة الطفولة المبكرة خصائص واحتياجات | تقديم د/ مأمون مبيض.

* حلقات متفرقة للشيوخ : الفوزان وابن عثيمين - حلقات نور على الدرب - وابن باز وعثمان الخميس.

مواقع علمية (علوم دنيوية):

* الباحثون المسلمون.

* مواقع طبية وعلمية متفرقة معنية بالطب العام وطب الأطفال، مثل NHS /Pubmed / Nature، وغيرها.

* الموقع الوثائقي للجزيرة.

مواقع فتاوى وشروح الأحاديث وأبواب العقيدة وسائر فروع الشريعة:

* الإسلام سؤال وجواب – إشراف عام الشيخ صالح المنجد.

* إسلام ويب – إشراف وزارة الشؤون الإسلامية القطرية.

* الموقع الرسمي للشيخ صالح المنجد.

* الموقع الرسمي للشيخ خالد السبت.

* الموقع الرسمي للشيخ ابن باز.

* الموقع الرسمي للشيخ ابن عثيمين.

* الموقع الرسمي لدار الإفتاء المصرية.

* موسوعات الدرر السَّنية الحديثية المختلفة (عقيدة وأخلاق وفقه إلخ) – المشرف العام د/ علوي السقاف.

* موقع الكلم الطيب.

* موقع صيد الفوائد.

* موقع أهل الحديث والأثر.

* شبكة الألوكة.

* موقع إسلام أونلاين.

* موقع موسوعة الحديث.

* موقع مداد.

الفهرس

إنتاج:

سِدْرَة
Publishing House

تصميم الكتاب والغلاف:
نهال صلاح الدين

للتواصل:

sedrapublishing.com  سِدْرَة  سِدْرَة  01018129316 

التربية بالوَحيَين للمراحل العُمرية

تمت مراجعة وتوثيق هذا الكتاب بالكامل من قِبَل:

- **دكتور شوقي عبد الصادق:** دكتوراه في تفسير القرآن وعلومه - جامعة الأزهر، بالإضافة إلى عمله في مجال الإصلاح الأسري والتربوي.
- **دكتور خالد نور الحداد:** زوجي الكريم،أستاذ مساعد في كلية طب الأسنان بجامعة عين شمس وجامعة القصيم، وحاصل على الدكتوراه في علوم أحياء الفم.
- **أستاذة تسنيم راجح:** بكالوريوس تغذية وحميات من جامعة (لاسال) في بنسلفانيا، وماجستير في التغذية الطبية العلاجية من جامعة (سانت لويس) في بنسلفانيا، وخبرة في البحث العلمي في مجال تغذية النساء والأطفال ولها إسهامات قيّمة في مجال التربية والأمومة.
- **دكتور أمجد مصطفى:** طبيب باطني، وملتحق بماجستير الطب الباطني جامعة عين شمس.
- **دكتورة إيمان عبد الرحمن محمود المهدي:** بكالوريوس الطب والجراحة جامعة الإسكندرية، وماجستير طب الأطفال وحديثي الولادة جامعة الأزهر، وأخصائي طب الأطفال وحديثي الولادة.
- **دكتورة داليا عزت:** بكالوريوس الطب والجراحة جامعة عين شمس، ملتحقة بماجستير "تخاطب" جامعة عين شمس، ومتدربة في وحدة التخاطب بمستشفيات الدمرداش الجامعي.
- **بجانب مراجعات جزئية لجملة من أهل العلم** في التخصصات المختلفة، لمواضع طبية وشرعية بعينها؛ تجدون تفاصيلها داخل الكتاب.

أسماء محمد لبيب

أمة الله عفا الله عنها


978-377-6850-29-3

بذرة Publishing House